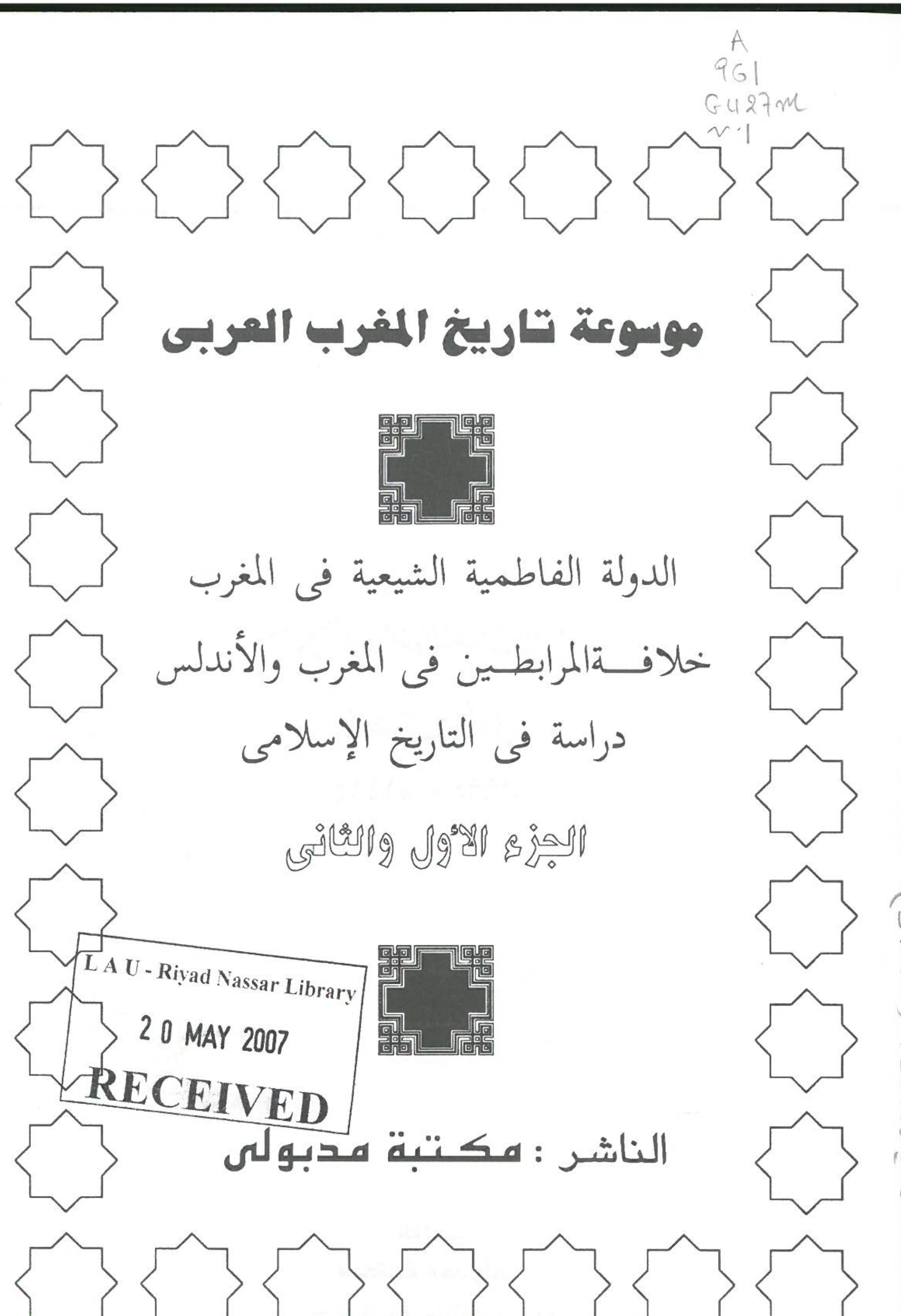


مكتبة مدبولي
القاهرة





موسوعة تاريخ المغرب العربى

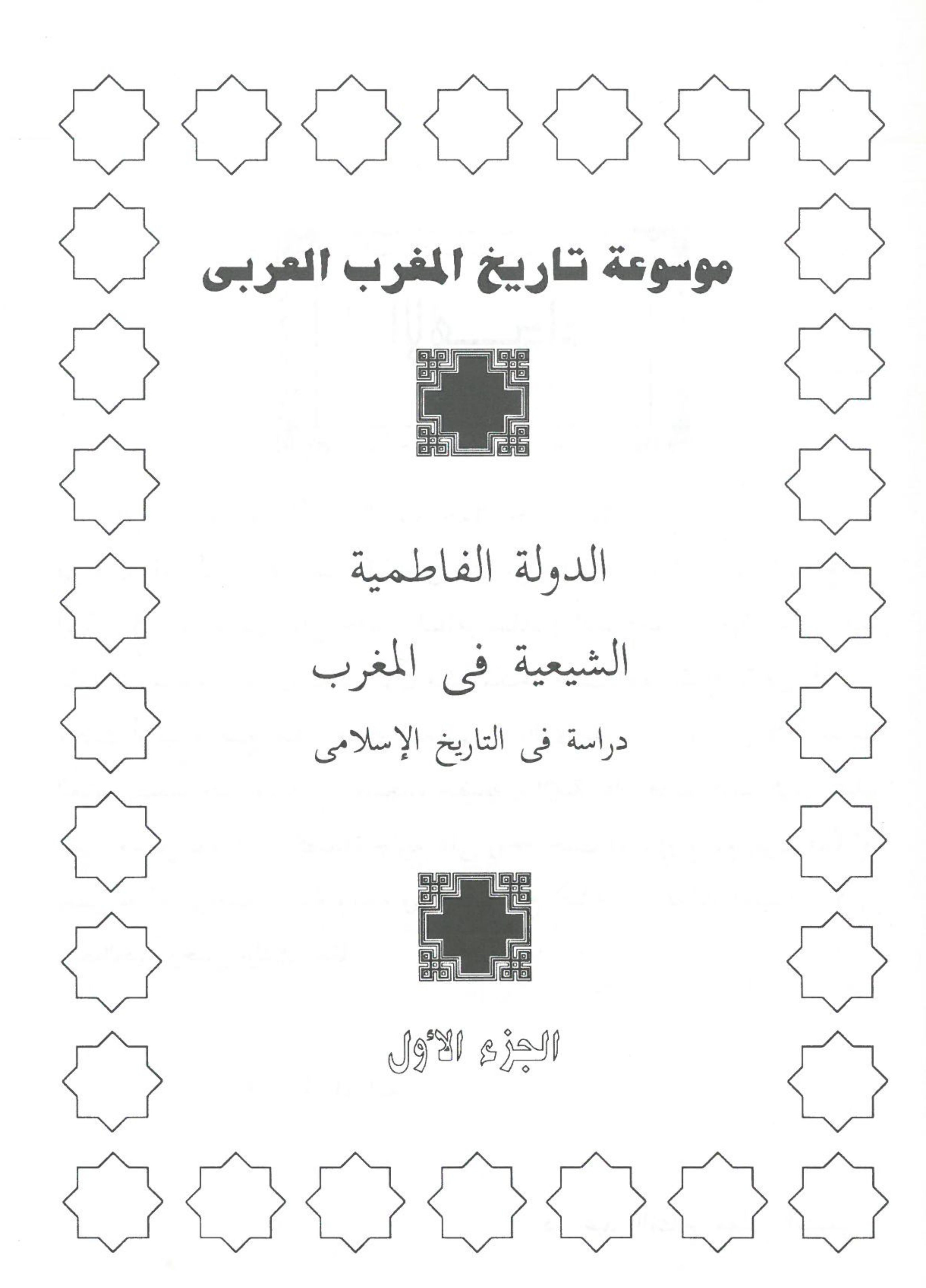
الدولة الفاطمية الشيعية فى المغرب

خلافـــةالمرابطـين فى المغرب والأندلس

دراسة فى التاريخ الإسلامى

الجزء الأول والثانى

الناشر : مكـتبة مدبولى



موسوعة تاريخ المغرب العربى

الدولة الفاطمية

الشيعية فى المغرب

دراسة فى التاريخ الإسلامى

الجزء الأول

الطبعة الأولى

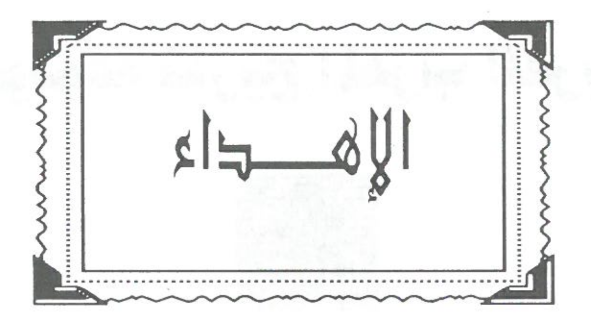
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

الناشر

مكتبة مدبولى

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٧٥٦٤٢١



إلى روح شقيقى الأصغر الشهيد جمال حسنين مقلد الذى صعدت إلى بارئها فى بيت الله الحرام ليلة الإثنينى الخامس عشر من شهر رمضان ١٤١١هـ (التاسع من ابريل ١٩٩٠م) وصلى على جثمانه الطاهر بمقام إبراهيم بجوار الكعبة المشرفة. قبلة الإسلام والمسلمين ووری الجسد ثرى مكة المكرمة حيث أطهر بقاع الأرض وأقدسها وحيث أو بيت وضع للناس وهدى للعالمين .. والذى نقيم له مجمعاً إسلامياً ببلدته الغنايم بصعيد مصر ويشلم : (مسجد، حضانة إسلامية، دار تحفيظ قرآن كريم، عيادة طبية، مشغل للفتيات) كصدقة جارية على روحه حيث لم يتزوج لوم يترك عقباً له، يغفر الله له ويرحمه رحمة واسعة ويدخله فسيح جناته مع رفقائه الشهداء والأبرار والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

أقدم هذه الدراسة ..

د. عبد الفتاح مقلد الغنيمى

المحتويات

التـمــهـيـد

كانت تلك الدراسة تحمل عنوان « دور مصر فى نشر الإسلام فى بلاد المغرب خلال القرن الأول الهجرى » ، لكن آثرت أن يكون هذا الموضوع بتلك الصورة وهى «المغرب العربى عبر القرن الأول الهجرى» وذلك أن الذى أغنانى عن هذا أن هناك دراسة سابقة لى عن «دور مصر الحضارى فى أفريقية» بها فصل مغاير عن تلك الدراسة وهو عن «دور مصر السياسى والإقتصادى والثقافى فى بلاد المغرب» .

وللحقيقة التاريخية الثابتة أن مصر كانت دائما وأبد الدهر مع كل الأخوة العرب والمسلمين، فمن خلال تلك الدراسة يتضح دور مصر فى كل مراحل الغزو الإسلامى ٢٢هـ/٦٤٣م - ١٢٥هـ/٧٤٣م.

ألم تكن مصر هى التى أعطت رجالها وإقتصادها ومؤنها وزادها وعتادها وأبناءها فى سبيل بدء الغزو للمغرب، لقد كانت مصر فى كل صورة من صور التحرك العربى الإسلامى على أرض المغرب، أعطت أموالاً ورجالاً وأسطولا ومهرة وفنيين وشاركت برسم سياسة الغزو عن طريق الخبراء والأدلاء المصريين الذين كانوا قد خبروا الدروب والصحارى، كما أن إسطولها ظل يشارك فى حماية الغزو بحراً من عام ٢٢هـ إلى ٨٩هـ .ثم كانت هناك ألف أسرة مصرية من خيرة الفنيين فى الملاحة وبناء السفن هم نواة القوة البحرية المغربية حيث كان قد طلب والى الخليفة عبد الملك بن مروان حسان بن النعمان الغسانى بإرسال هؤلاء الخبراء المصريين لبناء قاعدة بحرية مغربية، كما أن مصر هى التى نشرت الإسلام والعروبة فى بلاد المغرب، ومدرسة الفسطاط المصرية هى التى غذت المغرب بكل العلوم الإسلامية العربية، كما أن أبناء المغرب وفدوا الى مدرسة الفسطاط ومدارس مصر المختلفة للتزود بالزاد العلمى الإسلامى المصرى، لقد وفد عالما المغرب وقمة المذهب المالكى (أسد بن الفرات،الأسدية) وسحنون بن سعيد (المدونة) إلى عالم المالكية المصرى (على بن قاسم) لدراسة المذهب المالكى.

لقد أعطت مصر وأجادت فى العطاء حتى صار المغرب عربياً إسلامياً وتكونت الكتلة العربية الإسلامية الثانية على أرض المغرب لتشارك الأم الكبرى مصر فى حركة المد الإسلامى والدور العربى فى أرجاء القارة الأفريقية.

هكذا مصر عبر التاريخ والأزمان عطاء بلا حدود وبذلا بسخاء وأموالا ورجالا وخبراء وعلما وفناً وهكذا قدر لها أن تكون مصر فهى التى صانت وحفظت للإسلام قوته وللعروبة أصالتها، إن كل حرف من حروف تلك الدراسة ينطق بعطاء مصر لبلاد المغرب.

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

مقــدمــة

الحمد لله رب العالمين الهادى لصراطه المستقيم، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله النبى الخاتم وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه الى يوم الدين.

أما بعد .. .. ..

فتلك دراسة عن المغرب العربى خلال الفترة (٢٢–١٢٥هـ / ٦٤٣–٧٤٣م)، وهى الفترة التى بدأت فيها أنوار الإسلام تأخذ طريقها إلى ذلك البلد الإسلامى بعد أن تم انتشار الإسلام أو فتح مصر مباشرة، وتلك الدراسة التى نقدمها للقارئ العربى والمسلم ولكل الذين يهتمون بالتاريخ الإسلامى عن القرن الأول الهجرى والنصف الأول من القرن الثانى، تلك الحقبة التاريخية التى وصل فيها المد الإسلامى أبعاداً واسعة فى فترة زمنية قصيرة حتى أنه يمكن القول أن الإسلام استطاع أن يكون قارة إسلامية شملت أجزاء متجاورة من آسيا وأفريقيا وأوربا. وعلى هذا تكون تلك الدراسة عن جزء عزيز من عالمنا العربى والإسلامى والذى لعب دوراً فى إثراء الحركة العربية الإسلامية حتى وقع على تلك الكتلة من القارة الإسلامية دور كبير فى نشر الإسلام والعروبة فى أرجاء واسعة من القارة الإفريقية لا سيما تلك الأقاليم التى تقع إلى الجنوب من المغرب العربى وكذلك فى أوربا حيث الأندلس وما جاورها من أقاليم.

وقد قسمت تلك الدراسة إلى ستة أبواب تناولت فى كل باب منها دراسة متصلة الحلقات بحيث يكون كل باب مترابطاً مع الأبواب الأخرى وذلك لتكامل بناء تلك الدراسة فتناولت بالدراسة والبحث فى الباب الأول : المغرب العربى قبل الغزو الإسلامى، فتحدثت فيه عن موقع المغرب جغرافياً والمكونات الطبيعية لذلك الإقليم والعوامل المناخية والجغرافية فى تكوين تلك البيئة ثم الفصل الثانى عن التركيب السكانى للمغرب وما هى الشعوب التى تسكن تلك الديار وما هو الحال السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى كان عليه المغرب قبل الغزو الإسلامى.

ثم تحدثت فى **الباب الثانى** عن محاولات الغزو الإسلامى الأول بدءاً من حملات عمرو بن العاص عام ٢٣هـ، ٢٥هـ، ثم غزوة عبد الله بن سعد بن أبى سرج، معاوية بن جديج، ودور معاوية بن أبى سفيان فى فتح المغرب، ودور عقبة بن نافع والحملات المنتظمة للمغرب وتأسيس القيروان وولاية أبى المهاجر بن دينار الأنصارى، وولاية عقبة الثانية.

ثم كان **الباب الثالث** عن : الغزو الإسلامى والاستقرار النهائى بالمغرب فكانت بدايتها بغزوة قيس بن زهير البلوى، ثم غزوة حسان بن النعمان الغسانى والاستقرار النهائى فى أفريقيا، ثم دور حسان بن النعمان الغسانى فى إنشاء الأسطول العربى المغربى وعن أعماله الإدارية وإنشاء ميناء تونس، ثم عن غزوات موسى بن نصير والغزو الأخير والاستقرار والتوسع فى كل أنحاء المغرب، ثم نهاية موسى بن نصير.

وكان الباب الرابع : عن ولاة المغرب حتى ظهور الدول المستقلة، ودور عرب المغرب والاندماج بين العرب والبربر ثم ولاة المغرب بعد عزل موسى **بن نصير** ودور الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز فى نشر الإسلام بين البربر وكيف كانت نهاية هشام بن عبد الملك عام ١٢٥هـ بداية ظهور الفتن والقلاقل والثورات فى المغرب، وبوادر ظهور الإمارات المستقلة ودور عبد الرحمن بن حبيب الفهرى (١٢٧ - ١٣٢هـ) فى إنشاء ولاية عربية فى أفريقيا ثم ثورة الخوارج الأباضية والسيطرة على القيروان والفتنة الكبرى فى المغرب ثم مواجهة الثورة من قبل الدولة الأموية، ثم المغرب فى ظل الخلافة العباسية. ودور الخليفة أبو جعفر المنصور فى إنهاء ثورة الخوارج والمحافظة على السنة والجماعة ودور أسرة المهلبى فى حكم المغرب. ثم انتهى ذلك الباب عند هذا الحد التاريخى حيث تجاوزنا فترة ١٢٥ هـ لبعد تاريخى آخر تكملة للبحث حيث أنه كان لابد من الإشارة إلى ذلك.

ثم كان **الباب الخامس :** عن الإسلام والعروبة فى المغرب. وكيف انتشر

الإسلام وما هى العوامل التى ساعدت على انتشاره وكيف انتشر الإسلام وما هى العوامل التى ساعدت على انتشاره وكيف أدت كل هذه العوامل إلى صبغ البلاد بالصبغة الإسلامية ومدى انتشار اللغة العربية على نطاق واسع وكيف أن المغرب العربى كان أكثر البلاد العربية الإسلامية استجابة للإسلام واعتزازاً بالعروبة والإسلام دون غيره من الأقطار التى فتحت رغم صعوبات الغزو العربى، وما هو دور القبائل العربية المهاجرة والفرق الإسلامية المختلفة (الخوارج - الشيعة - المعتزلة) فى نشر الإسلام والعروبة فى أنحاء المغرب - ودور ولاة البلاد فى نشر الإسلام ودور أبناء المغرب أنفسهم فى طبع بلادهم بالطابع العربى الإسلامى.

ثم كان **الباب السادس** والأخير فى تلك الدراسة عن دور القيروان فى إثراء الحركة الإسلامية، وكيف كان إنشاء تلك المدينة التى تعتبر رابعة الثلاث مكة المكرمة، المدينة المنورة، بيت المقدس كما قال عنها الدباغ فى إثراء الحركة الإسلامية العربية وفى الحفاظ على الوجود العربى الإسلامى فى المغرب وكيف ساعدت فى اتساع دائرة المد الإسلامى إلى المغرب الأوسط والمغرب الأقصى والأندلس وغرب أفريقيا، ثم كيف لعب مسجد عقبة بن نافع الفهرى ودار الحكمة باعتبارها جامعة يؤمها الطلاب من أنحاء عديدة للدراسة والبحث ثم العودة إلى بلادهم حاملين راية الإسلام وعلوم الشريعة والفقه واللغة العربية لنشرها فى بلادهم ثم كيف حافظت على طابع الثقافة العربية الإسلامية المغربية وكيف ساعدت على ظهور خصاص مغربية معينة وكيف ساعدت على انتشار المذهب المالكى ودعمته وصانته وكيف أصبح بفضل القيروان هو المذهب السائد فى كل أنحاء المغرب.

ثم كانت خاتمة ذلك البحث وهى خلاصة ما توصلت إليه من نتائج خلال تلك الدراسة وفى النهاية كانت قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية التى عولت عليها اعتماداً حتى كانت تلك الدراسة على هذه الصورة التى نضعها بين يدى

الأخوة القراء والطلاب والأخوة الأكاديميين الذين يهتمون بدراسة التاريخ الإسلامى والمغرب العربى والتاريخ الإفريقى بصفة خاصة.

وحقيقة الأمر فإنى أرجو أن أكون قد وقفت بعون من الله وتأييده فى إضافة دراسة جديدة عن المغرب العربى فى حقبة تاريخية قصيرة (٢٢هـ/٦٤٣هـ – ١٢٥هـ/٧٤٣م) ولا أقول سدت فراغاً ذلك لأن هناك العديد من الدراسات فى المغرب الغربى، لكن كل دراسة تتناول الموضوع من جانب مغاير عن الجانب الآخر. وهذا ما قصدت إليه فى تلك الدراسة، التى أرجو من الله العلى القدير أن تتبعها دراسات أخرى عن المغرب العربى ذلك لأن دراسة تاريخ المغرب خلال الخمسة قرون الهجرية الأولى، تحتاج إلى العديد من المؤلفات، ومن هنا كانت تلك الدراسة مقدمة بإذن الله فى تاريخ المغرب، والتى هى عبارة عن الجزء الأول من موسوعة المغرب العربى، وتليها خمسة أجزاء أخرى باعتبار أن هذه الموسوعة تضم أجزاءاً ستة.

ونرجو الله العلى القدير أن يلهمنا التوفيق وأن يلهمنا الهدى والسداد وأن يكون ذلك العمل المتواضع خالصاً لوجهه الكريم.

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

الباب الأول
المغرب قبل الغزو الإسلامى

الفصل الأول

المغرب جغرافياً

يدل اسم المغرب على مكان ما بإضافته إلى جهة الشرق، وعلى هذا .. فإنه تظهر صعوبة فى تحديد المغرب جغرافياً وأى الأقاليم يضمها المغرب، لكن اسم المغرب كلفظ ومفهوم جغرافى وسياسى قد اكتسب مفهوماً سياسياً خلال فترة التاريخ الإسلامى ومنذ الفتح الإسلامى ، والمصادر تعطى هذا المفهوم الجغرافى والسياسى تعريفات مختلفة ومتناقضة، فقد أرجع ابن خلدون هذا الاختلاف إلى عرفين مختلفين هما عرف أهل الجغرافية، والعرف الجارى فى فترة زمنية ما [١]. ومن هنا فإذا نظر الدارس والباحث فى المعلومات التى تضمها المصادر وكتب الجغرافيا الإسلامية والعربية القديمة يستطيع أن يدرك أن العديد من هؤلاء الجغرافيين قد ارتكزوا على عدة أبعاد فى محاولاتهم لتحديد وتعريف لفظ المغرب وهى تلك البلاد المترامية الأطراف.

فمن ذلك نجد الجغرافى الإسلامى ابن حوقل قد اختار الحواجز الطبيعية أساساً لتعريفه لبلاد المغرب فقد ذهب إلى أن النيل «نهر النيل» هو الحد بين بلاد الشرق والمغرب [٢] فى حين نجد أن ابن فضل الله العمرى يذكر فى مخطوطة مسالك الأبصار أن الأرض التى توجد فى شرق بحر الاسكندرية وخليج القسطنطينية .. فإن تلك الأراضى تدخل فى حساب بلاد الشرق وعليه .. فمصر هى أول بلاد المغرب والشام أول بلاد الشرق وبذلك فقد أدخل ابن فضل الله العمرى مصر فى حوزة بلاد

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٦، ص٩٨.
(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٦٤.

المغرب[٣]. كما أن ابن خلون قد جعل الحد الذى تقف عنده بلاد المشرق هو بحر القلزم. ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء الجغرافيين والعلماء المسلمين قد اختاروا البعد الطبيعى ليكون هو الحد الفاصل فى تحديد بلاد المشرق والمغرب، إلا أن هناك بعد الجغرافين الآخرين قد اختاروا التركيب البشرى هو البعد الذى يعتمد عليه الإطلاق اللفظى على بلاد المغرب، ومن هنا فإن المغرب عند هذا النوع من الجغرافيين أن المغرب ما كان فى القديم موطنًا لديار البربر ومقرا لهم ووفق هذه النظرة فبلاد المغرب تمتد من طرابلس ليبيا شرقًا إلى البحر المحيط غربًا وتخرج من هذه الدائرة بلاد الأندلس.

وهناك فريق ثالث قد استطاع أن يجعل من الأوضاع الإدارية والظروف السياسية بعداً آخر بل محوراً من محاور تعريفه لبلاد المغرب. فنجد الاصطخرى والذى كتب فى وقت مبكر قد بلور فى كتاباته استقلال الأندلس عن الخلافة العباسية وأصبح (المغرب العربى) الشمال الإفريقى موطن نزاع بين أمراء الأمويين الأندلسيين والفاطميين فى أفريقيا، فنجده يقسم المغرب إلى مغربين، مغرب أفريقى ومغرب أندلسى [٤].

ومن ثم .. فإننا نرى أيضاً أنه خلال القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى أن بلاد المغرب ظلت تمثل منطقة نزاع بين قوتين أساسيتين هما الدولة العباسية والأموية. لذا .. فإننا نجد صدى ذلك الصراع أو النزاع يذكره البكرى فى كتابه «المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب» حيث يسمى بلاد المغرب باسم أفريقية وأنها امتدت شرقًا من طرابلس لكى تضم برقه لكى تكون الحد الشرقى لهذه البلاد والتى تمتد إلى طنجة غربًا وكذلك تمتد من البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى الرمال المتصلة بأرض السودان جنوبًا [٥].

ومن هنا فإنه مهما يكن من أثر الظروف السياسية فى تعريف لفظ المغرب بهذه

---

(٣) العمرى (ابن فضل الله) : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ورقة ١٠٣.
(٤) الاصطخرى : المسالك والممالك، ص ٢٣.
(٥) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، ص ٢١.

التعريفات السابقة التى ارتكزت إلى مرتكزات طبيعية أو جغرافية أو نظرة عرقية سلالية جنسية .. فإن كل هذه التعريفات لم تكن بعيدة كل البعد عن الأوضاع السياسية التى سادت فى عصر أصحاب التعريفات من المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين. ومن ذلك .. فإن الوضع السياسى قد حدد هذه الكتابات فمن ذلك نجد ابن حوقل قد كتب فى وقت لم تعد فيه للخلافة العباسية فى بغداد أدنى سلطة على مصر وما جاورها من بلاد تقع إلى الغرب منها حيث كان العالم الإسلامى فى وقت تأليف كتابه «صورة الأرض» قد انقسم إلى عالمين اسلاميين، عالم مشرقى وعالم مغربى، وكانت مصر تمثل الحد الفاصل بينهما، كما أن ابن سعيد المغربى قد صنف كتابه «بلاد المشرق» فى وقت بلغت فيه المنافرة بين المشارقة والمغاربة ذروتها فكأنه أراد أن يقوى بلاد المغرب فما كان عليه إلا أن يضيف مصر إلى بلاد المغرب وما تمثله من ثقل سياسى وحضارى.

وهذه الخلفية السياسية فى تعريف المغرب ربما عللت بعدم إخراج بعضهم الأندلس عن تعريفه للمغرب، ومن هنا فلم يظهر تقسيم المغرب إلى أقاليم ثلاثة إلا ابتداء من القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى مع الاختلاف فى الحدود الفاصلة بينهما [٦].

وعلى هذا فإن لفظ بلاد المغرب مصطلح يطلق على كل البلاد الإسلامية الممتدة من حدود مصر الغربية حتى ساحل المحيط الأطلسى وكما ذكرنا فإن المؤرخين يختلفون فى وضع مصر بين شرق العالم الإسلامى أو غربه فبعضهم يضعها فى بلاد المشرق وهناك عدد قليل منهم (ابن سعيد المغربى) يعتبر مصر من بلاد المغرب، ذلك لأن هناك خلافًا حول حدود مصر الغربية. وإن كان اصطلاح المغرب يطلق عادة على كل الأراضى الواسعة والبعيدة التى تقع إلى الغرب من مصر حتى المحيط الأطلسى بحيث تنتشر بمحاذاة البحر المتوسط فى الشمال وتتوغل حتى عمق الصحراء الكبرى إلى

---

(٦) ياقوت الحموى : معجم البلدان، ص٥٨٣.

الجنوب، ومن الواضح أن هذه الكلمة كان لها مدلول جغرافى محض يقصد به تلك البلاد الواقعة إلى الغرب من الدولة الإسلامية الأولى، غير أن تحديدها فى إطار هذا المفهوم كان عرضة للاختلاف فمرة يتناول اسم «المغرب» كل الأقاليم الغربية من الشمال الأفريقى بما فيها ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأسماء الحالية [٧]، ونجد عند بعض المؤرخين والجغرافيين أحياناً أخرى يستثنى من هذا التقسيم ليبيا أو برقة (الاسم القديم) ويقتصر على الأقاليم الثلاثة تونس والجزائر والمغرب (مراكش) هذا إذا لم تتوزع ليبيا سياسياً فى بعض الأحيان بين مصر حيث تكون برقة مضافة لها وتونس حيث تكون طرابلس مضافة لها. وعلى هذا كانت برقة تتجه إدارياً إلى مصر بينما تتجه طرابلس إدارياً إلى تونس [٨].

ولقد كانت برقة وهى المعروفة حالياً باسم بنغازى تدخل داخل حدود مصر السياسية والإدارية وكذلك الحال فى العصور القديمة وخاصة فى العصر البيزنطى الذى سبق العصر الإسلامى وفى أحيان كثيرة نجد أن أقليم برقة يختفى ذكره أحقاباً متطاولة بعد الفتح الإسلامى لأن أحداً لم يؤرخ له فى حين أن تاريخ إقليم طرابلس معروف فى جملته لأنه يدخل ضمن أقليم أفريقية (تونس).

وإذا كانت هذه الكلمة قد أصبحت أكثر تحديداً الآن باشتمالها على تونس والجزائر والمغرب أو ما يعرف باسم المغرب العربى الكبير؛ فإن مدلولها التاريخى منذ القرن السابع الميلادى كان يتناول حسب ما روته مصادر المؤرخين والجغرافيين القدامى كل الأقاليم الواقعة بين مصر فى الشرق والمحيط الأطلسى فى الغرب [٩].

وعلى هذا فإنه يمكن القول أن مفهوم المغرب سياسياً يختلف من عصر إلى آخر .. فمغرب القرن الأول الهجرى يختلف عن مغرب القرن السادس الهجرى مثلاً حيث بسط الموحدون عليه سلطتهم السياسية وعلى الأندلس

(٧) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربى، ص ٣.
(٨) عبد الحميد العبادى المجمل فى تاريخ الأندلس، ص ٢٠.
(٩) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٦٤.

وما اصطلح على تسميته بالمغرب الأقصى والمغربين الأوسط والأدنى، نعم أن المرابطين لم يسيطروا على بلاد بنى حماد أو بنى باديس الذين كانت مناطقهم امتدادا طبيعيا لمناطق المرابطين على اعتبار أن قبيلة صنهاجة عصبة واحدة تجمعهم كلهم ولكن رابطة الصنهاجية دفعتهم جميعا للتعاون أحيانا ولكن كانت تتوتر العلاقات فيما بينهم [١٠].

وعلى هذا فانه انطلاقا من التعريف للبلاد المتفق على تسميتها بالمغرب نهج فريق من المؤرخين على تقسيمها إلى أربعة أقسام وربما كان هذا التقسيم له بعد ادارى اقتضته الظروف السياسية والعسكرية فى ذلك الوقت وهى أقليم طرابلس. ثم الأدنى أو أفريقية (تونس حاليا وبعض المناطق الشرقية من الجزائر) وكانت القيروان العاصمة السياسية لهذا الأقليم أيام الأمويين. ثم التغيرات فى النفوذ السياسى فأصبحت المهدية فى أيام الفاطميين هى العاصمة السياسية. ثم أصبحت تونس فى أيام الحفصيين، ثم ثالثا المغرب الأوسط وكانت تاهرت أشهر مدنه حيث اتخذها الخوارج الاباضيون عاصمة لدولتهم الرسمية، ثم كانت تلمسان عاصمة بنى زيان، وأخيرا الجزائر عاصمة بنى مزغنة والمغرب الأوسط يعنى حاليا الجزائر. ثم القسم الرابع وهو المغرب الأقصى ويعنى حاليا المملكة المغربية وهو الأقليم الثانى فى أقصى الولاية الأفريقية الذى يطل فى موقعه الفريد على البحر الأبيض المتوسط شمالا والمحيط الأطلسى غربا، وقد كانت بلاد المغرب الأقصى أرضا خصبة أكثر من اى أقليم آخر للأحداث السياسية المهمة اثناء وبعد حركة التوسع العربية فى هذه المنطقة ومن أشهر مدنه فاس عاصمة الأدارسة ومراكش عاصمة المرابطين والموحدين والسعديين، وأخيرا الرباط العاصمة الحالية [١١].

وإذا كانت المصادر والمعلومات العامة تعطى وصفا مضطربا عن الحدود السياسية

(١٠) الفتح بن خاقان: قلائد القعيان فى محاسن الأعيان، ص١١٩.
(١١) إبراهيم بيضون: الدول العربية فى أسبانيا، ص١٤.

لهذه الأقسام ولدول المغرب هذه، وتقول أنه إذا كان الحد الغربى واضحا لأن المحيط الاطلنطى يشكل حاجزا طبيعيا لهذه التقسيمات، إلا أن الحدود الشرقية والشمالية والجنوبية تحتاج إلى توضيح أكثر، وأن كان الحد الشمالى والغربى هما الأكثر تحديدا من الحدود الشرقية والجنوبية، وأن كانت العديد من المصادر قد جعلت أقليم طرابلس وجبل نفوسة يمثلان الحدود الشرقية لبلاد المغرب فى بعض الفترات التاريخية كذلك فإننا نجد ابن فضل الله العمرى فى كتابه مسالك الأبصار يقول أن الصحراء هى الحدود الفاصلة بين أفريقيا وبلاد جنوب الصحراء وأن كانت مدينة ودان قد وردت ضمن سلطنة دولة كانم[١٢] ثم نجد العمرى يعود ويرسم الحدود بدقة حين يقول أن حد أفريقية الجنوبى هو آخر بلاد الجزيرة والأرض السواحة[١٣]. وهو بذلك يعنى منطقة الشطوط الصحراوية وهذا القول الأخرين يتفق وأقصى ما بلغه توسع صنهاجى فى أفريقية والموحدين لم يرد أنهم تجاوزوا جبل نفوسة جنوبا ولا يعرف أنهم دخلوا وركلان «ورجلان» المركز التجارى العام للتجارة مع السودان ويبدو أن قفصة كانت النهاية الجنوبية القصوى فى المنطقة الشرقية وتضطرب المصادر عن الحدود الجنوبية فى المنطقة الغربية أضطراباً شديداً لأن الصحراء كانت مهد المرابطين ومنها انطلقوا فاتحين للمغرب الأقصى[١٤] ولا يضعف القول باستقلال الصحراء عن مرابطى مراكش ما يرويه ابن عذارى عن تنظيم الجيش المرابطى لانقاذ بلنسية فى عام ٥٤٨٧ هـ/١٠٩٤م وأنه كان يتكون من العساكر المغربية والصحراوية والأندلسية فقد يعنى تعبير العساكر الصحراوية المرابطين الذين فتحوا المغرب وتعبير العساكر المغربية قد يعنى بها القبائل البربرية فى المغرب الأقصى التى لا تكون خاضعة للموحدين ومما يستوقف النظر تلك الاشارة التى اشار اليها صاحب كتاب الاستبصار بقوله «نحن الأن فى شهر رجب عام

(١٢) انظر زين العابدين السراج: دولة كانم الأسلامية رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، ١٩٧٥.
(١٣) العمرى: مسالك الأنصار ورقة٢٩.
(١٤) عز الدين موسى: النشاط الأقتصادى فى المغرب الأسلامى ص٤٢.

٥٨٧هـ/١١٩١م وكلمة التوحيد والهداية فى بلاد الصحراء متصلة من طرابلس إلى مدينة غانة وكوكو» لأن التوحيد عند الموحدين. ذو مفهوم سياسى يعنى الخضوع للدولة الموحدية، ولكن غياب أى اشارات آخرى وعدم ذكر الصحراء فى تقسيمات الموحدين الأدارية يدعو إلى الظن بأن كلمة التوحيد هنا لا تعنى الأشارة للأسلام لأن الأشارة الوحيدة التى يفهم منها اتصال الموحدين بالصحراء نقول بأن اناسا كثيرة فى جيش غانية وعمره الصحراء اشتركت مع المنصور فى غزوة شلب عام ١١٨٩/٥٨٥م على حكم التطوع، واذا كانت الصحراء خارج حدود المغرب فأين كانت حدوده الجنوبية فى هذا الجزء الغربى ومن المرجح أن الحدود هنا يمثلها خط يمتد من سجلماسة إلى نول لمطه مرورا بباركى. فسجلماسه أقرب بلد فى جنوب مراكش إلى جهة القبلة وصلته جيوش الموحدين، كما أن مدينة اركى فى أقصى مراكش فى الطرف الشمالى للصحراء باشر عليها المرابطون نفوذهم السياسى وكانت نول لمطه أقصى مدينة ساحلية فى الجنوب أخذها الموحدون من المرابطين[١٥].

وبناء عليه فالحدود الجنوبية للمغرب فى القرن السادس الهجرى مثلا كانت تمتد من طرابلس مرورا بالسفوح الشمالية لجبل نفوسه نزولا إلى قفصة فتسير الحدود مع السفوح الجنوبية للعزق أطلس الصحراء إلى سلجماسة فاركى ثم نول لمطه على ساحل البحر (المحيط الأطلنطى) [١٦].

وأنه اذا نظرنا فى الطبيعه الجغرافية للمغرب ظهرت لنا ككتلة واحدة متشابهه إلى حد كبير فى التضاريس والبيئة والمناخ وحتى فى الظروف الأجتماعية المتجانسة فهنالك سلاسل جبلية ضخمة تحيط البلاد من الغرب إلى الشرق واصلة ما بين المغربين الأقصى والأدنى حيث ترتفع فى الشمال سلسلة جبال الريف من المحيط إلى تلمسان على محاذاة سهول ساحلية ضيقة وهى جبال متوسطة الأرتفاع [١٧] وفى ذلك تحدث

(١٥) مؤلف مجهول : الأستبصار فى عجائب الأمصار ص ١١١.
(١٦) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص ٢٢٧.
(١٧) صلاح الدين الشامى : الوطن العربى ص ٢٢.

الادريسى عن تلمسان فيقول أن تلمسان رصيف للداخل والخارج فى المغرب، فأذن تلمسان هى المنطقة الفاصلة بين البلاد الشرقية والغربية وهذا ما يتفق والنظرة الجغرافية، إذ أن جبال ونشريس ونهر شلف الذى ينبع منها يمثلان حد تلمسان الطبيعى فى الشرق[١٨] وهذه البلاد الشرقية هى المنطقة التى بسط صنهاجو المهدية وبجاية عليها نفوذهم السياسى وما يقع إلى غربها فهو يعتبر البلاد الغربية والأختلاف بين المنطقتين فى طبيعتها الجغرافية غير قليل فعلى الرغم من أن تضاريس الارض فى البلاد الشرقية هى أمتداد لتضاريسها فى البلاد الغربية فأنهار المنطقتين تختلف أختلافاً كبيراً بينما هذه طويلة دائمة المياه فهذه قصيرة قليل مياهها وسهولها الشرقية ضيقة قصيرة بينما السهول الغربية واسعة فيحاء، وإلى الجنوب منها تمتد سلسلة جبال أطلس كجدار مرتفع متصل يصل أحيانا إلى أربعة الاف متر فتعرف هنا باطلس العظمى لأنها الجزء الأكبر أرتفاعا وضخامة من هذه السلسلة ثم يتفرع منها قسم جنوبى متوسط الأرتفاع أيضا يعرف بأطلس الداخلية أو أطلس الصحراء وقسم شمالى له نفس الأرتفاع تقريبا يعرف بأطلس الوسطى [١٩].

وعلى هذا فأن بلاد المغرب كلها تعتبر من الناحية الطبيعية الجغرافية والمناخية أقليما واحداً له خصائص ومميزات واحدة يجعل من العسير تقسيمه إلى وحدات سياسية متميزة بعضها عن بعض وقبل الفتح الأسلامى فى عصور الأغريق والرومان والبيزنطين كان المغرب المفهوم الذى ذكرناه يعتبر وحدة سياسية واحدة وينقسم إلى ولايات كذلك قبل الفتح الأسلامى بقليل فى آواخر العصر البيزنطى كان المغرب مقتصرا فى الواقع على ما يعرف اليوم بتونس وكان يسمى فى التقسيم الإدارى أى للدولة البيزنطية باسم ولاية أفريقية أما مايلى تونس غربا فلم يكن فيه أثر واضح للسلطة السياسية

(١٨) الادريسى: نزهة المشتاق فى أختراق الآفاق، ص ٥٦.

(١٩) صلاح الدين الشامى: مرجع سابق، ص ٧.

البيزنطية وأن كان بعض المؤرخين الغربين يحاولون أن يثبتوا أن الشريط الساحلى على الأقل فى بلاد المغرب كان تابعاً ولو بالاسم للدولة البيزنطية وهذا الشريط الساحلى يمتد من الحدود الغربية لأقليم تونس إلى المحيط الأطلسى، وهو يتسع أحيانا وضيق أحياناً أخرى ولكنه فى كل حاله ينحصر بين المتوسط والصحراء الأفريقية الكبرى أو بحر الرمال الأعظم كما يسمى أحياناً وهو الذى يفصل بين بلاد المغرب والبلاد الأفريقية المدارية [٢٠].

ولا جدال فى أن هذه الطبيعة الجبلية المتجانسة لاقليم المغرب قد أنعكست على طبيعة السكان الذين عرفوا منذ القدم بصلابتهم ومهارتهم القتالية مستفيدين من الظروف الجغرافية الملائمة حيث الممرات الطبيعية والمسالك الوعرة بما يجعل الدفاع عنها أمراً ميسرا ولكل هذه الخاصية الدفاعية كما لها دورها المهم فى اطالة العمليات العسكرية التى قام بها العرب قبل أن يتم لهم فتح المغرب بصورة نهائية الأمر الذى لم يحدث فى بقية الاقطار حيث تم فتحها بغير صعوبة[٢١].

ويرى بعض الدارسين والباحثين بالنظر إلى البنية التضاريسية فى بلاد المغرب، أن قارة أفريقية تنتهى عند جبال البرانس أو تنتهى أوربا عند جبال الأطلسى وهكذا وجدت وحدة المغرب السياسية ما يدعمها من الطبيعة الجغرافية وطبيعة الأرض تؤثر فى تحديد نوع المناخ وتوزيع المياه ومن ثم فى مناطق الأستقرار والطرق التى تربطها وهكذا تتكون بلاد المغرب من سلاسل جبلية وهضاب تتخللها وديان وتمتد هذه السلاسل من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى موازية للساحل بوجه عام وتتراءى هذه السلاسل متصلة مع أنها منفصلة وعليه تحديدها فى يسر.

وقد أطلق أبن خلدون على أكبر هذه الجبال جبل درن[٢٢] (أطلس الكبرى) الذى

(٢٠) حسن مؤنس: معالم تاريخ المغرب والاندلس، ص ٢٩.

(٢١) إبراهيم حركات: النظام السياسى والحربى فى عهد المرابيطين ص ٤٨.

(٢٢) أبن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٦، ص ٣٠١.

يصل أرتفاعه إلى أربعة آلاف متر وقد يزيد عن ذلك فى بعض قممه ولا تمر فيه الا ممرات ضيقة مرتفعة وفى شماله تمتد جبال صنهاجة (أطلس الوسطى) وغيرها تتصل البلاد الشرقية بالغربية ممر طريف تازا الذى يبلغ أرتفاعه ستمائه متر ولا يزيد أتساعه عن كيلو متر ونصف وتحف بجبال صنهاجة هذه هضبتان شرقية وهما ميزانا ووهران، وغربية هى ميزتا مراكش وإلى الشمال من جبال صنهاجة تقف جبال غمارة وأطلس الريف شامخة ممتدة بشدة نحو الشمال حتى تكاد تلامس البحر وعليه فسهول الساحل الشمالى طبيعية مما يميز الساحل الغربى بسهول واسعة وإلى الجنوب من درن توجد سلسلة جبلية صحراوية (أطلس الصغرى) تمتد من البحر المحيط متصلة بالعرق (أطلس الصحراوى) وجبال نفوسة[٢٤] .

وبلاد المغرب أقليم مستعرض يسير من الشرق إلى الغرب دون أن يكون له عمق عمرانى كبير وهى تتميز بظاهرة جغرافية واضحة جداً هى جبال «أطلس هذه والتى هى سلسلة جبال تمتد من جنوب المملكة المغربية الحالية وتسير بمحاذاة الساحل وساحل الأطلسى» شمالا بشرق وأن كانت بعيدة عنه حتى قرب ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوبى منطقة الريف ثم تتجه شرقا لتتلاشى غرب تونس فهذه الجبال تقسم المغرب إلى منطقتين واضحتين تختلف كل منهما عن الآخرى كل الأختلاف وهذه الجبال تتسع فى المغرب الأقصى ويزيد عرضها فى جنوبه وتنقسم إلى سلسلتين من جبال الاطلس الأولى غربية وتسمى أطلس العليا والآخرى شرقية وتسمى أطلس الصحراء وتحصران بينهما سهل السوس الخصب وهذه الجبال تضم هضابا عالية وهى كلها جبال وهضاب وافرة المياه ولهذا فهى خضراء ومسكونة ويسميها كما سبق القول أبن خلدون جبال درن وهى تعتبر مركز المياه ومصدر العنصر البشرى الذى ظل طوال العصور الوسطى مورد القوى البشرية الحقيقية فى تاريخ المغرب الأقصى [٢٥] .

(٢٣) البكرى: مصدر سابق، صفحة ١٠٠ إلى ص ٤٠١.
(٢٤) الادريسى: مصدر سابق.، ص ٦٣.
(٢٥) حمد السيد غلاب وآخرون: جغرافية العالم ج٢، ص ١٢١.

أما فى الشمال فأن جبال أطلس تسير محاذية لساحل البحر الأبيض المتوسط وبينها وبين الشاطئ شريط ساحلى سهل يضيق أحيانا ويتسع أحيانا آخرى وتتبعه السفوح الشمالية لجبال أطلس ويعتبران معا منطقة واحدة، بل أن سلاسل جبال «أطلس التل» تكاد فى البلاد الشرقية أن تلغى وجود السهول فى الساحل الشمالى وتتكون هذه السلاسل من هضاب صغيرة غير متصلة يزداد أرتفاعها كلما أتجهنا شرقا حتى تصل منتهاها عند قسطنطية والأوراس ثم تصبح كتلا متقاطعة وسلاسل صغيرة فتغدو حداً فاصلاً بين أطلس التل والساحل التونسى شبه الصحراوى[٢٦] .

ويعتبر مناخ هذه المنطقة الشمالية هو مناخ البحر المتوسط وهى تسمى شطريها السهل الساحلى والسفوح الشمالية لجبال الأطلس بمنطقة التلول ويسمى أبن خلدون مناخها بمناخ التلول أى مناخ البحر المتوسط أما المنطقة النائية الجنوبية التى تضم السفوح الجنوبية لجبال الأطلس ونطاق الجريد ثم نطاق العروق أى الرمال السائلة يسميها أبن خلدون ببلاد الصحراء ويسمى مناخها مناخ الصحراء وهى أقل ثروة وسكانا من المنطقة الشمالية[٢٧] .

وتختلف المنطقة جنوب أطلس التل فى جزئيها الغربى عن الشرقى، ففى الغرب توجد هضبة الشطوط التى يتراوح أرتفاعها بين الف ومائتى متر تتخللها جبال عالية مثل جـبال وانشريس وهكذا لم يحجبها أطلس التل عن الامطار فأصبحت منطقة أستبس واسعة تمتد من أطلس التل إلى العرق وأطلس الصحراء فى الجنوب من وادى ملوية فى الغرب إلى نهر سلف فى الشرق وهكذا تأخرت الصحراء إلى الجنوب فى هذا الجزء الغربى بينما حجبت قمم جبال الأوراس ما خلفها فبدءات الصحراء مع سفوح

(٢٦) محمد السيد غلاب وآخرون: جغرافية العالم ص ١٤٠.
(٢٧) أبن خلدون: مصدر سابق، ج ٦ ص ١٣٢.
(٢٨) محمد السيد غلاب وآخرون: مرجع سابق ص ١٧٢ – ١٧٧.

الاوراس فتجاوز أطلس التل والصحراء التى تكثر فيها الواحات والشطوط وأتصلت الصحراء إلى مشارف طرابلس التى أحاطت بها جبال نفوسة كهلال[٢٨] .

وبلاد المغرب فى مجموعها بلاد غنية إلى حد كبير، فيها موارد وافرة للثروة والمياه ولكنها تحتاج إلى أمن وأستقرار طويلين لتؤتى ثمارها لأن أهل المغرب أنفسهم أهل عمل ودأب وذكاء ولهذا فمن الممكن أستغلالها جيدا ومواردها تمكن من قيام دولة كبرى وحضارات زاهرة بها.

ونعود لنذكر مرة أخرى بل لنقرر أنه فى العصور الاسلامية تعود المؤرخون كما سبق أن ذكرنا أن يقسموا المغرب إلى الأقاليم التالية التى تذكرها من الشرق إلى الغرب وأن كانت قد ذكرت سابقا فى بعض الصفحات السابقة الا أننا هنا نذكرها تفصيلا لا أجمالا حتى تصبح الصورة أمام القارئ الكريم واضحة وهى:

أقليم برقة ثم أقليم طرابلس ومن هذين الأقليمين يضاف إليهما أقليم فزان وتتكون منها الجمهورية الليبية حاليا وقد كان هذا الأقليمان منفصلين أحداهما عن الآخر سياسياً خلال العصور الإسلامية فكانت برقة أما تابعة لمصر أو غير واضحة التبعية السياسية أما طرابلس فكانت تدخل فى نطاق ما يعرف باسم بلاد أفريقية وليس فى ذلك ما يمس وحدة القطر الليبى أو أصالته التاريخية، فأن كثيراً من أوطان العرب الراهنه تتالف من أجزاء كان لكل منها تاريخ أو أتجاه مستقل فى الماضى أى قبل تحديد وحدة ذلك الوطن فى العصر الحديث[٢٩] وان كانت فترة حديثنا تحددت بعد التبعية عن كل من برقة وطرابلس والوحدة السياسية الثانية التى تشكل أحدى وحدات المغرب الكبير وهى التى تلى الأقليم السابق غربا وكان يطلق عليها فى العصور الوسطى بلاد أفريقية وكانت فى العصور الوسطى تشمل أقليم طرابلس من تاورغا قرب صرت على ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى صيره ثم أقليم أفريقية وهو يقابل تونس حاليا

(٢٩) حسين مؤنس: مرجع سابق ص ٢٢.

ثم أفريقية فتشمل الجانب الشرقى من الجزائر حاليا حتى نهر صغير يسمى نهر سلف وهو يجرى هناك من الجنوب إلى الشمال حتى جنوب مدينة الجزائر ثم يسير غربا بحذاء الساحل ويصب فى البحر المتوسط قرب وهران وهذا القسم الشرقى من بلاد الجزائر الحالية كان يسمى أقليم الزاب وكان يعتبر جزءاً من ولاية أفريقية.

وبعد ذلك هناك المغرب الأوسط ويمتد من مجرى نهر سلف حتى مجرى نهر يجرى حاليا فى شرق المملكة المغربية من الجنوب إلى الشمال الشرقى ويسمى هذا النهر نهر «مولودية» والمغرب الاوسط يشمل اليوم معظم الجمهورية الجزائرية وهو أقليم هضاب وسهول وجبال بل سهول ساحلية والأراضى الزراعية فيه كثيرة لان الكثير من جباله وهضابه خضراء أو منقوشة كما يقول العرب، ثم أنه قطر معتدل المناخ لارتفاعه كثيرا وبه الغابات والمراعى وإلى هذا ينقسم هذا المغرب الأوسط تاريخا إلى قسمين شرقى ويسمى أقليم تاهرت[٣٠] ويتميز بالجبال والغابات وغربى يسمى أقليم تلمسان ويميز بالمراعى والسهول ويشتهر المغرب الأوسط بمناطقة العمرانية ذات الشخصية التاريخية المتميزة مثل أقليم القبائل شرق مدينة الجزائر الحالية وسهل المتيجه جنوبى مدينة الجزائر واقليم السيف السهلى الساحلى جنوب وهران واقليم البابور، والبيبان، والجرجر، والونشريش، وكلها أقاليم جبلية وعرة، وأقليم الجفنة وهو أقليم الجريد أى غابات نخيل يتوسط شط جريد وأقليم الهقار أو الهجار وفى الجنوب وهو أقليم صحراو.

أما أقليم تلمسان فيتميز بجباله وسهوله ومراعية الواسعة وقد كانت تلمسان مركزا حضاريا وقاعدة علمية وقد قامت تلمسان العربية على أصل حصن رومانى قديم «بور ماريا» ويلى الجزائر غربا أقليم المغرب الأقصى وهو الأقليم الأخير من جملة هذه الأقاليم الأربعة التى ينقسم إليها أدارياً أو سياسياً المغرب الكبير ويعرف المغرب الأقصى اليوم بالمملكة المغربية ويشتمل على جبال الأطلس ويضم كذلك سلسلة من السهول

(٣٠) حسين مؤنس: المرجع السابق ص ٢٢.

الساحلية بين الجبال وساحل المحيط الاطلسى وتشق هذه السهول أنهاراً أو وديان تنحدر من جبال الاطلس غرباً إلى المحيط وهى من الشمال إلى الجنوب وادى لوكس ويصب عند مدينة العرائش ووادى «سيو بمروعة» الكثيرة وقواعده الشهيرة مثل فاس ومكناس ثم وادى أبو الرقراق وأبو جرج وهو نهر مزدوج وهو النهر الذى يصب فى مصب واحد وعلى ضفته الشرقية عند المصب مدينة سلا وعلى ضفته الغربية مدينة رباط الفتح وهما مدينتان توأمتان.

ثم وادى أم الربيع وقرب مصبه تقع مدينة أزمور ثم وادى تنسيفت وتقع على أحدى فروعه مدينة مراكش ثم وادى السوس الذى يجرى فى أقليم السوس الغنى وهو أقليم ذو هيئة مثلثة ينحصر بين فرعى جبال الأطلس والمحيط الأطلسى ومن اهم مدنه كارودانت تطلق أحيانا تارودانت وأغادير، ثم وادى درعة هى أقصى الجنوب وما وراء ذلك تمتد صحارى المغرب(٣٠).

ومن ناحية المناخ نقول أن مناخ البحر الأبيض المتوسط هو حار جاف صيفاً بارد ممطر شتاءاً، اذ يسيطر على البحر الأبيض المتوسط ضغط هوائى مرتفع فى الشتاء، فتهب الرياح الغربية محملة برطوبة المحيط الاطلسى ويخف الضغط صيفاً وتنتقل الرياح شمالا مع حركة الشمس الظاهرية فتسود المنطقة الرياح القبلية الجاف فتجعل الصيف جافاً حاراً ولكن مناطق المغرب تتفاوت فى تأثيرها بهذ المناخ لا حركة الرياح ودرجة الحرارة يعتمدان على تضاريس الأرض أرتفاعاً وأنخفاضاً، وما يحيط بها من مياه البحار ويحجب جبل درن بأرتفاعه السفوح الجنوبية الغربية عن الأمطار فيتجاوز فيه المناخ المتوسط والصحراوى، وتقع السفوح الشرقية لجبال غمارة فى ظل المطر يفعل هذه الجبال نفسها ومروراً بالرياح على الأرض الأندلسية حتى أن الصحراء لتكاد تصل إلى مصب نهر ملوية أو مولية(٣٢) ولا يتخلص الساحل الشمالى للبلاد الشرقية من ظل المطر

(٣١) حسين مؤنس: المرجع السابق ص ٢٣.
(٣٢) البكرى: المصدر نفسه ص ٢٤.

هذا الا قرب تلمسان حيث يبدأ المطر المتكاثر كلما أتجهنا شرقاً إلى بونة (عنابة) بفضل الأرتفاع التدريجى لتل الاطلسى والبعد عن أثر جبال غمارة والأرض الأندلسية وبعد بونة يبدأ شبه ظل مطر بجبل الساحل التونسى إلى شبه صحراء أو استبس خاصة بين صفاقس وسوسة ويمتد هذا المناخ إلى طرابلس التى جعلت جبال نفوسة والصحراء استبسا فقيرا كذلك فان أنخفاض أطلس التل فى جزئه الغربى بالمقارنة مع الجزء الشرقى وأرتفاع هضبه الشطوط عامل أساسى فى توفير مناخ أستبس رعوى فى هضبة الشطوط بينما حال أرتفاع الاوراس وهضاب أطلس التل فى الجزء الشرقى دون توفير مناخ متشابه فجاءت الصحراء مجاورة للأوراس ولم يتيسر الأستقرار إلا فى واحات الجريد ومن المفيد الأشارة إلى أن الساحل التونسى وأن كان منطقة أستبس أمطارها شتوية، فقد يسر خليج قابس لها مطرا صيفيا نتيجة مرور الرياح القبلية الجافة على مياهها(٣٣).

وعلى هذا فأن بلاد المغرب فى مجموعها بلاد مشرقة زاهرة مزدهرة ذات جمال فريد يتجلى فى أجمل صورة فى مناطق الجبال التى تتغطى بالثلوج فى الشتاء ومن هنا فقد قيل أن بلاد المغرب هى سويسرا العرب نظراً لما تتمتع به من مناخ معتدل وطبيعة خلابة جعلت العربى يصرون كثيراً على فتح هذه البلاد وضمها لرقعة الاسلام لكى تكون تلك البلاد بأقسامها المختلفة حصنا ودرعا للاسلام يدافع عن حدوده الغربية وقد كان فعلاً المغرب العربى الصخرة التى تحطمت فوقها هجمات الصليبين والأوروبين عند أنحسار المد الاسلامى عن بلاد الاندلس ومن هنا حق للفتوحات الاسلامية أن تطول وأن تتصل حتى توطدت دعائم الاسلام وقويت شوكته وصارت كتلة إسلامية ثانية تقبع على أرض أفريقية بعد الكتلة المصرية التى هى مصدر لكل هذه الفتوحات التى سنعرض لها فى الفصول التالية.

(٣٣) محمد السيد غلاب وآخرون: المرجع نفسه ص ١١٥.

الفصل الثانى

التركيب السكانى للمغرب

منذ بداية العصر التاريخى والهجرات العربية تخرج من شبه الجزيرة العربية من طريق عدة ومعابر كثيرة الى افريقيا منها طريق أو معبر باب المندب متجها الى الشمال الافريقى وبلاد المغرب كما خرجت هجرات عربية أخرى عن طريق برزخ السويس غربا الى مصر وسواحل الشمال الافريقى لذا تكونت سلالة من السكان فى الشمال الافريقى من العناصر التى هاجرت الى تلك الاقطار فى فترات زمنية وتاريخية متعاقبة وان هذه السلالات البشرية والعرقية والجنسية اختلطت فى تلك البلاد فيما بينهما بدرجات متفاوتة ولذا فاننا نجد أن الاغريق قد أطلقوا على شعوب الشمال الافريقى الذين يقطنون فى المنطقة الواسعة الممتدة من واحة سيوة فى غرب الصحراء المصرية الى ساحل المحيط الاطلنطى غربا ومن ساحل البحر الابيض المتوسط حتى وادى النيجر جنوبا،أطلقوا على هذه الشعوب لفظ البربروهو لفظ أطلقة الاغريق على الشعوب الناطقة بلغة غير لغتهم[1] لذا فقد عرف سكان المغرب منذ أقدم العصور باسم البربر ولفظ البربر هذا لا علاقة له هنا بلون البشرة وأنما هو لفظ اغريقى كان الاغريق أو اليونان يطلقونه على كل من لا يتكلم اللغة الاغريقية،فقد كانوا يسمونهم باربارى ونحن هنا فى هذا البحث قد نجد أن اطلاق هذا الاسم على سكان المغرب بأسم بربر لا ينطبق كما صور كذلك الكتاب على كل شعب لا يتكلم لغتهم الاغريقية والالماذا لم يطلقوا اسم البربر على سكان مصر وسكان بلاد الشام على الرغم من أن الاغريق والرومان والبيزنطيين قد بسطوا سيادتهم على بلاد المغرب والشام ومصر لذا نجد أنفسنا فى النهاية نأخذ بهذا الاسم على سكان المغرب البربر فقط لاتفاق الآراء على تلك التسمية.

(١) محمد محمد أمين : تطور العلاقات العربية والأفريقية فى العصور الوسطى ص ٦٤.

وان كان المصطلح العربى هو الاصح عن الاغريق ذلك لان العرب على عادتهم كانوا دائما يحاولون ان يجدوا أصلا عربيا لكل لفظ أو علم جغرافى فيقولون أن البربر من أولاد مهاجر عربى الاصل من حمير يسمى بر بن قيس ويقال أن هذا الرجل عندما هاجر الى المغرب لم يفهم لهجة هؤلاء الناس الذين يقطنون تلك الاماكن فسماها بربرة (المكان) ويسمى الناس الذين يتكلمون هذه اللهجة البربر،أما الحقيقة فهى أن البربر شعب افريقى سكن هذه البلاد من اقدم العصور واليونان هم الذين سموه بالبربر وعنهم أخذ اللاتينيون ثم العرب هذه التسمية، اما البربر انفسهم فلا يطلقون على أنفسهم هذه التسمية بل يعرفون أنفسهم بأسماء شعوبهم وقبائلهم[2].

ولقد طور الرومان هذا اللفظ البربر الى مفهوم سياسى وحضارى بمعنى الشعوب الادنى منهم مرتبة وحضارة ويعيشون فى معزل عن الحضارة الرومانية العالية وأطلقوا على جميع البلاد التى خرجت عن طاعة الروم اسم «باربار يكوم» أى بلاد البربر وهكذا عمت البربرية عندهم كل ما ليس رومانيا أو يونانيا ويؤكد هذا القول أنه لا يعرف فى تاريخ السلالات البشرية عامة أن هناك جيلا من الناس يعرف باسم البربر[3].

وهنا يتبادر لنا سؤال عن سكان المغرب عشية اندلاع موجة الفتوح العربية الاسلامية وانتشارها الى افريقية وفى الواقع أن المغرب بسكانه يمثل وحدة متجانسة بالاضافة الى وحدته الجغرافية وقد جاء ذلك ثمرة التغيرات السياسية التى كانت تجرف فى طريقها هذه المنطقة وتطبع عليها بصماتها الواضحة فالمغرب ارتبط بالصراع الشهير بين روما وقرطاجة أو ما عرف بالحروب البونية (٢٦٤ق.م-١٤٦م) والتى انتهت بتدمير قرطاجنة ومحوها من الوجود فخضع المغرب منذ ذلك الحين للحكم الرومانى كغيره من الاقاليم المطلة على

(٢) ابن خلدون : مصدر سابق ج٦ص٩٤.

(٣) محمد محمد أمين : نفس المرجع، ص٦٥.

البحر المتوسط واكتفى الرومان بأنشاء مناطق عسكرية محصنة على الشريط الساحلى الا أن التقدم نحو الداخل حيث السكان الاصليين من البربر لم يكن سهل المنال .

وقبل أن نتحدث عن طبيعة هؤلاء السكان وظروفهم الحياتية واختلافاتهم القبلية يجدر بنا الاشارة الى أن مناطق الشمال من المغرب قد مرت عليها شعوب عديدة منذ خضوعها للرومان حتى مجئ العرب ففى أعقاب الخلل الذى اصاب مؤسسات الامبراطورية وانقسامها الى امبراطورتين احداهما فى الشرق اتخذت من القسطنطينية مركزا لها والثانية ظلت فى روما العاصمة القديمة حيث شهد القسم الغربى منها اهتزازات داخلية عنيفه منذ مطلع القرن الخامس الميلادى بدأت باقتحام جحافل البرابرة من الجرمان والاسيوين والذى يهمنا من هذه الافواج المتبربرة التى انتشرت فى الاجزاء الغربية لامبراطورية الرومان بشكل خاص،تلك التى امتد تأثيرها على سواحل المغرب لاسيما الوندال الذين قنعوا من نصب التطاحى على الامبراطورية بالسيطرة على اسبانيا حتى مجئ القوط الغربين فطردوهم منها واضطروهم الى اجتياز المضيق«مضيق جبل طارق» والهروب الى الضفة الاخرى حيث سيطروا على المناطق الساحلية الممتدة من طنجة غربا الى طرابلس شرقا [٤] .

أما سكان الشمال الافريقى الذين أطلق عليهم الاغريق والرومان اسم بربر وتوارثت الاجيال هذا الاسم وظل قائما يشهد بذلك الاسم حتى الوقت الحاضر،فهؤلاء السكان كانوا يطلقون على انفسهم اسم أمازيغ وهذه الاسماء تعنى فى لغتهم الاحرار أى انهم كانوا يطلقون على أنفسهم شعب الاحرار،وهو يكاد يكون هو نفس الاسم أو الترجمة للفظ الذى أطلقه قدماء المصريون على أنفسهم [٥].

وقد كان على هؤلاء الاحرار أن يدعوا منطقة الساحل مرة آخرى ويتركوها نهائيا

(٤)عبد الفتاح عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ص٧١.

(٥) أحمد صقر : مدنية المغرب العربى فى التاريخ ص٣٤.

للوندال مرة أخرى حيث قاموا بأخلاء تلك الانحاء لهؤلاء الغزاة الذين عرفتهم تلك المنطقة من البحر المتوسط بأنهم أكثر شعوب الجرمان صلابة وجرأة ولكن ذلك لم يتجاوز القرن من الزمان اذ أننا نجد أن البيزنطيين قد استعادوا المغرب من ايدى الوندال عام ٥٣٤م حيث عادت السيطرة على المغرب الى دائرة الامبراطورية الرومانية التى أصبحت تحمل اسمها الشرقى وهو الامبراطورية البيزنطية وتلك هى صورة الوضع البشرى بشكل عام فى المغرب قبل الفتح العربى حيث كان سكان الداخل من البربر وهم الغالبية العظمى وسكان السواحل الذين كانوا أصحاب الغلبة والنفوذ تبعا للمتغيرات السياسية التى كانت تمر بها المنطقة بين الحين والاخر،اذا تأملنا جيدا تركيب السكان فى تلك الفترة المتدفقة بالاحداث السزيعة لوجدنا العنصر البربرى هو الغالب فى بلاد المغرب [٦].

وعندما جاء المسلمون الى شمال افريقيا حافظوا على التسمية ولم يغيروها لذيوعها وانتشارها وكما اختلف المؤرخون المحدثون فى أصول البربر اختلف ايضا المؤرخون العرب فى هذه الاصول وعذرهم فى ذلك المدى الزمنى الطويل الذى مر على سكنى الانسان للشمال الافريقى وان كان بعض هؤلاء المؤرخين قد فطنوا الى العلاقة القوية التى تربط شعوب الشمال الافريقى بالعرب وخاصة عرب جنوب الجزيرة العربية فالكتاب العرب حين يتحدثون عن القبائل العربية فى شبه جزيرة العرب وما يليها من الاقطار كثيرا ما يشير بعضهم الى البربر من سكان افريقية الشمالية بأن لهم صلة نسب قديمة بالعرب وأن بعض قبائلهم ومن بينها صنهاجة وكتامة ذات أصل يمنى [٧] والواقع أن سبيل الهجرة من شبه جزيرة العرب قبل الاسلام وبعده لم يكن ضعيفا ولا نادرا بل كان قويا دائما ومتصلا على مدى القرون.

وينقسم البربر الى قسمين كبيرين بحسب اسلوب الحياة والطابع الحضارى وهم

(٦) إبراهيم بيضون : مرجع سابق، ص١٧.

(٧) محمد محمد أمين : مرجع سابق،ص٦٥.

البربر البدو ويسمون بالبتر فأما البربر الحضر أى البرانس فأصلهم من سكان البحر المتوسط وهم يشبهون فى ملامحهم سكان الاندلس وسكان جزائر البحر المتوسط وتنتشر بينهم شقرة الشعور وبياض اللون وزرقة العيون وخاصة بين أهالى الجبال هذا الفرع من البربر هو اصل البربر وهم الاقوام الذين سكنوا هذه البلاد منذ أقدم العصور اما فريق البربر الآخر وهم البتر فهم قوم جدد نسبيا اقبلوا من الجنوب وفى الغالب من الجنوب الشرقى من قلب القارة الافريقية عن طريق وادى النيل وقد نزلوا اولا اقليم برقة ثم أنتشروا غربا وهم جنس افريقى أسمر البشرة اختلطوا بالسكان الاصليين ومن اختلاطهم نشأ الجنس البربرى الذى استعرب بعد أن اختلط بالعرب وأصبح فى اسم العروبة وهو يجمع فى تكوينه الاصول الثلاثة التى تكون منها [٨].

واذا كان من الصعب تتبع صلة النسب القديمة بين العرب القدماء وسكان الشمال الافريقى منذ عصور ما قبل التاريخ،فانه ليس من الصعب أن نتابع آراء علماء اللغات فى العصور الحديثه وذلك فيما ذهب اليه هؤلاء العلماء من أن لغة البربر واللغات السامية تمت كلها الى اصل واحد وقد سماها هؤلاء العلماء المجموعة الافروسيوية،وعلى هذا فأنه لن تكون القرابة اللغوية قائمة دون أن تستند الى شئ من القرابة الروحية بين سكان الشمال افريقيا وبين العرب [٩].

وقد عاش البربر فى بلادهم هذه قرونا متطاولة فى القدم قبل الفتح العربى الاسلامى ولهم تاريخ وحروب مع الاغريق والرومان خاصة ودارت حروب طويلة بين بعض جماعتهم والرومان وظهر من بينهم ابطال قوميون وعلى هذا كانت هناك علاقة للرومان وبعدهم الروم أوالبيزنطيين بصفة خاصة مع بربر الساحل والسفوح الشمالية لأطلس ونادرا ما توغل الرومان الى داخل البلاد حيث الاقاليم الجنوبية من المغرب وذلك فيما عدا اقليم

(٨) إبن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس، ص٣٤.

(٩) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الأفريقية، ص٣٣٨ .

افريقية«تونس»وهو سهل فسيح كما تعلم،يرويه نهر كبير نسبيا هو نهر «مجردة» فمنها أوغل الرومان ثم الروم الى الداخل [١٠].

وعلى هذا فأن صلة القرابة الجنسية والروحية بين العرب والبربر صلة قديمة ذلك لأنه تأسيسا على كل ما تقدم من أقوال تستطيع القول أنه من متابعة الانسان فى الشمال الافريقى سواء فى عصور ما قبل التاريخ أم فى العصور التاريخية نستطيع أن نقول أنه منذ عصور ما قبل التاريخ ولالاف السنين تبادلت منطقة الشمال الافريقى،الهجرات مع منطقة شبه الجزيرة العربية عبر مضيق باب المندب فى بادئ الامر ثم اضيف الى ذلك برزخ السويس أيضا فى فترات تاريخية لاحقة وعليه فأنه من المؤكد أن هناك صلات عرقية وجنسية وسلالية بين البربر والعرب منذ العصور القديمة .

وعلى هذا فان سكان المنطقتين يرجعون الى أصل واحد،وهذه الهجرات التى تعاقبت على مر السنين كان جزء منها قبل الاسلام وجزء آخر بعد الاسلام ومن هنا فأن عروبة الشمال الافريقى مرت بمرحلتين أساسيتين مرحلة ما قبل الاسلام والتى تمثلت فى الهجرات المتعاقبة والمتبادلة ومرحلة ما بعد الاسلام والتى تمثلت فى الهجرات العربية الى الشمال الافريقى والتى حملت معها الدين الجديد واللغة العربية الجديثة .

وهذه هى صورة الوضع البشرى بشكل عام فى المغرب قبل الفتح العربى سكان الداخل من البربر وهم الغالبية العظمى وسكان السواحل الذين كانوا عادة أصحاب الغلبة والنفوذ تبعا للمتغيرات السياسية التى كانت تم بها المنطقة بين الحين والاخر واذا تأملنا جيدا تركيب السكان فى تلك الفترة المتدفقة بالاحداث السريعة لوجدنا هنالك نوعين من السكان.

وهما اولا العنصر الوافد من البيزنطيين الذين ورثوا ممتلكات الرومان تقريبا على

(١٠) عبد الفتاح الغنيمى : الإسلام والعروبة فى السودان ، ص١٧–ص٢٠ .

سواحل البحر المتوسط من هذه المنطقة،وقد ساروا على خطى أسلافهم فى أقامة قواعد بحرية محصنة فكان تواجدهم على ارض المغرب تواجدا عسكريا بصورة خاصة ولهذا كانت نسبتهم العددية ضئيلة بالمقارنة مع سكان الداخل،ثم كان هؤلاء البربر وهم السكان الاصليون الذين عرفوا بالبربر وكانوا يمثلون الاغلبية الساحقة من سكان هذه البلاد[١١] وعدا هاتين الفئتين الاساسيتين فقد عرف المغرب عناصر أخرى غير واضحة هويتها بالتحديد وأن كان المؤرخون يسمونها الافارقة وهى على ما يبدو خليط من سكان السواحل الاقدمين ومن بعض الشعوب المستعمرة وكانت هذه العناصر تخضع مباشرة للحكم البيزنطى [١١] .

ولقد كان يجب علينا فى تلك الدراسة أن نتساءل عن هوية هؤلاء البربر والذين كما سبق أن ذكرنا أنه كانت هنالك اختلافات عديدة فى تحديد المفهوم الدقيق لهذه الكلمة والتى فى صورتها ماذا تعنى،ومن الذى أطلقها على سكان المغرب ومن هم البربر فى نهاية الأمر وهذه التساؤلات التى نطرحها هنا لابد آن تواجه الباحثين الذين يتوقون لدراسة تاريخ المغرب وبصفة خاصة الذين يتابعون تاريخ البربر قبل الفتح الاسلامى العربى لتلك البلاد وذلك لمحاولة استقراء منابعهم الاولى ومن أين جاءوا،وان كان ما يتبادر الى الذهن هو البعد اللفظى للكلمة،اذ يبدو أن لها مدلولا عاما يرتبط على الارجح بالعناصر الغربية التى اجتاحت امبراطورية الرومان وكان لشواطئ المغرب نصيبها من هذه الموجات التى عرفت بالبربر وأن كان كما سبق أن ذكرنا أن اول من أطلق هذا الاسم على سكان المغرب هم الرومان شأنهم شأن بقية العناصر التى اعتبروها غير متحضرة و تتكلم لغة غير مفهومة [١٢] .

أما أصل البربر فلا يزال هناك غموض يحيط اجمالا بتارخهم القديم؛ فعلماء

(11) Julien, A. : Histiovre de I"afirque du Nord. P37.

(١٢) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى، ص ٢٤ .

الانساب غير متفقين على تحديد هوية معينة لهم ؛ بعضهم يعتقد أنهم ينحدرون من اصول حامية والاخر خاصة النسابون العرب يعتقدون بل أنهم يرجعون أنتسابهم وارتباطهم بالساميين[١٣] فضلا عن هؤلاء الذين اعتمدوا التفسير التقليدى والشائع لدى بعض مؤرخى العرب الاقدمين وهو الاعتقاد بانهم ينسبون الى البربر أحد أجدادهم مقارنة بأنساب العرب بعرب بن قطان [١٤].

وكما اختلف المؤرخين وعلماء الاجناس على هوية البربر اهى حامية أم سامية أم خليط من الاثنين فقد أختلفوا كذلك على المصدر الذى جاءت منه هذه الجماعات الى المغرب،فمنهم من يعتقد أن البربر وفدوا من أسيا فى وقت مبكر ومنهم من يزعم انهم أوربيون فى الاصل استوطنوا المغرب منذ عصور سحيقة فى القدم [١٥].

واذا كان المؤرخين يختلفون حول رأى نهائى فى مسألة الانتماء العرقى والجغرافى للبربر فأنهم متفقون بشكل عام على تصنيفهم الى مجموعتين كبيرتين لكل منهما نمط حياة متميز مرتبط بعوامل اجتماعية معروفة وكما سبق أن أشرنا ايجازا الى مجموعتين الأأننا هنا سوف نفضل هاتين المجموعتين حيث تكون المجموعة الأولى من البربر وهو التى عرفت باسم البرانس وهذا الأسم يطلق على مجموعة البربر المستقرين فى الاراضى الخصبة والمدن حيث يمارسون الزراعة كمهنة رأسية فهم بجانب أنهم يمارسون أعمالا حرفية مختلفة وهؤلاء قد نالوا نصبا من التطور بفضل اتصالهم بالشعوب الأخرى سواء التى كانت لها روابط فى المغرب أم المستعمرة التى اتخذت من السواحل مقرا لها ومن اطلق على هذه المجموعة اسم البربر الحضر كذلك فان المجموعة الثانية التى عرفت بأسم البربر

(١٣) مختار العبادى: فى التاريخ العباسى والأندلس، ص ٢٢٣ .

(١٤) ابن خلدون: مصدر سابق، جـ ٦ ص ٩٤ .

(١٥) ابراهيم بيضون: مرجع سابق، ص ٢٩ .

البتر وهؤلاء سكان البوادى الرحل الذين احترفوا الرعى والاعمال الاخرى التى يعتمد عليها البدو عادة من الغزو والاغارة على مناطق الحضر وغير ذلك [١٦].

ولما كانت طبيعة التضاريس الجغرافية لمنطقة شمال افريقيا تفرض على بعض سكانها العزلة عن البربر البتر واحتفاظهم بلهجتهم القديمة واحوالهم المعيشية ومن هنا اطلق عليهم الاوربيون اسم البربر الا اننا نرى هنا ان تطلق على هذه الجماعات اسم عرب ما قبل الاسلام ايمانا بعروبتهم الاصلية الى عرب جنوب شبه الجزيرة العربية سواء الى ساحل عمان أو الى اليمن وغيرهم من السلالات العربية التى هاجرت الى الشمال الافريقى بعد الاسلام والتى اختلطت مع الجماعات السابقة نتيجة للبعد التاريخى من ناحية ونتيجة للظروف الجغرافية التى سادت منطقة الشمال الافريقى وعزلت هذه الجماعات الى حد ما وأختلفت هذه الجماعات حتى فيما بينها بأختلاف بيئة كل منها [١٧].

ومن هنا فأننا نجد بعض المؤرخين يميل الى تفسير هاتين الكلمتين«البرانس–البتر» تفسيرا له علاقة بالزى الرسمى القومى للمغاربة وهو البرنس الذى لا يزال سائدا حتى اليوم،وقد اعتقد احد المستشرقين ومعه فريق من المؤرخين العرب أن بربر البرنس أو الحضر كانوا يرتدون البرنس وهو لباس أبيض عادة يغطى الجسم من الرأس حتى القدمين بينما أعتاد البربر البتر البدو على الظهور بهذا الزى مبتورا من دون غطاء الرأس كما يفعل البرانس ويسمون بالبتر [١٨] ولا يعرف مدى الحقيقة وراء هذا التفسير الذى لا يخلو من الطرافة كما يشير الى ذلك الدكتور أحمد مختار العبادى فى كتابه المجمل فى تاريخ الاندلس،ولا نعرف صحة النظرية التى تقول أن البرانس والبتر يمثلان عرقيا فئتين

(١٦) عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير، ص ١٣٣ .

(١٧) محمد محمد أمين: مرجع سابق، ص ١٦ .

(١٨) ابراهيم بيضون: مرجع سابق، ص ١٩ .

مختلفتين الوافدة والعناصر الأصلية والرأى الارجح أن انقسام البربر يمكن وراءه عوامل اجتماعية أكثر من أيه عوامل أخرى وبناء على ذلك فسيعد الاختلاف العرقى بين المجموعتين هو القائم والاصح [١٩].

ويبقى إن نشير الى آن اهم القبائل التى لعبت وشغلت ادوارا هامة وتاريخ البربر والمغرب عامة هى قبائل البرانس(صنهاجة) التى انتشرت على مساحة كبيرة من الاراضى بين المغربين الادنى والاقصى وقبائل مصمودة وأوربة وكتامة وعدد آخر بلغ نحو عشرة فروع كما يورد ذلك المختصون بتاريخ البربر،إما البتر فيتوزعون فى أربع قبائل كبيرة وهى لواتة وأداسة وخربة (تفرع منها مكناسة وزناتة ونفوسة) .

وهكذا فان المغرب بظروفه السياسية وقبائله التى ميزت فيها فوارق اجتماعية واقتصادية ظاهرة أدت الى تكتلها فى مجموعتين كبيرتين لكل منها مصالحها المتناقضة مع الاخرى وكثيرا ما ينصب العداء الضارى بينهما واستفحل الصراع واستمر دون أن تخفف من حدته السنون واذا بالبربر تصلهم أنباء تحركات عسكرية تطرق أبوابهم هذه المرة من الشرق وذلك فى النصف الاول من القرن السابع الميلادى وهكذا بدأت صفحة جديدة فى تاريخ البربر وبأ المغرب وتاريخه يأخذ بعدا جديدا وفصلا من فصول التاريخ الاسلامى [٢٠].

وهذه القبائل البربرية سبق أن ذكرنا انها تنقسم الى قبائل بترية بدوية أو نصف بدوية وقبائل برنسية حضرى او نصف حضرية وأكبر قبائل البدو وأشهرها رنانة ولهذا غلب عليها هذا الاسم العام رغم تفرعها الى اجذام كثيرة، أما البرانس فلا تغلب عليهم تسمية واحدة

(١٩) حسن محمود: قيام دولة المرابطين، ص ٢١ .

(٢٠) عبد العزيز سالم: مرجع سابق، ص ١٣٨٠ .

لأنهم شعوب ضخمة لكل منها مواطنه وتاريخه واشهر جماعتهم كتامة فى شمال شرق المغرب الاوسط وعلى اكتافهم ستقوم الدولة الفاطمية ثم صنهاجة المغرب الاوسط الذين يشاركون فى أقامة الدولة الفاطمية وسيقومون اولى الدول المغربية الاسلامية المستعربة وهما دولتا بنى زيرى ابن مناد ثم صنقاجة الصحراء الذين سيقيمون دولة المرابطين ثم مصمودة أهل المغرب الاقصى وهم شعب مغربى جليل أقام دولة الموحدين ودولا أخرى عظيمة ولهم فروع كبيرة أخرى وقد تعلم نسابة البربر من العرب علم النسب ونظموا قبائلهم فى شجرات انساب شبيهه بشجرات الانساب العربية [٢١].

وقد كان العرب هم أول من دخلوا بلاد المغرب وجرأوا على اقتحام جبال الاطلس وما يليها جنوبا ولذلك كانوا أول من عرف البربر معرفة صحيحة ، وعندما دخل العرب وجدوا البربر من الناحية الاجتماعية يعيشون فى قبائل قريبة الشبه من قبائلهم العربية فى تنظيمها واحوالها الاجتماعية القائمة على التقسيم القبلى وأن كانت تختلف عنها فى المستوى الحضارى ولذا وجد العرب اخواتهم البربر يعيشون فى قبائل بدوية على الفطرة وأن كانت متماسكة ولهاا نظام اجتماعى قويم [٢٢] .

وما دام الامر يتعلق بالتركيب السكانى لبلاد المغرب ونحن ندرس تاريخها العربى الاسلامى وبعده حديثا عن قبائل البربر فأن الأمر يقتضى هنا فى تلك الدراسة الحديث عن التركيبة السكانية لبلاد المغرب بما فيها كل القبائل ما دام ذلك فى نطاق تلك الحقبة التاريخية التى ندرسها ومن ثم لابد من الحديث عن البربر بصفة خاصة وغيرها من القبائل الأخرى كالعربية والأفريقية بصفة عامة مادام هؤلاء يشكلون جزءا من تاريخ

(٢١) المراكشى: المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، ص ١٢٧ .

(٢٢) الجبلالى: عبد الرحمن بن محمد: تاريخ الجزائر، ص ٢٥ .

المغرب السياسى والحضارى والاجتماعى .

وهكذا نجد أن العناصر المستقرة فى المغرب قد تنوعت وتعددت فنجد منها البربر والاندلسيين والعرب وأهل الذمة اليهود والنصارى والافارقة وغيرهم من العناصر الاخرى القليلة العدد،وكما سبق أن أشرنا فان البربر كانوا أكثر سكان المغرب عددا وأكثرهم انتشارا فى بيئات المغرب الاربع فضلا عن آن الشمال الافريقى كان موطنهم الأصلى لذا فقد قاموا فيه بالدور الرئيسى فى الحياة الاسلامية منذ الفتح العربى الاسلامى فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) فتغيرت مواطن الكثيرين منهم وتبدلت احوالهم .

وعلى هذا فأننا نجد أن المؤرخين العرب القدماء كما قسموا سكان العالم العربى الى المشارقة وهذا الاصطلاح يشمل سكان العراق والشام والجزيرة العربية والمغاربة وهذا الاصطلاح يشمل العالم العربى فى الاقطار المغربية مثل برقة وطرابلس وتونس والجزائر والمغرب الاقصى والاندلس وفى الارجح كما سبق أن ذكرنا فإن هذا التقسيم لم يشمل مصر التى أخذت بنصيب من الطائفتين وكانت بمثابة حلقة الاتصال ولذا لم يكن غريبا بعد أن اتسع العالم وانتشر الاسلام الى شواطئ المحيط الاطلسى أن يشير المنؤرخون الى جناحة الشرقى وجناحة الغربى وهذا الاتجاه يؤكد على كل حال الصفة العربية الخالصة لهذا الاقليم العربى العظيم والذى ظهرت فيه شعوب فى التاريخ القديم بأسماء مختلفة وغشيته الحضارة الفينيقية وهى ذات الصلة الوثيقة بالثقافة السامية فترة من الزمن والتى كان لها دور بارز وواضح فى نشر السلالة العربية القديمة فى المغرب و سواحل بلاد الشام والتى خرجت فى الاصل من الجزيرة العربية ومن هنا فأن سكان المغرب قبل الفتح الاسلامى هم احفاد الفينقين الذين نشروا حضارتهم على ساحل الشاطىء المغربى وبذلك ينضح عمق الجذور العربية فى بلاد المغرب قبل الرومان والبيزنطين وما البربر ان هم الا

(٢٣) محمد عوض محمد: الشعوب والسلالات الأفريقة، ص ٣٣٧ .

عرب الشام الاقدمين ثم الم يكن الفنيقين هم الذين وسلوا من شواطئ لبنان والذين كانوا فى الاصل قبائل عربية نزحت من شبه الجزيرة العربية ومن حوالى ١٦٦٠ سنة قبل الميلاد وصلوا الى شواطئ تونس حيث أقاموا المدن وآنشأوا مجموعة من التحصينات فى شكل قلاع فى منطقة الممر البحرى المنحصر من ساحل تونس ومداخل جزيرة صقلية وذلك قبل ان تدخل أى دولة فى هذة المنطقة،فلماذا يقول الاوربيون أن أصل البربر غير عربى وما هى اصول الفينقين ومن اين جاءوا ولكن هل تأثيرها على الشاطئ فقط ثم توسعوا ونشروا ثقافتهم الفينقية حتى حلت بعدهم جماعات الوندال [٢٣].

وقد تركت هذه التجارب كلها أثرا فى حضارة أقليم المغرب وثقافته الى أن جاءت الفتوح العربية الاسلامية فى القرن السابع والثامن الميلادى الأول والثانى الهجرى،فاذا العروبة تزدهر واذا الثقافة الاسلامية تنتشر واذا العلوم العربية الاسلامية يرتفع لواؤها وتثبت قواعدها كأحسن ما نجده فى أقطار المشرق العربى [٢٤] ذلك لانه ما أن تم للعرب المسلمين تحرير مصر من الحكم البيزنطى حتى اتجهوا الى أقطار المغرب،وذلك لانهم رأوا فى القضاء على البيزنطين فى الشمال الأفريقى ضرورة حربية وقد أعلن العرب بعد انتصاراتهم على البيزنطين أنهم يعملون على استمالة سكان الشمال الأفريقى وهم عرب ما قبل الاسلام والذين عرفوا باسم البربر، فكلا الفريقين وجد فى الآخر تشابها كبيرا فى كثير من الصفات والعادات فالنظام القبلى أساس الحياة الاجتماعية وحب الحرية والشجاعة وخشونة الطبع من الصفات الاصيلة فيهم وكان هذا التشابه من العوامل التى مهدت لاقتباس البربر لكثير من عادات وتقاليد العرب وبذلك خطا البربر أول خطوة على الطريق نحو العروبة الصريحة بدخولهم الاسلام واصطناع لغتهم وثقافتهم [٢٥] وهكذا يكون العصر الاسلامى واضحا كل الوضوح فى تاريخ المغرب، اذ أنه لا شك هى المسائل التاريخية التى

---

(٢٤) الدباغ: عالم الايمان، جـ ١، ص ٤٤ .

تفتقر الى ايضاح أن هذا الاقليم من شمال افريقيا ظل بمعزل عن سيل الحضارة برغم مجارته للرومان الى أن أظلته راية الاسلام ونور القرآن بالفتح العربى الاسلامى فأصبح من الأقطار الممتازة بنتاجها العقلى والفنى وأبدت فى ذلك تفوقا وامتيازا وأصبحت فيه مراكز للثقافة والعلوم الاسلامية.

وعلى هذا فان هذا الانتعاش الثقافى فى العهد العربى الاسلامى دون ما سبقه من العهود ربما كان من أسبابه قرابة السلالات أو أنواع من القرابة الروحية،ذلك ان الكتاب العرب حين يتحدثون عن القبائل العربية فى جزيرة العرب وما يليها من الأقطار كثيرا ما يشير بعضهم الى أن البربر من سكان أفريقية الشمالية ان لهم نسب قديمة بالعرب [٢٦].

وعلى هذا فلن نكون متسرعين فى القول اذا ذهبنا الى ان سبل الهجرة من جزيرة العرب قبل الاسلام وبعده لم يكن ضعيفا ولا نادرا، بل كان قويا ومتصلا على مدى القرون،ويقول الدكتور محمد عوض محمد فى كتابه «الشعوب والسلالات الأفريقية»،أنه فى ضوء هذه الحقيقة نستطيع أن نصحح ما ذهب اليه سلجمان فى كتابه«السلالات البشرية فى أفريقيا» فى أن معظم سكان شمال افريقية باستثناء ليبيا من البربر المستعمرين وان العنصر العربى فيهم قليل وهو يستثنى ليبيا لأن الطبيعة الصحراوية أكثر ملاءمة للعرب البدو وهو يخطئ خطأ مزدوجا لان فى العرب من عرف الزراعة والاستقرار وفى البربر من عاش عيشة البداوة والرعى [٢٧] .

ولا شك على كل حال أن ليبيا بلد عربى ومعظم سكانه ينتمون الى قبيلة أولاد على وهو فى هذا يعد امتداد لما نجده فى الجانب المصرى فى ليبيا حيث نجد الفروع

---

(٢٥) محمد محمد أمين: مرجع سابق، ص ١٦ .

(٢٦) القلقشندى: صح الأعشى فى صناعة الانشا، جـ ١ ص ٣٦٣ .

(٢٧) محمد عوض محمد: مرجع سابق، ص ٣٣٩ .

الشرقية فى تلك القبيلة التى تمتد بطونها غربا الى نهاية طرابلس وفى وسط هذا البحر الخضم من العروبة قد نجد بعض الجزر ذات الثقافة البربرية حتى داخل حدود مصر نفسها حيث نجد ذلك فى واحة سيوة،وكذلك فى واحة أوجلا الليبية وغيرها من الواحات فى ليبيا بقية من السكان الذين لهم لغات أو لهجات بربرية، واذا انتقلنا من ليبيا الى تونس وجدنا قطرا يمتاز بالثقافة العربية وليس فيه بقية من اللهجات البربرية الا فى الأطراف الشمالية الغربية ولا يزيد من يتكلمون تلك اللهجه عن ١.٥ ٪ من سكان البلاد كلها، ولقد كانت هجرة القبائل العربية الهلالية من الاسباب المباشرة التى زادت فى عروبة تونس ويكون من الخطأ الزعم ان سكان تونس من البربر وأنهم استعربوا نتيجة الزحف الهلالى، حيث أن الزحف العربى سابق للهلاليين بعدة قرون وعلى هذا فاننا اذا أمضينا غربا نحو الجزائر انتقلنا الى أقطار تزيد فيها نسبة المتكلمين باللغة البربرية الى نحو ٦ ٪ وأكثرهم فى الجهات الجبلية المنعزلة،وفى نهاية الاتجاه الغربى المملكة المغربية المطلة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى وهنا نجد نسبة المتكلمين باللهجات البربرية يقرب من ٨.٥ ٪ أما جاء فى كتاب سجلمان عن اجناس أفريقيا فى أن ثلثى سكان المغرب يتكلمون لهجات بربرية فانه ضرب من الوهم وسبب ارتفاع نسبة المتكلمين بالبربرية فى المغرب وجود أقاليم جبلية عالية هى جبال الاطلس الشهيرة التى تشتمل على مساحات واسعة منعزلة فمن المعقول الا تسهم هذه الجهات فى حركة التطور السكانى للبلاد،وفى العصور الحديثة وفى فترة الاستعمار الفرنسى،فقد كان رجال الاستعمار الفرنسى وساسته حريصين على التفرقة بين العرب والبربر، ولكن عدم وجود فروق تميز بين البربر والعرب حال دون نجاح هذه السياسة الاستعمارية [٢٨].

كما انه ليس من السهل اثبات التفرقة بين الحامين والسامين وكذلك الحال فى الحاميين الشماليين وعرب المغرب لا يستطيع المرء من الصفات الطبيعية التى توجد بينهما

(٢٨) محمد عوض السيد: الاستعمار . أساليبه ومذاهبه، ص ٦٨ .

ان يتبين أو يفرق أحدهما عن الآخر وعلى الرغم من ان الحامين من شرق افريقية يمتون بصلة النسب الى البربر أو الحامين الشماليين ومع أنه يحق لنا أن نتوقع تشابها فى الملامح الاساسية للفريقين غير أنه لابد لنا أن نحسب للبيئة حسابها ونأخذ بعين الاعتبار الموقع الجغرافى لكل ذلك لان الموقع الجغرافى بالنسبة للحامين الشرقين يجعلهم فى شبة عزلة الا بالنسبة لاقرانهم العرب فى الجزيرة العربية شرقا وبعض القبائل الزنجية فى الجنوب،أما أهمية الموقع بالنسبة للبربر فأنه أقليم بعيد عن العزلة ملاصق لأوربا عند جبل طارق بما يساعد على الاتصال كما حدث فى عصور التاريخ وما قبل التاريخ بشبه جزيرة ايبريا (الاندلس) وما وراءها والبحر المتوسط يختلف عن الأحمر بانه طريق مزدحم بالحركة البشرية، وفى جنوب بلاد المغرب جهات صحراوية كانت يوما ما سكنا وبعض سكانها ينزح دون شك نحو الشمال،كذلك لم يكن المؤشر الزنجى منعدما سواء جلبه الجبلايون أو جاء مجندا فى جيش يقوده بعض القادة من سكان منطقة السافانا [٢٩].

ولقد كان البربر كما سبق أن قلنا عرب ما قبل الاسلام فأنه بانتشار الاسلام فى بلاد المغرب،فأن العرب قد انساحوا فى تلك الاصقاع مع الفتح الاسلامى فى مدن المغرب دون أن يختلطوا بالبوادى ولن كان ذلك قد تم مع نهاية القرن الثانى الهجرى حيث اختلط العرب بالبربر اختلاطا مباشرا فى كل أنحاء البلاد، وقد تضاعفت أعداد العرب فى أواخر خلافة بنى أمية الشرقية(دمشق) لما حاول الاميون قمع ثورات البربر ونشر الاسلام بينهم [٣٠] ولما قامت الدويلات الاسلامية المغربية المستقلة فى القرن الثانى الهجرى فى افريقية(تونس)وتاهرت وسجلماسة وفاس استقطبت عناصر شرقية،بيد أن هذا الاستقطاب وتلك البعوث العسكرية وجموع الفقهاء لم تؤثر فى البادية من حيث التركيب السكانى حتى أن المصادر حتى أوائل القرن السادس الهجرى لتحرص على ذكر المدن الصغيرة فى الارياف أن كانوا أخلاطا وان لم يفلح العرب فى تغير سكان البادية فى بلاد المغرب

(٢٩) محمد عوض محمد: الشعوب والسلالات الأفريقية، ص ٣٤١ .

(٣٠) المالكى: رياض النفوس، ص ٦٢ .

وأريافة الا بعد القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى وذلك أثر الغزوة الهلالية وبفضلها انتشر العرب فى البوادى والقرى حيث تغير وجه المغرب العربى بصورته العربية الغالية من منصف القرن الخامس الهجرى،الحادى عشر الميلادى الى منتصف القرن السادس الهجرى،الثانى عشر الميلادى [٣١] .

ولقد كانت الغزوة الهلالية تتكون من قبائل بنى هلال وبنى سليم اللذين صيغوا وجه الحياة العربية فى المغرب الاوسط بالصيغة العربية ومع الفتح الموحدى بدأت مرحلة توسع هؤلاء العرب سلميا فى هضبة الشطوط والبلاد الغربية والاندلس وعلى الرغم من أن الجبال الشاهقة قد استعصت على العرب الهلالية [٣٢] لكنهم بسطوا نفوذهم على السهول والنجود وبسائط المدن الجبلية فاستقرت العرب الغازية فى الساحل التونسى وبلاد الجريد وبسائط تل الاطلس الشرقى بين قسنطينة وغيرها من المناطق ويلاحظ أن قبائل بنى سليم قد سكنت بالقرب من الساحل بينما غمرت بنى هلال المناطق الداخلية ولقد كان نتيجة لهذه الموجة العربية أن تعربت بادية البلاد الغربية فطبعت بالطابع العربى .

وهكذا اتخذ المغرب طابعا عربيا صرفا حيث صارت الغالية للعروبة رللاسلام وللجنس العربى الذى اختلط مع أبناء العمومة والأخوة الذين سبقوا فى فترات تاريخية قبل الفتح الاسلامى وعلى هذا فأن الصلة العرقية والجنسية والروحية عميقة الجذور بين العرب الذين أتاحت لهم الظروف فتح المغرب والاستقرار والاختلاط بالبربر الذين استقروا فى تلك الاصقاع منذ فترات زمنية طويلة قبل قدوم أبناء عمومتهم ليحرروهم من نير السيطرة البيزنطية ومن هنا فان التركيبة السكانية للمغرب العربى تكون فصيلة عرقية وجنسية ،سلالية تكاد تكون واحدة الا فيما ندر،حيث ان المجموعات البربرية الكبيرة كصنهاجة وكتامة والتى كانت شعوبا كثيرة وقبائل متعددة والتى يرجع الفضل الأكبر لسيادة

(٣١) البكرى: مصدر سابق، ص ٧٢ .

(٣٢) الادريس: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ص ١١٨ .

صنهاجة فى الجزء الشرقى من بلاد المغرب وتأسيسها المدن والتى تحمل أسماء بطون صنهاجة مثل بجاية ومدية ومليانة ومزغناى(فى الجزائر)تعود القبيلة فى جذورها العرقية الى عرب جنوب الجزيرة حيث اليمن أو ساحل عمان وقد ساعد على تطوير اتجاه صبهاجة الشرق لسكنى المدن ما نتج عن الغزوة الهلالية من اكتساح للبوادى الشرقية من البلاد الشرقية وبسائط تل أطلس الشرقية فلجأ بعض البربر المنعزلون الى المناطق الجبلية الحصينة وأثرت السيطرة السياسية لصنهاجة الشرق والغزوة الهلالية على قبائل زنانة فاضطرت الى اللجوء الى المناطق التى تضعف فيها قبضة هاتين القوتين مثل هضبة الشطوط وصحـراء الزاب [٣٣] وعلى هذا فان الصلة العرقية هى التى ساعدت فيما بعد على انتصار العروبة والاسلام فى تلك الديار وظهور بلاد المغرب بتلك الصورة العربية الاسلامية الثانية على أرض أفريقيا بعد الكتلة المصرية التى لعبت دورها الاساسى فى طبع الحياة فى المغرب بذلك الطابع العربى الاسلامى .

وتلك هى الصورة التركيبية لسكان بلاد المغرب حيث بربر البرانس،وبربر البتر والعرب والذين يشكلون الوحدة الأساسية للتركيبة السكانية وان كان ترابط العرب والبربر يعود الى جذور عرقية وسلالية وجنسية واحدة وهذا ما ساعد على ذلك الامزاج والاختلاط التى تبدو صورته واضحة فى كل بلاد المغرب العربى بأقسامه الأربعة الا فيما ندر فى بعض المناطق المنعزلةمثل الهضاب العالية والواحات البعيده المعزولة عن بعض السكان وتلك سمة فى العديد من الأقطار وليس فى بلاد المغرب فقط حيث أن المناطق المنعزلة كثيرا ما تكون محافظة على كل قيمها ولغتها وعاداتها ومن هنا فان وجود بعض المتحدثين باللغة البربرية فى بلاد المغرب ما هو الا نقطة فى محيط عربى هذا وان كان وجودهم لا يقلل من أنهم ينتمون منذ قديم الأزل الى أصول عرقية عربية قبل الفتح الاسلامى بعدة قرون.

(33) Gautier : Les Siecles Obscurs du Maghreb . P 335.

الفصل الثالث

المغرب قبل الغزو الإسلامى

إستولت روما على أملاك قرطاجة، بعد أن ارتبط المغرب بالصراع الشهير بين روما وقرطاجة أو ما عرف بإسم الحروب البونية (٢٦٤١ق.م–١٤٦م) والتى انتهت بتدمير قرطاجة ومحوها من الوجود، ومنذ ذلك الحين خضع المغرب للحكم الرومانى كغيره من الأقاليم المطلة على البحر المتوسط وإكتفى الرومان بإنشاء مناطق عسكرية على الشريط الساحلى، لان التقدم نحو الداخل حيث السكان الأصليين من البربر ذوى البأس والشدة والمراس لم يكن سهل المنال[1]،قد جعلت روما أملاك قرطاجة فى أفريقية منذ القرن الثالث قبل الميلاد ولاية رومانية وكانت قرطاجة أول مستعمرة لها فيما وراء البحر وجعلت لتلك المستعمرة عاصمة لها فيما وراء البحار وجعلت تلك المستعمرة عاصمة لها إسمها «أوتيكا» وأطلقوا على جميع هذه المستعمرات اسم أفريقيا ولهذا إمتد هذا الإسم حتى شمل القارة كلها،وكانت حدود هذه الولاية الرومانية غير واضحة بل كانت خطا يمتد على مشارف حبال أطلس الذى يبدأ من نهر توسكا «الوادى الكبير» حتى مدينة تاهينا Thenaeالواقعة على خليج فايس فى تونس أما ماوراء ذلك شرقاً فكان تحت حكم ملوك تورميديا الذين كانوا حلفاء لروما [2] .

وقد أقيم على الحدود الفاصلة بين الولاية الرومانية وبين نوميديا،خندق اكتشفت بقاياه عام ١٩٥٧وأقيم على جدار حجرى قليل الارتفاع وقد اكتشفت بقاياه فى تسنور Testor لعدة أميال وكان هذا الخندق يجرى شمال طبرق وجنوب تاهيتا وقد عهد بهذه الولاية الى حاكم عام وبعد انتهاء الحروب التى قامت فى عام ١٠٦ق.م ضمت الى

(١) سعيد عاشور: أوربا فى العصور الوسطى، ص ٧٠– ٧١ .

(2) Latham, C. : Europe in the Middle Ages . P 28

ولاية افريقية هذه ولايات طرابلس ومصراطة وغيرها من الاقاليم،اما نوميديا فقد سادها الاضطراب الذى أدى بها فى النهاية الى أن تصبح بدورها بعد فترة زمنية ليست بطويلة مستعمرة رومانية،ذلك لأنه على أثر وفاة ملكها ماسبنسيا Marsinissa فى عام ١٤٨ق.م قسم أولاده البلاد وحكموها فيما بينهم فأخذ ابنه الاكبر هيمال ادارة العاصمة بالاضافة الى الجزء الشرقى بينما أخذ الابن الثانى جولوشا ادارة شئون الجيش وقيادته وتسلم الأخ الثالث ادارة شئون القضاء فى ذلك الأقليم، وحكموها فيما بينهم فأخذ ابنه الأكبر حيمسال أدارة العاصمة بالاضافة الى الجزء الشرقى بينما أخذ الابن الثانى جولوسا ادارة شئون وبذلك فقد ظل الابن الثانى جولوسا Gflusa هو صاحب السلطة الفعلية وصاحب الكلمة العليا فى ادارة شئون البلاد نظرا لتحكمه فى قيادة الجيش وان كان قد ظل مخلصا لأخويه ولم يحاول الانفراد بالسلطة أو بالانقلاب عليهم وذلك حتى مات أخواه،ولذا فقد تغير الموقف السياسى فى ولاية توميديا بوقاة الأخوين حيث أصبح جولوسا هو صاحب كل السلطات .

ولقد تغيرت الظروف فى روما بعد أن بلغ جولوسا الهرم وأصبح فى حالة ضعف وشيخوخة وروما يزداد نفوذها فتعهد بأن يقوم بأمدادها بكل ما تحتاج اليه من القمح والحبوب والجنود والفيلة وكل ما يلزم لها .

وعلى ذلك فبدلا من أن تعمل روما على جعل نوميديا دولة قوية وكحليفة لها فيما وراء البحار فأنا نجد على العكس من ذلك فأن روما تبذل كل جهدها على اضعاف تلك الولاية وعملت على تقسيم تلك الولاية الى ثلاثة أقسام بين أبناء الملك جولوسا الذى تعهد لهم بتقديم كل ما تحتاج اليه روما من جنود وأسلحة ومواد غذائية،ولقد شجعت روما كل من يلجأ اليها من حكام هذه الامارات اليها مستجيرا بها على نحو ما كانت تعمل مع ملوك البطالمة المتأخرين وكان يدعى جوركورتا وهو الذى عرف كيف يستغل

الأطماع الرومانية فعن طريق الرشاوى التى دفعها استطاع أن يحصل على نصيب الأسد،فالجزء الغربى من هذه المملكة خضع لحكمه المباشر كذلك ولم يلبث أن أغار على بقيتها منتهزا فرصة اغارة التيتموس Tutms أتو تونس على روما عام [٣] عام ١١٣ق.م وانشغالها بالدفاع عن نفسها فلم تستطيع أن تتدخل فى الشئون الأفريقية .

ولم يلبث الحاكم جوكورتا أن وقع تحت سلطة النبلاء الرومان الذين تآمروا عليه فقبل أن يمتثل لأمرهم انقاذا لحياته فقبضوا عليه ثم تولوا ادارة أمور الجبش وخاصة الفرسان وعاثوا فسادا فى كل البلاد تحت قيادة من يدعى متلوس،وكان ذلك فى عام ١٠٩ق.م لكن شعب نوميديا من الوطنيين الزفارقة سكان الساحل الشمالى قاموا بالانتقام من الرومان وهؤلاء النبلاء القواد الذين تولوا السيطرة على مقاليد الحكم فى البلاد فقاموا بالثورة وذبحوا عددا كبيرا من هؤلاء القواد وقام وقام الحاكم متلوس Meteolus بالهروب من البلاد ومن ثم قام الحاكم جوكورتا بالبحث فى كل أنحاء البلاد عن بقايا الرومان وشجع الوطنيين بالوحدة ضد الوجود الرومانى،لذا فان منطقة غرب نوميديا قد ظلت مسرحا للفوضى أكثر من عشرين عاما اثر هذه الثورة التى قامت ضد الوجود الرومانى،لكن فى نهاية الأمر فان الجنود الرومانيين استطاعوا الامساك بالسلطة وتولية عرش نوميديا لأحد هؤلاء الأمراء وهو الامير هوبوكوس [٤] الا أن هذه التولية لعرش نوميديا لم تضع حدا للفوضى التى سادت هذه الأنحاء من بلاد المغرب مما أعطى الفرصة لروما أن تتدخل فى الشئون الداخلية لنوميديا وهو يعنى ليبيا حيث كان اليونان يطلقون على كل ما عرفوه من شمال أفريقيا عدا مصر وأثيوبيا اسم ليبيا هذا عن الأقليم الغربى أو الجزء الغربى من أمارة نوميديا، اما فى القسم الشرقى فقد كان الابن الأكبر هيبال بن مانيسيا Hii npsal. Massinissa ،يحكم وقد جعل بلاده ملجأ للهاربين من قواد الرومان خلال حروبهم الداخلية سواء فى

(٣) زاهر رياض: شمال افريقيا، ص ٨ .

(4) Julien, A. : Opc T.P. 132

شبه الجزيرة الايطالية أو فى أفريقيا حيث أملاك قرطاجة،فكان ان انتقلت الفوضى الى بلاده بعد أن كانت قد تعرضت الأجزاء الغربية فى الولاية لبعض الفوضى، حتى تعرض هذا الحاكم للعزل أكثر من مرة خلال العشرين عاما من حكمها،ولقد آلت أمور هذه الولاية بعد وفاته الى ابنه جوبا الأول بن هيمسال بن ماسينسيا والذى قام بالدخول فى خلافات مع روما حتى عهد حكم بوليوس قيصر،لذا فان روما قررت الاستيلاء على حكمه فقد بوليوس قيصر فى عام ٤٧ ق.م على رأس جيش مصطحبا معه جوبا ابن الملك وعهد به الى زوجته لتربيته حتى اذا كبر زوجه من كليوباترة ابنة أنطونيوس،وقسمت نوميديا الى قسمين ضم الغربى منها الى افريقيا وجعل تحت الحكم الرومانى المباشر وأعطى القسم الشرقى الى جوبا باسم افريقيا الجديدة [٥] .

وفى خلال الحرب بين يوليوس قيصر وأعدائه، فان أرض أفريقيا كانت مسرحا لكثير من الحروب،وهرب الى افريقيا نوميديا بعض أعداء يوليوس قيصر، ومن ثم اضطرت جيوش يوليوس قيصر لأن تقوم بمطاردتهم حتى ان الفوضى كانت قد شملت كل الساحل الأفريقى الشمالى الممتد من أقصى الغرب الى مصر حيث سادت الفوضى أيضا لكن فى النهاية فان الانتصار قد تم ليوليوس قيصر حيث سار منتصرا الى أوتيكا (أرض قرطاجة) تونس حاليا واستقر بها فترة من الزمن ليعيد تنظيم هذا الجزء من الدولة ولكن أفريقيا الجديدة الشرقية لم تعش الا مدة عشرين عاما حيث ضم القسمان بعدها الى بعضها باسم أفريقيا القديمة.

وقد شهد يوليوس قيصر توزيع اراضى افريقية الى جماعة من أثرياء الرومان من أجل استغلالها على نطاق واسع وسمح لكثير من العامة بالهجرة اليها والاقامة بها فأخذت المستعمرات الرومانية فى الظهور بقوة فى أراضى الشمال الأفريقى حيث أقام الرومان

(5) Bury. J. : Hist or of The Later Rofan empire. Vol . 2 . P 84

الحصون والاستحكامات.

وبعد موت يوليوس قيصر ظهر النزاع بين خلفائه والذى امتد بدوره الى الأراضى الأفريقية (بلاد المغرب) حتى استقر الأمر فى الامبراطورية الرومانية فقد عهد أوكتافيوس بادارة هذه البلاد الى عدد من ضباطه والذى جعل من أولى مهامهم الإهتمام بالزراعة من أجل حاجة شبه جزيرة ايطاليا الى الحبوب وخاصة القمح وأصبح حكام ذلك الاقليم من شمال أفريقيا لا قيمة لهم مطلقا. وأما القسم الشرقى فكان جوبا الثانى الذى رباه يوليوس قيصر ابن جوبا الأول (٢٤ق.م) قد ظل يحكم تلك الأنحاء حتى عام (١٩ق.م) ورغم كل الاضرابات التى تعرض لها الشمال الأفريقى فانه انتعش وازدهر حتى أصبحت العاصمة كما يقول ستراب Strobo, فتنة للعين وكثر فيها الاغريق وعنى الحاكم بتشجيع العلماء بالفلسفة كما آمن الطرق من أجل صالح التجارة حتى غدت تلك العاصمة تنافس روما فى عظمتها ومنشأتها وهذه الأعمدة التى تراها الآن تزحم الساحل الشمالى أو هذه الأخرى التى تزين المساجد الاسلامية الحالية تشهد بما بلغه فن المعمار من تقدم الأمر الذى اثار حسد الرومان .

وفى عهد الامبراطور الرومانى «كاليجو» كان يحكم الساحل الشمالى بطليموس بن جوبا الثانى بن جوبا الأول بن هميس بن ماسنيسا فان كاليجو استدعاه الى روما حيث تم قتله هناك وبذلك أصبحت بلاد الساحل الشمالى كلها تحت حكم روما المباشر وأرسلت الى أجزاءها المختلفة جيوش رومانية لتحافظ عليها وظل يتوالى عليها حكم الرومان حتى اكتسحته قبائل الوندال فى القرن الرابع الميلادى لكن سيطرة الوندال لم تدم طويلا ولم تتجاوز فى قدرتها القرن من الزمان حيث عادت السيطرة مرة أخرى على المغرب الى دائرة الامبراطورية الرومانية التى أصبحت تحمل اسمها الشرق وهى الامبراطورية البيزنطية[٦] وقد

(٦) ابراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، ص ٢٨ ، أحمد صفر، مدينة المغرب العربى. ص ٣٧ .

جعل الرومان كل شمال أفريقيا ولاية واحدة يحكمها حاكم عام يقيم فى مدينة أوتيكا،ومعه جيش كبير من الموظفين الرومانيين وذلك فيما عدا مصر وليبيا التى كان لكل منها حاكم مستقل وقسمت البلاد الى ثلاث مقاطعات كبيرة جعل لكل حاكم بدرجة قنصل تحت امرة الحاكم العام للاقليم،وكان ذلك التقسيم قد تم بعد عام (٣٤ق.م) أيام الامبراطور جستيان حيث قام القائد الرومانى بلزاريوس باستعادة شمال أفريقيا من أيدى الوندال، وبذلك أصبح شمال أفريقيا ولاية جديدة أفريقية رومانية تابعة لبيزنطة (القسطنطنية) وليس الى روما مرة ثانية،فيها أقامت قوات رومانية على الحدود فى الحصون التى امتدت على طول الساحل من مصر شرقا الى موريتانيا غربا حيث كانت موريتانيا احدى الولايات الست التى قسمت بها بيزنطة الساحل الى ستة أقسام [٧] وان كان الدكتور حسين مؤنس فى كتابه «معالم تاريخ المغرب والأندلس» يقرر أن معلوماتنا عن المغرب قبيل الفتح الاسلامى تقتصر على أقاليم برقة وطرابلس وأفريقية التى تقابل ما يعرف اليوم بتونس وشئ قليل عن بقية سواحل المغرب الى المحيط الأطلسى فى حين أننا نجد أن القسطنطينية (قسمت الساحل الى ستة أقسام وهى:زوجيتانيا، بيزاسيوم، نوميديا، موريتانيا، تربيو، ليتنانا) (وقرطاجة). وقد ألحقت موريتانيا الغربية بجنوب أسبانيا باسم موريتانيا الأولى، اما موريتانيا الشرقية فانضمت الى نوميدا فى ولاية واحدة، بل انه تحت ضغط غزوات المسلمين فى بلاد الشام فصلت طرابلس فى عهد الامبراطور موريس عن أفريقيا (تونس) وأضيفت الى مصر [٨] .

وفيما يتعلق بأقليم برقة فأننا نجد أنها كانت قبيل الفتح الاسلامى داخلة فى زمام مصر بناء على آخر تقسيم للدولة البيزنطية وهو الذى قام به الامبراطور (مورسيوس موريس

(٧) ابراهيم بيضون: مرجع سابق، ص ٢٦ .

(٨) زاهر رياض: شمال افريقيا، ص ١٥ .

يوريف) .وقد ضمت فيه برقة الى مصر وكان اسم برقةفى العصر الرومانى الأغريقى قبل الفتح الاسلامى سيريتاكيا،نسبه الى مدينة يونانية انشأها اليونان تسمى سيرمنى ولقبها العرب فيرين، وأحيانا،فوريتاء وفى بلدة قريبة من مدينة برقة حاليا ويسمى أقليم برقة أحيانا انطابلس، وهو تحريف للفظ يونانى هو بنتابولس Penta Polis أى المدائن الخمس وهى مدن صغيرة أنشأها الأغريق فى هذا الاقليم ومنها قبرين التى ذكرناها ولكن الصلة الحقيقية بين مصر وهذا الاقليم البعيد عنها الى الغرب لم تكن واضحة فى ذلك العصر وهو النصف الأول من القرن السابع الميلادى فلا ندرى ان كان بها عامل للروم أو ممثل لادارة مصر البيزنطية ولكن عندما وصل العرب الى تلك الأماكن وجدوا السلطة الفعلية بيد قبيلتين من البربر هما قبيلة لواتة وهوارة وهما من قبائل البربر اليتر وسيكون لهما شأنهما بل شأن كبير فى العصور الاسلامية ويذهب بعض المؤرخين وبالذات مؤرخى المغرب ومنهم ابن خلدون الى أن هوارة من البرانس أى البربر الحضر المستقرين وهذا لا يغير من وأقع الأمر شيئا لأن تصرف هوارة كان دائما مع الزناتيين التى هى فرع من زناتة،هذا عن أقليم برقة أولى الأقاليم المغربية شرقا قبل العصر الاسلامى، فاذا انتقلنا أكثر بعدا فى اتجاه الغرب حيث انا نصادف اقليم طرابلس وهو الأقليم الثانى الذى تتكون منه ليبيا، فنجد أن أصل هذا اللفظ أغريقى أيضا ومعناه المدن الثلاث (ترى بولس) وجدنا أن الأقليم لم يكن واضح التبعية فقد كان فى الأصل تابعا للرومان فى روما ثم بعد ذلك الى بيزنطة فى القسطنطينية وبعد ذلك لا نعرف الى أى ناحية سياسية كان يتبع حينذاك وعندما يصل العرب الى هذه النواحى سيلقون فيه قبيلة بربرية هى«نفوسة»وكان مركزها منطقة جبلية الى الجنوب من طرابلس تسمى جبال نفوسة،وفى فترة الفتح الاسلامى أى فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى كانت الجبال جبالا خضراء عامرة بالقرى والمراعى والناس وكانت قبيلة نفوسة هذه من أقوى وأهم قبائل طرابلس وعندما يصل العرب الى هناك سيكون تعاملها مع

هذه القبيلة [٧] .

أما فيما يتعلق بأقليم أفريقية (تونس) فاننا نجد ذلك الأقليم تابعا للدولة البيزنطية فهناك حكم بيزنطى واضح يقوم به عامل للروم يسمى بالبطريق ومعه قوة عسكرية والبلاد مقسمة الى قسمين بل الى ولاتين كبيرتين ولاية شمالية أى فى الشمال حيث الساحل المطل على البحر المتوسط وهى الى الشمال تقريبا من مدينة القيرون الحالية وتمتد الى البحر وتسمى تلك الولاية زوبجتانيا وهى احدى الولايات الست التى قسم بها البيزنطيون ساحل أفريقيا، وهناك كانت العاصمة قرطاجة ذات التاريخ الطويل والتى دمرها الرومان تدميرا تاما وهناك ايضا كانت الجاليه الرومية متمركزة فى مدن الساحل فى امثال (قرطاجه،سوسة – المنستر، والحمامات) . ومع تلك الجاليات الروميه التى كانت تتكون من الروم ومن المهاجرين من سواطئ اوربا الجنوبيه كانت تعيش طائفة من سكان المغرب تسمى بالافارقة ويطلق هذا اللفظ على مزيج من البربر والاجناس التى حكمت افريقيا واجزاء من ساحل المغرب وهم جنس يختلف عن البربر بعض الشئ فهم قوم حضر مستقرون ما بين زراع وتجار ورعاة فى العادة وكانوا يتكلمون لغة ساحلية من لغات شواطئ المتوسط وكانت المسيحية منتشرة فيهم وكان الكثير منهم يعرفون اللغةاللاتينية والاغريقية وهؤلاء هم الذين كانوا يتعاملون مع الرومان والروم الحكام وسيتعامل العرب مع هؤلاء وسيكسبونهم الى الاسلام ويختلطون بهم وبالبربر ومن هذا كله سيتكون سكان افريقيا الاسلامية او المغرب العربى الاسلامى .

اما الولايات الجنوبية فى تونس فكانت تسمى (بيزاسينا) او بيزاسيوم وتقع جنوب خط خط مدينة القيروان .

---

(٩) حسين مؤنس، مرجع سابق، ص ٢٨ .

وهى ولاية بها مزارع واسعة،كما ان ارضها صالحة للمراعى وفى جنوبها تقع بلاد الجريد اى بلاد النخيل وهى واحات وافرة المياه معظم سكانها من البربر،ولكن كانت للروم فى تلك الانحاء حصون متناثرة ومن هنا سمى بعض نواحيها باسم قسنطينة وهى من اللفظ اللاتينى كستيلا Casteila أى بمعنى الحصن أو معناه الحصون والمدينة الرئيسية قابس على البحر وهى باب أفريقية من الشرق وقفصة وتورز ونفطة وهى عواصم بلاد الجريد التى يتوسطها شط الجريد وجنوبى بلاد الجريد،وتقع بلاد الساحل والمراد بها هنا ساحل الصحراء الكبرى الشمالية لان العرب كانوا يرون أن الصحراء هى بحر الرمال وكانوا يسمون الواحات بالجزائر ولفظ الواحات أو الواح لا يطلق فى الجغرافية العربية الا على واحات مصر لان اللفظ مصرى قديم وكلمة واح معناها الماء .

وقبيل الفتح الاسلامى لبلاد الشمال الافريقى كان يحكم أفريقية(توش) بطريق يسمى جرجير أو جريجورس ويسميه العرب جرجير وكان هذا الرجل قد اختلف مع الروم وحاولوا الاستقلال عنهم بحكم تلك الانحاء ونشبت خصومة كبيرة بين الجانبين بينما كانوا قد اتموا فعلا فتح مصر ٢٢ هجرية ٦٤٢م ولم يكن يخطر على بال جرجير أن قوة من الجيوش العربية الاسلامية كان يمكن أن تأتى من ناحية الشرق، ولهذا كان ظنه أنه ينشئ دولة لنفسه فى هذه الناحيه فى الشمال الافريقى له ولاسرته ولكى يحتمى من الروم ولا يخضع لحكمهم انسحب الى داخل البلاد تاركا العاصمة وتحصن فى بلدة صغيرة داخلية كان لها حصن منبع يسمى اسبيطلة الى جنوبى القيروان الحالية.

وفى سبيطلة اطمأن هذا الرجل ولكن اطمئنانه لم يدم طويلا لانه فوجئ بطلائع العرب تدخل اقليم برقه،أما بقية المغرب فلا تعرف عنها الا القليل حيث كانت مراكز الجاليات الرومية والحصون تملأ الساحل حتى ساحل المحيط الاطلسى .

كذلك فان بلاد المغرب قبل الفتح الاسلامى من الناحيه الحضاريه كانت مركز

عمران بيزنطى وكانت اقليما عامرا أى فيه مدن كثيرة وأراضى زراعية مزروعة والعديد من الموانى عل ساحل البحر المتوسط والبلاد كانت عامرة بالحركة وكانت المسيحية منتشرة بين الافارقة وبالذات بين الجاليات الرومية فقط/. أما البربر فلم تصل المسيحية البهم ولم تكن ظاهرة آو منتشرة بصورة واضحة فكانوا على الوثنية ولا توجد أدنى علامة ظاهرة أو عميقة بين الروم والبربر ولهذا سوف نجد العرب عندما يصلون الى أفريقيا سيكون صراعهم مع الروم أو البيزنطين أولا فلما تغلبوا على مقاومة الروم وخلصوا منهم حرروا البلاد منهم فانهم سوف يدخلون فى علاقات مع البربر [١٠] .

وكان انتشار المسيحية بين الرومان أنفسهم أو بعض سكان الساحل أما بقية الداخل من البربر فقد ظلوا على وثنيتهم حتى دخول الاسلام الى تلك الديار. وأن البربر كانوا يكثرون من الأغارة على مدن الساحل بل أنهم كانوا يقومون بالإغارة على برقة،وقد اضطهدت المسيحية على الساحل فى عهد الوندال حيث حرم المسيحيون من ممارسة شعائرهم الدينية ولما هزم الوندال عام ٥٣٤م لم يكن الوجود المسيحى الا نادرا خلال القرن السابق لقدوم المسلمين والفتح الاسلامى كثرت غارات الوثنيين من قبائل البربر على مدن الساحل،بل أن الكنيسة الافريقية كانت تعانى مثلما تعانى الكنيسة المصرية من اضطهاد الكنيسة القسطنطيينية، ومن المؤكد أن نقص عدد الأساقفة فى أفريقيا يدل على نقص عدد المسيحيين وظل عددهم يتناقص بالتدريج خلال الخمسين عاما التى سبقت الفتح العربى الاسلامى [١١] ومن هنا كان الفتح الاسلامى ايذانا بانتشار العروبة والاسلام على نطاق واسع فى بلاد المغرب حيث كان المسيحيون يجدون فى الحكام المسلمين كل مودة وتسامح وعلى هذا كان المد الاسلامى قويا وجارفا فى كل بلاد المغرب العربى وهذا ما نراه فى الأبواب القادمة .

(١٠) حسين مؤنس: مرجع سابق، ص ٢٩ .
(١١) زاهر رياض: مرجع سابق، ص ٣٥ .

الباب الثانى

محاولات الغزو الاسلامى

بعد ان تمكن الوضع الاسلامى فى بسط لوائه وأنواره القرآنية فى مصر فانه بدا يجاوز حدود البلاد الغربية متطلعا الى بلاد المغرب، لذا فانه من الغربيب أن يحدث هذا الفتح لبلاد المغرب أو محاولة اطوائها تحت لواء الاسلام بعد اتمام فتح مصر مباشرة، وبعد تلك الجهود العربية الاسلامية التى بذلت لقهر البيزنطين وطردهم منها وتحرير البلاد من كل اردانهم [١] وفتح المغرب يحتل سجلا خاصا فى تاريخ العرب العسكرى، فقد اختلف عن بقية الفتوحات التى تمت فى وقت يسير وجهود عسكرية متواضعة حيث كان لاستراتيجية الحرب الخاطفة الأثر الكبير فى تحقيق انجازات لازالت موضع دهشة المختصين بالشئون العسكرية فعلى عكس ما حدث فى جبهات الشام والعراق ومصر فضلا عن الامبراطورية التى انهارت فى أقل من عشر سنوات وأصبح الحكم عربيا خالصا، نجد جبهة المغرب تخرج على هذه القاعدة وتصاب الجهود العربية فيها بنكسات متلاحقة قبل أن تخلد بلاد المغرب للاستسلام حيث تم للعرب والمسلمين فيها الاستقرار النهائى، ولا يعود ذلك الى متاعب داخليه فقط حالت دون التفرغ لحسم الموقف على جبهة المغرب بصورة كاملة، وان كنا لا نستطيع اجمال ما تركته الأزمات السياسية فى الدولة العربية الاسلامية من اثر سلبى واضح على جهاز الحكم ولكن العامل الأهم كان له علاقة بجغرافية الأرض ذات الطبيعة الجبلية الوعرة والقبائل الشديدة اليأس المتمسكة بكياناتها التقليدية والمحترفة لأساليب الحرب الخاطفة التى برع فيها العرب، يساعدها على ذلك معرفة جيدة بطبيعة الأرض وشعابها وكهوفها ووديانها فهذا النوع من المجابهة ما لبث أن تحول مع الممارسة الى ما يشبه حروب العصابات فى اطار المفهوم المعاصر بكل ما تعنية هذه الكلمة [٢] .

(١) حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص ٦٨ .

(٢) ابراهيم بيضون: مرجع سابق، ص ٢١ .

كذلك اذا استطعنا أن نحدد تاريخا ثانيا لفتح فارس أو الشام أو مصر، فتحديد تاريخ ثابت لفتح العرب لشمال افريقيا ليس بهذه السهولة، فشمال افريقيا قطر متسع ممتد وان كان قبل الفتح الاسلامى خاضعا لعدة سلطات حيث الساحل خاضع لنفوذ البيزنطيين والداخل يخضع لنفوذ قبائل البربر، علاوة على الصعوبات الأخرى مثل طبيعة الأرض الجبليه وأحوال السكان وبعد هذه البلاد عن مراكز الحكم سواء فى المدينة أو دمشق مما جعل ارسال الحملات الحربية يقتضى استعداد كبيرا، هذا الى جانب قوة وشكيمة البربر وشجاعتهم والروح الحربية المتأصلة فيهم، كذلك فأنه يجب الا ننسى ما كان فى الحوادث الداخلية فى الدولة الاسلامية حين انصرف الخلفاء الى تثبيت دعائم الحكم الذى حصلوا عليه مثل القضاء على ثوره الحسن بن على بن أبى طالب،ثم ثورة عبد الله بن الزبير.

والبديات الأولى لفتح المغرب تعود الى مطلع العقد الثالث من القرن الأولى للهجرة وكان عمرو بن العاص احد قواد الفتوح الاسلامية قد انهى السيطرة على مصر خلال سنوات ثلاث ١٨-٢١هـ/٦٣٩-٦٤٢م-حيث تم له بعد ذلك انشاء مدينة الفسطاط واتخاذها عاصمة له ومقرا للجند العربى [٣] فبدأ عمرو بن العاص بعد تسليم الاسكندرية مباشرة يتوغل بقواته صوب الغرب متعقبا القوات البيزنطية المتقهقرة حيث اتجه ببصره نحو برقة بعد أن كان قد تابع سيره غربا الى برقة أو ما كان يعرف قديما (انطابلس، وهو تحريف للكلمة اليونانية بنتابوليس ومعناها المدن الخمس أو المدائن الخمس) [٤] ولعل التفسير المقبول لهذه الخطوة أن عمرو بن العاص فاتح مصر اراد تأمين حدود مصر الغربية،بل تأمين حدود دفاعية لهذا الاقليم المهم من الغرب لأن أية خطة منظمة للتوسع

(٣) حسن محمود: الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا، ص ٩١ .

(٤) عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسى للدولة العربية، جـ ١ ص ٢٢٤ .

أبعد من ذلك لم تكن قد ظهرت بعد،فالقوة العسكرية التى استخدمت للأستيلاء على مصر وهى جزء من قوات الخلافه المنتشرة على عدة جبهات فى الشرق لم تكن كافية لتنفيذ عملية توسعية جديدة،فضلا عن أن أوامر الخليفة الراشد الثانى عمرو بن الخطاب المتشددة بعدم التوغل بعيدا فى بلاد لا تزال مجهولة فأقتنع بتحقيق نوع من السيادة غير الفعلية ظهرت فى وجود حاميات صغيرة من الجند وفى استيفاء الضرائب من السكان ومن الملاحظ أن حملة عمرو بن العاص قد اتخذت طريقها الى المغرب بعد اتمام فتح الاسكندرية ويعتقد أنها سلكت على الأرجح الطريق المحاذى للساحل الى برقة التى كانت معقلا من معاقل البربر خاصة قبيلة لواتة [٥] .

ولقد كانت معاهدة الاسكندرية فى ١٦ شوال ٢١هـ/١٧ سبتمبر ٦٤٢م مشجعا لعمرو بن العاص بأن يتجه غربا بعد أن استقر فى عاصمته الجديدة الفسطاط وهنا نجد ذلك الفاتح العربى العظيم ينهض للاستيلاء على برقة فى أواخر عام ٢٢هـ/٦٤٣م فسار بنفسه اليها ووقع بينه وبين قبائل البربر من هوارة ولواته قتال قصير،ثم استسلموا للعرب وعقدوا مع عمرو بن العاص اتفاقا على أن يؤدوا مبلغا قدره ثلاثة عشر ألف دينار سنويا بصفة ضرائب أو جزية ثم عاد الى مصر، وتفهم من ذلك أن برقة كما سبق أن أوضحنا كانت جزءا من أرض مصر أو ولاية مصرية فكان فتحها استكمالا لفتح مصر وان هذه الجزية كانت جزء من خراج مصر العام [٦] .

ولا ندرى ما اذا كان للبيزنطيين قواعد عسكرية فى هذه الجهات واذا صح وجودها فما هو موقفها من الحملة العربية، ذلك أن غموضا يحيط بالموقف البيزنطى فى تلك الانحاء وفى تلك الأثناء ولعل تواجدهم هنا كان ضعيفا أو متلاشيا ربما تحت ضغط البربر«اللواتين» أو لان سقوط الاسكندرية أحدث ارتباكا فى صفوفهم وحال دون القيام

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص ٢٣٩ .
(٦) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣١ .

بدور ما لمنع تقدم العرب فى هذا الاتجاه وعلى الأرجح أن الثقل العسكرى للبيزنطيين كان محصورا الى القرب من طرابلس حيث القاعدة العسكرية الشهيرة «قرطاجه» لذلك فان القاذد العربى العظيم عمرو بن العاص نفذ مشروعه الرامى الى دخول المغرب عبر موانيه الرئيسية «برقة» ودون أن يلقى أية مقاومة فى الطريق اليها حيث استسلمت هذه المدينة ورحبت قبيلتها البترية العريقة لواته لقاء ضريبة يحددها ابن عذرى المراكشى بثلاثة عشرة ألف دينار [٧] ويبدو أنه كانت لأخبار الفتوح العربية فى مصر التى سبقت هذه الحملة على برقة الأثر الكبير فى استسلام مدينة برقة المعروف عن أهلها من البربر اللواتين الصلابة والنزوع الى الاستقلال حيث كان ذلك يظهر سابقا فى مقاومتهم ومصارعتهم للبيزنطيين واجبارهم على الاعتراف بسيادتهم على تلك المناطق وعدم الخضوع للسيطرة البيزنطية ومحاربة النفوذ البيزنطى فى السواحل [٨] .

وبعد ذلك بقليل نجد أن عمرو بن العاص يقود غزوة عربية اسلامية أخرى عام ٢٣هـ/٦٤٤م فيفتح اقليم طرابلس ويستولى على قاعدته التى تحمل نفس الاسم بعد قتال عنيف ولكنه قصير مع الروم والبربر أيضا وكان عمرو بن العاص قد تابع من برقة مسيرة بمحاذاة الساحل صوب طرابلس (المدن الثلاث) أو طرابلس كما جاء فى فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم وهى مدينة منيعة استطاع البيزنطيين تحصينها بالأسوار من جميع الجهات باستثناء الجهة المطلة على البحر، ولكن طرابلس سقطت بعد شهر من حصارها ويبدو أن عامل المفاجأة كان له دور فى نجاح العملية حيث تسلل المهاجمون من ناحية البحر [٩] وفى نفس الوقت أحبطت المحاولة التى قامت بها قبيلة نفوسة البترية لفك الحصار عن المدينة وكانت هذه القبيلة تتخذ من مدينة سرت معقلا لها وهى لا تلبث أن تلقى مصير طرابلس وتستسلم بعد قليل من الوقت وقد حدث ذلك فى أواخر عام ٢٣هـ

(٧) ابن عذارى المراكشى: البيان المغرب، جـ ١ ص ٨ .
(٨) ابراهيم بيضون: مرجع سابق ص ٢٣ .
(٩) ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص ٣١ .

وكانت سرت آخر مدينة مغربية بلغها ابن العاص على الساحل الافريقى الشمالى وكان كل اهتمامه موجها الى التفاهم مع قبيلة نفوسة وتم له ذلك،ثم عاد الى مصر عام ٢٥هـ/٦٤٥م وكانت هذه هى اخر فتوح ذلك الرجل العظيم عمرو بن العاص،حيث ما كاد يقترب من حدود تونس وتبلغه أنباء تجمعات الروم حتى عاد ادراجه الى مصر [١٠] ثم عندما تولى الخلافة الاسلامية الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان فانه عزل عمروا عن مصر لكن عمرو بن العاص عاد مرة أخرى الى ولاية مصر عام ٤٠هـ/٦٦٠م عقب قيام خلافة معاوية بن ابى سفيان ولكن تقدمه فى السن فى ولايته الثانية كانت من العوامل التى حالت دون قيامه بأية فتوح فى أرض المغرب وعلى أية حال فان ما قام به عمرو بن العاص من فتوحات اسلامية فى تاريخ الاسلام نضعه فى الصف الأول من بناة الدولة الاسلامية فى القرن الأول الهجرى فهو الذى فتح فلسطين ومصر وهذا الجزء من أرض المغرب حتى حدود تونس حيث أنه بهذا الفتح ألمبين اضاف الى دولة الاسلام أكثر من ثلث ما فتحته جيوشها لكنها الى ذلك الوقت وفى التاريخ الاسلامى لمصر والمغرب يعتبر عمرو بن العاص أول أبطال ذلك التاريخ [١١] .

ثم اننا نلاحظ بعد دخول قوات عمرو الى مدينة سرت،أن التحرك العسكرى العربى الاسلامى لم يأخذ الخط الساحلى الموازى لساحل البحر المتوسط طريقا فقط الى فتح بلاد المغرب، انما تفرع من تلك الحملة العسكرية التى قادها ابن العاص حملة صغيرة يقودها يافع السن هو عقبة ابن نافع الفهرى، والذى سوف يكون له تاريخ عظيم فى فتح المغرب فيما بعد.حيث انه بعد سقوط برقة عام ٢٢هـ/٦٤٣م قاد عقبة بن نافع الفهرى غزوة صغيرة الى الجنوب وذلك للقيام بعمل منسق مع قائده ابن العاص من أجل ضرب تحركات القبائل البربرية التى كانت تقطن جنوبا فى الصحراء حيث تلك الجهات الواسعة وذلك لمنعها من القيام بأى عمل من الأعمال العسكرية والتى ربما تعوق تقدم العرب

(١٠) حسن محمود: مرجع سابق، ص ٩١ .

(١١) حسين مؤنس: مرجع سابق ، ص ٣١ .

غربا الى طرابلس ومدينة سرت،وقد حققت هذه الغزوة الصغيرة انتصارات مهمة فى مدينة وفزان وزويلة [١٢] .

ولقد عاش هذا القائد الشاب الشجاع بعد ذلك سنوات طويلة بين البربر واستطاع خلالها بشخصيته القوية وبما انغرس فى قلبه من ايمان عميق أن يطوع بعض قبائلهم ويشد كثير منهم الى الاسلام حتى اذا تسلم الأمويون قيادة الأمة العربية الاسلامية جئ بعقبة بن نافع كخبير فى الشئون الأفريقية ليستأنف بصورة أكثر جدية مرحلة الفتح المنظم للمغرب للاستقرار [١٣] .

بل أنه يذكر أن عقبة بن نافع الفهرى قد وصل الى الجنوب أكثر من ودان وفزان وزويلة حيث وصل الى مدينة كوار بل وصل الى أكثر من ذلك جنوبا الى منطقة يقال لها«مربط الفرس»على مسافة قريبة من بحيرة تشاد وأنه لو وجد دليلا يدله الى الطريق جنوبا لوصلت القوات الاسلامية الى حوض بحيرة تشاد ولكنه عاد أدراجه شمالا لأنه لم يجد من يدله من البربر على الطريق جنوبا وهكذا نرى مدى البعد الاسلامى العربى فى الربع الأول من القرن الهجرى [١٤] .

ولقد اكتفت القيادة العربية فى المدينة المنورة بهذا القدر من الانتصارات التى حققتها فى برقة وطرابلس،فأمرت حملة عمرو بن العاص بالعودة الى مصر حيث أصبح حاكما عليها ولم يمر سوى عام واحد حتى تسلم الخليفة عثمان الحكم ليعزل بعد قليل من الوقت حاكم مصر وأول قائد عربى ارتبط اسمه بالفتوحات فى أفريقيا،ويبعث أخاه فى الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبى سرج وليا على مصر وأجزاء المغرب المفتوحة والتى تدفع الجزية لمصر.

(١٢) ابن عبد الحكم: مصدر سابق ، ص ٢٤ .

(١٣) حسين مؤنس: فجر الاندلس، ص ٣٧ .

ولقد طلب من عثمان بن عفان الاذن بفتح أفريقيا فأذن له بفتحها، وذلك بعد استقراره فى الفسطاط والحصول على الاذن فى السير لمواصلة فتح المغرب. وبعد تردد اذن له عثمان بن عفان بذلك. وكان الحاكم الجديد لمصر بعد استقراره فى الفسطاط قد بدأ نشاطه الأفريقى بسلسلة من العمليات الاستطلاعية لدراسة الموقف عن كثب تمهيدا لاستئناف النشاط العسكرى وسياسة الغزو فى سبيل الله والتوسع والتى بدأها الوالى السابق ولكى تصبح الصورة أكثر وضوحا نجد عبد الله بن سعد بن أبى سرج يراسل الخليفة بشأن حملة جديدة يقوم بها للغزو فى أرض المغرب [١٥] ويبدو أن تفاهما مسبقا قد جرى بين الاثنين للقيام بعمل عسكرى بارز يهدف الفات النظر الى الحاكم المركزى فى المدينة المنورة الذى لازال غير قادر على ملء الفراغ الكبير بعد غياب الخليفة القوى السابق عمر بن الخطاب .

ويأخذ الاعداد لهذا العمل العسكرى اسلوا جديدا من أساليب الشورى الاسلامية،اذ نجد الخليفة عثمان بن عفان يجتمع بكبار الصحابة ضوان الله عليهم للوقوف على رأيهم بهذا الشأن فى مواصلة الفتح فى أرض المغرب [١٦] وتمتلئ المدينة المنور عاصمة الخلافة الراشدة بأخبار الحملة الزفريقية وتمتلئ المدينة المنورة بأفواج الجند القادمين من مختلف القبائل العربية ولم تلبث طلائعها أن غادرت المدينة وعلى رأسها أحد أقارب عثمان بن عفان(الحارث بن الحكم) ومعه عدد كبير من زعماء المدينة الذين شاركوا فيها ومنهم أخوة مروان وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن العباس وغيرهم.وفى هذا الجيش اشترك نفر كبير من ابناء الصحابة والكثيرون منهم يسمون عبد الله ولهذا سمى ذلك الجيش،جيش العبادلة،ومن اشهر من سار فيه عبد

(١٥) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٢٢٦ .

(١٦) ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص ٤٦٢ .

الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب،كذلك كان فى الجيش أيضا عبد الملك بن مروان وكانوا جميعا شباب فى السنى الباكرة وكان أباؤهم يشركونهم فى الفتوح لأنها كانت ميدان التدريب والتكوين لشباب الجيل الثانى من أمة الاسلام،ففى ميدان القتال كانوا يقتبسون ثقافة العصر وهو الجهاد والفتوح وممارسة الحكم واستخراج الأحكام من الأصول ومن القرآن الكريم والسنة وفى مصر زوذت الحملة بنحو عشرين ألف من المقاتلين وكانت بعض منها قوات اضافية فى حامية الفسطاط وكان معظم هذه القوات من الفرسان،وسار عبد الله بن سعد بن أبى سرج القائد لهذه القوات بهذا العدد الكبير الى المغرب الأدنى [١٧] .

وفى هذا الصدد نجد الدكتور زاهر رياض والذى سار أكثر من الأوربيين أعداء الاسلام فى تصويرة الفتح الاسلامى لبلاد المغرب وغيرها من أقطار الأرض المعمورة والذى كان لأجل تحرير الانسان من ربقة الرق والاستغلال ونشر أنوار الاسلام وهداية البشرية الى دين الله القويم والأخذ بيدها الى مدارج الرقى والحضارة، يصور ذلك الفتح بان الهدف الأساسى منه الحصول على الغنائم والأسلاب وفرض الجزية،وفى هذه الحملة يقول أن عبد الله بن سعد بن أبى سرج بعث ببعض جنده علاوة على جند مصر بقيادة عقبة بن نافع الفهرى ليستطلع أحوال المغرب حتى اذا اطمأن الى الأخبار التى حملها عقبة سار هو اليها فى عام ٢٦هـ/٦٤٧م بعد أن وعده عثمان بن عفان بخمس خمس الغنيمة خاصا به (وهكذا يصور الاسلام بأنه يقسم غنيمة) [١٨] من قبل الذين لا يرضيهم انتشار راية الاسلام فى أرجاء جديدة .

وأحس حاكمهما «جريجورس» الرومانى بالخطر وكان قد اعلن استقلاله عن الدولة

(١٧) ابراهيم بيضون: مرجع سابق، ص ٢٥ .

(١٨) زاهر رياض: مرجع سابق، ص ١٨ .

الرومانية حديثا واحتاج الى فسحة من الوقت ليعزز قوته وسار اليها عبد الله بن سعد بن أبى سرج وفتح سهلها وجبلها وقتل من أهلها خلقا كثيرا منهم جريجورس القائد وأسلم ابنه واستولى على نصيبه من الغنيمه (هكذا يركز زاهر رياض على أن الاسلام من أجل الاسلاب والغنائم) كما وعده عثمان بن عفان وبعث ببقية الخمس الى عثمان وفرق الباقى على الجند فبلغ نصيب الفارس ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار كما صالح بطريقها على ألف دينار وخمسمائة ألف، فأطلق عثمان بن عفان الجزء الذى وصله فى يوم واحد من آل الحكم وقبل فى آل مروان (ونسى زاهر رياض قول الخليفة الخامس الراشد عمر بن عبد العزيز أن الله بعث محمد ﷺ هاديا ولم يبعثه جابيا، فهل يتعظ هؤلاء الذين عادوا الاسلام أكثر من عداوة الأوربيين).

لكن حملة عبد الله بن سعد بن أبى سرج كانت فى عام ٦٤٩/٥٢٨م ففيها وصلت طلائع الجيش العربى الى أفريقيا(تونس) الذى كان يتكون من عشرين ألف من العرب وتوغل بهم حتى وصل الى تونس مرة أخرى وفوجئ بها جرير، فاستعد للقاء ونلاحظ من ذلك التاريخ الباكر ان كثيرا من البربر وخاصة من لواتة وهوارة ونفوسة قد انضموا للعرب وأسلموا للتقارب الاجتماعى بين الفريقين ونستنتج من هذا أن الكثيرين من اوائل البربر دخلوا فى الاسلام فى ذلك الوقت المبكر،ومن المعروف أن البربر مثلهم فى ذلك مثل الفرس وأهل الشام والمصريين كانوا من اوائل الشعوب اعتناقا للاسلام [١٩].

وقد اتخذت تلك الحملة على الأرجح الطريق الساحلى [٢٠]، ويلاحظ أن هذا الطريق قد أصبح المعبر التقليدى لحملات العرب العسكرية الى المغرب، اذ تحاشى هؤلاء المسلمون الصحراء فى الداخل وتعمدوا اتخاذ الخط الساحلى حيث المدن والركائز

(١٩) حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص ٦٨ .

(٢٠) ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص ٢٤٦ .

العمرانية والحضارية، وفى تلك الأثناء كانت أخبار تقدم الجيش العربى تصل الى مسامع حاكم أفريقيا البيزنطى جريجوس أو جرير حسب التعبير العربى وكان نفوذه يمتد ما بين طرابلس شرقا وطنجة غربا ويتخذ قرطاجة عاصمة له [٢١] فاخذ يعد للأمر عدته على أكثر من اتجاه فمن ناحية استنفز كل قوته التى تفوقت عدديا على القوات العربية حيث يقدر المؤرخون العرب قوة الروم بمائة الف أو مائة وخمسين ألف مقاتل،والذى لا شك فيه ان الجيش الرومى كان أضعاف الجيش لعربى وان كان معظم قوات العرب المكونة من عشرين ألف مقاتل من الفرسان وهذه حقيقة لها أهميتها [٢٢] ومن ناحية ثانية استطاع الحاكم البيزنطى أن يحمل مدينة طرابلس على العصيان والثورة فى محاولة منه لانهاك الجيش العربى قبل الوصول اليه وفعلا فوجئ العرب بتمرد المدينة فحاصروها ولكن خطة الحاكم البيزنطى لم تحقق هدفها المنشود لأن العرب رفعوا الحصار عن طرابلس وأثروا التوجه مباشرة الى معقل السيادة البيزنطية وفى مكان بعيدا عن الشاطئ وعلى مقربة من مدينة قديمة تعرف باسم سبيطبة حيث كان الحاكم البيزنطى حاشدا قوات كثيفة جرت معركة من أعنف المعارك فى تاريخ الحروب العربية البيزنطية وقتل جريجورس وعدد ضخم من جنوده وغرق الآخرون فى مختلف الاتجاهات وأسر وقتل الكثير من رجاله وفر الباقون الى الساحل وبدلا من أن يعقد عبد الله بن أبى سرج اتفاقا أو يضم هذه الناحية الى دولة الاسلام فيقيم فيها واليا ويترك حامية كما كانت عادة العرب.نجد عبد الله بن سعد يتفق مع اهل البلاد على جزية قدرها عشرين الف دينار (٢٠٠٠٠) ويعود الى مصر، وتخليدا لهذا الانتصار العظيم فى سبيطلة التى كانت من أهم المدن البيزنطية بعد قرطاجنة سيقيم العرب فى وقت لاحق بالقرب من هذا الموقع مدينة القيروان قاعدة أفريقية وعاصمة المغرب لامد طويل من الزمن، وبعد سبيطلة عاد عبد الله ابن سعد الى الفسطاط بعد غياب ستة

(٢١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ ٣، ص ٤٤١ .

(٢٢) ابن عبد الحكم: المصدر نفسه ، ص ٢٤٦ .

أشهر مكتفيا بما حققه من انتصار باهر دون أن تحمله نشوة النصر على الاستفادة من الظروف ومتابعة النشاط التوسعى فى هذه الجهات، ويبدو أن عبد الله خشى من تطويق البيزنطيين له وهو بعيد عن ولايته وعلى هذا فأن النتائج التى ستفسر عنها حملة سبيطلة لم تتناول أى تغير جديد فى الصراع على النفوذ فى المنطقة، فقد تراجع قائد الحملة بعد انتسار كبير دون أن يقيم مركزا عسكريا أو حامية مسلحة بل اقتنع بمجد النصر (٢٣) .

وأما من ناحية حصوله على ٢٠ ألف دينار جزية سنويا فربما كان هذا الرقم به خطأ قليل جدا وغير واضح كذلك لأننا لم نسمع من قبل أن أخذ العرب أتاوة من قوم ثم انصرفوا عنهم انما كانت عادتهم أن يأخذوا جزية مقررة ممن لا يرغبون فى دخول الاسلام من أهل البلاد المفتوحة،ولم تكن سبيطلة تخلو من نتائج مهمة فكانت ضربة قوية أصابت معنويات البيزنطيين فى صميمها وكان عليهم من الآن أن يحسبوا بدقة لكل مجابهة مع العرب وخاصة وأن غارتهم لاسترجاع طرابلس التى استعادها هؤلاء بعد انتصارهم فى سبيطلة ستنتهى الى فشل ذريع رغم تنسيق المواقف بينهم وبين حلفائهم من بعض القبائل البربرية.وعاد عبد الله بن سعد بن ابى سرج الى مصر فى أوائل ٢٩هـ/٦٤١م رغم هذا النصر،مما يدل على أن هذه المحاولات لم تكن رغبة حقيقية فى النصر حتى الفتح الى غايته انما هى مجرد تأمين لحدود مصر العربية وارهاب البيزنطيين فلا يفكرون فى الاغارة على حدود مصر من ناحية الغرب (٢٤) .

وقد يكون من اسباب عودة القوات العربية هذا الخلاف الحاد الذى نشب بين عبد الله بن ابى سرج وغيره من كبار أبناء الصحابة الذين كانوا معه وخاصة عبد الله بن الزبير،الذى تزعم الروايات أنه البطل الحقيقى لمعركة سبيطلة وهو أمر غير صحيح على الاطلاق،فوجد عبد الله بن سعد ابن أبى سرج أن خير ما يفعله هو أن يعود مسرعا الى

(٢٣) عبد الحميد العبادى: المجمل فى تاريخ الأندلس، ص ٢٦ .
(٢٤) حسن محمود: مرجع سابق، ص ٩١ .
(٢٥) حسين مؤنس: مرجع سابق، ص ٣٣ .

مصر دون أن يترك حامية أو يقوم بأى عمل سياسى أو عسكرى أو بشئ أو يثبت شيئا من السلطان للعرب فى هذه الناحية (٢٥) .

ولم تكن الغزوة سهلة بل ان هناك أقوال تذكر أن أخبارها قد انقطعت عن عثمان بن عفان بعض الوقت مما جعله يقلق على مصيرها مما حداه أن يرسل قوات أخرى اضافية بقيادة عبد الله بن الزبير على رأس فرقة ليتعرف على ما تم من الامر فأدرك ابن الزبير، عبد الله بن أبى سرج وقد بلغ به اليأس مبلغا عظيما وأدرك أن مطاولة الروم فى الحرب ستنتهى بالمسلمين الى كارثة اذاكانت الامدادات الى الروم متوالية عن طريق البحر بينما المسلمون بعيدون عن مراكزهم فلم يجد بدا من الهجوم الساحق الذى نال منه المسلمون النصر الحاسم مما دفع بعبد الله ابن أبى سرج الى ان يرسل الى عثمان بالمدينة بعبد الله بن الزير ليبشره بالنصر وعجل ابن ابى سرج بالعودة الى مصر بعد أن أمضى بأفريقيا سنة وشهرين دون أن يترك حامية أو يقيم مدينة أو يعمل على استمرار خضوع المقهورين وقد تكون تلك الحملة قد استغرقت أربعة عشر شهرا وليس ستة شهور كما ذكر بعض المؤرخين (٢٦) .

ولكننا نلاحظ على أى حال أن هذه الهزيمة التى أصيب بها الروم كانت حاسمة الى حد ما،فلم تعد لهم قوة كبيرة هناك بعد ذلك لان ظروف الدولة البيزنطية كانت سيئة جدا اذ زال نتيجة لاضمحلال قوة خلفاء هرقل ونتيجة حاجة الدوله البيزنطية الى رجال أقوياء فى قلب الدوله ليعيدوا النظام ويقفوا فى وجه الزحف العربى الذى يجتاح بلادهم من كل ناحية (٢٨) .

بل ان ابن الاثير يذكر أن دور عبد الله بن الزبير الذى ربما ادعى النصر لنفسه لم

(٢٦) ابراهيم بيضون: مرجع سابق، ص ٢٦ .
(٢٧) ابن الأثير: مصدر سابق، جـ ١ ، ص ٢١٢ .
(٢٨) ابراهيم بيضون: مرجع سابق، ص ٢٧ .

يقف دوره على مجرد حمل البشرى الى عثمان بن عفان بل سرعان ما أفشى ما اختص به عبد الله بن أبى السرج نفسه من الغنائم، فثار الناس على عثمان وزاد من سخطهم حيث وصلت الغنائم الى المدينة المنورة وتركها عثمان لآل الحكم فزادت من أسباب سخط الناس على عثمان وجاءت الفتنة بين على ومعاوية وانصرف الناس خلالها عن الفتح، وكانت حملة ابن سعد الى أفريقيا العمل العسكرى البارز فى عهد الخليفة عثمان باستثناء عمليات صغيرة على الاطراف الجنوبية من مصر ولم يقم بأى تحرك جديد فى هذه الجهة لأن الخلافة أغرقتها أزماتها الداخلية التى فجرها الصراع على النفوذ بين جماعة السلطة من الأقارب والأعوان وبين كبار رجال العسكريين والقوادالمبعدين فى الثكنات والحملات الحربية، وعكست هذه الحالة تأثيرها السلبى على السيلسة الخارجية للفتح والغزو بحيث أصيبت الجبهات المختلفة لاسيما الجبهة الافريقية بركود طويل استمر حتى الخلافة الراشدة ومجئ الأسرة الأموية بزعامة معاوية بن أبى سفيان لان السنوات الخمس التى أمضاها الخليفة الرابع على بن أبى طالب فى الحكم أخذت فيها الحرب الأهلية كل اهتمامه [٢٨] وبهذا فان العرب لم يقوموا بأى عمل فى أفريقيا حتى أيام معاوية بن أبى سفيان ولكننا نلاحظ أن نوعا من الوفاق والتعاون قد تم بين العرب والبربر، فمن ناحية أطمان البربر الى أن لهم فى المغرب حليفا قويا يستطيع حمايتهم من الروم اذ فكر هؤلاء فى العوده الى البلاد مرة أخرى،وعلى أية حال فقد أفاد البربر من ذلك الغزو فائدة كبيرة فقد استقلوا عن الروم ولم يعودوا يؤدون اليهم الجزية وكانوا يشعرون أن الروم اذا عادوا لن يلبث العرب أن يعودوا هم الآخرون وكل ذلك فى صالحهم [٢٩] .

ولقد كان ارتداد المسلمين عن تلك الأماكن سببه بداية الفتنة الاسلامية الكبرى فى عهد عثمان وبداية تزعزع مكانة هذا الخليفة فى نفوس المسلمين،ذلك لأن المسلمين

(٢٩) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٣ .

لم يلقوا السلاح ولم يكن من المعقول أن ينزلوا عن هذه الآفاق الجديدة التى يمكن أن تمتد اليها الدعوة الاسلامية،فما كادت الدولة الاسلامية تفيق من متاعبها بقيام الدولة الأموية حتى كان الخليفة معاوية ابن ابى سفيان أسرع الناس الى معاودة النضال ليكسب للخلافة الناشئة تأييد كافة المسلمين بسبب احياء حركة الجهاد الاسلامى فى سبيل الله وفى سبيل نشر العقيدة الاسلامية الخالدة [٣٠] .

معاوية بن أبى سفيان والفتوحات فى المغرب

أعيدعمرو بن العاص الى مركزه السابق كحاكم لمصر والتى كانت تلك التولية جزءا من التسوية التى اتفق عليها بين الرجلين فى صفين ولكن معاوية الذكى كان يقظا فى مراقبة واليه الطامع الى جعل مصر وما يتبعها ملكا آخر لا يقل بريقا عن سيده معاويه فما كاد يعود للفسطاط حتى أخذ يخطط لاتساع ولايته باتجاه الغرب والجنوب، لأن الانتصارات السابقه التى حققها فى مصر وبرقة وطرابلس،والسرعة التى تمت بها أعطته ثقة كبيرة فى نفسه ولم تدعه يخلد الى الاكتفاء بما حصلت عليه يداه فتاق الى التوسع والمزيد من السيطرة والثراء، وكانت تلك الحملات الدورية الصغيرة التى أخذت طريقها فى أكثر من اتجاه، فنجحت فى قمع حركات البربر الذين خضعوا فى وقت سابق للحكم العربى ولكن ولاءهم كان سطحيا، اذ كانوا يلجأون الى التمرد بين الحين والآخر،ثم انتشرت الى الجنوب وحققت السيطرة على بعض المواقع المهمة فى أرض السودان الأوسط وكان لواء هذه الحملات معقودا لعقبة بن نافع قائد الحامية فى برقة وقريب عمرو بن العاص [٣١] .

ورغم اهمية هذا الجهد الذى قام به عقبة بن نافع فان ذلك لم يدخل فى اطار

(٣٠) حسن محمود: مرجع سابق ص ٩٢ .

(٣١) ابراهيم بيضون: مرجع سابق ص ٢٨ .

العمل الجدى لاستئناف النشاط التوسعى فى المغرب،بل كان مجرد عمليات استطلاعية أو حملات وقائية شنها ضد قبائل البربر المذبذبة فى الولاء للحكم العربى،غير أن هذه الحملات ستكون بدون ريب مقدمة للفتح المنظم الذى كان رائده وفارسه عقبه بن نافع، وهكذا انحصرت جهود حاكم مصر فى اطار ضيق لا يتناسب فى كل الحالات مع طموحه الكبير الذى عاد به الى ولايته، ولعل تقدم عمرو بن العاص فى السن خذل هذا الطموح وأعاق أحلامه التوسعيه فى هذه المنطقة وتشاء لعبة الحظ أن تقف دائما الى جانب خليفة دمشق معاوية بن أبى سفيان فينتهى من حليفه الخطر عمرو بن العاص بموته بعد سنه واحدة من اتمام عقبة بن بنافع مهمته فى الجنوب ٤٤هـ/٦٥٥م أول قرار تتخذه الخلافة الامويه فى أعقاب وفاة عمرو بن العاص هو الفصل بين ولاية مصر وبين ولاية أفريقيا (كان هذا هو الاسم الشائع فى ذلك الوقت عن بلاد المغرب) التى تصبح مستقلة ومرتبطة مباشرة بعاصمة الخلافة، وقد استمر هذا القرار ساريا حتى عام ٥٠هـ/٦٧٠م عندما عين مسلم بن مخلد واليا على المغرب ومصر [٣٢] .

وهكذا شهد عصر عمرو بن العاص الثانى محاولات صغيرة فى أفريقيا عبارة عن سرايا صغيرة وكانت وفاة عمرو بن العاص فرصة لكى يقوم معاوية بن أبى سفيان بتعيين معاوية بن جديج لقيادة الفتح الافريقى [٣٣] .

كما أنه يلاحظ أنه خلال الفتنة بين معاوية وعلى بن ابى طالب والتى استمرت خمس سنوات،كانت الدولة الرومانية تعانى عوزا ماليا من جراء فقد مصر والشام فأرهقت بقية اجزاء الدولة ومنها شمال أفريقيا بالضرائب فكان ذلك من أسباب سخط الاهالى، ولذا تقول المصادر العربية أن معاويةابن جديج وصل الى أفريقيا وهو ثائر مضطرم فسار قرب

(٣٢) الطبرى: تاريخ الطبرى الأمم والملوك، جـ ٦ ص ١٣٤ .

(٣٣) حسن محمود: مرجع سابق ص ٩٢ .

الساحل فى عشرة آلاف رجل ولم يلبث أن وصل الى تونس واستوطن فى مكان بالقرب منها وأرسل عبد الله بن الزبير يناوش الروم فانهزموا أمامه واستولى على حصن جلولاء ومن هنا كان استقرار الأمر لمعاوية عام ٤١هـ/٦٦١م والذى يسمى عام الجماعة بدايه لحركة الفتوح الاسلاميه فى افريقيا ولو اراد الروم أن يعودوا لافريقيا خلال تلك الفترة لتمكنوا من ذلك بسبب انشغال العرب بالفتنة لكن العوز المادى كان سببا فى عدم تفكير الروم فى ذلك حيث أنهم لم يستطيعوا ذلك بصورة فعالة،فقد أرسل الروم بطريقا جديدا يسمى «جنا ديوس» حاول أن يفرض سلطانا روميا على أفريقيا فعجز عن ذلك ثم اختلف مع رجل من قواده ولجأ بعد ذلك الى العرب وذهب الى الفسطاط والى دمشق كما يقال واستحث معاوية بن ابى سفيان على اتمام فتح افريقيا وقد تكون هذه الرواية «أسطورة»، ولكن المهم أن معاوية إرسل عام ٤٥هـ/٦٦٥م جيشا يقوده واحد من كبار رجال معاوية هو معين بن خديج حيث صدر له قرار بأنه يكون الحاكم الجديد لولاية أفريقيا المستجدة وأمره بالتحرك الى برقة لاستلام مهام منصبه ومعه اوامر مشددة باستئناف الأعمال العسكرية فى الجنوب، وبعد وصوله الى الفسطاط وقف معاوية بن خديج على دقائق الموقف،فى وقت كانت الدولة البيزنطية فى عهد الامبراطور قسطنطين الثانى تعمل على اعادة نفوذها على افريقيا بعد الضربة التى كسرت شوكته فى سبيطلة فأخذت فى حشد قوات كثيفة لاستعادة ما خسرته هناك [٣٤] .

وبناء على ذلك فان حملة ابن خديج هى حملة أمويه الطابع تمت بعد أعوام من انتقال الحكم الى الأمويين وقد كانت تلك الحملة تشبه الى حد ما حملة عبد اللة بن سعد ممن شارك فيها من الأسماء المعروفة كعبد الله ابن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الملك بن مروان وغيرهم ولكنها كانت أقل كثافة من الحملة السابقة التى قام بها عبد الله

(٣٤) ابراهيم بيضون: مرجع سابق: ص ٢٩ .

(٣٥) ابن عذارى المراكشى: البيان المغرب: جـ ١ . ص ١٦ .

بن سعد بن ابى سرح حيث كان يبلغ عدد افرادها عشرة آلاف مقاتل وكان الخليفة معاوية بن ابى سفيان قد أعدهم من نخبة الجند ذوى الخبرة والمعرفة بشئون أفريقيا [٣٥] وسار معاوية بن خديج السكونى حيث غادر الاسكندرية الى المغرب متخذا الطريق التقليدى الى برقة فطرابلس دون ان يصطدم بعقبات او مفاجآت فى هذه النواحى التى بات الحكم العربى فيها مستقرا راسخا وكانت وراء ذلك بشكل رئيسى الجهود الذاتية التى قام بها عقبة بن نافع أحد قواد هذه الحملة وتوقف الجيش اخيرا فى قونية الواقعة الى الجنوب من قرطاجة وقد وصفها ابن الحكم بأنها تحتل الموقع الذى قامت عليه القيروان [٣٦] ومعنى ذلك بأن حملة بن خديج سلكت طريق الحملة السابقة وانتهت الى نفس المكان تقريبا. ولما وصل بن خديج الى افريقية وجد ان الروم قد نزلوا البلاد فى ميناء سوسة يقودهم قائد يدعى «نقفور»فلما سمع الروم بمجئ العرب اسرعوا الى سفنهم واستولى ابن خديج على بعض المراكز الرومية القوية [٣٧] .

وفى تلك الاثناء تتنامى الى مسامع البيزنطيين أثناء التحرك العربى وكانت قرطاجة تفج حينئذ بالافواج القادمة من جنودهم بقيادة نقفور Neciphore الذى يبدو انه أرسل فى نفس الوقت حاكما على أفريقية البيزنطية فى اعقاب اضطرابات نالت كثيرا من سيادة البيزنطيين فيها،ولكن الحاكم الجديد لم يكن كما يبدو قادرا على انقاذ هذه السيادة لان الروح المعنوية لدى مقاتليه لم تكن بالمستوى المطلوب فبعد سلسلة من المناوشات الخفيفة تقدم الجيش الأموى ليتخذ عسكره فى جبل القرن وقام أحد قواده ومعه مجموعه من الفرسان بهجوم جرئ على مواقع الجيش البيزنطى قرب سوسة وهى مدينة ساحلية غير بعيدة عن القيروان فأحدث هلعا فى صفوف البيزنطيين الذين تهافتوا مذعورين الى سفنهم

(٣٦) ابن عبد الحكم: المصدر نفسه: ص ٢٦١ ،

(٣٧) حسين مؤنس: مرجع سابق . ص ٣٤ .

(٣٨) ابن عذارى: المصدر نفسه جـ ١. ص ١٦ .

التى حملتهم الى قاعدتهم الرئيسيه فى البحر المتوسط(صقلية)دون حدوث أدنى اشتباك بين الطرفين [٣٨] واعقب القائد الأموى معاوية بن خديج هذا النصر بعمل آخر لم يكلفه من الجهد كثيراحين عهد الى أحد قواد هذه الحملة وهو عبد الملك بن مروان بمهاجمة احد الحصون البيزنطية المهمة وهو حصن جلولاء Gouloulis (جلولوس) على مسافة نحو عشرين ميلا من القيروان وتمكن عبد الملك من الاستيلاء على ذلك الحصن دون أدنى مقاومة تذكر،ويقال أن عامل الصدفة ساعد العرب فى عملية الاستيلاء اذ أن احد اسوار هذا الحصن قد سقط فجاة وهو الأمر الذى مهد الطريق للقوات العربية لاختراقه وكانت القوات التى تصدرت للغزوة الاسلامية عام ٤٥هـ بقيادة معاوية بن خديج قد قدمت من صقلية بقيادة نقفور من صقلية ونزلت على الساحل التونسى،فانهزم البيزنطيون وأقلعوا بسفنهم من البحر ولم يكتفى معاوية بن خديج بما أحرزه من انتصارات على البيزنطيين وانما عزم على مهاجمة جزيرة صقلية قاعدتهم فى البحر تجاه افريقية والمركز الرئيسى الذى تصدر منه غارات البيزنطيين على الساحل الافريقى فكان معاوية ابن خديج بذلك اول عربى يقوم بغذو صقلية [٤٠] وذكر بن عذارى المراكشى أنه دفع جيشا فى البحر الى صقلية فى مائتى مركب فنهبوا وغنموا واقاموا شهرا ثم انصرفوا الى افريقية بغنائم كثيرة ورقيق وأصنام متطومة بالجواهر فاقتسموا معهم [٤١] ، بل أن هناك أخبار عن قيام معاوية بن خديج بعمليات عسكرية اخرى كهجومه على بعض مدن الساحل فى الشمال وهجومه على جزيرة صقلية متتبعا القائد البيزنطى المهزوم ولعل أمر الهجوم على صقلية يحتاج الى تدقيق أكثر قبل الأخذ به خاصة وان الوقت الذى ذكر أن حدث عام ٤٦هـ لم يكن سلاح

(٣٩) ابن عبد الحكم: مصدر سابق ص ٢٦١ .

(٤٠) البلاذرى: فتوح البلدان . جـ ١ . ص ٢٧٨ .

(٤١) ابن عذارى: مصدر سابق. جـ ١ ص ١٧ .

البحرية الحربى لدى العرب قد اتخذ اطاره الجدى والمتكافئ مع سلاح البحرية البيزنطية،كما لم يكن العرب قد أنشأوا قاعدتهم الافريقيه القيروان فيكون أمر المطاردة البحرية فى البحر ميسورا فضلا عن أن حملة معاوية بن خديج كانت حملة برية وسلكت طريقا برية ثم عسكرت فى مكان يبعد عدة أميال من البحر [٤٢] .

لكن هناك اراء تعكس تلك الاقوال وتدل على قيام البحرية الاسلامية بالغزو فى البحر وان العرب غزوا صقلية ورودس بعد ذلك بعدة أعوام قبل ٤٦هـ وفى ذلك فان معاوية بن ابى سفيان قد بعث معاوية بن خديج فيما يقرب من ٢٧هـ – أو ٢٨هـ فى خلافة عثمان بن عفان لغزو رودس وصقلية ويرجع ان ابن عذارى المراكش قد أخطأ فى النقل عن البلاذرى فذكر عام ٤٦هـ وصحتها فى رأيه ٢٦هـ ويستند فى ذلك الرأى على ما ذكره أمارى ميخائيل استنادا الى البلاذرى عن قيام معاوية بن خديج بغزو رودس وصقلية فى عام ٣٢هـ – ٦٥٢م فى مائتى سفينة مما دعا قسنطائى الثانى الى نقل عاصمته الى سرقوسة بصقلية صيانة لاملاكه فى أفريقية وصقلية وايطاليا من الغزو العربى ، ويذكر ان معاوية أرسل ابن خديج عام ٤٩هـ لغزو صقلية [٤٣] .

وهكذا اتيح لمعاوية بن خديج ان يدفع باستراتيجية الفتح العربى للمغرب خطوات عريقة الى الامام فقد كانت هزيمة البيزنطيين الذليلة والمواقع العسكرية المهمة التى افتقدوها بداية الاختلال الواضح فى موازين القوى بين العرب والبيزنطيين فى افريقية ورغم أن القائد الأموى معاوية ابن خديج قد ارتكب نفس الخطأ الذى وقع فيه القائد عبد الله بن سعد ابن أبى سرج بعودته دون القيام باجراءات عسكرية أو ادارية تضمن استمرارها

---

(٤٢) ابراهيم بيضون: مرجع سابق ص ٣١ .

(٤٣) ارشبالبدلويس: القوى البحرية فى البحر المتوسط ص ٩٤ .

فى ظل الحكم العربى الا أن ذلك لا يحرم هذا القائد من دوره المؤثر لخلق أجواء أفضل فى عملية انتزاع المبادرة من البيزنطيين والسيطرة على المغرب، وهكذا فانه فى هذه المرة لم يترك العرب عاملا فى تلك البقاع بل انسحبوا الى مصر وتعتبر غزوة معاوية بن خديج غزوة من الغزوات التمهيدية التى قام بها فى المغرب قبل أن يتخذوا قرارا نهائيا بفتح هذه البلاد فتحا دائما وثابتا [٤٤] وقد تكون هذه الحملة نهاية مرحلة الاستطلاع داخل الاراضى الافريقية، ولم يستمر معاوية بن خديج طويلا فى منصبه، فقد صدر قرار من الخلافة الاموية بعزله عام ٤٨ه–٦٦٩م على الارجح أختار الخليفة الاموى القائد عقبة بن نافع الفهرى الذى عرفته الجبهة الاسلامية واحدا من فرسانها المنتصرين الشغوفين بالجهاد، ومن المستبعد أن يكون لقرار العزل علاقة بالتقصير الذى وقع من القائد السابق ولكن ابن خديج كان قد اختير لمهمة محددة وأنجزها كما أريد له انجازها ضمن ظروف لم تكن ملائمة على الارجح والنظام الاموى فى بداية لسنوات العمل أكبر حجما ومن ناحية ثانية فان الدولة قدرت له جهوده فعينته واليا على مصر فى وقت لاحق غير أن ذلك لم يستمر طويلا فعزل وعين بدلا منه مسلمة بن مخلد على مصر وأفريقية معا [٤٥] وليس هناك أدنى شك فى أن اختيار الخلافة الاموية فى دمشق لعقبة بن نافع الفهرى تعتبر مؤشرا لتطور جديد فى استراتيجيه الفتح العربى والاسلامى فى المغرب ونابعا من قناعة تامة بأن القائد الجديد سوف يغير من استراتيجية الوجود الاسلامى فى المغرب كما أن القائد الجديد وليس غيرة رجل المرحلة المستقلة التى تحتاج اليها مرحلة الفتوح الواسعة والاستقرار النهائى للوجود الاسلامى فى المغرب والتى تنتهى معها حرب استنزاف والسرايا العادية ولنبدأ مرحلة ذوى الكفاءات القتالية العالية والروح المجاهدة وأحد فرسان الجبهة الذين شاركوا فى حركة الفتوح السابقة حيث كان الاول الذى قاده عمرو بن العاص عام

---

(٤٤) حسين مؤنس مرجع سابق ص ٣٤

(٤٥) الطبرى: مصدر سابق. جـ ١ ص ٢٣٤ .

٢٢هـ-٦٤٣م لفتح برقة وطرابلس قد ضم قائدا يسمى نافع بن عقبة ابن القيس الفهرى وكان زوج أخت عمرو بن العاص،الذى كان قد عهد اليه عمرو بن العاص بعد أن فتح طرابلس بأن يسير بقوة الجند نحو الجنوب للاستيلاء على اقليم فزان الواقع جنوب طرابلس على بعد ٨٠٠ كيلو متر فى الصحراء وكان معه فى الحملة هذه ابنه عقبة بن نافع بن القيس الفهرى كان صبيا فى العاشرة وترك العرب فى فزان حامية صغيرة من الجند كان من بينهم نافع بن القيس الفهرى وابنه عقبة وخلال فترة الفتوح ظل عقبة مع الجند فى هذه النواحى ينتقلون ما بين برقة وفزان وودان وزويله من مراكز الصحراء وفى هذا الجو نشأ عقبة بن نافع نشأة جهاد وتمرس بشئون القتال وتحول الى شخصية عربية افريقية شديدة الاتصال بشئون المغرب ووثيقة العلاقات بالعرب والبربر فى نفس الوقت [٤٦] ولهذا فبعد عودة معاوية بن خديج من المغرب بثلاث سنوات اي فى عام ٤٨هـ-٦٦٩م نجد معاوية بن ابى سفيان يقوم بعزل معاوية بن خديج ويولى قيادة الفتوح فى المغرب الى عقبة بن نافع الفهرى ويرسل قوة عسكرية من بلاد الشام والفسطاط للقيام بذلك العمل وهنا تبدأ الفتوحات الحقيقية لافريقية والمغرب لان عقبة بن نافع يعتبر أكثر العرب معرفة بافريقية وشئونها فى ذلك الوقت طول خبرته بشئونها وأنه عندما قام بحملته الاولى على افريقية كانت لديه فكرة واضحة عن المغرب وما ينبغى عمله لفتحه فتحا ثابتا .

عقبه بن نافع رائد الحملات المنظمة فى المغرب وتأسيس(بناء) مدينة القيروان(٥٠-٥٥هـ/ ٦٧٠- ٦٧٥م) :

يعتبر عتبة بن نافع أول فاتح عربى يدخل هذه البلاد على رأس جيش وفى ذهنه فكرة واضحة عما ينبغى عمله لتحويل أعمال الفتوح فى افريقيه من غزوات تروح وتعود

(٤٦) ابن عبد الحكم: مصدر سابق ص ٢٦٤ .

بغنائم فحسب بل الى فتوح منظمة ترمى الى انشائ ولاية افريقية ومد حدود الاسلام غربا وادخال البربر فى الاسلام، وكان العرب قد أرادوا معاودة الكرة واثقين فى الفوز والنصر وأن يغيروا خططهم ونظمهم فى الحرب من أساسها فقد كان عدوهم البيزنطى يعتمد فى معركة المغرب على ثلاثة عناصر قوية أولها:أسطول بحرى ضخم بقواعد ثابتة وراسخة فى صقلية وموانئ أفريقيا وسلسلة عظيمة من الحصون الساحلية القديمة ممتدة من حدود أفريقيا (برقة) حتى طنجة على المحيط الأطلسى وتتعاون كلها فى صد المغيرين وردهم على أعقابهم،وثانيا : تأثير سكان السواحل وهم القبائل المغربية المقيمة بالسهول الساحلية والتى كانت قد اعتنقت المسيحية ونشرت الثقافة الرومانية [٤٧] حيث كانت القبائل البربرية الداخلية قد أعلنت ولاءها للعرب والمسلمين،وفعلا عاد العرب الى المعركة مرة أخرى عام ٥٠ بخطة جديدة لمواجهة تكتيك العدو وخططه.ويتفق المؤرخون على أن الحملات العسكرية المنظمة التى استهدفت فتح المغرب. انما بدأت مع عقبه بن نافع الفهرى الحاكم الجديد لولاية افريقيا وأما تاريخ ذلك الفتح المنظم فيتأرجح بين عام ٤٩و٥٠هتبعا للروايات المختلفة وان كان أكثر المؤرخين يتفق على أنها عام ٥٠/ ٦٧٠م ولعل الخلط والالتباس فى التاريخ يعود الى حادثة تعيين عقبة بن نافع الفهرى قائدا عاما لجبهة المغرب وبين السنة التى تحركت فيها القوات العربية الاسلامية لفتح المغرب وتنفيذ المهمة التى أوكلت اليه وان كان الأقرب الى الحقيقة بعد مقارنة مجمل الروايات أن التاريخ الثانى وهو عام ٥٠/٦٧م [٤٨] هو الاقرب للصواب والدقة العلمية وان الغرض من ذلك هو توخى الدقة العلمية ومتابعة النشاط الاسلامى التوسعى لهذا القائد الذى تعلقت علية الآمال لتحويل المغرب كافة الى ولاية عربية اسلامية تشارك فى حركة الحياة الاسلامية

(٤٧) حسن محمود: مرجع سابق ص ٩٥ .

(٤٨) ابن عبد الحكم: مصدر سابق ص ٢٦٤ .

فيما بعد.

وكانت نفس عقبة قد تعلقت بالفتوح فنمت مواهبه الحربية وانه تحول على مدى الايام الى شخصية حربية دينية لا تميل الى غير الجهاد فى سبيل الله وفى سبيل اعلاء كلمة الدين الاسلامى ورفع راية(لا اله الا الله محمد رسول الله)خفاقة عالية فى كل الافاق وقتال المشركين، وقد عاد عقبة بن نافع الفهرى فاتح افريقية والمغرب وفى ذهنة أمور ثلاثة لاحرز النصر فى هذه المعركة الحاسمة واولها تجنب الطريق الساحلى بأية وسيلة مع محاولة التقرب الى أهل البلاد الاصليين من البدو الذين يكرهون الحكم البيزنطى والنظام الرومانى الاغريقى،وبذلك يطوق الثغور الساحلية من اسفل ويتجنب خطر الاسطول البيزنطى [٤٩] .

وكذلك العمل ثانيا على انشاء قاعدة للغزو الاسلامى تكون قاعدة الحكم والإدارة بحيث تكون بعيدة عن البحر بالقدر الذى يجنبها خطر مهاجمة الاسطول البيزنطى وبحيث تكون قريبة من المنطقة التى تقع عند نهاية السهل الساحلى وبداية المناطق الواقعة من خلفها ويتجمع فيها المقاتلة من مصر وغيرها من البلاد الاسلاميه وتحشد فيها المؤن والذخائر وتتخذ قاعدة تنطلق منها القوات العربية الاسلامية الى بلاد المغرب كلها وكما سبق القول فأن عقبة بن نافع الفهرى تحول مع الزمن الى شخصية مجاهدة متصوفة نذرت نفسها للفتوح الاسلامية، وعندما وصله الامر بولاية افريقية فانه كان أكثر جنوبا فى تلك الانحاء حيث كان فى زويله قرب فزان فانه تهفى الى افريقية هناك عام ٥٠/ ٦٧٠م وسار الى أرض فزان ففتحها ووصل الى ساحل البحر الابيض المتوسط وهناك تقابل مع القوة العسكرية التى أرسلها الخليفة الاموى معاوية بن أبى سفيان للعمل تحت امره، وبدأ القائد الجديد تحركه العسكرى بسلسلة من الحملات الناجحة الى غدامس حيث يبرز هنا

(٤٩) ابن عذارى: البيان المغرب. جـ١ ص ١٢ .

اسم زهير بن قيس البلوى حاكم افريقية فى عهد مروان بن الحكم وفى ظل زهير هذا تم اخضاع مدينة غدامس ومعه حامية من الجيش العربى كمؤشر للاستراتيجية الجديدة والاحتفاظ بالارض وعدم مغادرتها وهى الخطة التى اتبعها عقبة وهى الاحتفاظ بالارض وليس الغزو فقط كما حدث فى الماضى وبعد غدامس خضعت فزان وعاصمتها زويلة بالاضافة الى عدد من المدن الهامة الواقعة فى المغرب الادنى [٥١] .

وكان قد سار الى الشمال بعد فتح فزان وغدامس ولكن ما يستلفت النظر فى هذه الحملة أن قبيلة لواتة قد قاوموه مقاومه شديدة لم يستطيع عقبة أن يتغلب عليها الا بعد فترة وحاصرها محاصرة جبارة وبذلك استطاع أن يأسر من أفرادها أكثر وأن يسبى اكثر من نسائها فترة فتحولت لواته فى هذا الوقت عن برقه وسارت الى المغرب وسكنت جبال نفوسة حيث قاومت الفتح الاسلامى حين وصل اليها،وقد علمت هذا الحادثة عقبة بن نافع أن أهل المغرب يسرعون الى المهادنة مع المسلمين لكنهم يكونون أيضا أكثر سرعة فى نقض عهدهم معهم فلم يجد عقبة أقل من يختط مدينة يقيم فيها المسلمون فسار مكان القيروان واختطها وهى تقع فى سهل نصف صحراوى غير بعيد عن الساحل وبذلك تعتبر هذه الحملة بدء المرحلة الثانية من مراحل الفتح الاسلامى واتخذ الجيش الاسلامى من هذا المدينة نقطة وخط دفاع أول عن الاراضى التى تقع الى الشرق منها ومقدمه للهجوم الى الاراضى التى تقع الى الغرب منها [٥٢] وكان عقبة قد وصل الى افريقية واتجه راسا الى قرب موقع سبيطلة وكان قد قرر انشاء عاصمة أو مركز عسكرى للمسلمين فى افريقية فاختار موقعا يقع الى الشمال قليلا من سبيطلة التى وقعت عندها المعركة المشهورة زمن عبد الله بن سعد بن أبى سرج وبدأ فى اختطاط عاصمة مناسبة للمسلمين.

(٥٠) حسن محمود: مرجع سابق. ص ٩٣ .

(٥١) بن عبد الحكم: مصدر سابق. ص ٢٦٥ .

(٥٢) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى. ص ١٤٣ .

ولقد كانت شخصية عقبة القوية العسكرية والمجاهدة فى سبيل الله أثرها الفعال والقوى فى نفوس البربر والذين تهيبوا شخصية عقبة القوية وجسارته فلم يجدوا مفرا من الخضوع والولاء له وللمسلمين والذين أحسوا بدفء الاخوية معهم وحسن العشرة.

ولذا فان عقبة بن نافع بعد هذا الولاء فى تلك المنطقة التى يمكن أن نطلق عليها المغرب الادنى بدا بفكر فى الخطوة التالية وهى الاكثر اهميه وهى الشروع فى ترسيخ ودعائم وأسس اليادة العربية الاسلامية على أرض المغرب (٥٣) .

وذلك لضمان استمرار المحافظه على تلك المكاسب داخل الاراضى المغربية والعمل على تثبيتها ولقد كانت الفكرة التى سبقت كل مشاريع عقبة الحربية ترمى الى انشاء قاعدة للعرب والمسلمين فى قلب البلاد التى تمت السيطرة عليها وذلك من أجل تحقيق هدفين أولهما عسكرى يرمى الى أيجاد حامية ثابتة تعطى عمليات الهجوم فى أطراف المغرب من جهة وتؤمن الخطوط الدفاعية للحكم العربى من جهة ثانية وثالثها أن تكون مركز استقطاب لكل الاعمال التى تنطلق منها بالدعوة الاسلامية بين البربر لنشر دين الله القويم بين الشعوب والقبائل الوثنية وكذلك لتكون ركيزة لصنع الاجيال المستقبلية من البربر التى تنصهر بحكم المصاهرة والتزاوج مع العرب فى اطار واحد هو الاسلام (٥٤) .

ويبدو ان الظروف السياسيه كانت مواتيه فى ذلك الحين لانصراف البيزنطيين عن التصدى بصور جدية لمشاريع عقبة التوسعية الى معالجة مشاكلهم بعد مقتل الامبراطور قستنطين الثانى الذى عرف بسياستة العدائية للعرب والمسلمين ومن ثم تفرغ خليفته الى الاهتمام بحركة التمرد التى قامت فى صقلية احدى ولايات الامبراطور ومن هنا كانت الظروف ملائمة ومناسبة بكل المقاييس للنفوذ العربى الاسلامى فى تلك المنطقة فلا

(٥٣) ابراهيم بيضون : مرجع سابق. ص ٣٤ .

(٥٤) ابراهيم بيضون: مرجع سابق. ص ٣٤ .

مواجهة بيزنطية طاهرة ولا مقاومة من البربر الذين كانوا اقرب الى الالتقاء مع العرب فى خندق واحد ضد البيزنطين أكثر من الرفض للوجود الاسلامى والذين احسوا منه بالقرب والجذابية أكثر من الاستعمار البيزنطى ذلك لا الوجود البيزنطى لم يعكس تأثيره القوى عقائديا أو حضاريا على طبيعة البربر الذين كانت علاقتهم بالبيزنطيين علاقة سطحية بل عدائية .

ومن هنا فأنه لم يبق امام القائد العربى (عتبة بن نافع) سوى اختيار المكان المناسب لهذه القاعدة الاسلامية العربية الامامية والعسكرية التى قرر انساءها ولكن ذلك لم يأخذ من وقته الكثير لان المبدأ العام الذى اعتمده العرب فى هذا المجال أن تقام هذه القواعد على مسافة ما بين خط المواجهة مع العدو لتكون خطوطهم الدفاعية فى مأمن وتكون ظهورهم محمية بالعمق من الاراضى لتسهيل حرية الحركة الاسلامية فى المستقبل وهكذا كان اختيار القيروان والذى ربما يكون من المحتمل ان الاسم ماخوذ من اصل فارسى وهو يعنى القافلة وهو الاسم الذى عرفت به قاعدة عقبه بن نافع الفهرى وهى بالتحديد تقع الى الجنوب من قرطلجه الميناء والبيزنطى وهى فى احدى الوديان ذات الاشجار الكثيفة غير البعيده عن الساحل وهى الى الغرب بمسافة اقل من سوسة المدينة التى سقطت أثناء حملة بن خديج وقد كان انشاء مدينة القيروان من اهم الاحداث فى تاريخ الفتح الاسلامى لهذه البلاد وفى انتشار الاسلام والثقافة العربية فى المغرب (٥٥) فقد كان انشاء القيروان معناه ان معالم ولاية افريقية اخذت تتفتح منذ انشاء هذه المدينة اذ بدأت تصبح مقرا للولاة والعمال وغيرهم من ذوى السلطات واصبحت الاقامة بالقيروان أول ما تتجة اليه أبصار الوالى الجديد بعد أن كان أول الامر يتطلع الى مصر ويتعجل العوده اليها وكان انشاء القيروان مؤذنا ببدايه عهد جديد فى تاريخ البلاد ذلك أن مدينة القيروان أصبحت قبلة المغرب وكعبة الحضارة ومعقل الاسلام وقد استغرق العمل فى القيروان وبناءها أربع

(٥٥) حسن محمود : مرجع سابق. ص ٩٣ .

سنوات وكانت أولى معالمها دار الامارة أو مركز الحكم والمسجد الذى حمل البوم اسم القائد العربى عقبة [٥٦] ثم انتشرت حولها المساكن تدريجيا فضلا عن الاسوار ونمت المدينة بسرعة مدهشة يساعدها الموقع الجغرافى فى منطقة من الاشجار والمراعى ومن الناحية الاستراتيجية كانت على امتداد الخط البرى الذى يصل بينها وبين الفسطاط وينأى بها عن أى خطر من جانب البحر.

وتأخذ القيروان دورها المرسوم فتنطلق منها الحملات الصغيرة التى عرفت عند العرب بالسرايا فى وقت واحد مع بناء القاعدة،فلم يكن الجيش منهمكا بكامل عناصره فى هذا العمل بل كان فريق منه يشق طريقة الى المناطق المجاورة فى مهمات عسكرية والدعوة للدين الاسلامى بين الاقوام البربر وقد حققت الدعوة الاسلاميه فى ذلك المجال نجاحا ملحوظا فشخصية عقبة شخصيه قياديه وحراره الحماسة لدى المقاتلين من جانب وفراغ الساحة من اى تحرك بيزنطى مضاد من جانب آخر وهذا كان له وقعة المؤثر فى نفوس البربر الذين يهرتهم المعنويات المرتفعه للجيش العربى الاصرار على خوض الصعاب .

وتذكر بعض الاراء ان مدينة القيروان سميت بهذا الاسم حيث انه لفظ فارسى معرب ويعنى المعسكر او مستودع السلاح، ولقد قدر لتلك المدينة ان تصبح جليلة ومباركة وبالفعل قدر لذلك المصر الصغير ان يصبح من اكثر المراكز الاسلامية وبركة على الاسلام واهله فقد تحولت القيروان بسرعة الى قاعده اساسيه ودينية وفكرية للاسلام فى افريقية،وقد تحرى عقبة بن نافع أن تكون المدينة ملائمه لمطالب العرب فى ذلك العصر وقد كان لهم ما لديهم فى ذلك الوقت من الخيل والجمال ومن سلاحهم الاكبر فى عمليات الفتوح،فكانوا يهتمون بان تكون الامصار او المراكز التى ينشئونها وسط اقاليم المراعى تسرح فيها الخيول والجمال فى غير اوقات الحرب [٥٧] .

(٥٦) يأقوت الحموى: معجم البلدان جـ ٧ ص ١٩٤ ، البكرى مصدر سابق ص ٢٢ .

(٥٧) الدباغ: مالم الايمان فى معرفة أهل القيروان. ص ٣٨ .

لذلك فان القيروان شهدت وفود كثيرة من الصحابة رضوان الله عليهم والذين قاموا بها يفقهون الناس بشئون دينهم كما دفن كثيرون من الشهداء لذا نجد الكتاب والرواه يخلعون عليها ثوبا من القدسية ويحيطون تأسيسها بكثير من الخرافات ومن ذلك قولهم ان موضع القيروان كان غابة واشجار،فقام عقبة بتمهيد الارض وقطع الاشجار وتحكى الاساطير أن عقبة بن نافع قام بكرامات اثناء انشاء تلك المدينة فأمر الرحوش والهوام التى كانت فى الاحراش بأن تخرج لان المسلمين ينشئون مدينة رسول الله ﷺ فخرجت الوحوش والهوام من تلقاء نفسها وبذلك أصبحت مدينة القيروان [٥٨] .

ويعتبر انشاء مدينة القيروان بدايه تاريخ الحضارة الاسلامية العربية، فالى جانب الجيوش والبعوث التى كانت تخرج منها للغزو والفتح كان الفقهاء يخرجون منها لينتشروا فى البلاد يعلمون العربية وينشرون الاسلام، بل ان الدور الذى لعبته مدرسة القيروان فى ادخال البربر فى حظيرة الاسلام لا يقل عن الدور الذى لعبة الفاتحون [٥٩] وهناك اراء تذكر ان قيام مدينة القيروان لا يعنى قيام ولاية مستقلة فى افريقيا،بل ظل هذا الجزء من افريقيا دائما تابعا لمصر وكانت اموال مصر هى التى تمول ما يرسل من حملات وما يتطلب من مصاريف ولكن بناء مدينة القيروان رفع من روح المسلمين المعنوية وساعد على نشر الاسلام بين البربر ومن ثم اصبحت تلك المدينة نواة افريقيا الاسلامية،ولابد ان نذكر انه كانت فى افريقيا فى ذلك الحين عاصمة اخرى وهى مدينة قرطاجه وكانت ميناء وهى عاصمة الروم الذين تلاشت قوتهم السياسيه والعسكرية ولكن قرطاجة وبقية مدن الساحل مثل: قابس وسوسه ظلت عامرة بالروم والافارقه وغيرهم من سكان الشريط الساحلى والمهم لدينا اننا لم نلاحظ اى وجود فعلى للروم اثناء عمليه انشاء القيروان التى دامت ما بين اربعة او خمس سنوات ٥٠–٥٥/ ٦٧٠–٦٧٥م،وبعد فراغ عقبة بن نافع،

(٥٨) حسن محمود: مرجع سابق. ص ٩٣ .

(٥٩) حسن مؤنس: فتح العرب للمغرب . ص ١٤٦ .

من انشاء تلك القاعدة بدأ يستعد لمواصلة الفتوح اذ انه اطمأن الى انه انشأ للمسلمين قاعدة يحكم منها البلاد التى يفتحها وتخرج منها الغزوات ومعنى هذا فان عقبه بعمله جعل افريقيا ولاية اسلامية جديدة لانه مادام انشأ بها مسجدا جامعا ودار للامارة فقد اصبحت المنطقة كلها جزءا من الدولة الاسلاميه ولا يجوز للمسلمين بعد ذلك ان يتخلوا عن هذه الناحية وبالفعل كان من الممكن للعرب قبل ان ينسحبوا من افريقيا الى برقة او مصر كما كانوا يفعلون من قبل اما الان فلابد لهم ان يثبتوا فى هذه الناحية وان فقدوها لسبب ما فيجب عليهم ان يستعيدوها مرة اخرى لانها جزء من الديار الاسلامية (٦٠) .

ومن هنا فانه يبين لنا اهمية العمل الذى قام به عتبة بن نافع الذى يعتبر بحق اعظم فاتحى المغرب وواحد من اكبر بناة الدوله الاسلامية ولا يقارن عتبة فى هذا المجال الا بعتبة ابن مسلم الباهلى. الذى تولى مهمة مماثلة فى الجناح الشرقى للدولة الاسلامية واليه يرجع الفضل فى التغلب على مقاومة الاتراك الوثنين وفتح بلادهم للاسلام والوصول به الى كأشغر فى أقليم ستكيانج فى غرب الصين الحالية وكان عقبة وعتبة معاصرا كل منهما للاخر فالاول وصل بحدود دولة الاسلام الى اقصاها غربا والثانى الى اقصاها شرقا (٦٢)، ورغم انه لم تتح الفرصة لعقبة لاتمام ما بدا تنفيذة من فتوحات فى بلاد المغرب وكذلك لاتمام السياسة الحكيمة التى وضعها غير أن سياسته هذه أصبحت دستورا لمن أعقبه من القواد والفاتحين الذين جاءوا بعده الا أنها كانت أكثر السياسات ملاءمة لاحوال أفريقية (٦٣).

وفى غمرة ذلك الشعور بالنجاح فى تثبيت الاقدام العربية الاسلامية فى بلاد المغرب وظهور الولاية الافريقة الجديدة الى حيز التنفيذ تفاجأ القيروان بعزل قائدها المظفر عقبة بن

(٦٠) سعد زغلول عبد الحميد: مرجع سابق. ص ١٤٥ .
(٦١) حسن مؤنس: معالم تاريخ المغرب والاندلس. ص ٣٧ .
(٦٢) حسن محمود: مرجع سابق. ص ٩٤ .
(٦٣) المالكى: رياض النفوس . ص ٢٠ .

نافع بقرار من الخليفة الاموى عام ٥٥هـ – ٦٧٥م، وقد كان من المتوقع بعد ما قام به عقبة من أعمال مجيدة أن تكافئة الدولة بأن تتركه فى ولايته ليتم ما بدأ من أعمال الا أنه بدلا من ذلك فقد تلقى قرارا بعزله من الولاية وكان الذى عزله معاوية بن أبى سفيان بناء على طلب من والى مصر مسلمة بن مخلد الانصارى الذى كان من أكبر أنصار البيت الاموى والذين أعانوا معاوية على الوصول الى الخلافة فكافأة معاوية بولاية مصر بعد وفاة عمرو بن العاص، ذلك لان مسلمة بن مخلد الانصارى، عندما رأى أن أفريقية أصبحت ولاية وميدانا جديد واسعا للفتوحات طمعت نفسه الى أن يحوزها لنفسه فسعى فى عزل عقبة بن نافع الفهرى وتوليه أحد رجاله المقربين اليه والذين يخضعون لوصاياه وهو أبى المهاجر دينار وكان دينار والد أبى المهاجر يسئ معاملة ذلك الفاتح الكبير ويترك القيروان وينزل بقرية صغيرة قريبة منه تسمى تكبروان رغبة منه فى التقليل من أهمية العاصمة الجديدة، لأن والى مصر مسلم بن مخلد الانصارى كان يرى أن المغرب الاسلامى كله يخضع له ومن ثم فلا تكون له الا قاعدة واحدة وهى الفسطاط، وذهب عقبة الى دمشق وشكا الى الخليفة وتطيب خاطره ولكنه لم يرده الى ولايته.

ولاية ابى المهاجر دينار الانصارى:

قد يكون هكذا مصير القواد العظام وهذا قدرهم يصنعون الانتصارات الكبيرة ويحترقون بنارها ويظلون أسرى منجزاتهم التى غالبا ما تعود عليهم الا بالسوء ونكران التقدير وعلى هذا فان تنحية عقبة بن نافع الفهرى عن قيادة الجيش قد تكون لها خلفيات سياسية معينة، فمن المؤرخون من رد السبب الى خلاف بين عقبة وبين رئيسه المباشر والى مصر (مسلمة ابن مخلد الأنصارى) ضمن التفسير التقليدى حول المنافسة بين الرجلين (٦٤) ومن غير اليسير أن ندرك السبب الرئيسى لابعاد عقبة عن قيادة الجيش فى القيروان لان غموضا يحيط بهذا القرار ولم تتمكن روايات المؤرخين من كشفه، خاصة أن

(٦٤) سعد زغلول عبد الحميد : مرجع سابق. ص ١٤٩ .

عقبة لم يبعد عن الجيش أو يتعرض لملاحقة أو اضطهاد وانما أبعد عن القيادة العامة فقط وهذا ما جعلنا نعتقد أن وراء قرار العزل جانبا سياسيا تجاوز الحساسية والعلاقات الشخصية، فلعل الخلافة الأموية لجأت الى ذلك قبل أن يأخذ عقبة بن نافع الفهرى الحجم الذى ترفض ان يبلغه احد من القواد وليس هذا بعيدا عن معاوية بن ابى سفيان ونزعته الفردية المعروفة فهو لا يستهوى الشخصيات القيادية القوية وليس من ينطبق عليه ذلك أكثر من عقبة بن نافع القائد العبقرى الموهوب والعنيد والذى حقق كل هذه الانتصارات (٦٥).

وامتثل عقبة بن نافع لقرار العزل وعبر كمجاهد اسلامى كبير عن انضباطه الشديد والتعاون الى أقصى الحدود مع القائد الجديد ولم يكن هذا الأخير بعيدا عن أجواء الحرب بل كان يجمع بينه وبين عقبة قاسم مشترك بأنتمائهما الى مدرسة واحدة فى القتال مع خلاف فى الممارسة فعقبة كان أميل الى العنف والقوة وحسم المواقف بالسيف بحكم تربيته العسكرية منذ كان صغيرا فى حين كان أبو المهاجر دينار الانصارى بارعا فى المحاورة والاعتماد على الدبلوماسية وهكذا بين لنا أن أبى المهاجر دينا الانصارى من خيرة الولاه رغم تصرفه مع عقبة وواضح انه غير مسئول عن ذلك انما المسئول هو مسلمة بن مخلد الانصارى والى مصر وان كان قد اعتذر لعقبة عن سوء صنع دينار بن أبى المهاجر معه.

وسار أبو المهاجر الى افريقية ووجد الروم قد استعادوا ثقة الأهالى وانضموا الى الروم بقيادة كسيلة بن لمزم. والذى كان أميرا على البرانس وتعانوا مع الروم من أجل الوقوف فى وجه العرب فى حرب عقبة كادت توجد اليأس فى نفوسهم. وجاء أبو المهاجر دينار إلى افريقيا تملأه الرغبه فى محو كل آثار عقبة بن نافع على نحو ما أوصاة مسلمة بن مخلد الأنصارى فأهمل مدينة القيروان واتخذ لاقامته مكانا بعيد عنها، ولحق به المسلمون الذين كانوا قد سكنوا القيروان، وفى خلال عامين من تولية أبو المهاجر هاجمه البربر

(٦٥) ابراهيم بيضون: مرجع سابق. ص ٣٦ .

بقيادة كسيلة ولكن البربر هزموا وتتبعهم أبو المهاجر وأسر كسيلة وهم يقتله لولا أن اسلم هذا الأخير فعفا أبو المهاجر عنه (٦٦) وانتهج أبو المهاجر سياسة جديدة فى الفتح، فقد كان عقبة رجلا متشددا بعيدا عن السياسة وفهم تصرفاتها، أما أبو المهاجر دينار فنجده فى أعماله العسكرية يتجه الى كسب مودة أهل البلاد من البربر وهو لم ينهج منهجا معينا أو محددا فى أعماله العسكرية، لانه كان رجلا نشيطا يرسل الغزوات فى كل وجه وقد وصلت قوات الغزو الى مسافات بعيدة من الغرب حتى وصل الى تلمسان وأخضعها وهى أكبر قواعد القسم الشرقى فى المغرب الأوسط أى تلك المنطقة الواقعة حاليا الى الشرق من نهر «الملوية» الذى سبق أن ذكرنا انه الحد الفاصل بين المغربين الأوسط والأقصى عبر شرقه بقليل وفى هذه الناحية (تلمسان) كانت منازل قبيلة من أكبر قبائل البربر البرانس فى ذلك العصر وهى أوربة، وهى قبيلة برنسية أى من قبائل الحضر، وهكذا كانت أبرز الأعمال التى قام بها أبو المهاجر دينار، أثناء قيادته التى دامت خمس سنوات (٥٥–٦٠هـ) ذلك الهجوم الذى شنه على معاقل (أوربة) احدى أقوى قبائل البربر والبرانس الواقعة فى جبال أوراس، وقد ظهر دهاء القائد العربى فى اجتذاب زعيم هذه القبيلة «كسيلة ابن لمزم» والتعاون معه بعد ايمانه بالاسلام دينا له، رغم أن المسيحية كانت قد عرفت طريقها دينا فى وقت سابق الى هذه القبيلة واذا صح اعتناق كسيلة وقومه انذاك الاسلام دينا لهم وعقيدة، فان ايمانهم كان سطحيا لا يلبث أن يخبو بانقلاب كسيلة على العرب فى وقت لاحق، على أن ذلك لم يخل من أثر ايجابى على العلاقة بين الطرفين حيث كانت القوة الأولى التى جمعتهما هى القيام بالغزو المشترك لمدينة تلمسان فى قلب المغرب الأوسط واصطنع سياسة التحبب الى القبائل المغربية فى البلاد ومسالمتها وترغيبها فى الدخول فى الاسلام (٦٧).

(٦٦) زاهر رياض: شمال افريقية ص ٢٣ .

(٦٧) حسن محمود: مرجع سابق ص ٩٤ .

ثم اننا نجد أنه بعد وصول أبو المهاجر دينار الى تلمسان، فانه يعود أدراجه الى القيروان ليقوم بأعمال عسكرية ضد البيزنطيين فينعطف شمالا باتجاه قرطاجنة ويشن عليها هجوما عنيفا عام ٥٩هـ ٦٧٩م ويبدو أن تحركه الى القاعدة البيزنطية لم تكن له أبعاد السيطرة المنتظمة وانما كان مجرد عملية خاطفة لاستكشاف امكاناتها الدفاعية، فبعد حصار قصير للمدينة تراجع عنها لقاء مساومته على أحد المواقع القريبة منها. التى يبدو انها شبه جزيرة شريك، وكانت هذه العملية آخر أعماله العسكرية على مايبدو، غير أن اتصالاته مع البربر لاسيما قبيلة (أوربة) لم تنقطع حيث ساد الهدوء طوال ولايته التى استمرت ما بقى معاوية بن أبى سفيان الذى كان معجبا بهذا النوع من الرجال ذوى الحنكة المتوافقين مع مزاجه، ولقد عمل أبو المهاجر دينار على ادخال كسيلة فى الاسلام والذى كان دخوله الاسلام حدثا هاما لابد من ملاحظته، حقيقة كان الاسلام ينتشر فى المغرب منذ الأيام الأولى لدخول المسلمين وخاصة عندما رأى البربر عقبة بن نافع وهو ينشئ القيروان وتأثروا بشخصيته الدينية وبما كان يظهره من التفانى فى سبيل الاسلام، فدخلت جماعات كبيرة منهم الاسلام على يديه وانضمت الى قوات الاسلام المحاربة ولكن اسلام قبيلة أوربة يعتبر حدثا تاريخيا هاما فى تاريخ الاسلام فى المغرب، فهذه أول مرة تدخل قبيلة برنسية كبيرة فى الاسلام وكان معظم من دخل الاسلام قبل ذلك من البربر البتر أى البدو من قبائل لواتة وهوارة ونفوسة وغيرها ومضى كسيلة بعد أن أسلم مع صاحبه أبى المهاجر دينار الى القيروان.

وبموت هذا الخليفة (معاوية بن أبى سفيان ٦٠هـ/ ٦٨٠م) يصبح مركز القيادة فى القيروان فى مهب التغيرات التى عادة ما تحدث فى أعقاب انتقال السلطة من حاكم الى آخر، وكان الخليفة الجديد يزيد بن معاوية مقدرا جهود القائد السابق عقبة بن نافع الفهرى حيث كان على صلة وثيقة به وربما نتجت عن اقامة هذا الأخير (عقبة بن نافع) فترة ما فى دمشق قريبا من ولى العهد الشاب [٦٨] وقد كان عقبة متعطشا للعودة الى

(٦٨) ابن عبد الحكيم: مصدر سابق ص ٢٧٦ .

مركزه فى أفريقية فقد قطع جل سنواته من الشباب الى الكهولة مقاتلا على أرضها ملتصقا بأحداثها ولم يكن منتظر أن يعود اليها دون أن يكون بنفسه شئ على سلفه الذى رأى فى سياسته اتجاها الى طمس جهوده وتخريب انجازاته وكما ذكر فان أبا المهاجر رفض النزول فى القيروان وقيل انه أمر بتخريبها [٦٩].

عودة عقبة بن نافع الثانية للمغرب ٦٢–٦٤هـ/٦٨١–٦٨٣م:

استمرت ولاية أبى الماجر دينار خمس سنوات وليس سبع سنوات كما ذكر فى بعض المصادر المعاصرة (٥٥–٦٠هـ) وبوفاة معاوية ابن أبى سفيان فقد حاكم مصر وواليها، مسلمة بن مخلد الانصارى مركزه فلم تعد له تلك المكانة التى كانت أيام معاوية فانتهز عقبة بن نافع هذه الفرصة وتحدث الى يزيد بن معاوية فى اعادته الى افريقية فأجابه الى طلبه وأسرع عقبة الى المغرب ومعه قوة تقدر بنحو أربعين ألف فارس وقد صمم هذه المرة على أن يشرع فى الفتح مباشرة مخافة أن يفاجئه عزل جديد، لانه كان يضع الجهاد فى سبيل الله نصب عينيه وهناك أخبار عن اضطهاده لأبى المهاجر دينار واعتقاله وان كان رواتها قد جنحوا الى المبالغة فى تضخيمها وربطها بأمور ليست فى مصلحة عقبة، خاصة ما ذكر عن قمع قبيلة «أوربة» انتقاما من أبى المهاجر [٧٠] وتلك كانت من أخطائه الجسيمة لان كسيلة كان رجلا مسلما وليس ذنبه فى أنه كان صاحبا لابى المهاجر ومن ثم فلم يكن عقبة على حق فى سوء معاملته، على كل حال رغم أن عقبة بن نافع بما اتصف به من ايثار وايمان وشجاعة وبعد عن شئون الدنيا لم يغفر لأبى المهاجر ما صنعه به ورغم ماتميز به من بعد نظر فيما يتعلق بمواصلة فتح المغرب وادخاله فى الاسلام [٧١] فنجد أن بعض المؤرخين قد جنحوا الى المبالغة فى تضخيم هذه الحوادث بينه وبين أبى

(٦٩) ابن عذارى: مصدر سابق جـ ١ ص ٢٣ .
(٧٠) ابراهيم بيضون: مرجع سابق: ص ٣٨ .
(٧١) حسين مؤنس: مرجع سابق، ص ٣٨ .
(٧٢) ابراهيم بيضون: مرجع سابق ص ٣٨ .

المهاجر دينار وكسيلة وربطها بأمور ليست فى مصلحة عقبة خاصة ما ذكر عن قمع قبيلة أوربة انتقاما من أبى المهاجر وهو يعلم أن ذلك سيعود عليه بالضرر الكبيروفى نفس الوقت لاتستطيع أن تأخذ بالاعتبار قصة الأصفاد التى وضع فيها أبا المهاجر أثناء غزوه أرض السوس فالاحرى أن يكبله فيها ويسجنه فى القيروان ان شاء ذلك ولايمكن أن يكون لوجوده أى خطر على عقبة ومعه الجزء الأكبر من الجيش ثم كيف يكون محكوما عليه بالسجن فى حملة عسكرية وفى نفس الوقت يكون أحد قوادها المستبسلين.

وصل عقبة بن نافع الفهرى الى القيروان ليتسلم مرة أخرى مهام عمله فى تلك الأرض الطيبة التى عشق فيها الجهاد فى سبيل اللّه وفى سبيل نشر راية الاسلام ورفعها خفاقة عالية، وزرع فى تربتها عنفوان شبابه لكن فيما يبدوا انه عاد اليها بصلاحيات مطلقة لا يستمد الأوامر سوى من الخليفة يزيد بن معاوية وحده ولا يخضع لسلطان غير سلطانه وان صلته بوالى مصر لم تكن لها أدنى صلة، وفصل الولاية الافريقية عن مصر نهائيا وربطها بدمشق مباشرة. وقد يكون ذلك كبادرة لاعادة الاعتبار الى عقبة بعد تجميده فى الجهاد فى تلك الاراضى فترة طويلة، ومن هنا فما لبث عقبة بن نافع أن شغل نفسه بالاعداد لعملية كبرى فى نطاق سياسته التوسعية لاجتياح المغرب فبعد اجراءات تنظيمية وادارية سريعة (٧٢)، وان كان يؤخذ على عقبة بن نافع قصر النظر فى شئون السياسة ومعاملة الناس، فأخذه كسيلة معه مصفدا بالحديد كما يقال واساءة معاملته رغم أن دينار أبى المهاجر كان ينصحه باحسان معاملة ذلك الرجل تأسيا بما كان يفعله رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مع المؤلفة قلوبهم ولكن عقبة فى حماسه الشديد للفتح وتفانيه فيه لم يلتفت الى النصح وسار فى جموعه نحو المغرب الاوسط وهكذا خرج عقبة بجيشه نحو المغرب الأقصى تاركا زهير بن قيس قائدا على جيشه فى القيروان ومعه قوة قدرت بسبعة آلاف جندى (٧٣).

ويبدو أن جماعة من قبيلة أوربة قد شاركت فى هذه الحملة وكان دورها محصورا

---

(٧٣) ابن عبد الحكم: مصدر سابق. ص ٦٨ .

(٧٤) زاهر رياض: مرجع سابق. ص ١٢ .

أكثر ما يكون فى تزويد الجيش بالمعلومات الجغرافية عن تلك البلاد البعيدة ولا تستطيع اثبات مشاركتهم كمقاتلين الى جانب العرب لان موقف كسيلة زعيم أوربة كان غامضا فى تلك الفترة، حتى أن بعض المؤرخين يصف موقفه بأنه كان معاديا منذ أن تحرك عقبة بجيشه وليس لذلك من تفسير سوى أن كسيلة وجد فى القائد الجديد شخصية الفاتح المهدد لنفوذ البربر ومصالحهم، بعد أن كان فى تلك السنين السابقة لعودة عقبة مرة ثانية قد سكن بعض العرب بين البربر فى جهات تاهرت وأقاموا معهم علاقات أقرب الى السلم، وهكذا وصل عقبة بن نافع الى أفريقية ليواصل ما كان قد بدأه أثناء حملاته الماضية فأصلح القيروان ويقال كذلك مخالفا للآراء السابقة أن كسيلة البربرى كان يعاونه فى الاصلاح ولم تكن عدواة بينه وبين عقبة (٧٤).

وهكذا نرى أنه بدلا من أن يتخذ عقبة فى سيره الطريق الاسهل فيسير على الشريط الساحلى نجده يخترق الجبال ويغزو البربر فى عقر دارهم فيدخل جبال الاوراس وهى الطريق الشرقى لجبال الاطلسى وهى جبال عالية وعرة كثيرة المضايق والأخاديد فى هذه الناحية وكانت تعيش فيه جماعات من الروم ممن هربو، الى الداخل واتصلوا بالبربر ليتعاونوا معا على المسلمين ولكن عقبة لم يكترث بهم ومضى يقتحم جبال الاوراس متوغلا فى بلاد من الغاية فى وعورة الارض وصعوبة المسالك وقد حقق عقبة بن نافع الفهرى فى سيرته الطويلة انتصارات باهرة ففى باغاية وبجاية على الساحل الافريقى الى القرب من قرطاجنة اشتبك فى معركة حامية ضد البيزنطيين وصفت بأنها من أعنف المعارك (٧٥) غير انها لم تكن حاسمة، اذ أن البيزنطيين تراجعوا الى المدينة واعتصموا بها ولم يشأ عقبة أن يطيل أمد الحصار فانعطف الى الجنوب لاتخاذ الطريق المرسوم لحملته وهو على الأرجح الطريق المحاذى للسفوح الشمالية فى جبل أطلس فأجتاح اقليم الزاب فى المغرب الاوسط ودخل مدينة المسيلة عاصمة الاقليم بعد طرد البيزنطيين وحلفائهم من البربر من قبائل لواتة

---

(٧٥) ابن الأثير: مصدر سابق – جـ ٤ ص ٥٣ .

(٧٦) ابراهيم بيضون: مرجع سابق – ص ٤٠ .

وهوارة ومكناسة.

ثم تابع فلولهم التى تاسرت وأوقع بتحالفهم هزيمة عنيفة وبذلك تمت له السيطرة الكاملة على المغرب الاوسط وأخمد فيه كل تحرك مضاد وعدائى ضد العرب، فى الوقت الذى انفتح الطريق أمامهم لاختراق بلاد المغرب الأقصى، وتجدر الاشارة الى أن الموقف السياسى العام عند العرب لم يكن قد تبلور بعد ازاء الموجه التوسعية العربية فما زالوا حتى ذلك الحين يرقبون أحداث الصراع بين العرب والبيزنطيين ولم يكن العرب من جهتهم قد توغلوا أكثر فى الداخل واصطدموا بنظام القبيلة المنزمت عند البربر أما القبائل البربرية التى دخلت طرفا فى الصراع الحربى الدائر بين القوتين الكبيرتين فهم البربر الاكثر تحضرا من البرانس الذين كانت لهم مصالح فى بقاء القواعد البيزنطية على الساحل حيث يعيشون فى مناطق معادية لها على السواحل وكان لهم أكثر من هدف فى التصدى للجيوش العربية من أجل الدفاع عن مصالحهم المتشابكة مع البيزنطيين (٧٦).

ثم بعد ذلك تابعت حملة عقبة انتشارها فى أقاصى المغرب ظافرة متقدمة فبلغت طنجة الشهيرة ذات الموقع الفريد على مدخل البحر المتوسط فى الغرب وكان مركزا لاقليم يخضع اداريا للسيادة البنزنطية يمتد على الساحل فيما بين طنجة وسبتة، غير أن ذلك الاقليم كان يتمتع فى ذلك الحين بقدر من الاستقلال، الامر الذى أعطى حاكمه حرية الحركة فى تحديد الموقف المناسب.

وكان عقبة قبل وصوله الى هذه الأماكن قد دخل جبال الاوراس وبدأ بمحاصرة حصون تسمى باغاية، وكان فيه عدد من البربر الى جانب الروم وعندما وجد عقبة صعوبة فى الاستيلاء على حصن باغاية، تركها واندفع ناحية الغرب فعبر نهر شلف وهو يحارب القبائل فى طريقه ويقضى على جموعها ويلقى الرعب فى قلوب أهلها وفى نفس الوقت يجتذب الكثيرين من أفرادها للاسلام بفضل ما كان قد تربى عليه من التقوى والتفانى فى

(٧٧) حسين مؤنس: مرجع سابق – ص ٣٩ .

سبيل نشر لواء الاسلام واستمر فى طريقه غير عابئ بالمقاومة مهما اشتدت حتى وصل الى قرب طنجة أى أن ذلك الرجل قطع فى شهور قليلة وخلال جبال وعرة تسكنها قبائل ضخمة مساحة تقدر بأربعة آلاف كيلو متر وظهر أمام طنجة وهى مفتاح المدخل الغربى للبحر المتوسط (٧٧) وهناك يلتقى فى طنجة بشخصية غربية تسمى «يليان» وشاء هذا الحاكم أن يقيم علاقات ودية وحسن جوار مع الفاتحين العرب بدلا من التصدى والمقاومة للعرب والوجود الاسلامى فى تلك الاماكن (٧٨).

واذا استثنينا بقليل هذه الاستقلالية لاقليم طنجة فلابد أن تكون لها علاقة بالعامل الجغرافى وهو البعيد عن الحكم المركزى الذى استقلت فيه وحدته الادارية وفقد الكثير من تماسكه خاصة فى الاقاليم الغربية من البحر المتوسط ويبدوا أن عقبة لم يكن فى ذهنه حسم الامر من المدن الساحلية وهى قلاع عسكرية حصينة لان الوقت لم يحن بعد لتصفية هذه المواقع المهمة ضمن الامكانات العربية المحدودة سواء فى سلاح البحرية أم فى وسائل الحصار التى لم يكن العرب قد وقفوا على جانب متطور منها بعد وهذا ما حدث أثناء حصار باغاية وتكرر الامر نفسه تقريبا مع طنجة ولكن دون حاجة الى الحصار لان حاكمها البيزنطى وضع كل طاقاته فى خدمة العرب تسهيلا لتحركهم فى هذه البلاد النائية وهذا الحاكم الذى يسمى لبليان كان حاكما على هذا الاقليم فى ذلك الوقت ولا ندرى أهو اسمه أو هو نفسه الذى ارتبط اسمه بحمله الاندلس بعد ثلاثين عاما أم أن هناك شخصية أخرى تحمل نفس الاسم، ولانعرف عن ذلك الرجل شيئا يعول عليه فهناك من يقولون أنه كان ممثلا للامبراطور الرومى، البيزنطى فى ذلك الطرف الاقصى من البحر المتوسط وهناك من يقولون انه كان ممثلا للقوط الغربيين الذين كانوا يحكمون شبه جزيرة ايبريا فى ذلك الحين وهذا أقرب الاقوال الى القبول، وهناك آراء تذكر انه كان رجلا بربريا تزعم قبيلة غمارةالكبيرة التى ستدخل فى الاسلام وسيكون لها فى تاريخ المغرب شأن كبير وربما كان اسم ليليان تسمية عامة فى ذلك التاريخ تطلق عند العرب على حاكم

(٧٨) ابن الأثير: مصدر سابق جـ ٤ ص ٥٣ .

(٧٩) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ . جـ ٤ – ص ٥٣ .

اقليم طنجة أيا كان، فبعد ثلاثين عاما من ذلك التاريخ وفى ولاية موسى بن نصير أثناء أعمال الفتح الاندلسى يلتقى بليان هذا مرة أخرى وسيكون له شأن مع موسى بن نصير وطارق بن زياد، وكذلك سيكون له دور فى فتح الاندلس، على أية حال نجد أن عقبة بن نافع الفهرى يتفاهم مع ذلك الرجل، ويقول له ليليان، لقد تغلبت على الروم وليس أمامك الآن الا البربر فعليك الآن أن تنحدر إلى الجنوب فهناك مواطن البربر الحقيقيين ويستجيب عقبة لعروض يليان حاكم طنجة [٧٩] ويترك وراءه هذا الاقليم لينعطف جنوبا نحو الداخل فوصل الى ولاية وليلة أو ليلى ولم يكذبه عقبة فاتجه الى الجنوب وبنفس البسالة التى عرفناها فيه نجده يخترق مواطن البربر المصامدة فى شمال المغرب الاقصى الى جنوبه يخترق جبال الاطلس التى تسمى هنا «جبال درن» وفى طريقه يهزم القبائل وينشئ المساجد ويقبل عليه الناس رغبة لارهبة ليعلنوا اسلامهم وهكذا كان وصوله الى مدينة أوليل والتى تعد احدى المدن القديمه التى تقع على مسافة قريبة من مدينة فاس عاصمة الادارسة فيما بعد وعندما يصل ذلك الرجل الى قلب بلاد المصامدة فى جبال درن نجده يدور دورة واسعة وسط الجبال ثم يتجة غربا وينحدر نحو المحيط الى الجنوب حيث المدينه الحالية المعروفة باسم أغادير التى تقع على مصب وادى السوس، وهناك وعند قرية صغيرة على البحر المحيط تسمى «ايقبران يطوف» نرى المشهد التاريخى الشهير وهو مشهد عقبة بن نافع الفهرى يدخل بفرسه فى مياه المحيط الاطلسى ويشهد الله على انه وصل براية الاسلام الى آخر المعمورة ويقول قولته والله لو انى أعلم أن خلف هذا البحر قوم لذهبت اليهموقاتلتهم فى سبيل الله وانه لو وجد طريقا لسار الى البلاد التى وصل اليها فى زعم القصاصين ذو القرنين عند ثوب الشمس [٨٠] فى أطراف المغرب الاقصى وهناك أنزل بالبربر المصامدة ضربة قوية أرغمتهم على الفرار الى الصحراء فاقتفى أثرهم حتى وصل فى زحفه الى درعه فى أقصى الجنوب [٨١].

(٨٠) حسين مؤنس: المرجع السابق – ص ٤٠ .

(٨١) سعد زغلول محمد الحسين – مرجع سابق ص ١٦٣ .

(٨٢) ابن غدارى – مصدر سابق جـ ١ ص ٢٧ .

ولم يجد ما يشجعه على الاستمرار فى هذا الاتجاه الصحراوى، فصعد مجددا نحو الشواطئ الغربية للمغرب الأقصى حيث المدن العامرة وحيث المغامرة تهون لدى الجند المقتحمين أغوار المجهول وهناك فى آخر خطوة فى المسيرة الطويلة أخضع عددا من المدن الهامة الواقعة تحت أقدام أطلس العظمى وسارت صنهاجة الكبيرة القبيلة البربرية تعلن ولاءها للقائد العربى [٨٢] ثم خضعت اغمات إلى الشمال الشرقى من مراكش بعد حصار قصير وتبعتها مدينة أخرى الى الغرب «بقيس» وهى احدى المراكز المهمة فى تلك المنطقة ومن هناك انتهى به المطاف الى السوس الأقصى فأجتاحه دون مقاومة مسيطرا على المدن الرئيسية حتى ادرك أخيرا (ايقيران يطوف) على ساحل المحيط الاطلسى واذ بلغ عقبة هذا الحد من فتوحاته عبر أضخم مغامرة عسكرية عرفتها دولة الامويين فى ذلك الوقت، وبعد أن وصل عقبة الى هذه النتيجة التى لاتصدق نجده يعود أدراجه الى القيروان وفى نفسه ظمأ الى الحرب مخترقا بلاد البربر مرة أخرى وعندما يصل الى نهر قانسيفت وهو النهر الذى تقع على أحد نهيراته مدينة مراكش الحالية، وعند بلدة تسمى منفيس ينشئ مسجدا وهو المسجد الذى عرف فيما بعد باسم مسجد اغمات أوريكة ولا زال ذلك المسجد باقيا الى اليوم، ويقال أن منبره يرجع الى تلك الأيام وعندما وصل عقبة الى وادى أم الرقراق التى تقع على مصبه الآن مدينة الرباط ينشئ رباطا أى معسكرا للمرابطين، أى الذين يرابطون على ثغور ديار الاسلام ليحرسوها ويذودوا الاعداء عنها، ثم يواصل مسيرة عائدا الى القيروان فنجد أن الكثيرين من جنوده يسأذنونه فى الاسراع الى القيروان فقد طال غيابهم عن أولادهم وأهلهم فيأذن لهم ويبقى فى عدد قليل من رجاله، والواقع أن المصنفات التاريخية تكاد تجمع على وضع هذا القائد فى مصاف القواد العظام الذين عرفهم العرب بل ينفرد أكثر عن غيره بنزعته الصوفية فى الجهاد التى أعطت لأعماله بعدا آخر [٨٣] .

(٨٣) ابراهيم بيضون: مرجع سابق ص ٤٣ .

وتشاء الأقدار أن تكون رحلة العودة محفوفة بالمخاطر على خلاف ما كان متوقعا فبعد أن اطمأن عقبة الى ما أنجزه فى المغرب الأقصى ودون أن يشعر بأى تحول معاكس فى ولاء المدن والاقاليم بعد انتهاء مهمته وقرار العودة، حيث ترك فيها أصحابا له يقومون بدورهم فى نشر الدعوة الاسلامية وتفقيه الناس فى أمور دينهم، وبينما كان عقبة منصرفا الى مغامرته العسكرية الدينية الكبرى كان خصومه يكيدون له وكان معه فى الجيش كما قلت أبو المهاجر دينار وصاحبه كسيلة بن لزم الاوربى، فلما اقتربوا من بلاد قبيلة أوربة هرب كسيلة وعاد الى قومه وجمعهم وتتبع عقبة ليوقع به عندما تسنح له الفرصة، وعلى الجانب الآخر كان عقبة ربما أدرك عن خطأ فى التقدير أن ولاء البربر لن يكون موضع مريب، حدث كل ماقلبت كل التوقعات حين أرسل الجانب الاكبر من قواته لمهمات معينة بعد وصوله الى اقليم الزاب، ولعلها عملية استدراجية من حليف العرب القديم منذ أيام أبى المهاجر دينار، الزعيم البربرى كسيلة قد اقنعت عقبة باتخاذ هذا الاجراء والبقاء على نفر قليل من جنوده لا يتجاوز خمسة آلاف حتى اذا وصل الى المدينة تهودة «تاهورة» فى منطقة الاوراس فوجئ باعتراض الزعيم البربرى له بالاتفاق مع البيزنطيين الذين أحاطوا بالعرب فى الشمال (٨٤) وكان وصول ذلك الجيش الاسلامى الصغير الى سهل تهودة جنوبى واحة بسكرة الحالية الى جنوب مدينة الجزائر هو نهاية هذا القائد حيث وجد عقبة نفسه محاصرا بجماعات غفيرة من البربر والبيزنطيين وقد تجمعوا وتعاونوا بفضل كسيلة للانتقام من ذلك الرجل المجاهد عقبة (٨٥).

وهكذا يبدو أن استسلام كسيلة واسلامه الى جانب أبى المهاجر ثم من بعدة عقبة بن نافع ثم مناوشات الروم وهزيمتهم أمام الجيش الاسلامى ثم فرار كثيرين منهم لم

(٨٤) عبد الحميد العابدى: المجمل فى تاريخ الاندلس..ص٥٥.

(٨٥) حسين مؤنس: مرجع سابق جـ ٤ .

تكن كلها الا خطوات دبرت باحكام حتى يمعن عقبة فى التوغل نحو الغرب حيث تشتد التضاريس فى قوتها وحيث تطول خطوط مواصلات الجيش العربى وحيث يتجمع البربر والبيرنظيون كل ذلك وعقبة يمعن فى السير حتى وصل الى ساحل المحيط منتصرا بوصوله الى أقصى البلاد ولكنه لم يلبث أن أحس أن البربر قد تجمعوا وأخذوا يحيطون به فانقلب يريد العودة فاذا الابار التى يعتمد عليها قد طمرت (ردمت) واذا كسيلة ومن معه من البربر ينقلبون عليه وهكذا كان موقع تهودة مشهدا مثيرا لعقبة حين رأى البربر يفاترون عليه من جميع الجهات منضمين الى كسيلة فى أعداد هائلة والمسلمون متعبون من طول رحلة الغزو والعودة وكانما أدركوا ما وقعوا فيه من خديعة من جانب البربر والروم (٨٦).

ولم يكن هناك يد من مواجهة هذا العدد الضخم فى وقت غير ملائم وغير متواز عسكريا وقوات غير متكافئة عدديا حيث لم تكن قوات عقبة تزيد عن خمسة آلاف مقاتل، وهناك قرب نهر صغير يسمى وادى الابيوض وجد عقبة انه لا مفر من الاستشهاد فأمر رجاله بأن يترجلوا عن خيولهم وذلك توطينا للنفس على القتال حتى الموت، وطلب منه أبو المهاجر أن يفك قيوده لكى يموت فى سبيل الله وسبيل الاسلام وخاضت هذه الجماعة الصغيرة معركة الموت ببسالة وخاض العرب بقيادة عقبة بن نافع معركة بطولية عنيفة قتل فيها القائد العربى وعدد آخر من القواد منهم أبو المهاجر دينار حتى غرق الباقون فى المعركة فى بحر من الدماء ورحب عقبة وأصحابه بالموت واستقبلوه فى شجاعة كما تقول المصادر العربية (٨٧). وهلك المسلمون الذين صاحبوا عقبة فى العودة جميعا ولم يفلت واحد منهم وكانت هذه نهاية الحملة التى بدأت فى أولها موفقة غاية التوفيق، وتلك كانت نهاية ذلك الرجل عقبة بن نافع عام ٦٤هـ/٦٨٣م وهى نهاية جديرة بحياة

(٨٦) زاهر رياض: مرجع سابق ص ٢٣ .

(٨٧) ابن عذرى: مصدر سابق جـ ١ ص ٢٨ .

رجل مثل عقبة بن نافع وهذه النهاية على الرغم من أنها كانت هزيمة عسكرية الا أنها فى واقع الامر كانت بعيدة الأثر فى اسلام افريقية والمغرب فقد كان ما أبداه عقبة ورجاله من البساله فى ذلك الاستشهاد قد أوقع فى نفوس البربر وهم قوم ذوو بأس واعجاب بالأبطال وكانت نتيجة هذا الاستشهاد المجيد أن دخل البربر جماعات فى الاسلام وتلك هى نهاية أسطورة عقبة أو سيدى عقبة بطل الاسلام الاكبر فى تاريخ الفتوح فى الجزء الغربى فى العالم الاسلامى [٨٨] .

وقد أسفرت هذه الحادثة عن نتائج سيئة للغاية فى الجانب الاسلامى فلم تكن مجرد عملية انتقامية موجهة ضد عقبة بن نافع كما يعتقد جانب كبير من المؤرخين [٨٩] بل كان لها بعد على قدر كبير من الخطورة فلا يمكن أن تسمى ما قام به كسيلة ومعه خمسون ألف من البربر وحلفاؤهم بتعريف الكمين أو التصدى فى الطريق، حتى لو كان الرقم غير دقيق ومبالغ فيه، فحشد من مثل هذا النوع يفترض فيه أن يكون قد سبقه اعداد منظم وتخطيط بارع للقضاء على الوجود العربى فى المغرب، ونحن لا نبالغ فى تصورنا اذ ما اعتبرنا هذه الحادثة أولى الثورات التى قادها البربر ضد سياسة التوسع العربى الاسلامى فى بلادهم، لقد رأى هؤلاء فى منجزات عقبة بن نافع وانتشار قواته حتى المحيط الاطلسى تهديدا لوجودهم واعتداء على سيادتهم المتوارثة النى لم تمس عبر التاريخ .

فما زالوا يعيشون منذ البدء حياتهم ويمارسون تقاليدهم متحررين من كل القيود حتى فى ظل الدول الحاكمة من الرومان الى الوندال الى البيزنطيين فهذه الدول والقوى غالبا ما كانت تنشر سيادتها على السواحل أو المناطق القريبة منها دون أن تتصادم مع

(٨٨) حسين مؤنس: مرجع سابق– ص ٤١ .

(٨٩) ابن الاثير: مصدر سابق جـ ٤ ص ٥٤ .

سكان البلاد من البربر فى الداخل، وغالبا ما كانت العلاقات تأخذ اطارها غير المتناقض بين الطرفين فى شعور عام بأن مصالح كل منها لاتتعارض مع الآخر وعند الانقلاب فى السيطرة غير المباشرة جعل البربر يمتازون عن غيرهم من الشعوب بنزعتهم الاستقلالية التى كلفتهم كثيرا قبل أن يتخلوا عنها فتحالف البربر مع البيزنطيين فى عدة مواقع أثناء حملة عقبة جاء عن قناعة بأن العرب عدو مشترك للفريقين، لان البيزنطيين لم يمثلوا فى نظر البربر ذلك الخطر الذى داهمهم على يد العرب .

واذ انتهت مغامرة عقبة بثورة عكسية من جانب البربر قضت على كل منجزاتها ولم تكتف بهذا الانتقام بل أرادت أن تجتث جذور العرب بمتابعة الهجوم الى القيروان وهناك حدث خلاف بين عناصر الحامية العربية، فمن راغب فى القتال الى عارف عنه لان الموقف كان شديد الخطورة ولم تكن الحامية قادرة على حسم الموقف لصالحها وكانت الهزيمة الساحقة التى منى بها المسلمون قد وصلت الى أسماع تلك الحامية فى القيروان بقيادة زهير بن قيس البلوى ومن هنا فقد وضح القائد زهير ابن قيس الذى كان مع الاتجاه الأول وانسحب بمن معه الى برقة خرجوا فى الاتجاه شرقا مسرعين يريدون العودة فوصلوا الى برقة سالمين واستولى كسيلة على القيروان وخرجت افريقيا من يد العرب ولقد وضحت الأهمية القصوى لانشاء قاعدة القيروان العسكرية فى عهد زهير بن قيس البلوى حينما ارتد البربر وهبوا يعاونهم البيزنطيون بعد أن تخلصوا من متاعبهم كلها وأرادوا أن يوقعوا بالعرب ولولا قاعدة القيروان أهميتها الاستراتيجية لطرد العرب نهائيا من البلاد وضاعت الجهود الشاقة التى بذلت من قبل [٩٠] وهكذا خلت القيروان من العرب ليدخلها كسيلة ويصبح أميرها المطلق نحو خمس سنوات (٦٤–٦٩هـ) والذى ينظر الى طبيعة العلاقة بين البربر وبين عقبة بن نافع يجد انها كانت فى مضمونها علاقة عدائية (آراء المعادين

(٩٠) حسن محمود: مرجع سابق. ص ٩٤ .

للاسلام من الكتاب الغربيين) [٩١] اذ وجد هؤلاء البربر فى سياسة القائد العربى فى حملته الأخيرة تصميما مركزا استهدف الغاء شخصيتهم القومية وصهرها فى مجتمع جديد تذوب فيه الكيانات وتنمحى الروح العصبية، فهى أول حملة عربية فى أفريقية تأخذ ذلك الطابع المدروس المنظم بحيث أنها اعتمدت بتحقيق هدفين متوازيين الأول هو الاحاطة بنفوذ البيزنطيين واقتلاع حامياتهم من السواحل المغربية والثانى وهو الأهم تثبت السيادة العربية فى أوساط البربر ودعوة قبائلهم لدخول الاسلام ومن هنا كان اتجاه عقبة الى الجنوب نحو معاقل البربر دون الاهتمام كثيرا بأقليم طنجة المسالم فشخصية القائدة الذى وصف بالعنف لم تكن بالضرورة سبب تلك القضية البربرية، بقد ما كان لحملته المنظمة التى اخترقت لاول مرة الحواجز التاريخية التى أقامها البربر فى وجه الفاتحين فكانت تلك الثورة المضادة التى دبرها كسيلة بمعاونة البيزمطيين لضرب تلك المحاولات العربيـة الاسلاميـة السياسيـة التوسعية [٩٢] لنشر الاسلام وعقيدة الله الخالدة .

ومن هنا فانه يبقى أن نقول أن معركة تهودة لازالت محاطة بشئ من الغموض فهل تبعتها عملية استدراج من الزعيم البربرى، جعلت عقبة يوزع الجزء الأكبر من قواته فى مهمات عسكرية حسب تعبير الروايات التاريخية؟ أم أن ذلك مجرد خواطر أوردها المؤرخون العرب للتقليل من أهمية القوة القتالية لدى البربر وبالتالى تعليل الهزيمة المدمرة، لان توقيت المعركة فى وقت كانت خلافة دمشق تمر فى أصعب مراحلها بعد موت يزيد ابن معاوية بن أبى سفيان واستفحال الصراع بين محورى الشام والحجاز وذلك يدفعنا للتساؤل عن مدى تأثير تلك الجبهة الافريقية وارتباطه بهزيمة عقبة وهل كان لهذه الأحداث الدامية من أثر سلبى على نتائج تهودة وعلى سياسة الفتح فى المغرب بصورة عامة

---

(91) Gaudel,E.:Les Permieres Invoisions des Arabes dans l,Afrique du Nord.P.86

(٩٢) ابراهيم بيضون: مرجع سابق ص ٤٥ .

وهل كانت الدولة البيزنطية تمتلك تقييما للأوضاع الداخلية المنهارة فى الخلافة الاسلامية وفى عاصمتها، حيث كانت الخلافة العربية الاسلامية فى دمشق تعانى أسوأ أيامها، فقد اشتعلت ثورة عبد الله بن الزبير فى بلاد الحجاز التى استفحل أمرها بل أنه أرسل ولاته الى الاقاليم ومنها بالطبع ولاته الى مصر حيث وجد أهلها ترحيبا فقد كانت كل هذه الظروف تمنع مصر فى ذلك الوقت من ارسال نجدات عسكرية والخلافة الأموية فى دمشق من ارسال امدادات جديدة الى افريقية وبلاد المغرب حيث أن الظروف لم تكن مناسبة للاستمرار فى ارسال غزوات جديدة الى افريقية فى تلك الظروف التى يسود فيها الانقسام فى الدول العربية الاسلامية .

وهكذا نرى كيف أن تلك الحملات التى أرسلت الى بلاد المغرب التى بدأت فى عام ٢٢هـ/ ٦٤٣م منذ أن قام عمرو بن العاص بحملاته المظفرة الى برقة والاستيلاء عليها وكما انه ضم طرابلس أيضا عام ٢٣هـ ٦٤٤م وكذلك حملات عبد الله بن سعد بن أبى سرج وكذلك غزوات عقبة بن نافع الأولى (٥٠ – ٥٥هـ) وكذلك غزوات معاوية بن خديج التى كانت قد سبقت غزوات عقبة بخمس سنوات ٤٥هـ/ ٦٦٥م ثم حملات أبو المهاجر بن أبى دينار ٥٥هـ/٦٠هـ/٦٧٥م – ٦٨٠م ثم تلك الغزوة النهائية التى قام بها عقبة ابن نافع الفهرى ٦٢ – ٦٤هـ/٦٨١ – ٦٨٣م، وكيف كانت تلك الغزوات الاسلامية مقدمة لحركة اسلامية واسعة استهدفت فى نهاية الأم وضع الأسس المناسبة للفتح والاستقرار النهائى فى أرض المغرب وهذا ماسنراه فى الفصل القادم عن الفتح الاسلامى والاستقرار النهائى وهكذا كانت الأربعين عاما هذه ٢٢هـ/٦٢هـ ما هى الا مقدمات لتثبيت دعائم الدولة الاسلامية القوية فى المغرب.

الباب الثالث

الغزو الاسلامى والاستقرار النهائى

اذا كانت معركة تهودة وانسحاب بقية الجيش العربى الاسلامى الى برقة كارثة جسيمة على العرب الذين فقدوا فى تلك الضربة الصاعقة كل جهود السنوات الطويلة وانكفأت سيادتهم الى نقطة البدء تقريبا، أى أن محاولات أربعين عاما لاقامة حكم عربى ثابت فى المغرب قد أصيبت بالفشل.

الا أنه يمكن القول أن العرب والمسلمين اذا كانوا قد فقدوا أرض المغرب وأحبطت مشاريعهم التوسعية فى تلك الارجاء، فانهم لم يفقدوا الارادة والطموح للعمل من جديد لاستعادة السيطرة على كل أرجاء المغرب، وذلك لأنه لم يعد يعنى لهم ذلك الجهد الضائع فى العمل خلال أربعين عاما سوى الاصرار والعزم على الفتح والاستقرار النهائى، وذلك رغم ظروف الدولة الاموية الصعبة التى لم تكن مؤهلة فى ذلك الوقت للقيام بأى عمل عسكرى فى المغرب للقضاء على ثورة كسيلة، لان الخلافة الاموية فى دمشق لم تكن تعطى الاهتمام الواجب بأمور افريقية أثر مقتل عقبة ابن نافع القهرى واحتلال كسيلة لمدينة القيروان الا بعد مضى وقت طويل على ذلك الاحتلال لان ظروف الدولة لم تكن تسمح بتأديب زعيم البربر واعادة فتح البلاد من جديد، ذلك لان المشاكل الداخلية قد هزمت دعائم الخلافة الأموية بل أن هناك عوامل أضعفت الدولة الاسلامية وأوصلتها الى حافة النهاية [1].

ذلك لانه فى تلك الأثناء وفى نفس العام الذى سقطت فيه القيروان فى قبضة البرانس وقائدها كسيلة كانت أحداث سياسية فى منتهى الخطورة تشهدها دمشق ومكة والكوفة ومناطق أخرى من الدولة، فقد توفى يزيد ابن معاوية وخلفه ابنه معاوية الثانى بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان وأخذت البيعة له لكن ما كاد الخبر يأخذ طريقه الى

(١) ابن الأثير: مصدر سابق– جـ ٣ ص ١٥٢ .

الانتشار حتى تمرد العراق وكان أول المتمردين وذلك كرد فعل وتعبير عن عوامل السخط المتفاعلة فى نفوس أبنائه منذ انتقال الخلافة الى الشام الأموية. فانفجرت الثورة ملقية أقنعة الصمت فى وجه صانعى مأساة كربلاء وقتله الحسين بن على ابن أبى طالب وأخذت الثورة تشتعل من يد الى أخرى تستمد ضميرها فى هذه الحادثة البشعة فتربك الحاكم الجديد وتضعه فى مأزق [2] .

وفى مكة المكرمة تأخذ الثورة اطارا تنظيميا أكثر براعة ويستفيد زعيمها عبد الله بن الزبير من كل الظروف التى اتجهت طبقا لمصلحته فنشر سيادته على العراق ومصر فضلا عن الحجاز ولكنه لم يحسن اللعبة السياسية فسقط من القمة بعد أن غـزا الأمويـون الكعبة [3] فى العام الثالث من حكم يزيد ابن معاوية أما فى دمشق فكانت المعركة سياسية بكل ملامحها وكادت الخلافة الاموية أن تضيع فى الجدل بين أبناء بنى أمية، لاختلاف الاسرة بعد اقصاء معاوية الثانى أو اعفائه، على البديل، حتى انتصر أخيرا مؤيدو الشيخ المحنك مروان بن الحكم الذى حكم عاما واحدا، والذى فاز بتأييد الحزب اليمنى القوى فى تلك المنطقة فحسم الموقف فى مرج رامط لصالح الفرع المروانى وجئ بزعيمه الى الخلافة عام ٦٥ هـ/٦٨٥م ولم يكن فى مقدور النظام الجديد أن يقفز فوق هذه العقبات وأن يعبر حواجز الخطر بهذه السهولة وان استطاع مروان بن الحكم انقاذه من الضياع خلال تلك الفترة الانتقالية القصيرة، فان أبنه عبد الملك بن مروان استطاع أن يلم الشعث ويوحد العالم الاسلامى مرة أخرى ويضمن عمرا جديدا للخلافة الأموية بعد أن كانت هذه الخلافة على وشك الزوال [4] وهو الذى وقع على كتفيه العبء الاكبر فى استعادة الامور الى نصابها وقد أثبت ذلك الخليفة القوى بأنه رجل المرحلة بكل ما تحمله هذه الكلمة من أبعاد سياسية، وكان عبد الملك قد شغل باستعادة العراق من عبد الله ابن

(٢) أحمد شلبى: التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية . جـ٣ ص ٤٧، الطبرى: مصدر سابق جـ٤ ص ٢٢٥.
(٣) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية. ص ٩٨ .
(٤) الطبرى: تاريخ الامم والملوك . جـ ٤ . ص ١٤٢ .

الزبير بن العوام وهدأت الاحوال شيئا فشيئا من عام ٦٨هـ – ٦٨٧م ويثبت أركان خلافة عبد الملك بن مروان واتسع أمامه الوقت ليقوم بعمل فى أفريقية، حيث هكذا كانت أوضاع الدولة الاموية وهى تلملم نفسها بعد شتات وتفرق فى موج الثورات والصراعات الحزبية، وكلها محصلة لسياسة يزيد ابن معاوية التى نسفت بقلة من السنوات كل مجهودات معاوية، حدث كل هذا وقائد افريقية السابق زهير بن قيس البلوى قابع فى برقة بعد انسحابه من القيروان ينتظر فرصة للعمل من جديد فى أفريقية وبعد نفسه لرد كرامة العرب من مجزرة تهودة وذلك فى انتظار أن تأتيه الامدادات من دمشق لكى ينهض فى فتح افريقية وبقية بلاد المغرب [٥] .

لكن الخلافة الأموية كانت لديها همومها غير الافريقية فى ذلك الوقت فانصرفت بكل طاقتها الى الداخل حتى اذا انتهت الثورة ورأى عبد الملك أن خصمه العنيد ابن الزبير قد فقد جناحيه العراق ومصر وتقوقع فى مكة [٦] أحس بأن االوقت قد حان للاهتمام بسياسة التوسع كانت جبهة المغرب من أكبر الجبهات الاسلامية الهامة والاكثر الحاما حيث فى عام ٦٩هـ/٦٨١م وقبل أربع سنوات من القضاء النهائى على ثورة الحجاز بقيادة عبد الله ابن الزبير، عهد الخليفة الأموى عبد الله بن مروان بقيادة الجيش فى افريقية الى زهير بن قيس البلوى الخبير بشئون هذه البلاد وفى نفس الوقت زوده بعناصر اضافية من الجيش الشامى للاشتراك فى حملة رد الاعتبار للجند العربى الاسلامى والانتصار لروح المجاهد الاسلامى عقبة بن نافع الفهرى .

وقد تم تكليف زهير بن قيس البلوى بقيادة تلك الغزوة المباركة والميمونة بناء على توصية من شقيق الخليفة ووالى مصر فى ذلك الوقت عبد العزيز ابن مروان بن الحكم [٧] وقد عرف عن الأمير عبد العزيز بن مروان اهتمامه الزائد بشئون المغرب حيث كان ذلك

(٥) حسين مؤنس: مرجع سابق . ص ٤١ .

(٦) ابن عبد ربه: العقد الفريد . جـ ٤ . ص ٤٠٧ .

(٧) ابن عبد الحكم: مصدر سابق . ص ٣٦٩ .

المجهول وراء العمليات المنظمة التى اسفرت عن فتح المغرب نهائيا فى وقت لاحق لاسيما دوره فى اختيار القائد الذى ارتبط اسمه بهذه المنطقة وفضل الاستقرار فى برقة والانتظار حتى تنتهى مشاكل الدولة الاموية الداخلية .

وقد يتساءل الباحث هنا عن الاسباب التى دفعت الخلافة الاموية إلى التفكير فى ارسال حملة زهير بن قيس البلوى وهى لازالت تجاهد فى حل مشاكلها الداخلية والقضاء على ثورة الحجاز بقيادة عبد الله بن الزبير وذلك فى وقت كانت فيه الدولة فى أمس الاحتياج لاستخدام كل طاقتها فى الحرب الأهلية الدامية بدلا من القيام بهذا العمل العسكرى فى افريقية، وللاجابة على ذلك نجد أن حملة زهير لم تكن ضمن أهداف تحركها القيام بالغزو التوسعى وصولا الى طنجة على المحيط الاطلسى بقدر ما استهدفت أولا الامساك بزمام المباردة فى بلاد المغرب واثبات قوة الخلافة الأموية أمام البيزنطيين والبربر وقدرة الخلافة الأموية فى القيام بعمل عسكرى فى الخارج رغم الحرب الاهلية الداخلية والخلاف بشأن الخلافة الاسلامية [٨] .

وبسرعة نفذ زهير بن قيس البلوى أوامر الخلافة الأموية الجديدة وسار بجيشه متخذا الطريق التقليدى من برقة الى القيروان بقوات الشام وعند اقترابه من مدينة قوينة شعر كسيلة بقدومه فخرج للتصدى له بكل قواته من البرانس ومعه عدد من البيزنطيين معسكرا فى بلدة ممس وهى احدى الوديان الواقعة على مسافة يوم من القيروان [٩] .

وهكذا نرى أنه اذا كان اليأس قد دب فى نفوس من بقى من المسلمين فى المغرب فبادروا باخلاء البلاد حتى برقة الا أن روح العزيمه قد دبت مرة أخرى فى نفوس من بقى من المسلمين الذين كانوا لازالوا يقيمون فى برقة بقيادة زهير وكان لابد من الاستيلاء على البلاد التى عز عليهم أن تضيع هذه الجهود التى بذلت طول أربعين عاما وعلى هذا

(٨) ابراهيم بيضون: مرجع سابق ص ٤٨ .

(٩) ابن عبد الحكم: مصدر سابق . ص ٢٦٩ .

كان قرار عبد الملك بن مروان بأعداد هذا الجيش الضخم وتعزيز الجهود لمواصلة الفتح وامداد القوات التى تحتاج اليها الحملة وكذلك أمر عاجلا بالسير الى الفتح غربا والتحرك من برقة فكانت هذه الحملة بداية المرحلة الثالثة من مراحل الفتح وهى مرحلة التصميم على الانتصار والاستقرار وكانت ضخامة هذا الجيش الاسلامى والأموال التى أرسلها له من مصر واليها عبد العزيز بن مروان شقيق الخليفة عبد الملك سببا فى أن يدب النشاط والحمية فى المعسكر الاسلامى فخرج من برقة عام ٦٩هـ – ٦٨٨م [١٠] .

وحملت أخبار الاستعدادات والتقدم الاسلامى الى كسيلة وهو فى القيروان فاستعد لها ورأى أن ينتقل من القيروان الى مكان حصين يتحصن فيه فخرج إلى مكان يقال له ممس بينما دخل زهير بن قيس البلوى الى القيروان وكان طبيعيا أن يلحق زهير بكسيلة، وقد عسكر زهير فى ناحية يطلق عليها اسم قمودة، وهى شبه جزيرة بارزة فى البحر من الساحل الشرقى لتونس الحالية وكان من عادة العرب فى تلك الظروف أن تتحصن جيوشهم فى مثل ذلك الموقع أو فى ثنية من النهر وذلك لقلة أعدادهم وكان كسيلة قد جمع من البربر والروم قوى ضخمة وسار بهم لحرب زهير وفكر زهير فى الانسحاب ولكن قادة الجيش الاخرين شجعوه على الثبات وحفزوه على السير للقاء كسيلة وفعلا تم بين الجانبين لقاء ودارت معركة من أشد ما مر بالعرب فى افريقية الى ذلك الحين فقد فنى فيها الالوف من الجانبين وخرج المسلمون كعادتهم فى ذلك العصر منتصرين وقتل كسيلة ونفر من كبار الروم والبربر وطارد المسلمون خلالها المنهزمين الى مسافات بعيدة [١١] وقد كانت تلك المعركة مقبرة ولكنها رهيبة وتم قتل كسيلة وانهزم من بقى من أصحابه وعاد زهير الى القيروان ويبدو أن هذه المعركة وان كانت قصيرة الا انها كانت حاسمه اذ عرف البربر قوة العرب وتصميمهم على القتال والانتصار فلجأوا الى الحصون يتحصنون بها وكانت هذه الموقعة قد قضت على قوة البربر كما قضت على ما كان قائما

(١٠) زاهر رياض: مرجع سابق ص ٥٤ .

(١١) حسين مؤنس: مرجع سابق ص ٤٠ .

بينهم وبين الروم من تحالف ولقد كانت النتائج الاولى المترتبة على هذا الانتصار الباهر استعادة القيروان وتحصينها مجددا ولذا كانت عودة زهير بعد تلك المعركة الى القيروان ليرتب أمورها ويصلح فى أحوال المسلمين بها وبعد أن تم له فى ذلك ما أراد يبدو انه لم يكن مستريحا للمقام فى تلك البلاد وربما لم تكن الخلافة الاسلامية قد حددت سياستها فيما يتعلق بافريقية ومن هنا لم تطل اقامته فى القيروان ثم عاد أدراجه الى برقة ولا نجد تفسيرا لعودة هذا القائد فى هذه الفترة الحرجة سوى أن تكون مهمته قد انتهت عند هذا الحد انسجاما مع العوامل التى أشرنا اليها، وربما قد يكون انصراف زهير عن الاستقرار فى القيروان بعيدا عن الشعور بالحذر من البربر الذين أثبتوا انهم قوة عسكرية فى التصدى لحركة التوسع العربية رغم هزيمتهم شر هزيمة وقتل كسيلة وانفراط عقد بينهم وبين الروم [١٢] .

ولابد أن نذكر أن بلاد افريقية فى ذلك العصر كانت بلادا بعيدة جدا عن نظر العرب خاصة وهى ميدان حرب عنيفة مع البربر من ناحية والروم من ناحية أخرى، لذا قرر زهير العودة وشرع فيها فعلا وعندما خرج زهير عائدا سمع أن الروم عادوا الى طرابلس وأنزلوا قوة بها وكان زهير قد ترك جيشه يسير قطعا صغيرة منسحبا الى مصر وعندما اقترب من طرابلس كان قد بقى سبعون رجلا فقط من خيرة رجاله وهكذا كانت رحله العودة خطيرة جدا اذ فوجىء زهير بحادث لم يكن فى حسابه عندما قطع عليه البزنطيون الطريق عند درنة على مقربة من طبرق، فاراد زهير أن ينتظر حتى يكتمل الجيش المنصرف فى مهمات عدة ليهاجم الروم ولكن شباب المقاتلين حفزوه على الهجوم وعيروه بالجبن عن لقاء الروم فما كان منه الا أن انقض بمن معه على الروم وكانت النتيجة واضحة منذ البداية فقد استشهد هو وكل من معه وهكذا أصيب المسلمون بكارثة ثانية فى فتوح افريقية وانسحب الباقون من رجال زهير الى برقة وأرسلوا يطلبون المدد من دمشق للعودة

(١٢) حسين مؤنس: مرجع سابق ص ٤١ .

الى افريقية، وكان البيزنطيون فى القسطنطينية قد رأوا ضياع هذا الملك العريق بعد أن خلص لهم منذ سنين طويلة أمرا صعبا فقامت الامدادات فى حملة بحرية ضخمة نزلت فى طرابلس بقصد قطع الطريق بين زهير وبين مصر التى هى مركز امدادات الحملات فلم يجد زهير بدا من أن يرتد بسرعة وما أن وصل الى درنة حتى وجد الروم قد تجمعوا فأحاطوا به واستشهد زهير وانهزم المسلمون وكان ذلك فى بداية عام ٧١هـ/٦٩٠م، ولكن ذلك لم يكن معناه ضياع هذه البلاد ومعها الجهود التى بذلت من قبل [١٣].

كما حدث من قبل فى المرة الاولى عقب مقتل عقبة بن نافع، ومع هذا فان زهير بن قيس البلوى اذ كان قد استشهد على يد الروم الا انه أفلح فى القضاء على قوة البربر بهزيمة كسيلة وأصحابه فى موقعة الممس.

غزوة حسان بن النعمان الغسانى والاستقرار النهائى فى افريقية (٧١ – ٨٥هـ ٦٩٠ – ٧٠٤م).

سمع عبد الملك بن مروان فى دمشق (٦٥ – ٨٦هـ – ٦٨٥ – ٧٠٥م) بمقتل زهير بن قيس البلوى فجهز جيشا جديدا سيره الى افريقيا بقيادة حسان بن النعمان الغسانى مكونا من أربعين ألف جندى، وذلك بعد أن انتهت فتنة ابن الزبير واستقرار الامر لعبد الملك بن مروان بصورة نهائية فجدد عزمه على مواصلة الفتوح فى ذلك الجناح الغربى لدولة الاسلام ونلاحظ هنا انه فى عصر عبد الملك بن مروان كان هناك تنافس شديد بين العاملين فى الفتوح ففى الشرق كان على رأسهم الحجاج ابن يوسف الثقفى، وكذلك العاملين فى المغرب وعلى رأسهم عبد العزيز ابن مروان شقيق الخليفة وولى عهده واليا على مصر وكان كل من الفريقين يحاول أن يتفوق على الآخر بما يفتح من البلاد وهو تنافس محمود يرجع الفضل فيه إلى ما وفقت فيه البلاد من فتح فى عصر عبد الملك بن مروان وابنه الوليد وقد كان نتيجة ذلك التنافس فتح بلاد زادت من الأهمية والاتساع

(١٣) زاهر رياض: مرجع سابق ص ٢٥.

على كل ما فتحه المسلمون فى العصر الراشدى بعد فتوح ايران، فقد وصل المسلمون الى غربى الصين ودخلوا حوض السند من ناحية الشرق على أيدى الفاتحين الكبار أمثال قتيبة بن مسلم الباهلى ومحمد ابن القاسم، أما فى الجانب الغربى وهو موضوع حديثنا الآن، فقد بدأ عصر جديد من الفتوح بفضل ما قام به عقبة بن نافع ومن جاء بعده من كبار الفاتحين وأول أولئك الفاتحين الجدد حسان بن النعمان الغسانى الذى سيتولى القضاء على المقاومة الفعلية للروم والبربر فى افريقية (✪).

وكان حسان بن النعمان أول قائد من خارج المدرسة التى زودت جبهة المغرب بالقواد فهو لم يعش حياته العسكرية أو جانبا منها فى هذه البلاد أمثال من سبقوه، بل عاش فى الشام على مقربة من أحداثها وقد كان من كبار رجال عبد الملك بن مروان وكان رجلا شريفا ينسب الى بنى غسان ولهذا كان لقبه الغسانى ومع كبر سنه الا أن شخصيته وخبرته وأمانته مكنت له من القيام بهذه المهمة التى وكلته لها الخلافة الاموية، ومن هنا كان اختيار عبد الملك ليكون القائد العام لهذه الجبهة ومعه عدد ضخم من الجند (✪✪) وزيادة عدد القوات يعنى أن الخلافة الأموية قد تخلصت من متاعبها بالقضاء على ثورة ابن الزبير واتجهت إلى المغرب بروح عسكرية اسلامية جديدة ولابد أن عبد الملك كان على معرفة وثيقة بالقائد الجديد وعلى ثقة بقدراته العسكرية فمنحه ثقة كبيرة وصلاحيات مطلقة وقوله له «انى قد أطلقت يدك فى أموال مصر فاعط من معك ومن ورد عليك وأخرج الى بلاد افريقية على بركة اللّه» وتلك هى أقوال عبد الملك ابن مروان لحسان بن النعمان الغسانى بعد تعيينه قائدا عاما على جبهه المغرب (✪✪✪).

وتبدو لذا شخصية هذا القائد من خلال كتابات المؤرخين متلاحقة مع أعماله الحربية وهى أعظم صفات قائد عسكرى عليه أن يبدأ من القليل فى أرض يسيطر عليها

(✪) حسين مؤنس: مرجع سابق ص ٤٥.

(✪✪) ابن عبد الحكم: مصدر سابق ص ٢٦٩.

(✪✪✪) ابن عذارى: مرجع سابق جـ ١. ص ٣٤.

شعور العداء والرفض لكل ما هو عربى واسلامى بل هى مليئة بالحقد فهناك ثلاثة من القواد الكبار دفعوا حياتهم ثمنا لهذه العلاقة بعد التوسع العربى فى أرض المغرب، ومن هنا فان جبهة المغرب كانت بحاجة الى هذا النوع من القيادة أمثال حسان بن النعمان وهو من الذين تجتمع عندهم القدرة القيادية العسكرية والدبلوماسية وهكذا فان الاستراتيجية التى وضعها حسان كأساس لتحركه الى الغرب هى الوصول الى قلوب البربر وعقولهم ومن ثم اجتذابهم الى جبهة واحدة مع العرب ضد البيزنطيين حلفاء الامس القريب ولا شك انه أصاب فى ذلك نجاحا كبيرا حيث أصبح هذا النهج تقليدا عاما للسياسة الأموية فى بلاد المغرب .

غادر حسان مصر حيث كان مركز تجمع القواد فى عام ٧٤هـ/ ٦٩٣م متخذا الطريق المعروف حتى طرابلس، وذلك لانه استعاد القيروان بغير صعوبة، وكانت قرطاجنة، القاعدة البيزنطية الشهيرة أبرز أهداف هذا القائد حيث كان قد نجح فى الوصول الى القيروان دون أدنى صعوبة ولم يضع القائد وقتا فقد خرج لنوه عازما فسار الى قرطاجة لقتال الروم وكان كما تقول المصادر وكان عليها حاكم من أعظم ملوك الروم ويبدو أنه الحاكم العام لكل افريقية الرومانية، فما أن ظهرت الجيوش الاسلامية حتى أسرع وهرب الى صقلية، فدخل حسان قرطاجة وسبى وقتل عددا كبيرا من سكانها لانها أخذت غصبا لا طوعا حيث رفضت شروط التسليم وأصرت على المقاومة العسكرية للقوات الاسلامية، وكانت قد دارت معركة حامية بالسيوف بل طاحنة بين العرب وبين حاميتها هزم فيها البيزنطيون وأجبروا على مغادرة المدينة مخلفين ورائهم أشلاء عدد كبير من القتلى فذهب فريق منهم الى صقلية وفريق آخر أبحر الى أسبانية (١٤) وكانت أسبانيا فى تلك الأوقات تخضع لسيطرة القوط الغربيين، فكان لجوء تلك القوات الرومانية الى اسبانيا قد أغرى العرب بالاتجاه الى اسبانيا والاهتمام بشأن هذه البلاد وذلك لأول مرة فى تاريخ الفتوحات الاسلامية تظهر أسبانيا أمام العرب أثناء حرب القضاء وتصفية الوجود البيزنطى فى المغرب،

(١٤) ابراهيم حركات المغرب عبر التاريخ ص ١٤٦ .

وقد كان سقوط قرطاجة بالغ الأمر على مسيرة الفتوحات العربية فى المغرب وليس من المستبعد أن يكون الاسطول الأموى قد تدخل فى هذه المعركة (١٥) .

ولكن على جانب آخر نجد آراء تذكر (١٦) أن الاسطول الاسلامى الذى كان يتألف بوجه خاص من سفن مصرية اشترك فى العمليات الحربية ضد البيزنطيين فى ولاية حسان بن النعمان الغسانى، وقد أحرز هذا الاسطول فى مياه قرطاجة انتصارا ساحقا على الاسطول البيزنطى بقيادة البطريق «جان» أعظم قواد «ليونتيوس» وكان هذا الاسطول قد نزل على الشاطئ الافريقى فى عام ٧٩هـ/٦٨٩م (١٧) وفر معظم من كان به من الروم الى صقلية فى حين قتل من بقى منهم بسيوف المسلمين (١٨) . وكان المسلمون قد حاصروا المدينة وأحكموا الحصار حولها واخترق العرب أسوار المدينة بجرأة متناهية وأسفرت هذه العملية عن تدمير القاعدة البيزنطية العريقة بحيث أصبحت اطلالا خربة، وهكذا استطاع حسان الغسانى أن يمهد الطريق ويتابع مسيرته التوسعية على أرض المغرب والاجتياح فى مختلف نواحى المغرب، ذلك لان قرطاجة كانت عقبة كأداة فى وجه الزحف العربى الاسلامى ومركزا قويا من مراكز المقاومة البيزنطية البربرية. بل كانت باستمرار تغذى بالثورة والتآمر ضد الوجود الاسلامى العربى ومن هنا كان تخريبها (١٩) وقد تم هدم كل منشآت هذا الميناء حتى لا تعود اليه أساطيل الروم مرة أخرى وعاد حسان بعد ذلك الى القيروان، بعد أن كان قد تقدم غربا حيث تجمع الروم فى بنزرت فقاتلهم حسان وهزمهم فتقهقروا الى هبيون عنابة حاليا، وتحصنوا بها. وتابع حسان عمليات ضد البيزنطيين الذين كسرت شوكتهم سقوط قرطاجة، فشن سلسلة من الهجمات المتوالية على مواقعهم فى الغرب وذلك على امتداد الساحل الشمالى. فسقطت فى يده بنزرت بعد معركة عنيفة شارك فيها البربر وانسحبت فلولهم مضطربة، حتى انتهى بها الأمر إلى الاعتصام فى اقليم

(١٥) سيدة أسماعيل كاشف: الوليد بن عبد الملك . ص ١٢٨ .
(١٦) أحمد مختار العبادى: تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والاندلس . ص ٢٧ .
(١٧) البكرى: مصدر سابق . ص ٣٨ .
(18) Charlos, D. : Histioredu Mcyonage. P. 207
(١٩) ابن الأثير: مصدر سابق جـ ٤ ص ١٨ .

«بونة» الى الغرب من هذه المدينة. ولذا فاننا نجد أنه بعد أن ظفر حسان بهذه الانتصارات المتوالية على البيزنطيين والبربر واحراز هذا الانتصار الباهر، فانه يقرر العودة الى القيروان ليأخذ مع جنوده نصيبا من الراحة قبل مباشرة الرحلة الثانية من الفتوحات وتنفيذ خطته وحسم الموقف ضد البربر، ولعل حسان كان يدرك فى ذلك الوقت أن سلاح المحاورة مع هؤلاء البربر قد تكون له نتائجه الممكنة فما كاد يزمع على التحرك من القيروان حتى داهمت الأخبار عن وجود قوات ضخمة من البربر البتر (كسيلة البربر البرانس) الذين تصدوا هذه المرة للعرب بعد نكبة البربر البرانس ومقتل كسيلة فى معركة ممس وكانت هذه الحشود وتلك المرة تحت قيادة امرأة صلبة من قبيلة جراوة معروفة لدى العرب باسم الكاهنة. وقد كان اسمها الحقيقى داهية بنت مانية بن تيفان .

وندرك مرة أخرى هكذا كانت مدينة القيروان هى الأساس الهام الذى تنبعث منه محاولات عبد الملك بن مروان لاتمام فتح هذه البلاد فأرسل الى أشراف العرب ليحشدوا اليه الجند فى الشام وأقبل الناس على الانخراط فى سلك المجاهدين واستطاع عبد الملك بعد أن فرغ من مشاكله الداخلية كلها أن ينصرف كلية الى فتح افريقية، فأعاد الكرة مرة أخرى عام ٧٦هـ بقيادة حسان بن النعمان الغسانى وكانت الخطة التى التزمها هذا الفاتح تدل على تطور هام فى الحملات العربية فى شمال افريقية [٢٠] فقد انصرف العرب الى مهاجمة القلاع السواحلية كما سبق أن ذكرنا مثل قرطاجة وهذا يدل على نمو البحرية الاسلامية نموا جعلها تقدم على المخاطرة باقتحام ميدان المغرب بمساعدة القوات البحرية الاسلامية المصرية [٢١] وهكذا ندرك أن دخول البحرية الاسلامية المصرية بلاد المغرب يعتبر طليعة الجهود الحقيقية التى ستبذل لقهر الروم واتمام فتح البلاد وكان من نتيجة ذلك أن فتحت مدينة قرطاجة [٢٢] معقل المقاومة وقاعدة الاسطول البيزنطى بعد مقاومة عنيفة ونضال مستمر وهزمت البحرية البيزنطية وأحرز الاسطول العربى المصرى

(٢٠) حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب . ص ١١٨ .
(٢١) حسن محمود: مرجع سابق . ص ٩٤ .
(٢٢) الدباغ: معالم الايمان جـ ١ ص ٤٢ .

الناشئ أول نصر له فى هذا الميدان وكانت معركة افريقية معركة البحرية الاسلامية الناشئة وتستطيع أن نقول أن فتح افريقية قد تم بعدها، وأراد حسان بن النعمان الغسانى أن يثبت أركان هذا النصر ويضع حدا لمحاولات الروم البحرية فأنشأ قاعدة للاسطول الاسلامى فى مدينة تونس، واذا كانت القيروان قد أصبحت حصن البلاد من الداخل ومعسكرا للقوات البرية فقد أصبحت تونس قاعدة للاسطول العربى. وكان حسان موقفا كل التوفيق حين اهتم بتعمير هذه المدينة وجلب لها بعض الاسر المصرية القبطية [٢٣] المشتغلة بصناعة السفن لتدريب العرب وتمكين العرب وأهل البلاد من البربر من ركوب البحر وكانت الخطة الثانية التى اعتمد عليها حسان بن النعمان الغسانى هى التقرب الى أهل البلاد من البربر وتقرب الفاتحين اليهم بتولية المسلمين البربر منهم فى وظائف الولاية الافريقية وتمتعهم بالمساواة الكاملة مع العرب الفاتحين لهذه البلاد وهكذا أدرك أهل البلاد الفرق الواضح بين السياسة العربية والسياسة البيزنطية القديمة فاشتد ساعد الاسلام وأقبل عليه البربر منذ ذلك الوقت اقبالا عظيما ساعد على طبع البلاد بالطبيعة العربية الاسلامية [٢٤] .

لكن فتوحات حسان النعمان قد صدمت هذه المرة بالكاهنة وهى زعيمة بربرية ظهرت فى الميدان العسكرى على أرض المغرب تتحدى الزحف العربى الاسلامى ويطلق العرب عليها الكاهنة وقد يكون ذكر اسمها داهية بنت نامية بن تيفان، ليس الاسم الصحيح على وجه الدقة فان بعض المؤرخين يسميها أيضا داهية بنت داهيا وليس مانية وربما تكون هذه التسمية مأخوذة من القصص الشعبى ولا شك فقد ظهرت هذه المرأة فى جبال الاوراس على رأس قبيلة من أكبر قبائل البتر الزناتية (زناتة) تسمى قبيلة جراوة ووقفت تعاند التقدم الاسلامى وأعلنت أنها لن تستريح حتى يخرج العرب نهائيا من بلاد افريقية. ويبدو أن هذه المرأة عندما رأت أن العرب قد كسروا شوكة البرانس بالقضاء على قوتهم بقيادة كسيلة، قررت أن دورها قد جاء فرأت أن تبادر العرب قبل أن يبادروها، وتصور العرب هذه المرأة فى صورة أقرب الى شخصيات الاساطير. فنجد المؤرخين العرب

(٢٣) ابن ابى دينار المؤنس فى أخبار افريقية والمغرب ص ٨ .
(٢٤) حسن محمود: مرجع سابق ص ٩٥ .

يذكرون أن الكاهنة هذه شخصية ساحرة شديدة السحر فى حوالى الخمسين من عمرها وهى امرأة ذات شخصية خلابة ولها قدرة على الاتيان بالسحر. والكهانة والتنبؤ بما سيحدث وبطبيعة الحال كان ذلك الخبر مفاجأة لحسان ولكنه بما عرف عنه من البسالة وبعد النظر عرف أن هذه المرأة من الممكن تسبب للعرب متاعب كبيرة لانها متحصنة فى جبال الاوراس وفى الطرف الشرقى لجبال الاطلس بجمهورية الجزائر فى اقليم قسنطينه وما يليها شمالا وجنوبا وكان الممكن أن تكون عقبة فى سبيل تقدم العرب [٢٥] .

ويبدو انها كانت تتصف بنفس الكهانة وتمارس نفوذا روحيا على جماعاتها فضلا عن نفوذها السياسى الواسع وهى تختلف عن كسيلة زعيم البرانس الذى كان يدين بالنصرانية على الارجح، ومن المعروف أن الديانات السماوية قد أخذت طريقها الى المغرب مع الدول التى كانت تجتاحه بين الحين والحين، فانتشرت المسيحية بصفة خاصة فى المدن والمناطق الساحلية أى فى مناطق استقرار البربر والبرانس، أما اليهودية فكانت أكثر توغلا نحو الداخل حيث كانت عقيدة البربر البتر [٢٦] (آراء بعض الغربيين ولاسيما المؤرخون اليهود ومن سار فى فلكهم) الا أن الوثنية كانت اكثر أنتشارا بين البربر البرانس والبتر، ولم تستطع المسيحية أو اليهودية الثبات وسط معارك الاضطهاد وتمسك البربر بالوثنية والتى كانت أكثر شيوعا بين البتر منهم والبرانس .

وعلى الرغم من المفاجأة التى أحدثها تحرك الكاهنة فأن القائد العربى لم يفقد زمام المبادرة السريعة، بل تحرك لاعتراضها فى «باغية» ولكن الكاهنة كانت أكثر سرعة بدخولها الى المدينة والاعتصام بها حيث وقعت معركة عنيفة جدا على مقربة منها فى مكان يعرف بنهر «نينى» فهزم العرب وفقدوا عددا من جنودهم بين قتيل وأسير غير أن الهزيمة لم تكن ساحقة على غرار الهزائم السابقة فقد استطاع حسان بن النعمان أن ينجو بنفسه ويضطر للارتداد ويقود عملية ناجحة للارتداد والانسحاب الى برقة للمرة

(٢٥) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب الاندلسى ص ٤٣ .

(26) Vasiliev' B. : Byzante Cfles Aradec'. P.24

الثالثة منذ معركة تهودة ومقتل [٢٧] عقبة بن نافع حيث أخرجته الكاهنة من أفريقية (تونس) وطرابلس وهناك فى برقة تحصن حسان وبنى بيونا تسمى قصور حسان وأرسل للخليفة بطلب المدد، أما الكاهنة فقد اطمأنت إلى أن العرب قد ابتعدوا عن بلادها فعادت الى مواطنها وظنت أن العرب لايطلبون من هذه البلاد الا المغانم فى حين أن حقيقة الغزو الاسلامى نشر عقيدة الخلود عقيدة الاسلام ورفع لواء الاسلام وراية لا اله الا الله محمد رسول الله فقررت تخريب الطريق الذى يسلكه العرب حتى لايبقى لهم مطمع فى افريقية مرة ثانية فأمرت رجالها بقطع الاشجار وتهديم القرى واحراق المزارع وطمس الآبار، فكان لعملها هذا أسوء الأثر لان أصحاب الأشجار والمزارع والقرى والآبار كانوا من البربر البرانس، نفروا منها نفورا شديدا وأرسلوا إلى حسان بن النعمان يستغيثون به وكانت الكاهنة قد أسرت نفرا من رجال المسلمين من بينهم رجل يدعى «خالد بن يزيد» فتبنته واتخذته رجلها الاول بل مستشارها [٢٨] .

وهكذا تصاب مرة أخرى جهود العرب فى المغرب بضربة أخرى فيعجزوا عن تثبيت أقدامهم فى تلك الافصاح ولكن هزيمتهم هذه المرة لم تعن خسارة كل شئ لان حملة حسان بن النعمان الأولى استطاعت بدون شك أن توقع الضربة القاضية بالنفوذ البيزنطى فى المغرب وتقضى على قوة البربر البرانس بقيادة كسيلة ومن هنا لم يتبق أمام الوجود الاسلامى لتوطيد نفوذه فى أرض المغرب غير كسر شوكة البربر البتر، وبعد انسحاب حسان الى برقة أثر الهزيمة هذه ومقتل عدد كبير من القوات الاسلامية فان حسان كتب الى عبد الملك بن مروان بطلب المدد بينما بقيت الكاهنة تحكم كل الشمال الافريقى، فى حين تجد البيزنطيين قد عادوا مرة أخرى الى قرطاجنة الا أن نفوذهم قد زال فعليا منذ هزيمة حسان لهم، وفى نفس الوقت لم تنجح الكاهنة بعد انتصارها على العرب فى اقناع

(٢٧) ابن عبد الحكم: مصدر سابق . ص ٢٧ .

(٢٨) حسن مؤنس: مرجع سابق ص ٤١ .

كافة البربر بزعامتها المطلقة حيث خرج البربر البرانس عن طاعتها وأرسلوا إلى حسان يطلبون منه العودة ، ولعل سياستها فى اتباع سياسة الأرض المحروقة قد أثارت عليها سخط البربر البرانس، وذلك لاعتقادها أن الحملات العربية الاسلامية كانت تستهدف المدن العامرة بما فيها من خيرات ومغانم وهكذا كان الوقت حليفا للعرب خلال السنوات التى قضاها حسان ابن النعمان فى برقة منتظرا جولته الثانية مع الكاهنة (٢٩) .

وفى نفس الوقت فان حسان قد صمم على الانتصار، كذلك فان الخليفة عبد الملك بن مروان كان هذه المرة ماضيا فى اتمام فتح المغرب مهما تكن الصعاب والمعوقات، لذا نجد انه لم يرسل الى حسان مددا الا بعد مرور خمسة أعوام قد اكتملت على الاستقرار العربى الاسلامى، مما جعل حسان يمضى هذه السنوات الخمس فى برقة فى منطقة عرفت فيما بعد باسم قصور حسان (٣٠) ولكن هذا الاستعداد لغزو افريقية لم يكن السبب الوحيد لهذا التأخر الذى استمر خمس سنوات، بل كانت الخلافة الأموية فى دمشق مشغولة بأمر الخوارج الذين قاموا بالثورة والمشرق وكانت ثورتهم قد اشتدت هذه المرة استدادا كبيرا حتى احتاجت الخلافة الأموية أن تحشد كل قوائها فاذا تمكنت الدولة من التغلب عليهم كان أمر تسيير القوات والحملة الاسلامية الى المغرب لنجدة حسان بن النعمان (٣١) .

وهكذا كانت الجولة الثانية مع الكاهنة ذلك لانه فى نفس الوقت لم تفقد الخلافة فى دمشق ثقتها فى القائد حسان بن نعمان الغساني فأعطته فرصة جديدة وحيث وصلت الامدادات الى حسان عام ٧٩هـ/ ٦٩٨م فنهض للقاء الكاهنة ولانقاذ المسلمين فى افريقية وكذلك كان لاعانة البربر الذين استنجدوا به أهمية بالغة فزادت الكاهنة من عمليات التخريب حتى جعلت افريقية (تونس) خرباويسمى المؤورخون ذلك بخرب افريقية

---

(٢٩) ابراهيم بيضون: مرجع سابق ص ٧٣ .

(٣٠) زاهر رياض: مرجع سابق ص ٣٥ .

(٣١) البلاذرى: فتوح البلدان . ص ٢٣١ .

الأول حيث سيكون هناك خراب ثان لافريقيا (تونس) على يد العرب الهلالية فى القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى(٣٢). (أقوال غير صحيحة عن الهلاليين) (أنظر الجزء الرابع من هذه الموسوعة به باب كامل عن العرب الهلالية) .

وهناك آراء تذكر أن حسان توجه للمرة الثانية الى الكاهنة عام (٨١هـ/ ٧٠٠م) لاستئناف عملياته التوسعية فى المغرب والقضاء على زعيمة البربر والواقع أن الظروف كانت ملائمة أكثر هذه المرة عندما وجد حسان أن حكم الكاهنة قد استنفذ نفسه وأن عدد كبيرا من البربر البرانس كان تواقا للخلاص منه بعد تسلط وحكم البربر البتر واستبداد الكاهنة الذى جر معه الخراب الى بلادهم وأقاليمهم الساحلية (٣٣) .

وهكذا سلك حسان الطريق التقليدى ومعه قواته الكثيرة التى أمدتها به الخلافة الأموية فى دمشق ووصل فى تقدمه حتى مدينة (قابس) الى الجنوب الغربى من صفاقس ومن هناك انعطف شرقا عبر الطريق الصحراوى الى حصون الكاهنة فى الاوراس ويبدو أن جانبا كبيرا من قبائل البربر قد وقف موقف الترحيب من حملة حسان اذ أدرك أن العرب مصرون على المضى فى عملياتهم العسكرية فى المغرب حتى النهاية ولم يكن أمام حسان مجال للتردد فى اختيار الموقف، حيث كان اللقاء الحاسم بين حسان والكاهنة وسط جبال الاوراس وكان خالد بن يزيد (الأمير العربى) يراسل حسان ويبلغه سرا بأحوال الكاهنة وتذمر الناس من أعمالها وأحست هى بأنها لن تستطيع الصمود أمام العرب مرة أخرى وتنبأت بأنها مقتولة، وهكذا لم تكد تظهر طلائع الحملة العربية حتى تغيرت الصورة واستبدل العداء بالترحاب ودخلت أفواج من البربر تقاتل الى جانب العرب (٣٤) معلنة بداية الانقلاب الجذرى فى تاريخ المغرب وارتباط العرب والبربر بمصير واحد وقضية واحدة

---

(٣٢) حسين مؤنس: مرجع سابق ص ٤٤ .

(٣٣) ابراهيم بيضون: مرجع سابق ص ٥٣ .

(٣٤) ابن عبد الحكم: مصدر سابق ص ٢٧١ .

مشتركة، وهكذا نرى أن تعزيز الجيش العربى الاسلامى وتطعيمه بعناصر من البربر كانوا على معرفة جيدة بطبيعة الأرض ومتقنة كل الاتقان لأساليب حرب الجبال من العوامل المشجعة للاندافاع العربى، كما انه ترك انعكاسه السلبى على الكاهنة، بعد أن شعرت باختلال الموازين العسكرية لصلح العرب، وهكذا ما أن وصلت الامدادات حتى خرج حسان وسار غربا ودار القتال فانتصر حسان وانهزم البربر وتعقبهم حسان واسترد القيروان واتخذها قاعدة لعملياته الحربية وتقدم نحو الغرب فاستولى على قفصة واتخذها بلاد الجريد كما استولى على قسطنطينية وكانت الكاهنة قد انسحبت نحو الجنوب بعد أن خربت البلاد تخريبا تاما. وربما فعلت ذلك ليأسها من الانتصار فى معركة حربية ضد العرب المسلمين هذه المرة، وهكذا كان حسان فى نفس الوقت يتابع تقدمه المظفر فى أقاليم المغرب الأوسط متعقبا فلول الكاهنة على أن زعيمة البربر تشأ أن تتابع لعب الفرار حتى نهايتها، فأرادت أن تضع حدا لها بالعودة الى قتال العرب وهكذا تعقبها حسان حتى التقى بها واجبرها الى الدخول معه فى معركة حاسمة عند بئر الكاهنة (٣٥) والتى يعتقد انها أحد المعاقل فى منطقة الاوراس وتسمى كذلك لانها كانت تعسكر حولها. وتنتهى بهزيمة مدمرة للكاهنة وقتلها فى عام ٨٣هـ/٧٠١م وهكذا قتلت الكاهنة فلم يجد البربر بدا من التسليم على أن يكون منهم جنود من البربر مع المسلمين عدتهم اثنا عشر ألف بقيادة العربى المسلم خالد بن يزيد الذى كانت الكاهنه قد أسرته فأجابهم حسان إلى ما يريدون، وكانت الكاهنة قد طلبت من خالد بن يزيد أن يستأذن لولديها عند حسان وفعل خالد بن يزيد ذلك أما هى فصمدت وقالت انها لابد أن تحارب حتى الموت لان الملوك لايستسلمون، وهكذا كانت بئر الكاهنة هى نهاية المعركة التى قضى فيها العرب ببسالتهم المعروفة على جيش الكاهنة وقتلوها وقضوا بذلك على المقاومة الفعلية للبربر فى ذلك الجزء الغربى من الدولة الاسلامية (٣٦) .

(٣٥) ابن عبد الحكم: مصدر . ص ٢٧١ .
(٣٦) حسين مؤنس: مرجع سابق . ص ٤٥ .

وكان انضمام البربر إلى المسلمين يعنى بداية مرحلة جديدة فى تاريخ العلاقات بينهم وبين العرب وهى مرحلة التعاون التام بين الفاتحين وأهل البلاد بعد أن أيقنوا انه سيكون لهم ما للعرب من حقوق وعليهم ما على العرب من الواجبات وهى سياسة أخوة وتحالف، تخالف ما جرى عليه الأمر بين العرب وغير البربر فى البلاد المفتوحة .

وبهذه المعركة نستطيع القول أن عملية فتح المغرب قد دخلت مرحلة جديدة من مراحلها الصعبة الطويلة فمن الآن أصبح التقدم فى شتى الاقاليم ممكنا بل سهلا دون أدنى صعوبة أو وجود أى نوع من المفاجآت بعد أن تم احتواء كل من البربر البرانس بمقتل كسيلة والبربر البتر بمقتل الكاهنة وطرد البيزنطيين من أراضى المغرب، صحيح أن الفتح الاسلامى لم يكتمل نهائيا للمغرب بعد، لان جيوبا من المقامة البيزنطية وبعض البربر لاتزال بحاجة الى تصفية الا أن الموقف العام فى المغرب قد اتضحت صورته بعد مقتل الكاهنة، مما لا يدع مجالا للشك بعد ذلك فى تحرك القائد العربى المسلم حسان بن النعمان الغسانى، بسرعة لينتقل الى جبهةثانية ضد البيزنطيين الذين كانوا قد استعادوا قرطاجنة بعد أعقاب هزيمة حسان على يد الكاهنة وانسحابه الى برقة، وكان الامبراطور البيزنطى اليونيتوس Leonitus ، قد أرسل حملة بحرية نجحت فى السيطرة على المدينة عام ٧٩هـ/ ٦٩٨م وذلك فى غياب الوجود الاسلامى، غير أن حسان تمكن من استردادها وتخريب كل ما عمره البيزنطيون وقد أدى سقوطها هذه المرة الى زوال كل أثر للسيادة البيزنطية على السواحل الشمالية للمغرب (٣٧) .

وكانت الخطة الاسلامية هى القضاء على كل أثر للوجود البيزنطى وتحطيم كل معاقل لهم حتى لا يكون هناك مجال أمامهم للعودة الى هذه البلاد مرة أخرى، وليس ذلك فقط انما الشروع فى انشاء قاعدة عسكرية بحرية على مسافة قريبة من قرطاجنة حيث اتخذت مدينة تونس البلدة القديمة مركزا بحريا لها. وكان ذلك اجراء فى وقت

(٣٧) المالكى: رياض النفوس . ص ٣٣ .

انتشرت فيه السيادة العربية فوق هذه الرقعة الواسعة من أرض المغرب حفاظا عليها وسياجا لها من غزوات البيزنطيين الذين ما انفكوا يحتلون المرتبة الأولى فى السلاح البحرى على المستوى العالمى وبذلك تظهر نواة البحرية العربية الاسلامية فى المغرب لتصبح بعد قليل فى سنوات معدودة قوة فاعلة لاقادرة فقط على حماية الشواطئ المغربية وانما التوغل فى عرض البحر وشن الغارات على الجزر المنتشرة هنا وهناك (٣٨) .

انشاء الأسطول المغربى

وهكذا نرى أن العرب الفاتحين لافريقية لم يؤسسوا دارا لصناعة السفن والأسطول البحرى الا بعد حملة حسان بن النعمان الغسانى الثانية ولم يصبح للمغرب الاسلامى أسطوله الخاص به الا فى عام ٨٩هـ وكان العرب الفاتحون لافريقية يعتمدون فى غزواتهم البحرية فى عام ٢٨هـ الى عام ٨٩هـ على سفن مصر التى كانت تغزو جزر صقلية وسردانية وتقفل بعد ذلك عائدة الى قواعدها فى مصر، وقد تبين لولاة العرب فى افريقيا أهميه انشاء دار صناعة للانشاء البحرى القوى فى احدى المدن الساحلية لتزويد الجيش البحرى بأسطول مستقل عن أسطول مصر ينفرد بتحركاته فى البحر لغزو صقلية وغيرها من قواعد البيزنطيين البحرية التى كانت تشكل خطرا ماثلا أمام السواحل التونسية ويقوم بحماية هذه السواحل والدفاع عنها ضد غارات البزنطيين (٣٩) .

وإلى حسان بن النعمان يرجع الفضل فى انشاء دار الصناعة بتونس بتشجيع من الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان وانشاء بحرية اسلامية فى المغرب حيث أبدى عبد الملك بن مروان اهتماما كبيرا بالقوة البحرية وذلك بسبب ماتعرضت له البلاد الاسلامية فى بداية خلافته من غارات الروم والمردة وقد اختلف مؤرخو العرب فى اسم مؤسس دار صناعة تونس فبعضهم ينسبها الى حسان بن النعمان وبعضهم ينسبها الى موسى بن نصير

(٣٨) عبد العزيز السيد سالم ومختار العبادى: تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والاندلس . ص ٢٨ .

(٣٩) ابن عذارى المراكش: مصدر سابق جـ ١ ص ٤٨ .

وبعضهم الى عبد الله بن الحبحاب غير أن عمل ابن الحبحاب لم يكن يعدو ترميم بناء دار الصناعة وتجديدها (٤٠) ولذلك فان الخلاف يصبح منحصرا بين حسان بن النعمان وبين موسى بن نصير وللتوفيق بين الاثنين نرى أن حسان بن النعمان هو الذى شرع فى انشاء دار الصناعة بتونس وذلك بعد أن أجرى البحر بين مرسى رادس وموقع دار صناعة السفن الواقع إلى الشرق من تونس (٤١) ثم استكمل موسى بن نصير بناء ما بعده، ولو أن موسى بن نصير هو الذى أسس تونس ودار صناعتها فكيف نعلل مقاطعة حسان بن النعمان لعبد العزيز بن مروان والى مصر واتصاله مباشرة بعبد الملك بن مروان فى دمشق والذى أمر أخاه عبد العزيز تسيير أقباط مصر الى تونس (٤٢) .

ويذكر المؤرخون أن حسان بعد أن تغلب على الكاهنة فى عام ٨٢هـ وقضى على كل أثر للمقاومة فى افريقية اتجه الى قرطاجنة ولكنه كان يخشى أن يفاجئه البيزنطيون بغزوها من البحر مرة ثانية فرأى أن يقيم تجاهها مدينة عربية اسلامية، فاختار لذلك الغرض موقعا قديما يقال له ترشيش، وكانت مجرد قرية صغيرة تقع بجوار بحيرة الى الجنوب من مرسى رادس وعلى بعد نحو اثنى عشر ميلا شرق قرطاجنة وكان يصلها بها طريق رومانى قديم فنزل حسان بترشيش التى عرفت فيما بعد باسم جماعة من المسلمين ومضى إلى القيروان، فأغار البيزنطيون عليهم من البحر ولم يكن يحميهم عنهم سور أو حصن فتعرضوا لسيوف البيزنطيين وقتل منهم عدد كبير ولما بلغ حسان بذلك أرسل الى عبد الملك ابن مروان (٤٣) وفدا من أربعين رجلا من أشراف العرب لاطلاعه على ما يعانيه المسلمون هناك من غارات أساطيل البيزنطيين وكتب اليه معهم رسالة وضح له فيها أهمية انشاء دار صناعة للسفن فى تونس فطلب منه أن يبعث اليه جماعة من أقباط مصر يتولون

(٤٠) ابن أبى دينار: مصدر سابق ص ١١ .

(٤١) البكرى: مصدر سابق . ص ٢٩ .

(٤٢) عبد العزيز السيد سالم: مرجع سابق . ص ٣١ .

(٤٣) عبد العزيز السيد سالم: المغرب الكبير . ص ٢٥٠ .

انشاء دار صناعة للسفن فى تونس وذلك لشهرة الأقباط فى صناعة السفن [٤٤] .

وعظم على عبد الملك بن مروان ذلك وعز عليه وكان رجلا مجاهدا شارك فى فتوح افريقيا فى حملة معاوية بن خديج ان يتعرض المسلمون لهذه الأخطار المتواصلة فى افريقية فعمل على تحقيق رغبة حسان ونصحه اثنان من الصحابة هما أنس بن مالك وزيد بن ثابت بامداد هذه البلاد ونصرة أهلها وبينا له فضل المرابطة فيها فكتب عبد الملك الى أخيه عبد العزيز بمصر أن يوجه الى معسكر تونس ألف قبطى بأهله وولده [٤٥] وأن يحملهم فى مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا الى تريشنش وهى تونس وكتب الى ابن النعمان يأمره أن يبنى لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر وأن يجعل على البربر جر الخشب لانشاء المراكب ليكون ذلك جاريا عليهم الى آخر الدهر وأن يضع بها المراكب ويجاهد الروم فى البر والبحر وأن يقروها على ساحل الروم [٤٦] فوفد القبط عليه وهو مرابط فى تونس فجعل معظمهم فى رادس ووزع الباقين على مراسى افريقية ثم أجرى فى البحر من رادس الى موقع دار الصناعة واستقدم البربر الأخشاب اللازمة لصناعة السفن وأمر القبط بعمارتها فى الميناء المتصل بالبحيرة وأصبحت البحيرة متصلة بالبحر وتحولت تونس على هذا النحو الى قاعدة بحرية هامة لمهاجمة الجزر البيزنطية وفى مقدمتها صقلية وسردانية وصارت تونس ميناء رئيسة تأوى اليها السفن فى فصل الشتاء. وتحتمى فى مرساها عندما تهب العواصف والانواء ودار صناعة فسيحة للمسلمين والسفن والآلات وقد كان لهذه المدينة أن تصبح أعظم ثغور أفريقية بعد ذلك بثلاثين عاما على أيدى عبد الله بن الحبحاب (١١٦ – ١٢٢هـ) وثغرا للجهاد الاسلامى والغزو البحرى [٤٧] .

ومن خلال ذلك أراد حسان أن يضع حدا لمحاولات الروم استعادة البلاد ففكر ألا يكتفى باحتلال الداخل بل فكر فى أن ينشئ على الساحل وهو مكان قدوم الروم محرسا

(٤٤) التيجانى: الرحلة ص ٦ .
(٤٥) البكرى: مصدر سابق . ص ٢٨ .
(46) Charlès. D. : OPCIT : P. 93
(٤٧) عبد العزيز السيد سالم: تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والاندلس . ص ٣٣ .

قويا حصينا يصد الروم اذا حاولوا النزول وليبنى أسطولا يغير به على سواحل الروم فيشغلهم عن الاغارة على افريقية وهكذا كان اختيار تونس وكانت الى الداخل قليلا يفصلها عن البحر بحيرة ضحلة فأخذ بخط المدينة ويحفر قناة تصل البحيرة بالبحر وبذلك أصبحت هذه البحيرة مسرحا آمنا تقى المدينة من أمواج البحر واجتمعت تونس والقيروان وأصبحتا مدينتين اسلاميتين وكان من نتيجة ذلك أن أخذ المسلمون فى الاطمئنان فى أماكنهم الجديدة وأخذ البربر يختلطون بهم .

وهكذا نجد القائد حسان بن النعمان الغسانى بعد تصفية المراكز البيزنطية والقضاء على شوكة البربر يعود الى عاصمته القيروان لان مهمات أخرى على جانب من الأهمية كانت فى انتظاره لتكون آخر الصفحات فى عملية الاستقرار النهائى المنتظم فوق أرض المغرب، لانه ليس معنى قتل الكاهنة كان آخر لقاء بين العرب والبربر لانه بقيت أمام المسلمين فصول طويلة من الصراع فى المغرب حتى تستمر سيادة العرب والاسلام على الجناح الغربى لدولة الاسلام وهكذا عاد حسان بعد ذلك السفر الى القيروان وقد حزم أمره على أن يتم عمله بالقضاء على كل بقية للروم فى افريقية [٤٨] فاستولى على كل مكان وصلت اليه قواته .

وهكذا بعد أن أتم حسان بن النعمان فتح افريقية والمغرب الأوسط ورأى أن عليه قبل أن يسترسل فى الأعمال العسكرية أن ينظم شئون هذه البلاد الواسعة التى دالت للاسلام بعد ما يقرب من ستين عاما (٦٠ سنة) من الصراع الدموى فقد بدأ فتح المغرب على يد عمرو بن العاص عام ٢٢هـ/ ٦٤٣م وها نحن مع حسان بن النعمان فى عام ٨٢هـ/٧٠١م . لذا نجد حسانا ينصرف إلى معالجة الشئون الادارية المتعلقة بالدواوين والخراج والجيش والشرطة [٤٩] وغيرها من الاجراءات التقليدية التى تتخذ عادة فى البلاد

(٤٨) ابراهيم بيضون: مرجع سابق . ص ٥٤ .
(٤٩) ابن عبد الحكم: مصدر سابق ص ٢٧١ .

المفتوحة فضلا عن الاهتمام بنشر الدعوة الاسلامية واعداد الدعاة والفقهاء ورجال الدعوة للتوغل بين القبائل الوثنية عملا على نشر دين الله الخالد ونشر الدين الاسلامى الحنيف واللغة العربية فى صفوفهم . وقد أعطت هذه السياسة الحكيمة ثمارها السريعة وكان الفضل فى ذلك يعود إلى هذا القائد المجاهد الذى استطاع بجرأته وتسامحه اخراج البربر من عزلتهم التاريخية وادخالهم فى بوتقة الحكم العربى الاسلامى فكان لهم دورهم الفعال فى استكمال عمليات الفتح فى المغرب بشكل نهائى ومن ثم استئنافها على الضفة الأخرى من المضيق حيث كانت طلائع هذه العمليات فى غالبيتها من البربر (٥٠) .

ومن الضروري الاشارة إلى أن بعض العوامل التي كان لها دور ايجابي في تغيير الاتجاه العام لحركة التوسع وتحقيق هذه الانتصارات في المغرب هي أن المقاتل العربي صهرته الحروب في هذه الجبهة وأكسبته خبرة بطبيعة البلاد الجبلية مما يعنى استحداث فنون جديدة في القتال في ضوء خبرات البربر فى هذا المجال كما أن شخصية القائد حسان الذى اكتسب بدوره تجارب سابقة فى فهم العقلية البربرية ساهمت فى تعديل الموقف لمصلحة العرب فقد اتبع هذا القائد سياسة جديدة فى التودد إلى البربر واحترام استقلالية قبائلهم وهكذا نجد قبائل البربر لها مصلحة مع قدوم العرب وما يحملوه من عمران وتمدن ، وهذا كله كان له بالغ الاثر فى تاريخ الثقافة العربية الوافدة إلى افريقية فقد نعمت البلاد بالهدوء والطمأنينة وأمنت من الغزو البيزنطي وتم التحالف الوطيد بين العرب والبربر (٥١).

(٥٠) ابراهيم بيضون: مرجع سابق ص ٥٥ .

وكان معنى هذا كله استقرار الأمور الداخلية، فأخذت مدرسة القيروان الناشئة ترسخ قدمها ويشتد ساعدها، وكثر إقبال الصحابة والتابعين والعلماء الوافدين من مصر وأصبح جامع عقبة بالقيروان مدرسة إسلامية يؤمها الناس من كافة البلاد وخاصة البربر أهل البلاد الأصليين الذى أخذوا بعد إسلامهم يتعلمون العربية ويقبلون على الثقافة العربية الإسلامية وانتشر صيت القيروان حتى عم إفريقية كلها وأصبحت بحق العاصمة الروحية للبلاد(٥٢) وهكذا .. سطعت القيروان التى اتخذت طابعاً عسكرياً محصناً منذ أيام مؤسسها عقبة بن نافع القهرى، لتأخذ دورها السياسى والروحى كعاصمة للمغرب أو الولاية الإفريقية حيث التعبير الإدارى فى ذلك الزمن ففى أقل من ثلاث سنوات دأب خلالها حسان ابن النعمان فى إظهار هذه المدينة بالمظهر اللائق الذى يطمع إليه، وهكذا .. كان استئناف الفتح بعد ذلك هو إعلاء لنفوذ القيروان السياسى والعسكرى ولنفوذها الثقافى والروحى؛ فإن فتح المغرب الأقصى سيتم بفضل أهل إفريقية لنرى كيف امتد نفوذ القيروان حتى شمال المغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى، والعامل الحاسم فى قصة امتداد النفوذ العربى إلى المغرب الأقصى هو انتشار الإسلام بين البربر

(٥١) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٩٥.
(٥٢) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٩٦.

فى إفريقية والتقارب بين العرب والبربر والاعتماد على إفريقية نفسها كقاعدة عسكرية لإتمام فتح البلاد. وهذه القاعدة العسكرية لايمكن أن تكون ذات أثر فعال إلا بالتعاون بين الحاكم والمحكوم؛ ثم إن الاعتماد على الإمدادات العربية وحدها فى فتح هذه البلاد من الناحية العسكرية أمر غير مرغوب فيه، سبب قلة أعداد العرب بعد تفرقهم فى الأمصار وطول خطوط المواصلات نفسها واستحالة الاحتفاظ بها سليمة دون أن يصيبها عدوان، وكان جهود حسان بن النعمان وسياسته التى أشرت إليها محققة لهذه الأهداف لكنها قد مهدت لامتداد الثقافة العربية إلى آفاق جديدة (٥٢).

أعمال حسان بن النعمان الإدارية :

وتذكر بعض الآراء أنه بعد تنظيم مدينة القيروان وإعادة بناء مسجدها وتوسيعها على نحو يتسع معه لجموع العرب والمسلمين التى سكنتها نظر حسان فى موضوع التنظيم الإدارى والمالى، وهنا واجه حسان مشكلة لم يواجهها غيره من حكام المسلمين الذين فتحوا البلاد قبله حتى الآن، ذلك لأن الذين فتحوا مصر مثلاً أو فارس أو غيرها من أقطار الشام قد دخلوا بلداً منظماً بالفعل من الناحية الإدارية مقسماً إلى عدة كور أى أقاليم أو أقسام فما كان على الولاة ألا يدخلوا من تعديل إلا التى تكون إليه حاجة ماسة من نظم نام أو تقسيمات أو تعديلات وتعريب الدواوين والنظم دون صعوبة تذكر، هكذا فعل الذين فتحوا العراق أو فارس أو بلاد الشام أو مصر أو غيرها من البلاد ذات التنظيمات الإدارية والمالية المتوارثة القديمة.

أما فى المغرب فقد وجد العرب أنفسهم فى بلاد لم يسبق تنظيمها إدارياً أو مالياً، كذلك لم يسبق لها أو لأهلها أن عرفوا شيئاً يسمى تنظيماً من أى نوع لأن أساس أى تنظيم من هذا النوع كان على الوحدات الإدارية القديمة وعواصمها وما جرت به

(٥٣) حسن مؤنس : فتح العرب للمغرب، ص ٣٦٠.

العادة قبل الفتح الإسلامى فى تيسير أمور البلاد والناس والدولة أما فى طرابلس وأفريقية والمغرب الأوسط فما كان هناك تنظيم بالمعنى المفهوم إلا على مدن وبلاد الساحل، أما العرب فقد أوغلوا فى البلاد وفتحوا مواطن البربر فى داخل البلاد وهم قبائل، والقبائل لا تعرف العواصم ولا الضرائب، لأن القبائل بطبيعتها لايمكن ضبطها كما يضبط أهل الأراضى الزراعية، وهنا نجد حسان يلجأ إلى ما لجأ إليه المسلمون فى تنظيم الجزيرة العربية، فهذه أيضاً بلاد كانت قبائل، وإذا كانت الوحدات الإدارية والمالية فى بلاد المغرب هى الكور أو المديريات وعواصمها وما يتبع كل عاصمة من زمام أو حوز .. فإن الوحدة فى بلاد البدو أو القبائل من القبيلة ونظامها ومجالها الحيوى، لأن القبائل تعيش فى صحارى ولكل منها مجالها الحيوى، والمجال يتحدد بموارد المياه ومواقع البلاد التى توجد فى هذا المجال والقبيلة تتحرك طوال العام فى مجالاتها حسب نظام معروف من الحياة البدوية، وهى ليست حياة فوضى وبدائية مطلقة وإنما هى حياة منظمة وفق النظام المعروف فى كل مناطق البدو.

لهذا .. نجد أن الفاتح العربى حسان بن النعمان الغسانى للمغرب رأى أن أحسن الطرق لتنظيم هذه البلاد هو أن يعتمد على الخطوط الرئيسية للتنظيم السياسى القديم الذى لا يشمل إلا جزءاً صغيراً على الساحل فأقر تنظيمه على ما جرى الأمر عليه مع تعديل طفيف اقتضته ظروف الدولة مثل العاصمة قرطاجنة إلى القيروان، ثم بعد ذلك قسم العرب الذين يقطنون الداخل من البلاد على أساس منازل القبائل أى اعتبار مجال لكل قبيلة كبيرة قسماً إدارياً والإتفاق مع رؤساء القبائل على مقادير الجبايات ومواعيدها وتكليف أولئك الرؤساء بحماية القضاء والموظفين الآخرين الذين ترسلهم الدولة ومعاونتهم على تنفيذ أحكامهم والقيام بمسئوليات وظائفهم، وبطبيعة الحال فى بلاد مثل بلاد المغرب تنقسم طبيعياً إلى أشرطة أو مناطق عرضية موازية للساحل تقريباً

وكان لابد من اتحاد بعض المدن والقرى الصغيرة الداخلية القائمة فى هذه النطاقات أساساً من أسس التنظيم أى اعتبارها قواعد إدارية لما يحيط بها من الأراضى وعلى هذا الأساس فإن حسان بن النعمان قسم بلاد المغرب كلها إدارياً كما يلى :

١ – إقليم برقة :

ويسمى حالياً إقليم بنى غازى، هذا الجزء اعتبر تابعاً لمصر من الناحية الإدارية والمالية، ولكننا لا نلاحظ أثر لذلك فيما يمر بنا من أحداث الفتح وعصر الولاه، بمعنى أن برقة أصبحت إقليماً فى الظل يختفى فى معظم الأحيان ولا يظهر إلا فى مناسبات قليلة ولا نكاد نسمع به إلا ابتداءً من الغزوة الهلالية وما كان لبعض بطون الهلالية وحلفائهم من شأن بها، ومن الثابت أنها كانت وحدة سياسية قائمة بذاتها والأرجح أنها كانت مستقلة عن كل سلطان خارجى إن لم يكن لدينا تاريخ لها فى تلك العصور الإسلامية الأولى وكانت تمتد من ساحل البحر المتوسط إلى زويلة فى المداخل الشرقية لأقليم فزان، وكانت قاعدته الأساسية مدينة برقة وهنا عاشت قبائل لواتة وهوارة ومن نزل بلادهم من مهاجرة العرب وقد هاجرت مع الفتح جماعات من لواتة وهوارة [٥٤].

٢ – إقليم طرابلس :

وهى تلى إقليم برقة غرباً وتشمل المساحة الممتدة من إقليم سرت إلى صبرة قرب الحدود التونسية الحالية وعاصمة هذا الجزء الذى يسمى طرابلس، وينقسم إقليم طرابلس بصفة عامة إلى الأقسام الإدارية التالية، وهى عدة أعمال إلى صرت، طرابلس، صبرة، جبل نفوسة، وقد كان جبل نفوسة جبلاً مسكوناً كثير الزروع والمراعى وكانت تسكنه قبيلة نفوسة وهى أكبر القبائل البربرية فى ذلك الإقليم وسيكون لها دور كبير

(٥٤) حسن مؤنس : مرجع سابق، ص ٤٧.

فى تاريخ المغرب الإسلامى وخاصة فى تاريخ دولة بنى رستم الخارجية لأن قبائل نفوسة دخلت ذلك المذهب وثبتوا عليه وكان لهم فيه تاريخ طويل.

٣ – إقليم فزان :

وهو إقليم فى الداخل على بعد نحو ثمانمائة كيلو متر (٨٠٠ كيلو متر) من الساحل ويمتد هذا الإقليم حتى يتصل بإقليم صحراوى آخر خارج عن بلاد المغرب هو إقليم كوار وهو إقليم واحات يصل المغرب العربى بإفريقية المدارية عند إقليم تشاد الحالى، وكانت فزان إقليما دائماً عامراً بالواحات والمدن والقرى والمياه، وسيهتم به العرب اهتماماً هاماً وينشرون فيه الإسلام وسيكون له تاريخ مجيد فى العصور الإسلامية.

٤ – إقليم إفريقية :

وعاصمته القيروان ويبدأ عند بلدة قابس ويمتد غرباً حتى ينتهى عند حدود ما يعرف اليوم باسم ولاية قسطنينة الحالية، ولكن مصطلح تقسيم إفريقية من الناحية الإدارية للنظام العربى ينقسم إلى ثلاثة أقسام أولها طرابلس ثم إفريقية الذى يقابل بلاد تونس حالياً ويلى ذلك شرقاً إقليم الزاب وهو الجزء الشرقى من جمهورية الجزائر الحالية وحده الغربى يجرى نهر شلف وهو نهر صغير ينبع من جبال الأوراس جنوبى مدينة الجزائر الحالية، ثم يسير شمالاً حتى إذا اقترب من البحر قرب موقع مدينة الجزائر انحرف إلى الغرب وسار بمحاذاة الساحل حتى يصب فى البحر المتوسط قرب وهران الحالية والمجرى الأعلى لنهر شلف الذى يسير من الجنوب إلى الشمال (هو الذى يمثل الحد الفاصل بين إقليم إفريقية بأقسامه الثلاثة (طرابلس – وافريقية – والزاب) والمغرب الأوسط.

٥ – إقليم المغرب الأوسط :

ويشمل المساحة الممتدة من المجرى الأعلى لنهر شلف إلى مجرى نهر المولودية، وهو نهر ينبع من جبال الأطلس جنوبى المغرب الأقصى ثم يتجه شمالاً حتى يصب فى البحر المتوسط إلى الشرق من ميناء مليلة الحالية (لازالت تخضع للحكم الأسبانى حتى الآن) وهو الحد الفاصل الطبيعى بين المغربين الأوسط والأقصى وإن كانت الحدود السياسية للمغرب الأقصى تسير اليوم شرق هذا النهر فتدخل فيه مناطق وجدة وجراوة وتاوربرت، أى أنها تمتد اليوم مسافة قليلة شرق مجرى نهر المولودية.

٦ – إقليم المغرب الأقصى :

وهو ما يلى المغرب الأوسط إلى الغرب وحتى المحيط الأطلسى ويطلق عليه إقليم المغرب الأقصى وقد اعتبر حسان بن النعمان، القبائل التى تعيش فى هذا الإقليم وحدات إدارية، أى أنه قدر الأموال فيها على أساس القبائل النازلة فيها فكل قبيلة عليها قدر من المال تؤديه وكان يدفع فى الغالب عيناً وجرت العادة فى ذلك العصر أن تقدم القبائل مقاتلين ينضمون إلى القوات والعسكرية العاملة فى المغرب ويعتبر ذلك العمل وهو تقديم المقاتلين جزءا من المال المقرر على القبيلة ونتيجة لذلك كثر انضمام البربر إلى الجيوش العربية والنتيجة أن الجيش العربى الإسلامى العامل فى المغرب قد تضخمت أعداده بهذه الجموع البربرية وكان الذى يدخل الجيش الإسلامى من البربر يعتنق الإسلام ولهذا كان ذلك من أكبر العوامل فى إسلام أهل المغرب ونقطة البداية هى القوة التى انضمت إلى حسان مع ولدى الكاهنة وعددها اثنا عشر ألف رجل تولى قيادتهم أبناء الكاهنة.

ثم بعد ذلك رأى حسان أن يتم فتح إفريقية فور إزالة قرطاجنة فلم يعد لها بعد ذلك شىء يذكر، ورأى حسان أن المغرب أو إفريقية لا تستغنى عن ميناء جديد كبير

لأن إفريقية إقليم بحرى وسواحله الشرقية والشمالية مليئة بالموانىء الطبيعية الصغيرة والكبيرة، ولهذا .. كان لابد لحسان أن ينشئ لأفريقية ميناء يحل محل ميناء قرطاجنة الذى تلاشى أمره فى تاريخ إفريقية والمغرب فكان قرار إنشاء مدينة تونس [٥٤].

إذا كنا قد تحدثنا فى صفحات سابقة عن إنشاء الأسطول المغربى إلا أن من الأعمال الهامة التى قام بها حسان بن النعمان الغسانى أيضاً إنشاء الميناء الجديدة تونس لكى يكون أكبر قاعدة بحرية فى المغرب؛ حيث كان حسان قد اختار لإنشاء الميناء الجديد الإسلامى موضعاً يقع إلى الجنوب الغربى من قرطاجنة ونظر إلى أن العرب كانوا ينشئون المدن على أساس صحراوى تقريباً، أو أنهم كانوا يشترطون فى المدينة التى ينشئونها أن تكون وسط إقليم مراعى لحاجة الخيل والجمال، إلا أن حسان وجد نفسه مضطراً إلى مخالفة التقليد العربى عندما أراد إنشاء الميناء الجديد، حيث كانت هذه هى أول مرة يقوم فيها العرب بإنشاء ميناء وجمعا بين ما يتطلبه إنشاء ميناء جديد من ضرورة وجوده على الساحل وبعدها عنه فى نفس الوقت اختار حسان موقع سبخة تقع على الساحل وبعدها عنه فى نفس الوقت اختار حسان موقع سبخة تقع على الساحل والسبخة وهى منطقة رملية ولكن رملها ليست سائلة بل رمال ثابتة متماسكة بفعل الرطوبة كانت هذه السبخة تمتد من الساحل إلى مسافة كبيرة فى الداخل، فرأى حسان أن موقعها يصلح لإنشاء ميناء واختار موقعا وشق فى رمال السبخة قناة واسعة عميقة تمر فيها من ساحل البحر إلى نهايتها عند التقائها بالأرض الصلبة وجعل القناة من السعة بحيث تسمح بدخول عدد من المراكب وخروجها وبذلك أصبحت الميناء آمنة من الهجوم من ناحية البحر لأن بينها وبين البحر هذه السبخة التى تشقها القناة وقد بدأ حسان بإنشاء دار الصناعة التى تصنع بناء السفن

(٥٤) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٤٨-٤٩.

ومساكن العمال النجارة (النجارين) حول السبخة.

وبإنشاء ذلك الميناء والقضاء على قوة الروم وميناءهم دخل تاريخ إفريقية الإسلامية فى طور جديد، ولهذا يعتبر حسان بن النعمان الغسانى من أكبر بناة الدولة الإسلامية، فهذا التنظيم الإدارى والمالى الذى وضعه لإفريقيا حول هذه الناحية أو هذه الولاية الجديدة إلى قاعدة إسلامية ينطلق منها العرب إلى ما يلهيا غربًا، ثم أن ميناء تونس فتح أبواب إفريقية من جديد لتستعيد مركزها القديم فى البحر المتوسط.

وأثناء قيام حسان بهذه الأعمال حدثت تغيرات إدارية مفاجئة فى الدولة أدت إلى تنحية حسان عن ولاية المغرب وهو يعد فى قمة مجده السياسى فغادر القيروان فى عام ٨٥هـ على الأرجح وغاب فى النسيان وتنطوى بذلك صفحة من صفحات تاريخ المغرب تألق فيها أحد قواده الكبار الذين تابعوا مسيرة فتح المغرب، أما السياسة العامة المالية الإدارية والتنظيمية التى وضع ملامحها القائد حسان بن النعمان، فلم تمس أو يحدث فيها تغيير، ومن الواضح أن الحاكم الأموى فى مصر عبد العزيز بن مروان شقيق عبد الملك بن مروان كان يقف وراء قرار العزل [٥٥] وكان قرار العزل هذا قد جاء بعد أربع سنوات من قضائه على الكاهنة، وبعد سنة واحدة من إنشاء مدينة تونس ولكن عزله لم يكن عن قلة كفاية، وإنما كان السبب أن والى مصر عبد العزيز بن مروان أخو الخليفة عبد الملك بن مروان وولى عهده، عندما رأى ازدهار إفريقية وتحولها إلى قطر غنى فيه إمكانيات واسعة للفتوح، طمع فيها لنفسه وكان الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان يدارى أخاه لأنه كان يرجو منه أن يتنازل عن ولاية العهد لإبنه الوليد بن عبد الملك[٥٦].

(٥٥) إبراهيم بيضون : مرجع سابق، ص ٥٦.
(٥٦) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٥٠.

لذلك عندما عزل عبد العزيز بن مروان حسان بن النعمان لم يتيقن الخليفة من الأمر وتلقى حسان قرار العزل بنفس طيبة وإن كان ذلك قد أغضبه وعاد إلى مصر وهناك حاول عبد العزيز بن مروان أن يسترضيه ويطيب خاطره فرفض ذلك، وعرض عليه عبد الملك بن مروان أن يرده إلى ولايته فأبى وأقسم ألا يلبى لبنى أمية عملاً بعد ذلك، وعلى كل حال فقد كان حسان فى تلك الأوقات شيخًا كبير السن، ولم يكن يعنيه كثيرًا أن يدخل فى مناقشات تفسد الأمر بينه وبين بنى أمية وهكذا عاد حسان إلى قومه فى الشام ولم نعد نسمع عنه شيئًا بعد ذلك رغم العمل الكبير الذى قام به فى سبيل توطيد دعائم الدولة الإسلامية فى المغرب وقد لايكون عندك نوع من الاستغراب إذا أدركنا عمق العلاقة التى ارتبط بها الحاكم الجديد (حسان بن النعمان الغسانى) للمغرب بالبيت المروانى خاصة وإلى مصر (عبد العزيز بن مروان) الذى اختاره لهذه المهمة عن سابق تصميم وثقة كبيرة بأنه رجل المرحلة القادمة لإتمام فتح المغرب [٥٧] وقد كان من الطبيعى ألا تنجح الجهود العديدة التى بذلت لفتح هذه البلاد وإدخالها فى نطاق السيادة العربية إلا باستخدام السياسة التى وضع أساسها حسان بن النعمان، والتى أثرت فى أفريقية تلك الجهود والثمار الرائعة التى أتت أكلها فى عهد سلفه موسى بن نصير؛ حيث استقامت الأحوال لخلفاء بنى أمية واستطاعوا فى عهد عبد الملك بن مروان أن يقضوا على الفتنة الداخلية [٥٨].

موسى بن نصير : الفتح الأخير والاستقرار والتوسع (٨٦ – ٩٥هـ – ٧٠٥ – ٧١٤م) :

كان الرجل الذى اختاره عبد العزيز بن مروان لكى يخلف حسان ابن النعمان فى ولاية إفريقية شخصية فريدة فى بابها من كل ناحية ذلك هو موسى بن نصير

(٥٧) إبراهيم بيضون : مرجع سابق، ص ٥٦.
(٥٨) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٩٨.

والذى كان والده موسى أحد أبناء نصير الذى كان من أسرى بلدة صغيرة فى بادية الشام شرق العراق تسمى عين التمر حيث كان طفلا فى أحد الأديرة، واستطاع أن يأسره خالد بن الوليد حيث أسلم على يديه وأصبح من رجاله وهكذا نشأ ابنه موسى فى جو عربى إسلامى فنجده يستعرب ويأخذ كل الأخلاق العربية حتى حسبه المؤرخون من حملة العرب ونسبوه إلى قبيلة لخم وهو نفسه موسى المنتسب إلى الأنصار، إلا أن أصله غير العربى يتلاشى أمام شخصيته العربية التى ظهر بها فى التاريخ الإسلامى حيث عمل فى خدمة بنى أمية ويشترك فى الإدارة والسياسة؛ حيث تولى رياسة حرس معاوية بن أبى سفيان ثم نراه مرة أخرى فى خدمة عبد الملك بن مروان؛ حيث يرسله مساعداً لأخيه الأصغر بشر بن مروان الذى تولى ولاية البصر، وكان بشر بن مروان شاباً صغيراً تولى إمارة البصرة رغم احتجاج الحجاج بن يوسف الثقفى ولهذا كان الحجاج يكره موسى بن نصير ويتهمه بأنه يمد يده إلى أموال الدولة وفى يوم من الأيام طالبه الحجاج بمبلغ ضخم واتهمه بخيانة الدولة فهرب من العراق ولجأ إلى مصر حيث كانت تربطه صلة بواليها عبد العزيز بن مروان، الذى أدى عنه جزءاً كبيراً من هذا المال وقربه إليه واستعان به ثم كان قرار تعيينه والياً على إفريقية خلفاً لحسان بن النعمان، ولكن الخليفة عبد الملك بن مروان أنكر هذا التعيين ولم يوافق عليه، لكن عبد العزيز بن مروان أكد لأخيه الخليفة أن موسى يفوق على حسان بن النعمان ومن سبقه من قواد فى النشاط والقدرة القيادية والعسكرية والمالية (٥٩) ومن ناحية أخرى نجد موسى يتعهد لعبد العزيز بأن يكون عند حسن ظن هذا الاختيار.

حيث أنه كان يشتغل المستشار لحاكم مصر (عبد العزيز بن مروان) والمرشح للخلافة بعد أخيه عبد الملك، وكانت تربط الرجلين بعضهما بالبعض علاقات وطيدة، فموسى بن نصير كان يستمد هذا الشعور من ولاء أسرته القديم للأمويين منذ عهد

(٥٩) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٥١.

معاوية بن أبى سفيان، وعبد العزيز بن مروان كان يحفظ تقديراً ومودة لهذا الرجل الذكى المنحدر من قبائل بكر بن وائل، ملك القبيلة التى أنجبت عدداً من القواد الذين شهدت لهم جبهات الفتوح فى كل مكان لاسيما الجبهة العراقية (٦٠) .

وهكذا .. فإن ولاية المغرب سوف تعرف قائداً عسكرياً من طراز جديد يختلف عن كل الذين مروا فى تاريخ المغرب منذ أكثر من نصف قرن أو يزيد حيث شهد عشرة قواد ولكنه تميز عن كل هؤلاء بإجادته الحرب البحرية منذ وقت مبكر إلى جانب اتقانه فنون الحرب البرية فضلاً عن شخصية جدية وتجربة طويلة فى عالم السياسة حيث عمل بها منذ بداية حكم بنى أمية (معاوية بن أبى سفيان) ذلك أنه عاش عن كتب مشاكل الدولة الأموية فاكتسب منها الخبرة والمعرفة فلا عجب أن يوصف موسى أنه من أقدر رجالات الدولة الأموية والمعهم ذكاء فى تلك الفترة (٦١) ومن هنا كان تعيين موسى بن نصير بداية مرحلة من مراحل فتح إفريقية وهى مرحلة الاستقرار والتوسع، ذلك لأن موسى قام بنشاط واسع من الناحية العسكرية فى إفريقية قد لا تكون هناك حاجة ضرورية للقيام بتلك الأعمال ذلك لأن الناس فى المغرب كانوا مستعدين كافة للدخول فى الإسلام دون حرب ولكن ذلك لم يكن يحقق أطماع موسى بن نصير إذ أنه كان يحول بينه وبين الحصول على مجد عسكرى ولهذا .. فإن أعمال موسى بن نصير فى جملتها كانت كثيرة جداً فى إفريقية ولقد كان الهدف الأساسى منها تقوية مركزه الشخصى فى الدولة بالعمل المتوالى وإرسال مقادير ضخمة من الغنائم والأموال التى يتم الحصول عليها.

(٦٠) إبراهيم العدوى : موسى بن نصير، ص ١٤.
(٦١) حسين مؤنس : فجر الأندلس، ص ٤٦.

والذى كان والده موسى أحد أبناء نصير الذى كان من أسرى بلدة صغيرة فى بادية الشام شرق العراق تسمى عين التمر حيث كان طفلا فى أحد الأديرة، واستطاع أن يأسره خالد بن الوليد حيث أسلم على يديه وأصبح من رجاله وهكذا نشأ ابنه موسى فى جو عربى إسلامى فنجده يستعرب ويأخذ كل الأخلاق العربية حتى حسبه المؤرخون من حملة العرب ونسبوه إلى قبيلة لخم وهو نفسه موسى المنتسب إلى الأنصار، إلا أن أصله غير العربى يتلاشى أمام شخصيته العربية التى ظهر بها فى التاريخ الإسلامى حيث عمل فى خدمة بنى أمية ويشترك فى الإدارة والسياسة؛ حيث تولى رياسة حرس معاوية بن أبى سفيان ثم نراه مرة أخرى فى خدمة عبد الملك بن مروان؛ حيث يرسله مساعداً لأخيه الأصغر بشر بن مروان الذى تولى ولاية البصر، وكان بشر بن مروان شاباً صغيراً تولى إمارة البصرة رغم احتجاج الحجاج بن يوسف الثقفى ولهذا كان الحجاج يكره موسى بن نصير ويتهمه بأنه يمد يده إلى أموال الدولة وفى يوم من الأيام طالبه الحجاج بمبلغ ضخم واتهمه بخيانة الدولة فهرب من العراق ولجأ إلى مصر حيث كانت تربطه صلة بواليها عبد العزيز بن مروان، الذى أدى عنه جزءاً كبيراً من هذا المال وقربه إليه واستعان به ثم كان قرار تعيينه والياً على إفريقية خلفاً لحسان بن النعمان، ولكن الخليفة عبد الملك بن مروان أنكر هذا التعيين ولم يوافق عليه، لكن عبد العزيز بن مروان أكد لأخيه الخليفة أن موسى يفوق على حسان بن النعمان ومن سبقه من قواد فى النشاط والقدرة القيادية والعسكرية والمالية (٥٩) ومن ناحية أخرى نجد موسى يتعهد لعبد العزيز بأن يكون عند حسن ظن هذا الاختيار.

حيث أنه كان يشتغل المستشار لحاكم مصر (عبد العزيز بن مروان) والمرشح للخلافة بعد أخيه عبد الملك، وكانت تربط الرجلين بعضهما بالبعض علاقات وطيدة، فموسى بن نصير كان يستمد هذا الشعور من ولاء أسرته القديم للأمويين منذ عهد

(٥٩) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٥١.

معاوية بن أبى سفيان، وعبد العزيز بن مروان كان يحفظ تقديراً ومودة لهذا الرجل الذكى المنحدر من قبائل بكر بن وائل، ملك القبيلة التى أنجبت عدداً من القواد الذين شهدت لهم جبهات الفتوح فى كل مكان لاسيما الجبهة العراقية (٦٠) .

وهكذا .. فإن ولاية المغرب سوف تعرف قائداً عسكرياً من طراز جديد يختلف عن كل الذين مروا فى تاريخ المغرب منذ أكثر من نصف قرن أو يزيد حيث شهد عشرة قواد ولكنه تميز عن كل هؤلاء بإجادته الحرب البحرية منذ وقت مبكر إلى جانب اتقانه فنون الحرب البرية فضلاً عن شخصية جدية وتجربة طويلة فى عالم السياسة حيث عمل بها منذ بداية حكم بنى أمية (معاوية بن أبى سفيان) ذلك أنه عاش عن كتب مشاكل الدولة الأموية فاكتسب منها الخبرة والمعرفة فلا عجب أن يوصف موسى أنه من أقدر رجالات الدولة الأموية والمعهم ذكاء فى تلك الفترة (٦١) ومن هنا كان تعيين موسى بن نصير بداية مرحلة من مراحل فتح إفريقية وهى مرحلة الاستقرار والتوسع، ذلك لأن موسى قام بنشاط واسع من الناحية العسكرية فى إفريقية قد لا تكون هناك حاجة ضرورية للقيام بتلك الأعمال ذلك لأن الناس فى المغرب كانوا مستعدين كافة للدخول فى الإسلام دون حرب ولكن ذلك لم يكن يحقق أطماع موسى بن نصير إذ أنه كان يحول بينه وبين الحصول على مجد عسكرى ولهذا .. فإن أعمال موسى بن نصير فى جملتها كانت كثيرة جداً فى إفريقية ولقد كان الهدف الأساسى منها تقوية مركزه الشخصى فى الدولة بالعمل المتوالى وإرسال مقادير ضخمة من الغنائم والأموال التى يتم الحصول عليها.

(٦٠) إبراهيم العدوى : موسى بن نصير، ص ١٤.
(٦١) حسين مؤنس : فجر الأندلس، ص ٤٦.

واتجه موسى بن نصير إلى القيروان ومعه أبناؤه الأربعة عبد الله، عبد العزيز، عبد الملك، مروان الذين سيكونون معه فى تلك الغزوات الكبرى فى المغرب والأندلس حيث سيكونون يده اليمنى فى كل هذه المهمات التى تقع على عاتقه، أما تاريخ ذلك الوصول إلى القيروان فغير محدد أو معروف بالدقة لأن كثيراً من مصادر المؤرخين ليست متفقة على تحديد السنة التى تم بها انتقال موسى بن نصير إلى مركزه الجديد فى القيروان فنجد ابن عبد الحكم فى كتابه فتوح مصر والمغرب [٦٢] يتأرجح فى ذكر عام توليه فى عام ٧٩هـ أو ٨٦ هـ بينما نجد ابن الأثير يحدد ولاية موسى فى عام ٨٦هـ، بينما نجد الدكتور حسين مؤنس يذكرها عام ٨٥هـ، بينما يراه البعض عام ٨٩هـ، ولكن من المرجح أن قرار تعيينه ووصوله إلى القيروان كان عام ٨٥هـ أى قبيل وفاة والى مصر عبد العزيز بن مروان التى صادفت تلك السنة، سواء تم ذلك قبل وفاة والى مصر أم بعده .. فإن والى مصر الجديد عبد الله بن عبد الملك، الذى خلف أخاه عبد العزيز فى ولاية مصر قد أكد هذا التعيين دون أدنى اعتراض وبموافقة الخلافة الأموية مسبقاً حيث كان موسى بن نصير كان قد تم تجهيزه فعلاً للإنطلاق إلى بلاد المغرب من مصر إلى القيروان ولعل ذلك التضارب فى تحديد السنة التى غادر فيها موسى بن نصير إلى بلاد المغرب كانت فترة مليئة بالأحداث الهامة فى تاريخ دولة بنى أمية حيث كان موت والى مصر عبد العزيز بن مروان ثم موت الخليفة أخيه عبد الملك بن مروان بعد ذلك بسنة واحدة ثم مجىء الخليفة الجديد إلى الخلافة (الوليد ابن عبد الملك بن مروان بن الحكم ٨٦هـ/٧٠٥م) ومهما كان الاختلاف فى ذك المجال .. فإن الخليفة الجديد لم يحدث تغييراً فى الإجراءات التى تم اتخاذها فى المغرب أثناء خلافة أبيه وعلى العكس من ذلك فقد بادر الوليد بن عبد الملك إلى تثبيت موسى بن نصير فى مركزه لحكم إفريقية وإعطائه صلاحيات مطلقة كما بادر بتعيين عمه عبد

(٦٢) ابن عبد الحكم : مصدر سابق، ص ٢٧٤.

الله بن مروان والياً على مصر، ولذلك .. فإن بعض المؤرخين يتصور أن اختيار موسى بن نصير لحكم المغرب قد تم فى عهد الوليد بن عبد الملك لكثرة ما ارتبط الإسمان ببعضهما خلال تلك المرحلة المثيرة من تاريخ الدولة الأموية [٦٣].

وكان موسى وهو فى طريقه إلى مركز عمله بالمغرب تنازعه عدة أفكار وتصورات عن عمله الجديد كونها عبر معايشته المعايشة الطويلة لفتوح المغرب لاسيما أثناء عمله فى مصر متشبعاً باهتمام نشاط القائد السابق حسان بن النعمان الغسانى ولقد أدرك موسى بن نصير أن السبب الرئيسى وراء تعثر محاولات الاستقرار العربى فى المغرب إنما تعود إلى ضعف السلاح العربى البحرى وعدم وجود القوة البحرية الإسلامية اللازمة [٦٤] وأن اعتماد شواطئ المغرب فى حمايتها على السفن المصرية لا يوفر لها الحماية الكافية واللازمة والجاهزة فى الموانى المغربية، لذا .. كان فى ذهنه العمل على سد هذه الثغرة بالسرعة القصوى، كذلك فإنه رأى القواد الذين سبقوه منذ عقبة بن نافع الفهرى لم يساهموا فى تحصين مدينة القيروان التحصين اللازم بحيث تصبح قوة حصينه، بل القلعة الكبيرة فى قلب إفريقية، وذلك مما أدى إلى حدوث هذه الانتكاسات العربية السابقة، وكذلك افتقار المدينة إلى وجود قوات عربية إسلامية كافية لتوفير الحماية اللازمة وصد أى هجوم مفاجئ من قبل الأعداء، وكان ذلك النقص يجعلها غير مؤهلة لصد أدنى هجوم أو توفير الحماية اللازمة للدفاع عن نفسها، ومن ناحية ثالثة وجد موسى بن نصير أن أحسن وسيلة لضمان ولاء البربر وتقربهم إليه وإلى العرب هو التعاون معهم والترابط وذلك فى الإطار الذى وضعه ونفذ أسسه القائد السابق حسان بن النعمان الغسانى ولهذا كان يعمل على أن يستوعب الحكم العربى كل القبائل البربرية بحيث يتعايش العرب معهم فى السلم أو فى الحرب وقد بلغت تلك

(٦٣) إبراهيم بيضون : مرجع سابق، ص ٥٧.
(٦٤) أرشيبالد، لويس. القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ص ١٠٢.

السياسة وتلك العلاقة ذروتها من النجاح فى عهده وفى واقع الأمر.. فإن المغرب لم يكن قد أسلم القيادة نهائياً للوجود العربى الإسلامى فلا زالت بالمغرب الأقص على وجه التحديد مواقع مهمة خارج دائرة النفوذ العربى الإسلامى بحيث لم تكن السيادة الإسلامية قد فرضت وجودها إلا فى المغرب الأوسط [٦٥].

ومن هنا .. فإن الأمر كان يتطلب اتخاذ بعض الإجراءات التأديبية ضد الهاربين من البربر المعتصمين بهذه البلاد، فما كاد موسى يصل إلى إفريقية حتى أخذ يوطد النفوذ الإسلامى، فأخذ يهاجم بقايا القبائل البربرية التى لم تدخل فى دائرة النفوذ الإسلامى، ومن هنا فإن موسى باشر فوراً فى توزيع قواده تبعاً للحاجة الملحة للقضاء على أدنى مقاومة من القبائل البربرية فكانت أول حملة تشق طريقها غرباً إلى (زاغوات) حيث كانت تلك الحملة تحت قيادة عبد الله بن الخشينى [٦٦] وهى قلعة جبلية بين تونس والقيروان وقد أسفرت تلك الحملة عن إسقاط القلعة والسيطرة الكاملة على المنطقة المحيطة بها وهذه الحملة مع حملات أخرى أمكنها تطهير المغرب الأوسط دون أدنى صعوبة أو وجود مقاومة حقيقية وأشهر تلك الحملات، تلك التى قادها موسى بنفسه إلى منطقة «مسجوما» التى تقع فيها تهودة حيث سقط عقبة بن نافع الفهرى قبل نحو ربع قرن، وقد شاركه فى تلك الحملة أحد أبناء عقبة وهو عياض بن عقبة بن نافع الفهرى كقائد على المقدمة وتأخذ عمليات المصاردة المستمرة للمتمردين البربر فى الاتساع حتى أقليم السوس الأقصى ووادى درعة فى أطول امتداد للعرب فى عمق المقرب وكانت حملة السوس بقيادة مروان بن موسى بن نصير تضم لأول مرة هذا العدد من البربر الذى وصل إلى أكثر من ألف مقاتل إلى جانب ألف وسبعمائة من العرب [٦٧] وقد حققت هذه الحملة نجاحاً كبيراً فى السوس الأقصى إلى

(٦٥) ابن عذارى : مصدر سابق، ج١، ص ٤١.
(٦٦) ابراهيم العدوى، مرجع سابق، ص ٢٨.
(٦٧) حسين مؤنس : فجر الأندلس، ص ٤٩.

السوس الأدنى المجاور لأقليم طنجة حيث قاد موسى بنفسه القوات الإسلامية إلى العاصمة المهمة الواقعة تحت حكم يوليان البيزنطى الذى تمتع بنفوذ شبه استقلالى فى تلك المنطقة الشمالية ولم يجد موسى بن نصير عناء فى السيطرة على المدينة التى تحولت إلى مركز عسكرى لتموين حملات العرب فى تلك الجهات.

ومع أن تلك الضربات انتهت آخر الأمر بإتمام فتح المغربين الأوسط والأقصى إلا أنها تسببت بعد ذلك فى أضرار كثيرة للدولة الإسلامية فى عصر الولاة، فقد رأى البربر أن العرب ليسوا قوماً قساة أصحاب مطامع مالية ومادية وما كانوا حاشا لله كذلك إنما كانوا رجال الدعوة الإسلامية وأصحاب المبادئ والفضيلة ولكن كيف كانت عاقبة سلوك موسى وسنرى أن ذلك سيكون من أسباب الفتنة البربرية الكبرى التى ستقوم قرب نهاية العصر الأموى فى أيام هشام بن عبد الملك بن مروان إذ بدأ موسى بن نصير بتوجيه ضربة شديدة إلى جماعة من البربر كانت تسكن فى منطقة حصينة إلى الغرب من تونس الحالية شمال جبل زغوران وهناك أنزل مذبحة بالناس وأسر ألوفا من الرؤوس كما تقول النصوص، وأرسل موسى بعد ذلك تلك الغنائم إلى عبد الله بن مروان والى مصر الجديد وقد كانت هذه الضربة القاضية قد أقنعت عبد الله بن مروان بأن هذا الوالى الجديد كفء وقدير للولاية كما تحدث عنه عبد العزيز بن مروان إلى أخيه عبد الملك فى هذا الشأن [٦٨].

وقد شجع ذلك العمل موسى فأخذ يرسل أولاده فى حملات من الجند تنزل بالخارجين على النفوذ الإسلامى والسلطة الإسلامية ضربات كهذه التى كان يقوم بها رجال موسى، ثم سار موسى بقواته فى اتجاه الغرب حتى وصل إلى بلدة تسمى «سجوما» على مقربة من تطوان الحالية، وكانت هذه البلدة هى مفتاح الطريق وبعد الاستيلاء على سجوما انفتح الطريق إلى طنجة وسبتة فدخل المسلمون هاتين المدينتين

(٦٨) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٥٢.

اللتين تعتبران مفتاح البحر الأبيض المتوسط وهذه هى المرة الثانى التى يصل فيها المسلمون إلى شاطئ الأطلس حيث كان قد سبق لهم أن وصلوا إلى تلك المنطقة فى عهد ولاية عقبة بن نافع الفهرى الثانية (٦٢ – ٦٤هـ / ٦٨١ – ٦٨٣م) وكان موسى قد عهد بقيادة تلك الحملة إلى تلك الأنحاء إلى ابنه مروان ثم إلى طارق بن زياد أحد القواد البربر الأقوياء فى جيش موسى بن نصير[٦٩].

والذى شارك بدور فعال فى عدد من المهمات العسكرية التوسعية فى المغرب بعد أن خضعت له جميع أقاليمه، وإن كانت هناك آراء تذكر أنه استثنى مدينة سبتة عاصرة يوليان الحاكم فالحاجة إلى إخضاعها لم تكن ملحة لأن ظروفاً استجدت بعد سقوط طنجة ومحاولة اكتشاف المجهول عبر ذلك الحاجز الضيق الفاصل بين سبتة واسبانية وسيكون لسبتة دورها الفعال فى تعديل الخطة العربية وتشجيع العرب على القيام بدور عسكرى على الجانب الآخر حيث اسبانيا وهناك آراء تذكر أن اختيار طارق بن زياد قد سهلت له جنسيته البربرية عمله فى كل المناطق التى كان يذهب لغزوها حيث أيقن البربر أنهم لن يخضعوا لغريب عنهم وإذ كان موسى بن نصير قد تحول إلى مهادنة البربر .. فإن العرب أخذوا يتقربون إلى البربر بوضعهم فى مراكز الولاية كما كان اشتراكهم فى الجيش يشعرهم بأنهم لن يعودوا محكومين بقوة أجنبية وكانت سلطة موسى مطلقة فى أن يقوم بما يريد من المشروعات التى تحقق مصلحة البلاد [٧٠].

وفى سبتة التقى المسلمون مرة أخرى بليليان وكما قلنا فإن ذلك الاسم كان تسمية عامة أطلقها المسلمون على حاكم هذه المنطقة أيًا كان، على أى حال تفاهم المسلمون مع يليان فهادنهم أو حالفهم وعاونهم بإمدادات عسكرية قليلة، هنا فى البلاد

(٦٩) ابن عبد الحكم : مصدر سابق، ص ٢٧٥.
(٧٠) زاهر رياض : مرجع سابق، ص ٢٧.

المغربية أنشأ موسى بن نصير، ولايتين إسلاميتين جديدتين الأولى فى المغرب الأوسط وتبدأ من نهر شلف إلى نهر المولوية وسميت بالمغرب الأوسط وأقيم عليها والٍ يحكمها وقاعدته إقليم تلمسان ومعه حامية عسكرية من العرب والبربر والثانية تمتد من نهر المولوية غربًا إلى ساحل المحيط الأطلسى وتمتد جنوبًا إلى وادى أم الربيع وتسمى بالمغرب الأقصى وولاية طنجة وقاعدتها طنجة ويقيم فيها والى ومعه قوة عسكرية عربية وبربرية وقد أقام موسى ابنه مروان واليًا على أقليم طنجة، ثم بعث حملات أخرى غزت المناطق الواقعة جنوبى «وادى أم الربيع» ووصل إلى سلطان المسلمين إلى أقصى أنحاء المغرب من ناحية الجنوب وهنا أنشئت ولاية جديدة اسمها ولاية السوس أو سجلماسة وعاصمتها سجلماسة وهى واحة كبرى تتكون منها مجموعة صغيرة من الواحات يطلق عليها فى مجموعها اسم نافيلالت ويتكون منها إقليم زراعى خصيب وافر المياه على أبواب الصحراء الكبرى وبعدها مباشرة نجد الصحراء التى لا تنتهى إلا عند حوض السنغال [٧١] وهناك كانت تقوم مدينة تمى أودغست وكلا البلدين كان محطة تجارية كبرى لمن يقطعون الصحراء الكبرى فى هذه الناحية الساحلية مأهول إذ ذاك بقبائل وهى خليط من البربر وسكان أفريقيا المدارية وهذه القبائل كانت تدخل ضمن المجموعة الصنهاجية [٧٢].

وهنا أى فى منطقة السوس أنشأ موسى الولاية الإسلامية الجديدة الثالثة التى تسمى السوس أو سجلماسة وعاصمتها عند منابع نهر المولودية وقد ولى موسى على هذه الولايات الجديدة فى بادئ الأمر طارق بن زياد الفورفجوس وتلك هى المرة الأولى التى نسمع فيها باسم ذلك الرجل الذى سيكون له دور كبير فى تاريخ الإسلام عندما يتولى فتح الأندلس[٧٣].

(٧١) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٥٣، لسلطنة سنغاى.
(٧٢) عبد الفتاح مقلد : السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى (رسالة دكتوراه)، ص ٧٧.
(٧٣) إبراهيم العدوى : مرجع سابق، ص٦٨.

عاد موسى بن نصير إلى القيروان بعد أن حقق الفصل الأخير من أطول مهمة عسكرية خاضها العرب على مدى سبعين عاماً ذاقوا خلالها ألوانًا من شتى الهزائم والانتصارات إلى أن جاء موسى بن نصير فقطف جهود السابقين وأضاف إليها جهوده الخاصة ليدخل التاريخ من أوسع أبوابه. وفى عاصمته شرع أمير القيروان بإعادة تنظيم المدينة، وذلك بعد أن وضع الأساس الإدارى للمغرب الإسلامى وتنظيمه، ففى عاصمة كل ولاية من هذه الولايات أقيمت قاعدة عربية إسلامية عليها والى واستقرت جماعات من العرب فيها لتعلم أهل ذلك الإقليم قواعد الإسلام وفى نفس الوقت أخذت العربية فى الانتشار بين البربر، وذلك على الرغم من تلك الأعمال العسكرية العنيفة التى قام بها موسى بن نصير وأولاده الأربعة وقواده إلا أن البربر شعروا بقيمة الإسلام فأقبلوا عليه ووجدوا فى قرآنه وتعاليمه مكاناً واسعاً للعمل وبعد أن كانوا قبائل تعيش على هامش التاريخ دخلت ميدانه من أوسع الأبواب، وأصبح رجال القبائل البربرية أعضاء فى الجماعة الإسلامية العربية وبدأ التاريخ الحقيقى لشعب البربر الكبير بعد إسلامه وتعربه.

وهكذا تحولت القيروان من قاعدة عسكرية فقط إلى مركز إدارى وسياسى وثقافى منافس المراكز الشهيرة فى المشرق العربى ولا شك فى أن القيروان اتخذت سماتها الجديدة التى أعطتها شهرتها الذائعة فى التاريخ على يد موسى بن نصير[٧٤].

ولكن الهاجس الأكثر إلحاحاً فى حياة أمير القيروان فى ذلك الحين كان العمل على تنفيذ القوة البحرية التى كانت نقطة ضعف الولاية المهددة سواحلها بالغزو البيزنطى وهنا تكمن نظرة موسى البعيدة عندما بذل أقصى جهوده لصنع قوة بحرية واتخاذ تونس القاعدة العربية الجديدة مركزاً له [٧٥] وفى ذلك الحين كان موسى بن

(٧٤) إبراهيم العدوى: مرجع سابق، ص ٦٨.
(٧٥) إبراهيم بيضون : مرجع سابق، ص ٦٠.

نصير قد قارب السبعين من عمره ولكنه كان قويًا نشيطًا فأعاد بناء ميناء تونس واهتم بدار صناعتها وهى الميناء ومكان بناء السفن. ومن هذا الميناء لم يمض سوى قليل من الوقت حتى ظهر إلى الوجود أسطول عربى إسلامى بحرى قوامه مائة سفينة، وعلى هذا.. فإنه من هذا الميناء بدأ المسلمون غاراتهم على صقلية وسردانية وكانت غارات سريعة كانت بداية تحول نشاط المسلمين الواسع فى الحوض الغربى للبحر المتوسط الذى كاد أن يتحول إلى بحيرة إسلامية [٧٦] شيئًا فشيئًا وخاصة بعد فتح الأندلس.

وقد ورثت تونس بغير جدال قرطاجنة قاعدة البيزنطيين القديمة وتفوقت عليها استراتيجيًا فهى محمية أكثر من الأخيرة بابتعادها عن الساحل بنحو اثنى عشرة ميلا ومتصلة به عبر قناة تلجأ إليها السفن عند الحاجة [٧٧] ومن تونس قامت سلسلة العمليات العسكرية البحرية التى استهدفت جزر صقلية وسردانية وما بورقة.

وكان كما سبق القول أن موسى عين ابنه مروان على طنجة وعين طارق بن زايد على إقليم السوس ولكن مروان بن موسى بن نصير سئم المقام فى طنجة فنقله أبوه منها وولى مكانه طارق بن زياد وحيث تم نقله من إقليم السوس فى أقصى الجنوب إلى طنجة فى أقصى الشمال استقر طارق فى طنجة على رأس حامية إسلامية غالبيتها من البربر وهكذا نجح الإسلام فى تأمين جناحه الغربى بقوة من البربر أنفسهم ولم يكونوا عربًا، بل مسلمين منذ فترة قصيرة وهذا شأن التعاون فى الإسلام وعدم تفضيل عربى على أعجمى إلا بالتقوى.

(٧٦) عبد الفتاح مقلد : الإسلام والثقافة العربية فى أوربا، ص ١٣٦.
(٧٧) ابن قتيبة : الأمانة والسياسة ، جـ٢ ، ص ٥٦.

نهاية موسى بن نصير :

بينما كان موسى بن نصير يتم فتح شبه جزيرة أيبريا والأندلس وقع خلاف بينه وبين طارق بن زياد وبلغ ذلك الأمر إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان، فاستدعاهما معًا وعاد طارق وعاد موسى ذلك الشيخ الفريد من أقصى جليقة (جالمسيبا) وهو الركن الشمالى الغربى من شبه جزيرة ايبريا (يلاحظ أن ذلك الجزء هو الذى سوف يقود معركة إخراج المسلمين من الأندلس فيما بعد). وكان قد تحرك دون فتح عندما استدعى الوليد موسى بن نصير وطارق بن زياد حيث عادا إلى الشرق حيث الخلافة الأموية فى دمشق، وفى أثناء عودته إلى الشرق حيث عسكر فى أشبيلية والقيروان وتلمسان والفسطاط كان يقابل مقابلة القائد العظيم وسيد الفتوحات الإسلامية حتى وصل إلى غزة ومعه طارق، وهناك جاء رسول من قبل ولى العهد سليمان بن عبد الملك يطلب منه التريث قبل السير إلى دمشق لأن الخليفة الأموى الوليد كان مريضًا مرض الموت وكان خليفته وولى عهده (أخوه سليمان) يريد أن يستقبل موسى وطارق للفصل فى النزاع، ولكن موسى بن نصير ذلك المغامر الشيخ غامر بحظه السعيد مرة أخرى وأسرع المسير إلى دمشق وكانت الميتة قد سبقته إلى الوليد بن مروان بن عبد الملك وخانه الحظ مرة ثانية فعندما وصل إلى دمشق وجد الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦ – ٩٩هـ/ ٧١٥–٧١٧م) فاستقبله شر استقبال، ومضى ذلك الرجل الذى أضاف إلى دولة الإسلام المغربين الأوسط والأقصى ثم شبه جزيرة أيبريا يسأل القبائل لكى يحصل على الفدية، وكان فى حوالى السابعة والسبعين من عمره ولكن سليمان عفا عنه وقربه إليه ولكن موسى بن نصير لم يسعد مع سليمان.

وهكذا كانت فترة ولاية موسى بن نصير هى فترة نهاية الفتح والاستقرار النهائى للوجود الإسلامى فى بلاد المغرب الإسلامى وهى فترة طويلة تزيد عن سبعين عامًا

حيث كان فتح المغرب قد بدأ عام ٢٢هـ/٦٤٣م فى عهد عمرو بن العاص ثم استمر بعد ذلك فى محاولات القواد تثبيت دعائم الإسلام فى ذلك الركن الغالى من أرض العروبة والإسلام حتى كان عام ٩٥هـ/٧١٤م فترة نهاية الفتح الإسلامى فى تلك الاصقاع، ولذا .. فإن فتح المغرب يختلف عن غيره من الفتوحات الإسلامية؛ حيث أننا نجد فتح مصر مثلاً استغرق عامين فقط وفتح كل إقليم الشام استغرق أربعة أعوام، وفتح العراق وإيران يستغرق ثمانية أو تسعة أعوام، فى حين أن فتح المغرب استغرق أكثر من ثلاثة وسبعين عامًا.

وهذا هو الفصل الأخير فى فصول فتح المغرب العربى الذى استشهد فى سبيله وفى سبيل نشر الإسلام والعروبة فوق أرضه ثلاثة من أكبر قواد المسلمين كان عقبة بن نافع الفهرى أحدهم ثم زهير بن قيس البلوى، دينار بن أبى المهاجر.

وهكذا .. تنتهى صفحة من صفحات الجهاد العربى الإسلامى فى المغرب لكى نبدأ صفحة أخرى من صفحات العمل من أجل صيغ البلاد بالصيغة العربية الإسلامية وإيصال الماضى بالحاضر الإسلامى؛ حيث صلة الدم بين العرب والبربر ساعدت على ظهور المغرب بذلك الوجه العربى الإسلامى فى أشرف صوره.

* * *

الباب الرابع

ولاة المغرب حتى ظهور الدول المستقلة

يطلق عصر الولاة فى التاريخ الإسلامى على الفترة التى كان يقوم فيها والى ويعلن استقلاله عن الخلافة الإسلامية سواء الأموية فى دمشق أو العباسية فى بغداد وذلك أثر انتشار الإسلام فى الأقطار العديدة وظهور حركة الفتوح الواسعة فى مشارق آسيا ومغارب أفريقيا والأندلس ولقد ظهرت حركة استقلال الولاة عن الخلافة الأم فى العديد من الأقطار العربية الإسلامية وفى فترات زمنية متباينة ففى مصر مثلاً نجد ظهور أول ولاية عربية مستقلة عن الخلافة العباسية كانت هى دولة بنى طولون منذ أعلن أحمد بن طولون قيام الدولة الطولونية فى مصر عام ٢٥٤هـ/٨٦٨م ومع أن ابن طولون لم يعلن استقلاله نهائياً عن الدولة العباسية، إلا أنه من وجهة النظر الرسمية فإن مصر لم تعد ولاية عباسية تخضع كل الخضوع للدولة كما كانت قبل استقلال أحمد بن طولون بشئون البلاد. وقد استقلت الدولة الطولونية عن الخلافة العباسية فى الفترة (٢٥٤–٢٩٢هـ/٨٦٨–٩٠٥م)[١] حيث عادت مصر لحكم الدولة العباسية المباشرة على يد القائد العباسى محمد بن سليمان عام ٢٩٢هـ/٩٠٥م.

أما من ناحية تقييم عصر الولاة بالنسبة لتاريخ المغرب .. فإن اتساع المغرب بأقسامه المتعددة التى قسمها حسان بن النعمان الغسانى ومن بعده موسى بن نصير قد أدت إلى ظهور عدة دويلات إسلامية فى أجزاء متعددة من المغرب وفى فترات تاريخية مختلفة، كل منها كانت تعلن استقلالها عن الخلافة العباسية وأحياناً تقتطع أجزاء من الإمارة المستقلة عن الدولة الأم (الخلافة العباسية) لتعلن هى نفسها قيام دويلات صغيرة سواء فى المغرب الأوسط والأدنى أو المغرب الأقصى افريقية (تونس) فنجد مثلاً

(١) عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والعروبة فى السودان، ص ١٢١.

انتهاء عصر الولاة التابعين للدولة الأموية ١٣٢هـ/٧٥٠م ومن بعدها الدولة العباسية بقيام بعض الإمارات المستقلة ذات السيادة الكاملة والتى كانت تدير شئونها بعيداً عن سيطرة الخلافة العباسية فى بغداد أو القاهرة.

فمثلاً انتهى عصر الولاة فى المغرب الأوسط (تلمسان) بقيام الدولة الرستمية الخارجية الأباضية عام ١٦٤هـ/٧٨١م وكذلك قيام دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى عام ١٧٢هـ/٧٨٨م وقيام دولة الأغالبة فى تونس (إفريقية) عام ١٨٤هـ/٨٠٠م[٢].

ولقد دخلت على المغرب العربى الكثير من التغيرات بعيدة المدى خلال مراحل الفتح المختلفة التى بدأت منذ قام عمرو بن العاص بغزو برقة وطرابلس وانتهى بعصر موسى بن نصير حين احتوى على كل أراضى المغرب حتى ساحل المحيط الأطلسى غرباً والصحراء الكبرى جنوباً تحت لواء الراية الإسلامية، وأننا نلحظ فى تلك الفترة دخول الكثير من البربر فى الدين الإسلامى، بل أكثر من ذلك انضموا إلى جيوش المسلمين يحاربون ويجاهدون ويغزون تحت لواء الراية الإسلامية كما حدث فى فتح الأندلس. ومن هنا أصبح لهؤلاء البربر كل حقوق العرب المجاهدين فى سبيل الله وفى سبيل نشر دينه، كما أن فترة الاستقرار النهائى واستتباب الأمن وإقبال المغاربة على الدخول فى الدين الإسلامى قد شهدت انتقال العرب من القبائل والجماعات العربية إلى أرض المغرب التى استقرت فى نواحيها واختلطت بأهله وصاهرتهم وبهذا بدأ يظهر جيل بربرى عربى مسلم مستعرب[٣] تطلع إلى أن يكون له نصيب فى إدارة شئون البلاد، كل هذه التطورات كانت تسير سيراً حثيثاً أثناء عملية الفتوح لأن المغرب الذى عرفه عمرو بن العاص يختلف كل الاختلاف عن المغرب الذى عرفه موسى بن نصير ومن جاء بعده من الولاه.

(٢) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٥٧.
(٣) حسين سليمان : ليبيا بين الماضى والحاضر، ص ١١٢.

وفى المغرب العربى نلاحظ أننا أمام شعب يختلف كل الاختلاف عن كل ما واجهه المسلمون (العرب) فى غيره من البلاد التى فتحوها، فهنا شعب شبيه العرب من حيث التكوين الاجتماعى والذهنى فهنا قبائل ورجال وشيوخ وقبائل كما هو الحال فى جزيرة العرب والتفاهم هنا يختلف عن طبيعة التفاهم بين الحاكم والمحكوم فى مصر، كذلك فإن الصراع فى مركز الدولة (لمدينة المنورة، مكة المكرمة، الكوفة، دمشق) على الحكم كان له أثر بعيد جداً على الأوضاع فى الأقاليم فالمنهزمون فى الصراع من أجل الوصول إلى السلطة كانوا يفرون إلى الأقاليم البعيدة عن مركز الحكم حيث يكونون بعيدين عن متناول يد الدولة أو بطش رجالها، وذلك لأن البلاد المفتوحة البعيدة كان يجد فيها هؤلاء المنهزمون مجالاً واسعاً للعيش، وكانت بداية حركة الهجرة الواسعة ما قام به الأنصار فى المدينة عقب هزيمتهم فى شقيقة بنى مساعدة عقب انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى حيث خرج العديد منهم فى هجرات جماعية إلى الأقطار المفتوحة، ثم توالت الضربات على أهالى المدينة المنورة من قبل خلفاء بنى أمية ولاسيما ما أصاب المدينة المنورة فى فترة حكم عبد الملك بن مروان؛ حيث نتج عن ذلك هجرة جماعية من المدينة إلى الأقاليم المفتوحة، كذلك ما أصاب العلويين من نكبات مما أدى بهم إلى الهجرة إلى الأقطار البعيدة ولا سيما أراضى المغرب؛ حيث يكونون فى مأمن من مطاردة رجال الدولة، وكذلك الخوارج الذين وجدوا فى أرض المغوب متنفسا لهم لنشر مبادئهم وأفكارهم(٤).

ولقد كانت كل هذه الجموع عندما تستقر فى تلك الأقطار تمثل جبهة معارضة للدولة المركزية ولسلطة الخلافة، بل إنهم كانوا يجتهدون فى إثارة المشاكل ضدها وتشويه سمعتها، وكان أكثر العاملين فى ذلك الميدان هم الخوارج لأنهم كانوا موتورين من الدولة ولديهم حجج وآراء لتبرير موقفهم وهؤلاء كانوا لايكفون عن

(٤) أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، جـ٢، ص ٥٦٣.

تحريض الناس على الحكومة المركزية الأموية واطلاع القوم على أحكام القرآن الكريم كما يفسرونها هم ولقد كان تفسيرهم يناسب آراء أهل الولايات ويرضى مطامعهم وذلك لأنه فى حالة ما إذا كان رجال الخوارج يتحدثون عن شئون الحكم .. فإن ذلك الحديث كان يتحول إلى تمرد عسكرى وخروج على سيادة الدولة والسلطة فى دمشق(٥).

ولاة المغرب بعد موسى بن نصير :

قام الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك بن مروان أثر عزل موسى بن نصير وتعيين عبد الله بن عبد الملك والياً على مصر خلفاً لعمه عبد العزيز بن مروان الذى توفى قبل والده بعام واحد، بتعيين يزيد بن أبى مسلم. وكان يزيد هذا الذى اختاره الخليفة سليمان بن عبد الملك الذى خلف أخاه الوليد، رجلاً عربياً مر مدرسة الحجاج بن يوسف الثقفى وأراد يزيد بن أبى مسلم أن يسير فى المغرب وحكمه وإدارة شئونه كما كان الحجاج يحكم أهل العراق، ناسياً أنه فى المغرب يتعامل مع قوم يختلفون كل الاختلاف عن أهل العراق وقد كان ذلك من الأسباب القوية التى دفعت البربر إلى الثورة على يزيد بن مسلم والقيام بقتله وواجهت الدولة ثورة فى أقليم من أقاليمها الكبرى (المغرب) ولم تكن الدولة تريد الدخول فى صراع مع سكان المغرب فلجأت إلى معالجة الأمر باللين والسياسة وعدم الالتجاء إلى استخدام أسلوب القوة، فوافقت على التنازل عن طلب أخذ الثأر من قتلة الوالى المقتول وتركت أهل إفريقية يختارون لأنفسهم والياً جديداً مؤقتاً.

وكان أن تولى الخلافة الأموية بعد وفاة سليمان بن عبد الملك، الخليفة عمر بن عبد العزيز بن مروان (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧١٩م) وقد كان عمر بن عبد العزيز

(٥) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٦٠.

لايريد هذا الأمر سواء سراً أو علانية [٦] وسارع عمر فخلع الولاة الظالمين والعمال القساه فعزل أسامة بن يزيد التنوخى عن صدفات مصر وكان غاشماً ظلوماً كثير الاعتداء، وكان قد أصدر قرار عزله ليزيد بن أبى مسلم عن إفريقية حيث تم قتله على أيدى الثوار قبل أن يصل إليه قرار العزل، وعزل صالح بن عبد الرحمن عن العراق والحارث بن عبد الرحمن الثقفى عن الأندلس[٧] .

وأوقف عمر بن عبد العزيز الحروب مع غير المسلمين أو مع المتمردين من المسلمين واستبدل بذلك دعوة غير المسلمين للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة كما حاج المتمردين والخوارج ليتغلب عليهم بالدليل والاقتناع وقد انتصر عمر بن عبد العزيز والمسلمون وانتصر فى دعوة غير المسلمين للإسلام وانتصر فى مناظرته مع الثائرين من المسلمين وقد سمى عصره عصر إسلام البلاد المفتوحة [٨] .

وقد قام الخليفة عمر بن عبد العزيز بتعيين إسماعيل بن عد الله بن أبى المهاجر بن دينار واليًا على إفريقية خلفاً ليزيد بن أبى مسلم، وقد رتب الخليفة عشرة فقهاء من أعيان التابعين لإرشاد البربر وتعليمهم اللغة العربية والدين الإسلامى وقد قدم هؤلاء الفقهاء إلى إفريقية ومعهم الوالى الجديد عام ١٠٠هـ.٧١٨م وانتشروا فى جهات الولاية ونتيجة لمساعيهم وجهودهم أسرع الناس فى دخول الإسلام طواعية وتذوقوه حتى أخذ عدد كبير منهم ينبغ فى العلوم الدينية، وقد عمل إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر على نشر الإسلام وأمده الخليفة بطائفة من كبار التابعين انتشروا فى أنحاء البلاد يحضون الناس على الدخول فى الإسلام وينشرون الثقافة العربية الإسلامية [٩] .

(٦) السيوطى : تاريخ الخلفاء، ص ٢٣١ .
(٧) ابن عبد الحكم : مصدر سابق، ص ٣٥ .
(٨) أحمد شلبى : مصدر سابق، ص ٨٦ .
(٩) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٩٩ .

وكما كان استقرار الأمور فى عهد هذا الوالى وتعريب إفريقية ودخول أهلها فى الإسلام تمهيداً لانتشار الإسلام وثقافة العرب فى المغرب الأقصى وانضمام البربر إلى العرب عاملاً حاسماً فى اندفاع الإسلام وثقافة العرب إلى بلاد الأندلس وهكذا نرى أن إسماعيل بن عبد الله لم يكن عاملاً على المغرب فحسب بل داعية إلى الإسلام بالدعوة السليمة والحجة والاقناع، والمؤرخون يردون إليه الفضل فى إتمام ما بدأه أسلافه فى تثبيت العقيدة فى نفوس المسلمين، وهكذا أخذ التابعون الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز يعلمون الناس أصول الدين ويبصرونهم بقواعد الإسلام وأصوله وأقام الكثيرون منهم فى مدينة القيروان أو غيرها من المدن المغربية وأقاموا المساجد وجعلوها مدارس للإسلام يقصدها البربر من كافة أقاليمهم وقد أخذ عن هؤلاء التابعين كثيرون من أهل البلاد، فإذا تعلم فريق من أهل البلاد الأصليين وقضوا بعض الوقت فى الدراسة فى القيروان عادوا إلى بلادهم لمتابعة الرسالة فيتولون وظائف الإمامة والقضاء ويعملون بدورهم على نشر الإسلام وثقافته العربية [١٠] وهكذا .. استقرت الأمور بعض الشىء وقد تابع ولاة المغرب بعد موسى بن نصير سياسة الغزو البحرى والجهاد ضد البيزنطيين فقد غزا إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر أمير إفريقية (١٠٠-١٠١هـ) بحر إفريقية مع أبى عقيل زهرة بن سعيد بن عبد الله التميمى وأبى عبد الرحمن الحبلى [١١] .

وفى عهد هشام بن عبد الملك بن مروان (١٠٥-١٢٥هـ/٧٣٣-٧٤٣م) فقد تولى إمارة إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السامى عام ١١٠هـ، وقام هذا الوالى بمحاربة الروم فى البحر، فبعث المنتصر الحارث الحريثى غارباً إلى صقلية وعند قفوله (عودته) من غزوته ثار البحر فغرقت سفنه بمن فيها من المسلمين ولم ينج من تلك

(١٠) ابن عذارى : البيان المغربى، جـ١، ص ٣٤ .
(١١) المالكى : مصدر سابق، ص ٩٠ .

الغزوة إلا المنتصر الذى قذفته الرياح إلى سواحل طرابلس وبلغ ذلك عبيدة، فأمر عامله فى طرابلس يزيد بن مسلم الكندى بالقبض عليه وشد وثاقه وإرساله إلى القيروان ففعل ذلك، فلما وصل إلى القيروان أمر به عبيده فجلدو طيف به فى المدن على إتان (حمار) ثم ألقى به فى السجن فظل به حتى أفرج عنه الوالى الجديد [١١].

وفى عام ١١٤هـ/٧٣٢م عزل عبيدة بن عبد الرحمن السلمى وتولى إفريقيا أيضاً فى عهد هشام بن عبد الملك عبد الله بن الحيحاب وهذا الوالى ينسب إلى اليمنية، وقد كان من أهل الحكمة والمعرفة بتدبر الأمور ولكن المشاكل كانت تتزايد بصورة أصبح معها من العسير على رجل واحد أيًا كان وضعه قادراً على مجابهة هذه المشاكل، ومن هنا كانت تولية عبد الله بن الحيحاب كل أقاليم غرب الدولة الإسلامية من حدود مصر غرباً إلى جبال البرت المعروفة بالبرانس بين أسبانيا وفرنسا مسئولية ثقيلة وضخمة مهما كانت خبرة ذلك الرجل، فهو لن يستطيع معالجة الموقف. خاصة إذ علمنا أن وراءه فى دمشق خلافة ضعيفة، ذلك لأنه فى عهد هشام بن عبد الملك خطت الدولة الأموية خطوة نحو الضعف وذلك سبب قيام العصبية بين غرب الشمال وغرب الجنوب وقد كان ذلك من الأسباب القوية التى ساعدت أعداء الدولة الأموية على تحقيق انتصارات جديدة فى تلك البقاع [١٣].

ولهذا .. فإننا نجد أنه فى أثناء ولاية عبد الله بن الحبحاب يتحول غضب الشعب المغربى على الحكم العربى إلى إرادة والإرادة تحولت إلى ثورة لأنه وجد من يقود الناس، كما أن مشكلة النزاع بين العرب الشاميين واليمنيين أو قبس وكليب «القبسية والكلبية» هذه المشكلة، مشكلة القبسية والكلبية أو القبسية والسبائية لم يعرفها العرب

(١٢) عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادى : مرجع سابق، ص ٣٩.

(١٣) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، جـ٢، ص ٣٧٩.

قبل الإسلام ولكنها نشأت من طبيعة الظروف السياسية التى سادت دولة بنى أمية فى الشام؛ حيث قربوا إليهم عرب الشام القبسية.

بوادر ظهور الدويلات المستقلة :

عندما تم افتتاح المغرب كانت المشاكل قد بدأت تتوالى وتتكاثر على الدولة الأموية حيث أنه من عام ١٠٠هـ/٧١٨م كانت الدولة تعانى تغير حاسماً فى أوضاعها فى الداخل وفى علاقاتها برعاياها فى مركز الدولة والأقاليم، ذلك لأن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد غير الوضع الحالى فى الدولة تغييراً كاملاً، إذ خفض عمر بن عبد العزيز من أثقال الخراج الذى يؤخذ من النصارى وأوقف أخذ الجزية ممن دخل الإسلام منهم. فانهال الناس على الإسلام أفواجاً وكتب له أحد عماله يقول. أن هذا يضر بالجزية، فتلقى من عمر الجواب الآتى : قبح الله رأيك. ارفع الجزية عمن أسلم؛ فإن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً لعمرى لعمر أشقى من أن يسلم الناس جميعهم على يديه [١٤].

ولقد نتج عن ذلك أن الإدارة الأموية بعد عمر بن عبد العزيز كان لابد لها من خليفة قادر يستطيع مواجهة الوضع الجديد ولكن الخلفاء الذين تولوا بعده يزيد بن عبد الملك (١٠١–١٠٥هـ) وهشام بن عبد الملك (١٠٥–١٢٥هـ) وغيرهما من ولاة بنى أمية كانوا أبعد ما يكونون عن إدراك هذه الحقائق، وكان أن لجأ الحكام الذين تولوا من بعده إلى القوة، ومن المعروف أن القوة تزيد المشاكل سوءاً ونادراً ما تنجح فى حل هذه الأمور.

وقد كان بنو أمية لكى يضمنوا الاستقرار وولاء الجند يلجأون إلى التفرقة بين الجانبين فيحابون القيسية على السبائية مرة ويحابون السبائية على القيسية مرة أخرى

(١٤) الطبرى : مصدر سابق، جـ٥، ص ٣١١.

ومن هنا فإنهم أحيوا العصبية القديمة ولكن على نطاق أوسع، ففى العصر الجاهلى كانت العصبيات عدوات قبائل، أى أنها كانت محدودة من حيث العنف واتساع المجال.

كما أننا لا ننسى أثر الخوارج ومن انضم إليهم من رجال الأحزاب الساخطة على الدولة العاملة على تأليب نفوس الناس وإثارتهم على الحكومة وفى النهاية فإنه يجب الإدراك أن هذه المشاكل عندما استع مجالها، كان العصر الذهبى للدولة الأموية قد ولى وأصبحنا أمام خلفاء لا يتميزون بأى قدرة، ولا نجد فيهم من له كفاية إلا اثنين، هشام ابن عبد الملك وقد بذل ما يستطيع لإصلاح الناحية المالية، ثم مروان ابن محمد آخر خلفاء بنى أمية وكان رجلاً قادراً ولكنه جاء بعد فوات الأوان فلم يستطيع أن يفعل شيئاً (١٥).

وقد كان مروان بن محمد عظيماً شجاعاً صاحب دهاء ومكر وكانت له خبرة واسعة فى الحروب ومن أهم ما يقال عنه أنه وضع خطة لإعادة تنظيم القوات الإسلامية فبدلاً من تقسيم الجيش إلى فرق تنتسب كل منها إلى قبيلة رأى تأليف جيش نظامى يخدم أفراده برواتب معينة يأمره قادة محترفين ينقسم الجنود المجندين للخدمة العسكرية إلى فرقة قليلة العدد تفوق فى سرعة حركتها وقوتها نظام الخطوط الطويلة عند العرب (١٦).

وتلك كانت هى الخلفيات التى ينبغى أن نضعها نصب أعيننا عندما ندرس تاريخ الدولة الإسلامية أيام الانتقال الحاسم من بنى أمية إلى بنس العباس.

وفى المغرب نجد أن هناك عوامل زادت غضب الناس على الدولة حدة وعنفا

(١٥) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٢.
(١٦) أحمد شلبى : مرجع سابق، ص ١٠٦.

وأهم هذه العوامل هم الخوارج.

والخوارج هم الإسم الغالب على هذه الطائفة وقد اشتق هذا الإسم من الفعل خرج : لأنهم خرجوا على على بن أبى طالب بعد أن كانوا ضمن أتباعه وهم يطلقون على أنفسهم الشراة أى الذين اشتروا آخرتهم بدنياهم ومن الأسماء التى تطلق عليهم المحكمة أى الذين يقولون لا حكم إلا لله (١٧).

وهم الذين انهزموا فى قلب الدولة وقتل منهم الألوف بسيوف رجال مثل الحجاج بن يوسف الثقفى والمهلب بن أبى صفرة من الازد والذين اضطرهم إلى الهجرة إلى الجهات التى لا تدركهم فيها يد الدولة وخاصة المغرب وعمان واليمن (١٨).

ولئن عادى الخوارج عليا وكرهوه فقد كانت عدواتهم لبنى أمية أشد وأعمق ولذلك نجد صراعهم يطول فى عهد الدولة الأموية ونجدهم فى كثير من الأحيان يظفرون ويكونون لأنفسهم سلطة ونفوذاً، ولقد توالت ثورات الخوارج فى عهد معاوية بن أبى سفيان (١٩).

وهؤلاء الخوارج كانوا مذاهب شتى فمنهم المتطرفون الذين كانوا يرون أن الدولة الإسلامية أو الخلافة القائمة دولة غاضبة هى وكل من أيدها فالمزارع أو التجار الذى يدفع الضرائب للدولة يعتبر خارجاً عن الإسلام مثل الخليفة وهؤلاء هم الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق الذين أعلنوا الحرب على الدعوة الإسلامية وجماعة المسلمين جملة ودعوة هؤلاء تلقى قبولاً فى ناس مثل البربر وخاصة بربر المغرب الأقصى الذين كانوا

(١٧) الشهرستانى : الملك والنحل، جـ١، ص ١٠٥.
(١٨) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٢.
(١٩) أحمد شلبى : مرجع سابق، ص ٢٣٤.

يعيشون ربما فى بعض الأوقات خارج الحدود الرسمية للدولة الأموية ولكن دعوة نافع بن الأزرق المتطرفة لم تلق قبولاً من جبهة واسعة لأنها دعوة لكل إنسان بأن يحمل السلاح فى وجه النظام القائم، لكن مذهب «عبد الله بن أياض» لقى قبولاً أكثر ولكن كان لايدعوا إلى القيام على الدولة، إنما يدعو الناس الذين يؤمنون بآراء أصحابه إلى إقامة نظام سياسى لهم فى النواحى التى لا تستطيع الدولة الوصول إليها وهم يأذنون لاتباعهم بالتعامل مع الناس تاركين الحساب لله سبحانه وتعالى إلى يومنا هذا المذهب الأباضى لقى قبولاً بين الناس وهو الوحيد من مذاهب الخوارج الذى قدر له أن يعيش إلى يومنا هذا؛ حيث يتخذ مذهباً فى العديد من البلاد والأقاليم الإسلامية الأباضية قريبون جداً فى فهمهم للشريعة من السنة، ولهذا .. يحسبون عادة ضمن السنة وأنه على أساس المذهب الخارجى الأباضى قامت دولة من أكبر دول المغرب وهى دولة عبد الرحمن بن رستم أو الدولة الرستمية فى المغرب الأوسط أو ما يعرف حالياً بإسم الجمهورية الديمقراطية الشعبية الجزائرية [٢٠].

(راجع الجزء الثانى من هذه الموسوعة به باب من عدة فصول عن هذه الدولة).

الفتنة الكبرى فى المغرب (١٢٢هـ – ٧٤٠م) :

بدأت الفتنة الكبرى أو الثورة الأولى فى إقليم المغرب الأقصى وبالتحديد فى إقليم طنجة المطل على المحيط الأطلسى ومدخل جبل طارق، حيث اشتدت تلك الثورة فى أواخر أيام هشام بن عبد الملك وقبل وفاته بثلاث أعوام ١٢٥هـ حيث أن الدولة فى عهد هشام بن عبد الملك قد أخذت تخطو خطوط واسعة نحو الضعف وكانت بدايتها تلك الثورة العنيفة فى المغرب الأقصى [٢١] وقد انتشرت تلك الثورة فى بادئ الأمر بين

(٢٠) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٣.
(٢١) أحمد شلبى : مرجع سابق، ص ٩٩.

قبائل بربرية عديدة تسكن تلك المنطقة الواقعة فى المغرب الأقصى والى بها قبيلة برغواطة وغمارة وتولى زعامتها رجل يسمى ميسرة الفقير [٢٢].

لكن بعض المؤرخين فى العصر الأموى والذين يمثلون تيار الدولة السياسى فى ذلك الوقت كانوا يحرفون اسم الفقير فى وجهة نظرهم ويبدلونه إلى لفظ الحقير ويتهمونه بالخروج عن الإسلام وعن سيادة الدولة.

والعجيب أن أغلب المؤرخين المحدثين من مسلمين أو مستشرقين تلقوا ما كتبه المؤرخون الأوائل التى تعتبر كتبهم كمصادر للتاريخ الإسلامى على أنها حقائق تاريخية ثابتة فجاءت أكثر الدراسات الحديثة بعيدة عن الإنصاف (كما حدث فى تشويه سمعة المجاهد الإسلامى المغربى «ميسرة الفقير») وذلك مما ادعو أنه ابتكر قرآناً وكفر بالله إلى آخر هذه الدعاوى التى يبقى أن نأخذها بكل حذر لأنها صادرة من جبهة معادية لميسرة (الدولة الأموية) ولكن ذلك لا يمنع القول بأن مثل هذا الرجل الذى تولى قيادة جماهير ضخمة غاضبة أصبح إماماً لجموع غفيرة من بربر المغرب ولكن تلك الثورة التى قادها ميسرة الفقير ضد الدولة الأموية لم تكن تضم بين صفوفها بربر فقط بل كانت هناك مجموعات عربية غاضبة على الدولة الأموية يريدون إنهاء الظلم الواقع على الشعب المغربى بفئتيه العربى والبربرى ولقد كان معظم العرب الذين انضموا إلى الفتنة الكبرى وإذكاء تار الثورة هم من الخوارج، ومن هنا .. فإن القول الصحيح أن الثورة المغربية الأولى عام ١٢٢هـ لم تكن ضد الوجود العربى فى المغرب كما صور ذلك بعض كتاب الغرب الأوروبيون لكنها كانت ثورة ضد النظام القائم لرفع المظالم عن كاهل الشعب المغربى؛ فهى ليست فتنة بربرية ضد الوجود العربى، إنما هى ثورة داخلية فى داخل الدولة الإسلامية وكانت أهدافها هى أهداف

(٢٢) لفظ فقير لفظ أطلقه ميسرة على نفسه لأنه يصور المثل الأعلى للمؤمن المجاهد الذى لا يطمطع فى شيء من متاع الدنيا.

إسلامية تريد أن تضع كل التعاليم الإسلامية موضع التنفيذ، فقد أصبح البربر مسلمين ولهم كل الحقوق ومساواتهم مع العرب؛ فهذه دولته والدين الإسلامى هو دينه والقرآن الكريم هو قرآنه، وعلى هذا .. فإنه من الغريب حقًا أننا نلاحظ فى أكثر من مناسبة أن المسلمين الجدد يتمسكون بالإسلام ويتهمون العرب أنفسهم حملة راية الإسلام بفتح بلاد العالم بالإنصراف عن سبيله ويطالبونهم بتطبيق قواعد الإسلام لفتح بلاد العالم بالإنصراف عن سبيله ويطالبونهم بتطبيق قواعد الإسلام ويحتجون عليهم بنصوص القرآن الكريم، لا لأن العرب لم يكونوا لا يذكرون نصوص القرآن الكريم؛ بل لأن ما كان القرآن يطلبه منهم لا يطبقونه كاملاً، ومن هنا كان لابد من مواجهة ذلك الأمر بالثورة كما حدث للبربر [٢٣].

مواجهة الثورة ضد الدولة الأموية :

عندما قامت الثورة ضد الدولة الأموية كان والى المغرب فى ذلك الوقت من قبل هشام بن عبد الملك، هو «عبد الله بن الحيحاب» والذى كان عليه أن يواجه هذه الثورة حتى لا يستفحل أمرها وتنتشر فى كل أنحاء المغرب ومحاولة حصارها فى قبائل المغرب الأقصى وفى إقليم طنجة مركز الثورة بوجه خاص؛ حيث أن الثورة فى بدايتها كانت تأخذ مظهر ثورة إقليمية بربرية ضد مظالم الدولة الأموية ولكن سرعان ما انضمت إليها بعض الفئات العربية وبدأت تأخذ الطابع العام للفتنة الكبرى، وكانت الدولة الأموية لاسيما فى أواخر عهد «هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم» تواجه صعوبات جسيمة وبدأت بوادر الضعف تظهر فى جسم الدولة، ومن هنا .. لم يجد «عبد الله بن الحيحاب» جنداً كافياً ليواجه الثوار وثورتهم [٢٤].

وكان الثوار قد تقدموا فى ثورتهم شرقًا فى اتجاه عاصمة الحكم فى المغرب؛

(٢٣) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٥٩.
(٢٤) ابن أبى دينار : مصدر سابق، ص ٣٩.

حيث كانت القيروان هى العاصمة السياسية، ومن هنا فقد استطاعوا الوصول إلى قرب نهر «شلف» بزعامة «ميسرة الفقير»، وهنا تردد ميسرة الفقير فى لقاء القوات التى أرسلها «عبد الله بن الحيحاب» بقيادة أحد رجاله وهو قائد جند الدولة الأموية (خالد بن حبيب) وهنا قام أنصاره بقتله لأنهم كانوا يرون أن التردد فى مقابلة قوات الدولة عار عليهم وذلك أخذاً برأى الخوارج الذين ربما كانوا قد انضموا إلى قوات «ميسرة الفقير» لكن بعد مقتل ميسرة تولى أحد الثوار قائد عليهم يدعى «خالد بن يزيد الزناتى» ومن اسمه يعرف أنه من قبلية زناته البربرية، والذى رأى أن تتراجع قواته غرباً إلى قرب أسوار طنجة، ومن ذلك المكان دارت معركة عنيفة وشرسة؛ حيث التقى الجيش العربى بقيادة «خالد ابن حبيب» مع جيش «خالد بن يزيد الزناتى» وانهزمت قوات الدولة الأموية والعرب، وقتل عدد كبير من أشراف العرب فى تلك المعركة، ومن هنا سميت تلك المعركة بإسم معركة الأشراف [٢٥].

وبعد انهزام القوات العربية .. فإن أحداثًا قد حدثت فى العاصمة القيروان حيث تمردت القوات العربية على «عبد الله بن الحيحاب» واتهمته بالإهمال وعدم القدرة على مواجهة الموقف، مما قد سبب حرجًا للوضع العربى فى المغرب فما كان من الخليفة «هشام بن عبد الملك» أن قام باستدعاء «عبد الله بن الحيحاب» درءا للمخاطر ومحاولة حصار الثورة والقضاء عليها، ومن هنا .. فإننا نجده يقوم بإرسال جيش عربى مكون من سبعة وعشرين ألف جندى يضم مجموعة قوية وكبيرة من الفرسان بقيادة الوالى الجديد («كلثوم بن عياض القشيرى» ١٢٣هـ/٧٤١م) ومعه ابن أخيه «بلج بن بشر القشيرى».

وهناك أقوال تذكر أن تلك الثورة البربرية التى ظهرت فى إقليم طنجة قد غذتها الفرق الدينية التى ظهرت فى ذلك العصر فى بلاد المغرب مثل الشيعة والخوارج؛

(٢٥) ابن عذارى كالمراكشى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، جـ٢، ص ٦٨.

حيث انتقلت هى الأخرى إلى المغرب بفرار بعض الدعاة حيث تصادف دعوتهم أرضا خصبة بين القبائل وكان ظهور حركات الخوارج سريعاً فى المغرب؛ حيث اندلعت نيران تلك الثورة عام ١٢٢ هـ[٢٦] وهذا دليل على تفاعل البربر تفاعلاً كاملاً مع الحياة الإسلامية بل كان دعاة الشيعة وثوار الثورة من الخوارج عاملاً هاماً من عوامل انتشار الثورة.

وتقدمت قوات الدولة الأموية نحو الثوار بقيادة «كلثوم بن عياض القشيرى» وتدعمه قوات العرب الأفارقة بقيادة «حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى» وربما يكون قد حدثت بعض المنازعات بين القوات الشامية بقيادة «كلثون بن عياض» وقوات حبيب بن أبى عبيدة مما أدى إلى حدوث بعض الانقسام قبل عملية الهجوم على قوات البربر بقيادة «خالد بن زيد الزناتى» مما أدى إلى هزيمة تلك القوات وهى تضم هذا العدد الضخم من القوات العربية وينتهى الأمر بمقتل «كلثوم بن عياض القيشرى» وحبيب بن أبى عبيدة بن عقبة وتفر بعض القوات بقيادة «بلح بن بشر القشيرى» ابن أخ كلثوم حيث تتحصن هذه القوات العربية الفارة من أرض المعركة فى مدينة سبتة وتتحصن بها ويعتصمون بأسوارها بضعة شهور[٢٧] لكن والى الأندلس «عبد الملك بن فطين الفهرى»، يراسل بلج بن بشر القشيرى وقواته من أجل عبور المضيق إلى الأندلس وذلك لمساعدته فى ثورة قام بها بربر الأندلس ضد نظام الدولة وضرورة القضاء عليها حيث كانت ثورة بربر الأندلس امتداد لثورة بربر المغرب، وذلك لأن بربر الأندلس كانوا أشد سخطاً على الدولة الأموية أكثر من بربر المغرب، وكذلك على من معهم من عرب الأندلس لأن عرب الأندلس كانوا أشد تعصباً من عرب المغرب وهكذا تركت ثورة المغرب دون مواجهة حاسمة بعد تلك المعركة إلا أن يتدخل

(٢٦) ابن خلدون : العبر ديوان المبتدأ والخبر، جـ٦، ص ١١٠.
(٢٧) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٤.

الخليفة هشام بن عبد الملك فى أمر تلك الثورة وضرورة القضاء عليها[٢٨].

لكن الخلافة الأموية فى دمشق لم تستسلم لهذه الهزائم المتكررة لقواتها على أيدى ثوار البربر، ومن هنا نجد الخليفة «هشام بن عبد الملك» وهو فى أواخر أيامه يبادر بإرسال قوات عربية كثيفة مجهزة بأحسن الأجهزة القتالية فى ذلك العصر حيث كانت تلك الغزوة تضم بين قواتها أغلب قوات الفرسان العربية التى حشدها هشام لأداء ذلك الدور ووضع تلك القوات تحت قيادة رجل مشهود له بالفروسية وقوة العزيمة والصبر على مواجهة الشدائد والقدرة على دك الحصون ذلك القائد هو «حنظلة بن صفوان الكلبى»، أحد رجال الشام الموالين أشد الولاء لبنى أمية ووصلت قوات الخوارج الأباضية عليها، لكن الظروف قد ساعدته فى ذلك إذ انقسم الخوارج على أنفسهم مما ساعد على إنقاذ المدينة من سقوطها، وكان عرب القيروان بما فيهم العلماء ورجال الدين وعامة الشعب قد خرجت لتدافع عن المدينة؛ حيث وزع حنظلة السلاح وذلك للدفاع عن مدينتهم وقاعدتهم فى إفريقية وموطن المذهب المالكى فى أرض المغرب واستطاع حنظلة القضاء على قوة الخوارج بفرقهم وطوائفهم المختلفة فى أوائل عام ١٢٤هـ/٧٤٢م، وهكذا هزم رجال الخوارج بقيادة «عكاشة بن أيوب الغزارى» «وعبد الواحد بن يزيد الهوارى» وهكذا أنقذت هاتان المعركتان مصير السنة فى المغرب وأفريقية فثبتت أقدامها بعد ذلك[٢٩].

وكانت تلك المعركة قد دارت فى منطقة يطلق عليها الأصنام وهى فى موقع يبعد أربعين كيلو متر غرب القيروان وهكذا انتصر العرب بمساعدة قوات عرب إفريقية السبائية وسيطرت الدولة على المغرب، وهكذا انتهى الصراع الدموى فى إقليم طرابلس وتونس والجزائر وإقليم الزاب والسهل الشمالى للمغرب الأقصى، وهكذا كان العصر

(٢٨) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى، ص ١٢٤.
(٢٩) أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٠٥.

الذهبى لبنى أمية وقوات الجيش الشامى الموالى لهم قد بدأ نجمها فى الأفول؛ حيث انتهى ذلك العصر بوفاة هشام بن عبد الملك عام ١٢٥هـ–٧٤٣م وهو آخر الشخصيات القوية فى بنى أمية؛ حيث لم يبقى من عمر الدولة الأموية بعد ذلك إلا سبع سنوات؛ حيث انتهت الدولة عام ١٣٢هـ–٧٥٠م [٣٠].

وكانت القيروان قاعدة المغرب الإسلامية قد تحولت إلى مركز إشعاع إسلامى وقامت فى مساجدها حلقات الدراسات الإسلامية وبدأ الجو الثقافى والعلمى فى البلاد يأخذ بعداً جديداً وطابعاً آخر بتأثير الإسلام والعروبة، ثم إن قيام القيروان مصراً عربياً إسلامياً، ذا تنظيم مدنى واجتماعى جديد، كأنه نقطة البداية بتغير عام فى أوضاع المدن فى إفريقية والمغرب كله. هكذا جاء العرب بهذا الطراز الجديد من المدن الإسلامية القابلة للتطوير والتعديل بحسب حاجات البلاد وآمالها، فأخذ الكثير من قوى ومدن المغرب طوره بتحويل إلى مدن إسلامية ذات جاليات عربية وجماعات إسلامية ومساجد وكتاتيب لتدريس اللغة العربية وتحفيظ القرآن الكريم ونشر قواعد الإسلام [٣١].

وفى هذا الجو الذى بدأت فيه بوادر سقوط الدولة الأموية خلا المغرب العربى للعرب السبائية؛ حيث لم يعد هناك تفوق لعرب الشام وكذلك خلا للبربر ليمارسوا دورهم فى حكم بلادهم وقد تقاسموا أقاليم المغرب المختلفة فيما بينهم فنجد عرب القيسية البلديون الذين واستوطنوا فى إفريقية منذ بداية الفتح العربى عام ٢٣هـ–٦٤٣م قد سيطروا على إقليم إفريقية (تونس دولة الأغالبة) أما البربر فقد سيطروا على ما عدا ذلك من أقاليم المغرب المختلفة، وكان معظم هؤلاء البربر من الخوارج (الدولة الرستمية) الزناتية، أما بربر البرانس، أهل الاستقرار وهم معظم سكان المغرب فلم يمتد إليهم لهيب الفتنة بنفس المدى الذى امتدت به إلى قبائل الزناتية لكن بربر البرانس

(٣٠) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، ص ١١٧.
(٣١) عبد الرحمن زكى : مدائن إسلامية، ص ١٣١–ص١٣٥.

سوف يدخلون تاريخ المغرب بإنشاء دولة الأدارسة، ثم الدولة الفاطمية، ودولة بنى زيرى، ثم دولة المرابطين فقد أنشأ دولتهم بربر المصامدة وهم بربر جبال أطلس الكبرى [٣٢].

ظـهـور الإمـارات المسـتقلة

إذا كانت الخلافة الأموية فى دمشق بقيادة هشام بن عبد الملك بن مروان قد استطاعت عام ١٢٤هـ–٧٤٢م القضاء على الفتنة الكبرى التى قام بها بربر المغرب فى ذلك الوقت بقيادة أحد رجالها الأقوياء حنظلة بن صفوان بن الكلبى إلا أن ذلك الانتصار الذى تحقق للخلافة لم يكن له أن يلاقى أدنى نجاح لولا المساعدة القوية التى قدمت له من جانب العرب المحليون الذين قطنوا تلك الديار منذ الفتح العربى الإسلامى للمغرب والذين مضى على وجودهم ما يقرب من مائة عام والذين قاموا بنصيب كبير فى استخلاص إفريقية من الثائرين على الخلافة والذين لولاهم لما استطاع جند الخلافة الوصول إلى هذا النصر الحاسم الذى قضى على ثوار البربر ومن سار فى فلكهم من عرب الخوارج.

وبهذا فإنه يمكن القول أن الذين حققوا ذلك الانتصار ونجحوا فى القضاء على الفتنة الكبرى ساعدهم العرب الذين نشأوا على أرض المغرب؛ حيث كانت لهم قوة النفوذ، بل يكاد أن يكون لهم السلطان الفعلى على أرض المغرب حيث كانوا يعيشون جماعات متماسكة فى المدن وحولها بصورة خاصة بالإضافة إلى أنه كانت تؤيدهم جماعات من البربر الزناتية الذين كانوا قد دخلوا فى عقيدة الإسلام وتعربوا لساناً بل استعربوا وأصبحوا قوة سياسية محلية يحسب لها ألف حساب فى أى صراع قادم على السلطة وكانوا يتمركزون فى القيروان وتونس والمسيلة وأقليم الزاب؛ حيث كانوا يشاركون العرب معيشتهم بعد أن اختلطوا معهم وصاهروهم وتزوجوا منهم وحدث ذلك

(٣٢) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٦٥.

الذهبى لبنى أمية وقوات الجيش الشامى الموالى لهم قد بدأ نجمها فى الأفول؛ حيث انتهى ذلك العصر بوفاة هشام بن عبد الملك عام ١٢٥هـ–٧٤٣م وهو آخر الشخصيات القوية فى بنى أمية؛ حيث لم يبقى من عمر الدولة الأموية بعد ذلك إلا سبع سنوات؛ حيث انتهت الدولة عام ١٣٢هـ–٧٥٠م [٣٠] .

وكانت القيروان قاعدة المغرب الإسلامية قد تحولت إلى مركز إشعاع إسلامى وقامت فى مساجدها حلقات الدراسات الإسلامية وبدأ الجو الثقافى والعلمى فى البلاد يأخذ بعداً جديداً وطابعاً أخر بتأثير الإسلام والعروبة، ثم إن قيام القيروان مصراً عربياً إسلامياً، ذا تنظيم مدنى واجتماعى جديد، كأنه نقطة البداية بتغير عام فى أوضاع المدن فى إفريقية والمغرب كله. هكذا جاء العرب بهذا الطراز الجديد من المدن الإسلامية القابلة للتطوير والتعديل بحسب حاجات البلاد وآمالها، فأخذ الكثير من قوى ومدن المغرب طوره بتحويل إلى مدن إسلامية ذات جاليات عربية وجماعات إسلامية ومساجد وكتاتيب لتدريس اللغة العربية وتحفيظ القرآن الكريم ونشر قواعد الإسلام[٣١] .

وفى هذا الجو الذى بدأت فيه بوادر سقوط الدولة الأموية خلا المغرب العربى للعرب السبائية؛ حيث لم يعد هناك تفوق لعرب الشام وكذلك خلا للبربر ليمارسوا دورهم فى حكم بلادهم وقد تقاسموا أقاليم المغرب المختلفة فيما بينهم فنجد عرب القيسية البلديون الذين واستوطئوا فى إفريقية منذ بداية الفتح العربى عام ٢٣هـ–٦٤٣م قد سيطروا على إقليم إفريقية (تونس دولة الأغالبة) أما البربر فقد سيطروا على ما عدا ذلك من أقاليم المغرب المختلفة، وكان معظم هؤلاء البربر من الخوارج (الدولة الرستمية) الزناتية، أما بربر البرانس، أهل الاستقرار وهم معظم سكان المغرب فلم يمتد إليهم لهيب الفتنة بنفس المدى الذى امتدت به إلى قبائل الزناتية لكن بربر البرانس

---

(٣٠) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، ص ١١٧ .

(٣١) عبد الرحمن زكى : مدائن إسلامية، ص ١٣١–ص١٣٥ .

سوف يدخلون تاريخ المغرب بإنشاء دولة الأدارسة، ثم الدولة الفاطمية، ودولة بنى زيرى، ثم دولة المرابطين فقد أنشأ دولتهم بربر المصامدة وهم بربر جبال أطلس الكبرى[٣٢] .

ظـهـور الإمـارات المسـتقلة

إذا كانت الخلافة الأموية فى دمشق بقيادة هشام بن عبد الملك بن مروان قد استطاعت عام ١٢٤هـ–٧٤٢م القضاء على الفتنة الكبرى التى قام بها بربر المغرب فى ذلك الوقت بقيادة أحد رجالها الأقوياء حنظلة بن صفوان بن الكلبى إلا أن ذلك الانتصار الذى تحقق للخلافة لم يكن له أن يلاقى أدنى نجاح لولا المساعدة القوية التى قدمت له من جانب العرب المحليون الذين قطنوا تلك الديار منذ الفتح العربى الإسلامى للمغرب والذين مضى على وجودهم ما يقرب من مائة عام والذين قاموا بنصيب كبير فى استخلاص إفريقية من الثائرين على الخلافة والذين لولاهم لما استطاع جند الخلافة الوصول إلى هذا النصر الحاسم الذى قضى على ثوار البربر ومن سار فى فلكهم من عرب الخوارج.

وبهذا فإنه يمكن القول أن الذين حققوا ذلك الانتصار ونجحوا فى القضاء على الفتنة الكبرى ساعدهم العرب الذين نشأوا على أرض المغرب؛ حيث كانت لهم قوة النفوذ، بل يكاد أن يكون لهم السلطان الفعلى على أرض المغرب حيث كانوا يعيشون جماعات متماسكة فى المدن وحولها بصورة خاصة بالإضافة إلى أنه كانت تؤيدهم جماعات من البربر الزناتية الذين كانوا قد دخلوا فى عقيدة الإسلام وتعربوا لساناً بل استعربوا وأصبحوا قوة سياسية محلية يحسب لها ألف حساب فى أى صراع قادم على السلطة وكانوا يتمركزون فى القيروان وتونس والمسيلة وأقليم الزاب؛ حيث كانوا يشاركون العرب معيشتهم بعد أن اختلطوا معهم وصاهروهم وتزوجوا منهم وحدث ذلك

---

(٣٢) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٦٥ .

التقارب الاجتماعى والوحدة العربية الإسلامية؛ حيث صحب ذلك العصر تطور مماثل صحب انتشار الإسلام وبهذا فإنه يمكن القول فى اطمئنان أن القرن الثانى الهجرى قد شهد إظلال المغرب بالظل الإسلامى فقد أصبحت تلك الأرجاء قطراً عربياً إسلامياً ينفعل مع التفكير الإسلامى الذى شاع فى العصر الأموى (٣٣) وذلك بفضل استقرار العرب السبائية أو ما يطلق عليهم العرب المحليون.

أما عرب الشام فقد كانوا يمثلون رجال الحكومة أو الخلافة الأموية فى دمشق وكانوا يعيشون فى معسكرات الجند بالقرب من العاصمة القيروان وكانوا فى نواحى أقليم إفريقية وتونس وطرابلس وإقليم الزاب، وكانت أقوى عناصرهم فى أقليم القيروان وتونس وكانوا يعتمدون أساساً على الدولة الأموية فى أواخر سنواتها (٣٤) وبقيام الدولة العباسية فإنهم نقلوا ولاءهم لها ظاهرياً.

ولقد كانت الشخصية العربية القوية التى تتزعم الوجود العربى بعيداً عن سلطة الدولة الأموية فى فترة الضعف التى استمرت سبع سنوات بعد وفاة هشام بن عبد الملك (١٢٥هـ–٧٤٣م) والذى حكم أثناءها الوليد بن يزيد (١٢٥–١٢٦هـ)، يزيد بن الوليد، ١٢٦هـ، إبراهيم بن الوليد ١٢٦هـ ثم كانت نهاية الدولة الأموية على يد محمد بن مروان (١٢٧–١٣٢هـ) حيث قتل فى قرية اسمها أبو صير من قرى صعيد مصر (٣٥)، هو عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيده بن عقبة بن نافع الفهرى والذى كان والده حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى قد قتل مع كلثوم بن عياض القشيرى وهو يقاوم انتشار ثورة البربر التى قادها ميسرة الفقير ثم تولى قيادتها من بعده خالد بن يزيد الزناتى، وكان عبد الرحمن هذا يمثل بيتاً عربياً طالت إقامته فى أرض المغرب حيث أقام فى تلك الديار جده الكبير نافع ومعه جده عقبة الذى لم

(٣٣) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٦٢.
(٣٤) أحمد شلبى : مرجع سابق، ص ١٠٧.
(٣٥) عبد الفتاح مقلد : الإسلام والعروبة فى السودان، ص ١٤٦.

تكن سنه قد تجاوزت العاشرة من عمره؛ حيث قضى جزءا كبيرا من عمره فى نواحى زويلة قرب فزان، وبذلك فقد صار عبد الرحمن من أهل المغرب؛ حيث كانت الزعامة فى هذا البيت نظراً للدور الذى قام به والده حبيب وجده عقبة بن نافع، وكذلك جده الأكبر نافع الفهرى الذى اشترك فى الحملة الأولى التى قادها عمرو بن العاص لفتح المغرب (٣٦).

كما يجدر الذكر أن كثيراً من كبار القواد الذين اشتركوا فى فتح المغرب قد تركوا ذرياتهم وأحفادهم يعيشون على أرض المغرب حيث أنه من المعروف أن تحركات القواد العربية للفتح والغزو كانت تصحبهم أسرهم فى هذه التحركات ومن هنا كان هؤلاء الأبناء والأحفاد يشبون على الأرض المفتوحة ومن هنا كان أشهر هذه البيوت العربية فى المغرب هو بيت عقبة بن نافع الذى استشهد فى سبيل توطيد دعائم الإسلام على أرض المغرب والذى شارك بغزوتين كبيرتين فى سبيل الجهاد من أجل رفع راية الإسلام (٣٧)، وقد كان عبد الرحمن بن حبيب وأولاده وأخوته وبيت موسى بن نصير وبيت أبى المهاجر دينار يمثلون تلك القيادة العربية الأصيلة فى أرض المغرب ورغم أن كل بيت كان له اتجاهه إلا أن بيت عقبة بن نافع الفهرى كان هو البيت الوحيد الذى كان قد اتخذ السياسة منها جاله وبدأ يمارس دوره على مسرح الأحداث السياسية فى المغرب أما بيت أبى المهاجر دينار فقد اتجهوا للفقه والعلوم الإسلامية ونشر الثقافة العربية الإسلامية وأما بيت موسى بن نصير فقد أولو جل اهتمامهم للعمل فى مجال المال والتجارة وشئون الاقتصاد (٣٨) ومن هنا وقع الدور على آل عقبة بن نافع والذى تمثل فى عهد عبد الرحمن بن حبيب لكى يلعب دوراً سياسياً نشطاً واسعاً فى عهد الفوضى ما بين سقوط الدولة الأموية أو فترة ضعفها أو فترة قيام الدولة العباسية

(٣٦) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٩١.
(٣٧) ابن عذارى : البيان المغرب، جـ١، ص ١٢.
(٣٨) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٧.

لبسط نفوذها على المغرب بعد أن تخلصت من متاعبها فى الشرق الإسلامى، وكان عبد الرحمن بن حبيب يعتمد على سمعة جده الفاتح العظيم المجاهد عقبة بن نافع لكن عبد الرحمن كان على خلاف جده، إذ أنه كان له طموح سياسى وكان رجلاً أنانياً اتجه إلى محاولة الاستقلال بالمغرب عن السلطة الأموية والعباسية على الرغم من أنه لم يكن يتمكن من الثبات وتنظيم أمور الدولة؛ حيث أن الفرصة كانت مواتية له كى ينشئ سلطاناً عربياً إسلامياً مستقلاً عن الدولة الأموية حيث أن سلطان الدول كان قد بدأ يتلاشى والبلاد المغربية تعمها الفوضى والشغب وفى أمس الحاجة إلى قائد مخلص يخلصهم من هذه الفوضى، إذ كان فى إمكان عبد الرحمن بن حبيب الفهرى أن يقيم دولة عربية مستقلة على أرض المغرب، كما فعل عبد الرحمن بن معاوية الداخل فى الأندلس (١٣٨-١٧٢هـ/٧٥٦-٧٨٨م)؛ حيث كان معاصراً له أو بعده بقليل، لكن عبد الرحمن بن حبيب لم يحاول فى بدء تحركه فى القيروان أن يكسب إلى جانبه صف الشرعية فى إعلان ولائه للدولة العباسية الجديدة والدخول فى طاعتها، بل إنه لم يحاول أن يكسب إلى جانبه القبائل العربية المنتشرة فى أرض المغرب والتى تمركزت منذ فترة طويلة، بل إنه لم يحاول الاستعانة بالبربر ولو على الأقل بالبربر الزناتية الذين اختلطوا بالعرب وتعايشوا معهم وجمعتهم وحدة اجتماعية وصلة نسب ومصاهرة، بل على العكس إننا نجد أنه قام من نفسه بإعلانه أمير على القيروان بعد قيام الدولة العباسية بقليل وأثر سقوط الخلافة الأموية، وإن كان بعد فترة قد أعلن الولاء والدخول فى طاعة الخلافة العباسية الجديدة فى بغداد وبعد ذلك أعلن التبعية إلى أبى جعفر المنصور، وقد قام أبو جعفر المنصور فى ذلك الوقت يطالبه بمال الدولة الذى كانت تحتاج إليه الخلافة الناشئة لتدبير أمورها والقدرة على مواجهة الصعاب التى تقف فى طريقها حتى تمكن لنفسها بدلاً من الخلافة الأموية التى انهارت [٣٩] وفى ذلك الوقت فإن الأمور فى المغرب تعيش فى فوضى ولم يكن الأمر قد استتب بعد

لعبد الرحمن بن حبيب الفهرى فى أنحاء المغرب وقد أخطأ المنصور فى ذلك لأن أبا جعفر المنصور لم يكن يعلم حقيقة الأوضاع فى بلاد المغرب وأنه لم تعد هناك أموال فى بلاد المغرب من جراء الفتنة الكبرى فى ذلك الحين والجباية معطلة فى البلاد، ومن هنا .. لم يكن أمام عبد الرحمن بن حبيب إلا أن يرسل إلى أبى جعفر المنصور رداً قاسياً يسبه فيه سباً لاذعاً ويعلمه بالخروج عن طاعته، وقد كان إعلان عبد الرحمن بالخروج عن طاعة الخلافة العباسية بشكل فى ذلك فكرة لاتقبلها الناس؛ حيث أن الولاء للدولة الإسلامية العباسية أو الخلافة كان يمثل عنصراً هاماً فى نفوس الشعب فى المغرب، لكن جماهير المسلمين لم تكن لتستقبل بمنتهى البساطة أن تكون إمارة المغرب أو على الأقل القيروان حيث المغرب الأوسط (إفريقية) مستقلة لا تجد أدنى تأييد ولو أسمى من الخلافة ولم يكن لها أدنى سند شرعى تقوم عليه ولاية عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى ومن هنا .. فإنه عندما انفصل عبد الرحمن وطرح جانباً الولاء للدولة العباسية فإن حكمه لم يعد له سند فى حين إننا نجد زميل مرحلته عبد الرحمن بن معاوية الداخل يقيم فى الأندلس دولته فى قرطبة فى ظل الخطبة للدولة العباسية وذلك رغم ما بينه وبين الخلافة العباسية من عداء دفين لاسيما لما قاموا به من أعمال جند آل أمية وما ارتكبوا بشأنهم من مذابح ومن هنا كان الولاء الأسمى للدولة العباسية هو الذى أكسبه الشرعية الدستورية أو القانونية فى نظر عامة الشعب فى الأندلس لكى يحكم البلاد ومن ثم اكتسب الشرعية وأعلن بعد أن ثبت دعائم حكمه الانفصال عن الخلافة العباسية وأقام دولته المستقلة فى الأندلس [٤٠].

ومن هنا .. فإن خروج عبد الرحمن بن حبيب الفهرى على سلطة الخلافة العباسية فى أول الأمر وقبل أن يستتب له الأمر كان دافعاً قوياً لعدم التفاف القبائل حوله لاسيما أنه لم يكن يملك القوات العسكرية اللازمة لإخضاع هذه القبائل

(٣٩) أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ٥٧.

بجانب استخدام أسلوب العنف والقوة فى إخضاع أهل البلاد وقد أدى ذلك إلى نتائج عكسية؛ حيث أن البربر بطبيعتهم ينفرون من أسلوب القوة، وقد استطاع عبد الرحمن أن يستمر فى الحكم فترة ليست بطويلة وكذلك استعانته بأخيه إلياس بن حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع، والذى كان قائداً عسكرياً ناجحاً وذا شخصية قوية استطاع أن يضم إلى جانبه طبقة من الفرسان والمقاتلين وأن يكسب ولاءهم وحسن طاعتهم وقد يكون ذلك من العوامل التى ساعدت عبد الرحمن على إعلان عدم ولائه للدولة العباسية وسبه للخيفة أبى جعفر المنصور بجانب أنه كان يتخوف من أخيه إلياس ويتعامل معه بحذر [٤١] ومن هنا كان الشك يساوره فى ولاء أخيه ولكن الأمر يكون قد اختلف بشأن ظهور تلك الإمارة العربية لو وضعت القيادة فى يد إلياس بن حبيب بدلاً من أخيه عبد الرحمن الذى كان يفتقد إلى جوانب كثيرة لاتساعده على بناء دولته فى إفريقية ولو أن عبد الرحمن كان يتمتع بجانب من الكياسة والفطنة والحكمة والكفاية القيادية والإدارية لتغير وجه التاريخ فى تلك المنطقة لكنه لم يكن محبباً من العوام، فقد كان غير ثابت، سريع الحركة غير واضح السياسة، ومن هنا .. فإن كل هذه الأمور باعدت بينه وبين القوم سواء كانوا عربا أو بربر ونفروا منه نفوراً عظيما، ومن هنا تصدى له قوم من أنداده من بيوتات العرب الكبيرة التى كانت قد استقرت منذ فترة طويلة فى أرض المغرب وأصبحوا يتمتعون بمكانة عالية بين قبائلهم وأقوامهم، ومن هنا ثارت المشاكل وتعقدت الأمور بينه وبينهم ولم يعد أمامهم سبيلاً سوى الاحتكام للسلاح لحسم مثل هذه الأمور التى استعصى حلها ودارت الحروب بينهم.

وبينما الأطراف الأخرى مستعدة لخوض المعركة الفاصلة مع عبد الرحمن بن حبيب نجد أنه يقع فى خطأ جسيم إذ أنه دون سابق إنذار يقوم بعزل أخيه إلياس عن

(٤٠) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٨.
(٤١) السلاوى : الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى، جـ٢، ص ٥١.

قيادة الجيش وولاية العهد ويعين إبنه حبيب بن عبد الرحمن بدلاً من أخيه وهنا تدور الدائرة بين الطرفين الأخوين؛ حيث يتم مقتل عبد الرحمن ويتولى إلياس إدارة شئون المغرب الأوسط فى القيروان [٤٢].

ولقد كانت العقبة الكبرى التى واجهت عبد الرحمن بن حبيب فى تنظيم الدولة هى مشكلة الخوارج واللذين كانت قواتهم قد تجمعت إلى الشرق من القيروان؛ حيث جبال نفوسة فى طرابلس وكان يتولى زعامتهم زعيم خارجى ممن تلقوا تعاليم المذهب الخارجى الأباضى فى البصرة على أكبر شيوخ المذهب الأباضى فى ذلك الوقت وهو الشيخ مسلمة بن سعيد وكان أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى قد وصل إلى تلك الأرجاء؛ حيث تجمع القوم حوله وكان عالمًا فى المذهب الخارجى الأباضى وكان إلى جانبه عدد كبير من شيوخ المذهب أكبرهم عبد الرحمن بن رستم [٤٣].

وقد كانت قوة الخوارج الأباضية من أهم الصعوبات التى واجهت عبد الرحمن بن حبيب ثم أخيه إلياس فى تدعيم نفوذهم فى تلك الأرجاء بجانب حدوث انقسام بين الطرفين ومقتل عبد الرحمن الأمر الذى دفع ابنه حبيب بن عبد الرحمن بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى إلى أن يسير مع جماعات التفت حوله من البربر ويدخل القيروان ويقوم بقتل عمه إلياس انتقاماً لمقتل أبيه ويتولى إدارة دفة الحكم من القيروان، لكن حكمه لم يدم طويلاً إذ أننا نجد أحد أعمامه لمحاولة ويدعى عبد الوارث ابن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ينقلب عليه ويقوم بهجوم على العاصمة مما يضطر حبيب إلى الفرار غرباً تاركاً البلاد والإلتجاء إلى قبيلة بربرية أخرى هى قبيلة (ورجونة) وهى قبيلة طارق بن زياد صاحب الفتوحات الشهيرة فى الأندلس والمغرب

(٤٢) عبد العزيز السيد سلام : المغرب الكبير، جـ٢، ص ٥١.
(٤٣) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٨.

ووضع نفسه تحت حماية زعيم هذه القبيلة الذى كان يدعى عاصم بن جميل؛ حيث يقوم الآخر بحشد قوات من البربر وسار بهم إلى القيروان وكان ذلك الرجل ومن معه من الخوارج الصفرية الذى ينتسبون إلى زياد بن الأصفر أو إلى عبد الله بن الصفار والذين كانوا ينتسبون كذلك إلى الصفرية لأن أصحابها أصفرت وجوههم من طوال العبادة وكثرة الصوم وهى كما يقول الطبرى بأخذ النساك بحيث يصفر وجه صاحب عبادة (٤٤) وكان من أهم رجاله شبيب بن يزيد الشيبانى الذى يوضع فى عالم البطولة مع نافع بن الأزرق، وكانت الطريقة الصفرية قد انتشرت بين هؤلاء القوم ومن هنا تحركوا نحو القيروان حيث قام عاصم بن جميل باقتحام القيروان عنوة والقضاء على حكم آل حبيب نهائياً، وأقام حكماً خارجياً فى هذه البلد الذى كلف العرب جهوداً جبارة وضخمة لأجل فتحه بل وإتمام فتحه والذى دام أكثر من ثلاثة وسبعين عاما، وهكذا نجد أن عاصم بن جميل يؤكد احتقاره لمذاهب السنة فيقوم بإدخال رجاله بخيلهم إلى المساجد والجوامع الكبيرة فى القيروان وربطوا خيولهم فيه، وهكذا .. انتهت القيروان بعد عناء لتكون مركزاً من مراكز الخوارج الصفرية (٤٥).

ولقد كان هذا الموقف الذى حدث فى القيروان دافعاً قوياً لكى يتحرك الخوارج الأباضية بزعامة الخطاب بن عبد الأعلى بن السمح المعافرى الذى ينتسب الى قبيلة المعافرة فى غرب اليمن بالتوجه الى القيروان والسيطرة على جبال نفوسة وناحية طرابلس وطرد الخوارج الصفرية من القيروان، ومن هنا انتقلت إفريقية من سلطة الصفرية إلى سلطة الفرقة الأباضية للخوارج، ولقد كانت هذه الأمور التى تدور رحاها على أرض إفريقية من الأسباب القوية التى دفعت أبا جعفر المنصور الذى قامت دولته العباسية على الجماعة والسنة بأن يصدر الأوامر لواليه على مصر «محمد بن الأشعث»

---

(٤٤) الطبرى : مصدر سابق، جـ٥، ص٥٠.
(٤٥) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٨.

بأن يتحرك إلى إفريقية لطرد الخوارج الأباضية من القيروان وتم له الأمر واستتب الحال لرحال السنة فى القيروان وتم طرد الخوارج الأباضية الذين فروا بقيادة عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط بينما فر الباقون إلى جبال نفوسة للاحتماء بها ومحاولة توحيد صفوفهم لمرحلة أخرى قادمة يستطيعون من خلالها إقامة دولة لهم فى المغرب الأوسط.

المغرب فى ظل الدولة العباسية

كان اهتمام أبو جعفر المنصور بالأمور فى المغرب دافعاً قوياً لإرساله محمد بن الأشعث والى مصر وإمداده بقوات عربية كبيرة لإنهاء وجود الخوارج الأباضة فى القيروان ومن ثم استطاع محمد بن الأشعث أن يطرد الخوارج من القيروان وأن يجعلهم يتركون المدينة إلى جبال نفوسة أو يتحركون غرباً إلى المغرب الأوسط، وبهذا فقد استتب الأمر للدولة العباسية فى المغرب (إفريقية) وباستقرار محمد بن الأشعث فى القيروان واجتهاده فى إقرار الأمن وبذل الجهود الجبارة لعودة الحياة الطبيعية إلى مجراها وإن كان الخوارج لازالوا يشكلون عنصراً خطيراً على الدولة العباسية ومن هنا أصبحت المغرب تشكل مشكلة كبيرة للخلافة العباسية نظراً لبعدها عن مقر الخلافة ببغداد، بالإضافة إلى أن المذاهب الدينية الإسلامية قد وجدت فيها أرضاً بكراً لكى تنشر أفكارها كالشيعة والخوارج، إضافة إلى أنه تعيش فيه جماعات عربية متعادية متحاربة بعضهم من أهل السنة والبعض الآخر من الخوارج وكذلك بعضهم عرب وبربر وعرب قيسية وسبائية ومن هنا كان لابد للخليفة العباسى أبو جعفر المنصور أن يضع حداً لهذه الأمور المعقدة وأن يجد سبيلاً لحلها فكان لما انتهت ولاية محمد بن الأشعث فى عهده أن اختار لولاية إفريقية زعيما من زعماء العرب المقيمين فى المغرب وتربوا وأنشئوا فى تربيتها وعرفوا أمورها.

كان ذلك الذى اختارته الخلافة العباسية فى بغداد وهو الأغلب بن سالم بن عقال التميمى وهو من زعماء العرب المقيمين فى مصر والذين كان لهم دراية وإلمام بأمور إفريقية وكان فارساً شجاعاً متمرسا بفنون القتال والحروب، وسار الأغلب إلى إفريقية ومعه قومه وأهله ومن بينهم ابنه إبراهيم والقوات العربية التى صحبته من مصر وجهزتها له الخلافة العباسية ووالى مصر فى ذلك الوقت، واستطاع الأغلب أن يدخل إفريقية ويتخذ من القيروان عاصمة له وبدأ يمارس شئون الولاية منها وينظم أمور الولاية

ويعمل جاهداً على استتباب الأمر[٤٦] ودرء المخاطر عن ولايته وإذ به يفاجأ بقيام الخوارج وظهورهم بقوة وعنف ومن جديد على مسرح الأحداث فى إفريقية وبقيادة رجل غير السابقين؛ فهو أبو حاتم حيث تمكن أبو حاتم من مهاجمة القيروان وقتل الأغلب بن سالم بن عقال والسيطرة على القيروان وإفريقية لكن إبراهيم بن الأغلب استطاع أن ينجو بنفسه ومعه بعض قوات أبيه؛ حيث يتحرك غرباً إلى إقليم الزاب ويستعد لجولة قادمة ضد الخوارج الذين قتلوا أباه وفى تلك الأحوال يستقر رأى القيادة السياسية في بغداد حيث مقر الخلافة ويتخذ الخليفة قراره باختيار أحد رجاله بل من كبار رجال الدولة المشهود لهم بالكفاءة والخبرة ومنحه كل الصلاحيات الممكنة لعلاج الأمور فى إفريقية وإنقاذها من الفوضى والخلل ووضع الأمور فى نصابها، لذلك الرجل من بنى المهلب بن أبى صفرة وهو أبو حفص عمر بن قبيص الذى عرف بالمهلبى، وهو من المهالبة من الأزد الذين سكنوا أرض عمان ولذلك يعرفون بازد عمان، وقد كان ذلك الرجل قد عاش وتولى العديد من الأعمال في عصر الدولة الأموية[٤٧].

وكان أبو حفص قد وصل إلى إفريقية عام ١٥١ هـ ـ ٧٦٨م وبدأ بذلك عصراً جديداً فى ولاية إفريقية إذ شهدت نوعاً من الاستقرار النسبى، وكان ذلك الرجل قد صحب معه بعضاً من قومه من آل المهلب عندما قدم بهم ومعهم إلى إفريقية وكذلك صحب قوة عسكرية كبيرة وبذلك. . فإن فترة حكم هؤلاء القوم سوف تكون حاسمة في تاريخ المغرب وافريقية كولاية إسلامية ومركزاً من مراكز العروبة والإسلام المغرب.

ولقد وضع أبو حفص نصب عينه ضرورة مواجهة الخوارج الذين قتلوا أبا

(٤٦) صلاح العقاد: المغرب العربى، ص ١٥٨.
(٤٧) ابن أبى دينار: مرجع سابق، ص ٤٣.

الأغلب، بزعامة أبو حاتم وتمكن أبو حفص عمر من الانتصار عليهم فى بادئ الأمر لكن أبو حاتم استطاع فى عام ١٥٤هـ/٧٧١م وبعد مرور ثلاث سنوات على استقرار الأول فى القيروان أن يهزمه ومن ثم قتل فى تلك المعركة أعداد كبيرة من قوات المهلبى والتى أثبت الخوارج فيها أنهم قوة فعالة فى المغرب ولهم دوراً لا يقل شأناً عن أى قوة إسلامية على أرض المغرب (٤٨).

وإزاء هذا الموقف .. فإن الخليفة العباسى أاو جعفر يأمر واليه فى مصر يزيد بن حاتم المهلبى ابن عم الوالى القتيل السابق أبى حفص فأمره بالسير إلى إفريقية حيث تم تعيينه والياً عليها فى عام ١٥٥هـ-٧٧٢م وبدأ فى تاريخ افريقية عصراً من الاستقرار والأزدهار، وكان الوالى الجديد من آل المهلبى معه جند كثير من آل الأزد عرب عمان، والذين استعان بهم فى استقرار الأمور فى القيروان؛ بحيث لم يطمئن إلى قوات من الجند الفرسان الذين كانوا فى ذلك الوقت عماد القوة العسكرية، ولكن على الرغم من سواء القوات الخراسانية التى صحب يزيد بن حاتم، إلا أنه بذل قصارى جهده حتى استطاع بكفاءته الشخصية أن يقر الأمور فى إفريقية وأن يقيم حكماً عربياً إسلامياً عادلا زاهراً دام فترة تزيد عن خمسة عشر عاماً (١٥٥-١٧١هـ/٧٧٢ - ٨٨٧م) من الهدوء والاستقرار.

وهكذا حكم يزيد بن حاتم فترة الخمسة عشر عاماً التى تعد من أحسن سنوات الحكم القليلة فى تاريخ إفريقية؛ حيث شهدت بعداً جديداً من الأزدهار والتقدم والرخاء ودرت العديد من الفوائد على البلاد فقد كان يزيد بن حاتم سيداً عربياً يتميز بكل ما يميز سادة العرب فى تلك العصور من رياسة وشهامة وكرم فقد كان رجلاً زكيا نشطاً خبيراً بشئون الحكم والإدارة بالإضافة إلى أنه كان عربياً صادق العروبة يتصف بالشهامة والسيادة والبعد عن الصغائر وكان مسلماً صحيح الإيمان يؤمن بدولة السنة

(٤٨) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٦٢.

والجماعة ومن هنا حارب الخوارج وأنصارهم أشد محاربة، وقد كان الشعراء يفدون عليه لكى يمتدحونه حيث كان رجلاً بعيد الصيت فى الدولة العباسية وكان له كيان سياسى لدى أبو جعفر المنصور والذى كان يثق فيه كل الثقة ومن هنا كان قرار توليته ولاية إفريقية بدلاً من ولاية مصر حيث أدرك أنه الرجل الذى يستطيع أن يضع حداً لكل ما يدور على أرض إفريقية (٤٨).

المهم بعد ذلك أننا نجد أنه بعد نجاح يزيد بن حاتم فى إدارة شئون إفريقية بحكمة وحنكة ودراية قد جعل الخلافة العباسية فى بغداد تترك أمر فريقية فى أيدى أهل المهلبى الذين عرفوا بالإخلاص للدولة العباسية فتولى المهالبة حكم إفريقية وأهمهم بعد يزيد بن حاتم المهلبى أخوه روح ابن حاتم وكان لا يقل كفاءة وقدرة ودراية بشئون الحكم عن أخيه يزيد قد حكم ثلاث سنوات ٧٢هـ - ١٧٥هـ - ٧٨٨ - ٧٩١م، وقد كان آخر المهالبة الذين حكموا إفريقية من قبل الخلافة العباسية الوالى الفضل بن روح بن حاتم الذى حكم البلاد عام ١٧٧هـ-٧٩٣هـ ولم يحكم إلا سنة ونصف حيث ثار عايه جند إفريقية والمغرب نظر لسوء إدارته للبلاد واستخدامه أسلوب العنف والاستبداد والسيطرة على كل الوظائف هو وقوته من آل المهلبى وخاصة الوظائف الكبرى والحساسة ولذا كانت نهايته على أحد قواد الجند فى تونس وهو (عبد الله بن عبد ربه بن الجارود)؛ حيث تمكن ذلك القائد من عزله ثم قتله فى عام ١٧٨هـ-٧٩٤م؛ حيث ساعده فى ذلك بعض من أعوانه من قواد الجيش فى تونس، وهكذا .. انتهت فترة ولاية أسرة المهلبى بعد أن حكمت إفريقية فترة تقدرها المصادر بربع قرن (خمسة وعشرين عاما) بدأت فى عهد الخليفة العباسى الأول أبو جعفر المنصور وانتهت فى فترة حكم هارون الرشيد (٥٠).

(٤٩) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٣٢.
(٥٠) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٧٦، ص٧٧.

وهكذا نقف عند هذه الفترة التاريخية فى ذلك البحث؛ حيث لاتكون قد تجاوزتا الحد فى ذلك البحث حيث أن هذا الجزء الأول من موسوعة المغرب السادسية الأجزاء هو المغرب فى (٢٢هـ–١٢٥هـ/٦٤٣م–٧٤٣م) لكنها طبيعة تلك المرحلة التى مرت بها المغرب اقتضت أن تكون دراسة هذا الباب إلى هذا الحد من الحكم؛ حيث أن هذا الباب سوف يتحدد عليه انتشار الإسلام بصورة فعالة وصبغ المغرب العربى بالصبغة العربية الإسلامية، ولهذا كانت الضرورة تحتم إضافة هذا الباب إلى الأبواب السابقة لكى يكون تكملة للبابين الثانى والثالث حتى يكون الباب الخامس القادم صورة متكاملة عن انتشار الإسلام والعروبة فى بلاد المغرب وبذلك يكون قد تم إيجاد الكتلة العربية الإسلامية الثانية على الأرض الإفريقية بعد أن ظهرت الكتلة المصرية العربية الإسلامية الأولى لتمارس دورها فى إيجاد تلك الوحدة الثانية التى لولا الدور المصرى الثابت والمذكور والمتواصل لما قدر لظهور تلك الكتلة العربية الإسلامية على أرض المغرب ذلك لأن الدور الذى لعبته مصر وقواتها وزادها وزوادها وعدتها كان من الأسباب القوية التى أدت إلى ظهور الكتلة العربية الإسلامية الثانية على أرض إفريقية بعد الكتلة العربية الإسلامية فى مصر وبهذا قدر للمغرب أن يمارس دوه العربى الإسلامى فى نشر راية الإسلام فى إفريقية بل على أرض أوربا وجزر البحر المتوسط.

* * *

الباب الخامس

الإسلام والعروبة فى المغرب

إنه قبل قرن من الزمان وبالتحديد فى القرن السادس الميلادى لم تكن فى أرض المغرب بالمعنى المفهوم جماعات مسيحية تستطيع أن تطلق عليها انتشاراً للمسيحية على نطاق واسع بين هذه الجماعات لكن ذلك القرن قد شهد كثير من غارات القبائل البربرية الوثنية (البتر) فى الجنوب وقد قيل أن حروب الامبراطور جستنيان الرومى ضد الوندال عام ٥٣٤م قد أفنت العديد من أهل إفريقيا وهجر المواطنون بلاداً كانت مزدهرة بالتجارة والصناعة، ولكن الخراب كان أسرع إليها وكذلك حل الدمار بالرومان وحلفائهم من بربر البرانس سكان السواحل.

وأنه قبل أن يتقدم العرب من مصر إلى إفريقية كانت الكنيسة الإفريقية تعانى مما تعانية الكنيسة المصرية من اضطهاد كنيسة القسطنطينية لها ومن هنا قل عدد المسيحيين وظل عددهم يتناقص بالتدريج خلال الخمسين عامًا التى سبقت الفتح العربى الإسلامى من جراء أعمال القواد الرومان الذين كانوا يحاصرون المدن الرومانية لمدد طويلة من أجل إجبار الأهالى على ترك مذهبهم وقبول مذهب كنيسة القسطنطينية [1].

وليس معنى ضعف المسيحية فى بلاد المغرب قبيل الفتح العربى الإسلامى وفى السنين الأولى من الدولة الإسلامية أن الإسلام قد لقى من أول وهلة أرضًا خصبة فى بلاد المغرب بمجرد أن وطأت أقدام المسلمين تلك الديار ولكن المقاومة العنيفة التى أبداها البربر ضد الوجود العربى كانت تدل على تأصل الوثنية فى قلوبهم، وفى تاريخ الكفاح الطويل بين العرب والبربر لاتوجد إلا إشارات يسيرة عن دخول الأهالى فى

(١) زاهر رياض : مرجع سابق ، ص ٣٤.

الفترة الأولى أو الربع قرن الأول من القرن الأول الهجرى ٢٥هـ، وأن انتشار الإسلام لم يكن نتيجة محاولات وئيدة لكنها كانت جبارة؛ حيث اكتسح الإسلام صفوف البربر ودخل القوم فى دين الله أفواجاً بعد انتصار حسان بن النعمان الغسانى على الكاهنة، وعقد الصلح ودخل البربر الإسلام طوعاً لا كرهاً وساهموا فى القوات العربية الإسلامية الغازية بإثنى عشر ألف دخلوا فى الإسلام دفعة واحد [٢].

ولقد كان إنشاء مدينة القيروان من أهم الأحداث فى تاريخ انتشار الإسلام والثقافة العربية الإسلامية فى بلاد المغرب؛ حيث يعتبر إنشاء تلك المدينة بداية عهد جديد فى انتشار الإسلام بين المغاربة وبدأ ظهور الحضارة العربية المغربية؛ حيث أن مدينة القيروان كان يخرج منها الدعاة والفقهاء ورجال الدين الذين نذروا أنفسهم لينتشروا فى البلاد يعلمون الناس الدين الإسلامى ويحفظونهم القرآن الكريم ويدرسون اللغة العربية [٣].

بل إن الدعاة أخذوا على عاتقهم نشر الإسلام رسالة السماء دين الله الخالد إلى جهات مختلفة من أرض المغرب فانطلقت جماعة تتألف من خمسة أو ستة أشخاص إلى جهات مختلفة فى وقت واحد واعاشوا عيشة زهد وتقشف بين القبائل بل وصل بهم الأمر إلى العيش فى الكهوب وسرعان ما أثار ذلك العمل وتقشفهم وتعبدهم طوال الليل والنهار رجال القبائل فبادلوهم صداقة وودا، وتمكن الدعاة شيئاً فشيئا من الظفر بما أرادوا فأصبح فى كل قبيلة بربرية مركز للتعليم الإسلامى واجتمع حولهم طلاب العلم الذين أصبحوا بدورهم دعاة للإسلام بين أقوامهم [٤].

ورغم أنه لم تتح لعقبة بن نافع الفهرى الفرصة لإتمام ما بدأه فى نشر الإسلام بين القبائل البربرية وتنفيذ السياسة الحكومة التى وضعها غير أن سياسته فى نشر

(٢) ابن عذارى : مصدر سابق، جـ١، ص ٥٢.
(٣) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٩٣.
(4) Scott. A., History of the Moorish empire - Vo I. P. 127.

الإسلام بين القبائل أصبحت منهجاً لمن أعقبه من القواد والفاتحين لأنها أكثر السياسات ملاءمةَ لأحوال إفريقية، لذا .. فإننا نجد أنفسنا أنه عندما زحف خليفته أبو المهاجر دينار وطرق باب المغرب الأوسط واصطنع سياسة التحبب إلى القبائل المغربية فى البلاد ومسالمتها وترغيبها فى الإسلام لاقت تلك السياسة قبولاً لدى البربر فبدأوا يتدافقون للدخول فى رسالة الإسلام [٥].

وهكذا .. نرى أن العامل الحاسم فى قصة امتداد حركة المد الإسلامى وانتشارها ووصولها إلى المغرب الأقصى هو ذلك النجاح السريع الذى حققه الإسلام بالانتشار بين البربر فى إفريقية نفسها كقاعدة عسكرية لإتمام فتح البلاد، كذلك فإن السياسة الحكيمة التى سار عليها القادة العرب ولاسيما الجهود السياسية التى قام بها حسان بن النعمان الغسانى قد حققت الأهداف التى كان يسعى إليها العرب فى امتداد حركة الانتشار الإسلامى الواسع وامتداد الثقافة كمركز من مراكز انتشار الإسلام فى بقية أنحاء المغرب وغيرها من أقطار المغرب [٦].

بل الأكثر من ذلك فإن المغرب العربى قد بدأ مغايراً لغيره من الأقطار الأخرى المفتوحة فى انتشار الإسلام واللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية بشكل لايوجد فى وطن من الأوطان التى فتحت حيث أننا نجد أنه رغم المقاومة الجبارة التى قاومها البربر للفتح العربى والتى امتدت مدة أطول مما امتدت فى أى قطر آخر قد تم فتحه (أكثر من سبعين عاماً) إلا أن النتيجة كانت سرعة انتشار العقيدة الإسلامية واعتزازه بالإسلام والعروبة واقباله على الإسلام ولغته العربية الغراء، بل أصبح أكثر أجزاء الدولة الإسلامية تمسكاً بعلاقته بالدولة الإسلامية وتقبلاً للغة العربية الخالدة وللدين الإسلامى [٧].

(٥) المالكى : رياض النفس، ص ٢٠.
(٦) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، ص ٢٦٠.
(٧) محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير، جـ٢، ص ٨١.

ولقد كان من الطبيعى ألا تنجح الجهود العديدة التى بذلت لإدخال هذه البلاد فى نطاق السيادة العربية إلا باستخدام السياسة الحكيمة التى سار عليها حسان بن النعمان، حتى إذ جاء موسى بن نصير إلى المغرب الأقصى يريد أن يترسم خطة عقبة بن نافع مع تطبيقه لمبادئ حسان كتب له النجاح والتوفيق فى مهمته وهو نجاح لم يتوافر لعقبة من قبل؛ حيث أن موسى بن نصير لم يكن معلماً سياسياً بل كان داعية إسلامية وفى نفس الوقت فقد قرب إليه البربر وحببهم فى الحكومة الجديدة وولاهم الأعمال وأشركهم مع العرب فى إدارة دفة البلاد فوجدوا أن انضمامهم للعرب وتحالفهم يتيح لهم فرصا أكثر لمعرفة الإسلام فبدأوا يقبلون على الإسلام إقبالاً عظيماً.

ولهذا نجد موسى بن نصير لم يكن يرى أن يكون إقبال البربر على الإسلام عن خوف أو رهبة أو غصبا أو كرها بل لابد أن يكون عن اقناع ورغبة ومودة وحب للدين الإسلامى الجديد وللغة العربية الغراء ولقومه الذين كان سلوكهم الإسلامى ودورهم فى الاقتداء من الأسباب التى حببت البربر فى الإسلام، ومن هنا أخذ موسى ينشر المساجد فى البلاد التى فتحها فأنشأ مسجداً فى مدينة أغمارة فى أقصى بلاد المغرب وبدأت الثقافة العربية الإسلامية تثبت فى هذه البيئة التى تم فتحها قريباً وعلى هذا .. فإننا نرى أن بربر المغرب الأقصى الذين دخلوا فى الإسلام حديثاً كانوا هم عدة هذا الفتح الإسلامى الكبير فى الأندلس وطارق بن زياد وقومه وأقرانه من قادة الفتح الإسلامى فى الأندلس أكبر دليل ثابت على مدى انتشار الإسلام وعمق العقيدة الإسلامية فى صفوف البربر أهل البلاد الأصليين الذين شاركوا فى كل مجد إسلامى [٨].

وفى حقيقة الأمر فإنه ما كاد القرن الثانى الهجرى، الثامن الميلادى ينتصف حتى كان الإسلام قد استقر فى بلاد المغرب استقراره الأبدى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إذ كان دخول البربر فيه أفواجاً واندماجهم فى الحياة. ومن هنا .. فقد

(٨) حسن محمود : قيام دولة المرابطين، ص ٦٤، ص ٦٥.

اكتسبت الثقافة العربية الإسلامية طابعها الخالد بين شعب المغرب، ولم يكن ذلك ليتحقق فى تلك الفترة الزمنية القليلة لولال جهود الدعاة الأوائل واستجابة أبناء الشعب المغربى للدعوة الإسلامية، وإذ كان البربر قد قاموا الفتح العربى فترة طويلة تزيد عن أى فترة فتح إسلامى لأى قطر آخر، إلا أن انتشار العقيدة العربية واللسان العربى والثقافة العربية قد عوض الفتح الإسلامى الطويل إذ أن اعتزاز المغاربة بعروبتهم وإسلامهم ولغتهم يفوق العديد من الأقطار الإسلامية المفتوحة، وذلك لأن ذلك الانتشار للإسلام والعروبة قد ساعده على ذلك أنه لم تكن فى بلاد المغرب عقيدة أو ديانة بالمعنى الواضح، بل أن المسيحية لم تكن تتجاوز المدن الساحلية والسهل الساحلى؛ حيث أن نفوذ الرومان لم يكن يتخطى هذه الأماكن، ومن هنا .. فإن نطاق المغرب الداخلى حيث قبائل البربر البتر ظل خارجاً عن نفوذ الكنيسة الإفريقية من ناحية أخرى، ولم يصل دور الكنيسة إلى البربر القاطنة فى المناطق الداخلية [٩] حيث أن تلك القبائل لم تتشرب حضارة الرومان وثقافتهم وديانتهم وأنها كانت تقف من الدولة الرومانية موقف العداء الصريح، بل أكثر من ذلك .. فإن غارات البربر سكان المناطق الداخلية أو ما أطلق عليه الكتاب البربر الوثنيين كانت من الكثرة بحيث أنها كانت تهدد دائماً مناطق الساحل؛ حيث الاستقرار والحصون ومناطق النفوذ البيزنطى بالإغارات المستمرة والدائمة، والتى كانت تعوق دون انتشار حركة المسيحية إلى داخل البلاد [١٠] ومن هنا كان تقبل البربر البتر للإسلام أكثر من البرانس (البتر بربر الكاهنة، البرانس بربر كسيلة) لأنهم فى المناطق الداخلية كانوا على الوثنية، وكذلك شأن غالبية شعوب المغرب وقبائله، وهكذا .. فإنه يمكن القول أن المسيحية فى المغرب وهذا حالها لم تستطع أن تقف من حركة المد الإسلامى وقفة تدانى موقف المسيحية فى مصر ومن هنا .. فإن كنيسة المغرب إن وجدت كنائس بالمعنى الواضح فيما عدا مدن الساحل

(٩) أرنولد توماس : الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، ص ١٤٥.
(10) Marcais, G. : Les Arabes en berberie. P. 42.

كبرقة وطرابلس وقرطاجة فإنها قد تلاشت نهائياً؛ بحيث لم يعد لها وجود على أرض المغرب حالياً وإن كانت فترة دراستنا لا تنكر إنه كان يوجد بعض الأساقفة، بل أن فى القرن السادس أو الخامس الهجرى لم يكن هناك فى أرض المغرب غير أسقف واحد هو أسقف مراكش، وهكذا لم يبقى للمسيحية أدنى وجود فى المغرب إلا بقايا، أطلال الكنائس المهدمة التى لم يجد من يؤمها أو يدخلها (١١) وبهذا اندثرت المسيحية سريعاً فى أرض المغرب وأصبح المغرب العربى إسلامياً عربياً ١٠٠ ٪ ولقد كان ذلك نتيجة للإندماج الكلى الذى تم بين العرب والبربر والتى ظلت تعمل فى صمت وهدوء حتى انتهت إلى ما انتهت إليه من نتيجة إسلامية خالصة (١٢).

وهكذا .. صحب تحول البربر إلى الإسلام تحولهم إلى العروبة؛ بحيث أصبحت هذه اللغة هى لغة الحياة اليومية وأخذت الثقافة العربية فى شتى صورها تنتشر على نطاق واسع، وهذا أمر طبيعى إذ يكفى أن تكون اللغة العربية أداة هذا الدين ولغة الكتابة حتى يقبل البربر على تعلمها ليقرأوا بها كتاب الله القويم كما أنزله المولى عز وجل على خاتم الأنبياء والمرسلين ولكى يقرأوا بها العبادات التى شرعها الله وأن يتصلوا بالمصادر الإسلامية الأساسية لديهم يضاف إلى ذلك أن اللغة الإغريقية أو اللاتينيةلم تكن واسعة الإنتشار بين البربر ومن هنا اختفت اللغتان اليونانية واللاتينية اختفاءاً تاماً كأنما لم يكونا يوماً من الأيام لغة بعض أهل هذه البلاد كما اختفت تماماً الديانات القديمة إن وجدت (١٣).

ولقد زاد إقبال البربر على اللغة العربية ووجودا فيها أداة طبيعيةتمكنهم من التفاهم فيما بينهم وبين إخوانهم العرب الذين اختلطوا بهم واندمجوا جميعاً فى حياة واحدة مشتركة، وهكذا كانت اللغة العربية المكتوبة تمكنهم من تسجيل تراثهم وهكذا

(١١) توماس : سباق، ص ١٤٦.
(١٢) زاهر رياض : مرجع سابق، ص ٣٦.
(١٣) محمد محمد أمين : مرجع سابق، ص ٦٦.

كان إقبال البربر على اللغة العربية شديداً يدل على ذلك ما ترويه كتب الطبقات من رحيل الكثير من علماء المغرب فى القرن الثانى الهجرى؛ حيث نهاية بحثنا إلى بلاد المشرق العربى للاستزادة من مباحث العلم والتمكن من فهم منابع الإسلام وجذوره والتمكن من اللغة العربية بدراسة النحو والصرف والعروض والبلاغة وعلوم البيان وهكذا ظهرت فى خلال ذلك القرن فئة تكتب بالعربية وتؤلف بها.

وهكذا .. لم يكن ضعف المسيحية فى بلاد المغرب من الأسباب السريعة لانتشار الإسلام واللغة العربية الغراء، بل إن الانتشار السريع للإسلام فى بلاد المغرب كان من أسبابه طبيعة سكان البلاد الأصليين؛ حيث كان بربر البرانس ينزلون السهل الساحلى الذى يقع بين الجبال والبحر وهؤلاء كانوا أقل عدداً من بربر البتر سكان الداخل؛ حيث كانوا ينتشرون على طول الجبال الممتدة من الشرق إلى الغرب فى السفوح المزروعة والنواحى الحصينة المحيطة بجبال الأوراس وينتشرون فى طنجة. أما فى الجنوب حيث البربر البتر فقد كانوا يعيشون فى سلسلة من الوديان العالية والهضاب المرتفعة والبيئات الرعوية أو شبه الرعوية التى تمتد امتداداً متصلاً من طرابلس إلى المغرب الأقصى وكان سكان تلك المناطق من القبائل البدوية (١٤).

وعلى هذا .. فإن تلك القبائل الأخيرة قد رأت فى الفتح العربى الإسلامى منفذاً وملاذاً لها؛ حيث أن ذلك الفتح يقرر مصير المغرب ومن هنا نجد أنهم ألقوا بثقلهم فى حركة المد الإسلامى وأيدوها من أول مرة لاسيما بعد مقتل الكاهنة وانضمام أبنائها إلى قوات حسان بن النعمان، ومن هنا كانوا عدة العرب فى رحلتهم وطليعة جندهم وأعانوهم فى نضالهم ضد الرومان وأشهر من أيد العرب فى حركة الفتوح هذه القبائل البربرية البدوية البترية قبيلة لواتة ونفوسة وزناتكة ونغرواة، وهوارة (١٥) وذلك لأن هذه القبائل كانت تحصل على حقها المشروع فى العطاء فى كل غزو ولها نصيب مثل ما

(١٤) حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى إفريقية، ص ١٥٧، ص ١٥٨.

يكون للعربى.

وبهذا بدأ الإسلام ينتشر بين القبائل من البربر تدفعهم إليه عداوتهم للروم وحبهم للعرب ولم تعد تلك العبادات والتقاليد الوثنية منذ البداية لتصمد أمام تيار الدين الإسلامى الزاحف فى قوة إيمانية وصلابة قرآنية وتحدى رجاله لكل المخاطر والصعاب، ومن هنا ذاع الإسلام وذاعت معه اللغة العربية التى كان يتوقف انتشارها على كثافة الهجرة العربية وانتشار حركة تدريسها، ومقاومة اللغة البربرية التى ظلت بلهجاتها المتعددة لغة تخاطب بعض سكان المغرب (١٦) ويمكن القول بأن هذه اللغة تظهر بصور ضئية ابتداءً من واحة سيوة ثم تزداد انتشاراً كلما اتجهنا غرباً وجنوباً وذلك نتيجة طبيعية لوجود مناطق جبلية منعزلة، ولشدة تماسك القبيلة ولكن يضعف مقاومة هذه اللغة عدم وجود تراث عريق لها فنجد مثلاً فى ليبيا لايزيد عدد المتكلمين باللهجات البربرية عن ٢ ٪ من سكان البلاد كلها، وفى تونس يوجد قطر يمتاز بثقافته العربية، وليس فيه بقية من اللهجات البربرية إلا فى الأطراف الشمالية الغربية، أما فى الجزائر .. فإن نسبة المتحدثين باللهجات البربرية لا يزيد عن ٦ ٪ من سكان البلاد كلها وأكثرهم فى الجهات الجبلية المنعزلة وفى المملكة المغربية نجد نسبة المتحدثين باللهجات البربرية يقرب من ١٥ ٪ من مجموع سكان البلاد وارتفاع نسبة المتحدثين بالبربرية فى مراكش يعود إلى وجود أقاليم جبلية حتى جبال أطلس التى تمثل مساحات واسعة منعزلة (١٧).

ولقد أدى إلى تلك النسبة الضئيلة من اللهجات البربرية الباقية فى بلاد المغرب، أن البربر اعتبروا منذ بداية دخولهم الإسلام أن اللغة العربية هى لغتهم الوحيدة المكتوبة، وهى لا تستخدم للشعائر الدينية فحسب بل للتعبير عن الثقافة الوطنية أيضاً، ولذا .. لم تتردد الأسر البربرية التى حكمت المغرب أن تصطنع اللغة العربية لغة رسمية

(١٥) ابن عذارى : مصدر سابق، جـ١، ص ٢٧.
(١٦) محمد محمد أمين : مرجع سابق، ص ٦٧.
(١٧) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الإفريقية، ص ٢٣٩، ص ٢٤٠.

لها وتشجع الشعراء والكتاب العرب، بل أن الكتاب العرب فى هذه الدول كانوا يتنافسون مع كتاب المشرق فى التفنين فى الكتابة الديوانية.

ولذا .. كان الدافع إلى الانتشار السريع للإسلام والعروبة على أرض المغرب وسرعة إقبال الناس عليهما إذ رأوا انهيار المقاومة البيزنطية بسرعة مذهلة، ودكت حصونهم أمام صلابة إيمان المسلمين وكذلك انبساط النفوذ الإسلامى العربى على كل البلاد فلم يشأ فريق من أهل المغرب أن يتخلف عن ركب الدخول فى الإسلام فبدأوا بدورهم بدخلون الإسلام أسوة بكل الذين سبقوهم إليه من هنا فقد وضح أمام البربر ما ينطوى عليه الإسلام من تعاليم سامية وقيم خالدة وأخوة ومساواة مع الفاتحين العرب وما يحققوه من هذا التكافل الاجتماعى والتعايش الاجتماعى ومن هنا كانت سرعة المد الإسلامى إلى كل أطراف المغرب، وكما أن الإسلام لم يعتبر العرب حكاماً والبربر محكومين إنما ساوى بينهم فى الحقوق والواجبات كما أن العرب اعتبروا أرض المغرب مفتوحة صلحاً لا عنوة رغم طول فترة الفتح وما لاقاه العرب من صعوبات فى طريق الفتح وأقر البربر على ما بيدهم من أموال وأرض ومتاع (١٨) وكان من سياسة الدخول المكثف للبربر فى الإسلام أن الدولة الإسلامية لم تتصل فى بلاد المغرب بالذات سياسة استعلاء العرب والاعتزاز بعروبتهم وبأنهم حملة الإسلام على أهالى البلاد. كذلك ساوت فى تولية المناصب بين العرب والبربر ومن هنا كانت سياسة المساواة بُعداً له مآثره العظيمة فى انتشار الإسلام على نطاق واسع بين البربر بل بسرعة مذهلة أذهلت كل الذين تابعوا تطور الإسلام بهذه الصورة الواضحة المعالم على أرض المغرب وكانت هذه السياسة هى التى جرت عليها الدولة طوال فترة القرنين الأول والثانى الهجرى.

كذلك .. فإنه مما ساعد على هذه المساواة هو وحدة النظام الاجتماعى بين

(١٨) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٥٩.

يكون للعربى.

وبهذا بدأ الإسلام ينتشر بين القبائل من البربر تدفعهم إليه عداوتهم للروم وحبهم للعرب ولم تعد تلك العبادات والتقاليد الوثنية منذ البداية لتصمد أمام تيار الدين الإسلامى الزاحف فى قوة إيمانية وصلابة قرآنية وتحدى رجاله لكل المخاطر والصعاب، ومن هنا ذاع الإسلام وذاعت معه اللغة العربية التى كان يتوقف انتشارها على كثافة الهجرة العربية وانتشار حركة تدريسها، ومقاومة اللغة البربرية التى ظلت بلهجاتها المتعددة لغة تخاطب بعض سكان المغرب (١٦) ويمكن القول بأن هذه اللغة تظهر بصور ضئيلة ابتداءً من واحة سيوة ثم تزداد انتشاراً كلما اتجهنا غرباً وجنوباً وذلك نتيجة طبيعية لوجود مناطق جبلية منعزلة، ولشدة تماسك القبيلة ولكن يضعف مقاومة هذه اللغة عدم وجود تراث عريق لها فنجد مثلاً فى ليبيا لايزيد عدد المتكلمين باللهجات البربرية عن ٢ ٪ من سكان البلاد كلها، وفى تونس يوجد قطر يمتاز بثقافته العربية، وليس فيه بقية من اللهجات البربرية إلا فى الأطراف الشمالية الغربية، أما فى الجزائر .. فإن نسبة المتحدثين باللهجات البربرية لا يزيد عن ٦ ٪ من سكان البلاد كلها وأكثرهم فى الجهات الجبلية المنعزلة وفى المملكة المغربية نجد نسبة المتحدثين باللهجات البربرية يقرب من ١٥ ٪ من مجموع سكان البلاد وارتفاع نسبة المتحدثين بالبربرية فى مراكش يعود إلى وجود أقاليم جبلية حتى جبال أطلس التى تمثل مساحات واسعة منعزلة (١٧).

ولقد أدى إلى تلك النسبة الضئيلة من اللهجات البربرية الباقية فى بلاد المغرب، أن البربر اعتبروا منذ بداية دخولهم الإسلام أن اللغة العربية هى لغتهم الوحيدة المكتوبة، وهى لا تستخدم للشعائر الدينية فحسب بل للتعبير عن الثقافة الوطنية أيضاً، ولذا .. لم تتردد الأسر البربرية التى حكمت المغرب أن تصطنع اللغة العربية لغة رسمية

(١٥) ابن عذارى : مصدر سابق، جـ١، ص ٢٧.
(١٦) محمد محمد أمين : مرجع سابق، ص ٦٧.
(١٧) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الإفريقية، ص ٢٣٩، ص ٢٤٠.

لها وتشجع الشعراء والكتاب العرب، بل أن الكتاب العرب فى هذه الدول كانوا يتنافسون مع كتاب المشرق فى التفنين فى الكتابة الديوانية.

ولذا .. كان الدافع إلى الانتشار السريع للإسلام والعروبة على أرض المغرب وسرعة إقبال الناس عليهما إذ رأوا انهيار المقاومة البيزنطية بسرعة مذهلة، ودكت حصونهم أمام صلابة إيمان المسلمين وكذلك انبساط النفوذ الإسلامى العربى على كل البلاد فلم يشأ فريق من أهل المغرب أن يتخلف عن ركب الدخول فى الإسلام فبدأوا بدورهم بدخلون الإسلام أسوة بكل الذين سبقوهم إليه من هنا فقد وضح أمام البربر ما ينطوى عليه الإسلام من تعاليم سامية وقيم خالدة وأخوة ومساواة مع الفاتحين العرب وما يحققوه من هذا التكافل الاجتماعى والتعايش الاجتماعى ومن هنا كانت سرعة المد الإسلامى إلى كل أطراف المغرب، وكما أن الإسلام لم يعتبر العرب حكاماً والبربر محكومين إنما ساوى بينهم فى الحقوق والواجبات كما أن العرب اعتبروا أرض المغرب مفتوحة صلحاً لا عنوة رغم طول فترة الفتح وما لاقاه العرب من صعوبات فى طريق الفتح وأقر البربر على ما بيدهم من أموال وأرض ومتاع (١٨) وكان من سياسة الدخول المكثف للبربر فى الإسلام أن الدولة الإسلامية لم تتصل فى بلاد المغرب بالذات سياسة استعلاء العرب والاعتزاز بعروبتهم وبأنهم حملة الإسلام على أهالى البلاد. كذلك ساوت فى تولية المناصب بين العرب والبربر ومن هنا كانت سياسة المساواة بُعداً له مآثره العظيمة فى انتشار الإسلام على نطاق واسع بين البربر بل بسرعة مذهلة أذهلت كل الذين تابعوا تطور الإسلام بهذه الصورة الواضحة المعالم على أرض المغرب وكانت هذه السياسة هى التى جرت عليها الدولة طوال فترة القرنين الأول والثانى الهجرى.

كذلك .. فإنه مما ساعد على هذه المساواة هو وحدة النظام الاجتماعى بين

(١٨) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٥٩.

العربى والبربرى فقد وجدت القوات العربية فى بلاد المغرب قبائل بدوية تعيش فى صحراء ووهاد لاتكاد تختلف كثيراً عن صحراء العرب ووهادهم بل إن البربر يعيشون معيشة قبلية كعيشتهم يزاولون كثيراً من الرعى وقليلاً من الزراعة، كما كان يفعل العرب فى بلادهم، ولقد كان ذلك التقارب الاجتماعى بل التشابه فى أطر الحياة المختلفة من الأسباب الرئيسية التى أدت إلى قيام وحدة اندماجية بين القادمين وأهل البلاد الأصليين [١٩].

وهكذا .. أدرك البربر أن اندماجهم وتحالفهم مع العرب لايفقدهم أدنى شىء من شخصيتهم وممتلكاتهم مما كان له أثر نفسى بعيد فى دفع البربر نحو الإسلام؛ حيث أن قادة الفتح العرب ميزوا أبناء البربر على سائر أهل المغرب فاعتبروا غير البربر ممن سكن تلك الديار سواء كان من الروم أو غيرهم لا يتساوى مع البربر، وهكذا .. وجد البربر الذين كانوا مستعبدين للروم بالأمس أنفسهم أرفع شأناً فى مساواتهم، وهكذا اختفى العنصر الرومى والإغريقى وغيرهم من البلاد شيئاً فشيئا حتى انعدمت آثارهم من البلاد تقريباً وأدت تلك السياسة إلى أن يهضم الشعب المغربى حضارة الإسلام وأخذ يتدرج فى الأخذ بها حتى غدا شعباً عربياً إسلامياً خالصاً تقياً كل التقاء من كل أثر الماضى التى كان الحكم البيزنطى قد تركها على الساحل وعلى هذا كان انتشار الإسلام يسير جنباً مع جنب مع انتشار اللغة العربية مما ساعد على الأخذ بأساليب الحضارة الإسلامية [٢٠].

كذلك كانت حركة فتح المغرب لها آثار بعيدة المدى فى نشر الإسلام بين البربر فقد كان ذلك الانتصار السريع الحاسم الذى أحرزه العرب على سكان شبه جزيرة أيبريا وقواتها حافزاً لمن تخلف من البربر المسلمين إلى عبور البحر والمضيق

(١٩) الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ، ص ١٨٤.
(٢٠) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، ص ٥٧٨.

للاشتراك فى الحرب والمساهمة فى حركة الجهاد الإسلامى والقتال من أجل رفع لواء الإسلام وذلك حتى يتاح لهم الإلتحاق بمن سيقوم فى ذلك المضمار، وهكذا .. كان فتح الأندلس معجلاً بإسلام البربر فقد حاربوا مع إخوانهم العرب جنباً إلى جنب واختلطوا بها وعاشروهم وعايشوهم وأفادوا منهم عمقاً فى العقيدة، وفهماً للغة العربية وهضماً للثقافة العربية الإسلامية [٢١].

كذلك ساعدت حركة الهجرة العربية الواسعة طوال القرنين الهجريين بدءا من عام ٢٣هـ/٦٤٣م؛ حيث بدأت القبائل العربية تزحف فى المنطقة الواقعة ما بين برقة شرقاً وطرابلس غرباً ثم امتدت حركة الهجرة فيما بعد ٩٥هـ إلى كل أنحاء المغرب شمالاً وجنوباً ووسطاً وغرباً لكى تسكن تلك الأقاليم الواسعة المفتوحة، والتى تتناسب مع حياة العرب والذين وجدوا تآلفاً ومحبة من إخوانهم البربر (عرب ما قبل الفتح)، وقد أخذت حركة الهجرة العربية التى كانت أهم عامل بل هى العامل الأساسى فى صبغ المغرب بالصبغة العربية الإسلامية أبعاداً مختلفة فى مسار حركة الهجرة منذ أن اختار المولى عز وجل رسوله ﷺ إلى جواره وصعود روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى فقد بادر بعض الأنصار بالهجرة من الجزيرة العربية مباشرةً بعد فشلهم فس سفيفة بين ساعده ثم ما تلى من أمور فى عهد الخلفاء الراشدين، ثم بعد ذلك فى الفتنة الكبرى بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ثم بعد ثورة عبد الله بن الزبير وغيرها من الأمور التى تعاقبت بعد سقوط الدولة الأموية ١٣٢هـ/٧٥٠م، ولعل أوضح الأمثلة على حركة الهجرة الجماعية تلك الهجرة التى قامت بها قبيلة كليب والتى كانت قد تورطت فى التضامن مع بنى أمية، وما كاد العباسيون تظهر دولتهم حتى قام زعماؤها يبايعون الخوارج وينصرونهم فى جنوبى تونس وطرابلس حتى ظهرت الدولة الرستمية الأباضية الخارجية ١٦٤هـ/٧٨١م [٢٢]؛ حيث ظهرت تلك الدولة فى مدينة تاهرت

(٢١) حسين مؤنس : فجر الأندلس، ص ٣٨.

بالمغرب الأوسط.

وقد عمل الخلفاء والولاة على تشجيع هذه الهجرات العربية فإذا كانت هذه القبائل تؤيد وتساند وتعاضد الخلافة، ومع قبائل أحلافها فإن الخلفاء يقومون بإسكانها الثغور لكى تكون تلك القبائل عدة لهم على مراقبة الأعداء كما بعث الخلافاء العباسيون ومن قبلهم الأمويون بالجيوش العربية التى كانت تصحبها حركة واسعة للقبائل للقضاء على الثورات التى كانت تقوم فى أنحاء المغرب، كما حدث فى عهد أبو جعفر المنصور؛ حيث بعث واليه على مصر «محمد بن الأشعث» لكى يقاتل الخوارج بقيادة «الخطاب بن عبد الأعلى بن السمح المعافرى» (٢٣).

وهكذا نرى أنه لم ينفرد بالاهتمام ببلاد المغرب لنشر لواء الإسلام والعروبة بين أرجاءه الواسعة حكام تلك الأقاليم المغربية، بل اهتم بهذا القطر الخلفاء أنفسهم سواء أكانوا خلفاء أمويين بدءاً من «معاوية بن أبى سفيان»، نهاية «محمد بن مروان» وكذلك الخلفاء العباسيين بدءاً بالخليفة أبو جعفر المنصور، وغيرهم من الخلفاء، حيث أن اهتمام الخلفاء كان ينصب أساساً على أن يكون دفعاً لحركة المد الإسلامى إلى الإمام خصوصاً الخليفة الأموى (أو الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز ٩٩-١٠١هـ) الذى كان يريد أن يزيد الإسلام انتشاراً فى بلاد المغرب وأن يثبته ويعممه فى قلوب البربر، لذا .. نراه يختار «إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر» لكى يرسله عام ١٠٠هـ إلى بلاد البربر ليدعو من بقى منهم إلى دين الإسلام ولم يكن إسماعيل وحده بل صحبه عشرة من أكبر رجال الدين الإسلامى فى ذلك العصر إلى المغرب (٢٤).

---

(٢٢) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير، جـ٢، ص ٤٦٥.
(٢٣) زاهر رياض : مرجع سابق، ص ٤١.
(٢٤) أحمد شلبى : مرجع سابق، ص ٧٣.

وكان ذلك دافعاً لكى يدفع البربر ويقبلون أفواجاً على الدين الإسلامى الحنيف ولم يكن إسماعيل هذا عاملاً للخليفة عمر بن عبد العزيز على بلاد المغرب، بل كان من أكبر رجال الدعوة الإسلامية فى ذلك الوقت حيث دعا إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن والحجة القوية الأدلة الدامغة والإقناع والدعوة السلمية وكان نهجه أنك لا تهدى من أحببت، ولكن الله يهدى من يشاء ومن هنا .. فإن المؤرخين يجمعون على أن الفضل كل الفضل فى انتشار الإسلام وتعميق المفاهيم الإسلامية، فى نفوس البربر يعود إلى ما قام به إسماعيل بن عبد الله ابن أبى المهاجر بن دينار حيث قام بإتمام ما بدأه أسلافه (٢٥).

ومن ثم زيادة فى ازدياد حركة المد الإسلامى فإننا نجد الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم يعمل من جانب الدول الإسلامية على أن تكون وظيفة الولاه الهداية وليست الجباية.

ومن هنا أخذ يزاول نشاطه فى إرسال المزيد من التابعين الذين انتشروا بين البربر وأخذوا يعلمون الناس أصول الدين الإسلامى والقواعد الشرعية وأحكام الفقه وغيره من المسائل التى تساعد على تعميق المفاهيم الدينية وكذلك التبصير بقواعده وأصوله ولقد أقام كثيرون من هؤلاء التابعين بمدينة القيروان وانتشر غيرهم فى الكثير من المدن المغربية وأقاموا المساجد وجعلوا هذه المساجد قلاعاً للعلم والمعرفة وتدريس العلوم الإسلامية ومن هنا باتت المساجد مقصد كل بربرى يريد الاستزادة فى فهم العلوم اسلامياً جنساً وديناً ولغة وتراثاً.

وهكذا .. أخذ عن هؤلاء التابعين الذين أرسلوا من مصر أولاً وبلاد الشام ثانياً يزداد عددهم ويكثر قدومهم إلى بلاد المغرب، فإذا تعلم فريق من أهل البلاد الأصليين وقضوا بعض الوقت فى الدراسة فى القيروان فإنهم كانوا يعودون إلى أقاليمهم وبلادهم لمتابعة تأدية الرسالة فيتولون وظائف الإمامة والقضاء ويعملون بدورهم على نشر الإسلام

---

(٢٥) الدباغ : معالم الإيمان، جـ١، ص ١٥٤.

وثقافته العربية الإسلامية (٢٦) وعلى هذا فإنه يمكن القول بمنتهى الصراحة والوضوح أنه لم ينقضى النصف الأخير من القرن الثانى الهجرى إلا والمغرب العربى يعيش فى ظلال القرآن وتحت راية الإسلام وهكذا عد المغرب قطراً عربياً إسلامياً جنساً وديناً ولغة وتراثاً.

ونقول حقيقة أن الإسلام كان ينتشر فى بلاد المغرب منذ الأيام الأولى لدخول المسلمين وخاصة عندما شاهد البربر عقبة بن نافع الفهرى وهو ينشئ مدينة القيروان فتأثروا بشخصيته الدينية المجاهدة بل والمتصوفة ربما كان يظهره من البذل والتفانى والجهاد فى سبيل الإسلام فدخلت منذ ذلك التاريخ ٥٥هـ الإسلام وأسلم العديد على يديه وانضمت إلى قوات الإسلام ولقد كان إسلام قبائل البرانس فى تلك الفترة التاريخية المتقدمة وهم البربر الذين كانت المسيحية يؤمن بها بعض الأفراد منهم لاسيما نطاق الساحل وهكذا كان إسلام قبيلة «أوربة» البرانسية يعتبر حدثاً تاريخياً هاماً فى تاريخ إسلام المغرب حيث كانت هذه أول مرة فى تاريخ المغرب تدخل فيه قبيلة برانسية كبيرة فى الإسلام (٢٧).

هذه عوامل هامة من عوامل انتشار الإسلام فى أرض المغرب، وهكذا .. نرى كيف صبغت تلك العوامل وجه المغرب بالصبغة العربية الإسلامية، إضافة إلى أن حركة القبائل العربية المستمرة كانت تؤدى دورها فى إكساب ذلك الوجه الملامح الحقيقية للصبغة الإسلامية العربية لاسيما عندما كانت تهاجر إلى تلك الأقاليم قبيلة أو قبائل عربية قوية أو جيش عربى؛ حيث أنه لم يكن أفراد هذه الجيوش من ذوى العصبية والقوة والشكيمة؛ حيث نجد أن القوات كانت تسكن بعض أحياء المدن الإسلامية التى ذهبوا إليها لإقرار الأمن بها أو القضاء على أدنى تمرد حدث بها، ومن هنا تقرب إليهم سكان المغرب العربى واختلطوا بهم وصاهروهم وتزوجوا من رجالهم لبناتهم كى يكونوا فى حمايتهم وذمتهم (٢٨) . بل ليكونوا أسرة واحدة وشعباً واحد ليس للحماية وليس لأنهم اميون ولكن لأنهم كانوا قد اعتنقوا الإسلام.

(٢٧) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٣٨.
(٢٨) إبراهيم بيضون : مرجع سابق، ص ٢٥.

وهكذا شهد القرن الأول والثانى الهجرى تطوراً مماثلاً فى انتشار الإسلام؛ حيث صحب ذلك انتشار واسع للغة العربية ويخيل لنا من جراء الواقع العربى الإسلامى المعاصر أن اللغة العربية كانت أوسع انتشاراً فى بلاد المغرب دون أن بلد من بلاد المشرق الإسلامى، ذلك لأن اللغات الإغريقية (اليونانية) واللاتينية لم تكن واسعة الانتشار فى بلاد المغرب، بل إنها لم تكن تتعدى المناطق الساحلية، بل لعلها فيما يبدو كانت لغة السكان الذين يقطنون السواحل وغالبيتهم كانت من الروم أو اليونان وكذلك لغة الاستعمال الحكومى ولم تكن لغة التعامل اليومى. وأما غالبية البربر فقد كانوا أبعد من أن يتأثروا بهذه اللغة العربية الوافدة التى لم يتقبلها البربر، فقد بقيت تلك القبائل بعيدة عن التأثر بالحضارة الرومانية، ولم تكن لغة البربر غير المكتوبة تقوى على مغالبة اللغة العربية، وكما أقبل البربر على الإسلام أقبلوا على اللغة العربية ووجودا فيها أداة طبيعية تمكنهم من التفاهم معهم وفيما بينهم فقد تعددت لهجات البربر المحلية وتنوعت اشتقاقاتها ومخارجها وكانت اللغة العربية لغة مكتوبة يستطيع البربر من خلال الأخذ بها ودراستها وتعلمها أن يسجلوا عن طريقها تراثهم القومى والإسلامى وتاريخهم حيث كانت اللغة الوحيدة المكتوبة المنتشرة بينهم (٢٩).

لذا .. فإن البربر منذ دخولهم الإسلام واعتناقهم له واتخاذه عقيدة لهم يؤمنون برسالته أشد الإيمان، فإنهم اعتبروا أيضاً اللغة العربية لغتهم الوحيدة المكتوبة واعتزوا بها اعتزازهم بالإسلام لأنها لغة القرآن الكريم، بل أن حرصهم على اتخاذ العربية كلغة لهم كان حرصهم فى المحافظة على شرفهم (حركة التعريب فى الجزائر بعد الاستقلال) وعودة الوجه العربى الصافى إلى تلك الديار بعد عام ١٩٦٤م، بل إنها أصبحت لا تستخدم فى الشعائر الدينية فحسب بل أصبحت تستخدم للتعبير عن الثقافة الوطنية أيضاً، كذلك من العوامل التى ساعدت على نشر اللغة العربية كلمة حديث هجرات «بنى هلال وبنى سليم» الشهيرة فى تاريخ المغرب ومع التسليم بأن هذه

(29) Pellegerin. A., Histoire de la Tunise. P. 87.

الهجرات أضرت (كما يقول كتاب الغرب) بالمغرب العربى من حيث العمران فإنها لعبت دوراً كبيراً فى حركة التعريب فى المغرب (٣٠).

ومن ذلك كيف أرسل الفاطميون تلك القبائل العربية أيام حكم الخليفة الفاطمى المنتصر بالله لكى ينتقموا من بنى باديس الذين انفصلوا بسلطانهم عن الفاطميين بعد أن كانوا يعترفون بسلطانهم عليهم، وإذا كان بنو هلال وبنو سليم قد عاثوا فى المغرب خراباً وفسادا إلا أن الأمر انتهى بهم إلى سكنى بلاد المغرب لاسيما إفريقية (تونس) والمغرب الأوسط وتقرب إليهم الأهالى وصاهروهم على نحو ما صاهروا غيرهم من قبائل العرب (٣١).

(انظر الجزء الرابع من هذه الموسوعة به باب كبير عن بنى هلال وأثرهم الحضارى والثقافى والعمرانى والسلالى فى بلاد المغرب بأقسامه المختلفة).

وهكذا .. كان إقبال البربر على اللغة العربية إقبالاً لم يحدث له نظير فى كل البلاد العربية المفتوحة ويدل على ذلك ما ترويه كتب التراث العربى للطبقات عن رحيل العديد من أبناء المغرب إلى الفسطاط وغيرها من المدن المصرية الإسلامية التى كانت تعتبر مركز من مراكز العلم والمعرفة الإسلامية وذلك طلباً للعلم واستزادة منه وتعميق دراسة تلك اللغة كما أنهم رحلوا إلى بلاد المشرق الإسلامى الأخرى لنفس الغرض (٣٢) وعلى هذا فقد كانت حقبة القرنين الأول والثانى الهجريين حقبة النمو الفكرى والثقافى وبداية الازدهار الحضارى الإسلامى الذى ساد بلاد المغرب فى العصور الأخرى بدءاً من القرن الخامس أو الرابع الهجرى حيث كانت الجهود الأولى التى بذلت فى تثبيت دعائم اللغة العربية قد باتت تؤتى ثمارها المرجوة وبات المغرب العربى شهد ظهور العديد من العلماء والفقهاء ورجال الدين والدعاة ورجال اللغة

---

(٣٠) محمد محمد أمين : مرجع سابق، ص ٦٧.
(٣١) زاهر رياض : مرجع سابق، ص ٤١.
(٣٢) حورية عبده سلام : العلاقات بين مصر والمغرب، رسالة دكتوراه، غير منشورة، جامعة القاهرة، ص ٢٣.

العربية الذين أصبحوا يصارعون إخوانهم فى بلاد المشرق العربى، بل إن المغرب العربى أفرز العديد من العلماء ورجال الدين الذين ساهموا فى إثراء الحركة العربية الإسلامية العلمية بمختلف فروعها (٣٣).

وإنه بدراسة ما ورد من تراجم فى كتب طبقات فقهاء المغرب نجد أنه ظهرت خلال النصف الأول من القرن الثانى الهجرى فئات من المغاربة تؤلف وتكتب باللغة العربية، بل إننا نجد الرواية تتسلسل إلى الرعيل الأول من أهل البلاد الأصليين الذين يرعوا فى ثقافتهم فى المغرب وفهموها حق الفهم، وفى نفس الوقت الذى انتشر فيه الرسلام واللغة العربية كانت الثقافة العربية الأصلية التى بدأت تنتشر من مدرسة القيروان وغيرها من مدن أفريقية المختلفة وحدة سياسية شاملة فى ظل الخلفاء الراشدين وفى ظل حكم بنى أمية الذى استمر منذ بداية الفتح المغربى عام ٢٣هـ/٦٤٣م إلى نهاية عهد الدولة الأموية فى ١٣٢هـ/٧٥٠م.

كذلك كان من عوامل تلك الصبغة العربية الإسلامية على أرض المغرب فى القرنين الأولين الهجريين أن ساعدت على عوامل الاندماج بين العرب والبربر، ظهور حركة المرابطين أو المتطوعة من غير المحاربين والذين كانوا يقصدون الثغور للإقامة بها تطوعاً من أنفسهم للدفاع عن ديار الإسلام حيث كان يرى هؤلاء الأشخاص أن التطوع أو المرابطة فى الثغور هى زكاة عن النفس وعن قوة إيمان هؤلاء الأشخاص وقوة أبدانهم، كذلك فإنه كان هناك الكثير من أثرياء الدولة الأموية من لايتطوع بنفسه ولكن يدفع عن ماله الشىء الكثير مما يساعد على أن يقوم بنفقات فريق من هؤلاء المتطوعين سواء كان ذلك بالمال أو السلاح أو الطعام والثياب فقد ذكرت المصادر التاريخية والإسلامية أن أبناء الخليفة عمر بن عبد العزيز كانوا يدفعون كل عام ما يقوم بنفقات مائة فارس متطوعة لكى يغزوا بها المتطوعة الذين يرابطون فى الثغور سواء الثغور البرية أو البحرية، رداً على حركة المردة التى كان يرسلها البيزنطيين إلى الحدود

---

(٣٣) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٢٦٥.

الإسلامية، وكانت بلاد المغرب العربى أكثر تعرضاً لغزوات وخطر البيزنطيين وأكثر حرباً وأقلها للدولة الإسلامية، ولذا .. فإننا نجد أن تلك الأقطار كانت من أولى البلاد الإسلامية التى يكثر قصدها من المتطوعة الذين عاشوا فى ثغورها ومدنها المختلفة، لاسيما مدن الساحل الممتدة من حدود مصر غرباً حتى المحيط الأطلسى، وذلك للدفاع عنها ضد غزوات المغيرين البيزنطيين فى تلك الفترة التاريخية التى ندرسها (القرنين الأوليين الهجريين) ولقد كان هؤلاء المتطوعة وافناؤهم أنفسهم فى الدفاع عن دين الله والجهاد فى سبيله عامل قوة فى انتشار الإسلام، كما أن انتصارهم كان سبباً فى تقرب أهل البلاد منهم ومصاهرتهم إياهم لاسيما وأن جميع هؤلاء المتطوعين كانوا من الرجال ومن احتاج إلى المصاهرة والتزوج من البربر والاختلاط بهم [٣٤].

كذلك كان وصول العديد من الدعاة العرب الذين بعثت بهم الفرق الإسلامية المختلفة كالخوارج والشيعة الذين كانوا يدعون لمذاهب دينية وسياسية تختلف عن الخط السياسى للخلافة فقد وصل إلى بلاد المغرب كثير من دعاة الخوارج [٣٥] وظهر أثر دعوتهم سريعاً بعد انضمام البربر إليهم كما اتجه إليه دعاة المعتزلة وكانوا يعرفون فيما وراء إقليم تاهرت بالواصلة أى أصحاب واصل بن عطاء وكانوا يجتمعون فى مكان يعرف باسم الواصلية أو مجمع الواصلية، ولم يقصد شمال أفريقيا أيضاً هؤلاء الدعاة فقط بل قصدها أيضاً كثيراً من العلماء ومن تلقاء أنفسهم يقصدون تثقيف الناس فى أمور دينهم ودنياهم بل عمل كثير من الولاه على استقدام العلماء وأغدقوا عليهم الهبات كى يعملوا على نشر الإسلام بين طوائف البربر المختلفة.

فقد استقدم عقبة بن نافع وقبله عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبى سرج ومعاوية بن خديج العديد من العلماء والفقهاء لأداء هذا الدور التعليمى والتثقيفى لأبناء البربر، كما استقدم أبى المهاجر بن دينار وحسان بن النعمان الغسانى، وموسى

(٣٤) محمد على دبوز : مرجع سابق، جـ١ ، ص ٣٠٨.
(٣٥) الشهرستانى : الملك والنحل ، ص ٤١٠.

بن نصير من ولاة المغرب وكذلك شهد عهد عمر بن عبد العزيز توسعاً فى إرسال الدعاة ويذكر ابن خلدون [٣٦]. أن موسى بن نصير أرسل هؤلاء العلماء إلى المصامدة الذين كانوا يسكنون المغرب الأقصى لأجل نشر الإسلام وثقافته بينهم.

ولقد كانت النتيجة الطبيعية لهذا الاندماج بين العرب والبربر أن انتشرت اللغة العربية بين السكان من جميع أبناء البربر وكذلك انتشر الإسلام بين الوثنيين وكذلك بين من كانوا قد اعتنقوا المسيحية من البربر ولقد كان انتشار اللغة العربية أمراً طبيعياً منذ بداية الغزو العربى الإسلامى ٢٣هـ/٦٤٣م إذ كانت حركة المد الإسلامى والانتشار الإسلامى السريع دليلا على انتاشر اللغة العربية؛ حيث أنه كان طبيعياً أن يتعلمها الأهالى طالما هم فى احتياج إلى التعامل مع العرب ومعرفة أصول دينهم الإسلامى وهكذا كان اعتناق الإسلام بل أن مجرد الاختلاط فى الحياة العامة أولاً ثم فى أخوة السلاح بين العرب والبربر والدفاع عن البلاد ثانياً. كل ذلك قد كان من الأسباب القوية لدفع السكان البربر إلى تعلم اللغة العربية حديثاً وكتابة وتعاملاً وهكذا.. فإن اللغة العربية قد وصلت إلى كل قطاعات الشعب المغربى وصارت لغة أهل البادية بعد أن كانت قاصرة على سكان الأمصار، ورغم وجود نسبة قليلة لا زالت تتكلم اللغة البربرية فى مجتمعات معزولة كما سبق القول سابقاً لاتزيد ٢٪ فى ليبيا ٦٪ فى الجزائر، ١٥٪ فى المغرب إلا أنه ليس معنى ذلك أنهم يجهلون اللغة العربية ولكنهم يحتفظون باللغة البربرية، إلى وقت الحاجة فقط [٣٧] حين يضطرون إلى استخدام اللغة البربرية، كما يوجد بعض من يتحدثون اللغة النوبية فى بلاد النوبة فى مصر وليس معنى ذلك إلا انتشار اللغة العربية ١٠٠٪ بين جميع أبناء الشعب المغربى.

ويلاحظ أنه رغم اتفاق جميع الفرق الخارجية على معاداة الدولة الأموية .. فإنها لم توحد صفوفها ضد العدو المشترك، بل إنها كانت تتعرض إلى انقسامات داخلية

(٣٦) ابن خلدون : مصدر سابق، جـ٦ ، ص ٩٨.
(٣٧) زاهر رياض : مرجع سابق، ص ٤٣.

كما حدث بالنسبة للأزارقة والنجدات مما سبب ضعفهم والقضاء عليهم فنقل الخوارج نشاطهم إلى بلاد المغرب حيث نشروا مذهبهم بين الحانقين على السيادة العربية ولقد كان الخوارج باعتبارهم حزباً معادياً أشد وطأة وأكثر خطورة على الدولة من حزب الشيعة فقد استمرت ثوراتهم دون انقطاع فى مختلف أنحاء الدولة حتى فتت فى عضدها بما كانت تستنزفه من دماء وأموال من ناحية ونقلها من دعوة سرية ينظمها البيت العباسى للإطاحة بحكم الأمويين من ناحية أخرى [٣٨].

ولقد كان من عوامل هجرة رجال الفرق الإسلامية المختلفة أن انتشر منذ وقت مبكر مذهب الخوارج باعتبارها إحدث الفرق الإسلامية لذلك .. فإن حديثنا سوف يكون عند الخوارج فقط لأنهم ظهروا فى تلك الحقبة التاريخية التى ندرسها وهى منتصف القرن الثانى الهجرى؛ حيث كان الخوارج قد أصبحوا قوة فعالة فى عصر الدولة الأموية وكان الخوارج هؤلاء قد انهزموا فى قلب الدولة وقتل منهم الألوف على أيدى رجال من أمثال الحجاج بن يوسف الثقفى وغيرهم من قواد بنى أمية مما اضطرهم إلى الهجرة إلى الجهات البعيدة التى لا تدركهم فيه يد الدولة وسلطة رجالها فكان المغرب العربى من الأقطار التى وصلت إليها دعوة الخوارج أو المذهب الخارجى، والتى منها فرقة نافع بن الأزرق وفرقة عبد الله بن أباض؛ حيث كانت هاتان الفرقتان من أهم معالم انتشار المذهب الخارجى فى بلاد المغرب وإن كانت الطريقة الأزرقية قد لعبت دوراً فى أحداث المغرب (أفريقية) واستطاعت أن تسيطر فى بعض الفترات التاريخية على القيروان عاصمة أفريقية إلا أن ذلك لم يدم طويلاً إذ نجد الأباضية يهزمونهم ويخرجونهم من عاصمة البلاد، ولقد كانت الأباضية أكثر المذاهب الخارجية التى لاقت قبولاً لدى بعض الجماعات من بربر المغرب؛ حيث كان ذلك المذهب الوحيد الذى قدر له أن يعيش حتى أيامنا هذه فى بلاد المغرب وغيرها من بلاد العالم العربى والإسلامى حيث أن الأباضية قريبون من فهم الشريعة الإسلامية [٣٩].

(٣٨) محمد أمين صالح : العرب والإسلام، ص ٣٦١.
(٣٩) أحمد شلبى : مرجع سابق، جـ٢، ص ٢٦٢.

وقد لعب الخوارج دوراً فى تاريخ المغرب بقيام وظهور دولة لهم فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى (١٦٤هـ/٧٨١م؛ حيث قامت دولة من أكبر دول المغرب هى دولة عبد الرحمن بن رستم أو دولة الرستمية فى المغرب الأوسط، إضافة إلى أننا نجد فرقة أخرى من فرق الخوارج والتى مارست دورها فى المغرب إضافة إلى فرقة الأزارقة، والأباضية هى فرقة الخوارج الصفرية؛ حيث انتشرت تلك الفرقة فى قبيلة كبيرة من البربر تسمى ورفجومة؛ حيث كان يتزعمها (عاصم بن جميل) وهو زعيم الخوارج الصفرية واقتحم القيروان وأقام حكماً صفرياً فى ذلك البلد، بل إنه مما يؤكد احتقاره لمذهب السنة أنه دخل ورجاله بخيولهم إلى المسجد الجامع الكبير فى القيروان وربطوا خيلهم فيه، وهكذا .. نجد فى بعض الفترات التاريخية أن أفريقية (تونس) قد انتهى إلى أن تكون مركزاً من مراكز الخوارج الصفرية، بل أنه ليس هذا فقط بل أن الخوارج الأباضية أيضاً لعبوا دورهم قبل أن يفروا إلى المغرب الأوسط حتى يؤسسوا دولتهم إذ نجد أنهم عندما شاهدوا حالة الفوضى وعدم استقرار الأمن التى سادت القيروان فإنهم بعد أن كانوا قد سيطروا على جبل نفوسة وطرابلس فإنهم يحشدون جموعهم ليطردوا منها الخوارج الصفرية، وذلك بزعامة أحد رجالهم الخطاب بن عبد العلى بن السمح المعافرى والذى كان فى الأصل من قبيلة معافرة فى غرب اليمن ومن ثم انتقلت أفريقية مرة أخرى من أيدى الخوارج الصفرية إلى الخوارج الأباضية.

ولقد كانت كل هذه الحوادث قد أفرغت الدولة العباسية وهى فى مهدها فقام الخليفة العباس الأول أبو جعفر المنصور بإرسال واليه محمد بن الأشعث والى مصر بالتقدم غرباً إلى القيروان لإخراج الخوارج من المدينة، ومن ثم عادت أفريقية إلى مذهب السنة والجماعة، وتم قتل زعيم الخوارج [٤٠] وعودة أفريقية إلى المذهب السنى وهذا كان من أكبر العوامل التى ساعدت على انتشار المذهب المالكى فى كل بلاد

(٤٠) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٩.

المغرب العربى حيث أضحى هو المذهب السائد.

ومن هنا .. فإن أهم تطور حضارى رسلامى ثقافى شهدته بلاد المغرب فى تلك الفترة التاريخية التى نؤرخ لها هو انتشار مذهب الإمام مالك أو المذهب السنى المالكى من مدرسة القيروان وانتشاره فى الجزء الغربى من العالم الإسلامى كله بما فيه بلاد الأندلس بل عبور الصحراء الكبرى إلى بلاد غرب أفريقيا وكل منطقة السفانا حيث السودان الأوسط والشرقى والغربى حيث لايزال إلى اليوم هو المذهب الغالب على مسلمى تلك الأصقاع بل أنه هو العامل الموجه لثقافتهم وحضارتهم وحياتهم الاجتماعية، بل إن ظهور مذهب الإمام مالك فى بلاد المغرب لم يكن وليد عصر الأغالبة، إنما ذلك المذهب قد انتشر على نطاق واسع قبل قيام دولة الاغالبة بفترة طويلة (١٨٤هـ/٨٠٠م) غير أننا لانستطيع أن ننكر أن عصرهم شهد الانتصار النهائى لهذا المذهب سرعة انتشاره فى بلاد المغرب كلها [٤١].

وقد أضحى المذهب المالكى هو حصن السنة والجماعة فى بلاد المغرب حيث أن المذهب المالكى هو أحد المذاهب الأربعة الرئيسية فى الفقه الإسلامى وهو أولها ظهوراً فقد تولى مالك بن أنس، نشر هذا المذهب وأمام دار الهجرة ومذهبه قد أخذ به وذاعت تعاليمه قبل انتقال مالك بن أنس إلى جوار ربه عام ١٧٠هـ/٧٨٦م والأصول عند مالك فى ذلك المذهب هى القرآن الكريم والحديث الشريف والقياس وعمل أهل المدينة، وخلاصة ذلك المذهب أنه إذا عرضت له قضية حكم القرآن الكريم إذ وجد فيها معنا صريحاً، فإذا لم يجد نصاً صريحاً فى القرآن الكريم استعان بالحديث الشريف، فإذا لم يجد حديثاً نبوياً يفيده فى هذه القضية قاس الأمور على نظائرها فاستعان فى ذلك بما جرى عليه العمل عند أهل المدينة مما أقره رسول الله ﷺ ولهذا يسمى المذهب المالكى بمذهب الرأى وهو عندهم رأى الإمام مالك ويمتاز المذهب

(٤١) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٢٦٨.

بالوضوح والحسم والمنطقية فهو لايترك الإنسان محيراً بين آراء شتى[٤٢].

ويمتاز المذهب المالكى بنصه نصاً واضحاً على أهمية اجتماع الكلمة ووحدة المسلمين والمحافظة بصورة عامة على روح الأمة الإسلامية ولهذا السبب لقى هذا المذهب قبولاً واسعاً عند عامة الأمة الإسلامية وارتفع شأن الإمام مالك وأصبح نموذجاً لرجل الإيمان والعلم فى تاريخ الإسلام خاصة وإن كان رجلاً عزوفاً عن المناصب صارفاً جهده كله للعلم.

ولهذا .. فإننا نجد أن دخول المالكية إلى المغرب لايعتبر مجرد دخول مذهب فقهى وإنما هو دخول أسلوب حضارى فقد ارتفع مالك بن أنس بالعلم إلى مستوى اجتماعى بل سياسى جعل العلم رمزاً من رموز القوة والسلطان وقد وفد مذهب مالك بن أنس إلى القيروان من مصر كما وفدت المذاهب الإسلامية الأخرى من البلاد الإسلامية إلى المغرب ورحل كثير من المغاربة إلى مصر والحجاز طلباً للمزيد من أجل دراسة الفقه المالكى ومعرفة أصوله والأخذ به فى تحكيم أمور الدين فى مشاكلهم [٤٣].

وهكذا .. أقام العديد من العلماء المغاربة الذين رحلوا إلى مصر وتفقهوا على يد علمائها ونقلوا عنهم قراءة القرآن الكريم على رواية نافع التى انتشرت فى بلاد المغرب ومال كثير من فقهاء المغرب إلى الأخذ بمذهب مالك فى تلك الفترة الأولى من انتشار ذلك المذهب الذى ازدهر فى مصر ولقى قبولاً من فقهاء المغاربة الذين رحلوا إلى مدرسة الفسطاط وذلك لاعتماد مذهب مالك أساساً على نصوص القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف دون تأويل أو لجوء رلى الرأى وقد كان له دور فعال فى تلك المنطقة. ووجد المذهب المالكى أنصاراً عديدين فى تلك الأقصاع من بلاد المغرب. ومن هنا كان المسلمون ببلاد المغرب شديدى التمسك بسنة رسول الله ﷺ معرضين عن

(٤٢) الدباغ : معالم الإيمان، جـ٢، ص ٥٤.
(٤٣) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٦٩.

اتباع المذاهب الأخرى التى تعتمد على الرأى والتأويل وبذلك صار هو المذهب السائد فى بلاد المغرب [٤٤].

وقد يكون لأبناء المغرب الذين رحلوا إلى مصر ومدرسة الفسطاط دور محدود حيث أن المذهب المالكى لم يكن قد أخذ بعداً جديداً فى الانتشار فى تلك الديار ومن هنا كان دورهم محدود رغم أنهم بذلوا الجهود وعادوا إلى بلادهم متأثرين بما رأوا وسمعوا فى مصر عن ذلك المذهب، إلا أن الأمر قد تطور إلى مرحلة الانتصار لمذهب مالك على كل المذاهب والفرق الأخرى فى كل هذه البقاع الواسعة وذلك عندما جاء أسد بن الفرات العالم المشهور فى تاريخ أفريقية ورحل إلى مصر وسمع من عالمها الأكبر على بن القاسم إمام المالكية فى مصر، فتأثر به ودون خلاصة مشاهداته وتجاربه فى كتاب مشهور فى تاريخ الفقه الإسلامى فى المغرب اسمه (الأسدية) حاول فيه أن يوفق بين تقاليد مالك وأى صبغة فازداد معرفة بفقه مالك عن ذى قبل [٤٥].

وهكذا .. نرى أن المذهب المالكى الذى كان انتشاره بهذه الصورة الواسعة قد أصبح عاملاً هامّاً فى تعميق المفاهيم الإسلامية وانتشار الإسلام بصورة أكثر فعالية بين الأقوام الذين لم تكن قد أدركتهم رسالة الخلود، ولذا .. فإن ما سمعه أبناء المغرب من علمائهم العائدين من مراكز العلم فى مصر وغيرها من بلاد الشرق الإسلامى كالحجاز حيث المدينة المنورة أو ما سمعوه من دروس أسد بن الفرات قد دفعهم إلى معرفة المزيد عن هذا المذهب وحببهم إلى التمسك بسنة رسول الله ﷺ وحبهم الشديد له وكذلك إعجابهم بمالك بن أنس إمام دار الهجرة الذى اتخذ من مقام الرسول ﷺ مقراً لتعاليمه الفقهية فبدأوا يقبلون على هذا المذهب إقبالاً أكثر من ذى قبل ويطلبون العلم والمزيد.

(٤٤) حورية عبده سلام : مرجع سابق، ص ٢٨٦.
(٤٥) المالكى : رياض النفوس، ص ١٨١.

وهكذا .. وصل مذهب مالك بن أنس بلاد المغرب على يد نفر من تلاميذه الذين تفقهوا بعلمه واتبعوا طريقته وأسلوبه فى التدريس وفى الحياة، وكانت حالة المغرب تتطلب مذهباً كمذهب مالك؛ حيث أن مالك بن أنس قد ضرب المثل فى خصاله وأسلوبه فى الحياة والعمل وبذلك بلغ مكانة اجتماعية كبرى بل قوة سياسية فاجتهد الفاتحون من شباب أهل العلم فى محاكاته بالسير فى طريقه والتأسى به فى أعمالهم ودراساتهم وتصرفاتهم وبلغ الكثيرون منه تلك المراكز العلمية والمناصب الخطيرة فى جميع أقطار المغرب وأصبح رجال العلم أى الشيوخ هم رؤساء الناس فى كل جماعة إسلامية وأخذ شيوخها بمذهب مالك وهذه الظاهرة الحضارية والسياسية مرجعها إلى العمل الجليل الذى قام به مالك بن أنس ومن بعده تلاميذه ومن هنا وجد ذلك المذهب أرضاً خصبة فى المغرب رغم انتشار المذاهب والفرق الأخرى كالمعتزلة والخوارج والفاطميين والشيعة واستطاع أن تكون له الغلبة على كل ما عداه من الملك والنحل فاجتمع المغاربة على مذهب مالك طريقاً ومنهجاً وتشريعاً لأنه كان يجمع الناس على رأى واحد فى القضية الواحدة دون أن يفرق أذهان الناس بين دخول قضايا الفقه، كما كان الخوارج يفعلون، ومن ناحية أخرى فإن مالك بن أنس عرف كيف يعامل الخلفاء [٤٦].

وقد كان عصر مالك بن أنس حافلاً بالشيوخ وطلبة العلم الذين يقرأون العلم فى المساجد ومنهم نفر من أصل مؤسس الفقه الإسلامى ولكن مالكا كان أستاذاً بمعنى الكلمة ونظم دروسه وفق خطة وضعها بنفسه واتخذ من داره مجلساً للتدريس وأقام لتلاميذه عريفاً ومقرئاً، مكلفين بتنظيم الدروس ومراجعتها مع الطلاب وكان مالك بن أنس إذا أنس من تلميذ استعداداً حسناً، خصه يدرس له وحده كما فعل مع المغربى «القيروانى» البهلول بن راشد، وقد فتن تلاميذه به وجعلهم يسيرون على أسلوبه فى

(٤٦) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٥٣.

الحياة والعمل، كما كانوا يدرسون علمه.

وقد أدخل مذهب مالك إلى بلاد المغرب نفر من أجلاء الشيوخ أمثال عبد الله بن فروخ الفارسى وعبد الله بن غانم، البهلول بن راشد، أسد بن الفرات، وكانوا جميعاً من كبار العلماء حقاً، وقد اكتسبوا الكثير من خصائل مالك وتمكنوا من مذهبه وهكذا تمكنوا بفضل إصلاحهم وعلمهم وزهدهم من أن يجعلوا المذهب المالكى هو المذهب السائد والمعترف به رسمياً فى أفريقية ثم بقية بلاد المغرب العربى بعد ذلك وعلى أيديهم بدأت المالكية فى المغرب طريقها الطويل، لأنها لم تكن مجرد مذهب فقهى، بل كانت عنصراً حضارياً له أثره فى كل نواحى الحياة فى المغرب الإسلامى، ويكفى أن نشير هنا إلى أن فقهاء المالكية أصبحوا رؤساء الناس وقادتهم، بل إن الرغبة فى معرفة كل شيء عن الإمام مالك والرغبة فى الاستزادة من علمه الغزيز دفعت فقيه المغرب الشهير (سحنون بن سعيد) لكى يرحل إلى مصر لكى يستمع كما استمع ابن الفرات سابقاً على إمام المالكية فى مصر الشيخ (على بن القاسم) حيث أقام فى الفسطاط زمناً طويلاً حتى انتهل من منهل مالك العذب وتشرب ذلك المذهب وملك عليه كل أحاسيسه ومن ثم عاد إلى بلده وجمع خلاصة دراساته وقراءاته فى المالكية فى أول كتاب ظهر بعد موطأ مالك والذى أسماه «سحنون» المدونة (٤٧).

ويرجع إلى «سحنون بن سعيد» هذا وتحمسه الغريب للمذهب المالكى الفضل كل الفضل فى دخول الناس فيه جماعات وابتعادهم عن الخوارج والشيعة والمعتزلة وغيرهم من الفرق الإسلامية الأخرى.

وهكذا .. صحب انتصار المالكية فى أرض المغرب تفهماً جديداً للمفاهيم الإسلامية الصحيحة وبعداً عن كل ما يشوب الإسلام وانتشاره فى الواحات والصحراء والجبا، كذلك صحب انتصار المالكية توطن الثقافة العربية الإسلامية فى مختلف

(٤٧) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٦٩.

نواحى المجالات الواسعة، إذ بانتشار ذلك المذهب انتشرت أيضاً اللغة العربية وتغلغلت الثقافة العربية فى نفوس سكان المغرب بأقطاره وأقاليمه وولاياته المتعددة وظهر جيل من مثقفى أبناء المغرب يطبعون الثقافة العربية بطابع المغرب الملتزم والمدافع عن ذلك المذهب (٤٨)، لاسيما بعد الصراع العنيف الذى دار بين المالكية والخوارج والمالكية والشيعة الفاطميين إلا أن ذلك الانتصار للمذهب المالكى كان فى حد ذاته سبباً من أسباب دخول الكثيرين من البربر فى الإسلام، بل أدى إلى ظهور جيل من المثقفين البربر وبعض الفقهاء والدعاة الذين يطبعون الثقافة الإسلامية بطابعهم البربرى ولم يلبث الفاطميون أن رحلوا من البلاد وأصبح المذهب المالكى هو السائد بعد رحيل هؤلاء وأنه كان لابد من انتعاش إسلامى جديد ظهر فى مدارس القيروان وصحبه انتعاش للمذهب المالكى (٤٩).

وفى عصر الدولة العباسية كان مذهب أبى حنيفة هو المذهب الرسمى للدولة وأنه وفد إلى بلاد المغرب فى رحاب آل المهلبى وولاة الدولة العباسية وجندها الخرسانى، غير أنه لم يلقى إقبالاً من جانب المغاربة المتشبعين بحب رسول الله والمخلصين لفقه عالم دار الهجرة، وكان سبب كراهيتهم لمذهب أبى حنيفة قلة اعتماده على الحديث واعتماده على الرأى والاجتهاد متأثراً بالمدارس الفارسية فى التفكير الحر (٥٠).

وهكذا .. عرف فقهاء المالكية كيف يحافظون على أمة الإسلام فى بلاد المغرب ملتفة حول مذهب السنة والجماعة، وقد رأينا كيف أن «حنظلة بن صفوان الكلبى» الذى أرسله الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك عام (١٢٤-١٢٧هـ/٧٤٢-٧٤٥م) قد تمكن من إنقاذ أفريقية من سيطرة الخوارج والذين كانوا بين خوارج أباضية وصفرية وكيف احتفظ بأفريقية للسنة والجماعة، وجعلها أرضاً تعتصم بالسنة

(٤٨) محمد محمد أمين : مرجع سابق، ص ٦٩.
(٤٩) أبو القاسم محمد كرو وعبد الله شربط : عصر القيروان، ص ٢٨.
(٥٠) المالكى : مصدر سابق، ص ١٦٥.

والجماعة وقد كان هذا فى حقيقة الأمر إنقاذ للإسلام فى المغرب ودعماً فيما بعد لانتشار المذهب المالكى.

وهكذا .. أصبحت المغرب (أفريقية) بفضل أولئك الفقهاء والدعاة، وما بذلوه من جهود مركزاً للعلم الإسلامى ودراسة لفقه مالك لاتقل عن أى مركز إسلامى فى بلاد المشرق العربى كالفسطاط والمدينة ومكة المكرمة والكوفة والبصرة وهى حقيقة هامة من حقائق التاريخ الحضارى فى المغرب [٥١].

ولقد كان من أسباب انتشار المذهب المالكى ذلك الدور الذى لعبه فقيه المغرب «سحنون بن سعيد» الذى بدأ بدوره أن هذا المذهب يتغلب على مذهب أبى حنيفة النعمان، حتى انتصر نهائياً فى بلاد المغرب على كل ما عداه من مذاهب، حتى انتصر مذهب مالك منذ عهد سحنون بن سعيد نهائياً وبدأ المالكية يتغلبون على الحياة الثقافية المغربية كلها وبفضل مذهب مالك وشدة كراهيته أهل أفريقية للخوارج والشيعة والمعتزلة ومذهب أبى حنيفة، اشتد سلطان الفقهاء المالكية والمغاربة فى الحياة الدينية والثقافية حتى أنهم أفتوا (فتوى) بتكفير الخوارج والشيعة والمعتزلة وأصحاب مذهب الحنفية بحيث وصل بهم الحد إلى القول بأنه لايصلى عليهم ولا تشهد جنائزهم ولايصلى خلفهم ولا يروى لهم حديث [٥٢].

ومن ثم .. فقد عمل فقهاء المالكية على مقاطعة أصحاب المذاهب الأخرى والملل والنحل غير المالكية مقاطعة سلبية وإيجابية وأصبح من تقاليد المالكية الابتعاد عن مصاحبة الأمراء وعدم تولى القضاء والبعد عن المناصب والإفتاء والسير على تقاليد واضع المذهب نفسه مالك بن أنس، وهكذا .. كان علماء المالكية حريصين على

(٥١) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٧٦.
(٥٢) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٨٧.

الاهتمام بجوانب العلم الغزير واحترام النفس والتواضع عن الصغار وعدم الاهتمام بالوظائف والثبات أمام الحكام وكان مالك يقول أنه بذلك يرفع شأن العلم ولا عجب والحالة هذه أن يطلق عليه الناس (أمير المؤمنين فى الحديث) ولا غرابة فى أن نجد الكثيرين من تلاميذه يحرصون على أن يكون كل منهم مالك بن أنس فى بلده، رجلاً غزيراً فى العلم، منصرفاً إلى الدرس. مترفعاً عن الوظائف عظيم الاحترام لنفسه [٥٣].

وهكذا تمكنت تقاليد المالكية فى نفوس المغاربة وفى مدارس القيروان وأفريقية ووقفت للمذاهب الأخرى بالمرصاد، فلما انتشرت فى مدارس المغرب محنة خلق القرآن وآراء المعتزلة كان المالكيون أصحاب مالك أشد الناس حرباً لهم وأكثرهم عنفاً فى مقاومتهم وأكثر تمسكا بالكتاب والسنة حتى هزموا المعتزلة كما هزموا الخوارج من قبل وانتهى وجودهم فى القيروان ولم يبقى لهم بالقيروان رأى ولا اتباع ولم يجد الأمراء مفراً من النزول على رأى المالكية والأخذ بكل ما جاء فى الكتاب والسنة [٥٤].

وفى هذا العصر تمكنت تقاليد المالكية حتى أننا نجد ما رواه القاضى عياض، أن المذهب المالكى أسلم المذاهب كلها فقد درسوا ما كان فى الجهمية والرافضة والخوارج والشيعة إلا مذهب الإمام مالك رحمه الله فما سمعت أحداً ممن تقلد مذهبه قال شيئا من هذه البدع ومن هنا انتصر المذهب المالكى انتصاراً عظيماً فى القرن الثانى الهجرى لاسيما فى عصر الأغالبة حيث الربع الأخير من القرن الثانى الهجرى وقد كانت تصرفات المالكية وأخذهم بالبأس والشدة أمراً محبباً إلى المغاربة الذين عرفوا فى تاريخهم الطويل بالنزعة الاستقلالية وميلهم إلى الخروج على كل سلطان أجنبى يفرض عليهم فوجدت دعوة المالكية فى نفوسهم صدى محبباً يرتاحون إليه [٥٥].

وهكذا .. أصبح هؤلاء الفقهاء المالكيون فى نظر المغاربة الزعماء الذين يدافعون

(٥٣) حسين مؤنس : مرجع سباق، ص ٧٥.
(٥٤) الدباغ : مصدر سابق، جـ١، ص ٢٢.
(٥٥) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٧٠.

عن مصالح الرعية ويقفون فى وجه الحاكم من أجل الحق ونصر الضعفاء بل إنهم كانوا يعارضون الحكام فى كثير من الأمور التى تتعارض مع الكتاب السنة ومع الفقه المالكى بل أنهم كانوا يستشهدون فى سبيل العقيد، ومن هنا كان انتشار المذهب المالكى بداية حقيقية لظهور دور رجال الدين والفقهاء والزعامة الدينية بحيث يمكن القول أنه منذ أن أرسل الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز بن مروان عام ١٠٠هـ للوالى العالم المجاهد «إسماعيل بن عبيد بن أبى المهاجر دينار».. فإن الزعامة السياسيةوالحربية بدأت تختفى وحلت محلها زعامة أخرى هى الزعامة الدينية والشعبية؛ حيث ينصاع لها الناس عن عقيدة وإيمان وبذلك أمعن المغاربة فى تمسكهم بالمذهب المالكى وأحبوه وأخلصوا له ودافعوا عنه دفاعهم عن عقيدتهم لأنه جزء من عقيدتهم الإسلامية، بل أنهم حاربوا أصحاب المذاهب الأخرى دون أدنى رحمة أو شفقة، وليس معنى هذا أن نقول أن مدارس أفريقية فقد أصبح فيها المذهب المالكى هو كل شىء فى المغرب وأنه لاتوجد مذاهب أخرى تدرس أو تلقى، لكن المغرب قد شهد ألوان ثقافة عربية إسلامية أخرى فكانت جميع أنواع العلوم الإسلامية تلقى فى مدارس القيروان، وقد رأينا الآراء الجديدة ذات الطابع الحرفى التفكير والدراسة تتسرب للمغرب كمسألة خلق القرآن التى قال بها المعتزلة وآراء الخوارج، لكن كل هذه الآراء والمذاهب لم تكن تدانى المذهب المالكى ولم يكن لها قوة التأثير فى نفوس المغاربة وإن كان ذلك لاينفى أنه يوجد بعض متقنيها لكن أعدادهم كانت تعد على أصابع اليد الواحدة وصارت الغلبة للمذهب المالكى؛ بحيث يمكن القول أن المذهب المالكى قد أصبح حصن المغاربة الذين يتحصنون خلفه بل هو القومية العربية الإسلامية وعلى هذا فقد غلبت النزعة المالكية الدينية على المغاربة بوجه خاص فجعلتهم لايعرفون عن الدراسة الإسلامية إلا هذه الناحية يقبلون عليها ويدافعون عنها، وهكذا ظل حال الثقافة العربية الإسلامية بوجه عام فى أرض المغرب.

وقد يكون الحديث عن مكانة المذهب المالكى فى نفوس المغاربة يستدعى الخروج عن دائرة البحث المحددة بالمغرب العربى فى قرن أى ١٢٢هـ/١٢٢هـ والقفز إلى فترة تاريخية خارج نطاق تلك الفترة الزمنية وذلك لأن الحديث عن المذهب المالكى يستدعى استمرار تأصله فى نفوس المغاربة وتمسكهم به والمحافظة على الأخذ به يستدعى الدخول فى القرن الثالث والرابع الهجرى. عندما أقام الفاطميون دولتهم فى أفريقية ووجد الفاطميون فى بيئة أفريقية ثقافة إسلامية موطدة وثقافة دينية مالكية ثابتة الجذور ورأوا شعب المغرب كله صفاً واحداً متكتلاً خلف قادته الدينيين، بل يقف بالمرصاد لكل من يحاول النيل من فقهاء المالكية لأنهم المصابيح التى يهتدون بها فى مسائل الفقه والشريعة والدين ويأتمرون بأمرهم فرأوا أنه لا نجاح لدولتهم ولا بقاء لها إلا بمحاولة التغلب على هذه الوطنية المغربية المالكية [٥٦].

ومن هنا فقد بذل الفاطميون جل جهدهم وعقدوا المناظرات ومجالس العلم وبثوا دعاتهم فى كل أرجاء المغرب ينشرون مذهبهم ويبشرون به بين الأقوام ومن هنا كان الدور يأتى على القيروان مركز المذهب المالكى فى أفريقيا واستدعوا أئمة المالكية وعقدوا المجالس وأخذوا يجادلونهم ويناقشونهم بالحجة والاقناع فلم تفلح طريقتهم فى إقناع زعماء المالكية [٥٧] ورجال الحركة الدينية فى القيروان.

بل أن الفاطميين عملوا من جانبهم على أغداق الأموال والجاه إلا أن ذلك لم يجد طريقه إلى قلوب زعماء المالكية وفقهائها، فلم ينفع المال أو الجاه فانقلب رجال الفاطميين إلى طغاة مستبدين يستعينون بالعنف والشدة فى فرض آرائهم حتى أن الأمر قد وصل بهم عندما فشلوا فى استمالة هؤلاء الفقهاء إلى أنهم ضربوا الفقهاء بالسياط وقطعوا السنة البعض وضربوا الرقاب وصلبوا الفقهاء أحياء وصادروا الأموال وتفننوا فى أبشع وسائل التعذيب استخداماً ويذكر الدباغ فى كتابه معالم الإيمان فى معرفة أهل

---

(٥٦) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٧١.

(٥٧) ابن عذارى : مصدر سابق، جـ١، ص ٥٩٤.

القيروان (٥٨) أن رجال الفاطميين استخدموا كثيراً من ألوان التعذيب بحيث أنهم كانوا يبطحون الفقهاء والعلماء والدعاة المالكيين بل أنهم كانوا يفعلون ذلك مع عامة الناس يبطحونهم على ظهورهم ثم يأمرون السودان (العبيد) السود الذين كان يتم شراءهم من بلاد السودان بأن يدوسوهم بالأقدام.

وهكذا لم تجد تلك الوسائل العنيفة والبشعة طريقاً إلى قلوب المغاربة؛ حيث استطاع المذهب المالكى بما يملك من أسس واضحة وهى الكتاب والسنة أن يقف فى وجه الفاطميين ووقف المغاربة كرجل واحد واعتبروا المذهب الشيعى الفاطمى ورجاله زنادقة ونادوا بقتلهم وأحلوا دمهم أينما وجدوا. وأعلنوا عليهم جميع أنواع المقاطعة ومن ذلك .. فإنه يباح دمهم نظراً لما فعلوه بفقهاء ورجال وزعماء المذهب المالكى ولايصلى فى مساجدهم ولا تدفع لهم الأموال ولا يتعاون معهم (٥٩).

وهكذا انتشرت المقاومة للفاطميين ورجالهم ودعاتهم فى كل أنحاء المغرب العربى بأقاليمه المختلفة وولاياته وذلك بفضل الدور الذى لعبه الفقهاء المالكيون وما تعرضوا له من صنوف العذاب وقدرتهم فى الصمود والتصدى للمذهب الشيعى الفاطمى، ومن هنا ظهرت الثورات فى أنحاء عديدة من أرجاء المغرب العربى واشتدت الفتن فى وجه الفاطميين، بل إن عدم نجاحهم واحفاقهم فى فتح المغرب الأقصى وإقرار السكينة فى البلاد كان من أسبابه القوية انتشار المالكية فى تلك الأرجاء وكان الصراع مذهبياً وليس نزاعاً عسكرياً أو طلباً للسيطرة ومن هنا وقف المذهب المالكى فى المغرب الأقصى فى وجه الزحف الفاطمى القادم من المهدية، وهكذا كان ذلك الإخفاق فى نشر التشيع لآل البيت ومحاربة المذهب المالكى سبباً فى تفكيرهم فى فتح ميدان جديد بالاتجاه شرقاً صوب مصر بعد أن استحالت الفرصة فى فرض مذهبهم فى بلاد تتخذ من المذهب المالكى عقيدة لها. وقد تضافرت جميع القوى المتحكمة فى مصير المغرب فالأمويون فى الأندلس والأدارسة الزناتيون فى المغرب الأقصى بظاهرهم

(٥٨) الدباغ : مصدر سابق، جـ٢، ص ١٨٢.
(٥٩) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى، جـ٢، ص ١٣٨.

المالكية فى كل مكان فكان رحيل الفاطميين إلى مصر انتصاراً للمالكية ورجالها وللدور الذى لعبه قادة المالكية ولسياسة المقاطعة لهم (٦٠).

وبذلك يعد رحيل الفاطميين شرقاً إلى مصر وتركهم ميدان المغرب انتصاراً للمذهب المالكى حيث فشلت فيه طرقهم فى نشر المذهب الشيعى .. فإن الميدان بعد ذلك قد أصبح خالياً لرجال المالكية فلم يعد هناك محل للتشيع لآل البيت وأخذ بالمذهب الشيعى وكذلك لا مجال لمذهب الخلافة العباسية التى كانت لا تزال قائمة فى بغداد حيث لم يجد مذهب الحنفية قبولاً لديهم وكما رفضوا وحاربوا الخوارج والمعتزلة، وما شابه ذلك من الفرق الإسلامية الأخرى غير المالكية وقد كان معنى ذلك اشتداد الصبغة المالكية فى الثقافة العربية الإسلامية المنتشرة فى المغرب كله.

ومن كل هذا إذا كانت مصر قد استقبلت الفاطميين فى أرضها، فإنها منذ انتشار الإسلام فى أراضيها والفتح العربى نجد أنها قامت بنصيبها فى نشر الإسلام فى المغرب فقد وفد مذهب مالك من مصر إلى القيروان كما وفدت المذاهب الإسلامية الأخرى ورحبت مصر بكل من قصدها ويقصدها من أهل المغرب لطلب العلم فى مدارس الفسطاط فكانت مصر تمثل فى نظر المغاربة كما ذكر ابن خلدون. تلك الأقوال فقال سألت قاضى القضاه بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقرى عند مقدمه من الحج فقلت له كيف هذه القاهرة فقال من لم يرها لم يعرف عن الإسلام فشددت الرحال إليها وما أن وصلها حتى قال عنها رأيت حضرة الدنيا وبستان العلم ومحشر الأمم ومدرج الذر فى البشر وإيمان الإسلام وكرسى الملك تلوح القصور والدوواوين فى جوه وتزهو الخوانق والمدارس بإفاضة وتضىء البدور والكواكب من علمائه (٦١).

(٦٠) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٧٣.
(٦١) ابن خلدون : مصدر سابق، جـ٧، ص ٥٨.

وهكذا .. كانت الفسطاط فى القرنين الهجريين الأولين تؤدى رسالتها على أتم أداء وتلعب دورها فى بلاد المغرب نشراً للإسلام وتعليماً للمغاربة وتدريساً للمذهب المالكى فى مدارسها، وعقدلدروس الفقه فى المذهب المالكى وكان عالمها الأكبر وزعيم المالكية فى مصر على بن القاسم هو الذى رحل إليه «أسد بن الفرات» و«سحنون بن سعيد» اللذان قام على أيديهما المذهب المالكى فى المغرب وهكذا كانت بصمات مصر واضحة وقوية وجلية فى كل بقعة من بقاع المغرب تؤدى دورها وتتم رسالتها لأبناء العروبة والإسلام (٦٢).

بل أكثر من ذلك .. فإن المغرب العربى لم يعزز فى المالكية أسد بن الفرات وسحنون بن سعيد بل هناك من الفقهاء ورجال المالكية «عيسى بن مكين» و«يحيى بن سلام» و«أبو عثمان سعيد بن الحداد» (٦٣) وغيرهم الكثيرون من رجال العلم والفقه والتقوى والورع الذين ذاع صيتهم فى بلاد المغرب وبلغوا مستوى فكريا وعلميا ودينيا إسلاميا لايقل عن سواهم فى بلاد المشرق العربى.

وهؤلاء الشيوخ كانوا فى نفس الوقت رؤساء القوم والمتحدثين بأسمهم أمام الحكام وهنا تبرز شخصية سحنون، واسمه «أبو سعيد بن عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخى»، وقد كان رجلاً لبقاً ذكياً أقام المذهب المالكى فى بلاد جميع المغرب على كاهله وبفضل دوره، وهو رجل ينسب إلى بيت عريق وتصدر للإفتاء والتدريس فى جامع القيروان وبلغ مكانة عالية وأصبح ذا حظوة لدى الحكام فقد كانت تستجاب عندهم كل طلباته لأنه عرف كيف يسوس الحكام وقد تعرض للأذى على يد زيادة الله الأول الأغلبى الذى اشتدت مسألة خلق القرآن الكريم فى عهده وأصدرت الخلافة العباسية أوامرها بامتحان القضاة والفقهاء الكبار وكان سحنون ومعظم كبار فقهاء المغرب المالكية لايقولون بخلق القرآن ومن حسن الحظ أن المحنة (محنة خلق

(٦٢) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، ص ١٦٨.
(٦٣) الدباغ : مصدر سابق، جـ٢، ص ١٨٥.

القرآن) وقفت قبل أن ينال سحنون العذاب وألقت الدولة العباسية فى بغداد مسألة القول بخلق القرآن الكريم أيام المعتصم وتصدى أهل السنة المتمسكون بالمذهب المالكى للانتقام من المعتزلة وقد تولى سحنون الذى ولى القضاء بعد المحنة الانتقام من «عبد الله ابن أبى الجود» القاضى السابق الذى امتحن القضاه فى مسألة خلق القرآن الكريم وأذى بعضهم فجلده سحنون والى سحنون ينسب أحسن تدوين عرف للسماع عن مالك بن أنس وهو المعروف «بالمدونة» وهو كتاب فقه على مذهب الإمام مالك بن أنس يعرض مسائل الفقه الرئيسية من العبادات والمعاملات عرضاً بليغاً وموجزاً فى نفس الوقت وتعتبر المدونة من أشمل كتب الفقه الإسلامى وانتشر تدريسها فى كل أنحاء المغرب(٦٤).

وقد اكتمل انتصار المذهب المالكى ليس فقط بتولى سحنون بن سعيد أمر القضاة والانتقام من المعتزلة وغيرهم من المذاهب الأخرى بل حدث ذلك فى القرن الخامس الهجرى وبالتحديد عام ٤٤٣هـ أربعمائة وثلاثة وأربعين هجرية عندما أعلن أمراء أفريقية من بنى باديس (٦٥) الذين كانوا خاضعين إسمياً للحكم الفاطمى فى عهد الخليفة الفاطمى المقيم فى القاهرة المنتصر بالله، العصيان على الفاطميين وقاموا بقطع الخطبة لهم فى البلاد واختفى نفوذ الشيعة نهائياً، بل قتل من بقى منهم بالقيروان أو المغرب الأوسط والمغرب الأقصى وهكذا أضحى المغرب بلداً خالصاً للسنة والجماعة والمذهب المالكى.

وهكذا .. طبعت ثقافة المغرب العربية الإسلامية بذات الطابع المغربى واختفت معه المدارس التى كانت تدرس غير المذهب المالكى وبذلك توطدت دعائم وأركان الثقافة العربية الإسلامية ذات الطابع المغربى وانتشرت اللغة العربية انتشاراً واسعاً وأخذت بعداً آخر إذ ظهر الخط المغربى المتميز عن الخط العربى المشرقى ولقد ساعد

(٦٤) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٩٩.
(٦٥) ابن خلدون : مصدر سابق، جـ٦، ص ١٥٩.

على ذلك النصر اختفاء كل مظهر من مظاهر الوجود العربى الذى اختلط وذاب فى البلاد وأضحى العرب والبربر جميعًا جنسًا ولغة ودينًا عقيدة عربا مسلمين وقامت فى المغرب العربى بأقطاره المختلفة وولاياته المتعددة أسر وطنية خالصة مثل الزبيريين فى تونس والحماديين فى الجزائر، ثم المرابطين فى المغرب وهكذا أصبحت الكلمة الأولى فى كل أقاليم المغرب لأهل البلاد الأصليين.

وكان ذلك فى واقع الأمر يمثل بداية الثقافة العربية المغربية الإسلامية فى أحلى صورها وهى ذات طابع خاص متميز عن الطابع الشرقى فى الخط العربى. طابع مغربى خالص، وفى الفن الإسلامى طابع خاص وفى الثقافة طابع المالكية المحافظ الملتزم وفى الناحية الفكرية نزعة سلفية دينية [٦٦]، وهكذا أدى الإسلام والعروبة دورهما فى هذا المضمار بظهور ذلك الطابع المغربى الخالص الذى استمد مقوماته من عقيدة الإسلام منهجًا ومنهاجًا ومن اللغة العربية لغة وتراث وفكرًا وحياة ومصيرا ومستقبلا.

ولقد كانت الظروف فى بلاد المغرب منذ النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى قد تهيأت كل التهيؤ لظهور دويلات عربية أو بربرية فى المغرب تستند كل منها إلى قبيلة من قبائل البربر الكبرى أو بيت من بيوت العرب العريقة (عقبة بن نافع الفهرى) وكذلك كان بعضها يعتمد على بيت عربى أصيل كدولة الأدارسة فى المغرب الأقصى [٦٧] وبعضها الآخر يعتمد على أسر بربرية كالدولة الرستمية المعروفة حاليًا فتوزع المغرب الأقصى إلى أكثر من دولة وفى بعض الأحيان اشتملت الدولة الواحدة على جزء من تونس والجزائر كدولة الأغالبة فى القرن الثانى الهجرى ولكن يلاحظ بصفة عامة أن الدول الكبيرة التى ظهرت فى المغرب العربى كانت ترتكز أحيانًا على حاضرة كبرى كمدينة فاس فى المغرب الأقصى وأحيانًا على القيروان فى تونس إلى أن تفوق المغرب الأقصى فى عهد دولتى المرابطين والموحدين.

(٦٦) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٧٣.
(٦٧) محمد محمد أمين : مرجع سابق، ص ٦٧.

وقد ازدهرت الثقافة العربية الإسلامية فى بلاد المغرب ازدهار يكاد يصلها مع ازدهار الثقافة العربية الإسلامية فى بلاد المشرق وقد كان ذلك الازدهار يستمد وجوده من عدة عناصر هامة منها ذل الاستقرار السياسى والاقتصادى الذى شهدته البلاد فى فتراتها التاريخية لاسيما بعد القضاء على ثورة كسيلة والكاهنة وثورة الخوارج حيث أنه بعد أن كان يتم القضاء على أية ثورة فإن حالة من الاستقرار كانت تسود البلاد وتأخذ طابعًا من الثقة العلمية والثقافية والاقتصادية ثم أن تلك الفترة كانت تشهد نوعًا من الرخاء والترف والثراء حيث كان الأمراء والولاه يغدقون الأموال ويكثرون من الهبات والعطايا على أهل العلم والأدب مما كان يدفعهم للمضى فى طريق البحث العلمى ومواصلة العطاء الفكرى والمضى على تشجيعهم للمضى فى الطريق المرسوم. ولقد أدت الغزوة الهلالية إلى عدة أمور فى توقف حركة النهضة العلمية الإسلامية، لكن على جانب آخر ساعدت غزوة بنى هلال وبنى سليم فى ظهور اللسان العربى بصورة قوية واتجاه تلك القبائل للاختلاط بالبربر مما ساعد على الانتشار السريع للإسلام وحركة التعريب، لكن الدباغ فى كتابة معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان[٦٨] يذكر أن الغزوة الهلالية أدت إلى حالة من عدم الاستقرار السياسى والاقتصادى والاجتماعى وتفرق شمل البلاد ونكبت أفريقية نكبة اقتصادية كانت بعيدة الأثر فى تاريخها كله. فقد أصبحت مدن أفريقيا خرابًا تلتهمها النيران وتحصد أهلها بسيوف الغزاة وفجع العلماء فى أمنهم واستقرارهم فخرجوا يبحثون عن ملاذ لهم من هذه الفتنة [٦٩] ولم يكن أمامهم إلا المغرب الأقصى فى ذلك الوقت، فقد استقرت الثورة السياسية وبدأت طلائع المرابطين فى صحراء المغرب تتأهب للحركة الإصلاحية الكبرى فى تاريخ البلاد. لكن كما ذكرنا فإن نظرة بعيدة إلى المستقبل نجد أن الغزوة الهلالية وبنى سليم قد أدت إلى صبغ تونس بالصبغة العربية الكاملة فإذا وجد هناك حاليًا من يتحدث لغة البربر أو لهجتهم فى ليبيا ٢٪ والجزائر ٦٪ والمغرب ١٥٪ فإنه

(٦٨) الدباغ : مصدر سابق، جـ٣، ص ٢٥٢.
(٦٩) ابن خلدون : مصدر سابق، جـ٦، ص ١٥٩.

لاتوجد أدنى نسبة فى تونس من لهجات البربر. بل إن العربية ١٠٠٪ فى تونس وقد كان ذلك العطاء الفكرى واللغوى بسبب تلك الغزوة التى حاول كتاب المغرب كالدباغ وابن خلدون تشبهاً بغارة مدمرة وقد سار فى فلكهم وتمادوا فى تلك الأقوال كتاب المغرب [٧٠] أمثال مارسيه لكن كان لتلك الغزوة جانب إيجابى وجانب سلبى، لكن الجانب الإيجابى ظهر أثره فيما بعد بثبات اللسان العربى، وقد تكون هجرة العديد من العلماء والفقهاء ورجال الدين والدعوة الإسلامية قد تركوا تونس وتحركوا غرباً إلى المغرب الأقصى؛ حيث وجدوا فى رحاب المرابطين والموحدين فيما بعد، تلك الراحة النفسية التى ساعدت على تفوق مدرسة فاس على مدرسة القيروان.

وبذلك رجحت كفة المغرب الأقصى حيث أصبحت فاس الملاذ الأخير للحركة العلمية والفكرية والثافية فى بلاد المغرب، ومن هنا فإننا نرى أن الإسلام والعروبة قد أتت ثمارهما المرجوة فى بلاد المغرب فى تلك الفترة القصيرة من عمر الدعوة الإسلامية ٢٢هـ/١٢٢هـ حيث أن فتح المغرب وعدم استقرار الأمور السياسية ومعاودة الفتح واستقرار ذلك، فترة طويلة كان من المعوقات التى وقفت فى طريق الانتشار السريع وربما كان ذلك مما ساعد ذلك على سهولة فتح الأندلس وغيره الكثير من أراضى أوربا الغربية والجنوبية، وهكذا ترتب على هذه الحقيقة الهامة أن طبعت الثقافة العربية فى بلاد المغرب منذ ذلك العصر بالطابع الدينى الصرف النابع من طبيعة العهد واستجابة لحركة الجهاد الإسلامى، وهكذا بينما كانت القوات العربية الإسلامية تعبر المضيق لغزو الأندلس كان العلماء والفقهاء فى داخل البلاد يقومون بغزو أنحاء المغرب غزواً دينياً ويفتحون قلوب البشر للإسلام والإيمان.

ولا يستطيع مؤرخ محايد ومنصف للحقيقة التاريخية إلا أن يعتبر الغزوة الهلالية بعداً جديداً انتشار الإسلام والعروبة على أرض المغرب؛ حيث لقى الإسلام والعروبة دفعة جديدة حين قدمت قبائل الهلالية وبنى سليم لسكنى المغرب ورغم ما أحدثوه من

(70) Marcais, G. : Les Arabes en berberie, p. 54.

خراب أدى رلى هجرة كثير من العلماء إلى المغرب الأقصى حين بدت طلائع المرابطين وقد أخذ دعاتهم يشقون طريقهم بين بربر الصحراء، ولقد كان لانتشار القبائل العربية الهلالية وبنى سليم الذين كانوا أصلاً من عرب الحجاز ثم عاشوا فترة فى مصر فى صحرائها الشرقية ثم وصلوا إلى تونس بعد أن مروا ببرقة وطرابلس وكذلك لهم دور كبير فى نشر الثقافة الإسلامية، وكذلك أشاعوا العنصر العربى فى كل مكان وصلوا إليه فأكسبوا المغرب العربى الصبغة العربية الإسلامية التى أصبحت تسوده اليوم [٧١].

وهكذا .. أصبحت أرض المغرب الواسعة الممتدة من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسى أرضاً عربية على أرض القارة الأفريقية فى ذلك الجزء الشمالى الغربى للقارة وقد لعبت تلك الكتلة العربية الإسلامية دوراً هاماً بل مؤثراً وفعالاً فى حركة العلاقات العربية الأفريقية إذ أنها كانت حلقة الوصل بين العرب سواء فى الشمال الأفريقى أو فى غرب اسيا من ناحية وبين سكان وسط وغرب أفريقيا من ناحية أخرى[٧٢].

وهكذا ساد الإسلام أرض المغرب جميعها وأصبح الشعب المغربى ١٠٠٪ مسلم وساد اللسان العربى المغرب أيضاً ولم يكن لهذه الأمور أن تحدث لولا ذلك الدور الهام الذى لعبته مصر منذ بداية الفتح الإسلامى لها فمصر كانت فى كل حركة إلى بلاد المغرب، بل هى مصر التى مهدت الطريق للفتح وساعدت وأعطت ووهبت رجالها وأموالها وزادها ومساعدتها وعطاءها وعلماءها ومدارسها ومؤسساتها ونظمها لكل شىء فى بلاد المغرب. بل هى التى حملت كل الجهود التى بذلك من أجل إتمام الفتح، بل أن كل الحملات التى خرجت لغزو المغرب كانت تمون بالأموال والزاد والأقوات والجنود وكل ما تحتاج إليه من مصر، بل أن مصر كانت تدرب الولاه فى حكمها حتى إذا أحرزوا النجاح فى إدارة شئون مصر أصبحوا قادرين على تحمل المسئولية فى

(٧١) إحسان حقى : تونس العربية، ص ٦٥، ص ٦٦.
(٧٢) محمد محمد أمين : مرجع سابق، ص ٦٩.

إدارة إقليم المغرب الواسع اذ كانت الخلافة الأموية أو العباسية تدفع بهم إلى المغرب ليتولوا حكمها وهكذا كانت مصر فى كل خطوة فى المغرب، بل إن انتشار الإسلام والعروبة فى المغرب يقع دوره الأول والأساسى على دور مصر فى هذا المجال (٧٣).

* * *

(٧٣) عبد الفتاح مقلد الغنيمى : دور مصر الحضارى فى أفريقيا، ص ١٦٨.

الباب السادس

دور القيروان فى إثراء الحركة الإسلامية

فى الغزوة الأولى التى قام بها عقبة بن نافع الفهرى إلى أفريقية (٥٠–٥٥هـ/ ٦٧٠–٦٧٥م) وبعد أن انتصر على الروم فى موقعة سبيطلة، قرر عقبة إنشاء عاصمة أو مركز عسكرى أو مدينة سكنية للمسلمين، كما بنى عمرو بن العاص الفسطاط فى مصر وأحمد بن طولون فيما بعد الطلائع، فاختار موقعاً يقع إلى الشمال قليلاً من سبيطلة التى وقعت عندها المعركة المشهورة، وحقق العرب فيها الانتصار الحاسم وبدأ فى اختطاط عاصمة مناسبة للمسلمين وكانتالقاعدة فى بناء وإنشاء تلك المدن الإسلامية الأولى أن تسمى الأمصار وهى البدء فى بناء المسجد الجامع فى تلك المدينة أسوة بالرسول ﷺ حيث أسس مسجد قباء بمجرد دخوله المدينة، وكان فى مواجهة المسجد يقوم العرب بإنشاء دار الإمارة ومقر الحكم، وبين المسجد ودار الإمارة يترك طريق واسع، ويعتبر ذلك الطريق بداية الشارع الرئيسى بالعاصمة، ويسمى بالسماط أو المحجة وفيما يتعلق بهذه المدينة الجديدة، سمى هذا الشارع بالسماط الأعظم وكانت العادة أن يتركوا حول هذين المبنيين خلاء واسعاً مستديراً ثم بعد ذلك كانوا ينشئون الدور التى يسكنونها حول ذلك الخلاء على أساس تقسيم الأرض إلى قطع لكل قبيلة قطعة تسمى خطة أو دار وسميت هذه المدينة القيروان وهو لفظ فارسى معرب بمعنى المعسكر أو مستودع السلاح(١).

وبذلك أصبحت المدينة الجديدة وهى مدينة القيروان مدينة جليلة ومباركة، وبالفعل قدر لهذا المصر أن يكون من أكثر المراكز الإسلامية بركة على الإسلام وأهله فى أفريقية، وقد تحرى عقبة أن تكون المدينة ملائمة لمطالب العرب فى ذلك العصر وقد كان أهم ما لديهم هو الخيل والجمال وهى سلاحهم الأكبر فى عمليات الفتوح

(١) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٣٦.

وكانوا يهتمون بأن تكون الأمصار أو المراكز أو المدن التى ينشئونها وسط إقليم مراع لترعى فيها الخيول والجمال فى غير أوقات الحروب، المهم أنه أثناء عملية إنشاء القيروان التى دامت خمس سنوات وقبل أربع سنوات؛ حيث كانت فى إحدى الوديان ذات الأشجار الكثيفة غير البعيدة عن الساحل(٢). وهى بالتحديد إلى الجنوب من قرطاجنة الميناء البيزنطى وإلى الغرب بمسافة أقل من سوسة المدينة التى سقطت أثناء حملة معاوية بن خديج (٤٥هـ/٦٦٥م) وقد كان المسجد الذى أنشئ فى المدينة قد تسمى مسجد عقبة ولازال حتى اليوم يحمل إسم القائد العربى عقبة بن نافع الفهرى(٣) ثم انتشرت حول المسجد ودار الأمارة المساكن تدريجياً فضلاً عن الأسوار ونمت المدينة بسرعة مدهشة يساعدها فى ذلك الموقع الجغرافى الممتاز وكذلك الموقع الاستراتيجى حيث كانت على امتداد الخط البرى الذى يصل بينها وبين الفسطاط وفى مأمن من أى هجوم يقوم البيزنطيون به من ناحية البحر، وهكذا كان إنشاء تلك القاعدة للغزو الإسلامى لهذه البلاد بحيث تكون بعيدة عن البحر بالقدر الذى يجنبها خطر الأسطول البيزنطى وقريبة من المنطقة التى تقع عند نهاية السهل الساحلى وبداية المناطق الرعوية الواقعة من خلفها يتجمع فيها المقاتلة من مصر أولاً وغيرها من البلاد الإسلامية ثانياً وتحشد فيها المؤن والذخائر وتتخذ قاعدة أمامية يستطاع منها مواجهة العدو لتكون خطوط دفاعهم فى مأمن وتكون ظهورهم محمية بالعمق فى الأرض، ولقد كان إنشاء مدينة القيروان من أهم الأحداث فى تاريخ الفتح الإسلامى لبلاد المغرب وفى تاريخ انتشار الإسلام والثقافة العربية فقد كان إنشاء القيروان معناه أن معالم ولاية أفريقية أخذت تتضح منذ إنشاء هذه المدينة (٤).

ولقد أصبحت منذ ذلك التاريخ مقراً للولاه والعمال وغيرهم من ذوى السلطان وأصبحت الإقامة فى القيروان أول ما تتجه إليه أبصار الوالى الجديد بعد أن كان أول

(٢) ابن عبد الحكم : مصدر سابق، ص ٢٦٤، ص ٢٦٥.
(٣) ياقوت الحموى : معجم البلدان، جـ٢، ص٢٩٤.
(٤) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٩٣.

الأمر يتطلع إلى مصر ويتعجل العودة إليها.

وهكذا اطمأن عقبة إلى أنه أنشأ للمسلمين قاعدة فى قلب الساحل الأفريقى يحكم منها البلاد التى فتحها ويفتحها ويخرج منها الغزوات إلى بقية أنحاء المغرب ومعنى هذا أن عقبة بعمله العظيم هذا قد جعل أفريقيا ولاية إسلامية جديدة لأنه ما دام قد أنشأ بها مسجداً جامعاً وداراً للإمارة فقد أصبحت المنطقة كلها جزءاً من الدولة الإسلامية ولايجوز بعد ذلك للمسلمين أن يتخلوا عن هذه الناحية وبالفعل كان من الممكن للعرب قبل ذلك أن ينسحبوا من أفريقية إلى برقة أو طرابلس أو إلى مصر كما كانوا يفعلون من قبل، إلا أنه بعد بناء القيروان .. فإنه لابد لهم أن يثبتوا فى هذه الناحية وأن فقدوها لسبب ما فيجب عليهم أن يستعيدوها مرة أخرى لأنها جزء من الديار الإسلامية، وهكذا يتبين لنا أهمية العمل العظيم الذى قام به عقبة بن نافع الفهرى فى إنشاء مدينة القيروان (٥).

ومن أسباب ضعف الروم وخذلانهم وتفككهم أنهم طوال بناء مدينة القيروان لم ينتهزوا هذه الفترة التى ينشغل فيها المسلمون ببناء عاصمة لهم ليقوموا بمهاجمة الفاتحين ولكنهم كانوا مشغولين بحصار الصقالية والبلغار لعاصمتهم ومع دول الغرب التى حاصرت القسطنطينية وقد تمكن العرب من بناء عاصمتهم فى أفريقية وقيام مدينة القيروان وهذا لايعنى فى هذه الفترة قيام ولاية مستقلة ٥٥هـ عن مصر، بل ظل هذا الجزء من أفريقية دائماً تابعاً لمصر وأموال مصر هى التى تمون ما يرسل إليه من حملات وما يطلب من مصاريف ولكن بناء القيروان كان من شأنه رفع روح المسلمين المعنوية والمساعدة على نشر الإسلام بين البربر ومن ثم أصبحت هذه المدينة قوة لأفريقيا الإسلامية، وهكذا كان إنشاء القيروان مؤذناً ببدء عهد جديد فى تاريخ البلاد ذلك لأن مدينة القيروان ستصبح قبلة الغرب وكعبة الحضارة ومعقل الإسلام فقد وفد إليها كثيرون من الصحابة وأقاموا بها يفقهون الناس فى شئون دينهم كما دفن بها كثيرون

(٥) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٣٦.

ممن استشهدوا من أجل الدفاع عنها، لذلك نجد الكتاب والرواة والفقهاء يخلعون عليها ثوباً من القدسية ويحيطون تأسيسها بكثير من الخرافات(٦).

وقيروان هى البلد الأعظم المحفوف بالشرق لأقدم قاعدة إسلامية بالمغرب وقطرهم الأفخر الذى أصبح لسان الدهر من فضله يعرب وبشرفه يقرب، قرارة الدين والإيمان والأرض المطهرة من رجس الكافرين قبلتها أول قبلة رسمت فى البلاد المغربية، والقيروان هى رابعة الثلاثة المدينة، ومكة وبيت المقدس والقيروان قد دعى لها كبار الصحابة ممن شهد بدر وبايع بيعة الرضوان (٧).

ومسجد القيروان من أقدم المساجد القائمة إلى اليوم لأن محرابة القديم قد وضعه عقبة بن نافع الفهرى عام ٥٠هـ (٨) ذلك لأن المسجد الجامع فى القيروان أصبح مركز تلك الحركة الثقافية ومحورها تعقد به حاقات دراسة القرآن وتفسيره ودراسة الحديث. وشهدت مدرسة القيروان نمواً فكرياً شمل مختلف فروع العلوم خاصة علوم الدين(٩).

ويعتبر إنشاء مدينة القيروان بداية تاريخ الحضارة العربية الإسلامية المغربية، فإلى جانب الجيوش والبعوث التى تخرج منها للغزو والفتح كان الفقهاء يخرجون منها لينتشروا بين البلاد يعلمون العربية وينشرون الإسلام بل أن الدور الذى لعبته مدينة القيروان فى إدخال البربر فى الإسلام لايقل عن الدور الذى لعبه القواد الفاتحون، فلقد دخل البربر الإسلام منذ الفترة الأولى للفتوحات الإسلامية وخاصة عندما رأى البربر عقبة بن نافع الفهرى وهو ينشئ القيروان بنفسه فتأثروا بشخصيته الدينية وبما كان يظهره من التفانى فى سبيل الإسلام فدخلت جماعات كبيرة منهم الإسلام على يديه وانضمت إلى قوات الإسلام المحاربة (١٠).

(٦) الدباغ : مصدر سابق، جـ١، ص ٢٥.
(٧) الدباغ : المصدر نفسه، جـ١، ص ٦.
(٨) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص ٢٢.
(٩) حوية عيدة سلام : علاقة مصر ببلاد المغرب (رسالة دكتوراه غير منشورة)، ص ٢٨٥.
(١٠) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، ص ١٤٥.

ولقد وضحت الأهمية القصوى لإنشاء قاعدة القيروان العسكرية فى عهد «زهير بن قيس البلوى» حينما ارتد البربر عن الإسلام وهبوا يعاونهم البيزنطيون بعد أن تخلصوا من متاعبهم كلها وأرادوا أن يوقعوا بالعرب ولولا قاعدة القيروان وأهميتها الاستراتيجية لطرد العرب نهائياً من المغرب ولضاعت الجهود الشاقة التى بذلت من قبل.

كذلك كانت هذه المدينة هى الأساس الهام الذى نبعت منه محاولات عبد الملك بن مروان لإتمام فتح هذه البلاد (١١) وهكذا أدى إنشاء تلك المدينة إلى أن يشتد ساعد الإسلام ويقبل عليه البربر منذ ذلك الوقت إقبالاً عظيماً، وهذا كله كان بالغ الأثر فى تاريخ الثقافة العربية الوافدة إلى زفريقية فقد نعمت البلاد بهدوء وطمأنينة لم تعهدها من قبل وأمنت من الغزو البيزنطى وتم التحالف الوطيد بين العرب والبربر، ومن هنا أخذت مدرسة القيروان الناشئة ترسخ قدمها ويشتد ساعدها وكثر إقبال الصحابة والتابعين والعلماء والوافدين من مصر إليها وأصبح جامع عقبة بن نافع مدرسة إسلامية يؤمها الناس من كافة البلاد وخصوصاً البربر أهل البلاد الأصليين الذين أخذوا بعد إسلامهم يتعلمون العربية ويقبلون على الثقافة الإسلامية وانتشر من حيث القيروان حتى عم أفريقيا كلها وأصبحت بحق العاصمة الروحية للبلاد (١٢) وكيف لاتعدو القيروان ذلك الحصن والدرع للإسلام فى أفريقية، وهى التى تحولت بعد إنشائها بفترة قصيرة إلى أن تكون مركز إشعاع إسلامى وقامت فى مساجدها الدراسات الإسلامة، وبدأ الجو الإسلامى الثقافى وانتشر العلم فى البلاد بتأثير الإسلام والعروبة، ثم أن قيام القيروان بلداً وعاصمة عربية أتاحت الفرصة لكى يتكون مغرباً عربياً إسلامياً ذا تنظيم مدنى واجتماعى جديد كان نقطة البداية لتغيير عام فى أوضاع المدن فى أفريقية والمغرب العربى كله، لهذه البلاد لم تعرف قبل العرب المدن الأغريقية التى تلاشى طابعها الأغريقى وتهدمت وتحولت إلى قرى، والقواعد العسكرية الرومانية التى كانت

(١١) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٩٥.
(١٢) الدباغ : مصدر سابق، جـ١، ص ٣٨.

تنشأ إلى جوارها المدن الرومانية الصغيرة ثم القصور، وبعد ذلك القرى البربرية التى تتكدس فيها المبانى ويحيطها السور، فجاء العرب بهذا الطراز الجديد من المدن الإسلامية القابلة للتطور والتعديل بحسب احتياجات البلاد وأهلها، فأخذ الكثير من قرى المغرب وقصوره يتحول إلى مدن إسلامية ذات جاليات عربية وجماعات إسلامية ومساجد وكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم وتدريس اللغة العربية وعلومها ونشر قواعد الإسلام [١٣].

وقد قام أبناء القيروان وغيرهم من أبناء المغرب والذين كانوا قد رحلوا إلى مصر وتلقوا العلوم الإسلامية على علماء وفقهاء مدرسة الفسطاط وعلى غيرها من المدارس المصرية التى انتشرت فى أنحاء عديدة فى القطر المصرى تفقهوا على أيدى هؤلاء العلماء ونقلوا عنهم العلوم التى انتشرت فيما بعد فى القيروان ومن هنا فقد مال كثيرصا من علماء القيروان إلى المذهب المالكى ووجد المذهب المالكى أنصاراً عديدين فى مدرسة القيروان كذلك .. فإن مسجد القيروان قد ساهم فى نشر الثقافة الإسلامية فى بلاد المغرب، إذ يعد هذا المسجد من أقدم المساجد لأن جميع المساجد التى أقيمت فى زمانه ٥٠هـ أما قد اندثرت أو أعيد بناؤها أو أدخل عليها الكثير من التغيير والتبديل والإضافات وذلك ما قطع صلتها بعهدها الأول [١٤] وقد تحدث المقدس عن القيروان فذكر أنها مدينة بها أربعة عشر باباً منها باب العرافين باب المئذنة، باب الصباغين، باب سوق الخميس، باب الميضاه، باب السماط، باب اللحامين، وغيرها من الأبوب المختلفة[١٥] وقد كانت شهرة القيروان ومسجد الزيتون بالعلماء الصالحين من الأسباب القوية التى دفعت أبناء المغرب فى أقاليمه المختلفة بأن يشدوا الرحال إلى تلك المدينة طلباً للعلم واستزادة من مناهله على أيدى العديد من هؤلاء الذين زخر بهم مسجد الزيتونة.

(١٣) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٨٧، ص ٨٨.
(١٤) أحمد فكرى : مسجد القيروان، ص ١٦.
(١٥) المقدسى : أحسن التعاليم فى معرفة الأقاليم، ص ٢٢٤.

وبدراسة ما كتبه كل من أبى العرب تميم فى كتابه طبقات فقهاء القيروان والمالكى فى كتابه رياض النفوس الدباغ فى كتابه معالم الإيمان، نستطيع أن ندرك كيف تطورت مدرسة هذه المدينة خلال الفترة التى مضت منذ إنشائها لأول مرة فبدأت تختص بدراسة الفقه والحديث والقرآن الكريم واللغة العربية والنحو وغيرها من الغلوم على يد أئمة الدارسين المتخصصين وكانت مصر بمدارسها المختلفة تشد أزر هذه المدرسة وتدفع حركتها العلمية وتغذيها ومن هنا .. فقد ازداد النفوذ السياسى والفكرى للقيروان بل ازداد نفوذها الثقافى والروحى فإن فتح المغرب الأقصى كان بفضل أهل القيروان وعلماء القيروان وهكذا امتد نفوذ القيروان حتى شمل المغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى [١٦] ولقد كانت القيروان عاصمة أقليم إفريقية الذى يبدأ عند بلدة قابس ويمتد غرباً حتى ينتهى عند حدود ما يعرف اليوم بولاية قسنطينة الحالية، وعندما ثار وتمرد عرب القيروان على عبد الله بن الحبحاب استدعاه الخليفة هشام بن عبد الملك وأرسل بدلاً منه «كلثوم بن عياض القيشرى»، ثم بعد قليل أرسل «حنظلة بن صفوان الكلبى» الذى أنقذ القيروان من تمرد وشيك يقوم به الخوارج، وهكذا فقد ثبت القيروان ومعها السنة فى استعادة سلطانها على المغرب كله وانسحبت قوات الخوارج إلى المغرب الأوسط وحملت معها المبادئ الخارجية من أباضية وصفرية مع أصحابها إلى مناطق محدودة فى جبال الريف أو فى المغرب الأوسط أو فى جبال نفوسة فى إقليم طرابلس وجزيرة جربة، وهكذا .. انتهى الصراع بفضل القيروان وانتهى ذلك القتال الدموى بانتصار السنة فى ولاية أفريقية [١٧].

إلا أنه فى عام ١٢٧هـ نجد هناك صعوبة كبرى تواجهها القيروان فى عهد عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى هى مشكلة الخوارج الذين كانت قوتهم قد تجمعت فى جبال نفوسة بطرابلس والذين سيطروا على القيروان بعد

(١٦) حسين محمود : مرجع سابق، ص ٩٦.
(١٧) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٥.

أن سيطر عليهم الخوارج الصفرية، ومن ذلك نجد أن الصراع عندما اشتد بين عبد الرحمن بن حبيب وأخوته وأبناء أخوته؛ حيث نجد حبيب بن عبد الرحمن يفر إلى قبيلة كبيرة من البربر هى قبيلة طارق بن زياد التى كان يتزعمها عاصم بن جميل وهو ابن أخت طارق بن زياد حيث سار عاصم بمن معه من الخوارج الصفرية واقتحم القيروان وقضى على بنى حبيب وأقام حكماً خارجياً صفرياً فى البلد ولكى يؤكد احتقاره للمذهب السنى دخل رجاله بخيلهم إلى المسجد الجامع وربطوا خيلهم فيه وبذلك نجد أن القيروان التى كلفت العرب إلى الآن جهوداً ضخمة فى فتحها وإقرار أمورها انتهت بعد العناء هذا إلى أن تكون مركزاً من مراكز الخوارج الصفرية.

لكن هذا الموقف من جانب الخوارج الصفرية دفع الخوارج الأباضية المسيطرين على جبال نفوسة وناحية طرابلس إلى أن يسيروا بجموعهم إلى القيروان ليطردوا الخوارج الصفرية منها، ومن ثم .. انتقلت القيروان من سلطان الخوارج الصفرية إلى سلطان الخوارج الأباضية وكل هذه الحوادث أفزعت أبا جعفر المنصور وكان قد جعل الدولة العباسية دولة السنة والجماعة .. فإننا نجد أنه يأمر واليه على مصر محمد بن الأشعث بالمسير إلى أفريقية وإخراج الخوارج من القيروان وتم له وعادت القيروان وأفريقية إلى المذهب السنى وفى الصراع بين السنة وبين الخوارج من أجل السيطرة على القيروان قتل زعيم الخوارج الخطاب بن عبد الأعلى بن السمح المعافرى زعيم الخوارج الأباضية ففر الباقون إلى خارج أفريقية وهكذا .. حفظت القيروان وحفظت السنة معها [١٨].

وهكذا كانت القيروان من أقدم المدارس الإسلامية فى بيئة المغرب (الغرب) الإسلامى إذ كانت هى الأولى فى هذه المدارس ودورها هو الأساس ثم مدرسة قرطبة فى الأندلس ومدرسة فاس فى المغرب الأقصى وسوف يستمر التنافس بينها نحو سبعة قرون متصلة، غير أن تاريخ مدرسة القيروان هو تاريخ الثقافة العربية الإسلامية المغربية

(١٨) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٩.

فى المغرب فهى زعيمة هذه المدارس وهى التى أعطت وتحدت هاتين المدرستين قرطبة وفاس فترة طويلة من الزمن بل أنه لم تظهر هاتان المدرستان إلا حينما ضعفت مدرسة القيروان ثم انهارت آخر الأمر [١٩].

ولقد قصدها أبناء المغرب وغيرها من البلاد المجاورة وهى المغرب الأقصى والأوسط والأندلس وغرب أفريقيا لأنها كانت أعظم مدينة بالمغرب وأكثرها علماً وتجارة ومالا وأحسنها منازلاً وأسواقاً وفيها ديوان جميع المغرب وبها دار سلطانها وبها ما يلزم الخارج من القيروان إلى مصر [٢٠].

وقد رأينا الجهود التى بذلها الولاه العرب منذ عهد أبى المهاجر دينار وزهير بن قيس البلوى وحسان بن النعمان الغسانى لإقرار السكينة فى المدينة والبلاد وانتشار الطمأنينة بين ربوعها حيث ظل البلاد عهد من السلام والإسلام ولعل هذا يفسر أن إسلام البربر وإقبالهم على الإسلام والثقافة العربية الإسلامية قد حببهم فى العرب وفى ثقافتهم وهذب من طبيعتهم النزاعة إلى الثورة فى الخروج على السلطان، كما أن تلك المدينة قد أدت دوراً من أهم الأدوار الثقافية فى حياة القارة الأفريقية وبصفة خاصة فى المغرب وبلاد الأندلس وغرب القارة الأفريقية فقد كانت بحق نقطة من نقط الارتكاز الهامة التى تقدم منها الاسلام إلى بقية أنحاء المغرب والأندلس وغرب أفريقيا، ومن هنا.. فإن القيروان من أولى المدنالتى تقدم منها الإسلام إلى حوض النيجر [٢١]، وقد أمدت القيروان تلك المناطق بالدعاة والفقهاء والعلماء والتجار الذين تعلموا وتلقوا دروسهم وعلومهم فى مدارسها ذات الطابع الثقافى الإسلامى المغربى [٢٢].

وقد شهدت القيروان نوعاً من التجديد والإصلاح فى عهد هارون الرشيد عندما عين (هرثمة بن أعين) والياً على أفريقيا عام (١٨٠-١٨١هـ/٧٩٦-٧٩٧م)؛ حيث

(١٩) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٦٦.
(٢٠) ابن حوقل : صورة الأرض، ص ٩٦.
(٢١) عبده بدوى : مدن أفريقية ، ص ١٩٨.
(٢٢) عبد العزيز كامل : وجه الإسلام فى القارة الأفريقية، ص ١٠٦.

عمل هرثمة على تجديد ما خرب من المدر والموانى والمنشآت وليعيد ثقة الناس فى الدولة فقد أصلح المسجد الجامع للقيروان ونظم الأسواق واهتم ببناء قصور العباد، وقد كان الدافع لرجال الدولة إلى العناية بشئون الرباطات أو القصور أن رجالها كانوا دائماً مؤيدين للحكومة المركزية لأنها كانت دائماً نصيرة السنة وكانوا يقفون مع الفقهاء السنة والمالكية (رجال القيروان) فى صراعهم مع المذاهب المختلفة المخالفة لأهل السنة، ومن هنا .. كان رجال القيروان قوة للنظام والخلافة الأموية والعباسية، وقد كانوا عاملاً من عوامل الاستقرار وازدهار الحضارة العربية الإسلامية (٢٣).

ونقول أن العصر الأغلبى الذى بدأ ١٨٤هـ/ ٨٠٠م والبلاد فوضى تتقاسمها جماعات الخوارج والعرب انتهى والبلاد موحدة تحت لواء السنة والمذهب المالكى فلا مجال للخوارج إلا فى أقصى الطرف الغربى للبلاد فى أقليم تاهرت بالمغرب الأوسط ولم يكن داخلاً فى دولتهم وكذلك كانت هناك جماعات أباضية صغيرة فى بعض نواحى طرابلس وجبل نفوسة وجزيرة جربة ولكنها لم تعد تشكل للقيروان السنة المالكية أية متاعب أو مصاعب للحكام. ولقد كان «للمالكية» اهتمام بالأبنية والمنشآت وكان يزيد بن حاتم دور كبير فى تطوير جامع القيروان وإنشاء أسواق القيروان وتونس وتنظيمها وكذلك اهتم –كما سبق أن ذكرنا– هرثمة بن أعين بإنشاء القصور للمرابطين والزهاد والمحارس على الساحل ولكن بنى الأغلب هم الذين مدنوا أفريقية (تونس) والمغرب الأوسط ومن أعظم أعمالهم تجديد مسجدى القيروان وتونس وهما مسجد عقبة بن نافع الفهرى ومسجد الزيتونة وإعطاؤها صورتها الباقية إلى اليوم وقد تعاقبت على مدينة القيروان أعمال التجديد منذ بناء عقبة بن نافع ثم جدده حسان بن النعمان واكمله حنظلة بن صفوان ولكن الذى أعاد بناءه كله ورفع قبابه وجدد مئذنته وأعطاه صورته الحالية كان زيادة الله بن الأغلب فقد أنفق فى ذلك مالاً جزيلاً طوال سنوات حكمه، وكان يقول ما أبالى ما قدمت عليه يوم القيامة وفى صحيفتى

(٢٣) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٨١.

أربع حسنات ببنائى المسجد الجامع بالقيروان وبنائى قنطرة أم الربيع وبنائى حصن سوسة وتوليتى أحمد بن أبى محرز قضاء أفريقية (٢٤).

وقد اتسعت القيروان وقامت فيها الأسواق والأحياء ونشأ مجتمع فيروانى محلى، عماد الفقهاء والقضاة ورجال العلم والدين وأهل الذهد والورع والتجار ونفر من الأغنياء واهل الصناعة وهكذا ترى كيف كانت القيروان سوقاً تجارياً كبيراً تصدر منه القوافل إلى بلاد الصحراء ومراكز تجارياً هاماً للقوافل المارة فى الشرق؛ حيث مصر إلى الغرب حيث المغرب الأوسط والأقصى والأندلس وبالعكس وقامت بها حلقات الدرس فى المسجد (مسجد عقبة) وغيره من المساجد التى يؤمها شيوخ كبار لهم مقام كبير فى العالم الإسلامى كله بالتدريس والشرح والافتهام وتلقين الطلاب كل ما يمت للعلوم الإسلامية والشرعية واللغوية والأدبية بصلة (٢٥).

ولقد وضح فى أفريقية وبالذات فى مدينة القيروان كيفية التعاون بين طبقات السكان على اختلافهم وظهر التآلف والتجاوب والاندماج بين العرب والبربر أهل البلاد الأصليين وبين الأفارقة وهم العنصر الذى كان خليطاً من البربر وبقايا الرومان القدماء؛ حيث عاشت كل هذه العناصر فى القيروان حاضرة البلاد جنباً إلى جنب يوحد بينهم الإسلام ويعصمهم القرآن ويجمعهم مذهب واحد، هو مذهب الإمام مالك ونهج السنة والجماعة، وقد ظهر ذلك فى ميدان الحضارة، وفى الفكر والثقافة العربية الإسلامية التى شهدت فى أواخر القرن الثانى الهجرى نمو وغلبة بل اشتد عودها وازداد دفعها إلى طريق التطور والتقدم؛ بحيث أن مساجد القيروان ومسجد عقبة الجامع قد شهدت حلقات للتدريس وأنشئت مدارس جامعة أطلقوا عليها «دور الحكمة» واستقدموا لها العلماء والفقهاء ورجال الدعوة والدين من الشرق فكانت هذه المدارس وما اقترن به أنشاؤها من انصراف القائمين عليها للدرس والبحث عاملاً فى رفع شأن لغة القرآن

(٢٤) الدباغ : مصدر سابق، جـ٢، ص ٣٨.
(٢٥) حورية عبدة سلام : مرجع سابق، ص ٢٨٦.
(٢٦) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٦٨.

الكريم لغة العرب وثقافتهم (٢٦).

دور القيروان فى الحفاظ على المذهب المالكى :

غير أن أهم تطور ثقافى شهدته أفريقيا فى تلك الحقبة التاريخية هو انتشار مذهب الإمام مالك بن أنس من مدرسة القيروان وانتشاره فى القسم الغربى من العالم الإسلامى كله بما فيه الأندلس ثم عبوره إلى غرب أفريقيا؛ حيث لايزال إلى هذه الأيام هو المذهب الغالب على المسلمين فى هذه البلاد، وهو العامل الموجه لثقافتهم وحضارتهم وحياتهم الاجتماعية.

ومع أن ولاة القيروان فقدوا نفوذهمبالمغرب الأقصى إلا أنهم ظلوا يعملون ويهتمون بشئونه ويعملون جاهدين على الإبقاء على الصلات التى تربطه بالقيروان فقد عمل عبد الرحمن بن حبيب الفهرى (١٢٧-١٣٢هـ) على حفر سلسلة من الآبار تصل بين واحات أفريقية وبين مدينة أودغست بصحراء المغرب الأقصى واستطاع جنوده بفضل هذه السياسة أن يعبروا الصحراء وأن ينشروا الإسلام ومذهب السنة وأن ينتشروا بين القبائل الضارية فيها كما استطاع التجار أن يفعلوا ببلاد الملثمين وبلاد السودان (٢٧).

ولقد كانت عظمة القيروان وتطورها وازدهارها على أيدى أولئك العلماء والفقهاء والذين قدموا إليها من مصر وبلاد المشرق وكثرت هجرتهم إليها والذين كانت لديهم المعرفة التامة بأمور الإسلام وعلومه ومناهجه؛ بالإضافة إلى النظم الإدارية والحضارية والثقافية التى تركت بصماتها على الحياة الدينية فى أفريقية (تونس) (٢٨) والذى ساعد القيروان على أداء دورها الإسلامى والحضارى والثقافى والفكرى والعلمى أن المذهب المالكى كان هو المذهب السائد فى أقليم تونس وشرق الجزائر (أفريقية) وأن العلوم الإسلامية كلها التى كانت تدرس فى تلك البلاد تدور حول فقه الإمام مالك

(٢٧) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الأفريقة، ص ٩١.
(28) Hallett. P. Africa to 1875. P.46.

والعلوم الإسلامية المساعدة الأخرى، والتى تخدم هذا الفقه وتساعد على فهم هذه الثقافة المالكية، والتى وضحت فى القيروان والتى انتقلت منها إلى بقية الأقطار الإسلامية الأخرى، ومن هنا .. فإننا لانجد فى تلك الأقطار مذهباً إلا مذهب الإمام مالك ولا فقهاً إلا فقه الإمام المذكور ذلك لأن أهم تطور ثقافى حضارى عربى شهدته البلاد هو انتشار مذهب الإمام مالك بن أنس فى مدرسة القيروان وانتشاره فى التقسيم الغربى من العالم الإسلامى (٢٩).

كذلك .. فإن هناك حقيقة تاريخية ثانية هى أن مذهب الإمام مالك لم يكن انتشاره وليد عصر الأغالبة ١٨٤هـ ولكن ذلك المذهب قد انتشر فى البلاد قبل الأغالبة، غير أن عصرهم قد شهد الانتصار النهائى لهذا المذهب وسرعة انتشاره فى بلاد المغرب كلها، بل أكثر من ذلك أن انتشار المذهب المالكى قد ساعد على حركة التعريب فى المغرب؛ حيث مضت تلك العملية بخطوات واسعة فى ظل الدول المستقلة التى قامت فى المغرب العربى منذ الربع الأخير من القرن الثانى الهجرى (أواخر القرن الثامن الميلادى) وبرزت فى بيئة المغرب مدرسة القيروان حيث كان أهم تطور تاريخى وحضارى هو ظهورها بتلك القوة العلمية والفكرية والثقافية وشهدت بعداً جديداً بانتشار مذهب مالك فى مدرستها وهكذا .. لعبت مدرسة القيروان ودور الحكمة التى بذل عليها الأغالبة الكثير من الأموال من أجل العمل على نشر المذهب المالكى؛ حيث استقدموا العلماء والفقهاء من مصر والحجاز لكى يعقدوا حلقات الدرس والتعليم والتلقين فى ربوع هذه الدور التى كانت بمثابة جامعة شاملة تدرس فيها كل علوم العصر من فقه وحديث وتفسير ومواريث وعلوم اللغة العربية (النحو، والصرف، البلاغة، العروض، البيان)، وعلوم المنطق والفلك والحساب وغيره من علوم العصر التى انتشرت فى ذلك الوقت (٣٠).

(٢٩) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٦٦.
(٣٠) محمد محمد أمين : مرجع سابق، ص ٦٨.

وهنا .. فإننا سنعرض ما ذكره الدباغ فى كتابه معالم الإيمان عن أن مدينة القيروان هى رابعة الثلاثة مكة المكرمة، والمدينة المنوة، وبيت المقدس؛ فإنه يحاول بذلك أن يجعل للقيروان مكانة دينية فى قلوب أهل الغرب وأفريقية تدانى مكانة المدينة المنورة، ومكة المكرمة، وبيت المقدس فى قلوب المسلمين، ومن هنا .. يحاول أن يضفى على المدينة نوعاً من التبرك والتقديس أو على الأقل بالنسبة لأهل المغرب الذين يجب عليهم أن يحافظوا على هذه المدينة وأن يجعلوها كعبة العلم والمعرفة والعلوم وأن تتجه إليها قلوب كل أبناء المغرب باعتبار أنها المدينة الأولى العربية الإسلامية التى ظهرت فى قلب المغرب؛ حيث كان إنشاؤها عام ٥٠هـ ولم تكن هناك أية مدينة أخرى قد رفعت فى المغرب وعلى هذا كان على القيروان أن تؤدى واجبها فى المحافظة على الشريعة الإسلامية، وأن تكون ملاذ السنة والجماعة كذلك ما ذكره الدباغ أيضاً من أن القيروان قد دعى لها كبار الصحابة ممن شهدوا موقعة (غزوة) بدر وبيعة الرضوان مع رسول الله ﷺ، ومن هنا كانت أقدم المدن الأفريقية العربية الإسلامية بعد الفسطاط وهذا يعطى لها المكانة العلمية فى قلوب سكان المغرب. ومن هنا كانت مدينة القيروان حاضرة الثقافة وكعبة الحضارة ومنهل العلوم الإسلامية ومقر جهابذة الفقه والدين[٣١].

وكما حافظت القيروان على الشريعة الإسلامية والجماعة والسنة .. فإنها حافظت واحتضنت المذهب المالكى أحد الفروع الأربعة لمذهب السنة (المالكى – الشافعى – أبو حنيفة – الحنبلى) ورفضت أن تكون مساجدها ومدارسها ودار حكمتها مكاناً لغير المذهب المالكى، نعم .. لقد كانت الدولة العباسية وولاياتها (١٣٢-٦٥٦هـ) قد اتخذوا مذهب أبى حنيفة النعمان مذهباً رسمياً للدولة، وكان على هذا المذهب أن يدخل أفريقية فى ركاب القوات العباسية الزاحفة إلى المغرب خلف محمد بن الأشعث الذى طرد الخوارج الأباضية من القيروان، لكن مذهب ابى

(31) Marcais, G. op. cit., P. 115.

حنيفة النعمان لم يجد قبولاً لدى سكان القيروان وأفريقية المغرب الأقصى والأوسط والأندلس وغرب أفريقيا لأن هذه الشعوب قد تعلقت بحب الرسول ﷺ وحب الإمام مالك بن أنس فقيه وعالم دار الهجرة[٣٢].

وعلى هذا قد كان الدور الذى لعبته مدرسة القيروان وغيرها من المدارس المغربية الأفريقية، أن مبدأ المالكية قد أخذ أبعاد خطيرة فى نفوس المغاربة؛ حيث تمكنت منها وبدأ الفقه المالكى يأخذ طريقه للتعميم والانتشار حيث وقف لكل المذاهب الأخرى بالمرصاد ولو كانت من مذاهب أهل السنة كالحنابلة والشافعية والحنفية إضافة رلى موقفهم الحازم مع الخوارج والشيعة والمعتزلة وغيرهم من الفرق الأخرى، وقد أصبح هذا المذهب، المذهب الرسمى لأهل أفريقيا وغيرها من مناطق المغرب العربى[٣٣].

ولقد أدت القيروان وعلماؤها وفقهاؤها دورهم الهام والكبير فى تاريخ المغرب العربى عندما أثار المعتزلة مسألة خلق القرآن الكريم، وأخذت الدولة العباسية بهذه المسألة وأصدرت أوامرها بامتحان القضاة؛ حيث كان المعتزلة هم أصحاب تلك الدعوة والأقوال، ومن هنا تصدروا لهذه الأقوال وتصدر رجالها من القضاء وكان أن تولى فى مدينة القيروان أحد رجال المعتزلة ويدعى (عبد الله بن أبى الجود) فى زمن حكم زيادة الله الأغلبى ومن هنا بدأ البلاء يشتد والأذى يزداد على فقهاء وعلماء المالكية، وهنا برز دور أحد كبار فقهاء المالكية فى أفريقيا وهو سحنون بن سعيد (أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التتوخى) ونال سحنون هذا أشد أنواع العقاب وقاسى أشد المحن لأنه رفض القول بخلق القرآن الكريم وشاءت الإرادة الإلهية أن تلغى الدولة العباسية فى عصر الخليفة المعتصم بالله العباسى هذه المسألة وهنا يتصدر المالكية أمر القضاء فى القيروان ويفرج من السجن عن سحنون بن سعيد ليتولى أمر القضاء بعد تلك المحنة،

(٣٢) الدباغ : مصدر سابق، جـ٢، ص ٥٢.
(٣٣) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٩٤.
(٣٤) صلاح العقاد : المغرب العربى، جـ٣، ص ٢٤.

ومن ذلك التاريخ صار المذهب المالكى هو المذهب السائد على ما عداه من المذاهب الأخرى (٣٤).

ومن هنا .. فإنه يرجع الفضل إلى سحنون بن سعيد ورفقائه من علماء المالكية وتلاميذه فى دخول املغاربة فى هذا المذهب جماعات بحيث طار صيته إلى الأندلس فجاء علماء قرطبة وغيرها من مدن المغرب والأندلس إلى القيروان يسعون إليها، وإلى عالمها الكبير ابن سعيد لكى يتتلمذوا على يديه ويدرسو تعاليم المذهب المالكى وخصائصه فى الفقه والتشريع ومن ذلك الوقت بدأ المذهب المالكى يأخذ طريقه للانتشار فى بلاد الأندلس وإذا كان ابن سعيد قد ذاع صيته فى انتشار المذهب المالكى واتخاذ القيروان مقراً له وقدوم الطلاب إليه لدراسة «مدونته» التى ألفها عن المذهب المالكى؛ إلا أنه كان قد سبقه إلى الرحيل إلى مصر فقيه أفريقية أيضاً «أسد بن الفرات» قائد الغزوة الإسلامية لفتح صقلية؛ حيث كان أسد بن الفرات قد رحل إلى مصر وتتلمذ على عالم مصر وكبير المالكية فيها (على بن القاسم) واستطاع أن يدون مشاهداته وخلاصة تجاربه فى كتابه الشهير فى تاريخ الفقه والذى انتشر فى المغرب وعرف باسم (الأسدية) (٣٥).

ولقد قامت مدرسة القيروان بأداء دورها الحضارى والرسلامى فى بلاد السودان الغربى ولقد أصبح الفقهاء مالكيين فى حياتهم وإنتاجهم الفكرى وفى مؤلفاتهم التى كتبوها وفى تدريسهم بالإضافة إلى أن شعوب السودان أخذ جميعها (المسلمون) بالمذهب المالكى وأصبحوا مالكيون فى كل شىء، ومن هنا فقد تأثروا بهؤلاء الفقهاء واهتدوا بهم فى أمور حياتهم وأصبح طابع الحياة الثقافية والعلمية والفقهية والدينية حتى سيطر على كل حياتهم، وتراجم العلماء والفقهاء التى وردت فى تاريخ الفناش لمحمود كعت، وتاريخ السودان لعبد الرحمن السعدى، نبل الابتهاج بتطوير الديباج

(٣٥) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٦٨.

(٣٦) ناصح صالح مطلوب : نبل الابتهاج بتريز الديباج، رسالة ماجستير، ص ٣٢٠.

(أحمد بابا التمبكتى) تعطى صورة حية عن الحياة المالكية الصرفة فى بلاد السودان الغربى (٣٦).

وهكذا .. انتشر العلماء والفقهاء المباركين من كبار علماء المالكية فى العديد من مدن السودان الغربى والذين حاولوا القضاء على بقايا الوثنية فى تلك البلاد، والذين كانت تزخر بهم تلك المدن، والذين كان قدومهم من مدينة القيروان أو من الذين تعلموا ودرسوا وتلقوا علومهم الإسلامية فى مدارس القيروان ودار الحكمة التى بها والتى مارست دورها كجامعة عملية إسلامية تؤدى رسالة المذهب المالكى (٣٧).

ولقد كان للدور الذى لعبته مدرسة القيروان باعتبارها مركز المالكية فى أفريقية ومنها انتشر إلى بلاد السودان الغربى إن كانت هناك علاقات ثقافية وعلمية ودينية وثيقة بين هذه المدينة وتلك البلاد وقد كان لذلك أثره الكبير فى نشر العلوم الإسلامية والقضاء هلى الوثنية ونشر التعاليم الإسلامية وازدياد دور الثقافة العربية الإسلامية وازدياد الدور الذى تلعبه الحركة الإسلامية العلمية فى تلك الأقطار ومن هنا.. فإن تلك البلاد قد سارت خطواته علمية بعيدة هائلة بعيدة التأثير فى تلك الأقطار لأن القائمين على إيقاظ تلك الحركة الفقهية والعلمية والثقافية علماء وصلوا إلى تلك الأصقاع من القيروان وبقية بلاد المغرب العربى (٣٨).

لقد كانت العلوم التى تدرس فى القيروان هى نفس العلوم التى كان تدرس فى مدارس السوادن الغربى كتميكنو وجنى وجار وولاته وبرنى ومالى، وغيرها من المدن والمدارس ولاسيما فى جامعة سانكرى التى كانت تقع فى مدينة تمبكتو إحدى مدن بلاد سنغاى الشهيرة فى السودان الغربى ولكن على أضرب مختلفة وأساليب متباينة بين قراءة ودراسة وبحث وتحقيق. ونظر فيما يوصل إلى دقائق مشكلاتها وإبداء

(٣٧) نبيلة حسن محمد : انتشار الإسلام فى السودان الغربى، رسالة ماجستير، ص ٢٤٨.

(38) Trimingham, J.S. : A History of Islam in West Africa, p. 137.

(٣٩) عبد الفتاح مقلد الغنيمى : حركة المد الإسلامى فى غرب أفريقيا، ص ١٩٨.

الرأى[٣٩].

وبذلك .. فإن الثقافة العربية التى سادت تلك البلاد قد غلب عليها طابع التقاليد المالكية وكانت كلها تدور حول فقه الإمام مالك والعلوم الإسلامية الأخرى والتى تخدم هذا الفقه وتساعد على نقل هذه الثقافة المالكية التى ازدهرت فى القيروان، إلا أن ذلك لايعنى أن القيروان لم تشهد غير مذهب الإمام مالك بن زنس، لكن القيروان قد شهدت بعض فقهاء الشافعية الذين رحلوا إليها من مصر كما رحل إليها من قبل فقهاء المالكية، أو من أبناء المغرب العربى الذين تلقوا علومهم وتتلمذوا على أيدى أساتذتهم الفقهاء ورجال المذهب الشافعى فى مصر [٤٠].

وعلى هذا .. فإن بلاد السودان الغربى قل أن يوجد فيها مذهب إلا الإمام مالك ولا فقه إلا فقه الإمام مالك، ومن هنا سارت الثقافة العربية الإسلامية من خلال دراسة الفقه الماكى، ومن هنا كان مر جراء الدور الذى لعبته القيروان وتلك العلاقات الثقافية التى ربطتها مع تلك الأقطار وبقية أرجاء المغرب العربى إن كان فقهاء السودان الغربى والأوسط مالكيين فى حياتهم وتقاليدهم وإنتاجهم وتأليفهم وتدريسهم وهنا كانت المدارس الثقافية المنتشرة فى تلك الأقطار أن تكاد تكون مغربية بحتة فكأن هذه المدارس فى القيروان أو فاس أو طرابلس [٤١].

وعلى هذا كانت القيروان وغيرها من مدارس المغرب المختلفة ومراكز الثقافة الإسلامية فى المغرب دور هام فى طبع الحياة الإسلامية فى السودان الغربى، ولقد كان من طبيعة تلك البلاد من الناحية الثقافية والجغرافية أن مدت يدها وجاءت بالعطاء الإسلامى والفكرى، فمدت القيروان وعلماءها بأبصارهم إلى تلك المناطق نحو غرب أفريقيا والسودان الغربى، فانتشرت الثقافة العربية الإسلامية التى تمثلت فى الفقه

(٤٠) محمد سلام مدكور : الفقه الإسلامى، ص ١٣٠.
(٤١) عبد الفتاح مقلد الغنيمى : سلطنة برنو الإسلامية، رسالة ماجستير، ص ١٤٢.
(٤٢) زين العابدين السراج : دولة كانم الإسلامية، ص ١٠٤.

المالكى والمذهب المالكى، فانتشرت الثقافة فى جور هادئ آمن وصحى وتتبعه التجارة التى كلما ازداد نشاطها وهبت مزيداً من العلم والثقافة ونشر العلوم الإسلامية [٤٢].

وعلى هذا كان انتصار المالكية فى القيروان فى عهد الأغالبة ووقوفهم موقف المعاداة والإقناع والحجة والحسنة إزاء مذهب أبى حنيفة الذى لم يلق إقبالاً من المغاربة المحبين لرسول الله ﷺ والمخلصين للإسلام الصحيح ولقد كان سبب عدم الأخذ بمذهب أبى حنيفة. فإن ذلك يرجع إلى قلة اعتماده على الحديث واعتماده على الرأى والاجتهاد متأثراً بالمدارس الفارسية فى التفكير الحر، ومن هنا .. فإنه بفضل علماء وفقهاء ورجال المالكية فى القيروان وتصديهم لمذهب أبى حنيفة لم ينتشر هذا المذهب. فاشتد سلطان الفقهاء المغاربة المالكيين فى الحياة الثقافية والدينية، ولقد كانت مقاطعة فقهاء وعلماء المالكية للأمراء وعدم السير فى ركابهم وأخذهم بالنزعة الاستقلالية وميلهم إلى الانتصار للضعفاء والفقهاء وعدم الخضوع لسطوة السلطان، ومن هنا .. وجدت المالكية ودعوتها فى نفوس شعوب المغرب صدى عظيما لأن الفقهاء ورجال المالكية وزعماء القيروان كانوا يتحملون الأذى والمعاناة بل إنهم كانوا يستشهدون من أجل الحفاظ على المبدأ والعقيدة [٤٣]، وقد لعبت القيروان دورها فى القرنين الأول والثانى الهجريين أو منذ أن وضع عقبة بن نافع الفهرى فى خلال أربع سنوات عام ٥٠–٥٤هـ معالم تلك المدينة التى أضحت قبله العلماء والمفكرين ورجال العلم والدراسة فى بلاد المغرب ، وعلى هذا فقد حفظت للمغاربة تراثهم الفكرى والعلمى وبها أخرج أسد بن الفرات (الأسدية) وسحنون بن سعيد «المدونة» واللتين كانتا منهاج الفكر والتعاليم المالكية التى انتشرت فى أنحاء المغرب وتداول تدارسها بين طلاب المالكية ليس فى بلاد المغرب فقط لكن فى الأندلس وبلاد غرب أفريقيا.

ولقد كان الربع الأخير من القرن الثانى الهجرى هو عصر ازدهار القيروان فكرياً

(٤٣) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٧٠.

وعلمياً وثقافياً وسياسياً وعمرانياً وتجارة واقتصاد إذ شدت إليها أنظار شعوب المغرب العربى بأقسامه المختلفة حتى كانت هى الملاذ الأول لكل باحث عن العلم والمعرفة وأمور القه الإسلامى المالكى، بعد أن ظهرت فى المغرب العربى دويلات وإمارات إسلامية اتخذ بعضها المذهب الخارجى الأباضى منهجاً له فى الحكم والسياسة وأمور الدين (الدولة الرستمية الخارجية الأباضية ١٦٤هـ/٧٨١م) والتى أقامها عبد الرحمن بن رستم الذى فر إلى المغرب الأوسط ومعه نفر من الأباضية خارج الحدود السياسية للدولة العباسية فى جبل نفوسة بعد أن تم طردهم من القيروان على يد محمد بن الأشعث (٤٤).

وهكذا .. مارست القيروان دورها بأحسن ما تكون الأدوار الفكرية والحضارية والعلمية فى بلاد المغرب العربى فى وقت لم يكن الإسلام قد بدأ يأخذ امتداده العميق فى أرض المغرب حيث كانت هناك عقبات تحول دون أن تتعمق المفاهيم الإسلامية فى قلوب البربر لكن إنشاء تلك المدينة عام ٥٠هـ كان حقيقة ثابتة بأنها سوف تمارس مركزها ككعبة للعلم والمعرفة لاسيما أن القيروان بدأت تشد اهتمام أبناء قبائل البربر المسلمين من البربر البرانس والبتر منذ عهد ولاية حسان بن النعمان الغسانى (٧١-٨٥هـ/٦٩٠-٧٠٤م)؛ حيث بدأ البربر يدخلون فى دين الله أفواجاً قادمين إلى حسان ينشدون عظمة الإسلام وسمو تعاليمه وسماحة زبنائه وأخوتهم للبربر وروح التآلف والاندماج بين أبناء العمومة فى دين واحد وعقيدة واحدة، وهدف إسلامى مشترك، وهكذا .. كان لهذا الدور أثره فى تغلغل الثقافة العربية الإسلامية فى نفوس أهل المغرب وظهور جيل مستعرب (عربى – بربر) من مثقفى البربر وعلمائهم وفقهائهم وقد طبعوا الثقافة العربية بالروح المغربية والقالب المغربى فى كثير من أمور الحياة المغربية (٤٥).

(٤٤) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٩.
(٤٥) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٧٣.

وهكذا .. قدر للقيروان أن يمارس دورها فى حدود تلك الحقبة التاريخية المحددة هنا فى ذلك البحث، وهكذا كان ذلك البلد الإسلامى الأول الذى أسس على التقوى والإيمان وبفكر وئيد وعمل المجاهد الإسلامى الكبير عقبة بن نافع الفهرى الذى استشهد وروى أرض المغرب بدمائه الذكية الطاهرة من أجل أن يحفظ للقيروان عظمتها وتمارس دورها فى قلب المغرب العربى والذى لم يقتصر على المغرب فقط؛ بل تخطاه إلى بلاد الأندلس وبلاد وسط وغرب أفريقيا لكى تبقى القيروان مشاركة العواصم الفكرية الأخرى فى نشر الإسلام فى تلك الأقطار.

وهكذا .. توج الفتح الإسلامى العربى لبلاد المغرب بانتشار الإسلام واللغة العربية بصورة قوية وفعالة فى بلاد المغرب وتوج الانتصار الإسلامى العربى بظهور ذلك المركز الحضارى والفكرى والثقافى بصورة قوية بعد ربع قرن تقريباً من بداية الفتح الإسلامى لبلاد المغرب، وهكذا كان بحق إنشاء تلك المدينة بحق البداية الحقيقية لتاريخ الحضارة العربية الإسلامية المغربية.

ومن هنا لعبت القيروان دوراً حاسماً وفعالاً فى نشر الإسلام والعروبة والفقه المالكى فى تلك البقاع بل هى السبب المباشر لظهور تلك الكتلة العربية الإسلامية الثانية فى أفريقية بعد ظهور الكتلة الإسلامية العربية فى مصر. وهكذا كانت القيروان كما قال الدباغ عنها رابعة الثلاثة مكة المكرمة، والمدينة المنورة وبيت المقدس.

* * *

الخـــاتمـــة

فى هذه الدراسة عن المغرب العربى فى قرن ٢٢هـ/١٢٤ – ٦٤٣ – ٧٤٣م. أى هى الفترة التى بلغ فيها المغرب العربى أقصى مدى فى استقرار السيادة العربية الإسلامية واستتباب الأمر فى ربوع البلاد حيث كانت الدولة الأموية قد أخذت على عاتقها فتح ذلك المصر فى الأمصار الواسعة لكى يضاف إلى رقعة الدولة الإسلامية الواسعة وقد كان اختيار هذه النهاية لهذا الجزء من الدراسة عن المغرب العربى يوحى بأن فترة الدولة القوية الأموية قد بدأت فى الضعف والانهيار بانتهاء فترة حكم أقوى أمراء الدولة الأموية هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم والذى لم تدم الدولة الأموية بعد وفاته سوى سبع سنوات ١٣٢هـ/٧٥٠م تولى فيها أربعة خلفاء من بنى أمية كان آخرهم محمد بن مروان. ومن ثم كان عام ١٢٧هـ هو عام الفتن والشدائد والفوضى ولهذا أثرت أن تكون هى نهاية هذا الجزء الذى كان فيه المغرب جغرافياً وسكانياً يشكل إضافة إلى المشرق وقد اكتسب المغرب مفهوماً سياسياً طوال فترة التاريخ الإسلامى ومنذ الفتح العربى وقد اختار الجغرافيون (بعضاً منهم) الحواجز الطبيعية أساساً لتعريف المغرب كما أن منهم من اختار البعد الطبيعى ليكون هو الحد الفاصل لتحديد بلاد المشرق والمغرب وبعض الجغرافيين اختار التركيب البشرى والبعض قد اختار الأوضاع الإدارية والظروف السياسية.

وعلى هذا فإن لفظ بلاد المغرب مصطلح يطلق على كل البلاد الإسلامية الممتدة فى حدود مصر الغربية حتى ساحل المحيط الأطلسى ولهذا نجد أن اسم المغرب يعنى كل الأقاليم الغربية من الشمال الأفريقى بما فيها ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وكما أننا نجد بعض الجغرافيين يستثنى ليبيا من التقسيم وبعضاً آخر يضع مصر فى بلاد المغرب والبعض الآخر يضعها فى بلاد المشرق والآخر يضعها حداً وسطاً بين المشرق

والمغرب.

وعلى هذا فإنه انطلاقاً من التعريف للبلاد المتفق على تسميتها بالمغرب نهج فريق من المؤرخين على تقسيمها إلى أربعة أقسام وذلك مما اقتضته الظروف السياسية والاقتصادية والعسكرية فى ذلك الوقت وهى أقليم برقة وطرابلس ثم المغرب الأدنى وأفريقية (تونس حالياً) وبعض المناطق الشرقية فى الجزائر وكانت القيروان العاصمة السياسية لهذا الأقليم أيام الأمويين، ثم المغرب الأوسط وكانت تاهرت أشهر مدنه والمغرب الأوسط يعنى الجزائر حالياً، ثم المغرب الأقصى ويعنى حالياً المملكة المغربية.

وإذا نظرنا إلى الظروف الطبيعية والجغرافية للمغرب نجد أن كل بلاد المغرب كلها تعتبر من الناحية الطبيعية والجغرافية والمناخية إقليماً واحداً له خصائص ومميزات واحدة تجعل من العسير تقسيمه إلى وحدات سياسية متميزة بعضها عن بعض.

وبلاد المغرب أقليم مستعرض يسير من الشرق إلى الغرب دون أن يكون له عمق عمرانى كبير قبل الفتح الإسلامى وهو متميز بظاهرة جغرافية واضحة جداً هى جبال الأطلس، ومن هنا .. فإن الطبيعة الجبلية المتجانسة لأقاليم المغرب قد انعكست على طبيعة السكان الذين عرفوا منذ القدم بصلابتهم ومهارتهم القتالية مستفيدين من الظروف الجغرافية الملائمة.

وبلاد المغرب فى مجموعها بلاد غنية إلى حد ما، فيها موارد وفيرة للثروة والحياة ولكنها تحتاج إلى أمن واستقرار طويل لكى تؤتى ثمارها لأن أهل المغرب أنفسهم أهل عمل ودأب وذكاء.

ومن الناحية السكانية نجد أنه مع بداية العصر التاريخى والهجرات العربية تخرج من شبه الجزيرة العربية تتجه إلى بلاد المغرب (شمال أفريقيا) تمر مصر ومن هنا تكونت السلالة القديمة للمغرب من العناصر التى هاجرت إلى تلك الأصقاع فى

فترات زمنية وتاريخية متعاقبة، بل إن هذه السلالات البشرية والعرقية والجنسية اختلطت فى تلك البلاد فيما بينها بدرجات متفاوتة، ولقد عرف سكان المغرب منذ أقدم العصور بإسم البربر ولفظ البربر هنا لا علاقة له بلون البشرة وإنما هو لفظ إغريقى كان الإغريق يطلقونه على كل من لايتكلم اللغة الإغريقية فقد كانوا يسمونهم «باربارى».

ولقد كان المصطلح العربى هو الأصح عن الأغريقى، ذلك لأن العرب على عادتهم كانوا دائماً يحاولون أن يجدوا أصلاً عربياً لكل لفظ و علم جغرافى فيقولون أن البربر أولاد مهاجر عربى أصيل من حمير يسمى بر بن قيس ويقال أن هذا الرجل عندما هاجر إلى المغرب لم يفهم لهجة هؤلاء الناس الذين يقطنون تلك الأماكن فسماها بربره (المكان) وسمى الناس الذين يتكلمون بها بالبربر، أما الحقيقة التاريخية والعرقية أن البربر شعب سامى أبيض يسكن هذه البلاد منذ ثمانية آلاف سنة قبل الميلاد قادماً من الجزيرة العربية (انظر كتابنا عروبة مصر قبل الإسلام، فضلاً عن كولين ماكيفيدى، أطلس التاريخ الأفريقى، ص ٣٥) يسكن هذه البلاد منذ أقدم العصور، ولكن البربر لم يطلقون على أنفسهم هذه التسمية بل يعرفون أنفسهم بأسماء شعوبهم وقبائلهم.

ولقد طور الرومان هذا اللفظ إلى مفهوم سياسى وحضارى بمعنى الشعوب الأدنى منهم مرتبة وحضارة ويعيشون فى معزل عن الحضارة الرومانية، وقد توارثت الأجيال هذا الرسم وظل قائماً بين تلك الشعوب حتى الوقت الحاضر؛ فهؤلاء السكان كانوا يطلقون على أنفسهم اسم «أمازيغ» وهذه الأسماء تعنى فى لغتهم لفظ الأحرار.

ولقد كان على هؤلاء البربر أو الأحرار أن يدعوا منطقة الساحل للرومان كما تركوها مرة أخرى نهائياً للوندال واكتفوا بسكن الداخل وتلك هى صورة الوضع البشرى بشكل عام فى المغرب قبل الفتح العربى حيث كان سكان الداخل هم الأغلبية العظمى (البربر البتر) وسكان السواحل الذين كانوا عادة أصحاب الغلبة

والنفوذ تبعاً للمتغيرات السياسية التى كانت تمر بها المنطقة بين الحين والآخر، وإذا تأملنا جيداً تركيب السكان فى تلك البقعة المتدفقة بالأحداث السريعة لوجدنا العنصر البربرى هو الغالب فى بلاد المغرب.

وينقسم البربر إلى قسمين كبيرين بحسب أسلوب الحياة والطابع الحضارى وهم البربر والبدو ويسمون بالبتر والبربر الحضر ويسمون البرانس، وأما البربر البرانس فهم سكان سواحل البحر المتوسط والشريط الساحلى والشمالى والمناطق الشمالية لجبال الأطلس، أما فريق البربر الآخرون البتر فهم قوم أقبلوا من الجنوب وفى الغالب الجنوب الشرقى من قلب القارة الأفريقية عن طريق وادى النيل وقد نزلوا أولاً أقليم برقة ثم انتشروا غرباً وهم جنس أفريقى أسمر اللون (يثبت ذلك صحة النسب العربى ووصولهم من شبه الجزيرة العربية) وقد نشأ من اختلاط تلك العناصر نشوء العنصر البربرى الذى استعرب بعد أن اختلط بالعرب وأصبح اسم العروبة وهو يجمع فى تكوينه حالياً جميع عناصر شعوب المغرب العربى.

وعلى هذا فإن صلة القرابة الجنسية والروحية بين العرب والبربر صلة قديمة وتأسيساً على هذه الأقوال فإنه يمكن القول أنه فى متابعة الإنسان فى الشمال الأفريقى سواء فى عصور ما قبل التاريخ أو فى العصور التاريخية نستطيع أن نقول أنه منذ عصور ما قبل التاريخ ولآلاف السنين تبادلت منطقة الشمال الأفريقى الهجرات مع منطقة جنوب شبه الجزيرة العربية عبر باب المندب ثم أضيف برزخ السويس فى فترات تاريخية لاحقة.

وأما أهل البربر فلا يزال هناك غموض يحيط بتاريخهم القديم وعلماء الأنساب غير متفقين على تحديد هوية معينة لهم، بعضهم يعتقد أنه ينحدرون من أصول حامية والآخر خاصة النسابون العرب يعتقدون بل يرجحون أنتسابهم وارتباطهم بالمسلمين، أكد هذه الأقوال المؤرخ كولين ماكيفيدى بأنهم عناصر سامية بيضاء قادمة من الجزيرة

العربية، وكما اختلف المؤرخون وعلماء الأجناس على هوية البربر أهى حامية أم سامية أم خليط بين الاثنين فقد اختلفوا كذلك على المصدر الذى جاءت منه هذه الجماعات إلى المغرب فمنهم من يعتقد أن البربر قدموا من آسيا (الجزيرة العربية) فى وقت مبكر، وبعضهم يعتقد أنهم قدموا من جنوب شرق أفريقيا ومنهم من يزعم أنهم أوربيون فى الأصل استوطنوا المغرب منذ عصور سحيقة فى القدم.

وهكذا كان المغرب بظروفه السياسية وقبائله التى ميزت بينها فروق اجتماعية واقتصادية ظاهرة أدت إلى تكتلهما فى مجموعتين لكل منها مصالحها المتناقضة مع الأخرى وهكذا انصب العداء الضارى بينهم واستفحل الصراع واستمر دون أن تخفف من حدته السنون. وإذا بالبربر تصلهم أنباء تحركات عسكرية تطرق أبوابهم هذه المرة من الشرق وذلك فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى وهكذا بدأت صفحة جديدة فى تاريخ البربر وبدأ المغرب وتاريخه يأخذ بعداً جديداً وفصلاً من فصول التاريخ الإسلامى.

ولقد كان العرب هم أول من دخلوا بلاد المغرب وجرأوا على اقتحام جبال الأطلس وما يليها جنوبًا، ولذلك كانوا أول من عرف البربر معرفة صحيحة، وعندما وصل العرب إلى هذه الأماكن وجدوا البربر من الناحية الاجتماعية يعيشون فى قبائل قريبة الشبه من قبائلهم العربية فى تنظيمها.

ولقد كان العرب هم أول من دخلوا بلاد المغرب وجرأوا على اقتحام بلاد المغرب؛ فإن العرب قد انساحوا فى تلك البقاع مع الفتح الإسلامى حتى موانى المغرب، على الساحل ولم يتركوا مكانًا للرومان، إلا أن القرن الثانى الهجرى –نهاية الجزء الأول من الموسوعة– قد شهد إختلاط العرب بالبربر اختلاطًا مباشرًا فى كل أنحاء البلاد وقد تضاعف عدد العرب فى أواخر خلافة الدولة الأموية ١٣٢هـ/٧٥٠م – ١٢٥هـ/٧٤٣م، كما قامت الدويلات المغربية المستقلة فى القرن الثانى الهجرى فى

أفريقية ومن هنا .. فإن التركيبة السكانية للمغرب العربى تتكون من فصيلة عرقية وجنسية وسلالية تكاد تكون واحدة إلا فيما ندر؛ حيث أن أكبر القبائل البربرية كصنهاجة وكتامة، والتى تحمل بطونًا وقبائل متعددة تعود فى جذورها العرقية إلى عرب الجنوب حيث اليمن وساحل عمان وعلى هذا فإن الصلة العرقية هى التى ساعدت فيما بعد على انتصار العروبة والإسلام فى تلك الديار وظهور بلاد المغرب بتلك الصورة العربية الإسلامية.

أما فيما كان عليه الوضع السياسى فى بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامى، فإن الأقاليم الساحلية المطلة على البحر المتوسط كانت تخضع لحكم الرومان المباشر وكانت بها مناطق عسكرية محصنة على الشريط الساحلى لأن التقدم نحو الداخل لم يكن سهل المنال ومن هنا كانت حدود هذه الدويلات الجنوبية غير واضحة، وكانت هناك دولة توميديا التى ضمت طرابلس ومصراته وغيرها من الأقاليم، وفرضت روما سيطرتها على توميديا فيما بعد، بعد أن كانت قد سيطرت على بقية الساحل الشمالى فى المحيط الأطلسى حتى توميديا، وقد كانت أرض أفريقيا مسرحًا للصراع بين الرومان فيما بينهم فى عصر يوليوس قيصر، وقد شهد عصر يوليوس قيصر توزيع أراضى أفريقية إلى جماعة من أثرياء الرومان لكن بعد موت يوليوس قيصر، جعل الرومان كل شمال أفريقيا ولاية واحدة يحكمها حاكم عام يقيم فى مدينة (أوتيكا) لكن سقطت المغرب (الشمال الأفريقى) تحت قبضة الوندال، لكن روما استطاعت استعادة الشمال الأفريقى من أيدى الوندال وبذلك أصبح الشمال الأفريقى ولاية رومانية جديدة، وهكذا ظلت كل هذه الأقاليم المغربية تابعة إلى روما وإن قسمت إلى أقاليم أو ولايات؛ بحيث جعل كل أقليم حاكم عسكرى يقيم معه قوة عسكرية، وقد أسفر ذلك الحكم الرومانى عن ظهور طائفة من سكان المغرب تسمى بالأفارقة وهم مزيج من البربر والأجناس الأوربية (الرومانية والأغريقية) التى حكمت أفريقية وأجزاء من ساحل المغرب وهم جنس

يختلف عن البربر وكانوا يتكلمون لغة ساحلية من لغات شواطئ البحر المتوسط وكانت المسيحية منتشرة بينهم على نطاق ضيق وكان الكثيرون منهم يعرفون اللاتينة والإغريقية وهؤلاء هم الذين كانوا يتعاملون مع الرومان.

وقبل الفتح العربى الإسلامى لشمال أفريقيا كان يحكم أفريقية (تونس) بطريق يسمى (حريجورس) ويسميه العرب «جرجير» كذلك فإن بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامى من الناحية الحضارية كانت مركز عمران بيزنطى وكانت إقليماً عامراً فيه مدن كثيرة والعديد من الموانئ على ساحل البحر المتوسط والبلاد كانت عامرة بالحركة، وكانت المسيحية منتشرة بين الأفارقة وبالذات بين الجاليات الرومية أما البربر فلم تصل المسيحية لهم ولم تكن ظاهرة أو منتشرة بصورة واضحة فقد كانوا على الوثنية ولا توجد أدنى علاقة ظاهرة أو عميقة بين الروم والبربر ولهذا سوف نجد العرب عندما يصلون إلى أفريقية سيكون صراعهم مع الروم أو البيزنطيين أولاً فلما تغلبوا على مقاومة الروم وخلصوا منهم بل حرروا البلاد منهم فإنهم سوف يدخلون فى علاقات مع البربر.

وبدأ المغرب العربى (شمال أفريقيا) يأخذ بعداً جديداً ببداية الفتح الإسلامى فبعد أن تم إطواء عصر تحت لواء الأنوار القرآنية فإنه بدأ يتجاوز حدود مصر الغربية منطلقاً إلى بلاد المغرب وبذلك حدث إطواء أو محاولة إطواء بلاد المغرب تحت لواء لا إله إلا الله محمد رسول الله بعد إتمام فتح مصر مباشرة، وبعد تلك الجهود العربية الإسلامية التى بذلت لقهر البيزنطيين وطردهم منها وتحرير البلاد من كل إرداتهم وبذلك تم جمع شمل أبناء العمومة فى الجزيرة العربية ومصر والشام وبلاد المغرب فى كتلة واحدة.

والبداية الأولى لفتح المغرب تعود إلى مطلع العقد الثالث من القرن الأول الهجرى، وذلك عندما أنهى عمرو بن العاص خلال ثلاث سنوات فتح مصر

(١٨–٢١هـ/٦٣٩–٦٤٢م).

فإنه بدأ مباشرة بالتوغل بقواته صوب الغرب متعقباً القوات البيزنطية المتقهقرة؛ حيث اتجه نحو برقة لفتحها وقد تم له ما أراد ولعل التفسير العلمى والتاريخى لهذه الخطوة أن عمرو بن العاص أراد تأمين حدود مصر الغربية بل تأمين حدود دفاعته عن مصر ومن ثم كان الاستيلاء على برقة عام ٢٢هـ/٦٤٣م، وبعد قليل فى أواخر عام ٢٣هـ/٦٤٤م نجد عمر يقود غزوة عربية بفتح أقليم طرابلس ويستولى على قاعدته بعد قتال عنيف ولكنه انتصر على الروم وكان عمرو بن العاص قد تابع سيره من برقة بمحاذاة الساحل صوب طرابلس، ثم عاد إلى مصر عام ٢٥هـ/٦٤٦م بعد أن أمضى تلك الفترة فى توطيد دعائم الإسلام فى أقليم برقة وطرابلس ومهادنة قبائل تلك الأنحاء؛ حيث كان اهتمامه موجه إلى قبيلة نفوسة البربرية جنوب طرابلس، وكانت هذه آخر فتوحات عمرو بن العاص.

وفى عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان يتم تعيين عبد الله بن سعد بن أبى سرج والياً على مصر، وقد أذن له عثمان بن عفان بفتح أفريقية ويشترك فى هذه الغزوة عدد كبير من الصحابة ومن أبناء الصحابة ومنهم مروان بن عثمان وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق، وعبد الله بن العباس وغيرهم الكثير من الصحابة، وكذلك عبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الملك ابن مروان. وقد سار عبد الله بن أبى سرج بهذه القوات إلى أماكن قريبة جديدة حتى وصل إلى حدود المغرب الأدنى (أفريقية) وهكذا وصلت قوات عبد الله بن سعد بن أبى سرج فى عام ٢٨هـ/٦٤٩م إلى تونس فى جيش يتكون من ألف جندى إسلامى وقد انضم إلى هذا الجيش كثير من القبائل وخاصة من لواتة وهوارة ونفوسة وأسلموا للتقارب الاجتماعى بين الفريقين، وقد دارت معركة مع قائد البيزنطيين والعرب على مقربة من مدينة قديمة تعرف بإسم سبيطلة ودارت معركة قتل فيها «جريجورس» وفرض

عبد الله بن أبى سرج جزية على سكان ذلك الأقليم ثم يعود إلى الفسطاط فى عام ٢٩هـ/٦٤٩م رغم هذا الانتصار الكبير، مما يدل على أن هذه المحاولات لم تكن رغبة حقيقية فى المضى فى الفتح والاستقرار إلى غايته انما هى مجرد تأمين لحدود مصر القريبة وإرهاب البيزنطيين فلا يفكرون فى الإغارة على حدود مصر من ناحية الغرب.

ولكن نلاحظ أن الهزيمة التى أصيب بها الروم كانت حاسمة إلى حد أنه لم تعد لهم قوة كبيرة فى أفريقية ولقد كانت غزوة ابن سعد إلى أفريقية العمل العسكرى البارز فى عهد عثمان بن عفان.

لكن يتولى معاوية بن أبى سفيان ومجىء الأسرة الأموية نلاحظ أن هناك قوى من التحالف والتعاون بين العرب والبربر فمن ناحية البربر بين لهم أن لهم فى العرب حليفًا قويًا يستطيع حمايتهم من الروم إذا فكر هؤلاء فى العودة إلى البلاد مرة أخرى. وقد أفاد البربر من ذلك الغزو فقد استقلوا عن الروم ولم يعودوا يؤدون لهم الجزية.

وفى عهد حكم عمرو بن العاص الثانى لمصر عام ٤٠هـ؛ فإنه أرسل دوريات صغيرة أخذت طريقها فى أكثر من اتجاه ونجحت فى قمع حركات البربر الذين خضعوا فى وقت سابق للحكم العربى، ورغم الجهد الذى قام به عقبة بن نافع الفهرى فى ولاية عمرو بن العاص الثانية .. فإن ذلك لم يدخل فى إطار العمل العسكرى التوسعى، بل كان مجرد عمليات استطلاعية، وحملات تأديبية وقائية.

وبعد وفاة عمرو بن العاص نجد معاوية يعين «معاوية بن خديج» لقيادة الفتح الأفريقى، وبعد دخول معاوية بن خديج إلى الفسطاط يقف على دقائق الموقف فى أفريقية، ومن ثم سار معاوية بن خديج إلى أفريقية بتلك الغزوة التى تشبه غزوة عبد الله بن سعد بن أبى سرج بمن شارك فيها من الأسماء السابقة من الصحابة وأبناء الصحابة لمعرفتهم السابقة بأحوال المغرب، وكان معاوية قد أعدهم من نخبة الجند ذوى

الخبرة والمعرفة بشئون أفريقية، واتخذ معاوية بن خديج الطريق التقليدى إلى برقة وطرابلس دون أن يصطدم بعقبات أو مفاجآت فى هذه النواحى التى بات الحكم العربى فيها مستقرًا وراسخًا وكان ذلك بفضل الجهود الدائبة التى قام بها عقبة بن نافع أحد قواد هذه الغزوة.

وتوقف الجيش الإسلامى فى بلدة قونية أو قمونية الواقعة إلى الجنوب من قرطاجنة ولما وصل إلى ذلك المكان وجد أن الرومان قد نزلوا فى ميناء سوسة يقودهم قائد يدعى «نفقور» فلما سمع الرم بمجىء العرب أسرعوا إلى سفنهم هربًا واستولى معاوية بن خديج على بعض المراكز الرومية القوية وقد استطاع أحد قواد الحملة أن يقوم بهجوم جرىء على مواقع الجيش البيزنطى قرب سوسة، وهى مدينة ساحلية بعيدة عن القيروان فأحدث هذا هلعًا فى صفوف البيزنطيين الذين حملتهم سفنهم إلى قاعدتهم الرئيسية فى البحر المتوسط (صقلية)، وقام عبد الملك بن مروان بمهاجمة أحد الحصون وهو حصن «جلولاء» على مسافة عشرين ميلاً من القيروان وتمكن عبد الملك بن مروان من الاستيلاء على هذا الحصن، ويذكر أن معاوية بن خديج قام بغزو جزيرة صقلية وقام بهجوم على بعض مدن الساحل فى الشمال بل وغزو رودس.

وهكذا أتيح لمعاوية بن خديج أن يدفع باستراتيجية الفتح العربى للمغرب خطوات عريضة للأمام فقد كانت هزيمة البيزنطيين الذليلة والاستيلاء على المواقع العسكرية المهمة التى افتقدوها فى بداية الفتح جعلت موازين القوى بين العرب والبيزنطيين فى أفريقية ترجح لصالح العرب، إلا أن العرب لم يستفيدوا من هذه الانتصارات كسابق عهدهم إذ نجد معاوية بن خديج يعود أدراجه إلى الفسطاط دون القيام بإجراءات عسكرية تضمن استمرار تلك الأقاليم فى ظل الحكم العربى إلا أن ذلك لم يحرم القائد معاوية من أداء دوره فى انتزاع زمام المبادرة من البيزنطيين والسيطرة على المغرب، وقد تكون تلك الحملة هى نهاية مرحلة الاستطلاع داخل الأراضى الأفريقية.

وفى عام ٤٨هـ/٦٦١م عين عقبة بن نافع قائد الجبهة الأفريقية وكان اختيار يعتبر مؤشراً جديداً لتطور جديد فى استراتيچية الفتح العربى التى تحتاج إلى مرحلة الفتوح الواسعة والاستقرار النهائى وكانت نفس عقبة قد تعلقت بالفتوح فى أفريقية وقد سار عقبة إلى أفريقية؛ حيث كان فى الجنوب بعد أن تم فتح فزان وغدامس واتجه رأساً إلى موقع قرب سبيطلة، وكان قد قرر إنشاء عاصمة أو مركز عسكرى للمسلمين فى أفريقية ومن هنا .. لم يبق أمامه سوى اختيار المكان المناسب وكان اختيارها فى مكان يقع إلى الجنوب من قرطاجنة بمسافة أقل من سوسة، وكان إنشاؤها يعنى قيام ولاية أفريقية مستقلة، وفى غمرة الشعور بالنجاح وإتمام إنشاء القيروان صدر قرار عزل عقبة وتولية أبى المهاجر دينار الأنصارى؛ حيث ترك عقبة قيادة الجيوش للقائد الجديد وسار زبو المهاجر دينار إلى أفريقية ووجد الروم قد استعادوا ثقة الأهالى وانضمو إلى الروم بقيادة كسيلة زعيم البربر البرانس، إلا أنه استطاع هزيمة كسيلة ووصل فى زحفه غرباً إلى تلمسان، وهى أكبر قواعد القسم الشرقى فى المغرب الأوسط ثم شن هجومه على أكبر قبائل البربر (قبيلة أوربة) الواقعة فى جبال أوراس، إلا أننا نجد أبا المهاجر بعد وصوله إلى تلمسان يعود إلى القيروان ويشن هجوماً عنيفاً على الروم شمال قرطاجنة عام ٥٩هـ/٦٧٩م، ولقد كان دخول كسيلة وقومه من البربر فى الإسلام من أهم أعمال أبى المهاجر دينار الأنصارى.

إلا أن عقبة عاد إلى المغرب مرة ثانية عام ٦٢-٦٤هـ/٦٨١-٦٨٣م. وقد سار عقبة عكس كل من سار من قبله من الفاتحين فقد اخترق الجبال وغزا البربر فى عقر دارهم فدخل جبال الأوراس ومضى عقبة حيث حقق انتصارات باهرة؛ حيث تم طرد الروم وحلفائهم من قبائل لواتة وهوارة ومكناسة وتابعت حملة عقبة انتشارها فى أقاصى المغرب متقدمة حتى بلغت طنجة على المحيط الأطلسى وأقام علاقة حسن جوار مع حاكم تلك المدينة، وقد وصل براية الإسلام إلى آخر المعمورة وأنزل بالبربر ضربة

قوية أرغمتهم على الفرار إلى الجنوب صوب الصحراء ووصل فى زحفه جنوباً إلى درعة وقيل إلى حدود غانة فى ذلك الوقت حيث بلاد التكرور.

إلا أنه عند عودته من هذه الفتوح وعند مدينة تاهودة وجد نفسه محاصراً بقوات من البربر بقيادة كسيلة وهناك هلك عقبة فى تلك المعركة واستشهد كل من معه من القوات العربية عام ٦٤هـ/٦٨٣م وقد أسفرت تلك المعركة عن نتائج سيئة للعرب، إذ انسحبوا شرقاً حتى برقة واستولى كسيلة على القيروان التى كان قد تم انشاؤها منذ عام ٥٠هـ. وهكذا .. كانت الحملات التى أرسلت للمغرب منذ عام ٢٢هـ/٦٤٣م حتى عام ٦٤هـ/٦٨٣م أى طوال فترة أربعين عاماً كانت عمليات استطلاع كشفية تليها مرحلة الاستقرار النهائى والدائم بالمغرب.

وفى عهد عبد الملك بن مروان عام ٦٨هـ/٦٨٧م يكلف زهير بن قيس البلوى بقيادة غزوة إلى أفريقية وذلك لإثبات قوة الخلافة الأموية للبيزنطيين والبربر فخرج من برقة غرباً عام ٦٩هـ/٦٨٨م ويصل المسلمون إلى القيروان ويهزم كسيلة ويقتل ويطارد المسلمون فلول المنهزمين وكانت معركة حاسمة عرف فيها البربر قوة العرب وتصميمهم على الفتح والانتصار وبذلك قضى على قوة البربر البرانس، لكن البربر قطعوا عليه الطريق عند درنة مثلما فعل البرانس مع عقبة سابقاً، على مقربة من طبرق واستشهد زهير بن قيس البلوى بعد قتال عنيف مع الروم عام ٦٩/٧١. ولكن هذا لم يكن ضياع البلاد ومعها الجهود التى بذلت.

وكان إن تم تعيين حسان بن النعمان الغسانى (٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م) واتخذ الطريق المعروف من طرابلس وذلك لاستعادة القيروان وتم له ذلك بغير صعوبة ومن ثم اتجه إلى قرطاجنة ودارت معركة هزم فيها البيزنطيون وأُجبروا على مغادرة المدينة، وقام حسان بهدم كل منشآتها ومن ثم قام حسان بإنشاء قاعدة بحرية فأنشأ مدينة تونس كقاعدة للأسطول الإسلامى العربى وجلب لها ألف أسرة مصرية، وفى

فترة حكمه ظهرت الكاهنة قائدة للبربر البتر لكن حسانا استطاع أن يعود إلى برقة وأستمر هناك لفترة خمس سنوات فى قصور حسان التى بناها فى تلك الغزوة، وكانت الجولة الثانية لحسان مع الكاهنة عام ٨١هـ/٧٠٠م حيث استأنف هجومه بعد أن أمدته الخلافة الأموية بقوات عديدة واستطاع حسان أن يهزم البربر ويقتل الكاهنة واسترد القيروان وينهى مقاومة البربر البتر نهائياً كما انتهت مقاومة البربر البرانس عام ٨٣هـ/٧٠١م. وبهذه المعركة نقول أن عملية فتح المغرب قد دخلت مرحلة جديدة؛ حيث تم القضاء على كل أثر للسيادة البيزنطية على السواحل الشمالية للمغرب وانتهت مقاومة البربر.

وفى تلك الفترة تم إنشاء الأسطول الإسلامى وبناء مدينة تونس وحماية السواحل المغربية للدفاع عنها ضد عارات البيزنطيين، ولقد كان معنى ذلك استقرار الأمور الداخلية فى المغرب، وقد قام حسان بتقسيم المغرب إلى عدة ولايات وأقاليم وصل عددها إلى خمسة أقاليم، برقة، طرابلس، فزان، أفريقية، المغرب الأوسط، المغرب الأقصى ثم كانت المرحلة الأخيرة للاستقرار النهائى فترة موسى بن نصير (٨٦-٩٥هـ/٧٠٥-٧١٤م) حيث اتجه موسى ومعه قواته وأبناؤه الأربعة إلى القيروان، ومن ثم تابع الغزو عن طريق بث وإرسال السرايا إلى جهات عدة فى أنحاء المغرب استطاعت أن تحقق الكثير من الانتصارات واتخاذ العديد من الإجراءات التأديبية ضد الهاربين من البربر ووطد موسى النفوذ الإسلامى وأخضع موسى السوس الأقصى والسوس الأدنى المجاور لأقليم طنجة ثم سيطر على سبتة وطنجة، وقد سهل له ذلك أن يرسل أبناءه وقواده فى حملات بسط النفوذ الإسلامى فى كل أرجاء المغرب العربى، وقد أنشأ موسى ولاية جديدة فى المغرب رضافة إلى ما قام به حسان بن النعمان الغسانى هى ولاية السوس أو سجلماسة، وعاصمتها سجلماسة وقد عين موسى بن نصير فيما بعد طارق بن زياد أميراً على طنجة؛ حيث كان ذلك بداية الفتح

الإسلامى للأندلس لكن فى عام ٩٦هـ/٧١٠م وصل موسى بن نصير إلى دمشق عاصمة الخلافة الأموية وكان سليمان بن عد الملك بن مروان قد تولى الخلافة بعد أخيه الوليد فيتم عزله وقد وصله قرار العزل وهو يواصل زحفه مع طارق بن زياد فى أرض الأندلس وبذلك انتهت صفحة من صفحات الجهاد الإسلامى فى المغرب حيث كان ذلك عصر الاستقرار النهائى وتوطيد دعائم الإسلام، وبذلك لم يكن قد مضت فترة لاتزيد على سبعين عاماً إلا قليلا وقد توطدت دعائم الإسلام ورسخت أركانه فى بلاد المغرب بعد أن قدم المسلمون الكثير من الشهداء سواء كانوا من القواد أمثال عقبة بن نافع الفهرى، زهير بن قيس البلوى وغيرهم من كبار القواد، وهكذا كانت بداية الوضع الإسلامى المشرق للمغرب العربى.

ولقد دخلت على المغرب العربى الكثير من المتغيرات بعيدة المدى بعد دخول الكثير من البربر الدين الإسلامى ، بل أكثر من ذلك انضموا إلى جيوش المسلمين يحاربون ويجاهدون ويغزون تحت لواء الراية الإسلامية، ومن هنا أصبح لهؤلاء البربر كل حقوق العرب المجاهدين، وزاد إقبال المغاربة على الدخول فى الدين الإسلامى فقد شهد المغرب انتقال العديد من القبائل العربية التى استقرت فى أرجائه واختلطت بأهله وقبائله وصاهرتهم، ومن ثم بدأ يظهر جيل عربى مسلم مستعرب تطلع إلى أن يكون له نصيب فى إدارة شئون البلاد.

ولقد كانت لتلك الهجرات العربية آثارها البعيدة فى تلك الأقطار؛ حيث أن بعضها كان يمثل جبهة معارضة للدولة المركزية ولسلطة الخلافة الراشدة أو الأموية أو العباسية.

وقد تولى الأمور القيادية فى المغرب بعد عزل موسى بن نصير يزيد بن أبى مسلم حيث عينه الخليفة سليمان بن عبد الملك والذى أراد أن يسير فى المغرب مسيرة الحجاج بن يوسف الثقفى من أهل العراق لكن المغاربة قتلوه وقامت الثورة فى بلاد

أفريقية، إلا أن الدولة الأموية رأت عدم الدخول فى مشاكل من سكان المغرب ومن هنا لجأت إلى معالجة الأمر باللين والحكمة والسياسة وتركت المغاربة يختارون لأنفسهم واليًا مؤقتًا بعد أن تنازلت الخلافة عن أخذ الثأر من القتلة وآلت الأمور فى الخلافة الأموية إلى عمر بن عبد العزيز بن مروان (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧١٩م) وقام الخليفة بتعيين «إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر» واليًا على إفريقية خلفًا ليزيد بن أبى مسلم ورتب له الخليفة عشرة من كبار الفقهاء من التابعين وأبناء الصحابة وذلك لمشاركته فى نشر الإسلام بين البربر وأرسلوا عام ١٠٠هـ ومن هنا فإنه لم يكن قد مضى على بدء الفتح العربى للمغرب ثمانون عامًا حتى كان الإسلام قد انتشر انتشارًا واسعًا بفضل سياسة الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز، ومن هنا بدأت الثقافة العربية الإسلامية تنتشر فى بلاد المغرب.

وفى عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٣-٧٤٣م) تولى إمارة أفريقية «عبيدة بن عبد الرحمن السلمى» إلا أن الخليفة اضطر لعزل السلمى وتعيين «عبد الله بن الحبحاب» للعمل على حسم المشاكل فى البلاد وكانت تولية عبد الله بن الحبحاب كل أقاليم غرب الدولة الإسلامية من حدود مصر غربًا إلى جبال البرانس بين أسبانيا وفرنسا وهذه مسئولية كبيرة، ذلك لأن الدولة فى عهد هشام بن عبد الملك قد خطت خطوات نحو الضعف، وذلك بسبب قيام العصبيات فى المغرب، وشهد عصر ابن الحبحاب بداية الثورات المغربية أو ما يسمى بالفتنة الكبرى، وبدأت بوادر ظهور الدويلات المستقلة، ولقد كان الخوارج من أسباب ظهور تلك الثورات وحنق الشعب على الدولة حيث أنهم رفعوا شعار لاحكم إلا لله ومن هنا كان عام ١٢٢هـ/٧٤٠م بداية ظهور الفتنة الكبرى أو الثورة الأولى فى المغرب وقبل وفاة هشام بن عبد الملك بثلاث سنوات وانتشرت الثورة بين قبائل البربر التى كانت تسكن فى المغرب الأقصى وخاصة فى قبائل براغطة وغمارة وتولى زعامتها رجل يدعى مسيرة الفقير، ولكن هذه

الثورة ليست ثورة بربرية ضد الوجود العربى لكنها ثورة داخلية ضد النظام الأموى لأنه انحرف عن خط القرآن والسنة، ولم يعد يطبق نصوص القرآن الكريم وقد كانت ثورة إقليمية لكن سرعان ما انضمت إليها بعض الفئات العربية وبدأت تأخذ الطابع العام للفتنة الكبرى واتجه الثوار نحو العاصمة العباسية للمغرب القيروان واستطاعوا الوصول إلى قرب منها ثم قتل مسيرة الفقير وتولى قيادة الثوار (خالد بن يزيد الزناتى)؛ حيث دارت معركة انهزمت فيها قوات الدولة الأموية وقتل عدد كبير من أشراف العرب ومن هنا سميت تلك المعركة معركة الأشراف ولكن أثر ذلك تمردت القوات العربية فى القيروان وتم استدعاء عبد الله بن الحبحاب.

لكن الخلافة الأموية ترسل كلثوم بن عياض القيشرى إلا أن ذلك القائد يقتل فى معركة مع الثوار وتفر بعض قواته من أرض المعركة إلى سبتة حيث دارت تلك المعركة قرب أسوار طنجة؛ إلا أن هشام بن عبد الملك رأى ضرورة القضاء على هذه الفتنة؛ حيث تم إرسال (حنظلة بن صفوان الكلبى) ووصل إلى القيروان ووجد المدينة مهددة بالاستيلاء عليها من قبل الخوارج الأباضية، لكنه استطاع أن يقضى عليهم بمساعدة علماء البلاد ورجال الدين. وهكذا انتصر العرب (الدولة) وانتهى الصراع الدموى فى إقليم طرابلس وتونس والجزائر وإقليم الزاب والسهل الشمالى للمغرب الأقصى.

وهكذا كان هذا الانتصار هو نهاية العصر الذهبى لبنى أمية وقوات جيش الشام الموالى لهم وبموت هشام بن عبد الملك عام ١٢٥هـ انتهت الشخصيات القوية فى الدولة الأموية.

وفى هذا الجو الذى بدأت فيه بوادر سقوط الدولة الأموية خلا المغرب العربى للعرب السباتية؛ حيث لم يعد هناك نفوذ لعرب الشام وأصبح عرب المغرب هم الذين يتحركون ليكون حكم المغرب لهم وذلك لأن الذين قضوا على الفتنة الكبرى هم

العرب المولدون المغاربة والذين لولاهم لما استطاع جند الخلافة الحصول على ذلك النصر بل يكاد يكون لهم السلطان الفعلى على أرض المغرب.

ومما يذكر أن كثيراً من كبار القواد الذين اشتركوا فى فتح المغرب تركوا ذرياتهم وأحفادهم يعيشون فى تلك البلاد وقد كان «عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى»، وأولاده وأخواه وبيت موسى بن نصير وبيت أبى المهاجر بن أبى دينار يمثلون تلك القيادة العربية الأصلية ورغم أن كل بيت كان له اتجاهه إلا أن بيت عقبة بن نافع الفهرى كان البيت الوحيد الذى اتخذ السياسة منهجاً له. وبدأ يمارس دوره على مسرح الأحداث ومن هنا قام عبد الرحمن بن حبيب الفهرى عام (١٢٧هـ/١٣٢م) بإنشاء سلطان عربى إسلامى مستقل عن الدولة الأموية، بعد أن تلاشى نفوذها تدريجياً فى بلاد المغرب، وأعلن عبد الرحمن نفسه أميراً على القيروان بعد قيام الدولة العباسية، وكان قد أعلن الولاء والطاعة للدولة العباسية، ومن ثم .. فإن أبا جعفر المنصور الخليفة العباسى الأول بعث إليه يطلب الخراج، فأعلن عبد الرحمن نبذ طاعة الخلافة العباسية ورد رداً قاسياً على الخليفة أبى جعفر المنصور ولقد كان خروج عبد الرحمن عن طاعة الدولة العباسية فى أول الأمر دافعاً لعدم إلتفاف القبائل حوله، لاسيما أنه استخدم أسلوب العنف بالإضافة إلى الدخول فى صراعات مع أخوته وأدت كل هذه الأمور إلى نفور العرب والبربر منه، ولقد واجهت عبد الرحمن حشود الخوارج الأباضية بقيادة «أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى»، ومن ثم انتهى الأمر بالقضاء على حكم آل نافع الفهرى بعد أن دام خمس سنوات تحت احتلال الخوارج الصغارية للقيروان بقيادة «عاصم بن جميل»، لكن الخوارج الأباضية طردوا منها الصغرية وسيطروا على القيروان عاصمة أفريقية.

لكن الخليفة العباسى المنصور أرسل إلى واليه فى مصر محمد بن الأشعث لكى يتحرك لطرد الخوارج الأباضية من القيروان وتم طرد الخوارج منها بعد أن بذل العديد

من الجهود الجبارة لاستقرار الأمن، وكان على الدولة العباسية أن تختار بعد انتهاء فترة حكم محمد بن الأشعث والياً جديداً هو الأغلب بن سالم بن عقال التميمى واستطاع الأغلب أن يسيطر على أفريقية ويتخذ من القيروان عاصمة له، لكن الخوارج الأباضية يهاجمون القيروان ويقتلون الأغلب بن سالم بن عقال.

وإزاء تلك الفوضى فى المغرب التى أصبحت تشكل مشكلة كبيرة للخلافة العباسية يتم اختيار «أبو جعفر عمر بن قبيصة المهلبى» ، الذى كلن عليه أن يواجه الخوارج الذى قتلوا أبى الأغلب، لكن بعد استقرار دام ثلاث سنوات يتم الخوارج قتله بعد أن اثبتوا أنهم قوة فعالة فى المغرب، وهنا يأمر الخليفة أبو جعفر المنصور واليه على مصر يزيد بن حاتم المهلبى بالسير إلى أفريقية حيث تم له إقرار الأمور وحكم يزيد بن حاتم خمسة عشر عاماً (١٥٥-١٧١هـ/٧٧٢-٧٨٧م) استقرت فيها الأمور فى المغرب.

وهكذا .. كانت فترة حكم يزيد بداية ظهور الدويلات العربية والبربرية فى المغرب والتى ينهى بحثنا هنا عند بداية ظهور تلك الدويلات التى كان أولها الدولة الأباضية الخارجية الرستمية ثم دولة الادراسة والأغالبة. وبهذا نكون قد دخلنا فى فترة زمنية أخرى لم تحدد فى دراسة هذا البحث وهو الجزء الثانى من الموسوعة الذى يليه أربعة أجزاء أخرى.

ومن هنا كان لابد من الحديث عن الإسلام والعروبة فى المغرب من جراء الفتوحات العربية واندماج العرب مع البربر واكتمال النمو السياسى وظهور الدويلات المغربية المستقلة، ولقد كانت بداية انتشار الإسلام على نطاق واسع فى عهد حسان بن النعمان الغسانى عندما تم قتل الكاهنة ودخول البربر البتر غالبية سكان المغرب فى الأخوة الإسلامية لاسيما بعد أن أعلن إثنا عشر ألف من الجنود إسلامهم ومشاركتهم فى الفتح وقبلهم كان دخول البربر البرانس فى الإسلام بعد أن قتل كسيلة فى عهد

زهير بن قيس البلوى، كما أن سبق ذلك إنشاء مدينة القيروان التى كانت بداية انتشار الإسلام على نطاق واسع أيضاً وليس معنى ذلك أن الإسلام لم يكن سائداً أو موجوداً فى المغرب لكن الحقيقة التاريخية تثبت أن البربر قد دخلوا فى الإسلام منذ عام ٢٢هـ/٦٤٣م عندما صالح عمرو بن العاص قبائل لواتة وهوارة ونفوسة وزاد انتشارا بعد عام ٢٥هـ عندما وصل المسلمون إلى طرابلس. بعد أن أخذ الدعاة على عاتقهم نشر الإسلام بين البربر بعد زن أخذ عقبة بن نافع ينساح فى بلاد المغرب غرباً وجنوباً، بل أن المغرب العربى قد بدأ مغايراً لغيره من الأقطار الأخرى المفتوحة فى انتشار الإسلام واللغة العربية بشكل لا يوجد فى أى قطر من الأقطار التى فتحت قبله أو بعده.

ذلك لأن أهل المغرب اعتزوا بالإسلام والعروبة وأقبلوا عليه وعلى لغته العربية بسبب تلك السياسة الحكيمة التى سار عليها حسان بن النعمان حيث كتب له النجاح والتوفيق فى الاتحاد بين العرب والبربر وإشراكهم مع العرب فى إدارة دفة البلاد والمشاركة فى الحكم والمساواة فى كل شيئ وفى الحقيقة فإن القرن الثانى الهجرى كان قرن انتشار الإسلام واستقراره فى بلاد المغرب حيث اكتسبت الثقافة العربية الإسلامية طابعها الخالد بين شعب المغرب، وهكذا صحب تحول البربر إلى الإسلام تحولهم إلى العروبة بحيث أصبحت هذه اللغة هى لغة الحياة اليومية، ومن هنا اختفت اللغات القديمة اختفاءً نهائياً ووجد البربر فى اللغة العربية أداة طيعة تمكنهم من التفاهم مع إخوانهم العرب لاسيما أن اللغة البربرية لم تكن لغة مكتوبة.

إضافة إلى أن القبائل رأت فى الإسلام منفذاً لها من سيطرة الروم وإعطائهم حقوق العرب ومن هنا كانوا عدة العرب فى حركة المد الإسلامى وطليعة جندهم وانتشر الإسلام بين البربر يدفعهم فى ذلك حبهم للعرب وعدوانهم للرومان، لاسيما بعد أن رأوا المقاومة البيزنطية تنهار بسرعة مذهلة أمام قوة العرب، كذلك كانت وحدة

النظام الاجتماعى بين العرب والبربر من عوامل التقارب بل من العوامل التى أدت إلى قيام وحدة اندماجية بين العرب القادمين وأهل البلاد وهكذا أدرك البربر أن اندماجهم مع العرب لايفقدهم أدنى شىء من شخصيتهم وممتلكاتهم مما كان له أثر نفسى بعيد فى دفع البربر نحو الإسلام.

كذلك ساعدت حركة الهجرة العربية على تشجيع حركة انتشار الإسلام واللغة العربية؛ حيث كانت بعض الهجرات العربية تؤيد وتعاضد الخلافة، كذلك كانت بعض الهجرات التى لم تستطع أن تؤكد وجودها فى قلب الدولة العربية تأخذ طريقها إلى المغرب لكى تجد متنفساً لها ولمبادئها وهؤلاء بدورهم وإن كانوا أعداء الخلافة إلا أنهم كانوا من عوامل نشر الإسلام والعروبة فى المغرب. وللحقيقة فإن الإسلام كان ينتشر فى المغرب منذ الأيام الأولى لدخول المسلمين وخاصة عندما تم إنشاء القيروان وشاهدوا ورع وزهد وتصوف عقبة بن نافع، ثم ازدادت حركة المد الإسلامى فى عهد الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز عندما أرسل عشرة من كبار رجال الدعوة الإسلامية وعلى رأسهم إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر.

وهكذا .. كان إقبال البربر على الإسلام واللغة العربية إقبالاً لم يحدث له نظير فى كل البلاد المفتوحة ويدل على ذلك رحيل العديد من المغاربة إلى الفسطاط فى مصر ودمشق ومكة والمدينة للدراسة والبحث ومعرفة أصول الإسلام واللغة العربية، كما أن المغرب العربى أفرز العديد من العلماء ورجال الدين، وكذلك دخول العديد من الدعاة الذين أرسلتهم الفرق الإسلامية الأخرى كالخوارج والشيعة والمعتزلة كان لهم أثر فى انتشار الإسلام واللغة العربية أيضاً، وكان من عوامل هجرة دعاة الفرق الإسلامية أن انتشر فى وقت مبكر فى المغرب المذهب الأباضى وغيره من مذاهب الخوارج إلا أن كل هذه العوامل من انتشار الإسلام والعروبة فى ارض المغرب كان دافعاً لأن ينتشر مذهب السنة والجماعة رغم حركات الفرق الإسلامية الأخرى، ومن

هنا انتصر المذهب المالكى فى بلاد المغرب ولعبت القيروان دوراً بارزاً فى ذلك المجال وهكذا كان المذهب المالكى الذى كان انتشاره بهذه الصورة الواسعة قد أضحى عاملاً من عوامل تعميق المفاهيم الإسلامية وانتشارها بصورة أشد فعالية بين الأقوام البربر ومن هنا أقبلوا على المذهب المالكى إقبالاً أكثر من ذى قبل، ومن هنا رحلوا إلى مصر طلباً للمزيد عن هذا المذهب ويرجع إلى أسد بن الفرات وسحنون بن سعيد الدور الأكبر فى دخول الناس فيه جماعات بعد أن كانوا قد تلقوا تعاليمه على شيخ المالكية فى مصر (على بن القاسم) حيث أقاما فترة طويلة فى الفسطاط.

وهكذا أصبح انتاشر المالكية فى المغرب تفهماً جديداً للمفاهيم الإسلامية الصحيحة وبعداً عن كل ما يشوب الإسلام كذلك أصبح انتشار المالكية توطن الثقافة العربية الإسلامية. وهكذا تمكنت التعاليم المالكية فى نفوس المغاربة وهكذا طبعت ثقافة المغرب العربية الإسلامية بذات الطابع العربى واختفت معه كل المدارس التى كانت تدرس غير المذهب المالكى وقد كان ذلك يمثل بداية الثقافة العربية المغربية الإسلامية فى أصل صورها وهى ذات طابع خاص متميز عن الطابع الشرقى وهكذا ازدهرت الثقافة العربية الإسلامية فى بلاد المغرب ازدهار يصلها مع ازدهار الثقافة العربية الإسلامية فى بلاد الشرق وهكذا أصبحت أرض المغرب العربى الواسعة الممتدة من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسى غرباً أرضاً عربية إسلامية وظهرت كقوة إسلامية عربية ثابتة على أرض القارة الأفريقية والتى لم يكن لها أن تظهر بهذه الصورة لولا وجود مدرسة القيروان العلمية الدينية الفكرية التى مارست دورها فى أصباغ تلك الصبغة على المغرب.

ومن هنا كان الحديث عن الإسلام وانتشاره ودور العروبة فى المغرب فإن ذلك كان له الفضل الأكبر فى ظهور القيروان منذ عام ٥٠هـ/٦٧٠م كعاصمة إسلامية وسياسية وتاريخية للمغرب وكقاعدة كبرى لنشر الإسلام وعلومه واللغة العربية وعلومها

ومارسة أهل المغرب لمشاعرهم الدينية بعد أن أصبحت القيروان مدينة جليلة ومباركة، وأن إنشاءها كان من أهم الأحداث فى تاريخ الفتح الإسلامى لبلاد المغرب وأن إنشاء القيروان بداية عهد جديد فى تاريخ البلاد ذلك لأن القيروان ستصبح قبلة المغرب وكعبة الحضارة ومعقل الإسلام وحسن العروبة والإسلام؛ حيث هى كما ذكر ذلك الدباغ رابعة الثلاثة مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس، وقد كانت مركز إشعاع إسلامى بعد إنشاءها بفترة قصيرة وقامت فى مساجدها الدراسات العربية الإسلامية، وبدأ الجو الإسلامى الثقافى بأخذ بعداً جديداً بتأثر تلك المدرسة حتى أصبحت مقراً عربياً إسلامياً ذا تنظيم مدنى واجتماعى جديد، وهكذا .. امتد تأثيرها الروحى والحضارى والثقافى حتى شمل المغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى وهكذا كانت شهرة القيروان من الأسباب القوية التى دفعت أبناء المغرب بأقاليمه المختلفة بأن يشدو الرحال إلى تلك المدينة طلباً للعلم واستزادة من مناهله على أيدى العديد من كبار العلماء والفقهاء ورجال الدين الذين زخر بهم مسجد القيروان ودار الحكمة التى ظهرت بصورة فعالة فى عصر الأغالبة، وهكذا قصد أبناء المغرب بأقسامه المختلفة وغيرهم من الأمم المجاورة فى الأندلس وغرب أفريقيا تلك المدينة لأنها كانت أول مدينة بل أعظمها بالمغرب وأكثرها علماً وتجارة ومالاً وأحسنها منازل وأسواقاً وبها ديوان جميع المغرب وبها دار سلطانها، وهكذا نشأت القيروان واتسعت وقامت بها الأسواق والأحياء ونشأ بها مجتمع قيروانى محلى عماده الفقهاء والقضاة ورجال الدين وأهل الزهد والورع ونفر من الأغنياء وأهل الصناعة.

وقد ظهر أثر كل ذلك فى ميدان الحضارة والفكر والثقافة العربية الإسلامية التى كانت عليها القيروان فى القرن الثانى الهجرى بل اشتد عودها وزاد دفعها للحركة الإسلامية والثقافة بحيث أن مساجد القيروان ومسجد عقبة بن نافع قد شهدت حلقات للتدريس ونشأت مدارس جامعة أُطلق عليها دور الحكمة وقدم إليها العلماء والفقهاء

ورجال الدعوة الإسلامية فى الشرق وكانت هذه المدارس عاملاً له شأنه فى رفع شأن لغة القرآن الكريم لغة العرب وثقافتهم.

وكما حافظت القيروان على العروبة والإسلام فإنها أيضاً حافظت على المذهب المالكى حيث انتقل ذلك المذهب من القيروان إلى بقية مدارس وأنحاء المغرب ثم إلى الأندلس وأفريقيا الغربية، حيث كانت دور حكمتها مقراً لتدريس ذلك المذهب وعلى هذا فقد كان الدو الذى لعبته مدرسة القيروان بدورها الحضارى فى بلاد المغرب والسودان الغربى وانتشر علماء المالكية بها فى كل أرجاء الأندلس والسودان الغربى دور الطود الشامخ.

وهكذا توج الفتح الإسلامى لبلاد المغرب فى تلك الحقبة التاريخية (٢٢-١٢٥هـ/٦٤٣-٧٤٣م) بانتشار الإسلام واللغة العربية بصورة قوية وفعالة وتوج ذلك الانتصار الإسلامى بظهور القيروان كمركز حضارى وإسلامى وثقافى بصورة فعالة. وهكذا .. كان بحق إنشاء تلك المدينة بداية حقيقية لما تشهد عليه المغرب اليوم من كتلة عربية إسلامية قوية ثابتة، تقف بجوار الكتلة العربية الإسلامية المصرية التى لولا دورها وجهودها لما قدر للمغرب العربى أن تكتمل فيه الصورة العربية الإسلامية بتلك الصورة؛ حيث كان عطاء مصر ودوماً بلا حدود، وقدراتها تهب لإخوانها الذين ساهمت فى عروبتهم وإسلامهم وتطورهم الحضارى والثقافى والفكرى والعلمى، وهكذا .. كان دور مصر فى بلاد المغرب بلا حدود .

تم بحمد الله



المصادر والمراجع

أولاً – المراجع العربية

المصادر :

١ – ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ١٢ جزء، القاهرة، ١٢٧٤هـ.

٢ – البكرى، أبو عبد الله : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية المغرب، الجزائر، ١٨٥٧م.

٣ – البلاذرى، أحمد بن يحيى : فتوح البلدان، القاهرة ، ١٩٥٩م.

٤ – ابن حوقل ، أبو القاسم : صورة الأرض، ليدن، ١٩٣٨م.

٥ – الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ليدن، ١٨٩٦م.

٦ – ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٧ أجزاء ، القاهرة، ١٢٨٤هـ.

٧ – ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن المصرى : فتوح مصر وأخبارها، القاهرة، ١٩٦١م.

٨ – ابن عبد ربه : العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، ١٩٥٨م.

٩ – ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس، مؤسس، ١٢٨٦هـ.

١٠ – ابن سعيد، على بن موسى المغربى : المغرب فى حلى المغرب، تحقيق حسين نصار، القاهرة، ١٩٧٠م.

١١ – ابن عذارى المراكشى، محمد بن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب، القاهرة، ١٩٥٠م.

١٢ – الاصطخرى، أبو إسحاق بن محمد الفارسى : المسالك والمسالك، القاهرة، ١٩٦١م.

١٣ – الدباغ، عبد الرحمن بن عبد الله الأنصارى : معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان، ٤ أجزاء، تونس، ١٣٢٠هـ.

١٤ – السيوطى، عبد الرحمن بن أبى بكر : تاريخ الخلفاء، القاهرة، د.ت.

١٥ – المراكشى، محيى الدين عبد الواحد التميمى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، القاهرة، ١٩٤٢م.

١٦ – القلقشندى، أبو العباس أحمد بن على : صبح الأعش فى صناعة الأنشا، ٤أجزاء، القاهرة، ١٩٢٢م.

١٧ – المقدسى، محمد بن محمد : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٩م.

١٨ – المالكى : رياض النفوس، تحقيق حسين مؤنس : القاهرة، ١٩٥١م.

١٩ – الطبرى، محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك، تحقيق دى جويه، ليدن، ١٨٨٣م.

٢٠ – التيجانى، أبى عبد الله محمد : الرحلة، تحقيق حسن عبد الوهاب، تونس، ١٩٥٨م.

٢١ – مؤلف مجهول، الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية، الجزائر، ١٩٢٠م.

٢٢ – ابن طباطبا ، محمد بن على بن السفطى : الفخرى فى الآداب السلطانية، القاهرة، ١٣١٩هـ.

٢٣ – ابن سيعد المغربى : بسط الأرض فى الطول والعرض، تطوان، ١٩٥٨م.

٢٤ – العمرى، ابن فضل الله : مسالك الأبصار فى ممالك لأمصار، مخطوط دار الكتب المصرى، رقم ٥٩٩ مصارف عامة.

٢٥ – الشهرستانى : الملك والنحل، بيروت، ١٣٩٣هـ.

٢٦ – ابن قتيبية : الأمامة والسياسة، بيروت ١٩٣٨م.

٢٧ – الفتح بن خافان : قلائد العصيان فى محاسن الأعيان، تونس، ١٩٦٦م.

٢٨ – الجيلالى، محمد بن عبد الرحمن : تاريخ الجزائر، بيروت، ١٩٥٦م.

٢٩ – ياقوت الحموى : معجم البلدان، ١٠ أجزاء، القاهرة، ١٩٥٦م.

٣٠ – التونسى، محمد بن عمر : تسجيد الأذهان بسيره بلاد العرب والسودان، نشرة عساكر، مصطفى سعد، القاهرة، ١٩٥٦م.

٣١ – القيروانى، أبو العرب محمد بن أحمد بن نعيم : طبقات علماء أفريقية وتونس، تحقيق على الشابى ونعيم الباقى، تونس، ١٩٦٨م.

المراجع :

٣٢ – إبراهيم أحمد العدوى : موسى بن نصير، القاهرة، ١٩٥٦م.

٣٣ – إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء، ١٩٥٦م.

٣٤ – إبراهيم على طرخان : أوربا فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٢م.

٣٥ – إبراهيم بيضون : الدولة العربية فى أسبانيا، بيروت، ١٩٨٠م.

٣٦ – أبو القاسم محمد كرو : عبد الله شريط : عصر القيروان، تونس، ١٩٧٣م.

٣٧ – إحسان حقى : تونس العربية، بيروت، د.ن.

٣٨ – أحمد سويلم العمرى : العرب والأفريقيون، القاهرة، ١٩٦٧م.

٣٩ – أحمد صفر : مدينة المغرب العربى فى التاريخ، تونس، ١٩٥٩م.

٤٠ – أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، جـ٢، القاهرة، ١٩٦٩م.

٤١ – أحمد فكرى : مسجد القيروان، القاهرة، ١٩٣٦م.

٤٢ – أحمد مختار العبادى : دراسات تاريخ المغرب والأندلس، الأسكندرية، ١٩٦٨م.

٤٣ – السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير فى العصر الإسلامى، القاهرة، ١٩٦٦م.

٤٤ – حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية، القاهرة، ١٩٥٨م.

٤٥ – حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين، القاهرة، ١٩٥٧م.

٤٦ – حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، القاهرة، ١٩٤٧م.

٤٧ – حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، ١٩٥٧م.

٤٨ – حسين مؤنس : فجر الأندلس، القاهرة، دون تاريخ.

٤٩ – جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، القاهرة، ١٩٥٧م.

٥٠ – سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى، القاهرة ١٩٦٤م.

٥١ – سيدة إسماعيل كاشف : الوليد بن عبد الملك، القاهرة، ١٩٦٢م.

٥٢ – زاهر رياض : مصر وأفريقيا، القاهرة ١٩٧٦م.

٥٣ – زاهر رياض : شمال أفريقيا فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٨١م.

٥٤ – حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية، القاهرة، ١٩٨٤م.

٥٥ – حسن إبراهيم حسن : تاريخ الرسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، القاهرة، ١٩٦٢م.

٥٦ – صلاح الدين الشامى : الوطن العربى ، دراسة جغرافية، القاهرة، ١٩٦٣م.

٥٧ – صلاح العقاد : المغرب العربى، ٣ أجزاء، القاهرة، ١٩٦٩م.

٥٨ – حسن سليمان : ليبيا بين الماضى والحاضر، طرابلس، ١٩٥٨م.

٥٩ – سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٢م.

٦٠ – الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط، القاهرة، ١٩٧٢م.

٦١ – عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس، القاهرة، ١٩٦٤م.

٦٢ – عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية، القاهرة، ١٩٦٠م.

٦٣ – عبد الرحمن زكى : مدائن إسلامية، القاهرة، ١٩٧٩م.

٦٤ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى: الإسلام والثقافة العربية فى أوربا، القاهرة، ١٩٧٩م.

٦٥ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والعروبة فى السودان، القاهرة، ١٩٨٥ .

٦٦ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : حركة المد الإسلامى فى غرب أفريقية، القاهرة ١٩٨٥م.

٦٧ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : دور مصر الحضارى فى أفريقية، القاهرة، د.ت.

٦٨ – عبده بدوى : مدن أفريقية، القاهرة، د.ت.

٦٩ – عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادى فى المغرب الإسلامى ، بيروت، ١٩٨٣م.

٧٠ – محمد أمين صالح : العرب والإسلام، القاهرة، ١٩٨٤م.

٧١ – محمد سلام مدكور : الفقه الإسلامى، القاهرة، ١٩٦٩م.

٧٢ – محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير، القاهرة، ١٩٨٣م.

٧٣ – محمد السيد غلاب وآخرون : جغرافية العالم، القاهرة ١٩٥٩م.

٧٤ – إبراهيم حركات : النظام السياسى والحربى فى عهد المرابطين، الدار البيضاء، د.ت.

٧٥ – محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الأفريقية : القاهرة ١٩٦٥م.

٧٦ – محمد عوض محمد : الاستعمار، أساليبه ومذاهبه، القاهرة، د.ت.

٧٧ – محمد محمد أمين : تطور العلاقات العربية الأفريقية، (فصل)، القاهرة، ١٩٧٧م.

٧٨ – أرونالد توماس : الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، وآخرون، القاهرة، ١٩٥٧م.

٧٩ – أرشابليد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة

أحمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠م.

٨٠ – عبد العزيز كامل : وجه الإسلام فى الحضارة الأفريقية، مجلة السياسة الدولية، القاهرة، مايو، ١٩٦٦م.

٨١ – حورية عبده سلام : علاقة مصر بالمغرب من الفتح العربى حتى قيام الدولة الفاطمية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٧٤م.

٨٢ – زين العابدين السراج : دولة كانم الإسلامية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٧٥م.

٨٣ – عبد القادر الصحراوى : جولات فى تاريخ المغرب، الدار البيضاء، ١٩٦١م.

٨٤ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : سلطنة البرنو الرسلامية، رسالة ماجستير، الدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٧٥م.

٨٥ – ناطف صالح مطلوب : نبل الابتهاج بتطرير الدباج، دراسة، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٣م.

٨٦ – نبيلة محمد حسن محمد : انتشار الإسلام فى السودان الغربى، كلية الآداب، جامعة الأسكندرية، الأسكندرية، ١٩٧٢م.

٨٧ – إمارى مخائيل : المكتبة العربية الصقلية، ليدن ١٨٨٧م.

٨٨ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الإسلامية، رسالة دكتوراه، ١٩٨٣م.

ثانيًا – المراجع الأجنبية

1 - Baulin, J.: The Arabe rule in Africa, London, 1962.

2 - Bury, J.: History of the Later Roman Empire, London, 1924.

3 - Gaudel E.: Les Premières invasions désarbes dans l'Afrique du Nord, Paris, 1900.

4 - Gautier. F.F.: L'Islamisation de l'Afrique du Nord, Paris, 1937.

5 - Julien, A.: Histoire de l'Afrique de Nord, Paris, 1953.

6 - Charles, D.: Histoire du Moyen Age, Paris, 1949.

7 - Marcais, G.: Les Arabes en berberie, Paris. 1913.

8 - Marcais, G.: La Berberie Musulmane et l'Orient au Moyen Age, Paris, 1946.

9 - Scott, A.: History of the Moorish Empire in Europe, London.

10 - Lathman, G.: Europe in the Middle Age l,London, 1904.

11 - Pelluguin, A.: Histoire de la Tunisie, Tunis, 1948.

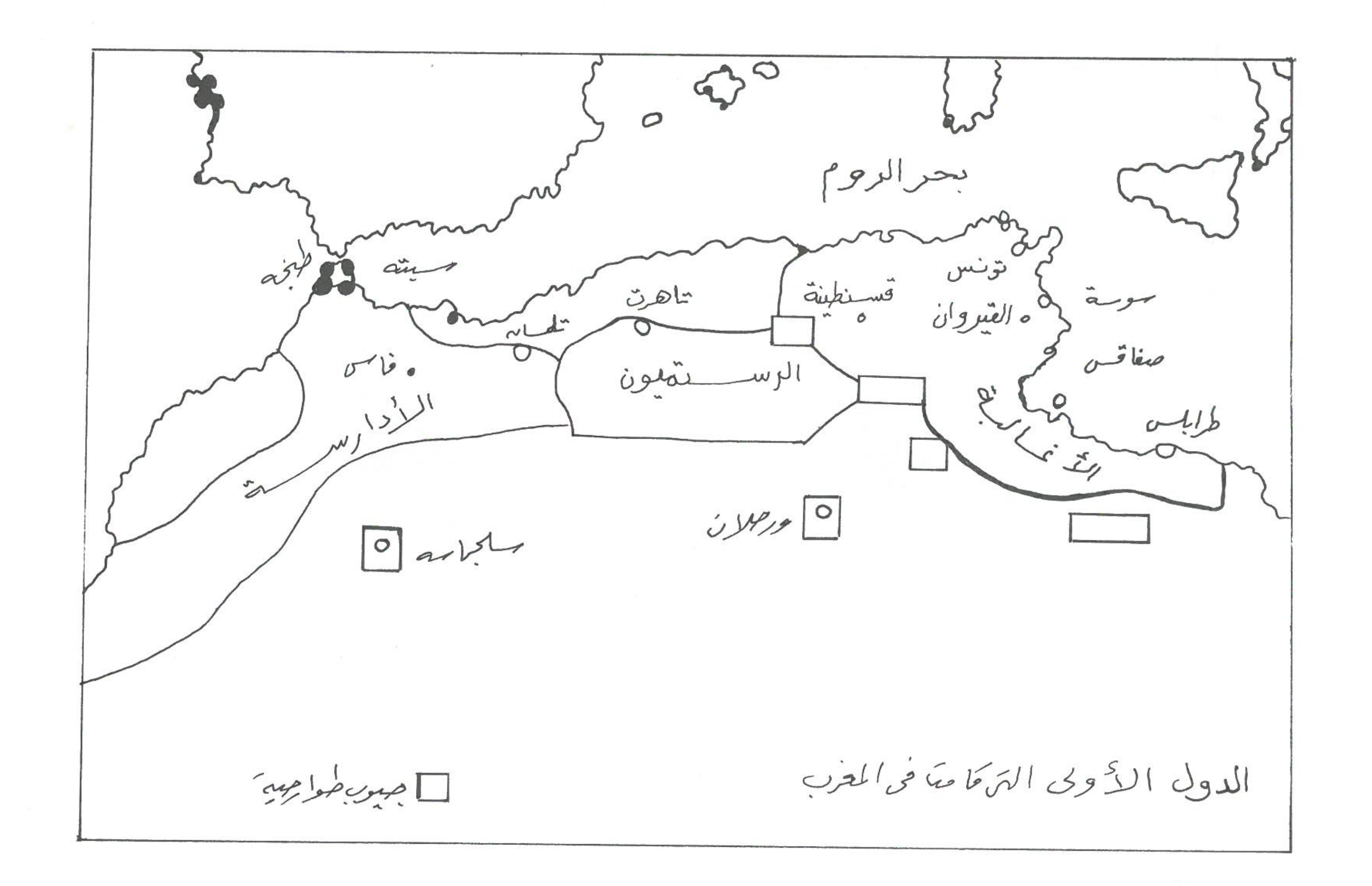
12 - Hullette, R.: Africa to 1975, London.

13 - Trimingham, J.S.: A Story of West Africa, London.

14 - Vasiliev, B.: Bpzantie et les Arabes, Bruelles, 1935.

15 - Terrasse, H.: Histoire du Maroc, 1946.

16 - Newman, B.: Marocco to day, London. 1923.



بحر الروم
طنجة
سبتة
فاس
الأدارسة
تلمسان
تاهرت
الرستميون
قسنطينة
تونس
القيروان
سوسة
صفاقس
طرابلس
الأغالبة
ورجلان
سجلماسة
الدول الأولى التي قامت في المغرب
جيوب خوارجية

موسوعة تاريخ المغرب العربى

خلافـــة

المرابطـين فى المغرب والأندلس

دراسة فى التاريخ الإسلامى

الجزء الثانى



إهـــداء

الى روح أبى الطاهرة

ثمرة غرسها وجهدها ومثابرتها ،

هـــذا الجزء الثانى من موسوعة المغرب السداسية الأجـزاء.

د . عبد الفتاح مقلد الغنيمى

المحتويات

مقدمة

والحمد لله حمد العارفين بنعمه وفضله والصلاه والسلام على الهادى البشير النذير سيد الخلق بن عبد الله وعلى آله وصحبه والتابعين ومن سار على نهجه إلى يوم الدين .

أما بعد .

فهذا هو الجزء الثانى من موسوعة تاريخ المغرب العربى الاسلامى والتى نضعها بين يدى الباحثين والدارسين والمهتمين بالتاريخ الاسلامى وبصفة خاصة تاريخ المغرب العربى الاسلامى ذلك لان تاريخ المغرب العربى الاسلامى قد حاول بعض المؤرخين الغربيين دراسته دراسة ذات طابع متعصب بل حاولوا فى العديد من كتاباتهم محو عروبة المغرب الاسلامى وفصله عن بقية اخوانه أبناء الأمة العربية الاسلامية واضفاء صفات لاتمت لواقع التاريخ المغربى بأدنى صلة واثارة نعرة البربرية والعربية وتشجيع نعرة البربر .

ومن هنا كان على المؤرخين العرب معالجة تاريخ المغرب العربى بأسلوب يكشف عن أصالته العربية الاسلامية المغربية ودوره الحضارى والتاريخى والثقافى والسياسى المؤثر بل والفعال فى التاريخ الاسلامى وذلك منذ استقرار حركة الفتوح الاسلامية فى هذا الجزء الغربى من الأمة العربية الاسلامية .

وقد تناولت فى هذا الجزء من الموسوعة دور وتاريخ الامارات الاسلامية الثلاث الامارة الرستمية وامارة الأدارسة والأغالبة منذ منتصف القرن الثانى الهجرى حتى سقوط تلك الامارات على أيدى دعاة الشيعة وقيام الدولة الفاطمية العبيدية .

وقد قسمت تلك الدراسة إلى ستة عشرة باب تناولت بالبحث والدراسة والتحليل فى جميع هذه الابواب خلاصة الآراء والأقوال والتواريخ بشأن هذه الامارات .

فتحدثت فى الباب الأول عن العوامل التى ساعدت على ظهور هذه الولايات المغربية وكيف أن سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية كانت من الأسباب التى دفعت وقوت الشعور العام المغربى بالثورة والخروج على طاعة الخلافة الجديدة. وكيف كانت حركات الخوارج تساعد على تعدد الثورات وازدياد النشاط الدينى فى تلك الجهات البعيدة عن الدولة الاسلامية وكانت الثورات والفتن ليست ضد الوجود العربى بقدر ما كانت مطالبه برفع الجور والمظالم التى كان يمارسها الولاة .

وكيف ظهرت عدة ولايات محلية يتزعمها زعماء محليون من أهل المغرب أو من العرب .

ثم كان الباب الثاني عن دولة بنى رستم الخارجية الاباضية فى تاهرت. وتحدثت عن المذهب الاباضى والفكر السياسى لخوارج هذه الفرقة من الفرق الخارجية وكذلك الحديث عن شخصية عبد الرحمن بن بهزام بن رستم مؤسس هذه الدولة ودور أباضية الشرق فى مساعدة الامامة الرستمية التى قامت فى المغرب الاوسط .

وكان الباب الثالث عن جيل الابناء الذين خلفوا مؤسس هذه الدولة وكيف ازدهرت الدولة الرستمية فى عهدهم وما هو الدور الذى لعبه عبد الوهاب بن عبد الرحمن الذى أرسى دعائم هذه الدولة وما هى أحداث الواصلية ودور أباضية جبل نفوسة جنوب طرابلس فى توطيد أركان الدولة والامام عبد الوهاب والصراع مع الأغالبة حكام المغرب الأدنى واستقرار الأمور فى الجزء الشرقى من الدولة وعودة الامام عبد الوهاب إلى العاصمة .

وتحدثت فى الباب الرابع وهو عن جيل الأحفاد الذين خلفوا عبد الوهاب وكان هذا الباب يضم أهم شخصية فى تاريخ هذه الدولة وهو الامام أفلح بن عبد الوهاب وكيف عمل على تدعيم الجبهة الداخلية والقضاء على فتنة جبل نفوسة التى أزكى نارها

الاغالبة ودوره فى هدم مدينة العباسية التى بناها الأغالبة بجوار تاهرت العاصمة الرستمية .

وفى الباب الخامس عالجت موضوع الدولة الرستمية بعد وفاة أفلح بن عبد الوهاب وكيف جاء بعده الامام أبو بكر بن أفلح بن عبد الوهاب ثم الصراع من أجل تولية ابن إليقظان وعودة أبى إليقظان من بغداد بعد أن كان قد تم القبض عليه فى مكة المكرمة وهو يؤدى فريضة الحج وسجنه فى بغداد وتغير الظروف السياسية والافراج عنه وما هى الأخطار الخارجية التى تعرضت لها الدولة ثم الحديث عن امامة أبى حاتم يوسف محمد بن يقظان وكيف كانت امامة إليقظان بن أبى إليقظان وسقوط أسرة الدولة الرستمية على أيدى العبيديين الفاطميين أصحاب المذهب الشيعى .

وكان الباب السادس بدايه الحديث عن دولة الأغالبه فى افريقية (المغرب الأدنى) وما هى أسرة الاغالبة وكيف تولى أول أمرائهم ابراهيم بن الأغلب الحكم وكيف جاء أبوه الأغلب التميمى إلى افريقية ومن هم أمراء البيت الأغلبى الذين تولوا الحكم فى افريقية

وفى الباب السابع عالجت موضوع جيل الأبناء الذين تولوا السلطة خلفا لابيهم ابراهيم وهم عبد الله الأول ثم زيادة الله الأول بن ابراهيم .

وفى الباب الثامن كان موضوع جيل الأحفاد أولهم أبو العباس محمد الأول بن الأغلب أبو عقال، ثم أحمد أبو ابراهيم بن العباس محمد الأول ثم زيادة الله الثانى بن العباس وابراهيم الثانى الصغير بن أحمد، عبد الله الثانى أبو العباس بن ابراهيم الثانى، ثم زيادة الله الثالث أبو مضر بن عبد الله الثانى وهو آخر أمراء بنى الأغلب وكيف كان هو آخر أمراء البيت الأغلبى .

وكان الباب التاسع عن ماذا تم فى عصر الأغالبة من الانجازات العسكرية مثل فتح

صقلية وما هى المراحل التى تمت فى هذا الفتح وكيف حافظ أمراء الأغالبة علي اتمام الفتح بعد وفاة زيادة الله الأول والأغالبة وفتح جزيرة مالطة .

وفى الباب العاشر تحدثت عن دور الأغالبة فى النواحى الثقافية والاقتصادية والعمرانية وما هو الدور الثقافى والفكرى الذى تم فى عصرهم والفقيه أسد بن الفرات وسحنون بن سعيد، ثم الأغالبة والدور الاقتصادى والأغالبة والعمارة .

وكان الباب الحادى عشر هو بداية الحديث عن ثالث امارات المغرب العربى وهى دولة الأدارسة وتحدثت عن العلويين وتاريخهم وأسرة الأدارسة والأمام ادريس الأول مؤسس الأسرة وكيف ظهرت دولة الادارسة .

وفى الباب الثانى عشر كان الحديث عن توطيد دعائم دولة الأدارسة، وكيف تم الاصلاح وبداية توكيد دعائم الدولة ودور الدولة العباسية والأغالبة فى القضاء على الامام ادريس .

ثم كان الباب الثالث عشر وهو عن دولة الأدارسة فى طورها الثانى وما هى الأعمال التى قام بها الامام ادريس بن ادريس وكيف تم تكملة ما لم يتم انجازه فى عهد سلفه واختيار العاصمة فاس ودورها فى المنطقه والعالم الاسلامى وما هى الاعمال الخارجية التى قام بها الامام ادريس الثانى .

وكان الباب الرابع عشر عن جيل الأحفاد أبناء ادريس الثانى فتحدثت عن الامام محمد بن ادريس والامام على الأول بن محمد بن ادريس والامام يحيى بن محمد بن ادريس وانشاء جامع القيروين والامام يحيى بن يحيى بن محمد بن ادريس ثم انتقال الامامة إلى فرع آخر من آل ادريس هو فرع عمر بن ادريس بدلا من محمد ثم الامام على الثانى بن عمر بن ادريس، ويحيى بن القاسم بن ادريس ثم يحيى بن ادريس بن على بن

عمر وسقوط دولة الأدارسة وخضوع العاصمة فاس لحكم العبيديين الفاطميين أصحاب المذهب الشيعى ثم كيف قام بعض الأدارسة بالحكم في فاس وقتل الوالى الشيعى ودولة الأدارسة في الريف والامام الحسن بن القاسم بن ادريس وسقوط الدولة .

وكان الباب الخامس عشر هو نظرة عامة عن المجتمع المغربى في عصر الأدارسة وما هي الإعمال الفكرية والثقافية والدينية التي تمت في ذلك العهد. ودور الأدارسة في صبغ الحياة العربية فى المغرب الأقصى ونشر رسالة الاسلام الخالدة في المناطق الجنوبية وكيف أدى إلى انتشار الاسلام في بلاد السودان.

وكان الباب السادس عشر هو نهاية المطاف في هذا الجزء من الدراسة عن العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية بين الامارات الثلاث (الأغالبة وبنى رستم والأدارسة) وكيف تحدثت عن علاقات بنى رستم والأدارسة بالخلافة العباسية فى بغداد وعلاقات بنى رستم والأدارسة ثم علاقات الرستميين بمصر وعلاقة بنى رستم بالأغالبة وعلاقة الأدارسة ببنى رستم، ثم علاقة الأدارسة والأغالبة وبنى رستم مع دولة بنى مراون بسجلماسة والعلاقات مع بلاد السودان بين الأغالبة وبنى رستم والأدارسة وكذلك علاقات الأدارسة وبنى رستم والأغالبة بالامويين في الاندلس.

ثم كانت الخاتمة وهى نتيجة ما توصلت إليه من تحليل في تلك الدراسة وجاءت بعدها قائمة المصادر والمراجع العربية والاجنبية التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة وما هى المراجع الأهم التى عولت عليها. حتى كان هذا البحث فى تلك الصورة.

وانى لأرجو الله العزيز القدير أن أكون قد وفقت بقدر المستطاع في تقديم تلك الدراسة بالصورة التي ترضى كل باحث ومتخصص ومهتم بتاريخ المغرب العربى، كما لا أنسى أن أنوه بالجهد الذى بذل في ذلك الميدان من قبل وانى لا أدعى هنا أن تلك

الدراسة هى الصورة المثلى عن المغرب العربى ولكنها اضافة جديدة ومنهج جديد قدر لى أن أقوم به خدمة للتاريخ الاسلامى وللذين يتابعون حركته فى كل الأدوار .

والله ولى التوفيق،،،

الملك فيصل الهرم – القاهرة

٢٢ ربيع الأول ١٤٠٧هـ

٢٤ نوفمبر ١٩٨٦م

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

الباب الأول

العوامل التى ساعدت على ظهور الولايات المغربية

لقد كانت بلاد المغرب العربى (افريقية العربية) ابان حكم الخلافة الأموية (٤١هـ- ١٣٢هـ- ٦٦١- ٧٥٠م) جزءا من الدولة الاسلامية الواسعة الشاسعة الأطراف الموحدة تخضع لنظام ادارى موحد، الا أن بلاد المغرب العربى فى تلك الحقبة التايخية كان يسودها شعور وطنى يدفعها للاعتصام بلواء الوحدة الاسلامية حيث أن العقيدة الاسلامية الخالدة قد تعمقت تعمقا دفينا فى النفس البربرية مما يدفعها للولاء الخالص للدولة الاسلامية فى دمشق لكن سقوط الخلافة الأموية ١٣٢هـ/٧٥٠م قد يسر الطريق لقباء الخلافة العباسية التى قامت على أساس مناداة الشعوب الاسلامية بالمساواة وانه ليس هناك فرق بين عربى وأعجمى حيث كانت الخلافة الأموية تفضل الجنس العربى على غيره من أجناس الدولة المختلفة وقد كان نقل الخلافة إلى بغداد من العوامل القوية المساعدة على تكوين دول مستقلة لاسيما فى الجزء الغربى من الدولة الاسلامية (مصر- المغرب- الاندلس) .

ففى المغرب أنشأ الرستميون الخوارج الاباضية دولة مستقلة عن الخلافة العباسية (١٤٤هـ- ٧٧٦- ٢٩٦هـ- ٩٠٨م) فى بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) وعلى مقربة من تاهرت حيث اتخذت تلك المدينة عاصمة للدولة الرستمية، كذلك استطاع الأغالبة أن يستمروا فى حكم تونس وشرق الجزائر مدة قرن من الزمان (٨٠٠ – ٩٠٩م) (١٨٤ – ٢٩٦هـ) كما أن الأدارسة قد أقاموا دولتهم فى فاس (١٧٢ – ٣١١هـ – ٧٢٨ – ٩٥٥م) وقد كانت تلك الدويلات المغربية تقوم فى حكمها على نظم اسلامية دينية وأخلاقية عربية .

وقد كان سقوط الخلافة الأموية وقيام الدولة العباسية من الأسباب القوية التى دفعت وقوت الشعور العام المغربى بالثورة والخروج على طاعة الخلافة الجديدة فى بغداد لاسيما وانه قد ساد شعور بأن يكون الولاء للخلافة العباسية ظاهريا على الأقل، اضافة إلى ثورات البربر التى كانت من أسبابها القوية الشعور بالجور الذى كان ينصب عليهم كذلك بطبيعة التكوين الجغرافى والبشرى مما ساعد البربر على حبهم للحرية والديمقراطية والتى وجدوها فى مذاهب الخوارج من جهة ثانية، اضافة إلى السياسة النعسفية التى استخدمها الامويون ووقعوا فى خطأ فادح من جراء استخدام تلك السياسة فى التعامل مع البربر اضافة إلى أن الدعوة الخارجية كان لها تأثير قوى على جذب البربر إليها واعتناقهم لها لانه باعتناقهم لها يخفون آمالهم القومية من جهة ويتعمقون فى فهم المذهب الخارجى ويتمسكون بالاسلام عقيدة لهم وهو الاسلام الذى أخلصوا له وتفانوا فى نشره والدعوة إليه بالاندلس وغيرها من البلاد الافريقية، وعلى الرغم من أن البربر قد نجحوا فى تأسيس عدة دويلات أو دول، الا انهم لم يفكروا يوما واحدا فى الخروج عن عقيدة الاسلام الخالدة ولا رفض لغة العرب التى أصبحت لغة قومية لهم والرجوع إلى ما كان سائدا فى بلادهم قبل الفتح الاسلامى .

ولقد كان للخوارج ومن إليهم من رجال الأحزاب الاسلامية الساخطة على الدولة دورها الهام والمؤثر والفعال فى تأليب نفوس الناس واثارتهم على الدولة وولاتها، وانه عندما بدأ ذلك الدور فى الاثارة والعصيان والثورة فى بلاد المغرب يؤتى ثماره فان العصر الذهبى للدولة الأموية كان قد تولى وهكذا سادت حالة من عدم الولاء للخلافة الاموية عندما شهد العالم الاسلامى الأيام الحاسمة فى تاريخ الدولة الاسلامية اثر انتقال الخلافة من بنى أمية إلى بنى العباس .

وفى المغرب كان من الأسباب القوية التى زادت غضب الشعب على الخلافة

وجعلته أكثر حدة وعنفا ومن العوامل التى ساعدت على ظهور الدويلات المغربية ظهور مذهب الخوارج بقوة، حيث كان الخوارج الذين انهزموا فى قلب الدولة الاسلامية فى المشرق العربى وقتل منهم الالوف بسيوف رجال مثل الحجاج بن يوسف والمهلبى بن أبى صفرة، ومن ثم فقد اضطرتهم تلك المآسى إلى الهجرة إلى الجهات البعيدة من الدولة الاسلامية حيث لاتدركهم فيها يد الدولة وخاصة فى عمان واليمن والمغرب .

ولقد كان عداء الخوارج لبنى أمية أشد وأعمق ولذلك نجد صراعهم يطول فى عهد الدولة الأموية ونجدهم فى كثير من الأحيان يظفرون ويكونون لانفسهم سلطة ونفوذا ودولا (الدولة الرستمية فى تاهرت غرب الجزائر) ولولا انشقاقهم على أنفسهم لكان من المحتمل أن يكون لهم الظفر والنفوذ .وقد انطلق الخوارج يدعون لدعوتهم وساعدهم على ذلك كثرة الدماء التى أراقها الأمويون منهم وللارواح التى أزهقوها فى شدة وغلظة . وقد شهد مطلع القرن الثانى الهجرى ازدياد نشاط حركة الخوارج وتعددت ثوراتهم وسقطت الدولة الأموية ونفوذ الخوارج يزداد فى بلاد المغرب .

ولقد كان لهؤلاء الخوارج مذاهب شتى فمنهم المتطرفون الذين كانوا يرون أن الدولة الاسلامية أو الخلافة القائمة دولة غاصية هى وكل من أيدها وهؤلاء هم الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق الذين أعلنوا الحرب على الدولة الاسلامية وجماعة المسلمين جملة وقد لقيت تلك الدعوة قبولا لدى البربر حيث تمسكوا بالمذاهب الخارجية التى كانت معادية للخلافة الاموية وبالتعسف والشدة التى كان يتسم به العمال العرب فى تعاملهم، وعلى هذا فلم يكن البربر وحدهم الذين تولوا خصومة الدولة بالقيام بالثورات انما كانت هذه ظاهرة فى مختلف الولايات الاسلامية فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى والبربر أنفسهم لم يكونوا يتولون احداث هذه الفوضى انما كانوا يتبعون أصحابها من ذوى الطموح الدينى والسياسى والواقع أن البربر كانوا يميلون إلى الطاعة والنظام حينما تكون

السلطة القائمة فى القيروان هى سلطة عادلة صالحة منظمة ومهتمة بمصالح الرعية وأما اذا كانت السلطة السياسية فى القيروان لا تتوافد فيها هذه الجوانب التى يألفها البربر ويسود النزاع والصراع بين زعماء القيروان على الحكم، فان البربر تحركوا للثورة ضد العسف والجور ودفعا للمظالم لاسيما تلك القبائل البربرية التى كانت تعيش خارج الحدود الرسمية للدولة الاموية .

ولقد كانت البساطة والسطحية وعدم العمق فى فهم الأمور من أهم ما يمتاز به الخوارج مع تشددهم فى العبادة ومبالغتهم فيها ولقد كان الخوارج مسلمين حقيقيين يسعون لخير الاسلام ومجده وانهم كانوا نبتة اسلامية حقيقية ولم يكونوا فرقة تعيش فى الظلام بل كانوا ظاهرين علنا على أوسع نطاق، ومن الملامح البارزة فى الخوارج الشجاعة وحب الخير والاستهانة بالدنيا دفاعا عن رأى يعتنقونه أو مبدأ يدينون به وحبهم للموت فى سبيل المبدأ ولقد كان بين صفوف الخوارج مجموعات كبيرة من النساء ولم يكن هؤلاء أقل من الرجال شجاعة واستعدادا للموت .

ولقد لقيت كل هذه الآراء والافكار الخارجية قبولا لدى المغاربة وان كانت دعوة الأزارقة المتطرفة لم تلق استجابة واسعة مثل الاباضية ذلك لانها كانت دعوة لكل الناس للخروج على الدولة باستخدام السلاح فى وجه النظام السياسى القائم لذلك انحصر مداها وظهرت فرق أخرى لقيت قبولا لدى البربر والتى منها الصفرية التى لقيت قبولا أكثر لان أصحابها كانوا يقولون أن العدو الوحيد هى الدولة أما من يؤيدونها فليسوا أعداء للاسلام وانما هم متساهلون فى أحكام الاسلام وحسابهم على الله، وعلى هذا فان خوارج الصفرية يتساهلون مع عامة الناس ولكنهم يقاطعونهم فلا متاجرة ولا معاملة ولا مصاهرة .

ولقد لقى المذهب الاباضى قبولا أكثر لدى شعب البربر لانه لايدعو إلى الخروج على الدولة وانما يدعو الناس الذين يؤمنون بآراء أصحابه إلى اقامة نظام سياسى لهم فى

النواحى التى لا تستطيع الدولة الوصول إليها وهم يأذنون لأتباعهم بالتعامل مع الناس تاركين الحساب لله سبحانه وتعالى، هذا المذهب الاباضى لقى قبولا بين الناس وهو الوحيد من بين مذاهب الخوارج الذى قدر له أن يعيش حيث أن الاباضية قريبون جدا من فهمهم للشريعة من السنة ولهذا يحسبون عادة ضمن السنة وقد قامت على أساس المذهب الخارجى الاباضى دولة كبرى من أكبر دول المغرب هى الدولة الرستمية فى المغرب الأوسط أو ما يعرف الآن باسم جمهورية الجزائر .

وقد ساعد على قيام تلك الدولة انهم يرون أن دار مخالفيهم فى المذهب والفكر الاسلامى من أهل الاسلام دار توحيد الا معسكر السلطان فانه دار بغى ولا يسمون امامهم أمير المؤمنين ولا يخبرون قتال مخالفيهم الا بعد دعوتهم ولم يبق من الخوارج الا طائفة الاباضية التى تقيم فى عمان وفى جهات قليلة من بلاد المغرب العربى .

وكان فى أيام هشام بن عبد الملك بن مروان (١٠٥– ١٢٥هـ) فر قوم من خوارج العراق إلى المغرب وعملوا من جانبهم على بث مبادئهم الخارجية الاباضية والصفرية حيث انتشرت هاتان الفرقتان بالاضافة إلى الأزارقة فى بلاد البربر وسرت دعوتهم فيهم وأعجبهم من تعاليمها انه لايجب أن يكون خليفة المسلمين قرشيا وانما يجب أن يكون من المسلمين جميعا ولو كان عبدا حبشيا، ومن هنا بدأ الشعور القومى للبربر بناء على انتشار التعاليم الخارجية يقوى ويشتد وبدأوا ينفضون عن العرب ويريدون أن تكون لهم دولة من أنفسهم وقد ساعدهم على ذلك ما عانوا من ظلم شديد وقع عليهم فى عهد عبد الله بن الحبحاب. وقد بلغ عدد الخوارج ما لا يقل عن ستين ألف فرد أيام عمر بن حفص منهم أربعين ألفا من الصفرية وعشرين ألفا من الأباضية .

وقد اختلط العرب بالبربر وامتزجوا بعضهم بالبعض الآخر عن طريق المصاهرة والزواج والسكنى سواء فى البادية أو المدن أو الضواحى ولم يكن للعرب أول الأمر تفوق على

اخوانهم البربر حيث ساوى بينهم حسان بن النعمان وغيره من الولاة ولم يكن للعرب الا الولاية نظرا لخبرتهم الادارية والسياسية مع اشراك بعض رؤساء البربر فى الرئاسة على قبائلهم .

وقد شعر المجتمع الاسلامى المغربى فى هذا العهد باخاء وعدل وتعاون وترابط وكان من نتائج هذه السياسة ترك الأراضى للقبائل البربرية يستغلون محاصيلها، وشعر البربر بفضل السلطة العربية فعاشوا معها أخوة متحابين فى الاسلام وتطوعوا جنودا للجهاد من أجل نشر الاسلام مع حسان بن النعمان ومع موسى بن نصير وكانت لهم إليد الطولى فى فتح الاندلس على عهد موسى بن نصير بقيادة مولاه طارق بن زياد البربرى وكان نشر الاسلام بها أنما هو خدمة خالصة لله وللاسلام ولتأييد الخلافة الاسلامية وحرصا على انطوائهم تحت لواء الاسلام .

ومن هنا كانت المحبة والاعزاز هى الشعار الذى ساد مجتمع المغرب العربى ولا شك أن هذا الحب كان ناتجا عن العدل الشامل الذى نشره ولاة المسلمين ولاسيما فى عهد عمر بن عبد العزيز(١٠٠هـ)ولم تحدث قلاقل فى المجتمع العربى البربرى بشمال أفريقية حيث يذكر أن الخليفة بعث رجلا على الصدقات إلى بلاد المغرب وهو«يحى بن سعيد»فقال بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية فأقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بالبلاد فقيرا ولم نجد من يأخذها منهم فقد ساد الغنى كل الناس قال، فاشتريت بها رقابا (عبيدا) فأعتقتهم وهكذا يكون تطبيق العدالة الاسلامية من أسباب طاعة البربر للخلافة الاسلامية.

بل ان البربر لم يقوموا بالثورة الا بعد أن تنكر الولاه الذين كانت تعينهم الخلافة الأموية والعباسية لمبادئ الاسلام والخروج عن أحكام القرآن الكريم السمحة الحقة التى تنم عن الاخاء والمساواة والعدالة والشورى والديمقراطية وهكذا ثار البربر تحت قيادات

مختلفة متأثرين قيادات متعددة.

الثورات والفتن فى المغرب:

وأشهر الثورات التى حدثت فى عهد الولاه هى ثورة عام ١٠٢هـ على الوإلى يزيد ابن أبى مسلم وثورة ميسرة المطغرى أو المدغرى الصفرى عام ١٢٢هـ على . والى طنجة والقيروان وخليفة دمشق وثورة المغرب التى قضى عليها عبد الرحمن بن حبيب الفهرى بنواحى تلمسان عام ١٣٥هـ وثورة عبد الرحمن بن حبيب على أخيه عبيد الرحمن وقتله عام ١٣٧هـ.ونجا ولده حبيب إلى القيروان وثار على عمه ثم قتله ثأرا لابيه عبد الرحمن عام ١٣٨هـ وثورة ورفجومة البربرية بتحريض عبد الوارث من أبناء عقبة وقد احتلوا القيروان وقتلوا حبيب الفهرى عام ١٤٠هـ. ومن عام ١٤٤هـ اشتعلت الثورة بقوة فى المغرب وافريقية فأرسل إليها الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور قائده محمد بن الأشعث فقاتل الخوارج وقتل أبا الخطاب زعيمهم بطرابلس ودخلت القيروان بعد ذلك تحت سلطة الخلافة العباسية،وحدثت أثناء القرن الثانى ثورات وحروب كثيرة وثورات متعددة،تعود إلى العوامل السابق الاشارة إليها فى عدم العدالة والقسوة والشدة فى جباية الأموال،وأكبر ثورة حدثت خلال عهد الولاه هى ثورة قبائل البربر على عمر بن جعفر آل أبى صفرة المهلبى بمدينة طنجة قاعدة الزاب بالجزائر ودام الامر كذلك إلى أن تسلم ابراهيم بن الأغلب ولاية افريقية عام ١٨٤هـ حيث نجح فى اعادة الامن إلى الجزائر وتونس.

وعلى هذا كانت تلك الثورات من الأسباب الهامة التى يجب ملاحظتها فى بلاد المغرب وهى قيام الممالك المحلية المغربية المستقلة أولا وهى الأغالبة والادراسة والرساتمة التى نحن بصدد دراستها فى الأبواب القادمة.ولكن هذه الدويلات المحلية لم تظهر على سطح الاحداث المغربية مرة واحدة وفى فترة زمنية واحدة،ولكن كانت هناك عوامل قد

ساعدت على قيام تلك الدويلات واستقلالها عن الخلافة العباسية وان كانت كما سبق القول بوادر تلك الازمات قد ظهرت فى عهد الدولة الاموية وخاصة تلك الثورة الكبرى أو الفتنة الكبرى التى اجتاحت المغرب فى نهاية العصر الاموى وخاصة فى أيام هشام بن عبد الملك،حيث انه بعد أن قتل المغاربة الوإلى يزيد بن أبى مسلم الذى أراد أن يعامل المغاربة كما يعامل الحجاج بن يوسف الثقفى أهل العراق ومن ثم كانت الثورة المغربية عام ١٠٢هـ وتم فيها مقتل يزيد بن أبى مسلم،فبعد ذلك بفترة قصيرة أقامت الدولة على المغرب ولاه من أهل الحكمة والمعرفة بتدبير الأمور ولكن المشاكل كانت تتزايد بصورة أصبح معها من العسير على رجل واحد أيا كانت قدرته وكفاءته أن يتلافى هذه المشاكل،ففى أيام هشام بن عبد الملك(١٠٥-١٢٥هـ) أقيم على المغرب وال يدعى عبد الله بن الحبحاب وهذا الرجل ولى عام ١١٩هـ/٧٣٧م على غرب البلاد الاسلامية من حدود مصر غربا إلى جبال البرت أو البرانس بين أسبانيا وفرنسا،وعلى هذا فقد تحول الغضب المغربى فى عهد ولاية ابن الحبحاب إلى ثورة على الحكم العربى ومن هنا كانت تلك الثورة التى انتشرت من الريف أو اقليم الريف الذى يسمى طنجة عام ١٢٢هـ/٧٤٠م وانتشرت بين قبائل بربرية كثيرة وضخمة مثل برغواطة وغمارة وتولى زعامة تلك الثورة رجل يسمى ميسرة الفقير(سبق الحديث بإيجاز عن هذه الثورة فى الجزء الأول من تلك الدراسة)وعند النظر فى لفظ فقير الذى اختاره الرجل لكى يقترن باسمه فاننا نجد انه اختار ذلك اللقب لكى يدل دلالة قاطعة على مدى ايمان الرجل ولكى يصور المثل الاعلى للمؤمن المجاهد الذى لا يطمع فى شئ من متاع الدنيا حيث انه هو فقير إلى الله سبحانه وتعالى لكن أعداء حركة البربر الثورية بقيادة ميسرة الفقير التى كانت تطالب بتطبيق المبادئ العادلة للآسلام قد اتهموا ميسرة هذا زعيم الثورة بالكفر والخروج على الاسلام بل انهم قالوا عنه أقوالا مثل انه ابتدع وابتكر قرآنا وكفر بالله العظيم إلى غيرها

من الادعاءات الباطلة التى يجب أن تتخذ بكل حذر لانها صادرة عن أنصار الدولة الاموية المعاديين للثورة المغربية التى خرجت تطالب برفع المظالم وعدم الجور والتعسف فى المعاملة ولقد كان على رجل مثل ميسرة الفقير هذا الذى تولى قيادة وزعامة جماهير بربرية ضخمة غاضبة خرجت على طاعة الخلافة أن يكون قادرا على حل جميع مشاكلها وايجاد السبل الملائمة والممكنة لعلاج أية مشاكل اسلامية دفينة تنشب من جراء هذا التواجد الثورى والتى لم يكن له علم بطبعها أو ايجاد الحلول الممكنة لها من بين الكتاب (القرآن الكريم) والسنة فكان عليه أن يفكر قدر المستطاع فى ايجاد الحلول التى ربما لم تكن تناسب التعاليم الاسلامية وذلك حتى لا يفقد زعامته وسيطرته على قيادة الثورة وربما قد يكون من بين هذه الحلول بعض الآراء الخارجة على تعاليم الاسلام.

ومن هنا فانه يمكن القول أن ثورة الخوارج التى امتدت من طرابلس إلى تونس إلى الجزائر إلى طنجة وسهول سبو ثم قابس إلى فجيج إلى سجلماسة لم تكن سوى طفرة نحو دعم وحدة المغرب بايعاز من دعاة العرب وتحت شعار الاسلام ولم يكن فى هذا أى مظهر مقصود لما زعمه المستشرقون وفى وجود روح انفصالية بين العرب والبربر أو روح الثأر من البربر ضد العرب اذ لو كان ذلك حقيقيا لما طلعت الثورة بتلك الروح ولا كان ذلك الشعار (رفع الظلم) غير أن هذه الثورة ما لبثت ككل الثورات فى العالم أن تمخضت عن تيارات عنيفة.

وعلى هذا قامت الثورة التى لم تكن ضد الوجود العربى بالمعنى المفهوم انما لرفع المظالم بقيادة «ميسرة المدغرى»أيام ولاية عبد الله ابن الحبحاب فى خلافة هشام بن عبد الملك ففتكوا بعمر بن عبد الله المرادى عامله على طنجة وولوا مكانه(عبد الاعلى بن خديم). وعلى هذا فقد جمع بعد ذلك ميسرة جموعا كبيرة من البربر وسار للقاء العرب

لا على أسس انهم عرب وانما على انهم حكام ظالمون ،وانه ليس صحيحا ما قاله بعض كتاب المغرب ومؤرخيه بأن البربر كانوا فى تلك الثورة يودون طرد العرب من وطنهم المغرب فهذا غير صحيح لان واقعهم التاريخى يخالفه ويؤيد عكسه حيث انهم ابقوا العرب بجوارهم وصارت بعض القبائل البربرية تلفق أنسابا تتصل بها مع العرب بل أكثر من ذلك فانه فى صفوف قوات مسيرة كان هناك عرب غاضبون على الدولة الاسلامية يريدون تغير النظام وخلع الخليفة الاموى وتعيين خليفة ليس من بين العرب ومعظم أولئك كانوا من الخوارج العرب، حيث كانت بعض الفرق قد انتشرت فى المغرب ومنها بعض الفرق كانت ترى الانتظار إلى وقت ملائم وصرف الوقت فى تعليم أصول مذهبهم لجذب الناس إليهم ثم جعل الثورة الخطوة التالية وسميت هذه الفرقة«بالقعدة» أى الذين قعدوا عن الجهاد.

وانقسمت بعد ذلك كلتا الفرقتين إلى فرق أخرى كالازارقة وهو اتباع نافع بن الازرق ثم الصفرية والاباضية وبينما كان الاولون(الازارفة) من فريق المجاهدين كان الاخيرون الصفرية الاباضية من فريق القعدة،كل هذه الفرق دخلت إلى شمال افريقيا وانضم إليها البربر وانقسموا بين فرقها المختلفة وقاموا فى وجة الخلافة الاموية وسارت الجيوش الثائرة على النظام القائم لا على الوجود العربى الاسلامى فى بلاد المغرب،فهى ليست فتنة بربرية ضد العرب بالمعنى المفهوم وانما هى ثورة داخلية فى داخل جزء من الدولة الاسلامية الكبرى وأهدافها ومطالبها وغاياتها كلها اسلامية تعبير عن الانحراف الذى حدث فى ادارة هذا الجزء من الدولة وخروجة عن الخط الاسلامى السليم وانها لم تكن بالضرورة مظهرا لثورة اقليمية بربرية أو فتنة قام بها البربر .

وازاء تلك الثورة العارمة لم يجد عبد الله بن الحبحاب جندا كافيا ليرسله لمواجهة الثائرين فجمع من استطاع من الجند وأرسلهم بقيادة رجل من رجاله لكى يقمع تلك الثورة التى اشتد ساعدها وكان ذلك الرجل هو خالد بن حبيب .

وكان فى ذلك الوقت قد تقدمت تلك العناصر الثائرة بقيادة(مسيرة المدغرى) أو مسيرة الفقير شرقا حتى بلغوا مجرى نهر شلف،لكن مسيرة تردد فى عبور النهر والاندفاع لملاقاة قوات خالد بن حبيب الذى كا يمثل الخلافة الاموية،وازاء هذا التردد فان أصحابه قاموا بقتله بناء على تشكيل مجلس شورى لانهم كانوا يرون تردد مسيرة عارا على مثل حركتهم الثورية ومن ذلك فانهم اتخذوا ذلك القرار مثل بقية الخوارج الذين كانوا لا يهابون الموت،وولوا على انفسهم بدلا منه رجلا يدعى(خالد بن يزيد الزناتى) والذى رأى أن يستدرج العرب فتراجع غربا حتى عاد ادراجه إلى طنجة مرة أخرى والتى كانت معقل الثورة وعلى مقربة من أسوار مدينة طنجة التقى الجيش العربى بقيادة خالد بن حبيب وجبش الثوار بقيادة خالد بن يزيد الزناتى وسميت تلك المعركة معركة الاشراف لكثرة ما قتل فيها من أشراف العرب وقد إنهزم العرب فى تلك المعركة.

ومما يدل على أن الثورة كانت عامة ولم تكن تقتصر على البربر لوحدهم ذلك التمرد الذى قام به عرب القيروان على الوإلى عبد الله بن الحبحاب ومن هنا قام الخليفة هشام بن عبد الملك(١٠٥–١٢٥هـ) باستدعاءه إلى دمشق وقام بارسال جيشا إلى افريقية عدته سبعة وعشرين ألف جندى مقاتل تحت قيادة قائد عربى يدعى(كلثوم بن عياض القشيرى ومعه فى تلك الحملة ابن أخيه بلج بن بشر بن عياض القشيرى وسارت قواتهم لتلتقى فى بلاد المغرب مع القوات العربية الموالية للخلافة الاموية بقيادة حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى،لكن تلك القوات الضخمة بقيادة كلثوم بن عياض ومعاونة حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع انهزمت فى ذلك الصراع الدائر فى اطراف المغرب الاقصى حيث فرت بقية القوات بقيادة بلج بن بشر بن عياض القشيرى إلى مدينة سبتية حيث احتمت فيها واعتصمت داخل أسوارها خوفا من أن تفتك بها القوات الثائرة البربرية والعربية.

لكن ازاء فشل القوات فى تحقيق أهدافها فان الخليفة هشام بن عبد الملك لم يترك الحبل على الغارب بل دفع بقوات ضخمة من الفرسان بقيادة أحد كبار القواد العرب الشاميين ويدعى حنظلة بن صفوان الكلبى ووصل هذا الجيش بعد أن تلقى امدادات أخرى من مصر إلى القيروان حيث وجدها مهددة بالسقوط فى أيدى قوات الخوارج.

وكان خوارج المغرب فى ذلك الوقت قد اختلفوا فيما بينهم إلى قسمين كبيرين قسم يقوده عكاشة بن أيوب الفزارى والثانى يقوده عبد الواحد ابن يزيد الهوارى، وقبل أن تصل قوات الخلافة الاموية كان عرب القيروان قد تجمعوا تحت قيادة العلماء وكبار رجال الدين والصالحين وبقية العامة حيث خرجوا لملاقاة الخوارج ومنعهم من الوصول إلى عاصمتهم القيروان وذلك من أجل الدفاع عن قاعدة الاسلام الكبرى والاولى فى بلاد المغرب حيث مركز الاشعاع الاسلامى كذلك للدفاع عن مذهب السنة، واستطاع حنظلة بن صفوان الكلبى عند وصوله إلى القيروان أن يستغل ذلك الشعور لصالحه وصالح الدولة الاموية لكى يكون سندا له لتحقيق الانتصار النهائى على القوات الخارجية،فقام من توه توزيع اشلاح عليهم واستغل حماسهم لمذهب السنة والجماعة حيث خرجوا تحت قيادته وتقابلوا مع قوات الخوارج التى كانت تحت قيادة عبد الواحد بن يزيد الهوارى،وذلك موقع يقع على بعد أربعين كيلو متر غربى القيروان واستطاعوا أن يهزموه هزيمة نكرة بعد قتال عنيف فى موقع يقال له الاصنام وذلك استطاع حنظلة الكلبى أن يقضى على احدى قوى الخوارج.

ومن ثم كان عليه أن يتجه إلى مقاتلة القوات الخارجية الاخرى بقيادة عكاشة بن أيوب القزارى حيث تقابلوا معه فى معركة حامية الوطيس فى أوائل عام ١٢٤هـ/٧٤٢م انتهت بهزيمة عكاشة الفزارى هزيمة نكراء، وقد انقذت المعركتان السنة ومذهب الجماعة فى افريقيه(تونس وشرق الجزائر) حيث ثبت أقدامها بعد ذلك،وكان على قوات الخوارج

المنهزمة أن انسحبت غربا إلى المغرب الاوسط حيث كانت تلك المنطقة الموقع الخصب لانتشار ميادئ الخوارج الاباضية والصفرية حيث استطاعت أن تجد متنفسا لها فى مناطق صغيرة ومحدودة فى جبال ريف المغرب الاقصى وفى المغرب الاوسط وكذلك بقيت بقع صغيرة فى جبال نفوسة فى اقليم طرابلس وجزيرة جربة.

وهناك بعض الآراء تذكر أن حنظلة بن صفوان الكلبى وإلى مصر وقائد الانتصارات قد أحرز بعض الانتصارات البسيطة على خوارج المغرب حيث لم يستطيع أن يقضى على كل قوة الخوارج التى ساعدت فيما بعد فى خروج بعض أجزاء من المغرب عن طوع وطاعة الامويين،ويذكر أن سبب هذة الثورة هذة السياسية التى اتبعها الامويين نزولا على نصيحة الحجاج بن يوسف الثقفى ممن عدم اعفاء من دخل الاسلام من الجزية حتى لا يتأثر بذلك بيت المال الاسلامى وذلك يتنافى مع التعاليم الاسلامية.

وهكذا انتهى هذا الصراع الاموى المرير بانتصار السنة فى ولاية افريقية وهى تتكون من اقليم طرابلس وتونس وجزء من شرق الجزائر بالاضافة إلى تلك المناطق كانت تضم مراكز العمران الرئيسية فى افريقية وكانت تضم اقليم طرابلس عدا جبل نفوسة وافريقية والزاب ثم السهل الشمإلى للمغرب الاقصى فانها ثبتت على المذهب السنى المالكى مذهب الجماعة،وفى هذه الظروف سيطر العرب على افريقية وأما خارج تلك الانحاء السالفة فقد سيطر عليها البربر وكان معظم هؤلاء البربر من الخوارج من قبية الزناتية،أما البرانس أهل الاستقرار وهم معظم سكان المغرب فلم تمتد إليهم لهيب الفتنة بنفس المدى الذى امتد به إلى قبائل الزناتية.

وهكذا بدأت شخصية المغرب العربى فى الظهور منذ اواخر العصر الاموى حيث انتهى العصر الذهبى لبنى أمية بوفاة هشام بن عبد الملك وهو آخر الفحول من خلفاء بنى أمية(١٢٥هـ/٧٤٣م) ولم يبقى من عمر الدولة كلها الا سبع سنوات كانت كلها فتن

وتفكك ومصاعب تواجه الخلفاء الضعفاء،وعلى هذا فقد بدأت الشخصية المغربية تأخذ شكلا واضحا وربما مغايرا للاحوال السابقة حتى بداية العصر العباسى، وقد تميز بظهور الشخصية المغربية بتقهقر المعارضة الدينية الاسلامية والسياسية للخلافة الاموية- واتخاذها بلاد المغرب بأقسامه المختلفة مركزا لنشاطها ودعوتها حيث اتخذت المعارضة الخارجية والمعارضة الشيعية وقد توزعتا بين الشرق والغرب الاسلامى ولكن نجاحها فى المغرب كان اقوى منه فى المشرق.

كما انه يلاحظ أن المعارضة الخارجية كانت تلجأ إلى المناطق التى تتفق وروح أهلها مع مبادئ العدالة والديمقراطية والمساواة،فتراها فى الشرق فى العصر العباسى تنتشر فى مناطق القبائل العربية حيث الروح القبلية النزاعة والتواقة إلى الحرية وإلى المبادئ الديمقراطية فلا تظهر فى الجزيرة العربية فى شمالها وبخاصة فى الموصل وفى الجنوب فى اليمن وعمان، كما تظهر فى المغرب العربى حيث القبائل البربرية التى تسودها هذه الروح القبلية،واذا كان انتشار المبادئ الشيعية فى الشرق يعبر عن الميول الفارسية،فان انتشار مبادئ الخوارج فى المغرب كان تعبيرا عن الميول المغربية التى ألفت الحرية كالقبائل العربية والبربر جنس خشن غضوب، محارب شديد الغيرة على حريته يشبه العرب إلى حد كبير وقد وصفهم القائد «موسى بن نصير»فقال البربر أشبه العجم بالعرب،لقاء ونجدة وصبرا وفروسية وهم مثل القبائل العربية فى معيشتها فى الجزيرة،بدو رحل يعيشون فى أرض محدودة ويشنون الحروب على نفس طريقة القبائل العربية وهم كالعرب قوم ألفوا الاستقلال منذ القدم وكانوا فى حياتهم السياسية والاجتماعية يتبعون نفس النظام الذى كانت تمارسه القبائل العربية وهو النظام الديمقراطى فرؤساؤهم من أنفسهم على أساس المناقب الشريفة،ومن ثم فقد وجد العرب فيهم عند فتح بلادهم ندا شديد الشكيمة ولم يستطيعوا التغلب عليهم الا بعد أن آشعروهم بتقديرهم لهم واحترامهم لكبريائهم ولم

يعاملوهم كمغلوبين أو اعتبار بلادهم غزوا كبقية البلاد التى فتحها المسلمون، بل كالاخوة على قدم المساواة والويل لمن تحدثه من ولاية الدولة أن يمس كبرياءهم أو يجرح كرامتهم، ولنا فيما حدث ليزيد بن أبى مسلم الذى كما سبق القول أراد آن يسير على سيرة الحجاج بن يوسف الثقفى وذلك فى عهد يزيد بن عبد الملك بن مروان (١٠١–٥٠١هـ)الا أن وثبوا عليه فقتلوه وتمردوا على الخلافة.

وكما سبق القول فان البربر ازاء السياسة التى اتسمت بها الدولة الاموية بالتعصب للعرب على غيرهم من الشعوب الاسلامية بما يتنافى مع التعاليم الاسلامية كان حافزا لهم بالثورة والتشدد فى رد الفعل ازاء ما يمس كرامتهم كما أن سياسة الدولة الاموية الاقتصادية اتسمت أيضا بالشدة ضد الشعوب المغلوبة،هذه السياسة التى رسمها الحجاج لبن يوسف الثقفى ونفذها عمال الدولة فى كل الاقاليم وهى ابقاء الجزية على من أسلم من الموالى،وذلك لان امتداد الحركة الاسلامية كان قد اشتد،وأخذت أعداد كبيرة من أهل البلاد المفتوحة تدخل فى الاسلام فقلت موارد بيت المال بسبب نقص الجزية (أقوال معادية للاسلام من وضع إليهود أمثال عبد الله بن سبأ).

ولما كانت الدولة فى حاجة شديدة إلى المال لتواجه المشاكل الداخلية والخارجية التى كانت تواجهها فقد حرصت على بقاء هذه الموارد كما اشتطت فى جنيع الخراج وذادت من مقدار الجزية الامر الذى أغضب أهل البلاد وأثارهم ضد الدولة.

وقد وقع هذا الجور على البربر فى شمال افريقية حيث عاملهم عبد الله بن الحبحاب معاملة قاسية وأراد أن يخمس(يأخذ خمس الدخل)مسلمى البربر وزعم انهم فيئ المسلمين وذلك شئ لم يرتكبه أحد قبله واستولى على معظم قطعان أغنامهم وذبحها ليحصل منها على الصوف الابيض الذى يلبسه أهل دمشق بل لم يكتف بتجريدهم من هذه القطعان التى كانت أهم مصادر حياتهم بل جمع الجزية ممن أسلموا منهم.

وظل البربر يكظمون غيظهم أكثر من خمس سنوات، إلا أنهم كانوا يتهيئون للثورة التى اتخذت مظهرا دينيا أكثر منه سياسيا،ذلك أن الشعب البربرى فى بساطته متدين بطبيعته، شديد الايمان، بل انه شعب مسرف فى توفيره لرجال الدين والعلماء والصالحين والمتدينين ولم يكن ينظم قبائلهم فى حركة عامة الا شخصية دينية ولهذا لم يقدر للبربر أن يلعبوا دورا هاما على مسرح العالم الا حينما حركتهم شخصية دينية هى شخصية المرابطين.

ولقد أكدت الايام فى شمال افريقيا أن البربر لم يلبثوا أن ألفوا الاسلام وتعلقوا به وأصبح الدين أعز ما لديهم وهم حين دخلوا الاسلام دخلوه ببساطة البدوى الساذج فلم يفهموا بطبيعة الحال قضاياه الدقيقة التى تطرب لها العقول المثقفة ولكنهم فهموا منه جانبه العاطفى القومى ووافق هوى فى نفوسهم بما يدعو إليه من العدالة والمساواة والحرية والديمقراطية والوحدة والتضامن والاخاء. فلما افتقدوا تلك الصفات من العدالة والمساواة وغيرها من تعاليم الاسلام فى عهد حكم بنى أمية بعد عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز فاننا نجد انهم قد بدأوا ينحازون إلى جانب الخوارج واعتناق مذاهبهم الخارجية المختلفة (الاباضية، الصفرية، الأزارقة) والذين كانوا قد اتجهوا إلى بلاد المغرب بعد أن عصفت بهم الدولة فى الشرق فوجدوا فى الشمال الافريقى البعيد ملجأ يحتمون فيه ووجدوا فيه تربة صالحة لزرع مبادئهم فصادفوا نجاحا منقطع النظير، واذا كان الشرق الاسلامى قد ضاق بتعاليم الخوارج وشدة تمسكهم بهذه التعاليم وتعصبهم لها،فان سكان الشمال الافريقى تلقوا آراء الخوارج فى حماسة بالغة دون بحث عن أفضل الجماعات التى يتصلون بها، فلم يكن يهمهم أن تكون هذه الجماعة حرورية أو صفرية أو أباضية أو أزرقية وانما أخذوا مبادئ الخوارج عموما أخذا قويا وذلك لما وجدو فى تعاليمها من دعوة إلى الافكار الثورية الديمقراطية والتى تقنعهم بأن مضطهديهم ملعونين بما حادوا عن تطبيق تعاليم

الاسلام وسيكون مأواهم جهنم وبئس القرار.

وعلى هذا فلم يكن الخلفاء الامويون جميعهم الذين تولوا الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز فى نظرهم سوى مغتصبين للسلطة وكفرة ولا يجوز طاعتهم ويجب عصيانهم ورفع السلاح فى وجوههم ومن ثم فانه لم يكن بد أن يثوروا ضد الطاغية الذى سلبهم متاعهم وأموالهم، بل أنهم رأوا فى ذلك حقا واجبا عليهم وضرورة حتمية فى مقاومة ذلك الطغيان.

بالاضافة إلى أن ولاة المغرب والعرب الذين كانت توليهم الخلافة الاموية أمور البلاد قد أبعدوا البربر عن السلطة ولم يتركوا لهم الا ما عجزوا عن ادارته من حكومة القبائل،فقد أصبح من إليسير عليهم أن يفهموا أن عقيدة سيادة الشعب التى ينادى بها الخوارج وهى العقيدة التى مارسها البربر من زمن بعيد بعد استقلالهم القبلى انما هى العقيدة الاسلامية الخالصة.

ولما كان ذلك الشعب المسلم البربرى ابن عم وشقيق الشعب العربى قد أسرف عمال بنى أمية فى الضغط عليه فقد نجح فى اثارة ذلك الشعب متعصبون أنصاف وعاظ وأنصاف محاربين وكانت لهم ثأرات قديمة مع الجماعة المسماه بأهل السنة والجماعة،فقد كان فى طريقه إلى تحطيم ذلك النبر باسم الله ورسوله،وباسم هذا الكتاب الذى يعتمد عليه الاخرون افتئاتا فى قيام استبدادهم الجائر ، فقد كانت النفوس البربرية مهيأة وثائرة اذ ذاك ولم تكن تنتظر الا اللحظه المناسبة لتمتشق الحسام.

وكما سبق القول فقد حانت تلك اللحظة المناسبة حينما أرسل عبد الله بن الحبحاب عام ١٢٢هـ قسما من جيشه إلى صقلية للقيام بغزوها،فما كادت الحملة تبحر حتى كانت أدنى شرارة كافية لاشعال نار الثورة، وقد جاءت هذه الشرارة فى صورة عمل طائش قام به(عمر بن عبد الله) حاكم شمال مراكش من قبل ابن الحبحاب ، اذ أمر

البربر الذين يقطنون اقليمه بدفع الجزية مضاعفة كأن لم يكونوا مسلمين فسرعان ما امتشقوا السلاح وحلقوا شعورهم ورفعوا القرآن الكريم على أسنة رماحهم كما جرت على ذلك سنة الخوارج وتداعت البلاد بأسرها بربرها وعربها وعظم البلاء وقدم بربر طنجة على انفسهم واحدا منهم هو(ميسرة السقاء المدغرى)والملقب بالفقير وكان هذا الرجل قد اعتنق مذهب الخوارج على الطريقة الصفرية ومن ثم هاجموا طنجة واستولوا عليها وقتلوا حاكمها ثم بايعوا ميسرة بالخلافة عليهم وخاطبوه بأمير المؤمنين ولكنهم حين أحسوا منه عجزا قتلوه وولوا عليهم غيره رجلا من صنهاجة وظهرت الخوارج فى كل افريقية الأمر الذى حمل الوالى عبد الله بن الحبحاب بالعمل على وجه السرعة واستدعاء قواته من صقلية،ودارت فى المغرب(كما سبقت الاشارة) معارك طاحنة كان من أهمها معركة الأشراف التى انتصر فيها البربر وقتل حماة العرب وفرسانهم وانفضت البلاد وخرج أمر الناس،وغدت افريقيه كما يقول دوزى فى كتاب تاريخ مسلمى اسبانيا ترجمة (حسن حبشى) أشبه بقارب بنساب ليس له شراع أو ربان فقد خلع العرب طاعة عبد الله وعنفوه بالقول والعمل لانه هو الذى جر عليهم كل هذه النكبات الجسام.

ولكن الحكومة المركزية فى دمشق انتصرت على يد حنظلة بن صفوان الكلبى فى افريقية وأوقفت الفتنة المغربية إلى حين ولكنها لم تصل إلى هذا النصر الا بمعاونة عرب افريقية،فأنهم قاموا بنصب كبير فى القتال فى سبيل استخلاص افريقية من الثائرين على الخلافة ولولاهم لما استطاع جند الخلافة الوصول إلى هذا النصر الحاسم.

ولقد ظهرت عدة ولايات محلية يتزعمها زعماء محليون انتشروا فى بلاد المغرب الاوسط والأقصى ومن العسير تبين حقيقة أمرهم فقد أنشأوا هذه الامارة البربرية أو الوحدات السياسية فى المغربين الأوسط والأقصى ويمثلهم فى ذلك العصر رجل رجل يدعى(أبو فرة إليفرانى الزناتى) وهو رجل اقام له دولة خارجية اباضية فى اقليم تلمسان ونادى بنفسه

اماما بل اتخذ لقب الخلافة وصار يدعى أمير المؤمنين طوال أربعين عاما وجدير بالذكر أن المذهب الخارجى لهؤلاء الزعماء والمسلمين لم يكن يبدو فى صورة واضحة ولم يكن يتبين هل هم أباضية أو صفرية لكنهم كانوا من أتباع المذهب الخارجى بل أن سياستهم وخارجيتهم كانت سياسية أكثر منها مذهبية مما يدل على رغبتهم فى الوصول للسلطان السياسى فى هذه البلاد الواسعة.

وعلى الرغم من الحملات العربية التى أرسلتها الخلافة الاموية الا أن الذين انتصروا فى ذلك الوقت هم العرب المغاربة أحفاد وأبناء الفاتحين الاوائل لهذه الديار حيث كانت الدولة الاموية فى أواخر أيامها وعندما قامت الدولة العباسية فانهم نقلوا الولاء لها ظاهريا، وكان يمثل عرب المغرب فى ذلك الوقت عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن نافع الفهرى والذى يمثل بيتا عربيا طالت اقامته فى افريقية وبلاد المغرب حتى صار من أهلها وجدير بالذكر ان نفرا من كبار الفاتحين الذين ذكرناهم،خلفوا وراءهم فى المغرب العربى بيوتا عديدة الافراد كثيرة الاتباع، وكان لها دور كبير فى تاريخ المغرب فيما بعد، وأشهر هذه البيوت،بيت عقبة ابن نافع الفهرى ويمثله عبد الرحمن بن حبيب وأولاده وأخوته، وبيت موسى بن نصير، وكذلك بيت أبى المهاجر دينار، وكل هذه البيوت الثلاثة التى كان أجدادها وأسلافها قودا عظاما وفاتحين كبار ورجال دولة وساسة عظام تركوا بصماتهم واضحة جلية فى أرض المغرب لم يتجه أحفادهم اتجاها واحدا، لذا نجد على سبيل المثال أن بيت عقبة بن نافع الفهرى سيتجهون إلى السياسة، أما بيت أبى المهاجر دينار فان أحفادهم يتجهون إلى طلب العلم والفقه فى أمور الدين الاسلامى ودراسة علومه المختلفة وتدريسها،كذلك فان أبناء وأحفاد موسى بن نصير سيتجهون إلى الاشتغال بالأعمال الاقتصادية وشئون المال والتجارة .

ومن هنا وقع دور الحركة السياسية على أكتاف أحفاد عقبة بن نافع الفهرى فنجد

عبد الرحمن بن حبيب زعيما سياسيا من بين أفراد أسرته ويعتمد فى المقام الأول على سمعة جده عقبة بن نافع الفهرى وتاريخه البطولى وفتوحاته ودوره فى المغرب العربى،لكنه كان يختلف عن جده الذى كان مجاهدا حقيقيا فى سبيل رفع راية الاسلام للأمام فى حين نجد عبد الرحمن ذو طوحات سياسية يسعى لتحقيقها لغرض نفوذه السياسى فى اقليم افريقية بالاضافة إلى انه كان يسعى إلى الاستقلال بالبلاد عن الخلافة العباسية فى حين انه لم يكن يتمتع بمزايا سياسية كالفطنة والكياسة والدبلوماسية الهادئة التى يحقق من ورائها أهدافه وطموحاته السياسية، ولذلك نجد انه لم يكن يتمتع بملكات سياسية وأخلاقية تمكن له من الثبات وتنظيم أمور الدولة التى لو اتيحت له فرص التنظيم والادارة الناجحة وحسن التنظيم لواتته الفرص لكى يكون القائد الناجح الذى يخلص الناس من الفوضى السياسية التى يعيشها المغرب فى تلك الاحوال.

ولقد كان بوسع عبد الرحمن بن حبيب أن يقيم دولة كما فعل معاصره عبد الرحمن بن معاوية الداخل فى الاندلس ولكنه نصب نفسه أميرا على الامارة فى افريقية دون أن يتخذ للموقف عدته واحتمالاته ودون وعى سياسى وقدرة ادارية،بل أكثر من ذلك لم يحاول أن يحصل على سند شرعى وتدعيم شعبى باعلان ولائه للخلافة العباسية وخضوعه لها، تلك الخلافة الجديدة التى لم يحاول أن يكسب شرعيتها،بالاضافة إلى انه لم يفكر على الاطلاق فى الاستفادة من العناصر العربية القاطنة للمغرب والتى أصبحت مغربية بالمولد ومرور الزمن ومعاشرة البربر والاختلاط معهم،بل انه لم يفكر على الاطلاق فى الاستعانة بالقبائل البربرية القوية المجاورة والتى تخضع لحكم الامارة فى القيروان.

ولقد كانت طبائعه الشخصيه تدل على عدم ادراك الامور والتدبر فى علاج المشاكل واتخاذ المواقف المناسبة بل انه كان يندفع فى علاج الأمور وكان سريع الحركة مما أضعف مركزه فى أول الأمر.

وكان أول عمل قام به عبد الرحمن بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى بعد أن تولى امارة القيرواان وأعلن نفسه وإليا على البلاد أن طلب من عليه القوم ورجال الدين والعلماء مبايعته بذلك والكتابة إلى الدولة العباسية الجديدة وإلى الخليفة أبى جعفر المنصور بالدخول فى طاعته وانه نصب نفسه أميرا بناء على طلب الرعية ورغبتها فى القيام بأمر الامارة فى القيروان.

فما كان من الخليفة العباسى الاول أبى جعفر المنصور الا أن طلب منه ان يبعث إلى بيت المال خراج المغرب حيث كانت الدولة الجديدة فى أمس الحاجة إلى الدعم المإلى،ولم يكن أبو جعفر المنصور يعرف طبيعة المغرب فى قلة الجباية والاموال.حيث كان دخل الحكومة الاقتصادية لولاية القيروان قليلا جدا حيث كانت ولاية القيروان تحصل كدعم ومساعدة على مائة ألف دينار سنويا من مصر لسد العجز فى بيت المال المغربى وتدلنا على ذلك تلك الهدية التى أرسلها عبد الرحمن بن حبيب الفهرى وإلى القيروان إلى أبى جعفر المنصور خليفة بغداد الجديد وما كتبه معها من ضعف هديته لان المغرب اذ ذاك بلاد اسلامية لا جزية فيها ومن هنا تدل تلك الهدية على نقصان الدخل الوطنى والقومى من أموال الولاية،وقد أخطأ أبو جعفر فى ذلك فلم تكن هناك فى افريقية أموال فى ذلك الوقت،فالبلد فى فوضى والجباية معطلة ،ولم يكن من عبد الرحمن بن حبيب الفهرى،الا أن أرسل إلى آبى جعفر المنصور يلومه على طلب الأموال ويشتد له فى القول بل انه سبه وأعلن الخروج عن طاعته وطاعة الدولة العباسية فى ذلك الوقت المبكر الذى لم يكن قد تم تدعيم وضعه فى الامارة والسيطرة على أنحاء البلاد المختلفة ولقد وقع عبد الرحمن بن حبيب الفهرى فى خطأ تاريخى وسياسى ودينى كبير فى ذلك الوقت،ذلك لانه من الواضح أن الخروج عن طاعة الخلافة الاسلامية الشرعية فى ذلك الوقت لم يكن له رد فعل من الناحية الفعلية من قبل الخلافة،لكنه من الناحية الشرعية والاسلامية يمثل

فى ذلك الوقت المبكر فى تاريخ الدولة الاسلامية خروجا عن الشرعية الاسلامية وعصيانا لسلطة الخلافة وخروجا عن الحكم الشرعى،وذلك لان أهمية الدولة الاسلامية المتمثلة فى الخلافة العباسية اذ ذاك كانت لا تزال قائمة فى نفوس كل المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بل أن الاجماع الاسلامى وجماهير المسلمين عامة لم تكن تقر فكرة خلع طاعة الخلافة،وكان الولى بعبد الرحمن فى تلك الفترة المبكرة من تازيخ تأسيسه الامارة الفهرية فى افريقية ١٣٣هـ/٧٥١م والتى هو فى أمس الحاجة أن يحصل على تأييد ولو اسمى من الخلافة القائمة لتعزز مركزه ولكنه عندما أعلن انفصاله عن السلطة الشرعية المتمثله فى الخلافة العباسية لم يستند على أى سند شرعى يقيم علية حكمه،كان خروجه هذا على الدولة بمثابة النذير لانتهاءئ امارته،ذلك فانه بعد ذلك حاول أن يكسب ود ورضا زعماء القبائل العربية القاطنة بالامارة كما انه لم يعمل على استمالة القبائل البربرية إلى جانبه،وكما اننا نجد ان عبد الرحمن بن حبيب الفهرى لم يكن قائدا عسكريا قادرا بل كان يعتمد فى قيادة قواته على أخيه إلياس الذى كان قائدا عسكريا ماهرا مشهودا له بالكفاءة العسكرية،لكن مع كل هذه الدعائم التى كان يرتكز عليها عبد الرحمن فى ادارة امارته الا انه كان يوجس خيفة من أخيه إلياس نظرا لمكانته وقوة نفوذه وتمتعه بسمعه عسكرية وجمعه أعداد كبيرة من الفرسان والمقاتلين استطاع عن طريق كياسته وحسن ادارته أن يكسب ولائهم وأن يقودهم قيادة حسنة تضمن له بسط النفوذ والقوة ومن هنا عينه أخيه عبد الرحمن وليا للعهد وأن يخلفه فى ادارة شئون الامارة.

ولما كان عبد الرحمن بن حبيب الفهرى على غير شئ من الحكمة والكفاية فى الاعمال الادارية التى تصدى لها لقيادة افريقية فانه كان غير ثابت وسريع الحركة وغير واضح السياسة فنفر منه الناس سواء أكانوا من العرب أو البربر وتصدى له نفر من أنداده من العرب ووقعت الحروب بينهم مما أعاق عبد الرحمن من أن يحقق أهدافه، ولكن عبد

الرحمن ابن حبيب وقع فى خطأ تاريخى آخر لا يقل عن اعلان عدم خضوعه للخلافة العباسية فى بغداد حيث انه قام بعزل أخيه إلياس من قيادة الجيش وولايته العهد،ومن هنا كانت تلك الأعمال من الأسباب القوية التى أدت إلى وقوع القتال والحرب بين الاخويين حيث رجحت كفة إلياس مما ادى إلى مقتل عبد الرحمن وتولى إلياس بن حبيب الفهرى ولاية القيروان بدلا من أخية وقد أدت تلك الأفعال إلى أن يقوم حبيب بن عبد الرحمن بقيادة بعض القوات العربية الموالية له بالاضافة إلى أنه نجح فى استمالة أعداد كبيرة من البربر التفوا حوله حيث سار لقتال عمه إلياس ودخل معه فى حرب انتهت بقتل إلياس وتولى حبيب بن أبى عبيدة ابن عقبة بن نافع الفهرى الولاية بدلا من عمه الا أن ولايته لم تدم طويلا حيث عزله عمه عبد الوارث بن حبيب وتولى الامارة بدلا منه ولكن حبيب سار إلى قبائل البربر حيث تلك القبائل التى كانت تعتنق المذهب الخارجى الصفرى.

وهكذا كانت رحلة حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب الفهرى إلى القبائل البربرية بداية بأن لا يهدأ الصراع بين العرب والبربر فى افريقية طيلة الايام حتى يتمكن البربر من انشاء دولة أو دويلات يحكمونها بأنفسهم، مع العلم بأن ثوراتهم كانت مستمرة طوال سبعة أعوام تلت وفاة هشام بن عبد الملك ١٢٥هـ حتى انتهاء الخلافة الأموية،ولذا فأننا نرى كيف استمر البربر فى ثورتهم ولم يكن خروج البربر على الامويين والعباسيين يمثل خروجا على الدين وانما كان خروجا على السلطة الحاكمة لظلم الولاه وفرضهم الضرائب الفادحة عليهم ونذعة منهم إلى الحكم الاستقلالى الذى كان أساس حياتهم أزمانا طويلة.

ولقد شهد العصر العباسى انضمام الكثير من العرب الساخطين على العباسيين إلى البربر،ومع ذلك فانه الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور قد سارع بارسال حملات عسكرية بقيادة محمد بن الشعث حيث انتشرت تلك القوات مع قائدها فى القيروان واجتهدت

حتى اقرار الامن فى افريقية وبذل بالفعل جهودا كبيرة فى ذلك السبيل وعندما انتهت ولاية محمد ابن الاشعث،فان المنصور قد ولى أمر هذه البلاد إلى الاغلب بن سالم بن عقال التميمى،وعلى الرغم من هذا فان افريقية وبلاد المغرب أصبحت مشكلة بالنسبة للخلافة العباسية فهى بلد بعيد عن مركز الخلافة العباسية وبلد تعيش فيه جماعات اسلامية متحاربة متعادية بعضهم من أهل الجماعه والسنة وبعضهم من الخوارج بفرقهم ومذاهبهم المختلفة وبعضهم من الشيعة وبعضهم عربا والبعض الآخر بربر،كل هذه الطوائف كانت تتصارع فى المغرب العربى وكان على الخلافة العباسية بقيادة الخليفة أبى جعفر المنصور أن تجد حلا لهذه المشاكل التى تواجه فرض السياده العباسية على هذه الطوائف المتسارعة وأن تجعل تلك البلاد تعيش فى استقرار دائم ومحاولة انتشال تلك الديار من حالة الفوضى والقلق التى تعيش فيها.

فوقع اختيار الخليفة المنصور على قائد له صفات الادارة والحزم والقوة العسكرية هو ابو حفص عمر بن قبيصة الذى هو من قبيلة المهلب بن ابى صفرة وكان من فروع المهابلة من قبائل الازد التى كانت تعيش فى عمان حيث وضعت تحت تصرفه قوات عسكرية ومهام ادارية محددة تؤدى إلى استقرار الامور فى بلاد المغرب ومن هنا كان وصوله إلى القيروان عام ١٥١هـ/٧٦٨م.

اواستطاع هذا الرجل طوال فترة ولايته وامرته البالغة خمسة عشر عاما أن تشهد القيروان وافريقية فترة من الاستقرار النسبى والامن الداخلى وانتهاء حالة الفوضى وذلك لما لهذا الرجل من قدرة ادارية فائقة بالاضافة إلى انه صحب نفرا من بنى قومه من الازد وخاصة من آل بيته من المهالبة وكانوا قوه عسكرية كبيرة بالاضافة لما يمتاز به المهابلة من خبرة بالشئون الادارية والعسكرية وبذلك كان عصر المهابلة بدءا من أبى بكر عمر بن قبيصة هو فترة حاسمة فى تاريخ المغرب وذلك يجعلها مركزا من مراكز السنة والجماعة

وكذلك بصفتها مركزا من مراكز العروبة فى تلك الانحاء ومحاولة ابعاد الخطر الخارجى عنها حيث كان على أبى حفص ان يواجه خطر الخوارج الاباضية حيث تمكن آبو حفص بن عمر من الانتصار عليهم أول الامر،لكنه قتل وانهزم عام ١٥٤هـ/٧٧١م.

وتولى الامارة فى افريقية والقيروان أحد أقاربه الذى كان بارزا فى عصر الخليفة أبوجعفر المنصور وهو«يزيد بن حاتم المهلبى»والذى حكم افريقية خمسة عشر عاما وتعد هذه الاعوام القليلة هى اصعب فترات عصر الولاه واكثرها خيرا على افريقية وفائدة لها فقد كان يزيد رجلا ذكيا نشيطا ذا خبرة بشئون الحكم والادارة وكذلك كان عربيا سادق العروبة يتصف بالشهامة والجرأة والبعد عن الصغائر وكان مؤمنا قوى الايمان ثابت العقيدة يؤمن بدولة السنة والجماعة وقد استمرت سنوات حكمه من عام(١٥٥-١٧١هـ/٧٧٢-٧٨٧م) وبدأ فى افريقية وتاريخها عصرا من الاستقرار والازدهار بحيث تمكن من اقرار الامور فى انحاء افريقية مستعينا بقومه من الازد ومن التف حوله من العرب والبربر ولكن بعد نهاية فترة حكم يزيد الذى انتهت بفترة ولايته نهاية أسرة المهابلة فى افريقية فاننا نجد أن افريقية تعيش سنوات فى الفوضى اذ اشتد التنافس بين الزعماء العرب فى البلاد من أجل الوصول إلى السلطان فى القيروان أو الانفراد بالسلطة السياسية فى النواحى التى يعيشون فيها ولكن على الجانب الآخر فان الخلافة العباسية كانت تبدى اهتماما متزايدا بشئون الولاية الافريقية والتى كانت تضم ولايات طرابلس وافريقيه (تونس) والزاب وهو الجزء الشرقى من الجزائر وعلى هذا فقد بذلت الخلافة العباسية جهودا جبارة وفائقة من أجل أن تجعل هذه الولاية تخضع لسيطرتها ونفوذها وسيادتها العباسية وان تكون داخلة داخل دائرة السنة والجماعة،وقد أرسلت الخلافة الغزوات التى كللت بالانتصار مثل غزوة وحملة حنظلة بن صوان االكلبى التى حققت انتصارات رائعة فى موقعتى«القرن والاصنام» والتى كللت مجهود«يزيد بن

حاتم المهلبى» وأسرته وكيف وضعت قواعد النظام والسنة والجماعة فى افريقية وجعلت من تلك الولاية جزيرة أمان واستقرار نسبى وسط المغرب العربى الذى اجتاحته الفتن وحركات الخوارج من كل جانب.

وهكذا فان الدوله العباسية رغم كل جهودها لم تستطيع ان تمد نفوذها غربا إلى اكثر من اقليم الزاب حيث كانت مدينة أربة الواقعة على المجرى الاعلى لشط نهر شلف هى منتهى ما وصل إليه النفوذ العباسى وذلك بمعنى أن تلك المدينة هى البعد السيادى للدولة العباسية وما يليها غربا من بقية اقاليم المغرب الذى يعد نهر شلف غربا فقد كان لا يخضع لنفوذ الخلافة العباسية وخارجا عن دائرة سيادتها ومن هنا فانه من الممكن أن نطلق على تلك المنطقة أنها كانت تعيش فى فراغ سياسى حقيقى حيث كانت تتنازعها الامارات والقيادات المختلفة .

ففى هذا الجزء الممتد من نهر شلف حتى المحيط الاطلسى كان ذلك الاقليم يغلى بالتمرد ضد الخلافة وقيام أمراء محليون باقتسام مناطق نفوذه حيث استغلوا فرصة النزاع السياسى وعدم الخضوع للشرعية العباسية أو الاموية فى الاندلس لكى تشتد بينهم الفتن بحيث يمكن أن نطلق عليها الفتنة المغربية الكبرى حيث تعددت الامارات المحلية. ولقد كان بعض هذه الامارات عربيا خارجيا أو شيعيا معاديا للخلافة العباسية وزعمائها عرب أشد عداوة لدولة الخلافة أو بربرية مستعربة وأشهر هذه الولايات المحلية وأطولها عمرا هى الولاية الخارجية الصفرية التى اتخذت من مدينة تلمسان عاصمة لها طوال أربعين عاما مارست فيها نفوذها فى تلك الانحاء تحت زعامة الامير أبى قرة المغيلى الذى اتخذ انفسه لقب الامام بل انه خوطب أحيانا بلقب أمير المؤمنين، كذلك ظهرت بعض الامارات العربية الأخرى فى تلك النواحى وهى امارة أنشأها زعيم عربى هو «صالح بن منصور الحمبرى» فى منطقة تقع على ساحل المغرب العربى الأقصى وتمتد من مدينة مليلة شرقا

إلى مدينة الحسمة غربا وتسيطر على منطقة داخلية جبلية سكانها بربر زناتيون، لكن هذه الدولة كانت سنية المذهب على نقيض الامارة السابقة التى كانت خارجية صفرية وقد دخلت فى طاعة الخلافة الاموية فى الاندلس، كذلك ظهرت دولة «نكور» طويلا ومرت بعصور من القوة وأخرى من الضعف فى أثناء الصراع بين الأمويين والاندلسيين والفاطميين الشيعة على سيادة المغرب الأقصى .

بالاضافة إلى ثورات البربر من الاباضية والصفرية الذين أشعلوا الثورة فى افريقية كلها بحيث أن افريقية كادت تخرج عن طاعة العباسيين فى معظم عهد المنصور وان البربر والعرب المقيمين والنازلين بها مالوا إلى اعتناق مبادئ الخوارج وخلعوا طاعة العباسيين الذين أخذوا يرسلون إليهم الجيوش تلو الجيش لاخضاعهم ولكن بدون جدوى وهكذا استمرت مدينة القيروان تسقط فى أيدى الثوار أحيانا وفى أيدى العباسيين أحيانا أخرى حتى استطاع المنصور قبل نهاية خلافته أن يرسل جيشا جرارا أقر الامن فى البلاد إلى حين ومن ذلك يقول ابن الاثير «كان بين الخوارج والجنود (العباسيين) من لدن قتل عمر بن حفص بن قبيصة المهلبى إلى انقضاء أمرهم ثلاثمائة وسبعون وقعة» .

وهكذا استمرت قبائل البربر تناوئ سلطان العباسيين حتى عام ١٨١م حين أدرك العباسيون تمام الادراك أن فوزهم على البربر لا سبيل إلى تحقيقه فتراجعوا عن المغرب الاقصى مكتفين باقليم تونس الذى أقاموا فيه دولة سنية جماعية جاهزة ما لبثت هى الاخرى أن استجابت للحركة الاستقلالية، فاستقلت بأمرها استقلالا كاملا يكاد يكون تاما عن الخلافة العباسية مع الاعتراف لها بالسيادة الاسمية .

وانجلى هذا الصراع الطويل بين الخلافة العباسية صاحبة السلطة المركزية والسيادة الشرعية وبين البلاد التى نزعت إلى الحكم المستقل تحت شعار الخوارج إلى قيام ولايات من البربر على يد زعماء من سلالة العرب استقلت استقلالا تاما ومن هذه الولايات ولاية

تاهرت التى أسسها «عبد الرحمن بن رستم» بمساعدة الاباضية (١٣٧ – ٢٩٧هـ) وولاية سجلماسة التى أسسها «بنومدرار» (١٦٧ – ٢٥٧هـ) وتلمسان التى أسسها أبو فروة الصنهاجى وبرغوانة الواقعة على المحيط الاطلسى .

لكن فى عصر الخليفة العباسى هارون الرشيد فان افريقية والمغرب العربى قد شهدت اهتماما متزايدا من جانب الدولة العباسية فاننا نجد الخليفة يعين وإليا عربيا من طراز فريد من الرجال لادارة تلك الاقاليم هو الوإلى «هرثمة بن أعين» الذى كان من أكبر رجالات البلاط الخليفى وكان من رجالات الحزب العربى فى بلاط الرشيد .

وكان هرثمة بن أعين شيخا مجربا فى الحروب والحكم والادارة ومن هذا كان اختيار هارون الرشيد له اختيارا موفقا، ذلك لان البربر لم يكونوا يشكلون خطرا مستعصيا على الخلافة بمقدار ما كان يشكل عرب افريقية المشكلة الكبرى للدولة حيث كانوا يتجمعون فى معسكرات قبلية طائفية فى سوسة والقيروان وتونس وطنجة وغيرها من مدن وولايات افريقية. وكانوا ينافسون بعضهم بعضا، بل أكثر من ذلك فانهم كانوا ينفقون فيما بينهم على مناصبة العداء لكل وال جديد ترسله الخلافة العباسية .

وكان تعيين «هرثمة بن أعين» بداية لوضع نهاية لفتن هؤلاء الاعراب أو الاعاريب كما كان يطلق عليهم سكان افريقية ذلك الاسم .

وتولى هرثمة بن أعين لفترة عامين (١٨٠– ١٨١هـ/٧٩٦– ٧٩٧م) واستطاع فى تلك الفترة أن يدخل الخوف فى روع زعماء القبائل بحيث انهم هابوه أثناء فترة حكمه وقد أتيحت له الفرصة خلال تلك الفترة الزمنية القصيرة بعد أن حقق بعضا من الاستقرار أن يعمل على تجديد ما خربته الحروب السابقة فعمل على تجديد المدن والموانى وانشأ السفن والمنشآت وذلك عملا منه لاعادة الثقة من قبل الرعايا فى الدولة وقد أعطى هرثمة ابن أعين اهتماما خاصا بالتعمير والتشييد والانشاءات، فجدد انشاء ميناء تونس

وأصلح مسجد القيروان ونظم الاسواق فى القيروان واهتم بانشاء الزوايا والربط للعباد الصالحين والزهاد العاكفين الذين يقومون فى هذه الاربطة حفاظا على حدود وديار الاسلام .

وقد ابدع أهل المغرب خاصة فى انشاء هذا الطراز من الربط وعنى الكثيرون من الحكام من أمثال يزيد بن حاتم وهرثمة بن أعين وأمراء الاغالبة بالرباطات، فأنفقوا عليها بسخاء وقد اشتهر من هذه الرباطات رباط قصر الطوب فى سوسة ورباط تونس ورباط بونة التى تسمى إليوم عنابة إلى جانب رباط المنستر. وكان الدافع لرجال الحكومة إلى العناية بشئون الرباطات أو القصور، ذلك لان رجالها كانوا دائما مؤيدين للخلافة العباسية لانها كانت دائما نصيرة السنة وكانوا يقفون إلى جانب الفقهاء فى صراعهم مع المذاهب المخالفة لمذهب السنة ومن هنا فقد كانوا فى الحقيقة قوة للنظام والحكومة المستقرة خاصة وقد امتازوا بصدق واخلاص وايمان عميق بالمذهب السنى وكانت ثقة الناس بهم عظيمة ومن ثم فقد كانوا عاملا ايجابيا من عوامل الاستقرار وازدهار الحضارة فى افريقية .

لكن بعد أن قضى هرثمة بن أعين عامين من العمل الدائب والنشط فانه رأى انه استطاع أن ينجز الكثير من المهام وأقر الامن والنظام فى البلاد ووطد دعائم الخلافة العباسية فانه قرر أن يعود مرة أخرى إلى بغداد وترك افريقيا لكى تدخل فى طور جديد من أطوار الحكم فيما تطلق عليه عصر الدويلات المحلية فى افريقية، حيث انه عندما أراد «هرثمة بن أعين» أن يعود إلى بغداد فانه اقترح على هارون الرشيد أن يقيم ابراهيم بن الاغلب عاملا على افريقية وهكذا تم الاتفاق على أن يتولى ابراهيم بن الاغلب ولاية افريقية عام ١٨٤هـ/٨٠٠م وبذلك بدأت تجربة سياسة جديدة فى تاريخ افريقية تجربة حكم افريقية عن طريق أسرة عربية محلية تابعة للدولة العباسية .

وهكذا نبدأ صفحة جديدة من صفحات التاريخ العربى الاسلامى المغربى، حيث

بدأت المغرب تدخل طورا وبعدا جديدا من أبعاد الحياة السياسية والاقتصادية والنظامية والاجتماعية حيث برز إلى سطح الاحداث التاريخية أحداث أدت إلى انقسام الحكم فى المغرب العربى فى حقيقة الامر بين دولتين ان لم تكن ثلاث دول هى، الامارات الرستمية التى أسسها عبد الرحمن بن رستم بمساعدة الاباضية فى تاهرت (١٣٧– ٢٩٧هـ) وكذلك دولة الادارسة التى أسسها ادريس بن عبد الله العلوى فى بلاد المغرب الاقصى (١٧٢– ٢٧٥) وكذلك دولة الاغالبة التى أسسها ابراهيم ابن الاغلب فى تونس (١٨٤– ٢٩٦هـ) التى أن قامت فى المغرب دولة شيعية ضمت المغرب العربى الاسلامى كله ما عدا الاندلس هى الدولة الفاطمية (٢٩٨– ٥٦٧هـ) وهكذا نجد المغرب العربى خضع لعاملين هما العامل القومى والعامل المذهبى وقد تساند العاملان معا فى استقلال المغرب العربى الاسلامى وبناء شخصيته العربية المغربية المستقلة. وانه مع نهاية القرن الثانى الهجرى نشأت ببلاد المغرب دويلات مستقلة قامت بتأسيس مدن عربية اسلامية كانت مراكز جذب للقبائل العربية من خارج بلاد المغرب وداخلها للعمل بخدمة هذه الدول وساعدت على نشر الحضارة الاسلامية فى المناطق التى خضعت لنفوذها مما ساعد على تعريب المغرب خلال القرن الثالث الهجرى وكانت هذه الدول الثلاث عامل تقدم وتطور ورقى وازدهار فى بلاد المغرب دفعت بحركة العروبة والاسلام إلى أبعاد جديدة حيث تنافست هذه الدول فى هذا الميدان .

الباب الثانى

دولة بنى رستم الخارجية الاباضية

(١٤٤–٢٩٦هـ– ٧٦٠– ٩٠٩م)

عندما أعلن عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع خروجه على الدولة العباسية فى أول الامر كانت العقبة الكبرى بل الصعوبة البالغة التى واجهته هى مشكلة الخوارج ومدى انتشارهم وبعدهم فى الحياة الدينية فى افريقيا والذين كانت قواتهم قد تجمعت فى جبل نفوسة فى طرابلس وكان يتولى زعامتهم شيخ خارجى ممن تلقوا تعاليم الخارجية الاباضية فى البصرة على شيخ كبير من شيوخ المذهب الاباضى هو مسلمة ابن سعيد وهو «أبو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى» ونسبه إلى قبيلةمن غرب اليمن تسمى المعافر، هذا الرجل كان عالما حقا فى المذهب الاباضى وكان الى جانبه عدد كبير من شيوخ المذهب أكبرهم «عبد الرحمن ابن رستم» .

كذلك نجد عند اشتداد الصراع بين حبيب بن عبد الرحمن وعمه عبد الوارث بن حبيب فر إلى قبيلة كبيرة من البربر المستعربه تسمى (ورفجومة) وهى قبيلة طارق بن زياد وكان يتزعمها عاصم بن جميل وهو ابن أخت طارق بن زياد فسار عاصم بمن معه من الخوارج الصفرية واقتحم القيروان، ولكى يؤكد عاصم بن جميل احتقاره لمذهب السنة والجماعة فان رجاله دخلوا بخيولهم المسجد الجامع وربطوا خيله فيه .

هذا الموقف الذى تم فى القيروان من قبل الخوارج الصفرية بقيادة عاصم بن جميل دفع الخوارج الاباضية المسيطرين على جبل نفوسة ونواحى مدينة طرابلس إلى أن يسيروا بجموعهم إلى القيروان ليطردوا الصفرية منها بزعامة الخطاب عبد الاعلى السمح المعافرى

وقد تم لهم ذلك وانتقلت افريقية من سلطان الصفرية إلى سلطان الاباضية، كل هذه الحوادث أفزعت أبا جعفر المنصور وقد اتجه إلى جعل الدولة العباسية دولة السنة والجماعة فأمر كما سبق القول واليه على مصر «محمد بن الاشعث» بالمسير إلى افريقية واخراج الاباضية وقام رجال الدولة العباسية بقتل أبى الخطاب زعيم الخوارج الاباضية، ففر الباقون بقيادة عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الاوسط خارج حدود السيادة العباسية التى كانت تصل إلى نهر شلف .

ولقد كان نفوذ الخوارج فى تلك المناطق يعود إلى نهاية القرن الاول الهجرى عندما ضعفت الدولة الاموية، اذ انتهز الخوارج الاباضية فرصة الاضطراب الذى ساد الدولة فقاموا يعاودون محاولاتهم التى فشلت فى المشرق حيث استطاعوا أن يجندوا بين صفوفهم كل ناقم على الدولة، وحشد ولاة افريقية كل قواهم لقمع هذه الثورات التى شملت المغرب كله من طرابلس شرقا حتى المحيط الاطلسى غربا والتقت جيوش الدولة بهم فى عدة مواقع هزمت فيها جيوش الدولة أمام حماس الخوارج فلم تجد الدولة بدا من أن تستنجد بقوات عديدة عربية انضمت إلى جيوش الدولة لمحاربة الخارجين فتمكنت الدولة من انقاذ القيروان التى كان الثوار قد هاجموها، وقد أطلقت الخلافة على هذه المعركة «معركة الاصنام» لانها اعتبرت هؤلاء الخارجين عليها وثنيين من عبدة الاصنام وذلك كى تستفز الناس ضدهم وتعمل على حشد الجموع لتأييدها واذا كانت الدولة الاموية ثم العباسية قد استطاعت أن تهزم هؤلاء الخوارج الاباضية والصفرية فى القيروان وافريقية حيث الجزء الشرقى من المغرب الا أن الجزء الغربى ظل متأثرا وظل نهر الزاب بين الحد الغربى لنفوذ الخلافة العباسية ولقد كان ظهور حركات الخوارج سريعا فى المغرب العربى واندلاع نيران ثورتهم يدل على مدى تفاعل البربر تفاعلا كاملا مع الحياة الاسلامية، بل أن دعاة الهيعة وثوار الخوارج كانوا عاملا هاما فى نشر الاسلام بين أهل البلاد .

وكما سبق القول فان الاضطراب الذى ساد القيروان بعد وفاة عبد الرحمن بن حبيب ومقتله قد أعطى الفرصة لقبيلة «أرفجوسة» البربرية الصفرية الخارجية بقيادة عاصم بن جميل أن تجتاح القيروان وتنهبها وتفتك بكل من وجدته حيالها مما أعطى الفرصة أيضا لقبيلة مكناسة البربرية الخارجية الاباضية أن تتقدم من مواطنها فى جبل نفوسة تحت قيادة امامهم أبى الخطاب وتجتاح المنطقة وتطرد الوالى العباسى من طرابلس وتتقدم إلى القيروان وتأخذ قبيلة أرفجوسة على غرة وتقتل منهم مقتلة كبيرة وامتدت سلطة أبو الخطاب على رقعة كبيرة من الارض امتدت من طرابلس شرقا إلى القيروان غربا والتى أقام فيها واليا من قبله هو عبد الرحمن بن رستم الذى كان من أصل فارسى وكان من بين الخمسة الذين تقهقروا فى المغرب .

ولقد كان المغربان الاوسط والاقصى يسعيان إلى الاستقلال عن ولاة القيروان منذ مطلع القرن الثانى للهجرة هياما منها بالحرية التى قد تصل إلى حد الفوضى وعدم الاستقرار واثارة القلاقل ومن هنا فقد اقتنع سكان هذين الاقليمين بدعوة الخوارج التى كانت تتبنى بعض الافكار الديمقراطية المتطرفة التى كانت تلائم هوى فى نفسية البربر، وكان الخوارج بالشرق يعرفون هذا الميل من البربر بالمغرب إلى العدالة والمساواة وروح الشورى والديمقراطية فتسربوا اليهم ليحاربوا الامويين فيه ويقضوا على سلطتهم بين أهله بعد أن عجزوا عن نشر مبادئهم على نطاق واسع بالمشرق والنجاح فى اقامة دولة على أسس المذهب الخارجى، ومن هنا جاءوا إلى المغرب وانتشروا فى أرجائه المختلفة وجهاته المتعددة كالمغرب الاوسط وطرابلس وجبال نفوسة والمغرب الاقصى وقاموا بحروب عنيفة ضد الولاه الذين كانت ترسلهم الخلافة الاموية والعباسية وكان البربر خير عون لهم وسندا قويا فى كل هذه الحروب لما تنطوى عليه نفسيتهم من حب للحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة وليس حبا فى الفوضى وعدم النظام أو كراهية للعرب ومن هنا فانه لم ينته

النصف الاول من القرن الثانى حتى استطاع الخوارج أن يأسسوا امارة أو دويلة مستقلة لهم باقليم الجزائر وغيرها فى الاقاليم الاخرى .

وذلك بعد أن أرسل لهم خليفة بغداد واليه على مصر محمد بن الاشعث بجيشين لكنهما هزما فلم يكن بد من الامر أن قدم بنفسه على رأس جيش ثالث هزم الطوارق الذين كانوا يقيمون جنوبى طرابلس وتقدم إلى القيروان فدخلها ولكنه كان نصرا غاليا كلفة كثيرا من الرجال .

وهكذا قامت دولة من أكبر دول المغرب هى دولة «عبد الرحمن بن رستم» أو الدولة الرستمية فى المغرب الاوسط أو ما يعرف باسم الجزائر وهكذا نجح الخوارج الذين انهزموا فى قلب الدولة الاسلامية وقتل منهم الالوف بسيوف رجال مثل الحجاج بن يوسف الثقفى والمهلبى بن أبى صفرة والذين اضطروا الى الفرار الى جهات بعيدة كان منها المغرب، نجحوا فى اقامة دولة خارجية أباضية فى المغرب الاوسط سوف تلعب دورا بالغا ومؤثرا بل فعالا فى مجرى الاحداث فى المغرب الاوسط ليس فقط بل فى المغرب العربى ككل ومن هنا فان الامارة الرستمية تمثل مظهرا من مظاهر الحركات الاستقلالية التى صاحبت قيام العباسيين على عرش الخلافة الاسلامية فى القرن الثانى الهجرى وقامت هذه الامارة فى المغرب الاوسط الذى حدد الجغرافيون المسلمون امتداده وسط المغرب الكبير من حدود بجاية شرقا إلى وادى ملوية وجبال تازة غربا وانفردت رقعة المغرب الاوسط بعدة مميزات جغرافية وطبيعية وبشرية تؤهل لاية قوة تقوم فيها أسباب الهيبة والازدهار، فالحدود الشرقية لرقعة المغرب الاوسط تتميز بأنها حدود مفتوحة طبيعيا سهلت اتصال المغرب الاوسط بجهات افريقية الجنوبية واقليم طرابلس مهد الدعوة الاباضية فى بلاد المغرب، ولقد كان التكوين السكانى للمغرب الاوسط صورة صادقة لتكوين السكان الذى كان سائدا فى بلاد المغرب فى النصف الاول من القرن الثانى الهجرى فقد كان هناك

الافارقة والعرب والعجم والبربر وقد اعتنق كثير منهم المبادئ الاستقلالية الاباضية التى حملها اليهم عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الاباضية وكان البربر يمثلون العنصر الاساسى الذى اعتمد عليه عبد الرحمن بن رستم فأقام دولته بهم فى المغرب الاوسط .

ظهور عبد الرحمن بن رستم على مسرح الاحداث :

كان عبد الرحمن بن رستم هذا قد وفد الى بلاد المغرب مع طوالع الفتح الاسلامى وكان واحد من حملة العلم الذين تلقوا مبادئ الاباضية على يد داعية الاباضية الاكبر أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة فى البصرة، واستقر رأى علماء الاباضية بعد عودتهم من البصرة بالعراق الى بلاد المغرب على مبايعة أبى الخطاب المعافرى اماما للدولة الاباضية التى أقاموها فى طرابلس، ولكن كما سبق القول فان هذه الامارة لم تصمد طويلا أمام بطش العباسيين الذين تمكنوا من القضاء على دولة الاباضية الناشئة والاطاحة بها عام (١٤٤هـ/٧٦١م)، ولكن عبد الرحمن بن رستم استطاع الوصول الى المغرب الاوسط حيث استطاع أن ينظم صفوف الاباضية .

وهكذا نجحت جهود عبد الرحمن بن رستم فى توحيد الصفوف حيث اتفق على ضم رؤساء الاباضية الذين قرروا بالاجماع انتخاب عبد الرحمن بن رستم اماما لهم (١٦٠هـ/٧٧٦م) وعلى الفور اختار عبد الرحمن بن رستم لدولته الناشئة عاصمة جديدة هى مدينة تاهرت التى تم بناؤها عام ١٦١هـ/٧٧٧م . حيث أصبحت هذه العاصمة محط أنظار جميع الاباضية فى المغرب العربى والمشرق.

وكان ابن رستم قد انسحب غربا وأقام فى تاهرت التى أخذت مكانها فى مكان بلدة رومانية قديمة ومدينة تاهرت أو تيهرت كما يقول عنها ياقوت الحموى فى كتابه معجم البلدان، انها اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب العربى يقال لاحدهما تاهرت القديمة والاخرى تاهرت المحدثة وهى كثيرة الانواء والضباب والامطار حتى أن الشمس قل أن ترى

فيها ودخلها أعرابى من أهل اليمن يقال له أبو هلال ثم خرج إلى أرض السودان فأتى عليه وهج وحر شديد وسموم فى تلك الرمال فنظر الى الشمس وقال أما والله لئن عززت فى هذا المكان لطالما رأيتك ذليلة بتاهرت، ولقد كان لمدينة تاهرت هذه أربعة أبواب هى باب الصفا وباب المنازل، وباب الاندلس وباب المطاحن وهى واقعة على نهر يأتيها من جهة القبلة ميناء وأشهر ثمارها السفرجل .

وفى تلك المدينة قطن الامام عبد الرحمن بن رستم واجتمع اليه أنصاره ونادوا به اماما للمؤمنين وكل ذلك عام ١٤٤هـ. فكانت أول دولة حققت استقلالها عن الدولة العباسيةواتخذت المذهب الاباضى مذهبا رسميا لها بعد أن فشلت ثوراتهم السابقة فى الحجاز تحت زعامة «أبى حمزة» الذى كان يدعو «لعبد الله بن يحيى بن طالب» الذى كان يقيم فى اليمن فى عام ١٢٩هـ. فى الأيام الاخيرة من حكم الخليفة الاموى مروان الثانى، كما أخضع الوالى العباسى «حازم بن خزيمة» ثورة أخرى نشبت فى عمان من أجل اقامة دولة خارجية، ومن ثم انتقل نشاط هؤلاء الخوارج الى شرق افريقيا فيما كان يسمى ببر الزنج وفى نفس الوقت قام «أبو قرة» من البربر متزعما قبيلة وفريق وأسس دولة أخرى فى «تلمسان بالجزائر» ذات طابع عسكرى بحت، أن كان يتزعم جيشا ضخما بلغت عدته ثلاث عشرة فرقة، ولم يلبث أبو قرة أن انضم الى عبد الرحمن بن رستم ومعهما قبائل بربرية أخرى وأرسل العباسيين جيشا بقيادة «عمر بن حفص فبيصة» لاستعادة القيروان بعد أن حاصروها عام ١٧٤هـ/٧٧١م .

ولقد ظهرت فى أرض المغرب إلى جانب امارة عبد الرحمن بن رستم العديد من الامارات الخارجية التى نذكر منها على سبيل المثال «امارة بنى ميسرة» وقد كانت تلك الامارة أباضية الا انها كانت مستقلة عن امارة بنى رستم بنواحى منطقة بعيدة حيث كان مركز حكمها مدينة أوزكى وكانت تبعد عن مدينة تيهرت بنحو ثلاث مراحل ولكن تلك

لامارة لم تعمر طويلا بالقياس إلى امارة بنى رستم حيث شغلت بالنزاعات الداخلية .

وبالاضافة إلى «امارة بنى ميسرة» فقد ظهرت امارة أخرى هى «امارة هوارة» التى كانت قد اتخذت من منطقة واسعة بجنوب أسفل نهر شلف فيما بين «سهل منداس»، وسيف غربا وكان أمام تلك الامارة «ابن مسالة الهوارى الاباضى» الذى لم يكن يعترف بسلطة ونفوذ بنى رستم بتاهرت بل انه كان يرى انه أحق منهم فى زعامة المذهب الاباضى فى كل بلاد المغرب العربى وانه كان يقع الى الشرق من أمراء الادارسة من بنى محمد سليمان وكانت الصلة بينهما على مستوى طيب .

كذلك قامت الى جانب هاتين الامارتين «امارة بنى دمر» التى اتخذت لها عاصمة بنواحى قصر البخارى من أعمال الجزائر وكان امام تلك الامارة الشيخ «مصادق بن جرتيل» .

هذا بالاضافة الى الامارة الام أو الكبرى الاباضية وهى الامارة الرستمية حيث كانت تلك من أشهر الامارات الاباضية بالمغرب وأقواها تأثيرا على الحياة الاجتماعية والسياسية بتاهرت ونواحيها وكانت أبعد صيتا وأكبر دويا فى الحياة السياسية الاسلامية طوال القرنين الثانى والثالث الهجرى .

وكما سبق القول فان هذه الامارة الرستمية كانت تنسب الى عبد الرحمن بن رستم الفارسى الأباضى المذهب الخارجى الفكر والمذهب وكان عبد الرحمن هذا من أقرب رجال الفرقة الاباضية إلى الزعيم الاباضى القوى أبى الخطاب بن عبد الاعلى والذى كان قد بسط النفوذ الاباضى على القيروان واستمر فى حكمها فى عهد خلافة أبى جعفر منصور وذلك منذ عام ١٣٨هـ. وكان أبو الخطاب قد أقام دولة أباضية خارجية فى القيروان بعد أن طرد منها الخوارج الصفرية، ولما استتب له الامر فى القيروان فان الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور أرسل له جيشا بقيادة «أبى الاحوص» الذى تم ارساله من قبل

والى مصر محمد بن الاشعث لكن أبا الخطاب تصدى لهذا الجيش العباسى واستطاع أن يهزمه عام ١٤١هـ . وازاء انتصار الخوارج الاباضية على قوات الخلافة العباسية التى كانت حامية مذهب الجماعة والسنة فان الخليفة أبا جعفر المنصور اتخذ قرارا بأن يرسل قائده الشهير وواليه على مصر محمد بن الاشعث عام ١٤٢م إلى القيروان لكى يطرد منها قوات الخوارج التى مضى على اقامة دولتها فى القيروان خمس سنوات (١٣٨- ١٤٢هـ) فزحفت القوات العباسية بقيادة محمد بن الاشعث من مصر وفى طريقها غربا وصلت الى طرابلس حيث وجدت قوات أبى الخطاب قد اتخذت مواقعها فى تلك المدينة وقامت باعتراضها لتحول بينها وبين الوصول الى القيروان التى اتخذها أبو الخطاب عاصمة له، وهناك أقوال تذكر أن أبى الخطاب قد اتخذ طرابلس عاصمة له ومهما يكن من أقوال فان قوات الاباضية الخوارج قد انهزمت شر هزيمة وانكسرت أمام زحف القوات العباسية بعد أن استطاع محمد بن الاشعث أن يهزمهم ويشتت جموعهم ويقتل زعيم الاباضية أبا الخطاب بن عبد الاعلى فى تلك المعركة عام ١٤٤هـ. بعد أن كان قد دام حكم الخوارج الاباضية أكثر من ست سنوات فى طرابلس والقيروان نشروا فى تلك الفترة مذهبهم الخارجى الاباضى الذى لقى قبولا كبيرا فى قلوب البربر الذين أعجبوا بتعاليم هذا المذهب ومن ثم لما رأوا قيام تلك الدولة وتأسيس نظام ادارى وسياسى وعسكرى فانهم مالوا إلى ذلك المذهب لاسيما بعد أن كانوا قد حققوا انتصارين على قوات العباسيين آخرها انتصار عام ١٤٢هـ .

وبلغت أنباء انهزام قوات الاباضية الى مسامع عبد الرحمن بن رستم الذى كان قد خلفه أبو الخطاب على القيروان وكان ابن رستم قد جهز قوات عسكرية وجيشا مجهزا كبيرا فى طريقه الى طرابلس وفى طريقه للانضمام لقوات شيخه الاكبر فانه وصلت الى مسامعه انتصار القوات العباسية فأحس بالخطر المحدق به، فقرر أن يعود أدراجه مرة ثانية

الى القيروان ليتحصن بها، لكن رجال الدين الاسلامى والعلماء والصالحين من أنصار السنة والجماعة بمساعدة أهل القيروان كانوا قد سدوا الابواب أمام قوات الاباضية وحالوا بينها وبين دخول المدينة مرة ثانية وأمتنعت المدينة عليه، فقرر ابن رستم أن ينسحب غربا وأن يلحق بقواته بعض القبائل البربرية الاباضية التى كانت قد اتخذت المذهب الاباضى مذهبا لها وهى القبائل التى كانت تقطن أحد الجبال الواقعة على قرب من مدينة تاهرت وكانت تنتشر فى جبل «سوفيج» حيث كانوا يشكلون معظم ان لم يكن كل سكانه .

لكن محمد بن الاشعث بعد أن دخل مدينة القيروان فانه قرر أن يطارد ابن رستم وبقايا الخوارج الاباضية لكى يقضى عليهم لاسيما وانه كان مزهوا بالانتصار الباهر الذى حققه على امامهم أبى الخطاب، لذا فاننا نجد أنه يقرر الذهاب الى موطن الاباضية فى جبل «سوفيج» ويحاصر ابن رستم وانصاره فترة طويلة من الزمن بل انه يشتد فى الحصار مانعا وصول أية امدادات اليهم ، لكن فى نهاية الامر وجد ان الجبل يقف حائلا بينه وبين تحقيق أهدافه فى القضاء على الاباضية لامتناع الجبل عليه، لذا نجد انه يقرر فجأة رفع الحصار عن الاباضية ويعود ادراجه الى مدينة القيروان حيث يبدأ فى تدعيم المذهب السنى محاربا كل وجود للمذهب الاباضى أو الصفرى والازرقى فى كل أنحاء افريقيا (تونس) .

وعندما عاد محمد بن الاشعث أدراجه الى القيروان فعلى أثره هبط عبد الرحمن بن رستم من جبل سوفجج الذى كان معتصما به بعد أن أقبل اليه أنصاره من كل مكان واشتد جانبه بهؤلاء الانصار الذين قدموا اليه وبدأ يخطط لوضع معالم دولة فى السهل الواسع، بعد أن استنفذت قوات الخلافة العباسية قوتها فلم يستطع ابن الاشعث أن يحقق نصرا على ابن رستم فعرض عليه ابن رستم الصلح فقبله ابن الاشعث وبذلك قامت الدولة الرستمية قياما رسميا فى تاهرت وقد أتاح هذا الصلح لابن رستم أن يبدأ عهد جديدا من

الاستقرار والاصلاح فأقبل الناس على الزراعة مما أنعش الدولة فجذب اليها رعاة مما حول المدينة يبادلونهم التجارة وطار صيت الدولة الرستمية الى اخوان ابن رستم من الخوارج فى العراق فقدموا اليه واستقروا معه وأقام ابن رستم حكما عادلا بعث فى دولته الانتعاش وذلك بعد أن كان قد أسس مدينة تاهرت عام ١٤٤هـ واتخذ منها مفرا لدولته الرستمية وادارة شئون الرعية الخارجية الاباضية حيث كان ذلك المذهب الرسمى السائد فى تلك الامارة، وقد كانت هذه الامارة اسلامية فى قضائها، عربية فى ثقافتها ومعارفها وفكرها وبربرية فى عصبيها أى انها ترى فى البربر قوة وسندا لاستمرار قيام تلك الدولة، كذلك كانت فارسية فى ادارتها أى أن النظم الادارية كانت تتخذ من النظام الفارسى الاسلامى منهجا لها فى التقسيم الادارى للامارة وقد ازدهرت الحياة بها وبدأت تلعب دورا هاما فى تلك المنطقة من الجزائر والمغرب العربى فى تلك الحقبة التاريخية الحساسة .

وكانت امارة بنى رستم تحد من الناحية الشرقية بولاية الاغلبة حكام تونس (افريقية) كما كانت تحدها امار الادارسة غربا وشمالا وتمتد الى اكثر بعدا فى الجنوب حيث بلاد السودان والصحراء وكانت مساحة الدولة تتسع ويمتد نفوذها فيصل حكمها شرقا الى طرابلس حيث البقية الأخرى من الخوارج الاباضية حول طرابلس وجبال نفوسة وقد شهدت تلك الامارة أكثر فترة اتساع لها فى عهد الامام عبد الوهاب حيث ملك المغرب كله فقد امتدت دولته من طرابلس شرقا الى تلمسان غربا حتى انه حاصر مدينة طرابلس ودان له من الاراضى والاقاليم ما لم يدن لغيره من أئمة بنى رستم وقد اجتمعت عليه كلمة الناس فى ذلك الاقليم الواسع .

لكن قوة بنى رستم لم تكن كقوة ونفوذ الاغالبة الذين يحكمون اقليم تونس ولا قوة ونفوذ وسطوة الادارسة الاشراف الذين يسيطرون على المغرب الاقصى ويحكمونه حكما شرعيا اسلاميا اقتداء بجدهم الاكبر رسول الله ﷺ .

وقد كان عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم على قوة شخصيته هذه يشاركه رجال الدين الصالحون والفقهاء الاباضية بل عامة الشعب فى السلطة ويتدخلون فى شئونها السياسية حيث كان نظام حكمهم قائما على مبدأ الشورى التى كان يتساوى فيها جميع أبناء الامارة، بل أن نفوذ الرستميين فى تلك الامارة لم يكن الا نفوذا أدبيا ودينيا أكثر منه سياسيا .

لكن كثرة تدخل عامة الشعب فى الامور السياسية للامارة قد أدى الى حدوث بعض الفتن والدسائس التى أدت الى حدوث الفرقة بتدخل العامة فى شئون الحكم والادارة وطالبت بعزل قاضى الامارة وصاحب بيت المال وهو حارث أموال الرعية وكذلك رئيس الشرطة، مما كان سببا من أسباب تصدع تلك الامارة .

وعلى هذا فان ثورة الخوارج التى امتدت من طرابلس الى تونس الى الجزائر الى طنجة وسهول سيو ثم من قابس الى جبال فجيج الى سجلماسة لم تكن سوى طفرة نحو دعم وحدة المغرب بايعاز دعاة العرب وتحت شعار الاسلام ولم تكن تلك الثورة وتكوين الامارات الخارجية أى مظهر مقصود لما زعمه المستشرقون فى وجود روح انفصالية بين العرب والبربر أو روح الثأر من البربر ضد العرب، اذ لو كان ذلك حقيقيا لما أصبحت الثورة بتلك الروح ولابذلك الشعار غير أن هذه الثورة ما لبثت ككل الثورات فى العالم أن تمخضت عن تيارات عنيفة حادت عن مجراها الاصلى فأشيع باسمها الدمار فى افريقية ولكنها أدت مع ذلك الى نتيجتها المحتومة وهى كما سبق القول تركز السيطرة العربية فى جموع المغرب من افريقية الى تاهرت الى تلمسان الى مراكش ولعل من أهم رواسب طفرة الخوارج قيام امارة بنى رستم .

لقد اتخذ أمراء وحكام بنى رستم لقبا لهم حيث كان يسمون «بالائمة» جمع امام وهذا اللقب انما يعنى أن نظام الحكم فى تلك الامارة كان يسير على نظام الامامة

والشورى وهو يعنى أن الامير الرستمى كان أميرا دينويا واماما دينيا وذلك سيرا على نمط الخلافة الاسلامة، الا أن المذهب الاباضى كان بتعارض مع نظم الخلافة الاموية والعباسية من حيث توريث الخلافة فى أسرة معينة كما حدث فى بنى أمية وبنى العباسى، لكن الاباضية كانوا يرون انه لا يمكن حصر الامامة فى أسرة واحدة بل الامامة مشاعة بين الرعية يتولاها أصلح القوم وأتقاهم وانسبهم للامامة .

لكن عندما أقام عبد الرحمن بن رستم امارته فى مدينة تاهرت والاراضى الواسعة الجزائرية الممتدة والمحيطة بها، فان رجال الدين الصالحين والعلماء وعليه القوم فى المدينة قد أجمعوا أمرهم على أن يحصروا الامامة فى أسرة عبد الرحمن بن رستم مع ما فى ذلك من خروج على مبدأ الاباضية الخارجية فى الامامة فى أن يتولاها أنسب القوم ولو كان عبدا حبشيا، لكن الدافع الى حصرها فى أسرة عبد الرحمن هو منع التنافس بين القبائل البربرية فى أن تحاول كل قبيلة تقديم أحد رجالها الى منصب الامامة مما يؤدى الى فرط عقد الدولة .

ولقد كان منهج الحكم فى تلك الامارة هو السير على نهج الشريعة الاسلامية الحقة المتمثلة فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والسلطة العليا بيد الرئيس الذى هو الامام الاباضى الاكبر والذى كان يساعده مجلس مكون من عدة أعوان لتسير الحكم وكان الرستميون لا يعترفون بتبعية سياسية لغيرهم فى الدول المحيطة سواء أكانوا الاغالبة أو الادارسة أو الخلافة العباسية فى بغداد أو الخلافة الاموية فى قرطبة بالاندلس، بل انهم كانوا يحسون بعظمة كيانهم السياسى والدينى فى ظل تلك الامارة التى ظلت تمارس دورها السياسى والدينى والاجتماعى والثقافى والفكرى والاقتصادى منذ منتصف القرن الثانى الهجرى الى قرب نهاية القرن الثالث الهجرى حيث استمرت فترة حكمها مائة واثنين وخمسين عاما تولى فى أثناءها امامة الامارة سبعة أئمة بدءا من مؤسس الامارة

عبد الرحمن ابن رستم ونهاية بالامير يقظان بن أبى يقظان بن أبى حاتم الى أن أسقط الفاطميون امارتهم عام ٢٩٦هـ .

وكان رئيس الدولة هو الامام الذى هو رئيس جماعة المؤمنين والذين يدين له أنصاره بالطاعة المطلقة بعد أن يحصل على البيعة منهم، لكن قبل الحصول على البيعة فانه يقسم على اتباع الكتاب والسنة وان يحكم شعبه وفق هذين النبعين الخالدين وأن يحكم شعبه بالعدل .

ومن هنا فان الامام كان بذلك منفذا للارادة الالهية التى تملى عليه قرارته من خلال النصوص الخالدة للقرآن الكريم والسنة النبوية، وكان الامام قد جعل الى جانبه مجلسين من العلماء لأخذ مشورتهم فى كل من أمور الدولة ولكن كلمته كانت دائما هى العليا .

وقد أكثر الولاة الأئمة من اصلاح الطرق وحفر الآبار وتعميرها وتمهيدها خدمة للحركة الاقتصادية والتجارية وهى الطرق التى خربتها الثورات والحروب السابقة ونشر العدل بين الناس بل انهم أحسنوا تنظيم الشرطة لحفظ الامن وحماية طرق القوافل التجارية تأمينا للحركة التجارية وأقاموا الحسبة للامر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما ازدهرت فى عصرهم حركة العلوم الاسلامية ونشر التعاليم الخارجية الاباضية التى كانت تلقى كدروس فى المساجد واشتهر من علمائها ابراهيم بن عبد الرحمن النفس ومن أشهر ما اشتهرت به هذه الدولة تسامحها الدينى مع أهل الذمة الذين كانوا يعيشون بين ظهرانيهم وان كانوا يمثلون فئات لاتزيد على عدد أصابع اليد .

وكان أئمة الامارة يعيشون عيشة زهد صادقة حتى انه لم يكن لدى الامير الاول سوى وسادة ينام عليها وكان مسلما صالحا كل الصلاح، بل مما ذكر عنه انه لم يمسك فى يده دينارا وانهمك فى العمل لما فيه خير الامة .

وكان الامام هو المنفذ للشريعة الاسلامية بكل صغيرة وكبيرة ويتمسك بكل الفرائض والسنن وكانت له أقامة الصلاة واليه يجبى الاموال حيث تودع فى بيت مال المسلمين الذى كان عليه خازن أمين وكان للامام الحق كل الحق فى أن يختار من بين العلماء والائمة والصالحين من يعينهم فى جميع المناصب العليا وخاصة القضاء وامناء المال رؤساء الشرطة وكان القضاة أهم رجال الدولة، ولذا كان الائمة يهتمون كل الاهتمام باختيارهم من بين الذين شهد لهم بالنزاهة وحسن السيرة، بل أن من بين صفاتهم أن يكونوا ممن عرفوا بأصالة الرأى والاعتداد به .

وقد قامت الامارة الرستمية حضارة عربية اسلامية تمثلت فى العديد من المظاهر الاقتصادية والتجارية وفى الفكر والثقافة والعمران .

فمن الناحية الاقتصادية نجد أن امارة بنى رستم امارة صحراوية حيث لم تكن فى تلك الامارة من يحظى أفرادها بعيشة رغدة بل ان رجالها كانوا من البدو الرحل مع اشتغال اقلية بالزراعة حول الآبار وعند سقوط الأمطار، وكان معظم اعتمادهم فى حياتهم على رعى الماشية والابل والقيام بالاعمال التجارية البرية وخدمة القوافل والعمل كادلاء للقوافل فى سيرها فى الطرق الصحراوية، ولم تكن امارتهم تقع على شاطئ البحر المتوسط، بل لم تكن لهم مراسى تؤم وتتخذ كميناء ويساعدهم فى تصريف تجارتهم واتخاذ هذا الميناء مركزيا تجاريا بحريا، انما كانوا يستعملون ميناء خروج القريب من مدينة «مستغانم» وذلك لكى يبيعون فيه بضائعهم ثم يعودون الى مواطنهم وكانت أهم خطوطهم التجارية خط تاهرت بلاد السودان، وخط تاهرت مع مدينة القيروان وطريق تاهرت طرابلس .

ولقد نجح الرستميون فى اشاعة الامن فى جميع أرجاء دولتهم وقد أكد الائمة على حماية التجارة وتأمين طرق التجارة متوعدين بقتل كل من يخالف هذا الامر، بل أن الائمة أنزلوا العقوبات بأصحاب حوادث الاعتداء على التجارة أو قطع الطرق التى كانت

تعتبر منافذ الامارة ولقد كانت علاقاتهم ببلاد السودان ممتازة وقد حرصوا على ان تكون الصحراء فى مأمن لكى تكون طريقا لتجارة السودان حيث اكتشفوا طريقا صحراويا يربطهم مع تلك الانحاء .

وقد اضطرتهم تجارتهم الصحراوية أن يحرسوا الطرق التجارية فكانت لهم حاميات تتلقى القوافل التجارية ثم تقوم بتوديعها عند اجتيازها حدود امارتهم، وقد ساعدت كل هذه العوامل على أن تزدهر الحركة الاقتصادية فى بلادهم وان ينتشر الرخاء بينهم حتى كانت مدنهم تنطق بالرخاء وسعة الرزق والعمران والخصب والنماء بل صارت تلك البلاد تحيط بها الحدائق والمزارع الواسعة وأقاموا على أنهارها المساقى والسواقى وصار لكل مدينة سوق دائمة تعقد بها أو أسواق مؤقتة وكانت المدينة تاهرت تموج بالمواشى والخيول والمبانى الراقية المتطورة التى ظهرت فيها روعة فن البناء العربى الاسلامى. وكان أهلها رغم اشتغالهم برعى المواشى والتجارة، يقومون بالزراعة فى حقولهم الواسعة التى تم اصلاحها فى ظل الامن والامان وذلك على ضفاف أوديتهم، بعد ان كانوا قد رفض البربر تخميس أموالهم وهم مسلمون، كما ان ملكية الاراضى كانت للقبائل التى تسكنها، بل ان الائمة الاباضية كانوا يضطرون لشراء الاراضى من القبائل عندما كانوا يريدون بناء مدن جديدة أو اسواق عامة، بل ان الائمة لم يفرضوا ضرائب جديدة بل اسقطوا ما كان قد فرضته نظم الحكم السابقة، وأكد الامام ابن رستم على احترام الملكية الخاصة وعدم التسلط على أموال الناس لانه يقضى بالشرع بل أن ابن رستم شدد على رجال دولته بأن يسمحوا للقبائل بالرجوع الى أوطانهم واعمارها وبقيت هذه القبائل فى اراضيها وسار خلفاء عبد الرحمن ابن رستم على هذا النهج من قبول المفهوم السياسى واحترام الملكية الخاصة .

وقد ازدهرت تاهرت فى عهد الرستميين حيث أنشئ بالمدينة الحصون والعمارات

الكبيرة الواسعة وبنيت المساجد وأماكن الولاية والادارة كما شيدت قصور للامراء الرستميين وكانت تلك القصور تضم الى جنباتها الحدائق الغناء والمنتزهات فى املاكهم الخاصة .

وقد قال ابن الصغير فى حديثه عن مدينة تاهرت حيث افاض فى وصفه للمدينة ومباهجها وتطورها الحضارى والعمرانى والثقافى وكيف ظهرت كاكبر المدن المعاصرة لها فى ذلك الوقت وكانت العجم قد بنت القصور ولسنا نعرف ما هو المقصود بالعجم هل هم الفرس الذين قامت على اكتافهم الدولة الرستمية أم غيرهم من العناصر الاخرى، وأتيت قبائل نفوسة البربرية العدوة، والجند القادمون من افريقية (تونس) قد ابتنوا المدينة العامرة .

ومن هنا فان اقوال ابن الصغير هذا تعنى ان الحضارة الاسلامية الرستمية قد تأثرت بالحضارات الفارسية والعربية والافريقية (التونسية) وليس الافريقية السودانه وربما ظهرت مؤثرات معمارية قد وجدت بها بعض الآثار والملامح الرومانية البيزنطية وربما تأثير فينيقى قديم وان كان الطراز الاسلامى فى جميع المبانى يبدو هو ذو التاثير الفعال والغالب .

ومن ناحية التنظيم المالى والادارى فان الزكاة كانت من أهم مصادر بيت المال حيث كانت تمول بها المشروعات بعد أن يعطى بيت المال منها كل ذى حاجة والفائض كان يصرف فى المشاريع العامة التى تعود على الرعية بالفائدة والمنفعة وكانت تصرف على الزراعة بالاضافة الى العشور وكذلك على مواشى الرعى من الخراف والجمال وغيرها من أنواع الابل وكانت تجبى عينا أما الحبوب فتورزع على الفقراء والخراف والجمال تباع ويرسل ثمنها الى العمال يشترون بها الصوف والزيتون ويتم توزيع هذه المواد على الناس دون تفرقة فالكل سواسية فى ظل تطبيق شرع الله فى خلق الله .

وكانت أولوية التوزيع للاباضية من رجال الدين والفقهاء الصالحين ورجال تعليم المذهب الاباضى كذلك فانه كان لابد للامام أن يكون عالما يشرع الله وبتعاليم المذهب الاباضى أو انه طالما كان الامام عالما بكل كبيرة وصغيرة فان الدولة عاشت أيامها تغلى بالحماس الدينى ومن هنا فان الدولة كان لديها المتسع من الوقت للقيام بالاصلاحات وتوسيع أراضيها وبذل جهودها للرد على المعارضين للنظام وكما سبق القول فان الدولة أبدت الكثير من التسامح نحو غير المسلمين الذين عاشوا فى تاهرت عاصمة الدولة الرستمية وكما قال ابن الصغير فان أعدادا من المسلمين الذين كانوا على علاقة حسنة برجال الدولة قد عاشوا فى حرية تامة بل سمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية، بل سكن بعض البدو المدينة فى ظل العدل والرخاء واشتهر منهم يهود بن فرشن الذى ألف كتابا فى أصول اللغات السامية ما زال محفوظا فى مكتبة أكسفورد .

وكثيرا ما راعى الامام الاباضى الرستمى المجالس العلمية التى كان ينافس فيها أصول المذهب الاباضى الخارجى وتعاليم ذلك المذهب ومحاولة تعميق المفاهيم الاباضية بين الرعية وكذلك فانه كان يراعى ويشهد حلقات الدروس التى تدرس فيها هذه التعاليم، وكان علماء السنة والجماعة يبذلون جهودا جبارة وقف نشاط الاباضية والقضاء على مذهبهم ومن هنا ازداد نشاط القيروان وفاس فى المغرب فى نشر المذهب المالكى، بل أن رغبة علماء المالكية أصبحت علنية وجاهدوا فى ضرورة القضاء على المذهب الاباضى ووقف نشاط علمائه .

بل أن أهل افريقية اشتدوا كراهية للمذهب الخارجى الاباضى وغيره من الفرق الخارجية واشتد سلطان الفقهاء المالكية فى الحياة الثقافية والدينية حتى أفتوا بتكفير الاباضية والخوارج عامة بأن قالوا بأنه لا يصلى عليم ولا تشهد جنائزهم ولا يصلى خلفهم ولا يروى عنهم حديث انما يقاطعون سلبا وايجابيا بل أن انتصار المالكيين فى دولة

الاغالبة التى كانت معاصرة للدولة الرستمية دفع الكثير من علماء وفقهاء ورجال المالكية بالتسرب غربا الى الامارة الاباضية الرستمية، بعد أن كانت تقاليد المالكية قد تمكنت فى نفوس المغاربة وفى مدارس القيروان وافريقية ووقفت للمذاهب الاخرى بالمرصاد .

لكن على الجانب الآخر فقد ارتفع شأن العلماء الذين احتضنتهم الدولة الرستمية لقيامهم بتفقيه أمور الدين للناس وفق المذهب والفقه والشريعة الاسلامية الاباضية، ولقد قرب أمراء الدولة اليهم العلماء وأجزلوا لهم فى العطاء وأفسحوا المجالس لهم وأجروا عليهم الارزاق ومن هنا اتجه هؤلاء العلماء الى تدوين العلوم ونسخ المخطوطات الاسلامية التى تعنى بالمذهب الاباضى على وجه الخصوص والتى أولاها الولاه الرستميون عناية خاصة حيث عنوا كثيرا بجمعها وافساح المجال أمام الطلاب والدارسين والعلماء للاطلاع عليها ووضعها تحت أيديهم، واشتد الولاه ورجال الشرطة والادارة فى تنفيذ المذهب الاباضى بل انه قد ظهرت روح التزمت فى شكل أوامر نفذتها قوات الحكومة بالهجوم على بيوت الناس وتفتيشها بحثا عن كل ما يخالف نهج الشريعة مثل البحث عن المسكرات والخمور وسجن كل من يرتكب اثما من الناس واقامة الحد عليه اذ كان هم كل أباض الا يترك وسيلة الا وعمد فيها الى اعلاء شأن الدين .

ولقد حدث أن ضاق الناس وخاصة الذين لم يكونوا يتبعون المذهب الاباضى بذلك التزمت فثاروا أكثر من مرة وكانت أكبر هذه الثورات التى حدثت أيام الامام أبى بكر بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (٢٣٨– ٢٤١هـ) حيث استمرت تلك الثورة فترة طويلة اشترك رجال الاقتصاد وكبار التجار فى تموين رجال تلك الثورة ولكن الدولة استطاعت أن تقضى عليها بعد أن كلفها ذلك جهدا كبيرا ولقد تركت الحضارة الاسلامية بصماتها الواضحة فى كثير من مناهج الحياة حيث نشطت الصنائع والحرف بهذه الامارة الصحراوية فقد كانت الصناعة متطورة بالنسبة لذلك العصر حيث ساد الرخاء

الاقتصادى مما كان دافعا للتقدم الصناعى .

فقد كان يصنع فى تاهرت وغيرها من المدن الملابس الصوفية والمنسوجات الصوفية التى كانت تستخرج من وبر الابل والماشية والتى كانت تعزل ثم يتم نسجها واستخدامها كملابس وأغطية وخيام وظهرت المنسوجات الكتانية وأوانى الفخار والخزف والطين والزجاج والاثاث المصنوع من الخشب وتطورت الحياة بصورة فائقة حيث أن معالم الحضارة كانت اسلامية بحتة لكن ظهرت عليها ملامح بربرية وفارسية وعربية وبيزنطية وأندلسية طبعتها حضارة الاسلام بالطابع الاسلامى الخاص .

بل أكثر من ذلك فان ظهور امارة تاهرت بهذه الصورة الحضارية والعمرانية والاقتصادية والدور الذى لعبه آل رستم من الولاه الذين تولوا ادارة شئون هذه الامارة كانت دافعا قويا للتطور فى جميع المجالات المختلفة ومن ذلك فاننا نجد أن قيام عبد الرحمن بن رستم بتأسيس مدينة تاهرت عام ١٤٤هـ كان باعثا للقبائل العربية والبربرية من السكان للقيام بانشاء المبانى وانشاء المدن الجديدة وتخطيطها على أسس اسلامية أو محاولة تجديد المدن والمبانى القديمة التى كانت فى العصر الرومانى والفينيقى وايجاد وسائل حديثة للعيش داخل المدن بدلا من الضرب فى الصحراء من خلال السكنى فى الخيام المصنوعة من جلود الابل أو الصوف .

وقد أسست عدة مدن فيما عدا تاهرت من تلك المدن ومن أشهرها مدينة تنس التى ظهرت كمدينة حضارية راقية ومتطورة وفق أساليب العصر الذى أسست فيه وقد قام بتأسيسها فى ظل الحكم الاباضى جماعة من الاندلسيين الذين رحلوا الى تلك المنطقة عام ٢٩٢هـ حيث لعبت تلك المدينة دورها فى الازدهار العمرانى والحضارى وقامت بأثر فى التطور الثقافى والعلمى والادبى حيث كان الاندلسيون هم نواة سكان هذه المدينة وقد تميز الاندلسيون بما امتازوا به من نشاط عمرانى وعلمى واقتصادى ومن هنا برز اسم

تنس لكى تمارس دورها بجانب تاهرت العاصمة التى أدار فيها الاباضيون شئون امارتهم .

اضافة الى انه بجانب تاهرت ظهرت وهران كمدينة تساهم مع تنس وتاهرت بدور فى اثراء الحركة العمرانية والثقافية والحضارية وقد انشأ تلك المدينة بحارة من الاندلس كانوا قد رسوا فى ذلك المكان فى عصر آخر ولاة بنى رستم حيث تم انشاء تلك المدينة عام ٢٩٠هـ، حيث انه يذكر أن الذين قاموا ببناء هذه المدينة محمد بن أبى عون ومعه جماعة من الاندلسيين الذين كانوا يلجأون الى مرسى قرية صغيرة بجوار تلك الاراضى التى تم بناؤها بموافقة قبيلتى تعزة وبنى مسنغن البربريتين وذلك عام ٢٩٠هـ .

اضافة الى أن ذلك العصر قد شهد قيام وانشاء عدة مدن أخرى فى عصر حكم أسرة بنى رستم الاباضية والتى منها مدينة غزة وسوق ابراهيم وأوزكى والغدير وزلاع وقصر الفلوس وغيرها من المدن التى لعبت كل مدينة منها دورها كمدينة تجارية أو صناعية أو زراعية ونشطت فيها الحياة وقامت بها المساجد التى كانت تعمل على نشر المذهب الاباضى وكان دورها يتمثل فى تعليم المذهب الاباضى والقاء المواعظ والدروس التى تدعو الى اعتناق ذلك المذهب، كما أن تلك المدن كانت تعقد بها الاسواق الدائمة والاسبوعية حيث كانت عوامل الرخاء الاقتصادى التى تعيشها الامارة حافزا قويا لزيادة ذلك النشاط فى ظل تمتع تلك الامارة بالاستقلال السياسى بعيدا عن سيطرة الاغالبة فى الشرق حيث تونس، وسيطرة الادارسة فى المغرب الاقصى حيث ظلت امارة تاهرت تمارس نفوذها وكيانها السياسى حتى قيام الدولة العبيدية الفاطمية عام ٢٩٦هـ باسقاط ذلك النظام الاباضى الخارجى وتخريب مدينة تاهرت .

وهكذا نجد أنفسنا للمرة الاولى أمام تجربة اقامة امامة أباضية خارجية فقد كان الخواج ينادون دائما بالدولة المثالية وكانوا يسمونها امامة لاخلافة، لان الخلافة الاموية والعباسية فى نظرهم غير شرعية لان المبدأ عندهم أن رسول الله ﷺ لايمكن أن يخلفه أحد

يقوم مقامه وانما تحتاج الامة من بين الصالحين من أفرادها اماما يقودها فى طريق العدل ويتولى تطبيق قواعد الشريعة الاسلامية وكانوا ينتقدون غيرهم من المسلمين لانهم ينشئون دولا تخالف من حيث التكوين والروح ما يقضى به الاسلام، وهكذا جاءت فرحتهم عندما أتيحت لواحد منهم وهو عبد الرحمن بن رستم الفرصة لينشئ دولة مستقلة على المبادئ الاباضية .

وتنسب الخارجية الاباضية الى عبد الله بن أباض اليمنى وكان ينادى بمذهب الاباضية الذى اتخذ صيته من اسمه والذى يعتبر من أقرب المذاهب الخارجية الى مذهب أهل السنة، وهكذا نرى كيف أن الاباضية وعلى رأسهم عبد الله بن أباض الخارجى فشل فى أن يحقق حلمه فى انشاء دوله أو امامة على المذهب الاباضى فى الشرق ولكن أحد تلاميذه وهو مسلمة بن سعيد ذهب الى المغرب وتبين أن هناك امكانية لانشاء واقامة دولة أباضية خارجة فى تلك البقاع البعيدة عن الخلافة العباسية أو الاموية، لان سلطان الدولة العباسية وولاتها الذين تعينهم الخلافة العباسية ويمثلونها فى تلك الديار لم يكن يتعدى نفوذها غرب مجرى نهر شلف حتى الوصول الى المحيط الاطلسى غربا ذلك لانه كما سبق القول فان تلك البلاد لم تكن هناك سلطة شرعية قائمة بها بل كانت بلادا لا يحكمها حاكم انما انفرد بحكمها حكام من البربر المستعربين أو العرب الذين قدموا مع الفتح الاول للمغرب والذين كانوا قد وصلوا الى هناك منذ فترة طويلة واستقروا بتلك الديار واندمجوا مع السكان وصاهروهم وتزوجوا منهم ومعنى هذا أن ذلك الجزء الغربى الممتد منها غرب نهر شلف كان يعانى فراغا سياسيا يتيح الفرصة لرجل طامح أو لجماعة من الافراد يجمعهم رباط واحد أو فكرة ومبدأ واحد ويدفعهم الحماس لانشاء دولة بعيدة عن متناول خلفاء بنى العباس أو ولاتهم .

كذلك فانه من المعروف انه فى خلال تلك الحقبة التاريخية التى شهدت قيام الدولة

العباسية فانه لم يكن لخلفاء بنى العباس أو ولاتهم أدنى نفوذ على جبال نفوسة وهى تلك المنطقة الجبلية الواسعة التى تقع الى الجنوب من طرابلس، وكان جبل نفوسة جبلا واسعا حصينا وعر المسالك كثير الزروع فظهرت فيه جماعة من الخوارج الاباضية .

وقد تحدثنا عن الصراع بين الخوارج والدولة العباسية فى خروج عبد الرحمن بن رستم ومن معه من الخوارج الاباضية واتجهوا غربا ووصلوا غربا بعد أن عبروا نهر شلف حيث منطقة جبلية تقع الى الجنوب من الجزائر الحالية وتمركزوا هناك عند بلدة حصينة وسط الجبال تسمى تاهرت، ووجدوا انه لايوجد هناك نظام حكم قائم ولا سلطة قوية تقف عقبة فى سبيل اقامة كيان سياسى لهم، انما كانت تسكن تلك المنطقة بعض القبائل البربرية التى أسلمت منذ فترة وتعيش هناك عيشتها الطليقة الحرة ولا تخضع لادنى سلطان أو دولة ورغم تلك العيشة فان تلك القبائل كانت حسنة الاسلام متمسكة بتعاليم الاسلام، بكل ما فيها من قيم ومبادئ ومثل وعدالة لكنها فى ظل تلك الحالة فانها كانت فى أمس الحاجة الى من يوجد صفوفها ويجمعها على رباط واحد وكلمة واحدة ويقيم نظاما سياسيا مستقلا عن طاعة الخلافة العباسية البعيدة فى بغداد أو واليها فى القيروان .

فما كان من عبد الرحمن بن رستم الا أن فكر وصحبه بعد هزيمة طرابلس وانسحابة غربا فى أن يقيم دولة على نهج المبدأ الخارجى الاباضى، وان تقوم دولة الامامة الخارجية الاباضية التى طالما حلم الاباضية باقامة كيان سياسى لهم ومستقل عن الخلافة العباسية، ومن ثم بدأ عبد الرحمن وتلاميذه ورجاله وبقية أفراد جيشه على الدعوة لنشر المذهب الاباضى فى هذه النواحى وبذلك تكونت كتلة خارجية تستطيع أن تحمل عبء الدولة وبالفعل أخذ عبد الرحمن يضع القواعد الاساسية واللبنات الاولى لاقامة دولته الرستمية على المبادئ الاباضية .

وكان اختيار عبد الرحمن بن رستم لموقع تاهرت اختيارا سليما لان هذه البلدة كانت تقع وسط الجبال فلا يمكن الوصول اليها من ناحية الغرب أو الشرق بسهولة فكانت حصينة من الناحيتين وآمنة من أى غزو من هذه النواحى ثم أن المدخل اليها من الجنوب كان سهلا أى أن الطريق بينها وبين الصحراء كان مفتوحا يمكن لاهل المدينة من الاتصال بزملائهم الاباضية الذين يسكنون جبال نفوسة وطلب النجدة من القبائل الصحراوية الكثيرة التى كانت تتخذ هذه الجبال مواطن لها .

وكانت تاهرت فى ذلك الوقت عبارة عن قرية صغيرة لكن عبد الرحمن كان فى حاجة الى حصن كبير فصعد الجبل فوق تاهرت القديمة حتى وجد منفسحا من الارض وافر الحياة وأخذ ينشئ مدينة جيدة هى مدينة تاهرت الجديدة وبناها على ضفة نهر غزير المياه وحصنها بأسوار عالية وأنشأ فيها مسجدا جامعا وأقام الامامة الاباضية. والتى هى جماعة اسلامية تحكم بناء على المبادئ الاباضية وتجمعها روح الاخوة الاسلامية والمساواة التامة بين أفراد الجماعة والنفس ورعاية حقوق الله والمؤمنين .

أئمة بنى رستم حكام تاهرت :

كان عبد الرحمن بن رستم أول أئمة ولاية تاهرت الاباضية الخارجية من أهل فارس كما تقول المصادر، فقد كان أبوه «يهرام» من موالى عثمان ابن عفان، وقد نشأ نشأة عربية أصيلة واسلامية، فدرس فى البصرة وهناك أخذ المبادئ الاباضية على يد كبار الائمة ثم انضم الى أبى الخطاب بن عبد الاعلى السمح المعافرى وانتهى به الامر الى المغرب حيث أصبح الدراع الايمن لابى الخطاب، وبعد مقتل أبى الخطاب بن عبد الاعلى على يد محمد ابن الاشعث أصبح عبد الرحمن هو الامام المعترف به للاباضيين فى المغرب وقد تولى عبد الرحمن الامامة والرياسة فى الفترة من ١٤٤– ١٦٨هـ وبويع بالامارة والامامة

وقد دامت فترة امامته أربعة وعشرين عاما مما ساعده على وضع دعائم الدولة الاباضية وكان عبد الرحمن رجلا شعبيا متواضعا يجلس للناس فى المسجد وكما يقول عنه ابن الصغير وسيرته واحدة وقضاته ممتازة وبيوت أمواله ممتلئة وأصحاب شرطته والطائفون به قائمون بما يجب .

وكان رؤساء القبائل وشيوخ الاباضية هم الذين انتخبوا عبد الرحمن بن رستم للامامة وفق مفهوم المذهب الاباضى .

وقد راع الذين اختاروه أربعة أسس اختاروا على أساسها امامهم وهى الفضل ويراد به العدالة وهى عند الاباضية جماع صفات الكمال الاخلاقى من حيث سلامة الاعتقاد وصحة الجوارح ونزاهة النفس كما كان يضاف الى ميزة الفضل جانب العلم بالاسلام ككل والتعاليم والمذهب الاباضى، حيث أن العلم الكامل بالاسلام وعلومه شرط أساسى من شروط الامامة عند الاباضية ويعرفونه بانه العلم الذى يوصل الى معلمه الجماعة فى الدينا وسعادتها فى الآخرة .

كما انهم راعوا فى الامام الذى اختاروه الا يكون من عصبية تؤيده بحيث لايعتمد على تلك القبيلة أو العصبية فى فرض سلطانه على الناس وكان اختيار الامام على هذه الاسس لابد أن يتم على أساس مبدأ الشورى، أى حرية الرأى والاختيار فاذا توفى الامام أو حدثت أسباب تحول دون استمراره فى الامامة فان شيوخ الامامة الاباضية يرشحون نفرا منهم ويكون عدد الذين يتم ترشيحهم سته أشخاص ثم يجتمع هؤلاء الستة فيما بينهم لكى يختاروا واحدا منهم اماما والجماعة ليست مقيدة بأهل الشورى الذين يختارهم الامير السابق ولا هى ملزمة باختيار من أوصى به الامام السابق .

كذلك فان الوصية التى يراد بها ايصاء الامام القائم لمن يخلفه ولا تكون هذه الوصية فرضا ملزما للاتباع وانما هى توصية وقد قلد الاباضية فى ذلك مافعله أبو بكر

الصديق قبل موته عندما أوصى لعمر ابن الخطاب رضى الله عنهما، ولكن الاباضية كانوا أميل لاتباع ما فعله عمر بن الخطاب من اختيار ستة من كبار الصحابة يسمون أهل الشورى، وكان عليه أن يستشيرهم فى كل مايهم الامارة من الشئون فاذا مات لامام كان على الستة أن يجتمعوا ليختاروا من بينهم الامام الجديد .

وهكذا كانت دولة الاباضية الخارجية الرستمية أول تجربة سياسية جديدة فى تاريخ المغرب والاسلام وهى أول تجربة يمكن أن نطلق عليها أول نظام جمهورى فى تاريخ الاسلام، لقد حاول الاباضية قبل ذلك اقامة دولة أباضية فى عمان لكن الامر لم يجر على الطريقة والتجربة الدقيقة المذهبية التى جرى بها اختيار عبد الرحمن بن رستم وأصحابه حيث كان قد تم اختيار عبد الرحمن بن رستم اماما للجماعة الاباضية وفق هذه الاسس وسار فى الناس بالعدل والاخوة والمساواة والمحبة وأقام شرع الله بين خلق الله واهتم كثيرا بشئون الدين ولاسيما نشر المذهب الاباضى الا أن عبد الرحمن بن رستم كان رجلا متدينا صادقا، بل كان يمتاز بالورع والتقوى وكان اضافة الى كل هذه الصفات واسع العلم وقام بحماية جماعته واشاعة العدل بين الرعية ومن هنا كان نجاح هذه السياسة وشيوع سمعته بين القبائل البربرية والجماعات الخارجية من الاسباب القوية التى دفعت القبائل والناس بالتوافد على تاهرت من كل ناحية فكبرت تلك الامارة وعظم أمرها ونشأت فيها جاليات كبيرة من المهاجرين اليها .

وكان كل جالية من هذه الجاليات حى خاص بها من أحياء المدينة فهناك حى المصريين، وحى القيروانيين وحى البصريين، وحى الكوفيين وحى الاندلسيين وغيرها من الاحياء المختلفة التى كانت تعيش فيها كل جالية، ولكنهم كانوا جميعا يعيشون فى أمن وأمان واطمئنان ويعملون فى ظل حكم عبد الرحمن بن رستم العادل الذى كان فى الحق اماما وقائدا صالحا يتميز بسمعة العلم والحلم وعمق الايمان اضافة الى الشجاعة ومن هنا

نجحت تجربته فى اقامة دولة أباضية فى المغرب الأوسط .

وقد كانت فترة حكمه من ١٤٤هـ/ ٧٦٠م- ١٦٨هـ/ ٧٨٤م، وكان أوصى قبل موته بأن يختار خلفه ستة من شيوخ المذهب والجماعة عينهم بأسمائهم وأضاف من بينهم ابنه عبد الوهاب، وبعد مناقشات طويلة بين أفراد هذه الجماعة الستة اتفقوا فيما بينهم على أن يتم الاختيار فيما بينهم عبد الرهاب بن عبد الرحمن بن رستم، ومسعود الاندلسى، لكن مسعود الاندلسى فضل أن تكون الامامة فى ابن أستاذه عبد الرحمن، حسما للخلاف والنزاع بين القبائل ومن ذلك تم تعيين عبد الوهاب بن عبد الرحمن اماما وواليا على امارة تاهرت .

ويعتبر عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن يهرام بن رستم الوالى والامام الثانى فى الدولة الرستمية الاباضية الخارجية وتولى الامامة ١٦٨هـ/ ٧٨٤م- ١٨٨هـ/ ٨٠٠م .

وقد بويع الامام عبد الوهاب بعد وفاة أبيه عبد الرحمن مباشرة ووقعت فتن فى عهده تمكن من اخمادها حيث انه كان من الطبيعى أن يشق فريق من الاباضية على الامام الجديد منكرا عليه الوصول الى الامامة عن طريق الوراثة حيث أن مبدأ الوراثة لم يكن واردا فى مذهب الاباضية، ومن هنا نشأت فى تاهرت فرقة جديدة أطلق عليها الفرقة «النكارية» أى الذين ينكرون ويرفضون الأخذ بمبدأ امامة وولاية عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، كذلك نشأت فرقة جديدة تسمى الوهبية أى أنصار عبد الوهاب، ومن هنا قام الصراع التقليدى على الحكم بين الوهبية والنكارية، حيث ان هذا الصراع لم يطل طويلا حيث انتهى الامر بمقتل قائد النكارية على يد أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وهكذا سالت الدماء بين هؤلاء الاباضية لكن الامام عبد الوهاب تمكن بما له من خصائص الدهاء واللين والسياسة من اخماد هذه الفتنة ومن هنا انتهى النزاع بين مسألة وراثة الحكم، ولكن ذلك لم ينه أمر النكارية بعد مقتل قائدهم لكن انهزامهم

قد أدى الى تفرقهم بين القبائل الاخرى لنشر دعوتهم والمحافظة على التعاليم الاباضية ورفض فكرة وراثة الامامة، ومن هنا بقيت منهم جماعات متفرقة بين القبائل ومن بين هؤلاء سيظهر «أبو زيد ابن مخلد بن كيداد» الثائر الاباضى النكارى الذى ثار على خلافة الفاطميين فى المغرب .

وقد تحدث ابن الصغير عن الامام عبد الوهاب الذى حكم عشرين عاما متواصلة خلفا لوالده عبد الرحمن فقال عنه كان ملكا ضخما وسلطانا قاهرا استطاع القضاء على كل الثورات والفتن التى حدثت فى عهده واجتمع له من أمراء الاباضية وغيرهم ما لم يجتمع لاباضى قبله ودان له ما لم يدن لغيره من الامراء والائمة وبعد وفاة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن يهرام بن رستم فان الامامة آلت الى ابنه الاكبر أفلح الذى كان قد استطاع أن يقتل زعيم النكارية فى عهد أبيه. وقد حكم أفلح ابن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن يهرام بن رستم خمسين عاما بدأ من عام (١٨٨- ٢٣٨هـ) وقد بويع بالامامة والولاية وأخذت البيعة والوصية له فى عهد أبيه عبد الوهاب، وقد كان صاحب نفوذ قوى لدى رجال الامارة بل كان قائدا للجيش وقد عاشت مدينة تاهرت فى أيامه أياما هادئة مزدهرة، وسارت الامور فى دولة الاباضية فى تاهرت ومن كانوا يؤيدونهم من أباضية فى جبل نفوسة، سيرا وسطا بين الالتزام بمبادئ المذهب والانحراف عنه حيث كان مبدأ توريث الامامة من أكبر الانحرافات فى المذهب الاباضى، وقد وقعت حروب كثيرة بينهم بسبب الأخذ بمبدأ توريث الولاية والامامة، وقد حدثت أكبر الثورات التى استمرت سبع سنوات فى عهد أفلح بالاضافة الى أن عهده شهد ثورة أخرى لكنه تمكن من أخماد كل هذه الثورات .

لكن اخماد هذه الثورات قد أدى الى حدوث انقسامات وتفرع الفرقة الاباضية الى عدة فروع وخاصة بين أباضية تاهرت الذين أخذوابمذهب توريث الامامة وبن أباضية جبل

نفوسة جنوب طرابلس الذين كانوا يرفضون مبدأ توريث الامارة والامامة، وخرجوا عن طاعة الدولة الرستميه وأقاموا على أنفسهم واليا واماما من انفسهم عندما وقعت الحرب بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم والنكارية لكنه بعد فترة ليست بطويلة طبق أباضية جبل نفوسة مبدأ وراثة الامامة والامارة أيضا وقد لقى أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن عنتا شديدا ومضايقة من الاباضية .

الخوارج ودورهم فى المغرب :

كان كثيرا من العرب قد انتقلوا الى بلاد المغرب وهم الذين وفدوا اثناء الفتح الاسلامى لهذه البلاد وكان من بين الذين قدموا الى بلاد المغرب لنشر آرائهم ومبادئهم الخوارج والذين قد حظى المغرب الاوسط وطرابلس وجبل نفوسة بأعداد كبيرة من هؤلاء الخوارج وكان مسرحا للدعوة الاباضية ومن هنا كان المغرب الاوسط بالنسبة لعبد الرحمن ابن رستم مؤسس الدولة الرستمية من اكثر الاماكن آمنا لتأسيس دولة أباضية وقد ظل العرب يمثلون طبقة معروفة لدى الجميع فى الدولة، كما كان الفرس (العجم) من الجماعات التى قدمت الى بلاد المغرب مع القوات الاسلامية الفاتحة وكان لهم دور كبير فى أحداث الدولة الرستمية لما قاموا به من دور فعال فى مساعدة الدعوة الاباضية ولاسيما بعد أن كثر فرار الخوارج من الشرق والعراق ومصر وبلاد الجزيرة العربية وعمان الى المغرب الاوسط وسائر اقسام المغرب وذلك هربا بأنفسهم وأفكارهم من بطش وظلم الامويين وبعدهم العباسيين حيث وجدوا فى بلاد المغرب متنفسا طبيعيا لنشر آرائهم ومبادئهم ومن هنا قاموا ينشرون أفكارهم الاسلامية وتعاليمهم القائمة على المساواة بين المسلمين والدعوة للثورة ضد الظلم الواقع على الرعية من الولاه والخلفاء. وقد وجد هؤلاء الدعاة استجابة رائعة من جانب البربر من هنا نجحوا فى تغيير أفكار البربر واستمالوهم الى جانبهم السياسى والدينى .

وكانت الفرق الخارجية التى قدر لها الانتشار فى بلاد المغرب هى الفرق الاباضية والصفرية وكانت الفرق الاخرى مثل الازارقة قد تهاوت فى الشرق تحت ضربات تحت ضربات الامويين العنيفة، وقد استطاعت هذه الفرق أن تجد لها قبولا فى بعض المناطق فنجد أن الصفرية قد انتشرت بين بربر القسم الجنوبى من المغرب الاقصى فى المناطق الجبلية الممتدة من السوس الادنى الى جبال درن حيث قامت دولة بنى مدرار فى سجلماسة على أساس المذهب الصفرى واستطاعت أن تعمر فى تلك المنطقة بفترة ثلاثة قرون متواصلة، بينما اعتنق بربر المغرب الاوسط وهو القسم الشمالى من المغرب العربى المذهب الاباضى .

والى جانب الصفرية والاباضية فانه ظهرت هناك أفكار متطرفة لدعاة من البربر يدعون الى اقامة دولة بربرية عمادها وركيزتها الاولى الدين الاسلامى وقومها من البربر وظهرت تلك الآراء فى امارة براغوطة عند رجل بربرى يدعى صالح بن طريف الذى سمى صالح المؤمن .

وقد استخدم الخوارج الكثير من الحيل والتحايل والاساليب فى النفاذ بدعوتهم الى قلوب البربر وقد ساعدت تلك الطرق على نشر دعوة الخوارج على نطاق واسع ذلك لان دعاة الخوارج من أباضية وصفرية عندما كانوا يدعون لافكارهم ومذاهبهم فى بلاد المغرب فانهم حرصوا كل الحرص على عدم التعرض لذكر أى مذهب من المذاهب وانما ينشرون دعوتهم الاباضية أو الصفرية تحت شعار المناداة بتصحيح المسار الاسلامى والدعوة للاصلاح والسير على نهج الكتاب والسنة والعمل على تطبيقها بين الرعية ومن هنا استطاع الدعاة الاوائل الخوارج أن ينجحوا فى تغيير الوضع فى بلاد المغرب فى صورة ثورات متتالية حيث أخذ سكان المغرب يعتمدون على أنفسهم فى حل مشاكلهم ومعالجة أوضاعهم السياسية والاجتماعية والدينية فى اطار مغربى وبذلك وضحت شخصية المغرب

وضوحا تاما .

وأما المغرب الاوسط فقد ظل مسرحا للصراع الدامى بين قوات الخلافة العباسية التى تحاول استرداده وبسط نفوذها على أرضه بكل الوسائل وبين ثوار البربر على اختلاف مذاهبهم الصفرية والاباضية .

ولقد دخلت ظاهرة الثورات فى بلاد المغرب طورا جديدا من تاريخها عندما أخذت تنتقل مقاليد القيادة من أيدى الصفرية الذين قدموا من شمال المغرب الاقصى الى المغرب الاوسط الى أيدى الخوارج الاباضية بعد أن ضاق سكان تلك المناطق ذرعا بعنف التعاليم الصفرية وتشددها فى تنفيذ مبادئها .

وكانت قد ظهرت بوادر قوة الاباضية عندما عين عبد الرحمن بن حبيب الفهرى أخاه الياس بن حبيب واليا على طرابلس احساسا منه بخطر الاباضية بعد أن بايعوا «عبد الله بن مسعود» رئيس الاباضية فى طرابلس اماما عليهم، فما كان من الياس بن حبيب الا ان قتل عبد الله بن مسعود، وكان لهذا التصرف من جانب الياس عواقب وخيمة اذ ثار الاباضية وأخذوا يحتشدون للثورة وحاول عبد الرحمن بن حبيب تهدئة الأحوال فعزل أخاه الياس عن طرابلس، لكن ذلك لم يحل دون قيام ثورة الاباضية بقيادة امامهم الجديد «الحارث بن تليد الحضرمى» واستطاع هذا الزعيم الاباضى ومن حوله من الاباضية احراز النصر على قوات عبد الرحمن الا ان عبد الرحمن تمكن فى النهاية من قتلة، وعلى هذا فقد ولى الاباضية بعد ذلك اماما عليهم هو «أسماعيل بن زيادة النفوس» لكنه قتل على يد عبد الرحمن بن حبيب، لكن ذلك لا يمنع من قيام الثورات وتكرارها حيث كان أكثر القائميين بها من بقايا الصفرية وقد استفاد دعاة الاباضية من ظروف الانقسام السياسى والعائلى الذى حدث بين أسرة حبيب الفهرى، والاحوال المضطربة داخل الامارة ومن هنا باشروا نشاطهم بهمة عالية ونشروا مذهبهم على نطاق واسع وساعدهم على ذلك

أن كثيرا من دعاة البربر رفضوا سلوك الصفرية لا سيما لما فعلوه من أفعال فى مسجد القيروان وأهل المدينة ولم يرضوا عن التطرف الشديد الذى سلكوه فقد كانت ثورات البربر شرا على البربر ومصالحهم الاقتصادية والاجتماعية لاسيما بعد أن استولت قبيلة «ورفجومة» على القيروان بقيادة «عصام ابن جميل » حيث كان ذلك الرجل قد ادعى النبوة والكهانة وقام بأعمال لاترضى المسلمين حيث زاد فى الصلاة وأسقط ذكر النبى محمد ﷺ وزادت فظائع الصفرية فى القيروان فأستحلت «ورفجومة» المحرمات وسبوا النساء والصبيان وربطوا دوابهم فى مسجد القيروان الجامع وافسدوا فيه .

وقد استغل الخوارج دعاة الاباضية فى التقليل من شأن الصفرية واستنكارهم لهذه الافعال، حيث كانوا هم أقرب الى أهل السنة والجماعة وأصبحوا هم القوة السياسية الوحيدة فى تلك المنطقة والتى يمكن لاهل القيروان وغيرهم من البربر أن يستعينوا بهم فى نصرهم على الصفرية ومفاسدهم بعد أن قضى الصفرية على القوة العربية المتمثلة فى آل «حبيب الفهرى» .

وقد ساعدت الظروف هؤلاء الاباضية فى اعادة تنظيم صفوفهم من جديد لاسيما بعد أن تصدار للقيادة رجال العلم والمعرفة والدين الذين كانوا قد قدموا من البصرة بالعراق بعد أن تلقوا التعاليم الاباضية على يد داعية الاباضية الاكبر «أبو عبيدة بن أبى مسلم بن أبى سريمة» .

ولقد انتهز الاباضية تلك الفرصة الذهبية لكى يبسطوا نفوذهم وفى ذلك يقول الشماخى فى كتابه السير، أن رجال الاباضية تشاوروا فيما بينهم فى موقع يقع غرب مدينة طرابلس واستقر رأيهم على تولية «أبى الخطاب ابن عبد الاعلى المعافرى» اماما لهم. وقد اتجه أبو الخطاب المعافرى بعد مبايعته الى طرابلس فاستولى عليها وطرد عاملها عام ١٤٠هـ/ ٧٥٧م واتخذها مقرا له وما أن انتهى من تنظيم شئونها حتى وصلته أنباء

الفظائع التى ترتكبها قبيلة ورفجومة فى القيروان وسمع ما فعلوه بالقيروان وخرج أبو الخطاب لتحرير القيروان من فساد الصفرية فالتقى كما يقول البكرى بالصفرية فى موقع يقال له «رقادة» قرب القيروان وقد أطلق اسم رقادة على ذلك المكان لكثرة جثث القتلى ورقادها بعضها فوق بعض وهناك دارت معركة عنيفة أسفرت عن انهزام الصفرية أمام قوات أبى الخطاب والاباضية الذى دخل القيروان عام (١٤١هـ/ ٧٥٨م) ونظم شئونها وولى عليها شخصية من أبرز الشخصيات الاباضية من ذوى العلم والدين والورع هو عبد الرحمن بن رستم هذه الشخصية التى تألق نجمها فى سماء بلاد المغرب وفى الافق السياسى الاسلامى على مستوى الامة الاسلامية منذ ذلك الوقت ولعب دورا بارزا ومؤثرا وفعالا حيث حمل لواء الفكر السياسى الاباضى والدينى والاجتماعى والاقتصادى فى المغرب الاوسط ومناطق كثيرة من أرجاء المغرب الواسعة ونقل هذا الفكر الاباضى من مرحلة الدعوة والنظريات الى مرحلة التطبيق والتنفيذ فى اطار بناء أكبر دولة فى المغرب العربى فى ذلك الوقت .

وهكذا نرى فيما رشحت الاباضية عبد الرحمن بن رستم لتوليه شئون القيروان كانت الخلافة العباسية تدلى بدلوها فى توجيه تلك الاحداث بارسال قوات كما سبق القول لتوجيه ضربة قوية للاباضية بقوات يبلغ تعدادها خمسين ألف جندى منهم أهل خرسان ثلاثين ألف وعشرة آلاف من أهل الشام ويبدو أن هذا الجيش قد بلغ خمسين ألفا من الجنود حين خروجه من مصر وكان عليهم ثمانية وعشرون قائدا منهم الاغلب بن سالم التميمى. ومضى ابن الاشعث والى مصر الى قتال الاباضية واستعد أبو الخطاب المعافرى رئيس الاباضية لملاقاة هذه القوات باستدعاء عبد الرحمن بن رستم من القيروان .

وهنا نالت الاباضية ضربة حيث تذكر المصادر العربية الاسلامية (ابن الاثير، ابن عذارى المراكشى، النويرى) أن خلافا كبيرا دب بين جماعات الاباضية حيث تنازعت

زناتة وهوارة حيث فارقت زناتة أرض المعركة ومن هنا فقد أدى انسحاب قوات أكبر القبائل «زناتة» من ميدان المعركة إلى ضعف جبهة الاباضية وعلى هذا دارت المعركة بين أبى الخطاب وابن الاشعث واقتتلوا قتالا شديدا هزمت فيه الاباضية وانتهت المعركة بمقتل أبى الخطاب المعافرى عام ١٤٤هـ/ ٧٦١م (الشماخى، اليسر ص ١٣٢) المؤرخ الاباضى لايروى شيئا عن هذا الخلاف بين زناتة وهوارة وانما يذكر أن انصراف الجموع الزناتية عدا أبى الخطاب بسبب خدعة حربية أحكمها ابن الاشعث حول الاباضية حيث تظاهر بالعودة إلى مصر فتفرق الناس ومنهم زناتة فدهم ابن الاشعث الاباضية وزعيمهم أبا الخطاب وهم على هذه الحالة فهزمهم عند بلدة «تورى» .

وبينما كان عبد الرحمن بن رستم فى طريقه للانضمام لصفوف قوات الاباضية وصلته أنباء الكارثة التى حلت باخوانه فى المذهب الدينى فقرر العودة والانسحاب الى المغرب الاوسط تاركا القيروان التى وصلها محمد بن الاشعث فى جمادى الاول عام ١٤٤هـ/ ٧٦١م. وكان عبد الرحمن بن رستم بعد طول دراسة قد رأى بعين البصيرة أن توطيد دعائم دولة أباضية فى منطقة يسود فيها المذهب السنى «الحنفى والمالكى» وتقاتل فيها وعنها جيوش الخلافة العباسية بضراوة شديدة أمر غير محمود العواقب ولا يمكن أن يكتب له النجاح، ومن ثم كان المغرب الاوسط هو المكان الطبيعى الذى يجب أن تتجه اليه أنظار الاباضية لاقامة دولة حيث تساعد ظروفه الطبيعية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية على اقامة الدولة الاباضية .

المذهب الاباضى والفكر السياسى

كان جماعة الاباضية هم أتباع عبد الله بن أباض المرى التميمى الذى كان اماما عقائديا وفكريا لاصل المذهب أو الطريقة ورئيسا لاباضية البصرة بالعراق وغيرها من الاقطار

المختلفة فى العالم الاسلامى ويمثل المذهب الاباضى آخر تطورات الفكر الاباضى، لان فرق الخوارج الاخرى كالازارقة، الصفرية، العجاردة، النجدات، العاذرية وآراؤها السياسية والدينية كانت قد أخذت تلفظها الناس وتخرج من صفوفها نظرا لتشددها وتطرف آرائها ودعاتها فى الامور الدينية وأخذ بعض المسلمين يتجهون إلى الفرقة الخارجية الاباضية لانها كانت أكثر اعتدالا وقبولا من عامة الشعب وهكذا اتخذت مدينة البصرة مركزا دينيا واشعاعا فكريا لهذه الحركة وذلك بعد أن تضامن أهل هذه المدينة مع الاباضية وأخرجوا منها كل متطرف مثل نافع بن الازرق ولم يبق بالمدينة غير ابن أباض وابن الصفار وانهار فريق الصفرية، بينما بقى فريق الاباضية المعتدل يمارس نشاطه ويتابع نشر أفكاره ومبادئه والتى منها انهم كانوا يمون صحة مناكحة المخالفين من المسلمين والتوارث معهم وأن دار مخالفيهم من أهل الاسلام ودار توحيد الا معسكر الخليفة أو السلطان، فانها دار بغى، ويقبلون شهادة مخالفيهم فى الفكرة والمذهب، وقالوا أن أفعال العبادة مخلوقة لله احداثا وابداعا ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازا ولا يسمون امامهم (أمير المؤمنين) ولا يسمون مهاجرين ولا يحبذون قتال مخالفيهم الا بعد دعوتهم للمذهب .

ولهذا سار المذهب الاباضى فى خطى وطيدة ومضطردة نحو تحقيق الاهداف التى رسموها لانفسهم وهى اقامة دولة لاسيما بعد أن نادى عبد الله ابن أباض الى مزيد من التسامح مع المخالفين وهكذا تتضح معالم الفكر الاباضى والمبادئ التى نادى بها شيوخه فيما ذكره «البغدادى» فى كتابه «الفرق بين الفرق» وكذلك الشهرستانى فى كتابه «الملل والنحل» فالاباضية اعتبروا مخالفيهم من المذاهب الاخرى فى الامة الاسلامية ليسوا مؤمنين ولا مشركين وانما هم كفار بالتعميم ولذلك أجازوا شهادتهم وحرموا دماءهم فى السر واستحلوها فى العلانية وقرروا استحلال بعض أموالهم والتى منها من هم فى أشد الحاجة اليه وهى الخيل والسلاح فى حالة الحرب وان أرضهم ليست أرض أعداء انما هى

وطن للجميع من الخوارج وغير الخوارج، كما اعتبر علماء الاباضية مرتكبى الكبائر وجيمع المقصرين فى الشئون الدينية موحدين لا مؤمنين وقد كان هذا التمييز حدثا هاما فى فكرة الحركة الاباضية بعكس الازارقة والصفرية .

ومن هنا فتحت الحركة الاباضية الباب على مصراعيه لمعاشرة هؤلاء المخالفين لهم فى المذهب والاشتراك معهم فى الحياة العامه ومن هنا اكتسبت الحركة الاباضية فكرة عامة لدى الشعب بأنها فكرة مسالمة الى أقصى حد وأصبح مذهبها أقرب المذاهب الخارجية الى مذهب أهل السنة (سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربى) .

ورغم كل ما نادت به الحركة الاباضية من فكر دينى وسياسى واجتماعى واقتصادى فقد لقيت الكثير من الاضطهاد والظلم والعنت والتشدد والابادة المستمرة من جانب الدولة الاموية فى أواخر القرن الاول الهجرى لاسيما على يد الحجاج بن يوسف الثقفى الذى نكل بقيادتها وشيوخها وأئمتها، مما جعل امام الاباضية المعاصر له فى ذلك الوقت وهو الامام «أبا عبيدة مسلم بن أبى كريمة» يفكر فى تلك الاحوال التى تحيط به وبمذهبه ان ينقل الفكر الاباضى وبعضا من رجاله إلى أطراف الدولة الاسلامية وبصفة خاصة بلاد المغرب حيث بعدها عن مركز الخلافة فى المشرق ومن هنا وقع اختياره على شخصية من أبرز رجاله والمقربين اليه والمتمسكين بالمذهب الاباضى أشد التمسك وهو الامام (مسلمة بن سعيد) وقد كان ذلك الاختيار ينم عن ذكاء أبى عبيدة، فالمغرب العربى بعيدا عن دمشق كما أن مسلمة بن سعيد من أنشط تلاميذه وأقدر لتنفيذ تلك المهمة .

ولقد كان اختيار المغرب العربى مجالا للدعوة الاباضية مما يهيء لدعوة الامن والامان من ضربات الحكومة المركزية فى دمشق أو بغداد كما أن أرض المغرب فى نظر الاباضية لا زالت أرضا بكرا تستطيع أفكارهم أن تجد تأييدا أو تفهما لدى شعب البربر ومن هنا تصل

تلك الافكار إلى قلوب البربر الذين كانوا لايزالون حديثى عهد الاسلام، وأمام كل هذه الظروف نجحت الدعوة الاباضية فى بلاد المغرب نجاحا لم يكن متوقعا وحققت انتصارا تجاوز كل الحسابات [١] .

ولقد كان ذلك النجاح عاملا قويا فى جعل البربر يتجهون الى التعمق فى دراسة المذهب من أصوله الشرعبية فى بلاد العراق حيث البصرة مركز الدعوة الأول ومقر كبار علماء المذهب الاباضى ومن هنا كان العمل الواسع والسريع لنشر المذهب الاباضى على نطاق واسع فى بلاد المغرب يقتضى ضرورة ارسال بعض التلاميذ النابهين من أبناء الاباضية فى رحلة علمية إلى البصرة للدراسة مباشرة وتلقى التعاليم على أيدى أصحاب المذهب حيث سيكون لهؤلاء التلاميذ عند عودتهم دور كبير فى ازدياد نشاط الفكر الحقيقى الاباضى الذى يتهل العلم من المنبع ثم يعودون إلى المغرب لكى يقوموا بالتطبيق العلمى والواقعى لمبادئ الفكر الاباضى فى تلك الانحاء ومن ثم كانت الفترة التى قضاها الداعى الاباضى «مسلمة بن سعيد» الذى أرسله أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة» قد أتت ثمارها المرجوة فى اعداد بعثه من الدعاة أعدت اعدادا خاصا لكى تكون أمامهم أكبر فرصة للدرس والتحصيل على أمام المذهب فى ذلك الوقت وخليفة عبد الله بن أباض، أبى كريمة .

ووقع الاختيار على أربعة طلاب هم من نابهى تدريس مسلم بن سعيد وهم عبد الرحمن بن مسلم، عاصم السدراتى، اسماعيل بن درار الغدامسى، أبو داود التغراوى [٢] .

وكان على مسلمة بن سعيد أن يكون اختيار هؤلاء المبعوثين بحيث يمثلون توزيعا جغرافيا يكونون فيه من أماكن متفرقة وبعيدة حتى تتاح الفرصة أمامهم لكى يعود كل

(١) عبد العزيز السيد سالم: المغرب الكبير، ص ٢٣٥ .

(٢) الدرجيبى: طبقات الاباضية، ورقة ٤ ب .

مبعوث إلى قبيلته لكى يكون اكثر فعالية من غيره فى الدعوة للمذهب الاباضى. ولكى تكون فرصة واسعة لانتشار المذهب فى أكبر مساحة ممكنة من بلاد المغرب بعد عودتهم، وتم اختيار عبد الرحمن بن رستم من مدينة القيروان لكى يعود اليها بعد انتهاء دراسته وكذلك كان اختيار عاصم السدرانى من مدينة وقبيلة سهراتة، من غرب المغرب الاوسط، أما داود النفراوى فقد كان ينتمى إلى قبيلة نفراوة فى جنوب تونس (افريقية) أما اسماعيل بن ضرار الغدامسى فهو من مدينة غدامس التى تقع جنوب طرابلس [٣] .

ونجد أن وصول هؤلاء الطلاب الاربعة إلى البصرة مركز الدعوة للمذهب الاباضى وانضم إلى صفوفهم بعد أن عاشرهم وزاملهم أحد أخوانهم فى المذهب حيث كان من العاملين للدعوة الاباضية فى اليمن وحضرموت مؤسس وهو الداعية أبو الخطاب عبد الاعلى ابن السمح المعافرى، واستمرت تلك البعثة العلمية فى الدراسة والبحث والتحصيل والمناقشة والفهم لاصول ومبادئ وأسس المذهب الاباضى طوال خمس سنوات قضوها فى استماع ودراسة وافية وعندما حصل كل منهم على الاجازة المطلوبة التى تؤهله للتدريس عادوا إلى المغرب [٤] كما قاموا باعطاء صورة كاملة عن أحوال المغرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية بعد دراستها مع أستاذهم أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة وتدارسوا معه الطرق الممكنة لاقامة دولة أباضية فى المغرب الاوسط .

وانتهت تلك الدراسه ثم قام الامام «أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة» وتلاميذه الاربعة بترشيح أبى الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى لكى يكون اماما لهذه الدولة المنتظرة أن تظهر فى سماء المغرب العربى. وهكذا أصبح حملة لواء العلم والفكر الاباضى بعد عودتهم من البصرة إلى بلاد المغرب يمثلون الطلائع الاولى المثقفة ثقافة اسلامية

(٣) محمد على دبوز: تاريخ المغرب الكبير جـ ٣ ص ١٨٨ .

(٤) الشماخى: السيرة. ص ١٢٤ .

أباضية والذين تتعلق عليهم الآمال فى نشر لواء الاباضية فى أطراف المغرب، بل انهم غدوا رابطة الصلة التى تربط بين المغرب العربى والمشرق العربى والفاصل المشترك بين التيارات الفكرية السائدة بينهما .

وهكذا نرى كيف عاد الجميع وامامهم أبو الخطاب المعافرى ومعه زملاؤه ولكن أبى الخطاب كان قد اختار عبد الرحمن بن رستم عند عودتهمن البصرة لكى يصبح ساعده الايمن ولكى يصبح أقوى شخصية من بين زملائه الذين درسوا معه أفكار وتعاليم المذهب الاباضى وأسند اليه منصب القضاء فى طرابلس (٥) عام ١٤١هـ/ ٧٥٨م، بالاضافة إلى أن أبا الخطاب أسند إلى عبد الرحمن بن رستم بعد فتحه القيروان ادارة شئونها اضافة إلى قسم من بلاد المغرب الاوسط كان سكانه من الاباضية ويمتد من جزائر بنى مزغنة إلى وهران، بالاضافة إلى أن عبد الرحمن عندما تولى ادارة شئون القيروان استطاع أن يراقب ما يجرى من أحداث فى المغرب الاوسط وأن يكون على بينة من الامور وأن يبعث بتلاميذه واتباعه لكى يغذى المذهب الاباضى فى تلك البقاع بالانصار والاتباع الذين كان يرى فيهم سمات القيادة والقدرة على جذب الناس اليهم. ذلك لانه كان يرى فى بلاد المغرب الاوسط الدرع الذى يحمى الدولة الاباضية الناشئة فى طرابلس. ويؤكد نظرة عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الاوسط ما ذكره ابن خلدون (٦) فى أنه قد وجد نوع من التحالف والصلات الوطيدة والقوية بين عبد الرحمن بن رستم وبين قبيلة «لماية» البترية التى كانت تسكن ذلك الاقليم .

ولكن كما سبق القول فان عبد الرحمن بن رستم لم تطل مدة توليته واقامته بالقيروان، ذلك لان الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور كان قد أرسل واليه فى مصر محمد

---

(٥) البارونى: الازهار الرياضية جـ ٢ ص ٨٤ .

(٦) ابن خلدون: العبر، جـ ٢ ص ١٤٤ .

ابن الاشعث بقوات كبيرة لضرب الاباضية فى المغرب وعلى رأسهم أبو الخطاب المعافرى حيث تمكن القائد العباسى من القضاء على أبى الخطاب عام ١٤٤هـ/ ٧٦١م ودخل القيروان ورأى ذلك القائد العباسى أن عبد الرحمن بن رستم يشكل أكبر خطر على وجود العباسيين فى بلاد المغرب وكان لابد من القضاء على قوته بعد أن تم للعباسيين القضاء على أبى الخطاب المعافرى، وكان ابن رستم قد خرج فى جيش كبير لدعم قوات أبى الخطاب وتحت امرته قوات كبيرة العدد لمقاومة زحف ابن الاشعث، لكن ابن رستم ما أن وصل إلى مدينة قابس حتى وصلته أنباء مقتل أبى الخطاب وهزيمته فعاد مسرعا الى القيروان لكنه لم يستطع أن يدخلها مرة ثانية وهو الذى كان حاكمها منذ فترة قصيرة حيث وجد أن الأمور بها قد ازدادت سوءا وأخذ أهل القيروان نائبه الاباضى فيها فأوثقوه فى الحديد وولوا على أنفسهم بدلا منه سعمر بن عثمان القرشى (٧) وهكذا تبددت آمال عبد الرحمن بن رستم فى اقامة الدولة الاباضية وعلى هذا فلم يكن أمامه الا أن يفر ببقايا قواته وجنده متخذا طريقه إلى المغرب الاوسط .

ولما كان عبد الرحمن نافذ البصيرة والادراك لعواقب الامور فانه أحس انه لابد له ولاتباعه من الوصول إلى المغرب الاوسط فهناك يستطيع بما توجد له من أنصار واتباع أن يقيم دولة على المذهب الاباضى بعد أن منع من دخول القيروان وفشلت دولة أبى الخطاب فى طرابلس فخرج فى قلة من النفر والاصحاب يريد المغرب الاوسط (٨) .

وقد أفلت عبد الرحمن بن رستم من قبضة الذين كانوا يطاردونه وخرج جادا فى السير الى بلاد المغرب الاوسط فوصلها عام ١٤٤هـ/ ٧٦١م ولم يكن معه من شئ الا ما خف حمله من مال وابنه عبد الوهاب ومملوكة وفرسة (٩) .

---

(٧) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب، ص ٦٨ .

(٨) عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ص ٣٩ .

(٩) البكرى: نفس المصدر، ص ٦٨ .

ولجأ عبد الرحمن بن رستم إلى منطقة سوفيج وتعتبر من أمنع المناطق الجبلية فى المغرب الاوسط، وقد كانت تعيش حول هذه الجبال قبائل «لماية وهوارة» وهى قبائل كانت قوية الصلة بالمذهب الاباضى، بل أن قبيلة «لماية» منها كانت على صلة قوية بعبد الرحمن بن رستم ذاته، لذا فقد أثر أن ينعزل بين أبناء هذه القبيلة فترة من الوقت ريثما تنتهيا الامور وتكون مناسبة لاقامة دولة وقد كان نزوله إلى قبيلة لماية لما وجد من تحالف بينه وبينهم قديم وما أن وصل عبد الرحمن بن رستم إلى سوفيج حتى سمع به وجوه الاباضية وأعيانهم وعلماؤهم ومشايخهم حتى قصدوه من كل فج عميق، فقد اجتمع لديه قوم من طرابلس وجبل نفوسة من العلماء فقط ما يزيد عن ستين من كبار العلماء وأهل القضاء والرأى، وأخذت أخبار عبد الرحمن بن رستم تملأ الآفاق فى المغرب الاوسط حتى وصلت مسامع محمد بن الاشعث قائد جيوش الخليفة أبى جعفر المنصور والمتمركز فى القيروان، فجهز جيشا سار به نحو سوفيج ونزل سفح سوفيج وحفر خندقا حول معسكره خوفا من هجوم عبد الرحمن بن رستم ومن معه عليه وظل محاصرا للجبل مدة طويلة حاول خلالها اقتحام الجبل بكل الوسائل الممكنة، لكنه فشل فشلا ذريعا واضطر الى فك الحصار والعودة إلى القيروان بعد أن تفشى داء الحمى والجدرى بين جنده ومات منهم خلق كثير وانسحب إلى القيروان ومن ثم أخذت فلول الاباضية تتجمع وتتكاثر فى جبل سوفيج الذى اتخذوه مكانا يتدربون فيه على القتال ويستعدون لخوض المعارك وبذلك استطاع عبد الرحمن بن رستم أن يقف على قدميه بعد أن عاد ابن الاشعث إلى القيروان محاولا تثبيت أقدام العباسيين فى افريقية [١٠] .

ولما بلغ أبا جعفر المنصور الخليفة العباسى نبا مقتل الاغلب بن سالم، فانه بعث إلى افريقية عمر بن حفص الذى دخلها عام ١٥١هـ/ ٧٦٨م وقد هدأت الاحوال فى عهده

(١٠) محمد عيسى صابر: الدولة الرستمية بالمغرب (رسالة ماجستير غير منشورة)، ص ٩٨ .

واستقامت الامور ثلاث سنوات وقد أغرى هذا أبا جعفر المنصور فتطلع إلى بسط سلطان الخلافة على المغرب الاوسط فأمر عمر بن حفص بالتوجه إلى طبنة قاعدة اقليم الزاب لتحصينها وبناء سورها وتعتبر طبنة المفتاح الذى يجب الاحتفاظ به للحكم فى المغرب الاوسط فضلا عن أنها خط الدفاع الاول عن القيروان نفسها اذا ما سقطت فى أيدى الاعداء وأحس الاباضية وأعوان عبد الرحمن بن رستم بخطورة العمل الذى اقدم عليه عمر بن حفص، فاتفق ابن رستم مع أنصاره فى طرابلس وجنوب أفريقية (منطقة جبال نفوسة وجنوب تونس) وتلمسان على الانقضاض على العباسيين ومحاربتهم ومنعهم من تحقيق أهدافهم، ويدل ذلك الاتفاق على أن الامور كانت تسير بالتنسيق التام بين جماعات الخوارج فى بلاد المغرب على اختلاف مذاهبها ومواطنها، وكان عمر بن حفص الذى خرج لتلك المهمة قد استخلف على القيروان (حبيب بن حبيب المهلبى) وخرج هو الى طبنة لتنفيذ تلك المهمة التى كلف بها، فيقوم حينئذ بربر افريقية الخوارج بالزحف نحو القيروان فيخرج اليهم حبيب المهلبى فيقتلوه وفى نفس الوقت اجتمع بربر الاباضية فى طرابلس وولوا عليهم «حاتم بن يعقوب الاباضى» [١١] وقد استطاع أبو حاتم أن يلحق الهزيمة «بالجنيد بن بشار» عامل عمر بن حفص على طرابلس ولم يكتف أبو حاتم بذلك بل تقدم وحاصر بقواته القيروان واشتراك فى حصار عمر بن حفص أيضا المقيم فى طبنة واشتعلت نيران الفتنة فى افريقية وجاءت جيوش الاباضية والصفوية من كل فج ويجمع معظم المؤرخين على أن هذه الجيوش بلغت اثنى عشر ألفا ورؤساؤهم أبو مرة الصفرى فى أربعين ألف جندى، وعبد الرحمن بن رستم فى خمسة عشر ألفا وأبو حاتم بن يعقوب الاباضى فى عدد كثير وعاصم السدراتى فى عدد كثير قيل فى ستة آلاف، المنصور الزناتى فى عشرة آلاف، وعبد الملك ابن سكرويد الصنهاجى فى الفين من القوات يضاف إلى ذلك جماعات أخرى واتجهت هذه الجيوش مجتمعة نحو الزاب لتحاصر عمر بن حفص

(١١) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٤١٣ .

الذى كان فى خمسة عشر الفا وخمسمائة وانحلى الموقف عن نتائج خطيرة فالقيروان تحاصرها القوات الاباضية وعمر بن حفص تحاصره قوات التحالف الاباضى الصفرى وازاء هذا الموقف قرر عمر بن حفص ان يهاجم قوات الخوارج فهاجم قوات عبد الرحمن بن رستم فى تهودة وفوجئ ابن رستم بقوات عمر بن حفص تهاجمه بقيادة (معمر بن عيسى العبدى) وقد استطاعت هذه القوة الصغيرة التى كان عددها ألف وخمسمائة مقاتل، ان تلحق الهزيمة بقوات عبد الرحمن بن رستم الاباضية البالغة خمسة عشر ألف، الامر الذى جعل خسائر ابن رستم كثيرة جدا وقدرها ابن عذارى المراكشى بثلاثة آلاف جندى وتراجع عبد الرحمن بن رستم منهزما إلى اقليم تاهرت وكانت هذه الهزيمة نقطة تحول بارزة فى تاريخ قيام الدولة الرستمية التى جمعت فى قبائلها لواتة وهرارة وزواغة ومطماطة حيث كان أهل هذه القبائل فى أقاليم المغرب الشرقية فى طرابلس ونفراوة وبلاد الجريد مهد الدعوة الاباضية ولقد سهل هذا الامر سير كثير من الاباضية من تلك الاقاليم إلى ابن رستم حيث اقاموا بين بنى جلدتهم فى المغرب الاوسط [١٢] .

وقد اتخذ عبد الرحمن بن رستم مبدأ المساواة الكاملة والعدل والتسامح الدينى وغيرها من التعاليم الاسلامية التى كانت تطبق فى عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشيدين أسلوب حياة له ومن هنا نجحت تلك الدعوة التى قام بها عبد الرحمن بن رستم على نحو جاوز كل تقدير حيث كانت تلك المبادئ والاسس هى الركائز الهامة التى اعتمد عليها فى دعوته ومن هنا استجاب الكثير من سكان المغرب الاوسط لتلك الدعوة وصاروا يلتفون حوله ويرحبون بتعاليمه وأفكاره .

بل أن تلك التعاليم جذبت اليه بعض الافراد من المذاهب الاسلامية الاخرى فقد انضم اليه كثير من الخوارج الصفرية وجماعات تسمى بالواصلية هم أقرب إلى المعتزلة فى

(١٢) محمد عيسى جابر: نفس المرجع . ص ١٠٥ .

حين اعتبرهم البكرى من الاباضية [١٣] فقد كان للواصلية تجمع قريب من تاهرت وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا ورغم أن الواصلية من المعتزلة فالظاهر أن الفرقتين تحالفتا نتيجة لاخذهما بموقف الوسط بالنسبة لمرتكبى الكبائر وانه لهذا السبب اعتبر معتزلة المغرب من الاباضية بالإضافة الى ان الذى دعم موقف ابن رستم فى تلك النواحى ان أباضية المغرب فى شرق المغرب الاوسط لم يلقوا السلاح وما زالوا يناضلون فى طلب الجهاد يدافعون عن مبادئهم فى صبر وبلاء .

ولقد أدرك عبد الرحمن بن رستم أهمية استمرار النضال فى شرق المغرب الاوسط أن ذلك الذى يقوم اخوانه به فى جبال نفوسة وشرق المغرب الاوسط بصرف نظر الدولة العباسية عن الجهود الجبارة التى يقوم بها لاقامة دولة أباضية وكذلك ادركت هذه التجمعات الاباضية فى شرق المغرب الاوسط بقيادة أبى حاتم الاباضى هذه الحقيقة الهامة من أجل قيام أخوانهم فى المغرب الاوسط ببناء دولة فأخذوا يرسلون المساعدات المالية لعبد الرحمن بن رستم فكان أبو حاتم يقوم بدوره بارسال ما كان يزاداد على ما يحتاج اليه من الزكاة والعشور والاموال الزائدة عن الحاجة وذلك قبل أن تظهر الامارة الرستمية بصورة رسمية ويبدو ان الامور ظلت تسير على هذا النحو إلى أن اتسع سلطان ابن رستم على نحو دفع الجميع فى مبايعته بالامامة واعلان قيام الدولة الرستمية [١٤] .

وكان نزول الاباضية بقيادة ابن رستم وتجمعهم فى موقع مدينه تاهرت القديمة حيث يقول ابن الصغير لما نزلت طائفة الاباضية من الخوارج مدينة تاهرت وأرادوا عمارتها اجتمع رؤساؤهم وارادوا اتخاذ عاصمة لهم يديرون منها شئون دولتهم والذى يفهم من

(١٣) البكرى: مصدر سابق. ص ٦٨ .

(١٤) محمد عيسى صابر : مرجع سابق ص ١١٥ .

(١٥) ابن الصغير ، سيرة الائمة الرستمية فى تاهرت . ص ٩ .

عبارة ابن الصغير [١٥] أن تاهرت هى المدينة القديمة وان التى استحدثها ابن رستم لم تكن قد انشئت بعد، ولما كان رؤساء الاباضية يتطلعون إلى شخصية فريدة بين البربر تستحق امر الامامة بحيث لاتكون له قبيلة قوية تحميه وتدافع عنه بحيث اذا ظهر عدم صلاحيته فانه يصبح من السهل عليهم خلعه وتنحيته عن الامامة دون حدوث مشاكل تحول دون العزل بأن تدافع عنه قبيلته أو قومه [١٦] ومن هنا كان عبد الرحمن بن رستم هو تلك الشخصية التى يتطلعون اليها فقالوا هذا هو عبد الرحمن بن رستم لاقبيلة له ولا عصبية يتشرف بها ولاعشيرة له تحميه وقد كان الامام أبو الخطاب قد رضى لكم عبد الرحمن قاضيا وناظرا فقلدوه اموركم فان عدل فذلك الذى أردتم وان لم يقم العدل والقسطاط المستقيم وسار بغير العدل فانه من السهل عزله وتنحيته عن الامامة اذ لم تكن له قبيلة تمنعه ولاعشيرة تدافع عنه [١٧] .

ولقد كانت بالاضافة إلى كل هذه العوامل التى دفعت بعبد الرحمن بن رستم لتولى الامامة أمور أخرى فقد تم اختياره لفضله وكرمه وكونه من الرعيل الاول الذى نهل العلم وتعاليم المذهب الاباضى من أصوله الاصلية فى بلاد المشرق حيث البصرة بالعراق مركز الدعوة الاباضية والفكر الاباضى بالاضافة إلى أنه زميل امامهم الاول أبى الخطاب المعافرى فى الدراسة فى البصرة اضافة الى كونه قاضى طرابلس وامام القيروان وكان والى افريقية (تونس) وما والاها من الاقاليم الآخرى .

وهكذا تمت مراسم البيعية لعبد الرحمن وأعلن قيام الدولة الاباضية الجديدة بالمغرب الاوسط وأصبح عبد الرحمن بن رستم اماما لها ويختلف المؤرخون فى تاريخ مبايعة الامام عبد الرحمن بن رستم بالامارة الاباضية الرستمية فنجد أن الدرجبى

(١٦) محمد بن تاديت: دولة الرستمية. ص ١٠٨ .

(١٧) ابن الصغير: المصدر السابق ص ٩ .

والشماخى يذكران أن البيعة كانت عام ١٦٠هـ/ ٧٧٦م، الا انهما فى بعض المواقع يذكران أن البيعة كانت عام ١٦٢هـ/ ٧٨٨م ولكن التاريخ الاول قد يكون الارجح هو الصحيح ذلك لان ابن عذارى المراكشى يذكر أن تأسيس مدينة تاهرت كان عام ١٦١هـ/ ٧٧٧م والمعروف أن بناء مدينة تاهرت كان بعد الالتفاف حول ابن رستم ومبايعته بالامامة كما ذكر ذلك البكرى وابنه الصغير [١٨] .

شخصية عبد الرحمن بن رستم

عبد الرحمن بن رستم الذى تنسب اليه الدولة الرستمية تذكره بعض المصادر الروستمى، بضم الراء وسكون السين المهملة وفتح التاء المنقوطة باثنين من فوقها وفى آخرها الميم وهو اسم لبعض أجداد عبد الرحمن المنسب اليه والمشهور بهذه الانساب جماعة من أهل أصبهان قديما وحديثا وقد ذكر الطبرى فى كتابه تاريخ الرسل والملوك الاسم رستم بفتح التاء ويؤيد الطبرى والسمعانى فى ضبط النسب الرستمى على هذا النحو ابن خرداوية حيث يقول والرستمى هو ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وهو من الفرس وقد ذكر أن انتقال عبد الرحمن بن رستم الى بلاد المغرب الاوسط كان ايذانا بظهور الدولة الرستمية التى أصبحت قوة اسلامية كبرى جديدة فى تلك المنطقة من الدولة الاسلامية ومن بلاد المغرب بحيث كان لها دورها وشأنها البالغ فى توجيه حركة الاحداث بالمغرب العربى كله إلى نهاية القرن الثالث الهجرى. وقد أجمعت كل المصادر العربية والاسلامية المعاصرة والحديثة على أن مؤسس تلك الامارة الاسلامية القوية كان هو عبد الرحمن بن رستم بحيث كان مؤسسها فارسى الاصل اسلامى العقيدة العميقة عربى اللسان فصيح الخطاب طليق بليغ يجيد علوم البيان . وان اختلفت هذه المصادر فى تحديد طبيعة هذا الاصل الفارسى وجذوره التاريخية وصلته بالانساب الاسرية .

(١٨) محمد عيسى صابر: الدولة الرستمية بالمغرب ص ١١٨ .

(١٩) البكرى: مصدر سابق ص ٦٧ .

فعلى سبيل المثال نجد ان احد المؤرخين العرب والجغرافيين وهو البكرى [١٩] يذكر أن عبد الرحمن بن رستم يعود فى أصوله العرفية والاصولية إلى أصل فارسى ملكى مرتبط بأسرة الاكاسرة الفرس الساسانين أباطرة الدولة الفارسية التى حكمت فارس فترة زمنية طويلة ويذكر أن جده هو يهرام بن ذو شرار بن سابور بن بايكان بن سابور ذى الاكتاف الملك الفارسى. وتطابق تلك الاقوال ذلك ما ذكره ياقوت الحموى فى كتاب معجم البلدان [٢٠] حيث يقول جد عبد الرحمن هو بهرام بن بهرام جور بن شابور بادكان بن شابور ذى الاكتاف ملك الفرس .

أما ابن خلدون فنجد انه يذكر رواية أخرى يخالف فيها هذين الرأيين السابقين بأن يذكر أن عبد الرحمن بن رستم هو أحد أبناء رستم أمير الجيش الفارسى الذى كان يقود قواتهم وقد هزم فى موقعة القادسية حيث نجده يقول وكان عبد الرحمن بن رستم من مسلمى الفتح الاسلامى وهو من ولد رستم أمير الفرس بالقادسية .

ويذكر محمد عيسى صابر سليم فى رسالة الماجستير المقدمة منه – إلى كلية دار العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٧٥ بعنوان الدولة الرستمية بالمغرب قيامها وتطورها تعليقا على ذلك الرأى، الذى ذكره ابن خلدون فانه يذكر انه لا يعقل أن يكون عبد الرحمن بن رستم من أبناء رستم أمير جيش فارسى فى موقعة القادسية اذ أن الاقرب الى المعتاد من الاعمار يجعل فى قبول ذلك كثيرا من الشك لان رستم قائد الفرس فى القادسية قتل عام ١٦هـ/ ٦٣٧م وان عبد الرحمن مؤسس دولة الرستميين بالمغرب توفى عام ١٧١هـ/ ٧٨٧م فيكون عبد الرحمن هذا قد عمر مائة وخمسا وخمسين سنة ولم يذكر ذلك أحد من المؤرخين، أما نسبه عبد الرحمن بن رستم إلى بهرام مولى عثمان بن عفان الخليفة الراشد الثالث فليس فيه ما يفيد لان يزد جر آخر ملوك فارس كان له ابنان وهما

(٢٠) ياقوت الحموى: معجم البلدان. مادة تاهرت جـ ٢ ص ٨ .

(٢١) محمد عيسى صابر: المولة الرستمية بالمغرب ص ٦٤ .

فيروز وبهرام [٢١] .

واذا كانت جميع المصادر التاريخية تذكر ولا خلاف فى ذلك بأن عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية يعود إلى أصول فارسية لاجدال فى ذلك، الا اننا نجد المسعودى فى كتابه مروج الذهب ينفرد برواية دون جميع المؤرخين حيث يذكر لنا أن الرستميين مؤسس هذه الامارة من بقايا الاشبان حيث يقول وقد كان ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم الفارسى وهو أباضى المذهب وهو الذى أنشأ فى هذا البلد مذهب الخوارج وقيل أن الرستميين من بقايا الاشبان وقد اختلف المؤرخون فى حقيقة الاشبان فيرى المسعودى انهم من الفرس الذين انتقلوا إلى المغرب من بلاد اصبهان [٢٢] لكنه يعود فى موقع آخر فيذكر أن الرستميين ولد سودان بن كنعان الذين تناسلوا بالمغرب وعلى ذلك فانه بناء على ما ذكره المسعودى من أقوال من حيث نسب الرستميين فيحق لنا أن نساير تلك الآراء وبناء عليه يكون الرستميون من سكان المغرب الاصليين الذين كانوا يقطنون تلك الديار قبل امتداد حركة المد الاسلامى وفتحها بلاد المغرب وان كان ذلك الرأى بناء على ما ذكرناه عن اختيار عبد الرحمن للامامة يتعارض تعارضا تاما .

وان كنا نرى انه قد يكون من بقايا الفرس الذين كانوا قد احتلوا مصر ثم انساحت بعض من أسرهم إلى المغرب أو من الذين لم يهلكوا مع حملة قمبيز إلى الواحات. لكن الرأى الذى يقول بقدومه مع قوات الفتح الاسلامى هو الاقرب الى الصواب، لكن هناك رأيا آخر يحاول أن يخالف كل ما ذكر سابقا حول هذا النسب فنجد المغربى [٢٣] يحدثنا بصورة تخالف كل الآراء فيذكر لنا ان حقيقة الاشبان انهم ينسبون إلى ملك الاندلس

(٢٢) السعودى: مروج الذهب ص ١٨٦ .

(٢٣) المغربى: نفخ الطيب فى غصن الاندلس الرطيب جـ ١ ص ٢٣٤ .

أشبان ابن طيطشر الذى نسبه الى مدينة أشبلية وقد قيل أن أشبان هذا من عجم رومة أو أنه من أصبهان فارس التى ولد فيها وهذا الرأى الاخير من الرواية حول النسب نذكر أن الاشبان من الفرس وأن الرستميين بالتالى يكونون من أصل فارسى كما تعنى تلك الرواية.

وعلى هذا فلا جدال أن الاسرة الرستمية من أصل فارسى لكنها كانت عربية اللسان عميقة الايمان بالاسلام عاملة على حمل لواء لا اله الا الله محمد رسول الله فى ربوع المغرب الاوسط متمثلة بالمبادئ السمحة والنبع الخالص للاسلام .

ومن هذا فان شخصية عبد الرحمن بن رستم لا جدال فى أنها من أصول فارسية، وذلك لان حركة الفتح الاسلامى فى بلاد فارس قد أسفرت عن انتقال عدد كبير من الفرس إلى أنحاء الجزيرة العربية بعد أن وحد الاسلام بين العرب والفرس ولم تعد هناك فواصل عرفية أو لغوية أو جنسية حيث عاشت تلك الجماعات ضمن المجتمع الاسلامى تحت اسم الموالى. وكان من بين هولاء الموالى بهرام جد عبد الرحمن بن رستم، وكما تذكر بعض المصادر وهو الاقرب إلى الصواب أن بهرام هذا كان مولى عثمان بن عفان الخليفة الراشد الثالث [٢٤] .

وقد كانت اقامة بهرام بالمدينة المنورة حيث مقر الخلافة الاسلامية ولذا كان بهرام قريبا من مولاه عثمان بن عفان يأخذ عنه كل ما تمتاز به شخصية عثمان بن عفان من تقوى وورع وعلم بأمور الدين والشريعة، ولما كان بهرام لصيقا بمولاه عثمان بن عفان فانه بالتالى يتحتم على رستم بن بهرام أن يكسب من والده ومن كل ما يحيط به من مؤثرات اسلامية حيث تربى فى بيت الخلافة الاسلامية واستطاع أن ينهل من فيضها الاسلامى

(٢٤) البكرى: نفس المصدر ص ٦٧ .

(٢٥) محمد عيسى صابر: نفس المرجع ص ٦٨ .

وعلى ذلك فقد كانت المكونات الاساسية الاسلامية لشخص عبد الرحمن عن طريق ذلك الميراث الاسلامى الزاخر الذى توافر له ولوالده رستم فى بيت الخلافة ومن هنا كانت معالم الايمان والتقوى والورع صورة بارزة فى شخصية عبد الرحمن ولقد اتخذ البيت الرستمى طريقة إلى المغرب العربى ممثلا فى شخص عبد الرحمن بن رستم الذى أتاحت له الظروف أن تطأ أقدامه أرض تلك الديار حيث ستكون هذه الديار هى الفرصة الوحيدة التى تظهر عبقريته وذكاءه فى تكوين دولة رستمية، تحددت معالم قدومها الى بلاد المغرب مع مطلع قدوم قوات الفتح الاسلامى حيث كانت بداية تقدم القوات الاسلامية مع بداية الفتح فى عصر عمرو بن العاص وتنتهى تلك الطوالع الاسلامية مع قدوم موسى بن نصير للقيام بمهام انتهاء الفتح الاسلامى وضمه للدولة الاسلامية [٢٦] وتلك هى الرواية عن قدوم عبد الرحمن إلى بلاد المغرب، الا أن الشماخى فى كتابه السير يذكر أن عبد الرحمن بن رستم قد وجد منذ طفولته فى القيروان وانه من أسباب وصوله إلى تلك الديار، أن أباه رستم بن بهرام كان قد قدم لاداء فريضة الحج بالاراضى المقدسة ومعه زوجته وابنه عبد الرحمن لكن المنية عاجلته وهو يؤدى مناسك الحج ومات، فتزوجت زوجته الفارسية الاصل ومعها ابنه الصغير عبد الرحمن برجل من القيروان، فأقبل عبد الرحمن مع أمه ولم يكن عبد الرحمن حين قدم القيروان قد شب عن الطوق حيث كان لا يزال فى سن الصبى، اذ كان فى طفولته المبكرة [٢٧] .

وتشير الدلائل التاريخية المؤكدة أن عبد الرحمن بن رستم قد رحل إلى البصرة وهو فى سن الشباب حدث السن وذلك لتلقى تعاليم المذهب الاباضى حيث كان قد أتم بعض الدراسة على يد مسلمة بن سعيد الذى بادر بدوره بارساله مع جمع من زملائه إلى

(٢٦) محمد عيسى صابر: الدولة الرستمية بالمغرب ص ٧٦ .

(٢٧) الشماخى: السير ص ١٢٤ .

البصره وذلك فى أوائل القرن الثانى الهجرى، وذلك يعطى الدليل القوى على انه كان طفلا صغيرا حين انتقل من الحجاز إلى القيروان .

وعلى هذا أصبحت مدينة القيروان هى الموطن الجديد له بعد أن عاش مع والدته وزوجها فى تلك المدينة حيث ظهرت ملامح شخصيته ومواهبه الذاتية فى رحابها وبما تلقى من تعاليم اسلامية ودراسات فقهية وعلمية على أيدى فقهائها وعلمائها، فقد كانت مدينة القيروان فى تلك الوقت هى المركز الاسلامى الاول والوحيد فى كل بلاد المغرب واليها تشد الرحال للبحث والدراسة والتحصيل، وذلك لانها تقف مصدرا وحيدا يشع بالعلم والمعرفة والعرفان فى بلاد المغرب كلها [٢٨] .

وهكذا نهل عبد الرحمن وعب كل ما استطاع أن يتحصله من ثقافة عربية اسلامية بالقيروان، لكنه كان أكثر ميولا إلى دراسة تعاليم الخوارج ومحاولة فهم كل أمورها والاستماع الى ما يتصل بها من تعاليم لانها لقيت قبولا فى نفسه واستراح لكل ما يذكره العلماء والائمة عن تلك التعاليم [٢٩] بل انه بطبيعة تكوينه الشخصى المسألة حيث انه كان هادئ الطبع لكونه تربى يتيما فقد كان يرفض كل تعاليم الخوارج المتطرفة واتخذ طريقه إلى المذهب الاباضى أحد فروع المذهب الخارجى وكان ذلك بتأثير من الامام «مسلمة بن سعيد» داعية المغرب الاباضى الذى كان يجتهد فى ذلك الوقت لنشر المذهب الاباضى فى ربوع المغرب [٣٠] .

ومن الملاحظ أن عبد الرحمن بن رستم حين اعتنق المذهب الاباضى فكانه قد فاضل بينه وبين المذهب الصفرى الذى كان يدعو له فى ذلك الوقت عكرمة مولى عباس،

(٢٨) حسن محمود: الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ص ٢٦٨ .
(٢٩) ابن خلدون عيسى صابر: نفس المرجع ص ٧٨ .
(٣٠) محمد عيسى صابر: نفس المرجع ص ٧٨ .

فان ذلك المذهب كان قد تطور تطورا كبيرا من حيث بعده عن التطرف ومحاولة التقرب إلى قلوب المسلمين ومن هنا كان أكثر قربا من مذهب أهل السنة وهو من أهم الدلائل فى الاسس القوية التى شيد عليها عبد الرحمن بن رستم دولته .

وكان عبد الرحمن بن رستم لما بويع بالامامة قد رأى من حسن البصيرة أن يتخذ له ولدولته عاصمة سياسية ودينية تكون مقرا لدولته ويستطيع أن يباشر منها مهام الحكم حيث أن اختيار تلك العاصمة قد يجعلها الركيزة الكبرى التى ترتكز عليها دعائم الدولة فى أطرافها الواسعة ومن ثم كان عليه أن يوفر لهذه العاصمة كل عناصر الامن والرخاء لذا فقد استعان بأهل العلم والخبرة فى الاماكن وطبيعة الارض وتقلبات الجو وانضم اليه أيضا رؤساء العابدين والزاهدين لكى يكون لهم رأى فى اختيار المكان الملائم ليكون حاضرة دولتهم ووزع بعضا منهم فى أنحاء متفرقة من البلاد يبحثون عن مكان يصلح لبناء العاصمة حتى تم الاتفاق بينهم جميعا على أن موقع تاهرت هو أنسب الاماكن وهو على بعد خمسة أميال من تاهرت القديمة، وقد جاء اختيار موقع تاهرت وليد الظروف التى واجهت الدولة الرستمية فى مطلع تأسيسها فقد كان لموقعها مميزات ذات كفاءة عالية جعلتها تنهض بمسئولياتها على أحسن وجه فهى بعيدة عن خطر العباسيين حيث تقع فى منطقة داخلية منطوية على نفسها فى السفح الجنوبى لجبل «كزول» اذ هى تدير ظهرها للبحر وتوجه أنظارها نحو الداخل وهذا يمثل موقعا استراتيجيا لحماية دولة ناشئة ويحيط بها الاعداء من كل جانب وتقع تاهرت فى منطقة محاطة بقبائل أكثر أفرادها مشهورون بانتمائهم القوى للمذهب الاباضى [٣١] .

وقد حدد البكرى على نحو دقيق هذه القبائل وقربها من تاهرت وذكر انها لواطة وهوارة وزواغة ومطماطة وزناتة ومكناسة وغيرها من القبائل، يضاف إلى ذلك أن موقع

(٣١) محمد عيسى صابر: نفس المرجع ص ١١٨ .

تاهرت يعتبر امتدادا لبلاد الزاب وهذا يتيح للدولة الاباضية الرستمية فرصة أكبر فى امتداد الدولة واتساعها وسيطرتها على كثيرا من الاقاليم دون وجود عوائق طبيعية تحول دون ذلك التوسع والانتشار لضم العديد من الاماكن والقبائل البربرية اليها بالاضافة إلى أن تاهرت تقع وسط منطقة غنية اقتصاديا فهى تشتهر بمراعيها الواسعة وثرواتها الزراعية المتنوعة ويرجع ذلك لكثرة مصادر المياه وتنوعها فى المنطقة ولقد كان لكل هذه العوامل آثارها القوية فى تدعيم حركة النشاط الزراعى والتجارى والاقتصادى للدولة فقد اتاح هذا الموقع الجغرافى لمدينة تاهرت أن تصبح ملتقى العديد من طرق القوافل التجارية وهذا جعلها بدورها تتحول إلى مدينة تجارية هامة بين مدن المغرب الكبرى. كذلك ساعدها على ذلك انها مدينة حصينة واسعة البرية والزروع والمياه، وتقع تاهرت فى مكان يتوسط التل والصحراء وقد حقق لها ذلك السيادة على المنطقة السهوبية الشاسعة وما بها من طرق تجارية تمتد غربا إلى المغرب الاقصى وجنوبا إلى قلب افريقية عبر الصحراء الكبرى ثم هى تشرف فى موقعها هذا أيضا على الطريق المار فى منطقة التلول إلى اسفل وادى شلف المؤدى إلى البحر وبذلك الموقع أصبحت تاهرت نموذجا للحياة التجارية القوية فى بلاد المغرب، وقد كشف عبد الرحمن ابن رستم باختياره لموقع تاهرت عن المهارة الفائقة التى تحلى بها الاباضية فى اختيار المراكز الصالحة لبناء المدن وحرصهم على توفير أسباب البقاء لها اقتصاديا وسياسيا وعسكريا (٣٢) .

ويذكر البكرى ان موقع تاهرت قبل أن يتم اختياره ليكون عاصمة للدولة الرستمية فانه كان أرضا من أملاك قبيلتى مسراسة وصنهاجة وقد طلب منهم عبد الرحمن أن يبيعاه ذلك المكان لبناء مدينة سكنية عليه، ولكنهم فى بادئ الامر رفضوا قبول ذلك العرض ولكن بعد مشاورات ومباحثات قبلوا بناء تاهرت على أرضهم على انهم اتخذوا

(٣٢) البكرى: نفس المصدر . ص ٧٢ .

عليه شرطا هو أن يكون عائد أسواقها من نصيبهم يقسم بينهم وعلى الفور شرع عبد الرحمن بن رستم فى بناء المدينة .

وقد أضفى كتاب المذهب الاباضى على بناء تاهرت قصصا أشبه بقصة بناء عقبة بن نافع الفهرى لمدينة القيروان ورويت فى ذلك أساطير كثيرة، ولكن تخطيط تاهرت وفاس وغيرها من المدن بحيث يكون شكل البناء والتصميم والهندسة مساعدا على انصهار أفراد المجتمع وامتزاجهم وعدم التفرقة بين عناصرهم وكان أول عمل قام به عبد الرحمن وأعوانه ومساعدوة ومستشاروه من كبار المذهب الاباضى هو بناء المسجد الجامع بين أربع بلاطات واستعانوا فى بنائة بأخشاب الشجر وحول المسجد الجامع انتشرت الدور والقصور والبيوت والاسواق والحمامات والفنادق وقد تفنن أهل تاهرت تدريجيا فى عمارتها وتنظيمها وبعد فترة زمنيه قصيرة فانهم قاموا ببناء سور محكم مشيد من الحجر والصخور الصماء (٣٣) .

وقد اختلف المؤرخون فى بناء مدينة تاهرت فابن خلدون يجعل تاريخ تأسيسها عام ١٤٤هـ/٧٦١م أى فى نفس السنة التى فر فيها عبد الرحمن بن رستم واختطها سنة أربع وأربعين ومائة فتمدينت واتسعت الى أن ملك عبد الرحمن ناصية الامور فى البلاد، أما ابن عذارى المراكشى فيقول أن بناء مدينة تاهرت كان بعد عام ١٤٠هـ/ ٧٥٧م ثم عاد فقال فر عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب بما خف حمله من أموال ونفر قليل من أهله فاجتمعت اليه الاباضية وعزموا على بناء مدينة تجمعهم فنزلوا بموقع تاهرت أو تيهرت، وهى غيضة بين ثلاث أنهار فبنوا المسجد الجامع من أربع بلاطات واختط الناس مساكنهم حوله وذلك فى عام ١٦١هـ .

ومهما يكن من شأن هذه الآراء حول بناء العاصمة فإن الرأى المرجح والمتفق عليه

(٣٣) محمد عيسى صابر: مرجع سابق، ص ١٢٠ .

تاهرت يعتبر امتدادا لبلاد الزاب وهذا يتيح للدولة الاباضية الرستمية فرصة أكبر فى امتداد الدولة واتساعها وسيطرتها على كثيرا من الاقاليم دون وجود عوائق طبيعية تحول دون ذلك التوسع والانتشار لضم العديد من الاماكن والقبائل البربرية اليها بالاضافة إلى أن تاهرت تقع وسط منطقة غنية اقتصاديا فهى تشتهر بمراعيها الواسعة وثرواتها الزراعية المتنوعة ويرجع ذلك لكثرة مصادر المياه وتنوعها فى المنطقة ولقد كان لكل هذه العوامل آثارها القوية فى تدعيم حركة النشاط الزراعى والتجارى والاقتصادى للدولة فقد اتاح هذا الموقع الجغرافى لمدينة تاهرت أن تصبح ملتقى العديد من طرق القوافل التجارية وهذا جعلها بدورها تتحول إلى مدينة تجارية هامة بين مدن المغرب الكبرى. كذلك ساعدها على ذلك انها مدينة حصينة واسعة البرية والزروع والمياه، وتقع تاهرت فى مكان يتوسط التل والصحراء وقد حقق لها ذلك السيادة على المنطقة السهوبية الشاسعة وما بها من طرق تجارية تمتد غربا إلى المغرب الاقصى وجنوبا إلى قلب افريقية عبر الصحراء الكبرى ثم هى تشرف فى موقعها هذا أيضا على الطريق المار فى منطقة التلول إلى اسفل وادى شلف المؤدى إلى البحر وبذلك الموقع أصبحت تاهرت نموذجا للحياة التجارية القوية فى بلاد المغرب، وقد كشف عبد الرحمن ابن رستم باختياره لموقع تاهرت عن المهارة الفائقة التى تحلى بها الاباضية فى اختيار المراكز الصالحة لبناء المدن وحرصهم على توفير أسباب البقاء لها اقتصاديا وسياسيا وعسكريا [٣٢] .

ويذكر البكرى ان موقع تاهرت قبل أن يتم اختياره ليكون عاصمة للدولة الرستمية فانه كان أرضا من أملاك قبيلتى مسراسة وصنهاجة وقد طلب منهم عبد الرحمن أن يبيعاه ذلك المكان لبناء مدينة سكنية عليه، ولكنهم فى بادئ الامر رفضوا قبول ذلك العرض ولكن بعد مشاورات ومباحثات قبلوا بناء تاهرت على أرضهم على انهم اتخذوا

(٣٢) البكرى: نفس المصدر . ص ٧٢ .

عليه شرطا هو أن يكون عائد أسواقها من نصيبهم يقسم بينهم وعلى الفور شرع عبد الرحمن بن رستم فى بناء المدينة .

وقد أضفى كتاب المذهب الاباضى على بناء تاهرت قصصا أشبه بقصة بناء عقبة بن نافع الفهرى لمدينة القيروان ورويت فى ذلك أساطير كثيرة، ولكن تخطيط تاهرت وفاس وغيرها من المدن بحيث يكون شكل البناء والتصميم والهندسة مساعدا على انصهار أفراد المجتمع وامتزاجهم وعدم التفرقة بين عناصرهم وكان أول عمل قام به عبد الرحمن وأعوانه ومساعدوة ومستشاروه من كبار المذهب الاباضى هو بناء المسجد الجامع بين أربع بلاطات واستعانوا فى بنائة بأخشاب الشجر وحول المسجد الجامع انتشرت الدور والقصور والبيوت والاسواق والحمامات والفنادق وقد تفنن أهل تاهرت تدريجيا فى عمارتها وتنظيمها وبعد فترة زمنيه قصيرة فانهم قاموا ببناء سور محكم مشيد من الحجر والصخور الصماء [٣٣] .

وقد اختلف المؤرخون فى بناء مدينة تاهرت فابن خلدون يجعل تاريخ تأسيسها عام ١٤٤هـ/٧٦١م أى فى نفس السنة التى فر فيها عبد الرحمن بن رستم واختطها سنة أربع وأربعين ومائة فتمدينت واتسعت الى أن ملك عبد الرحمن ناصية الامور فى البلاد، أما ابن عذارى المراكشى فيقول أن بناء مدينة تاهرت كان بعد عام ١٤٠هـ/ ٧٥٧م ثم عاد فقال فر عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب بما خف حمله من أموال ونفر قليل من أهله فاجتمعت اليه الاباضية وعزموا على بناء مدينة تجمعهم فنزلوا بموقع تاهرت أو تيهرت، وهى غيضة بين ثلاث أنهار فبنوا المسجد الجامع من أربع بلاطات واختط الناس مساكنهم حوله وذلك فى عام ١٦١هـ .

ومهما يكن من شأن هذه الآراء حول بناء العاصمة فإن الرأى المرجح والمتفق عليه

(٣٣) محمد عيسى صابر: مرجع سابق، ص ١٢٠ .

من أغلبية المؤرخين أن بناء مدينة تاهرت كان فى عام ١٦١هـ/ ٧٧٧م ، ذلك لان أقدم نص عن بناء تاهرت عموما أورده البكرى حيث يؤكد أن بناء تاهرت كان فى أعقاب مبايعة عبد الرحمن بن رستم [٣٤] ويذكر انه بعد اتفاق الجماعة الاباضية على امامة عبد الرحمن بن رستم ومبايعتهم فانهم نزلوا موقع تاهرت وهو غيضة على خمسة أميال غربى الدلتا أى تاهرت القديمة، واذا كانت مبايعة ابن رستم بالامامة قد تمت قبل بناء تاهرت طبقا لرواية البكرى وعلى وجه التحديد عام ١٦٠هـ فانه يكون بناؤها عام ١٦١هـ ذلك لان ابن رستم لم يكن ليربط مصيره واتباعه من الاباضية والقبائل التى التفت حوله وبايعته وقدمت كل غال ونفيس فى سبيل اقامة دولته فى منطقة المغرب الاوسط، قد يكون ذلك البناء لم يتم الا بعد أن يكون عبد الرحمن قد يئس تماما من العودة إلى افريقية واستنفذ كل السبل والوسائل التى تمكن له من العودة مرة أخرى، كذلك وبعد أن يكون عبد الرحمن قد نجح فى تنظيم حملة واسعة النطاق ودعوة عريضة لنشر مبادئ وأسس وتعاليم المذهب الاباضى بين قبائل المنطقة وهذا أمر طبيعى يتطلب تنفيذه أكثر من خمسة عشر عاما أى فى الفترة من بداية الفرار وهى عام ١٤٤هـ إلى بداية البناء وهى عام ١٦١هـ .

بل انه هناك آراء تذكر أن عبد الرحمن بن رستم كان على علم وبينة من ذلك المكان ويذكر انه قد ارتاده كثير قبل أن يشرع فى البناء واتخاذه عاصمة للبلاد حيث تورد تلك الآراء انه اتخذ مكانا بالقرب من تاهرت القديمة لكى يكون معسكرا له ولجماعته من الاباضية حيث يورد لنا البكرى أن موقع تاهرت هو مكان معسكر عبد الرحمن بن رستم [٣٥] .

(٣٤) البكرى: مصدر سابق . ص ٦٨ .

(٣٥) البكرى: مصدر سابق ص ٦٨ .

ولقد كان بناء العاصمة وتأسيسها وتنظيم أحوالها بداية لظهور الدولة الاباضية الرستمية التى انتشرت أخبارها بسرعة فائقة فى أنحاء العالم الاسلامى ووصلت مسامع الخلافة العباسية وغيرها من الولايات الاسلامية الاخرى، كذلك كانت أنباء النهج الاسلامى القويم وتطبيق الشرع بصورة فعالة واقامة العدل والقسطاس المستقيم وما سادها من مساواة كل ذلك كان بفضل الدور الذى لعبه ابن رستم الذى أحسن الحكم والعدل والامامة بين الناس ، حيث جلس فى المسجد كما يقول ابن الصغير يحق الحق ويزهق الباطل ولا يخالف فى الله لومه لائم وينصف المظلوم ويقف بجوار الضعيف ليأخذ له حقه من القوى حتى صارت الاباضية علما شامخا من أعلام الاسلام فى المغرب وقصدته بعض الجماعات الاباضية من جنوب الجزيرة العربية والعراق وفارس ومصر، حيث كان يطاردهم ارهاب العباسيين [٣٦] .

دور اباضية المشرق فى مساعدة الامامة الرستمية :

لم يكن رحيل علماء الاباضية ورجالها من جنوب الجزيرة العربية (عمان واليمن) والعراق ومصر وفارس للانضمام الى اخوانهم فى تاهرت بالمغرب الاوسط يمثل الا دورا من الادوار التى يجب أن يلعبها اباضية العالم الاسلامى فى مساندة الدولة الغنية الناشئة، بل أكثر من ذلك فانه وقع دور هام على الذين لم يستطيعوا الرحيل الى امارة تاهرت فكان عليهم عملا بقوله تعالى (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله) الا ان يقرروا فيما بينهم التبرع بالاموال وجمعها بكميات كبيرة ما دام لم يستطيعوا أن يجاهدوا بأنفسهم مع دعم أخوانهم اباضية المغرب فما كان من أباضية البصرة المركز الاول للاباضية فى العالم الاسلامى الا أن جمعوا أموالا كثيرة خرجت من البصرة مع نفر من ثقاة الاباضية الذين تلتف حولهم الآراء فى أنهم أهل لحمل الامانة وكان اخوانهم قد ذكروا لهم فى البصرة،

(٣٦) ابن الصغير: مسيرة الائمة الرستميين فى تاهرت ص ١١ .

انه ظهرت بالمغرب الاوسط دولة اباضية وامارة رستمية تعمل لنشر المذهب الاباضى على نطاق واسع وان امامها يملأ الدينا عدلا ويقيم دولة مبدؤها الكتاب والسنة والمساواة وانه بعد أن ملك المغرب فلابد أنه سوف يأتى عليه يوم يملك فيه المشرق فلابد من مساعدته [٣٧] .

وانه سوف يقيم العدل فى المشرق كما أقامة فى المغرب وسوف يسود المذهب الاباضى أرجاء العالم الاسلامى مادام قد توطدت دعائم دولته فى المغرب الاوسط، فانه يجب النهوض اليهم ومساعدتهم بكل ما يملك أباضية المشرق من أموال وبعد أن جهزوا جهازهم أمروهم بالسير إلى تاهرت العاصمة التى يسكنها الامام فان وجدوا ما أشيع عنه من العدل والمساواة والتكافل الاسلامى وان كل ما نقل عنه من حسن ادارته للامور وصحة سيرته فانه فى تلك الحالة لابد من دفع كل هذه الامور اليه لكى يشتد بها أزره ويقوى عوده وتستطيع دولته أن تصمد أمام الاحداث الجسام وتقاوم تيار العباسيين والامويين فى الاندلس وتكون ندا لكل الدول المعاصرة وان كان على عكس ما أشيع عنه فانه يجب القبض على الاموال والعودة بها كلها [٣٨] .

ومن هنا كان توجيه أئمة الاباضية إلى هؤلاء الثقاة واضحا كل الوضوح فى تنفيذ المهام الموكولة اليهم، ووصل وفد البصرة إلى تاهرت ودخلها من باب الصفا ووصلوا الى الامام فوجدوه قد أقام شرع الله فى أرض الله وملأ دولته عدلا واحسانا ومساواة وانه كان يحكم عن طريق مجلس الشورى الذى كان يضم رؤساء القبائل لكى يبحث كل أمور الامامة ومنها كذلك بحث كيفية التصرف فى الاموال التى قدمها أباضية البصرة مساعدة لهم، وهكذا عقد فى المسجد مجلس الشورى وقرر قبول المعونة وأنسب الطرق لانفاقها

(٣٧) سعد زغلول عبد الحميد: المغرب الكبير ص ٣٨٧ .

(٣٨) ابن الصغير: مصدر سابق. ص ١١ .

وكيفية توزيعها والاستفادة منها وكان لهذا العون والمساندة التى دفع بها أباضية المشرق الاثر الاكبر فى تقدم وازدهار الدولة الرستمية وتطورها العلمى والحضارى والاقتصادى والعسكرى، فقد أمنت الدولة على نفسها بما اشتروا من سلاح وعدة وخيل وشرعوا فى البناء والعمارة [٣٩] .

بل ان أباضية المشرق وبصفة خاصة أباضية البصرة لم يكتفوا بما قدموا من أموال كثيرة فى هذه المرة، بل انه لم يمض ثلاث سنوات على قبول تلك المعونة المادية حتى وصلت إلى عاصمة الامامة تاهرت قافلة أخرى تتكون من عشرة أحمال من الاموال لكى يتم التصرف فيها بمعرفة الامام عبد الرحمن بن رستم ومجلس الشورى [٤٠] لكن وفد أباضية المشرق والذى كان هو نفس الوفد السابق قد بهرته الصورة والوضع الذى صارت فيه دولة الرستميين اذ وجدوا أن الامامة والدولة فى هذه الفترة القصيرة قد خطت خطوات سريعة وواسعة فى مضمار الحضارة والتقدم والرقى الثقافى والعمرانى وفن البناء، فانتشرت القصور وازدهرت البساتين بعد أن كثر غرسها فى أنحاء كثيرة من البلاد وازدهرت الحالة الاقتصادية وظهرت آثار الغنى والثروة على أهلها فى حسن استخدام أحسن الوسائل العصرية فى الملبس والمأكل والمبلس ولمس الوفد مظاهر هذا التغير الحضارى واجتمع الوفد بعبد الرحمن بن رستم ومجلس الشورى فى المسجد بعد صلاة الظهر وكان رأى الامام ابن رستم هذه المرة أن دولته لم تعد فى مسيس الحاجة إلى هذه الاموال بعد أن تطور حالها وتقدم اقتصادها وسادها الامن والامان والهدوء والاستقرار وانه لابد من اعادة الاموال إلى مصادرها الاولى بالبصرة لانهم فى بلد يغلب عليه الجور والتعسف والظلم ويخضعون لظروف المطاردة من بنى العباس وانهم بهذه الاموال يشتد عودهم وكان عبد الرحمن بن رستم لم يكتف بما تحقق من استقلال أهل المذهب فى تاهرت وأعمالها بل كان يطمع

(٣٩) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ٩٤ .

(٤٠) ابن الصغير: الصدر السابق ص ٢٧ .

إلى تحرير الجماعات الاباضية فى المشرق من ظلم العباسيين والى انتشار المذهب الاباضى فى كل دولة الخلافة العباسية [٤١] .

وقد أشار كتاب ومؤرخو الاباضية فى أقوالهم إلى اعتراف كل أباضى فى الدولة الاسلامية بأمانته وانهم داوموا الاتصال به وكاتبوه ووصلوه بوصايهم، بل أن «ابن الصغير» يذكر أن أباضية المشرق فى البصرة وأنحاء العراق وجنوب الجزيرة العربية ومصر وفارس قد اعتبروا ان امامة عبد الرحمن بن رستم قد أصبحت فرضا عليهم منذ رد الاموال السابق ارسالها له اليهم لكى يتقوا بها ظلم العباسيين ومن ذلك فقد رغب القوم فى امامته ورأوا انها فرض عليهم ويقول «الدرجينى» وأقر الاباضية بامامته وواصلوه بكتبهم فكانت تاهرت فى نظرهم درع الاباضية وحصنها المنيع وحرزا لجماعة أهل الدعوة وسميت المدينة باسم المعسكر المبارك، بل أن عدل عبد الرحمن بن رستم وما ساد الدولة من الامن والرخاء لم ينعم به أهل الاباضية فى تاهرت وحدها، بل استفاد منه أباضية البلدان الاخرى، بل جذب اليه أيضا التجار وأصحاب رؤوى الاموال الذين قصدوا تاهرت ووصلوا لها من مصر وبلاد الشام والعراق وافريقية (تونس) وسائر بلاد المغرب الاخرى [٤٢] .

الدولة الرستمية فى ظل امامة عبد الرحمن بن رستم

لقد حقق عبد الرحمن بن رستم فى فترة زمنية قصيرة نجاح ايما نجاح. اذ اصبح بما أقامه فى دولته مثلا لنظام حكم مثالى حيث طبق فى حكمه مبادئ الاسلام السمحة وأقام قواعد الدين الاسلامى وأصبح ملتزما بها أشد الالتزام فالاباضية سواء فى المشرق أو المغرب (افريقية) لم يجدوا من خلفاء بنى العباسى فى بغداد على الرغم من كل الشعارات التى رفعوها بتمسكهم بالنسب إلى البيت النبوى وبنى هاشم وانهم اتخذوا نبى

(٤١) سعد زغلول عبد الحميد: المغرب الكبير. ص ٣٨٧ .

(٤٢) سعد زغلول عبد الحميد: مرجع سابق ص ٣٨٧ .

الاسلام المثل الاعلى للحكم الا ان الاباضية الخوارج بصفة خاصة وغيرهم من طوائف المذاهب الاسلامية الاخرى قد نفروا أشد النفور ورفضوا كل الرفض انغماس هؤلاء الخلفاء فى مظاهر الترف الفارسى وتقليد الابهة والبلاط الفارسى الذى يتعارض كل التعارض مع المبادئ الاسلامية وأسس الحكم التى أقام عليها رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون نظام حكمهم ومن هنا كان البعد عنهم والاتجاه الى الدولة الاباضية فى المغرب الاوسط يحاول المسلمون الحصول على أدنى معلومات عن طريقة الحكم وكيف ان امام هذه الدولة لم يكن يملك من متاع الدنيا الا حصيرا فوقه جلد غنم وليس فى بيته سوى وسادته التى ينام عليها وسيفه ورمحه وفرسه مربوط فى ناحية من داره، بخلاف ما كان عليه حال خلفاء بنى العباسى وقبلهم خلفاء بنى أمية [٤٣] .

وقد شرح ابن الصغير المالكى الذى عاصر الرستميين ملامح هذا الحكم المثالى الاسلامى فى الدولة الرستمية على نحو تفضيلى فقال عنها فقضاته ممتازه وعادلة، ثم العدل وبيوت أمواله تملؤها بالاموال الوفيرة الكثيرة وأصحاب شرطته والطائفون به قائمون بما يجب وان الامام يعمل لما فيه صالح المسلمين، ومن هنا كان عبد الرحمن بن رستم رجل ادارة على النحو المثالى الذى أشاع العدل فى دولته، فانه كان رجل سياسة من طراز فريد، فلم تنحصر أفكاره السياسية داخل حدود دولته بل نظر إلى خارج هذه الدولة محاولا أن يكسب لها كل دواعى الامن والاستقرار فاتجه عبد الرحمن بن رستم بنظره الى الجنوب الغربى نحو امارة سجلماسة عاصمة بنى مدرار واقام علاقة مصاهرة قوية بينه وبين «السبع بن أبى القاسم» الذى تولى أمر الصفرية فى سجلماسة عام ١٧٠هـ/٧٨٦م [٤٤] ويعتبر السبع هذا المؤسس الحقيقى لدولة بنى مدرار فى سجلماسة عاصمة بنى مدرار وكان حاكمها هو الذى تولى أمر فرقة الخوارج الصفرية، فتزوجت أروى بنت عبد الرحمن بن

(٤٣) الباردنى: الازهاء الرياضية جـ ٢ ص ٩٤ .

(٤٤) ابن عذارى المراكشى: البيان المغرب فى أخبار المغرب جـ ١ ص ١٥٧ .

رستم مدرار بن السبع وكان لهذا الزواج أثره القوى فى تأمين الحدود الجنوبية الغربية للدولة الرستمية وفى دعم علاقات حسن الجوار بين البلدين وقد ذهب عبد الرحمن بن رستم إلى أبعد الحدود حيث رغب فى تقوية فرص السلام مع أعداء دولته وهو الوالى العباسى فى القيروان «روح بن حاتم» فكاتبه عبد الرحمن بن رستم يطلب موادعته، ويبدو أن معاهدة سلام قد عقدت بين الطرفين عام ١٧١هـ/ ٧٨٧م وقد كانت شروطها غير معروفة وقد أشار ابن خلدون الى أحداث هذه الموادعة بقوله ورغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت عام ١٧١هـ فى موادعة صاحب القيروان «روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلبى» بقوله وكان لهذه الاتفاقية أهميتها اذ حرص روح بن حاتم على تجديدها بعد وفاة عبد الرحمن بن رستم ويقول ابن خلدون فى فى هذا المضمار أيضا ورغب روح بن حاتم فى موادعة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وكان من الاهمية موادعته فوادعه (٤٥) .

واستطاع الامير عبد الرحمن بن رستم بذلك أن يحقق حالة من الاستقرار السياسى بين دولته الناشئة وبين سائر القوى الاسلامية الأخرى فى بلاد المغرب فكان لذلك أثره القوى فى تدعيم أوتاد دولة بنى رستم فأصبحت دولة قوية هابها جيرانها وهاجر اليها الكثير من أهل المشرق والمغرب والاندلس كما قصدها العلماء والتجار وفقهاء المذهب الاباضى ورجال الصناعة والحرف والفن وأرباب المهن المختلفة من كل مكان فكان لذلك أثره القوى فى ازدهار الدولة وتطور اقتصادها ونمت تجارتها وازداد اتساع مواردها الاقتصادية، لذا فقد نعم المغرب الاوسط فى عهد عبد الرحمن بن رستم بالهدوء والامن والاستقرار وهى أمور لم يعرفها من قبل .

ويبدو أن عبد الرحمن قد اصيب بمرض أحس منه بدنو أجله فأراد أن يفتدى

(٤٥) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٠٨ .

بالخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب بشأن التوصية بالامامة من بعده فجعل الامامة شورى بين سبعة أفراد من رجال الدولة الرستمية يتوسم فيهم التقوى والاصلاح والعلم والتدين والورع والزهد وهؤلاء السبعة هم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، مسعود الاندلسى، أبو قدامه بن يزيد بن قندين اليغرنى، عمر بن مروان الاندلسى، أبو الموفق سعدوس موسى بن عطية، شكر بن صالح الكتامى، مصعب بن سدمان، وأوصى عبد الرحمن بن رستم هؤلاء بالبيعة والاجتماع والتشاور فيما بينهم لاختيار امام من بينهم وتوفى عبد الرحمن بن رستم عام ١٧١هـ/ ٧٨٧م (٤٦) .

وهكذا انتهت فترة حكم عبد الرحمن بن رستم التى بدأت منذ عام ١٦١هـ/ ١٧١هـ والتى استمرت عشر سنوات وطد فيها دعائم الدولة والامامة وتركها قوية، بعد أن كان قد قضى الفترة من عام ١٤٤هـ/ ١٦١هـ أى ما يزيد عن ستة عشر عاما وهو يجمع القبائل حوله والاعوان لمناصرته ونشر المذهب الاباضى فى كل بقاع يحل بها حتى اذا ما أحس أن الدعوة قد بدأت تؤتى ثمارها وانه قادر بما حوله أن يقيم دولة كان له اعلان قيامها وهكذا كان عبد الرحمن بن رستم مؤسس أول دولة أباضية خارجية فى العالم الاسلامى يكتب لها البقاء أكبر فترة زمنية بل تستطيع أن تصمد فى وجه التحديات والمحن وتقوى على كل أنواع المكايد وتحتفظ باستقلالها وسط الصراعات القوية بين (الادارسة والاغالبة العباسيين) الامويين فى الاندلس (٤٧) .

(٤٦) الدرجينى: طبقات الاباضية ورقة ٢٠ .

(٤٧) احسان محمد عبد الله: الدولة الرستمية فى تاهرت (رسالة ماجستير غير منشورة) ص ٢٨ .

الباب الثالث

جيل الابناء وازدهار الدولة

الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم

(١٧١- ٢١١هـ- ٧٨٧- ٨٢٦م)

توفى الامام عبد الرحمن بن رستم بعد أن كان قد ترك وصية يوصى فيها بأن يتم اختيار الامام الذى يخلفه من بين السبعة أشخاص الذين رشحهم وكان من بين هؤلاء بطبيعة الحال ابنه عبد الوهاب الذى كان ملاصقا وملازما لوالده منذ أن كان واليا على القيروان، لكن الفترة التى أعقبت وفاته تعتبر من أحرج الفترات التاريخية فى تاريخ دولة بنى رستم، ذلك لان السبعة أشخاص الذين رشحهم الامام عبد الرحمن لم يستطيعوا فى فترة زمنية قصيرة أن ينتهوا من أعمالهم فى اختيار الشخص الذى يخلف عبد الرحمن أو يتفقوا عليه بناء على ما كلفهم به الامام الراحل عبد الرحمن بن رستم فقد طالت اجتماعاتهم وكانت كل مرة تنقضى دون الاتفاق على شخص واحد أو شخصين بل أن اجتماعاتهم استمرت أكثر من شهر دون أن يتخذ قرار فى هذا الشأن وطالت اجتماعات القوم، بل أنه أكثر من ذلك فان كل منهم كان يظهر عزوفه عن تولى منصب الامامة كما يقول الشماخى فى مخطوطه طبقات الاباضية، ولكن فى نهاية المطاف وبعد طول حوار وجدال ومناقشة جمعوا أمرهم على اختيار أحد الاثنين وهما اما الابن عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم أو مسعود الاندلسى، ولقد كان هناك شبه اجماع على اختيار مسعود الاندلسى لكى يكون خلفا لعبد الرحمن بن رستم بل أن العامة كان هدفهم توليته أيضا دون وراثة لان الفكر الاباضى يرفض مبدأ الوراثة فى توليه الامامة ، بالاضافة إلى أن مسعود الاندلسى كان أغزرعلما وأكثر تفقها فى أمور المذهب الاباضى من عبد

الوهاب الذى كانت قد اجتمعت حوله الآراء أيضا [١] .

لكن قد حدثت ظروف طارئة جعلت مسعود الاندلسى يختفى يوم تحديد البيعة وأخذها له وذلك زهدا منه فى تولى هذا المنصب الخطير مع العلم بأن المذهب الاباضى كان ينادى بمبدأ الشورى فى اختيار الامام ولما كان هناك اجماع على توليته فان اختفاءه عن الانظار يشكل موقع حساسية فى منصب الامامة، وقد أعطى ذلك فرصة طيبة لكى يتولى عبد الوهاب بن عبد الرحمن الامامة لانه كان الشخصية الثانية بعد مسعود الاندلسى فى نظر الجميع يضاف إلى ذلك أنه كان يتمتع بأنصار أقوياء حوله يدعمون موقفه فى هذه المعركة الانتخابية فقد انحازت قبيلة زناتة إلى عبد الوهاب [٢] ، ولكن حدث جدل عنيف فى أثناء البيعة فقد قام « أبو قدامة يزيد بن قندين» خطيبا وقال انا نقدم لك بيعتنا يا عبد الوهاب على شرط واحد وهو الا تقطع أمرا دون اتفاق جماعة معلومة معك عليه، وكان أبو قدامة يطمع من وراء ذلك أن يكون أحد أفراد هذه الجماعة بعد أن فشل فى الحصول على منصب الامامة، وقد بايعه الآخرون الستة ثم تتابع باقى الحاضرين ثم بايعه المسلمون الاباضية الحاضرون بعد ذلك بيعة عامة حملوه بعدها إلى دار الامامة فى موكب حافل امتلأت به طرقات تاهرت وهكذا تمت البيعة لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بموافقة الجميع حتى هؤلاء الذين أرادوا وضع شروط للامامة[٣]

وكان عام ١٧١هـ/ ٧٨٧م هو عام توليه عبد الوهاب لمنصب الامامة وكان عمره آنذاك قد وصل إلى الثانية والخمسين من عمره أى أنه سنه كانت احدى وعشرين عاما منذ أن تولى والده قاضى طرابلس وامام القيروان ومنذ تلك الفترة وهو ملاصق لوالده، بل

(١) الدرجيني: طبقات الاباضية. ورقة ٢١ .

(٢) الباردني: الازهار الرياضية جـ ٢ ص ١٠٠ .

(٣) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ٩٨ .

يقال انه كان العامل الوحيد فى انقاذ والده عند كبأ به فرسه ووصوله إلى بلاد المغرب الاوسط حيث جبل سوفيج، وهكذا كانت أغلب سنى عمره قد مضيت إلى جانب والده عبد الرحمن ورغم أن المصادر لم تذكر الكثير عن تفاصيل حياة عبد الوهاب قبل تولية منصب الامامة، الا انه طوال هذه الاعوام فانه كان إلى جانب والده فى كل هذه الجهود المبذولة لاقامة كيان الدولة، بل انه بذل جهودا حربية وسياسية فائقة لتأسيس دولة الاباضية حيث كان الساعد الايمن لبناء دوة الاباضية وانه عاش مع والده عبد الرحمن بن رستم عندما فر من القيروان أيام ولايته عليها من قبل أبى الخطاب المعافرى، ومما يؤيد ذلك ويدعمه أن عبد الرحمن بن رستم عندما فر من القيروان إلى المغرب الاوسط لم يكن معه غير ولده عبد الوهاب، وقد ضرب عبد الوهاب فى أثناء تلك الرحلة الشاقة المضنية مثلا رائعا فى القوة والشجاعة للمحافظة على والده عبد الرحمن حتى وصل ذلك الموكب الصغير إلى سفح جبل سوفحج وكان عبد الوهاب من بين الذين تم حصارهم فى الجبل وذاقوا مرارة الحصار وأعبائه، وجمع عبد الوهاب من كل هذه السنين خبرة واسعة بفنون السياسة والحرب والادارة وكيفية التعامل مع الظروف الطارئة والقدرة على ساسة الرعية والحفاظ على خط الاتصال الدائم معهم، كما أنه اكتسب من والده الشخصية والعزيمة والارادة الحديدية والشكيمة الصلبة فهو شخصية صقلتها وطورتها الاحداث حتى اذا جاء دورها انطلقت تساهم فى صنع هذه الاحداث التى تنتظره لقيادة الدولة [٤] .

وهكذا كانت كل هذه الصفات الشخصية لعبد الوهاب دافعا قويا لكى يساهم من خلالها فى صنع الاحداث على نحو هو أحسن ما يقبل منها وقد تمتع بتفوق على سائر أقرانه واحتل مكانة علمية تكون رصيدها الهائل لديه عن طريق معلميه والذين كان أولهم والده عبد الرحمن بن رستم والثانى أبو دواد القبلى، يضاف الى ذلك انه يتمتع ببعض

(٤) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٠٢ .

الصفات الجسمية التى تكسب صاحبها الهيبة بين نظائره وتضفى عليه الكثير من قوة الشخصية، فقد كان ضخما ممتد القامة فقد ذكر أبو زكريا [٥] كان لعبد الوهاب بن رستم له مصلى بتلالت وفى موضع من المصلى يحتفظ بمركزه كلمام يقود دفه الاحداث فى الدولة الرستمية التى كانت الجبهة الداخلية فيها تغلى بالاحداث، وانه كان له بالمسجد بلاطة يتكئ عليها لالقاء دروسه ، بل أن عبد الوهاب بفضل هذه المميزات الشخصية المتعددة استطاع أن يقود البلاد إلى شاطئ الامان وأن يتفرغ عبد الوهاب لتأمين هذه الجبهة الداخلية فى دولته .

ولقد كان دبلوماسيا وسياسيا من من الطراز الاول اذ انه ما أن أمسك بزمام الامر فى دولته حتى انه رأى بنظرة ثاقبة أن يجدد فورا وبسرعة اتفاقية الموادعة التى تمت بين والده عبد الرحمن بن رستم وبين «روح بن حاتم بن قبيصة المهلبى» أمير القيروان، والتى رغب روح بن حاتم نفسه فى استمرارها .

كما أن عبد الوهاب قام بتأمين الجبهة الداخلية عندما حدثت ثورة جماعة النكار التى تزعمها أبو قدامة يزيد بن قندين، الذى كان أحد المرشحين السبعة الذين اختارهم عبد الرحمن بن رستم لمنصب الامامة وهو الذى كان يتولى تيار المعارضة لامامة عبد الوهاب وذلك عام ١٧١هـ/ ٧٨٧م [٦] وهى السنة التى تولى فيها عبد الوهاب منصب الامامة برضى الخاصة والعامة ولكن يزيد أثار موجه من النزاع مع الامام حيث أن يزيد بن قندين هذا كان ينتمى إلى قبيلة بنى يقرن وهى فرع من قبيلة زناتة التربة، وهناك من يرجع أسباب ثورة الانكار التى فشل يزيد بن قندين واخفاقه فى الوصول إلى منصب الامامةرغم أن ابن رستم جعله من بين المرشحين السبعة لهذه البيعة والمنصب كامام

(٥) أبو زكريا: السيرة وأخبار الائمة. ورقة ١٥– ٩ .

(٦) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٠٤ .

للاباضية، بل انه من دوافع قيام أبو قدامة يزيد بن قندين بالثورة أن الامام عبد الوهاب لم يسند اليه بعد توليه الامامة أى منصب من مناصب الدولة التى كان يزيد يتطلع إلى توليتها كذلك مما ساعد أبا قدامة يزيد بن فندين على القيام بالتحريض على الثورة تلك الخلافات التى ظهرت فى مطلع عهد عبد الوهاب والتى ترجع إلى أن بعض زعماء الاباضية راعهم تحول الامامة الاباضية إلى ملك وراثى فى أبناء عبد الرحمن بن رستم وهذا يتعارض تعارضا تاما مع الفكر الاباضى الذى يقوم على أساس أن يتولى الامامة مسلم ولو كان عبدا حبشيا (٧) .

ولكن الذى يبدو أن سياسة الامام عبد الوهاب ومبادئه الصارمة فى الحكم وتمسكه بها إلى درجة التشدد واقتناعه بأن يعهد بالمناصب إلى أهل الثقة ومن لا يكون مقبلا عليها ويبعد عن تلك المناصب الطامعين فيها وهو الامر الذى كان من الاسباب القوية التى أثارت سخط أصحاب المطامع وقد أوضح الدرجيبى (٨) هذه الحقيقة حين قال أن عبد الوهاب استعان على ما قلده الله من أمور المسلمين بأهل العلم والبصائر والتعمق فى الدين، وقد عملت هذه السياسة على اتساع الهوة بين عبد الوهاب وبين الطامعين فى السلطان وخاصة «يزيد بن قندين» الذى نهض مشيرا للفتنة بالعاصمة تاهرت وقد جمع حوله أنصاره والمؤيدين له وقد استطاع بشتى الوسائل والطرق اقناعهم بوجهة نظره. فأشاع بين الرعية أن عمال الامام عبد الوهاب ليسوا على قدر من الكفاءة والدراية لتدبير شئون الدولة وانه هو واتباعه أولى بهذه المناصب، بل أعلن صراحة انكاره لامامة عبد الوهاب لانها تمت بطريقة تخالف مبادئ الاباضية فى وراثة الامامة وأعلن فساد البيعة من مبدئها بدعوى أن فى المسلمين من هو أكثر منه علما وأصلح لقيادة الدولة الاباضية التى تتعارض أسس قيامها عن مبدأ الوراثة ومن هنا فانه يجب اقصاء عبد الوهاب عن الامامة لان طريقة

(٧) محمود اسماعيل عبد الرازق: الحركات السرية فى الاسلام . ص ٢٦ .

(٨) الدرجينى: مصدر سابق ورقة ٢٨ .

اختياره لا تتواءم مع مبادئ الاباضية واعلانه جهارا على الملأ فساد البيعة من مبدئها .

ولقد أدى تطور تلك الشعارات التى وقعت فى العاصمة تاهرت وأثارها أبو قدامة يزيد الى حدوث أنقسام مذهبى خطير داخل الجماعة الاباضية فى المغرب الاوسط فأصبح هناك «النكار» وهم فرقة انفصلت عن الاباضية وصار هؤلاء القوم هم اتباع يزيد بن قندين الذين أنكروا امامة عبد الوهاب، أما بقية جمهور الاباضية بالمغرب الاوسط وهم مؤيدى عبد الوهاب بن رستم، فسموا بالوهبية نسبة إلى الامام عبد الوهاب، وكان على النكار فى تلك الحالة انعزال مجتمع تاهرت بحيث أصبح لهم مكان خاص بهم خارج تاهرت عرف «بكدية النكار» بل ان الدرجيبى أطلق عليهم الشقين لانهم أدخلوا شعبا فى الاسلام (٩) .

وتذكر الروايات التاريخية أن النكار بقيادة زعيمهم أبى قدامة يزيد ابن قندين قد حاصروا العاصمة تاهرت عندما كان عبد الوهاب يقوم بمهمه خارج العاصمة، لكن ابنه أفلح بن عبد الوهاب استطاع قتل زعيم النكارية على باب العاصمة ومنعه من دخولها وتم القضاء على الفتنة .

وقد بلغ عدد القتلى اثنى عشر ألفا وجد الامام عبد الوهاب بن رستم أكثرهم ملقى متعفنا عند باب تاهرت عند عودته عندما علم بتلك الاحداث فصلى عليهم جميعا رغبة منه فى اجتماع كلمة المسلمين فى دولته، لكن تلك المعركة التى خسر فيها النكارية معظم رجالهم لم توقف أعمالهم عند هذا الحد، فقد قتلوا ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ومثلوا بجثته، ولقد أرسل عبد الوهاب فى طلب الجناة فرفضوا الامتثال للاوامر والحضور للعاصمة فأرسل اليهم جيشا بقيادة ابن ابنه ميمون القتيل، استطاع أن يقتل الجناة الذين قتلوا والده وقتل من النكار عددا كبيرا فضعف أمرهم ولم تعد لهم تلك

(٩) احسان محمد عبد الله: مرجع سابق. ص ٤٢ .

الخطورة التى تهدد مركز عبد الوهاب، الا أن الذى يلاحظ أن حركة النكار خلقت وضعا سياسيا واجتماعيا ودينيا جديدا فى الدولة الرستمية، فقد أعطت حركة النكار فرصة لكى تطفو كجماعه دينية تعيش فى داخل حدود دولة تاهرت لكى تظهر على سطح الاحداث وتدخل فى صدام مع الدولة تلك هى جماعة الواصلية إحدى فروع المعتزلة من أهل المغرب. وقد قامت تلك الفرقة لما رأت ما قامت به النكارية من ثورة فى وجه عبد الوهاب بمناقشة موضوع الامامة وما تم فى اختيارها والاساليب الشرعية فى كيفية الاختيار وناقشوا فيما بينهم مسألة الامامة فى الدولة الرستمية باعتبارهم من رعايا الدولة، وقد دفع ذلك لان ينضم بقايا النكارية الذين شردهم «أفلح بن عبد الوهاب» بالانضمام إلى الواصلية فى حركتهم التى ترى عدم أحقبة عبد الوهاب بالامامة وعدم شرعيته ومن هنا أصبحت حركة الواصلية المشكلة الثانية التى تهدد الجبهة الداخلية فى الدولة الرستمية بعد ثورة النكارية، ومن هنا كان الواجب يحتم على عبد الوهاب أن يعالج الامور بأقصى سرعة وأن يحافظ على وحدة الدولة الرستمية والجبهة الداخلية قوية متماسكة، وذلك بعد أن كانت جماعة الواصلية تؤلف حزبا قويا فى الدولة الرستمية .

أحداث الواصلية فى عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم :

ينسب الواصلية إلى واصل بن عطاء العزال رأس المعتزلة وكان عددهم عند قيامهم بالثورة ضد عبد الوهاب يقدر بثلاثين ألف مقاتل وقد انتشر مذهبهم إلى الشمال من تاهرت ما بين مدينة مسنغانم ووهران إلى الجنوب من تاهرت فى «تبلغت» وفى بعض المناطق الصحراوية من وادى (تيراب) كما انتشرت هذه الجماعة من الواصلية أيضا وباعداد كبيرة فى شمال المغرب الاقصى فى «وليلى» وكان رئيسهم هناك هو «اسحاق بن محمد الاوربى» وكانت هذه الجماعة تتمتع بقدر كبير من الحرية الفكرية فى ظل الدولة الرستمية فاستطاعوا فى ظل حكم عبد الرحمن بن رستم ومن بعده ابنه وما واجهوه من

ظروف ملائمة أن يدعوا لمذهبهم وأن يناظروا من يريدون حتى ولو كان امام الدولة نفسه، وترجع أسباب ثورة الواصلية على نطاق واسع فى الدولة الرستمية إلى انهم غضبوا لقتل أبى قدامة يزيد بن قندين، باعتباره من قبيلة بنى يقرن التى هى فرع من زناتة التى ينتمى اليها معظم الواصلية. ويؤكد ذلك التفاف النكارية حول زعيم الواصلية وتأييده لثورتهم لاسيما انهم ادعوا ظاهريا أن السبب الرئيسى لثورتهم هو مقتل أبى قدامة يزيد، وقد انضم بقايا النكارية الموجودون فى شمال تاهرت إلى اخوانهم الواصلية .

لكن كل ذلك لم يكن السبب الوحيد لثورة الواصلية على الامام عبد الوهاب، فقد كانت هناك مؤثرات خارجية دفعت الواصلية إلى الثورة وتظهر هذه المؤثرات واضحة عندما اتجه الامام ادريس بن عبد الله الاكبر بجيوشه نحو تلمسان عام ١٧٣هـ/ ٧٨٩م. وهى اذ ذاك قاعدة المغرب الاوسط وبها من القبائل مغراوة وبنى يقرن وتمكن ادريس بن عبد الله الاكبر من اخضاع أميرها «محمد بن خزر بن صولات المغراوى» الذى طلب من ادريس الاكبر الامان واعترف بامامته وقد قام أمراء تلمسان الادارسة التابعون لها من مغراوة وبنى يقرن بعد خضوعهم لسلطان الادارسة بمحاولات لضم أجزاء من الدولة الرستمية إلى دولة الادارسة التابعين لها [١٠] وقد تكاتفت الجهود فى هذا الشأن مع زعيم الواصلية فى المغرب الاقصى «اسحاق ابن عبد الحميد الاوربى لاثارة ثورة الواصلية بالمغرب الاوسط وجاء مقتل أبى قدامة يزيد بن قندين فرصة لتدخل الواصلية واثارة الجدل مرة ثانية حول امامة عبد الرحمن بن رستم .

بل أن الامر لم يقف عند هذا الحد بل حشدوا جيشا عظيما اقترب من مدينة تاهرت العاصمة ودارت بين الطرفين معارك كانت الحرب فيها سجالا بين الطرفين وفى ضوء هذه الاحداث كانت محاولة الادارسة تشجيع الواصلية القضاء على كيان الدولة والتعهد

(١٠) حسن على حسن : دولة الادارسة بالمغرب (رسالة ماجستير غير منشورة) ص ٧٢ .

بالمساندة عند طلب المساعدة .

دور اباضية جبل نفوسة فى القضاء على الفتنة :

انه فى ضوء الاحداث التى تمر بها الدولة الاباضية فى تاهرت، فأن عبد الوهاب رأى أن يطلب المساعدة من اخوانه أباضية جبل نفوسة حيث كان هؤلاء الاباضية هم الدرع الواقى للدولة الرستمية وكان أباضية نفوسة يتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتى عن نفوذ الدولة العباسية منذ زمن عبد الرحمن بن رستم وفى عهد ابنه عبد الوهاب ازدادت الصلات بينه وبين أباضية هذا الجبل قوة ورسوخا بما كان بينهم من وشائج الصلات والعلاقات الوثيقة .

وتذكر المصادر التاريخية أن عبد الوهاب طلب من سكان جبل نفوسة أربعمائة فارس للمبارزة ومائة مفسر للقرآن الكريم ومائة لمساندة عبد الوهاب وتدعيم الدولة الاباضية الناشئة ومحاولة تدعيم ركيزتها فى المغرب الاوسط ومنع انهيارها أمام زحف الادارسة الذين يدفعون بالمعتزلة الواصلية للانقضاض على الدولة .

وبعد وصول الوفد اجتمع مع الامام عبد الوهاب لدراسة ما يمكن اتباعه فى مواجهة الواصلية وبعد الاتفاق على الخطة المرسومه أرسل عبد الوهاب للقاء الواصلية، فاستعد الفريقان وجمع كل منهم جموعه وتقدم عبد الوهاب بين الصفوف وتقدم معه من أهل جبل نفوسة، مهدى النفوسى، محمد بن بانس، فتناظروا مع عالم الواصلية حتى كبر اتباع الاباضية وزعيمهم عبد الوهاب، وعلى أثر ذلك نشب قتال عنيف بين الاباضية والواصلية واستطاع الاباضية قتل فارس الواصلية وانهزمت جماعات الواصلية وعاد بعضهم الى طاعة الامام عبد الوهاب ودخلوا فى طاعة الحكم الرستمى والبعض الآخر كون لهم امارة صغيرة بجانب تاهرت والبقية الباقية توجهت الى المغرب الاقصى والتفت حول زعيم المعتزلة «اسحاق ابن محمد الاوربى» الذى امتد نفوذه ما بين طنجة الى وليلى بجبل زرهون .

وهكذا كان القضاء على حركة الواصلية وقبلها ثورة النكارية يمثلان خطوة هامة من خطوات المحافظة على كيان الدولة الرستمية وحماية حدودها الغربية من خطر الادارسة بعد أن استطاع الامام عبد الوهاب وقف خطر الادارسة عند تلمسان وأصبحت السيادة الرستمية تمتد من المنطقة التى تقع شرق تلمسان إلى المغرب الاوسط وهكذا نجح عبد الوهاب فى القضاء على أهم المشاكل التى واجهت مسيرة الدولة من الواصلية وكان عليه أن يكون فى وضع أكثر استعدادا للقضاء على أى ثورة أو تمرد يهدد كيان الدولة [١١] .

ولما كان عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم قد استطاع أن يفرغ من القضاء على ثورة النكارية والواصلية حتى كان عليه أن يواجه القبائل البربرية التى وقعت تحت تحريض النكارية واستطاعت أن تجد فريق القبائل التى تسكن حول تاهرت فرصة لها لتحقيق أهدافها فقد قامت ثورة من قبائل مزاتة وسدراتة وذلك بتحريض النكارية لاثارة الشغب فى وجه الدولة ومحاولة النكار لاكتساب الانصار والمؤيدين لهم عن طريق التسلل الى زعماء ورؤساء هذه القبائل البربرية، لاسيما أن قبائل مزاتة وسدراتة كثيرة القيام بالرعى حول تاهرت، وهكذا أثمر عمل النكارية بعد قيامهم بالدعوة السرية على نطاق واسع بين رؤساء هذه القبائل وأفرادها. فما كان من هؤلاء الزعماء الا أن ذهبوا لمقابلة الامام عبد الوهاب وطلبوا منه أن يقوم بعزل القاضى والقائم بالشرطة وصاحب بيت المال وتولية أناس خير منهم لان الرعية متفقة على انهم لا يقومون بأعمالهم على أحسن وجه وكان قد وعدهم بتلبية مطالبهم لكنه عاد فى اليوم الثانى لكى يقول لهم انه لا يحب عزل القاضى ولا صاحب بيت المال ولا القائم بأمر الشرطة الا بناء على توجيه تهمة له أو أن تظهر عليه جريرة قام بها، لكنهم رفضوا ذلك الاسلوب فى معالجه الامر واقسموا على ضرورة عزلهم ومحاكمه الامام عبد الوهاب نفسه [١٢] .

---

(١١) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٣٠ .

(١٢) ابن الصغير: مصدر سابق ص ٢٨ .

وعندما تأزم الموقف ووصل إلى حد استخدام السلاح من جانب قبائل مزاتة وسدراتة فانه لم يكن امام الامام عبد الوهاب من خيار سوى استخدام السلاح لمحاربتهم والقضاء على حركتهم خاصة وانه قد اتضح أن الصلة قد أصبحت قوية بينهم وبين النكارية وبعد ان علم ان النكارية هم وراء كل هذه المطالب وهذه الثورة القبائلية، وانه كان لابد من تفويت الفرصة على أعدائه القدامى النكارية كما ثبت له أن قبيلة مزاتة كانت لها اتصالات وانتماءات قوية بمذهب الاعتزال وهى على رأى واصل بين عطاء وعلى هذا فقد وجه عبد الوهاب انذارا إلى رجال القبائل التى تجمعت حول العاصمة تاهرت من مزاتة وسدراتة لمهاجمتها وطالبهم بالالتزام بالطاعة ومن معهم من النكارية والواصلية لكنهم رفضوا تلك الاوامر وقرروا مهاجمة العاصمة فما كان من عبد الوهاب الا ان خرج اليهم فى قوات ضخمة قضت على حركتهم أما من بقى من هذه القبائل فقد فروا إلى أوطانهم التى قدموا منها، أما النكار الذين كانوا يؤاذرونهم ويشدون أزرهم فقد تقهقروا إلى جبال الاوراس حيث ظلوا معتصمين بها إلى قرب نهاية الدولة الرستمية وهكذا نجح عبد الوهاب فى القضاء على هذه الحركة وتوطدت دعائم دولته الامر الذى جعل ابن الصغير يقول: ثم اشتد أمر عبد الوهاب وقوى عوده وعليه فقد انتقل من حال الامامة إلى حال الملك [13] .

واذا كان عبد الوهاب قد فرغ من قتال حلف القبائل (مزاتة وسدراتة) فان عصيانا آخر قد ظهر على مسرح الاحداث حيث قامت قبيلة هوارة بالخروج على شرعية الدولة، وكانت سياسة عبد الوهاب الحيلولة دون قيام تحالفات ومصاهرات بين القبائل القوية وذلك كجزء من سياسته فى تأمين الجبهة الداخلية للدولة وقد حارب عبد الوهاب مثل هذه التحالفات بنفس الاسلوب الذى اتبعته هذه القبائل [14] ومما يذكر أن قبائل هوارة التى كانت تقيم بالقرب من تاهرت كان لهم رؤساء فمقدمون يقال لهم الاوس ويعرفون ايضا

(١٣) ابن الصغير : المصدر السابق ص ٢٩ .

(١٤) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٥٦ .

ببنى سالمة وكانت تتم مصاهرة بينهم وبين قبائل لواتة وبذلك تصبح مصالح القبيلتين واحدة ويتم التحالف بينها وقد فطن عبد الوهاب إلى خطورة مثل هذه الامور وما يتم فيها من مصالح واحدة ومصاهرة، لكن عبد الوهاب افسد هذه الخطة فغضب مقدم الاوس وغضبت معه عشيرته وأقسم ألا يقيم بتاهرت ورحل عنها حتى نزل بوادى هوارة وبينه وبين تاهرت نحو عشرة أميال وانضم اليه كثير من الخارجين على الدولة وعلى الامام عبد الوهاب نفسه وبدأت هذه القبائل من هوارة تقوم ببعض أعمال العنف ضد الدولة ومواطنيها وتم قتل بعض رعايا الدولة ومن ثم أرسل عبد الوهاب فى طلبهم لكنهم رفضوا فجهز لهم عبد الوهاب جيشا بقيادة ابنه أفلح الذى استطاع عبور نهر ارجلان وقد أبلى أفلح بن عبد الوهاب فى هذه الحرب بلاء حسنا انتهت المعركة لصالح بنى رستم وهزمت جميع الاوس هزيمة فادحة ورحلت بقاياهم إلى جبل تيجان. وهكذا بذل عبد الوهاب جهودا مضنية للاحتفاظ بوحدة الدولة الرستمية وتوطيد دعائمها وتمكن بفضل هذه الجهود من القضاء على الفتن والثورات [15] .

توطيد اركان الدولة وضم أراضى جديدة :

ما أن شعر عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بالقضاء على كل الفتن والدسائس وان الامور قد صارت على خير ما يرام والجهة الداخلية قوية أكثر من أى وقت مضى وان أوضاع الدولة الرستمية من الممكن أن تسير فى غيابة لاسيما ان ابنه أفلح قد تولى أمورها فى كثير من الاوقات واستطاع أن يحقق الانتصارات على أعداء الدولة كالنكارية وثورة الهوارة وغيرها من الامور التى كانت تعترض المسيرة اليومية لادارة الدولة، عندما فطن الى هذه الامور فانه كان مشوقا لاداء فريضة الحج وزيارة الاماكن المقدسة فى الحجاز وكان أول عمل قام به أن استخلف ابنه أفلح على تاهرت ومنحه تفويضا كتابيا

(١٥) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٦٠ .

بادارة شئون الدولة والرعية وخرج قاصدا أداء الفريضة مصطحبا زوجته وجمعا كبيرا من رجال دولته ومضى بهم نحو المشرق قاصدا أراضى الحجاز، لكن الاباضية فى مناطق قريبة من جبل نفوسة وطرابلس حيث أقليم شرق الدولة أشاروا عليه بعدم التوجه لاداء فريضة الحج بل منعوه من مواصلة السفر للاراضى الحجازية خوفا من أن يقبض عليه العباسيون أعداؤه وأعداء دولته، وبعد طول مشاورة اقتنع برأيهم ولكن كان عليه أن يطلب رأى علماء الاباضية فى مكة المكرمة حول هذا الرأى، فأرسل رجلا من نفوسة (جبل نفوسة) وهو المكان الذى منعه فيه الاباضية من مواصلة السفر إلى كل من عالمى الاباضية أبى عمر الربيع بن حبيب، وابن عباد وهما من علماء الاباضية المشارقة فى مكة المكرمة ويطلب رأيهم بصراحة فى مسألة أمر الذهاب إلى الاراضى الحجازية لتأدية فريضة الحج .

فأجابه أبو الربيع بن حبيب، بأنه من كان فى تلك العناية والمسئولية بأمور المسلمين وحمل أمانتهم وخاف على نفسه من السوء أن يبعث بمن يقوم بأداء فريضة الحج مكانه وهو حى يرزق، وأجابه ابن عباد، انه من كان على هذه الصفة فلا حج عليه لان من شروط الحج أمان الطريق وعدم وجود الاعداء الذين يتربصون به الدوائر، فلما قدمت اليه الرسل أخذ بدأيها وأرسل من يتولى أداء الحج بدلا منه [١٦] . وذلك حرصا على عدم وقوعه فى أيدى أعدائه من العباسيين وسوف تصدق حدسه أهالى جبل نفوسة فى منع امامهم عبد الوهاب من الذهاب الى مكة المكرمة لاداء فريضة الحج لان العباسيين سوف يقبضون على أبى اليقظان بن عبد الوهاب وهو أمير وليس أماما وهو يؤدى فريضة الحج فى مكة ويسوقونه إلى السجن حيث يقضى فترة طويلة فى سجن بغداد .

لقد كانت المنطقة التى استقر فيها الامام عبد الوهاب وهو فى طريقه إلى بلاد المشرق لاداء فريضة الحج هى منطقة جبل دنر وتسكن هذا الجبل قبائل دمر الزناتية ومع

(١٦) الشماخى: مصدر سابق ص ٥٩ .

انهم أباضية المذهب الا أن استقرارهم بالقرب من افريقية (تونس) ركيزة النفوذ العباسى فى المغرب جعلهم يفضلون حياة الاستقلال عن الدولة الرستمية حتى لا يتعرضون للانتقام من قبل ولاة العباسيين فى القيروان لكن، لكن عبد الوهاب طاب له المقام فى ضيافة سكان الحبل حتى يأتيه رد علماء الاباضية إلى الدخول فى طاعته والانضمام لدولته ومبايعته اماما لهم فقاموا بمبايعته وانضموا اليه واعترفوا به اماما شرعيا عليهم وقدموا له البيعة مباشرة فولى عليهم رجلا تقيا ورعا زاهدا لكى يدير شئونهم ويستطيع أن يدبر أموالهم وقد عرف ذلك الشخص باسم «مدرار» وبنى الامام عبد الوهاب مسجدجامعا ومصلى ويعرف المسجد باسم مسجد عبد الوهاب وقد أقامه فى موقع يقال له «تلالة» من هذا الجبل، ثم قام الامام بزيارة جبل نفوسة والذى يتصل اتصالا وثيقا بجبل دمر ويعتبر هذا الجبل معقلا هاما من معاقل الدولة الرستمية [١٧] .

ولقد كان كل سكان جبل نفوسة على المذهب الاباضى ولا يخضعون بالطاعة للامام عبد الوهاب، لكن امام تاهرت فى نظرهم هو امام كل الاباضية. وفى ذلك يقول اليعقوبى [١٨] عن سكان ذلك الجبل انهم لا يؤدون خراجا الى سلطان ولا يعطون طاعة الا إلى رئيس لهم بتاهرت وهو رئيس الاباضية يقال له عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، كما أن البكرى يضيف قائلا ان سكان هذا الجبل اذا تداعت للقتال فانها تستطيع أن تجند ستة عشر ألف مقاتل وهذه الكثرة العددية لها أثرها فى الحفاظ على كيان الدولة الرستمية كقوة سياسية فى بلاد المغرب .

وتضيف المصادر التاريخية كابن صغير والباردنى والدرجيبى وغيرهم من المؤرخين أن عبد الوهاب والذى كان يحلم بتوسيع رقعة سلطنته قد سمحت له ظروف رحلته إلى بلاد

(١٧) محمد صابر عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٥٩ .

(١٨) اليعقوبى: تاريخ اليقوبى ص ٢٧٨ .

المشرق لاداء فريضة الحج فاستقر بين أتباعه من الاباضية بجمع صفوفهم ويوجد أهدافهم حتى استغرقت تلك الاقامة سبع سنوات قضاها متنقلا بين القبائل شارحا ومدرسا وفقيها وملقنا لتعاليم الاباضية . وقد اتخذ من قرية (ميرى) مقرا له وبنى له مسجدا وكان هذا المسجد غاية فى الابداع والاتساع والاتقان والصنعة. وقد شهد هذا المسجد لعبد الوهاب جهودا ثقافية رائعة حيث عقدت جلسات الوعظ والارشاد وشهد تحليق الطلبة حوله يسألون عبد الوهاب فى شرح وتعميق مفاهيم المذهب الاباضى فى المغرب وكيف وهو الذى تلقى هذه التعاليم عن طريق والده وهكذا كانت فترة اقامة عبد الوهاب سببا مباشرا فى ظهور جيل من العلماء الاباضية الذين حملوا شعلة العلم الاسلامى والمذهب الاباضى فى عصر الرستميين ، وقد ظهر فى جبال نفوسة جماعة من العلماء الذين لعبوا دورهم فى اثراء الحركة الفكرية والعلمية والمذهبية منهم ، مهدى النفوسى محمد ياسين ، أبو الحسن الابدلانى ، عمروس بن فتح ، يعقوب بن أفلح، أبو عبيدة عبد الحميد المبادنى، سعيد الجادتى وغيرهم كثيرون من العلماء الذين كان لهم باع طويل فى توطيد أركان المذهب الاباضى فى الدولة الرستمية [١٩] .

الامام عبد الوهاب والصراع مع الاغالبة وتوسيع حدود الدولة :

لقد طالت اقامة الامام فى جبل نفوسة جنوب الاراضى التى تسيطر عليها الخلافة العباسية ممثلة فى واليها الامير ابراهيم بن الاغلب، حيث كان طوال هذه الفترة لم يكتف بالقاء الدروس والمواعظ وتعميق المفاهيم الدينية للمذهب الاباضى، انما كان مع كل ذلك يراقب عن كثب الاحداث التى تجرى على ساحة طرابلس ويشهد ما بها من اضطراب الامور والحوادث التى انتشرت وانتشرت بها أعمال الشغب والخلافات القبلية التقليدية بين القبائل السبئية (اليمن) والقيسية (الشمال) والتى بذل الامير الاغلبى ابراهيم بن الاغلب

(١٩) محمد عيسى صابر : مرجع سابق ص ١٦١ .

جهودا جبارة لمحاولة احتواء الازمة ومعالجتها بشتى الوسائل حتى انه استعان بجند مصر فى قمع هذه الفتن ولكن القوات التى قدمت من مصر لم تستطع أن تحل مشكلة الصراع العميق بين السبائية والقيسية وفشلت هذه الجهود كما فشل غيرها من قبل وعمت الفوضى أنحاء مدينة طرابلس التى كانت تدخل فى أملاك الدولة العباسية وتحت ولاية بنى الاغلب من قبل الدولة العباسية، بل أن الذى زاد الموقف سوءا أن البربر قاموا بالثورة على جند المدينة من العرب وعلى جميع العرب عموما بما فيهم نواب الاغلب، كذلك فان قبيلة هوارة قد ثارت فى وجه الاغالبة واشتدت الوطاة على حاكم طرابلس، بل أن هناك أقوال تذكر أن الذى شجع هوارة على القيام بالثورة ضد الاغالبة انها ربما قد تكون لقيت تعضيدا من جانب عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم لانها كانت تعلم بوجوده فى جبل نفوسة القريب من طرابلس، فالمسافة بين جبل نفوسة وطرابلس كما يذكر الجغرافيون لم تكن أكثر من مسيرة ثلاثة أيام [٢٠] .

ولما كانت منطقة استقرار القبائل البربرية من هوارة على بعد قريب من طرابلس فان والى الاغالبة فى طرابلس قد أصدر أوامره للقوات العربية بالتحرك إلى حيث سكنى قبائل هوارة لاخماد الثورة والقضاء على قوة هوارة واستطاع جند الاغالبة أن يتقدم إلى منطقة يطلق عليها «وادى الرمل» حيث كانت حشود هوارة على أتم استعداد لملاقاة القوات القادمة من طرابلس ودارت بينهم معركة حامية الوطيس استطاع فيها الاغالبة وجنودهم أن يولوا الفرار بعد أن سحقتهم قبائل هوارة وجعلتهم يفرون أمامهم إلى طرابلس ومن ثم تبعت فلولهم هوارة حتى دخلت طرابلس ودمرت أسوارها .

وفى ذلك يتحدث ابن الاثير قائلا فثأرت قبائل هوارة بطرابلس وخرج الجند والتقوا واقتتلوا فهرب الجند إلى المدينة فتتبعتهم هوارة ففروا هاربين إلى الامير ابراهيم بن

(٢٠) البكرى: مصدر سابق ص ٧٢ .

الاغلب ودخلوا المدينة فهدموا أسوارها ووصلت مسامع الثورة إلى ابراهيم بن الاغلب فسير اليها ابنه أبا العباس عبد الله فى ثلاثة عشر ألف جندى وتمكن عبد الله من الحاق الهزيمة بهوارة وقتل منها عددا كبيرا وتمكن من دخول طرابلس وبناء سورها (٢١) .

ولما كان عبد الوهاب قريبا من مسرح الاحداث وعلى علم بكل ما جرى على الساحة بدءا بالصراع ونهاية بهزيمة هوارة، فانه رأى أن هزيمة هوارة على هذا النحو الذى تمت به تعد اعتداء صارخا من الاغالبة على مواطنى دولته الرستمية، لذا فانه أراد أن يدفع هذا العدوان بالقوة وأن يستخدم القوة ازاء القوة، فأعد جيشا وجمع القوات وتقدم لحصار طرابلس وتمكن عبد الوهاب من فرض الحصار على طرابلس عام (١٩٦هـ/ ٨١١م)(٢٢). لكن عبد الوهاب وجيشه لاقى مصاعب جمة وكثيرة أثناء فرض الحصار وذلك لعدم تكتم كبار قواده على الخطط العسكرية التى كان يعدها عبد الوهاب لاقتحام المدينة، لكن عبد الوهاب ازاء افشاء الاسرار الحربية فانه لم يجد بدا من تكن هذه الاخبار والاستعانة بمشورة وزيره «مزور بن عمران» دون غيره من كبار القادة، الا انه رغم هذه المتاعب التى عانى منها عبد الوهاب فان أبا العباس عبد الله بن ابراهيم الاغلب لم يفكر لحظة واحدة فى فتح أبواب المدينة والخروج لملاقاة جند عبد الوهاب وانما أحكم سد أبواب المدينة كلها وكان يقاتل من باب واحد هو باب هوارة، وظل القتال يدور على هذا النحو حتى وفاة ابراهيم بن الاغلب الذى كان قد عهد بالامارة إلى ابنه عبد الله، لكن زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب كان قد أخذ العهد والمواثيق على الجند وأرسل إلى أخيه عبد الله فى طرابلس رسالة يخبره بموت أبيه وبأن الامارة قد انتقلت اليه، لكن الرسول والرسالة تصادف وقوعهما فى أيدى جند عبد الوهاب الذين كانوا قد أحكموا الحصار

(٢١) ابن الاثير: الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ٢٨ .

(٢٢) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٠٨ .

حول طرابلس، فقام البربر بأخذ الرسول والرسالة ودفعوا بهما إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فأمر بأن ينادى عبد الله بموت أبيه وأمام هذه الظروف لم يجد عبد الله بدا من عقد الصلح مع الامام عبد الوهاب، وجاء فى شروط الصلح اعتراف دولة الاغالبة الممثل الشرعى للخلافة العباسية فى بلاد المغرب بالسيادة الرستمية على المناطق الداخلية من طرابلس الا انه كان من أهم بنود الصلح أن تكون للاغالبة السيادة على مدينة طرابلس وبعض الاجزاء الصغيرة المجاورة والمياه البحرية التى تطل على البحر المتوسط، أما ما كان خرجا عن ذلك فهو لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وبهذه المعاهدة قوى مركز الامام عبد الوهاب الرستمى فى الجهات الشرقية للدولة الرستمية ولم يتوان هذا الامام عن انتهاز أية فرصة لتوطيد دعائم دولته (٢٣) .

وعلى هذا فلم يكد عبد الوهاب يفرغ من توقيع الصلح مع عبد الله بن الاغلب حتى نجده يتطلع إلى المناطق الشرقية التى يسود فيها المذهب الاباضى لكى يضمها الى دولته ليوسع بها دائرة نفوذه السياسى ولكى يجعلها من أكبر الدول فى المغرب العربى، بل انه اتخذ خطوات عملية فى ذلك الشأن بأن قام بتعيين الولاه والعمال على كل قبيلة من هذه القبائل أو على كل قطعة أرض يسكنها قوم من الاباضية، فنجد انه يقوم بارسال «مسلمة بن قطعان الزواغى» إلى قابس فحاصرها حصارا شديدا وشدد عليها الحصار حتى استولى عليه وضمها إلى الدولة الرستمية وكانت تلك المدينة تقع داخل نفوذ حكم الاغالبة، بل أن ذلك القائد الاباضى لم يكتف بالاستيلاء على قابس بل استولى على العديد من القرى والجبال الغربية وأخضع القبائل التى تسكنها لسلطان الرستميين كقبيلة مطماطة، ونزقة، ودمر وزواغة، وجزيرة جربة، وبذلك استقام الامر فى هذه المناطق للامام (٢٤) .

(٢٣) الشماخى: مصدر سابق ص ١٦١ .

(٢٤) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١١٠ .

بل أن عبد الوهاب أخذ فى رصد وتعيين عماله على هذه النواحى الجديدة وغيرها من المناطق التى بسط الرستميون نفوذهم عليها، فعين «سلام بن عمر اللواتى» حاكما واماما على مدينة سرت ونواحيها، ومسلمة بن قطفان الزواغى على مدينة قابس ونواحيها ، ومحمد بن اسحاق الخزرى على قبيلة نفراوة، ووكيل بن سراج النفوسى على مدينة فقصة، أما جارون ابن القمرى، مهدى بن عاصم الزناتى، بيران الترمرنتى المزانى، فيرجح انهم كانوا عمالا للامام عبد الوهاب على غدامس، زويلة، توزر .

ويجمل القول أن الامام عبد الوهاب استطاع عن طريق المصاهرة التى عقدت بينه وبين أبى العباسى عبد الله ابراهيم بن الاغلب أن يفرض واقعا جديدا على الاغالبة فجعل خط الحدود مع دولته يسير مع خط المناطق التى ينتشر فيها المذهب الاباضى المعروف والمعروف من المذهب الاباضى انه قد انتشر فى مناطق كثيرة فى جنوب افريقية (تونس) وأن هذه المناطق قد خضعت للنفوذ الرستمى بفضل جهود عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ومن هذه المناطق التى خضعت للحكم الرستمى جبال الاوراس موطن قبيلة هوارة ومكناسة. ويقول البكرى جبل أوراس وهو مسيرة سبعة أيام وبه قلاع كبيرة تسكنها قبائل هوارة ومكناسة وهم أباضية، أما شمال الاوراس فى جنوب مدينة «باغية» فقد كانت فيه منازل مزاتة (٢٥) .

وقد ذكر الامام عبد الوهاب عن سكان تلك المناطق أنهم كلهم أباضية وهذا تأكيد كبير على الوجود الاباضى القوى النفوذ فى تلك الانحاء وفى ذلك يؤكد ابن الصغير (٢٦) أن تلك المناطق قد خضعت خضوعا تاما للنفوذ الرستمى وامتد سلطانهم السياسى والادارى على تلك المناطق وفى ذلك فانه عندما توفى قاضى جبل الاوراس، فإن مجلس

(٢٥) البكرى: مصدر سابق ص ١٤٤ .

(٢٦) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين . ص ٢٣ .

الشورى فى تاهرت اختار لهذا المنصب القاضى «مسلم الهوارى» والذى كان راحدا من الشخصيات البارزة فى جبل الاوراس. ويضاف انه لما تم تعيين «مسلم الهوارى» قاضيا على تلك النواحى فانه قدم وفدا منهم إلى أفلح بن عبد الوهاب فقالوا له لقد ارتضينا جميعا بأن يكون محكم الهوارى الساكن بجبل أوراس قاضيا علينا، ومن ذلك فانه ينصح بأن الحقائق الثابتة تؤكد أن خط الحدود الشرقية للدولة الرستمية يبدأ شرقا من خليج سرت إلى طرابلس وقابس ما عدا مدينه طرابلس والساحل فانهما يقعان تحت النفوذ الاغلبى وينعطف الخط عند جنوب صفاقس نحو الغرب فيسير على فقصة وجبال شرشال على ساحل البحر أما حدود الدولة الرستمية الشمالية فتمتد على ساحل البحر الابيض المتوسط من شرق شرشال إلى غرب وهران متضمنا مدنا ساحلية هامة هى تشرشال وتنس ومسنغانم ووهران، أما الحدود الغربية للدولة فيبدأ من غرب وهران وشرق جبال تلمسان إلى جنوبها ثم تتجه نحو الغرب فتخترق جبال القصور إلى غرب مدينة قصيف ومدينة بنى ونيف ثم تنحدر الحدود فى الصحراء الكبرى فتخرج تلمسان وجبالها من مناطق الدولة الرستمية لانها تخضع لنفوذ الادارسة (٢٧) .

وفوق ذلك كله تتمتع الدولة الرستمية بنطاق حدود واسعة من الشمال إلى الجنوب تبدأ من ساحل البحر الابيض المتوسط فى الشمال حتى أقصى الصحراء الكبرى فى الجنوب إلى ما بعد أورجلان وغدامس وفزان .

استقرار الامور والعودة الى العاصمة :

بعد أن أحس الامام عبد الوهاب انه استطاع خلال السنوات السبع التى أمضاها بين رعيته من الاباضية فى الاقاليم الشرقية من الدولة وانه استطاع أن يوطد النفوذ الاباضى الرستمى فى اقليم جبل نفوسة وطرابلس وكثير من جهات ومناطق جنوب «تونس» ومن ثم

(٢٧) حسن على حسن: مرجع سابق ص ٧٦ .

قرر العودة إلى عاصمته تاهرت، فطلب اليه أهل نفوسة وغيرهم من القبائل أن يولى عليهم رجلا يكون مسئولا عنهم وعن رعاية شئونهم والقيام بامامتهم والقضاء لهم ولقد وقع اختيارهم على الشيخ (السمح بن أبى الخطاب المعافرى) ابن امام الاباضية الاول فى المغرب وحاكم طرابلس السابق وزميل دراسة لعبد الرحمن بن رستم وغيره من زملائه ولقد كان السمح وزيرا للامام عبد الوهاب وشخصيته مقربة اليه ويأخذ رأيها فى كثير من الامور وكان عزيزا عليه أن يفارقه، لكن الامام نزل على رغبتهم وترك ابن السمح واليا على طرابلس بما فيه أهل الجبل .

ومن ثم مضى الامام عبد الوهاب إلى العاصمة تاهرت تاركا اقليما واسعا من أقاليم الدولة الرستمية تحت ادارة أحد ثقاته والمقربين اليه ولقد ظل السمح واليا على اقليم طرابلس فأحسن سيرة الحكم وأقام العدل بين الرعية وساسهم بالمودة والاخوة الصادقة ورتب العمال والقضاه فى مدة ولايته كما عين رجال الشرطة وأقام الامن والامان وشرع فى البناء والتشييد والعمران وكان لايخرج عن رأى الامام فى أى أمر من أموره ولا يخالف له أمرا واستطاع أبو السمح الاحتفاظ بولاء أهالى جبل نفوسة الدينى والسياسى للائمة فى تاهرت. وهكذا كانت ولاية السمح بن أبى الخطاب فترة هدوء واستقرار وأمان وظلت الدولة قوية محتفظة بكيانها ولم تحدث أدنى متاعب فى تلك المنطقة، ولما حضرت السمح الوفاة اجتمع اليه وجوه القوم وكبار رجال الدين وأصحابه وطلبوا اليه أن يختار شخصا يوليه أمورهم ويكون خليفة له فى تلك المنطقة لا تخرج الرعية عن طاعته ولقد سارع كثير من العامة إلى تولية خلف بن السمح بن أبى الخطاب المعافرى واليا عليهم خلفا لابيه المتوفى [٢٨] .

ويبدو أن خلف هذا قد ادعى لنفسه بأحقية الولاية خلفا لابيه السمح وجده أبى

(٢٨) البارنى: الأزهار الرياضية، جـ ٢ ص ١٤٩ .

الخطاب المعافرى على أساس انه من أبناء أبى الخطاب عبد الاعلى المعافرى، الذى كان اماما للاباضية قبل قيام الدولة الرستمية، بل الاكثر من ذلك فان خلف بن أبى السمح لم يكتف بتعيينه واليا على الاقاليم الشرقية للدولة الرستمية، بل انه أرسل كتيبا هو ومؤيدوه من الاباضية فى ذلك الاقليم إلى الامام «أبى سفيان محبوب بن الرحيل»، حيث كان أبو سفيان من الائمة المشهود لهم على مذهب الاباضية يستفتونه فى أمر الاجازة لهم بالقيام بتكوين ولاية أباضية لهم منفصلة عن كيان الدولة الرستمية وذلك على أساس أن المسافة بعيدة بينهم وبين العاصمة تاهرت [٢٩] لكن فى نفس الوقت الذى كان يقوم فيه خلف وأعوانه بالكتابة إلى أباضية المشرق بشأن الانفصال عن الدولة الام كانت تلك الانباء قد وصلت إلى مسامع الامام عبد الوهاب بن رستم، فانه رفض ولاية خلف على طرابلس واعمالها وأسل كتابا إلى أهل الجبل يعلمهم فيه بفساد ولاية خلف بن السمح، بل انه طلب فى كتابه اذا أتاهم هذا الكتاب فليرجع كل عامل كان من قبل السمح إلى ولايته الا خلف بن السمح فانه يقف حتى يأتيه أمر الامام عبد الوهاب وقد رفض خلف بن السمح ومن معه من أعوانه الاستجابة لاوامر عبد الوهاب وأعلنوا العصيان عليه والتمرد وانفصال الاقليم الشرقى عن الدولة الام [٣٠] وأمام هذه الاحداث وأخطار الانقسام التى تهدد دولته حيث كان ذلك الاقليم الشرقى من أقاليم الدولة الهامة التى لها أثرها فى دعم الدولة ماديا وعسكريا وسياسيا بل اقتصاديا فقد سارع الامام عبد الوهاب بتعيين شخصية جديدة بدلا من السمح المعافرى، الذى توفى وعزل خلف بن السمح وكان ذلك الشخص هو «أيوب بن العباسى» وكان شخصية قوية هابها خلف والتزم بالسكون والطاعة طوال فترة توليه، لكن لم تمض فترة طويلة حتى توفى «أيوب بن العباسى» وتولى بدلا منه «أبو عبيدة بن عبد الحميد الجنادتى» أمر جبل نفوسة وفى أيامه استفحل أمر خلف بن السمح

(٢٩) الدرجيبى: طبقات الاباضية ورقة ٣١ .

(٣٠) محمد عيسى صابر : مرجع سابق ص ١١٨ .

المعافرى وأتباعه وأخذت القبائل الموالية له فى شئن الغارات على أطراف الدولة. فأرسل أبو عبيدة إلى الامام عبد الوهاب يطلب منه أن يأذن له فى قتال خلف بن السمح ابن أبى الخطاب ولكن الامام عبد الوهاب أشار إلى أبى عبيدة أن يلاطف خلفا وألا يفتح معه باب القتال والصراع فهدأت حركة خلف بن السمح مرة ثانية [٣١] .

وهكذا نرى كيف نجحت سياسة الامام عبد الوهاب فى المسالمة وعدم اللجوء للقوة الا عند الضرورة القصوى من الاسباب القوية التى ساعدته على تكوين دولة مترامية الاطراف سادت مساحتها أضعافا مضاعفة عما كانت عليه أيام أبيه عبد الرحمن بن رستم وهكذا نجح عبد الوهاب إلى الوصول بها الى أوج اتساعها وترك لخلفائه دولة قوية الدعائم مترامية الاطراف متينة الاركان يقول عنها ابن الصغير [٣٢] كان عبد الوهاب قد اجتمع له من أمر الاباضية وغيرهم ما لم يجتمع للاباضية من قبل ودان له من القبائل والمدن والاقاليم والاراضى ما لم يدن لغيره من قبل وأجتمع له من الجيوش الجرارة المسلحة بأحداث أسلحة العصر ما لم يجتمع لغيره من قبل، ولقد بلغت قوته إلى حد أنه حاصر مدينة طرابلس وحكم المغرب منها شرقا إلى مدينة يقال لها تلمسان غربا وظل الهدوء سائدا أنحاء الدولة الرستمية حتى توفى الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم عام ٢١١هـ/ ٨٢٦م بعد أن أمضى فى الامامة أربعين عاما كانت من أمجد فترات الدولة الرستمية حيث كان عصر عبد الوهاب هو العصر الذهبى لاسرة عبد الرحمن بن رستم، حيث التقدم الحضارى والثقافى والاقتصادى وفى كل المجالات سارت الدولة بخطى ثابتة فى طريق التقدم والازدهار والرقى والوصول الى درجة عاليه من الازدهار .

(٣١) ابن الصغير : سيرة الائمة ص ٢٧ .

(٣٢) ابن الصغير : مصدر سابق ص ٢٧ .

الباب الرابع

جيل الاحفاد (الامام أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم)

(٢١١– ٢٤٠هـ– ٨٢٦– ٨٥٤م)

توفى الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بعد أن وطد دعائم الدولة الرستمية وأقام دعائم أسسها القوية وذلك خلال الاربعين عاما التى قضاها فى اصلاح أحوال البلاد وشأن العباد واقامة العدل والقضاء على الفتن والتصدى لكل المحاولات التى تحاك ضد الدولة ومحاولة القضاء على استقلالها أو تقسيمها إلى أجزاء صغيرة والضرب بالشدة على الحركات الانفصالية التى حدثت فى شرق البلاد (خلف بن السمح بن أبى الخطاب المعافرى) أو ثورة الواصلية وتأييد الادراسة لهم وهكذا كان على الامام ابنه أفلح أن يتولى الامامة لدولة قوية الجانب مرهوبة الجناح شامخة فى سماء المغرب العربى [١] .

وقد تولى أفلح حكم البلاد بعد وفاة والده مباشرة وذلك خوفا من تجدد الخلاف حول مسألة الامامة مثلما حدث بعد وفاة جده عبد الرحمن ابن رستم وهناك أقوال تذكر أن أفلح قد كانت كل الانظار تتجه اليه لكى يتولى الامامة بعد والده مباشرة نظرا للاعمال التى قام بها والامور التى تقلدها فى حياة والده [٢] .

وكذلك لما امتاز به من أعمال عالية ومداركه الواسعة والمامه بأمور أصول المذهب الاباضى ودوره البطولى فى صد غارات النكارية وقتل زعيمهم أبى قدامة بن قندين. وكذلك ادارة شئون الدولة خلال فترة وجود والده فى الاقاليم الشرقية والتى قدرت بسبع سنوات، ومن هنا كان الاجماع على مبايعته بالخلافة وتسلمه لمقاليد الامور بالامارة قطعا

(١) سعد زغلول عبد الحميد: مرجع سابق ص ٧٦ .

(٢) البارونى: الازهار الرياضية جـ ٢ ص ١٦٦ .

للخلافات التى ربما تنشأ من شأن التأخير وذلك بعد أن أقسم لهم على أن يسير فيهم على نهج الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح من أنصار المذهب وأصحاب المذهب الاباضى .

ولقد كانت شجاعته وبطولته من أكثر الصفات التى جعلت أفلح مرشحا للامامة من الجميع ومن قبل والده عبد الوهاب بصفة خاصة ومن هنا أصبحت الشجاعة صفة غالبة عليه، لذا فان المصادر قد أجمعت على أن عبد الوهاب قد أوصى قبل وفاته بأن يكون أفلح ولى عهده فى الامامة ولقد جاءت هذه الوصية على لسان عبد الوهاب نفسه عندما كان يقاتل بنى مسالة وكان أفلح مشتركا معه فى هذه المعركة وقد أعجب عبد الوهاب بشجاعة ابنه فقال لمن حوله من كبار القواد ورجال الاباضية، لقد استحق أفلح ابنى الامامة وكانت هذه الوقعة أول يوم عقدت له فيه الامامة، وفى ذلك لا يختلف أصحاب المذهب الاباضى عن مذهب السنة فى شروط اختيار الامام عندما تكون احدى شروطهم لاختيار الامام هو العلم وقت السلم والشجاعة وقت الحرب وقد كانت شجاعة الامام أفلح بن عبد الوهاب سببا فى انهاء كثير من المشاكل الداخلية التى قد يترتب عليها اختيار الامام فى الدولة الرستمية وحمسها لصالح أبيه عبد الوهاب ومن ذلك على سبيل المثال كما سبق القول قتله لأبى قدامة يزيد بن قندين زعيم النكار عندما هاجم مدينة تاهرت وبمقتله لم يقم لطائفة النكار قائمة فى المغرب الاوسط .

كما أن الامام عبد الوهاب قد حرص كل الحرص على اعداد ابنه أفلح لكى يتحمل مسئولية الحكم اذا ما أختير بعده اماما وأتاح الفرصة أمامه لكى يتمرس بأسلوب الحكم والادارة، فقد ترك له عبد الوهاب ادارة شئون الدولة الرستمية والعاصمة تاهرت فى أثناء غيابه فى جهات الدولة الشرقية طوال سبع سنوات وقد استفاد أفلح من تلك الفترة استفادة كبيرة اذ كانت كافية لكى تقرر قدرته على ادارة شئون البلاد، كذلك فان

احتكاكه بالناس وتعاملهم معه فانهم عرفوا قدره وخبروا مدى علمه الواسع [٣] ويبدو أن هذه الفترة لم تكن هى الفترة الوحيدة التى أدار فيها أفلح شئون الدولة وانما أدار شئون الدولة قبل وفاة والده بعدة سنوات، لذا فعندما مات والده، أحس المقربون للسلطة والجهاز الحاكم ورجال القضاء والشرطة أن أفلح هو أنسب الشخصيات لهذا المنصب فى الدولة وتمسكوا به اماما للبلاد وكان أفلح هو أول جيل الاحفاد من سلالة عبد الرحمن بن رستم [٤] وتحدد بعض المصادر التاريخية بأن تلك الفترة الاخيرة التى تولى فيها أفلح ادارة شئون الدولة كانت فى أعقاب آخر أعمال عبد الوهاب الحربية التى حارب فيها بنى مسالة وقضى فيها على تمردهم وفى ذلك تقول المصارد أن قول عبد الوهاب لمن حوله أن أفلح يستحق الامامة كان ذلك ترشيحا له للامامة وانقطع اليه المتعاطفون ودارت اليه الحوائج والعطايا من تحت يديه فلم يزل كذلك وعلى ذلك حتى اقتربت من عبد الوهاب منيته فلما مات عبد الوهاب صارت الخلافة لابنه أفلح [٥] .

ومما يجدر قوله فى هذا الشأن أن توليه أفلح بن عبد الوهاب لامامة الدولة الرستمية بهذه الطريقة التى تمت بها انما يعد فى مذهب الخوارج الاباضية خروجا على مبدأ الانتخاب العام الذى تم بالنسبة لجده عبد الرحمن ووالده عبد الوهاب والذى نادت به فرقة الخوارج وهو أن يكون المرشح لمنصب الامامة من أى جماعة من الناس حتى ولو كان عبدا حبشيا ويعتبر خروج الاباضية فى الدولة الرستمية عن قاعدة الانتخاب العام أو الشورى انما هو نوع من حرية التشريع لجأ اليها الائمة الرستميون حفاظا على كيان الدولة من التفتت والانقسام من جراء الفتن والقلاقل التى كانت تتعرض لها من حين لآخر ولهذا اصبحت الدولة الرستمية فى هذا الشأن تجرى على أسس تشريعية متشابهة مع

(٣) محمد عيسى صابر : مرجع سابق ص ١١٠ .

(٤) محمد على دبوز: المغرب جـ ٣ ص ٥٥٩ .

(٥) ابن الصغير: مصدر سابق جـ ٣ .

الاسس التى تجرى عليها سائر الدول الاسلامية فى المشرق والمغرب وهى احترام مبدأ الورثة عند تولية مسئولية الحكم أو الخلافة أو الامامة [٦] .

ولقد اتفق الجميع على بيعة أفلح بن عبد الوهاب ورضى بها الجميع حيث انه ما كادت أخبار تولية الامامة تنتشر فى أنحاء العاصمة وفى كل أنحاء الدولة الرستمية الواسعة الاطراف حتى جاءت اليه كتب العمال فى مختلف الاقاليم والانحاء وكذلك كتب اليه أئمة المسلمين ورجال الدين فى كل الجهات والولايات، والجميع يعلنون مبايعتهم له وكان من بين هذه الكتب كتاب أبى عبيدة بن عبد الحميد المبادنى عامله على جبل نفوسة حيث الاقليم الشرقى من الدولة .

وقد ظهرت فى فترة امامة أفلح بن عبد الوهاب جماعة أطلقوا على أنفسهم اسم الشراة وقد تعرض أفلح فى مطلع عهده لاختبارات من جانب هؤلاء الشراة، وقد كان الشراة جماعة تتكون من أربعين رجلا ممن اشتروا آخرتهم بدنياهم بمعنى انهم تخلوا عن الدينا وعاهدوا الله على انكار المنكر والامر بالمعروف بين الرعية بدون مبالاة من حاكم ولا خوف الا من الله وانهم كانوا لا يهابون الموت ولو أدى ذلك الدخول فى قتال مع اعدائهم وانهم كانوا دائما يدخلون فى جدال مع الائمة ويقومون بامتحانهم، وكان لما تولى أفلح بن عبد الوهاب أن أرادوا أن يعرفوا مدى صلاحيته لمنصب الامامة لاسيما وانهم قد وثقوا من والده عبد الوهاب فى أمور كثيرة، وكان قاضيا من قضاة أوربة قد مات فى أيامه فاجتمع «الشراة» إلى أفلح وسألوه أن يولى منصب القضاة من يستحقه فقال لهم اجمعوا أمركم وقدموا خيركم ثم اعلمونى به أجيره لكم وأعضده (أى أقوم بتعيينه) على أن يكون من أهل الصلاح والتقوى والورع فقام الشراة باختيار « محكم الهوارى» الساكن بجبل الاوراس لهذا المنصب وأتوا إلى أفلح وأخبروه بذلك فقال أفلح لن نرضى لقضائنا هذا

(٦) الباردنى : الازهار الرياضية جـ ٢ ص ٦٦ .

الرجل، وأصر الشراة على اختياره، وقد أثبتت الاحداث بعد نظر أفلح وعلمه بدقائق الامور، فعندما ذهب الشراة إلى «محكم الهوارى» لاخباره باختياره لنصب القضاء قال لهم أنه لا يقبل ذلك الامر لان الحق أمر من شرب الدواء ولا يشرب الدواء الا كرها ولكنهم أصروا فنزل على رغبتهم وتولى منصب القضاء [٧] .

وبالغ أفلح بن عبد الوهاب فى اظهار التواضع اذ رأى أن شخصيته كامام محط أنظار الجميع، ويذكر ابن الصغير أن وفدا من أباضية جبل نفوسة نزلوا ضيوفا فى تاهرت على دار الامام، فأظهر لهم تواضعه فى الاكل والمشرب حتى انه كان يصب الماء على أيديهم بعد تناول الطعام، وبهذا أصبح أفلح بن عبد الوهاب موضع الرضا والتقدير من الجميع وكان أفلح بن عبد الوهاب لما تولى أمر الامامة قد أخذ فى ادارة شئون البلاد بالعزم والحزم ونشأ له من التبين ما لم يكن لغيره قبله وصار له الصيت ولم يكن يطغى عليه فى أحكامه وفى صدقاته وأعشاره غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ [٨] .

الامام أفلح وتدعيم الجبهة الداخلية :

ترك الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم عند وفاته دولة قوية البناء مستقره الدعائم متينة البناء وكان ابنه أفلح يدرك كل هذه الامور تمام الادراك وتلك الحقائق الهامة وان الكيان القبلى والنظام العشائرى الذى يتكون منه مجتمع الدولة الرستمية فى حاجة ماسة إلى ممارسة نوع من السياسة الخاصة ولما كان أفلح قد تربى فى كنف والده الذى تربى فى كمنف جده عبد الرحمن بن رستم وورث كل معايير الحكم فانه لم يكن أقل حنكة ودهاء وحكمة منهما فاستطاع بتعاليم والده وسياسته المتقلبة أن يقبض على زمام الامور فى الدولة وأن يسير بها الى بر الامان، ومن الاساليب التى لجأ إلى استخدامها

(٧) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٢٠ .

(٨) ابن الصغير : مصدر سابق ص ٢٢ .

الاسس التى تجرى عليها سائر الدول الاسلامية فى المشرق والمغرب وهى احترام مبدأ الورثة عند تولية مسئولية الحكم أو الخلافة أو الامامة (٦) .

ولقد اتفق الجميع على بيعة أفلح بن عبد الوهاب ورضى بها الجميع حيث انه ما كادت أخبار تولية الامامة تنتشر فى أنحاء العاصمة وفى كل أنحاء الدولة الرستمية الواسعة الاطراف حتى جاءت اليه كتب العمال فى مختلف الاقاليم والانحاء وكذلك كتب اليه أئمة المسلمين ورجال الدين فى كل الجهات والولايات، والجميع يعلنون مبايعتهم له وكان من بين هذه الكتب كتاب أبى عبيدة بن عبد الحميد المبادنى عامله على جبل نفوسة حيث الاقليم الشرقى من الدولة .

وقد ظهرت فى فترة امامة أفلح بن عبد الوهاب جماعة أطلقوا على أنفسهم اسم الشراة وقد تعرض أفلح فى مطلع عهده لاختبارات من جانب هؤلاء الشراة، وقد كان الشراة جماعة تتكون من أربعين رجلا ممن اشتروا آخرتهم بدنياهم بمعنى انهم تخلوا عن الدينا وعاهدوا الله على انكار المنكر والامر بالمعروف بين الرعية بدون مبالاة من حاكم ولا خوف الا من الله وانهم كانوا لا يهابون الموت ولو أدى ذلك الدخول فى قتال مع اعدائهم وانهم كانوا دائما يدخلون فى جدال مع الائمة ويقومون بامتحانهم، وكان لما تولى أفلح بن عبد الوهاب أن أرادوا أن يعرفوا مدى صلاحيته لمنصب الامامة لاسيما وانهم قد وثقوا من والده عبد الوهاب فى أمور كثيرة، وكان قاضيا من قضاة أوربة قد مات فى أيامه فاجتمع «الشراة» إلى أفلح وسألوه أن يولى منصب القضاة من يستحقه فقال لهم اجمعوا أمركم وقدموا خيركم ثم اعلمونى به أجيره لكم وأعضده (أى أقوم بتعيينه) على أن يكون من أهل الصلاح والتقوى والورع فقام الشراة باختيار « محكم الهوارى» الساكن بجبل الاوراس لهذا المنصب وأتوا إلى أفلح وأخبروه بذلك فقال أفلح لن نرضى لقضائنا هذا

(٦) البارذنى : الازهار الرياضية جـ ٢ ص ٦٦ .

الرجل، وأصر الشراة على اختياره، وقد أثبتت الاحداث بعد نظر أفلح وعلمه بدقائق الامور، فعندما ذهب الشراة إلى «محكم الهوارى» لاخباره باختياره لنصب القضاء قال لهم أنه لا يقبل ذلك الامر لان الحق أمر من شرب الدواء ولا يشرب الدواء الا كرها ولكنهم أصروا فنزل على رغبتهم وتولى منصب القضاء (٧) .

وبالغ أفلح بن عبد الوهاب فى اظهار التواضع اذ رأى أن شخصيته كامام محط أنظار الجميع، ويذكر ابن الصغير أن وفدا من أباضية جبل نفوسة نزلوا ضيوفا فى تاهرت على دار الامام، فأظهر لهم تواضعه فى الاكل والمشرب حتى انه كان يصب الماء على أيديهم بعد تناول الطعام، وبهذا أصبح أفلح بن عبد الوهاب موضع الرضا والتقدير من الجميع وكان أفلح بن عبد الوهاب لما تولى أمر الامامة قد أخذ فى ادارة شئون البلاد بالعزم والحزم ونشأ له من التبين ما لم يكن لغيره قبله وصار له الصيت ولم يكن يطغى عليه فى أحكامه وفى صدقاته وأعشاره غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ (٨) .

الامام أفلح وتدعيم الجبهة الداخلية :

ترك الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم عند وفاته دولة قوية البناء مستقره الدعائم متينة البناء وكان ابنه أفلح يدرك كل هذه الامور تمام الادراك وتلك الحقائق الهامة وان الكيان القبلى والنظام العشائرى الذى يتكون منه مجتمع الدولة الرستمية فى حاجة ماسة إلى ممارسة نوع من السياسة الخاصة ولما كان أفلح قد تربى فى كنف والده الذى تربى فى كمنف جده عبد الرحمن بن رستم وورث كل معايير الحكم فانه لم يكن أقل حنكة ودهاء وحكمة منهما فاستطاع بتعاليم والده وسياسته المتقلبة أن يقبض على زمام الامور فى الدولة وأن يسير بها الى بر الامان، ومن الاساليب التى لجأ إلى استخدامها

(٧) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٢٠ .

(٨) ابن الصغير : مصدر سابق ص ٢٢ .

مثلما فعل والده سياسة اضعاف التحالف بين القبائل عن طريق الوقيعة بينها والوشاية عن طريق رجاله، فقد كانت القبائل المنتشره حول تاهرت قد تعاظم شأنها نتيجة لما اكسبته من الاموال بسبب الرخاء الاقتصادى الذى عم الدولة، وهكذا سارت الامور فى دولة الاباضية فى تاهرت ومن كانوا يؤيدونهم من أباضية جبل نفوسة فى الاقاليم الشرقية سيرا وسطا بين الالتزام بمبادئ المذهب الاباضى والانحراف عنه وقد وقعت حروب كثيرة بينهم وأصيبت جماعتهم بانشقاقات كثيرة وخاصة بين أباضية تاهرت وأباضية جبل نفوسة، الذين أقاموا على أنفسهم اماما من بينهم عندما وقعت الحرب بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن والنكارية وطبق أباضية جبل طرابلس مبدأ الوراثة أيضا، حيث ولوا عليهم خلف بن السمح بن أبى الخطاب «بن الاعلى المعافرى» ولقد لقى منهم أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم غننا شديدا ولكن الاباضية فى تاهرت وجبل نفوسة استمرتا تغالبان المتاعب والازمات دهرا طويلا (٩) .

كما أن القبائل المحيطة بتاهرت قد اتخذت خطا جديدا فى السياسة نحو الامامة حيث كان جيل الاحفاد فى أفلح قد وطد نفوذ الرستمية فى البلاد. لذا عمد أفلح الى استخدام جهاز من أعوانه أشبه ما يمكن أن نطلق عليه بمصطلح العهد الحديث «جهاز المخابرات» وقد كانت وظيفة هؤلاء الاعوان القاء الاحقاد والفتن وبذر الخلافات بين القبائل الكبرى حول تاهرت وقد نجحت هذه السياسة ايما نجاح فى اضعاف مركز هذه القبائل وابطال ما قد تقوم به من تحالف (١٠) .

وحول هذه السياسة يذكر ابن الصغير انه لما رأى أفلح بن عبد الوهاب ما عليه القبائل فانه أرشى ما بين كل قبيلة وما يجاورها فارشى بين لواتة وزناتة وما بين لواتة

(٩) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والاندلس. ص ١٠٤ .

(١٠) محمد عيسى صابر: مرجع سابق، ص ١٢٢ .

ومطماطة وما بين الجند البربر والعجم حتى تنافرت النفوس ووقعت الحروب وصارت كل قبيلة ملاطفة لافلح خوفا من أن يعين صاحبتها عليها (١١) .

القضاء على فتنة جبل نفوسة :

كذلك فان أفلح بن عبد الوهاب لم يدخر وسعا، بل بذل أقصى جهوده فى القضاء على ثورة خلف بن السمح بن أبى الخطاب المعافرى تلك الثورة التى فتت فى عضد الدولة أيام عبد الوهاب بعد أن تولى أفلح منصب الخلافة فقد وصلته أنباء من واليه على الاقاليم الشرقية فى الدولة عبيدة بن عبد الحميد الجنادتى. يطلب منه فى تلك الرسالة أن يسمح له بالدخول فى حرب مع خلف بن السمح المعافرى، وذلك للقضاء على ثورته التى كانت قد بدأت فى عهد والده وذلك قبل أن يستفحل أمره، لكن أفلح بن عبد الوهاب الذى كان حريصا على وحدة القوة الاباضية فى بلاد المغرب وعدم قتل الاباضى لاخيه الاباضى رأى أن من الحكمة أن يساير عبيدة خلف بالاسلوب السياسى وأن يلاطفه ويستعمل معه كل الاساليب السياسية من حكمة ودهاء وحنكة وذلك توطيدا للامن وحقنا للدماء ولكن خلف بن السمح قد ظن أن ذلك الاسلوب الذى سار عليه أفلح وأمر عامله بالتعامل باللين أن يتخذه خطا الحكم نوعا من الضعف .

وهناك استطاع خلف بن السمح أن يحشد جيشا كثيفا وضخما تقدم به ناحية مدينة «جارو» حيث مقر أبى عبيدة ولكن أبا عبيدة خرج اليه بحشد من قوات الدولة والتقى بطليعة من طلائع جيش خلف كانت قد أغارت على قرية «أورق» وهى من قرى جبل نفوسة وقتلوا من أهلها عددا كبيرا ولم يصمد رجال خلف طويلا أمام قوات أبى عبيدة ففروا عائدين من حيث أتوا إلى مقر خلف بن السمح. وبعد تلك الواقعة فان أبا عبيدة أرسل كتابا إلى خلف بن السمح يدعوه فيه بالكف عن الفساد والالتزام بالناحية

(١١) ابن الصغير: مصدر سابق، ص ٢٣ .

التى يسكن فيها والا يرسل قواته للاغارة على قرى أباضية آمنة، ورغم هذه المحاولة من جانب أبى عبيدة، فان خلف استعد لجولة ثانية مع أبى عبيدة فعزم الأمر ولم يكن قد مضى عام واحد على حادث قرية «أورق» حيث خرج اليه فى أربعين ألف جندى وقامت معه بقايا النكارية أتباع «أبو قدامة يزيد بن قندين» بمحاولات لصرف أبى عبيدة عن حرب خلف بن السمح ودعوته هو نفسه إلى خلع طاعة أفلح بن عبد الوهاب ولكن أبا عبيدة رفض هذه الدعوة كما رفض محاولة ثانية قام بها رسولان أرسلهما خلف لدعوة أبى عبيدة إلى خلع طاعة الامام أفلح بن عبد الوهاب والدخول فى طاعة خلف بن السمح المعافرى ولم يجد أبو عبيدة أمامه من طريق الا لقاء قوات خلف بن السمح للمرة الثانية رغم قلة عدد قواته وبالقرب من مدينة «جارو» دارت بينه وبين خلف معركة حامية الوطيس انتصر فيها أبو عبيدة وذلك عشية الخميس الثالث عشر من رجب عام احدى وعشرين ومائتين هجرية وفر خلف بن السمح من أرض المعركة بعد أن قتل من جنده أعداد كبيرة [١٢] .

ولم يرتدع خلف بن السمح الا على يد الوالى « العباسى بن أيوب» الذى تولى شئون جبل نفوسة بعد وفاة أبى عبيدة، ودارت بين العباسى وخلف معركة فاصلة استطاع فيها العباسى أن ينتصر على قوات خلف ورغم ضعف قوة خلف وانهيار قواته بسبب هذه الحروب فان جماعة الخلفيين اتباع خلف بن السمح بن أبى الخطاب المعافرى ظلت قوية وحيه بين الفرق الاباضية الاخرى فى اقليم جبل نفوسة .

كذلك لم يكن خروج خلف بن السمح المعافرى عن طاعة الامام أفلح هى المشكلة الوحيدة التى واجهت الدولة الرستمية، بل حدثت بعض المشاكل الداخلية والتى منها خروج «فرج النفوسى» فى جبل نفوسة أيضا والمعروف باسم بنفات بن نصر خرج عن

(١٢) البارونى: مصدر سابق، جـ ٢٠ ص ١٧٣ .

طاعة الامام أفلح وطعنه فى الائمة الرستميين وكان نفات هذا يقيم فى احدى القرى القريبة من بلدة فنطرارة فى جبل نفوسة وقد وفد إلى تاهرت لتلقى العلم بصحبة صديقه «سعيد بن أبى يونس» الذى كان والده عاملا على قنطرارة من قبل الامام أفلح بن عبد الوهاب وفى تاهرت ارتادا معا مجالس الامام أفلح وغيرها من المجالس العلمية والاستزادة العلمية من الشخصيات المعروفة لدى الامام وغيره من العلماء وبعد وفاة والد سعيد قرر الامام أفلح بعد مشاورة أهل الرأى أن يتولى «سعيد بن أبى يونس» على مدينة فنطرارة خلفا لوالده وذلك لما لمسه فى سعيد من الصلابة فى الرأى والقوة فى الحجة والتفقه فى الدين وحس التجربة والوقوف عند أمور الشرع وما ينهى عنه [١٣] .

ولقد كان ذلك التعيين من الاسباب القوية التى حركت فى نفس نفاث أن يدعو قومه للخروج على طاعة الامام وما لبث أن عاد إلى قريته وهناك خرج على الامام وأشهر الطعن فى الامام قائلا أن أفلح أضاع أمور المسلمين واتبع أمور الشيطان ويصلى بلا شعور، وازاء تلك الاقوال وما جاء على لسان نفاث وخوفا على ما تحدثه تلك الآراء من بلبلة بين العامة فقد بعث الامام أفلح بالرسائل إلى عماله فى مختلف نواحى الدولة وبصفة خاصة فى الاقاليم التى يقطنه نفاث يحذرهم فيها من أقوال نفاث وضرورة محاصرة تلك الآراء، وفى نفس الوقت بعث برسالة أخرى إلى نفاث يحذره فيها من مغبه هذه الاقوال، بل انه شد عليه فى استخدام القوة ضده وانتهاء مرحلة اللين فخاف نفاث على نفسه وجمع أمواله وهرب إلى أرض سرت شمالا ومنها إلى بغداد حيث أقام هناك فى كنف الخلافة العباسية، الا انه رغم فراره، فقد ظل هناك فى جبل نفوسة بعض الذين تأثروا بآراء نفاث بين نصر وظلوا ينادون بتطبيق هذه الآراء، لذا عرفوا باسم النفاتية [١٤] .

(١٣) الدرجيبى: طبقات الاباضية ورقة ٣٤ .

(١٤) السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص ٥٨٨ .

وقد شهدت مدينة تاهرت والدولة الرستمية حركة فكرية وثقافية وحضارية واسعة فى عهد أفلح بن عبد الوهاب وقد ساعد على ذلك احترام الامام أفلح لمبدأ حرية الفكر التى سادت دولته بحيث استطاع أن يجذب اليه وإلى جانبه أنصار المذهب والافكار الواصلية احدى فروع المعتزلة وذلك بعد أن كانوا أعداء والده بالامس فأصبح الامام أفلح رئيسا للواصلية إلى جانب كونه رئيسا للاباضية والصفرية ونجح فى ذلك نجاحا كبيرا حيث استطاع احتواء هذه الجماعات وفى ذلك يقول البكرى وكان « ميمون» «أفلح بن عبد الوهاب » رئيس الاباضية وامامهم وامام الصفرية والواصلية وكان يسلم عليه بالخلافة وتدعيما لاركان الدولة كان يكتب الكتب إلى عماله فى الاقاليم لكى يقوموا بنقلها إلى العامة وتدعوهم هذه الكتب إلى تقوى الله واتباع آثار السلف الصالح من الخلفاء الراشدين وصحابة رسول الله ﷺ. وأن يقوموا لله بالعدل فى عباده وبلاده [١٥] وقد كان لهذه الرسائل أثرها فى تهدئة الاحوال فى الدولة حتى أصبح عهد أفلح بن عبد الوهاب عهد ازدهار الدولة الرستمية، وساد الدولة الرستمية الهدوء ومن ثم اتجهت طاقات أبنائها إلى العمل على تقدم الدولة وازدهارها وبدأت طلائع هذا التقدم تظهر فى حياة أفلح بن عبد الوهاب الذى سمح فى ملكه وأخذ فى بناء القصور واتخذ له أبوابا من حديد وعمرت معه الدنيا وكثرت الاموال وانته الرفاق والوفود من كل الامصار والآفاق وعمر فى امارته ما لم يعمره أحد من قبله وأقام خمسين عاما أميرا نشأ له البنون وبنو البنين وشمخ فى ملكه[١٦] .

أما البلاد فقد حفلت بأنواع التجارات التى عادت على الناس بأرباح وفيرة أنفقوها فى البناء والعمران وتفانى الناس فى البناء وقد أعجب ابن الصغير بجمال هذه القصور وروعتها ودقة النظام بها وإلى جانب هذه القصور الفخمة كانت هناك أحياء كاملة أنشأتها بعض القبائل والجماعات، فأبتنت نفوسة لنفسها فى العدوه وقامت جماعة الجند القادمة

(١٥) البكرى: مصدر سابق ص ٦٨ .

(١٦) رابح بونار: المغرب العربى ص ٣٦ .

من افريقية هربا من بطش الاغالبة بناء لهم أقاموا فيه وأطلقوا عليه اسم المدينه العامرة وكان للعجم دورهم فى اثراء الدولة الرستمية وازدهارها عن طريق التجارة التى كانوا يمارسونها وصارت مؤسساتهم الاقتصادية تمثل جزءا هاما من اقتصاديات الدولة الرستمية[١٧] بل أن ظاهرة الازدهار الاقتصادى لم تكن قاصرة على مدينة تاهرت وانما انتقلت إلى سائر جهات الدولة فنالت القبائل المختلفة جانبا من الثروة وظهرت عليها آثار الرخاء وانتشرت القبائل وعمرت العمارة وكثرت الاموال بأيديهم كما نالت الدولة قسطها من الازدهار الثقافى والحضارى فأصبحت تاهرت مركزا ثقافيا هاما كغيرها من المراكز الاسلامية وخصوصا الثقافة الدينية [١٨] .

ولقد ساعد على ازدهار الحركة الدينية الاسلامية والفكرية والثقافية أن أئمة الاباضية كانوا علماء دين ورؤساء مذهب يتطلب من أصحابه أن يكونوا على أهبة الدفاع عن آرائهم وأفكارهم ومبادئهم الدينية بالحجة الدامغة والدليل القوى الذى يستطيع أن يدحض آراء الخصم مثلما حدث فى الصراع بين الاباضية والواصلية فى عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم [١٩] ولقد ساعد ذلك على أن تكون مساجد العاصمة تاهرت قبلة لطلاب العلم مِن أنحاء البلاد يتلقون مبادئ الفكر الاباضى على أيدى كبار علماء الاباضية فى أصول الدين والفقه والشريعة والرياضيات والطب والكيمياء والتنجيم وقد شاركت المرأة الرستمية فى هذه النهضة الثقافية كما أن الثقافة العربية الاسلامية المشرقية أصبح لها جذور ثانية فى بلاد المغرب العربى، ولقد كان لازدهار الدولة الرستمية على هذا النحو اثاره الخطيرة على جيرانهم فقد توسع ملك الرستميين توسعا كبيرا وتضخمت ثرواتهم وتألق نجمهم فى سماء المغرب العربى كله وأصبحت تاهرت تحتل مكان الصدارة

(17) Golvin, L, : Le Magreb central 'a L'epoque des Zirides. P.20

(١٨) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٢٨ .

(١٩) محمد الطومار تاريخ الادب الجزائرى ، ص ٣٠ .

فى بلاد المغرب وقد أحس الاغالبة حكام افريقية (تونس) خطورة هذا الامر على مركزهم السياسى والاقتصادى فقام «أبو العباسى محمد بن الاغلب» ببناء مدينة قرب تاهرت سماها العباسية عام ٢٣٩هـ لتقف فى وجه الرستميين وتجذب الانظار عنهم وتحتل مكانة عاصمتهم تاهرت، لذا لم يدخر أبو العباسى محمد بن الاغلب وسعا فى ترتيب أسواقها وفق نسق وترتيب غريب. وهذا ما يفسر أهمية السبب الذى أقيمت العباسية من أجله ورغم أن أفلح بن عبد الوهاب، سالم جيرانه الاغالبة بادى ذى بدء جريا على سياسة والده عبد الوهاب الا انه رأى أن اقامة العباسية تهديد لسلامة الدولة الرستمية وأمنها فما كان منه الا أن سكت حتى أتم أبو العباسى محمد ابن الاغلب بناءها ونظم أسواقها فهجم عليها أفلح وأجلى عنها سكانها ثم أضرم فيها النيران وأحرقها عن آخرها ولم يكن فى استطاعة ابن الاغلب أن يفعل شيئا للرد على أفلح بن عبد الوهاب ومن ثم أكثر السلام ولاذ بالصمت بعد أن كانت هذه المدينة تضايقه وقد كان هدمها فى عام ٢٢٧ هـ وقبل عام ٢٣٩ والتاريخ الثانى هو الاصوب [٢٠] .

وقد كان للامام أفلح بن عبد الوهاب ولدان هما أبو بكر وأبو اليقظان واشتهر أبو اليقظان بالتقوى والورع وقد أبدى رغبته قبل وفاة أبيه أفلح فى تأدية فريضة الحج إلى مكة المكرمة فأذن له والده وعندما وصل أبو اليقظان إلى مكة وطاف وسعى اكتشف رجال العباسيين وجوده بين الحجيج وسمعوا أن أبا اليقظان قدم من المغرب يرتاد البلاد ويرسل رسله فى الآفاق إلى القوم الدين كانوا على أرائهم ومذهبهم ليأخذوا إلى أنفسهم إلى أن يأتيه والده من المغرب فقبض العباسيون على أبى اليقظان ومعه رجل من نفوسه كان يخدمه وحمل الاثنان فى الاسر إلى بغداد وفى السجن التقى أبو اليقظان بالمتوكل على الله العباسى أخى الخليفة الواثق فأصبح صديقا حميما له ولهذه الصداقة سوف يكون أثرها

(٢٠) رابح بونار: المغرب العربى، تاريخه وثقافته ص ٣٧ .

فى حياة أبى اليقظان بعد ذلك ، ولما علم الامام أفلح بن عبد الوهاب بما حدث لولده أبى اليقظان اشتد حزنه عليه وطالت غمته إلى أن وافته منيته وابنه محبوس فى بغداد وكانت وفاته عام ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م [٢١] .

(٢١) محمد عيسى صابر : مرجع سابق، ص ١٩٠ .

الباب الخامس

الدولة الرستمية بعد أفلح بن عبد الوهاب

(٢٤٠– ٢٩٦هـ– ٨٥٤– ٩٠٨م)

الامام أبو بكر بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم

(٢٤٠– ٢٤١هـ– ٨٥٤– ٩٠٨م)

اذا كانت الدولة الرستمية قد نعمت بالرفاهية التامة والرخاء الفائق، فى عهد الامام عبد الوهاب والد أفلح، فان فترة حكم أفلح التى طالت خمسين عاما قد ساد فيها الدولة الرستمية الرخاء والتطور، ذلك لان أفلح كان ذا شخصية قوية متمرسة لهذا احتفظت الدولة فى عهده بقوتها وكيانها وهيبتها بين جيرانها الاغالبة والادارسة والامويين فى الاندلس وبنى مدرار فى سجلماسة، لكن بوفاة أفلح بن عبد الوهاب عام ٢٤٠هـ– ٨٥٤م أخذت الامور تتغير فى البلاد وبدأت تأخذ طابعا مغايرا اذ تولى الامامة بعد ذلك الامام أبى بكر والذى لم تكن له من المميزات الشخصية والصفات العلمية والتوسع الفكرى الذى يستطيع من خلال تلك الصفات سياسة وقيادة دولة لها أهميتها الكبرى فى المغرب العربى والعالم الاسلامى مثل الدولة الرستمية، وكان أهل الحل والرأى والادارة من نفوسة وغيرهم المقيمون بتاهرت العاصمة قد اختاروا للامامة أبا بكر وعقدوا لواءها له عام ٢٤٠هـ [١] لانه كان ابن الامام أفلح ولم يكن غيره من أبناء البيت الرستمى قادرا على تحمل مسئولية الدولة بعد وفاة والده، لاسيما كما سبق الاشارة فان أخاه أبا اليقظان كان مقبوضا عليه فى بغداد كما سبق القول عندما ذهب لاداء فريضة الحج، كذلك فان الابن

(١) البارونى: الازهار الرياضية جـ ٢ ص ٢٢١ .

الثالث للامام أفلح وكان يدعى «يعقوب» كان حدثا ولا يزال صغيرا ولا يصلح لتولى الامامة وقيادة الدولة وبذلك فاننا نرى هنا أن الظروف كانت تسمح بتولى امامة الدولة لغير أبناء البيت الرستمى الا أن الاباضية لم يستطيعوا تطبيق مبدأ الشورى فى الاختيار العام كما انهم لم يستطيعوا التخلص من مبدأ الوراثة عندما كانوا شيعة يطالبون بأن تكون الامامه وراثية فى أهل البيت [٢] .

لكن فى تلك الظروف التى كان عليها الامام أبو بكر فان كثيرا من أهل الرأى من الاباضية والذين كانوا يؤمنون بمبدأ الانتخاب العام رفضوا تولية الامام أبى بكر، ذلك لان الامام أبا بكر لم تبايعه الا قبيلة نفوسة احدى قبائل تاهرت القوية ذات النفوذ السياسى ولم يبايعه غيرها [٣] ومن ذلك فانه يصح أن هناك قوة سياسية قوية وضخمة هى قوة قبيلة نفوسة فى تاهرت والتى كانت ترى بل توجب المحافظة على أن تكون الامامة دائمة ووراثية فى البيت الرستمى رغم معارضة المعارضين ومهما رفض الرافضون لامامة أبى بكر [٤] .

وكان أبو بكر ضعيفا ليس فيه من الشدة والقوة مما كان يتمتع به أبوه أفلح ومواقفه الشجاعة ولكنه كان يميل إلى الخمول والكسل والراحه وكان أديبا فقيها غير مهتم بالناحية السياسية واشتغل بالادب والعلم وترك قصيدة طويلة منها هذا البيت .

العلم أبقى لاهل العلم آثارا.. يريك أشخاصهم زوجا وابكارا [٥] ومن هنا فانه كان يهتم بأخبار الادب والاشعار والتاريخ وسير السابقين وانصرف الى حياة اللهو والترف وترك شئون الدولة لصهره «محمد بن عرفة» الذى سبق أن قام بالسفارة بين والده أفلح

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى . ص ٣٨٦ .

(٣) رابح بونار: مرجع سابق ص ٣٧ .

(٤) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٩٤ .

(٥) رابح بونار: مرجع سابق ص ٣٧ .

الباب الخامس

الدولة الرستمية بعد أفلح بن عبد الوهاب

(٢٤٠– ٢٩٦هـ– ٨٥٤– ٩٠٨م)

الامام أبو بكر بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم

(٢٤٠– ٢٤١هـ– ٨٥٤– ٩٠٨م)

اذا كانت الدولة الرستمية قد نعمت بالرفاهية التامة والرخاء الفائق، فى عهد الامام عبد الوهاب والد أفلح، فان فترة حكم أفلح التى طالت خمسين عاما قد ساد فيها الدولة الرستمية الرخاء والتطور، ذلك لان أفلح كان ذا شخصية قوية متمرسة لهذا احتفظت الدولة فى عهده بقوتها وكيانها وهيبتها بين جيرانها الاغالبة والادارسة والامويين فى الاندلس وبنى مدرار فى سجلماسة، لكن بوفاة أفلح بن عبد الوهاب عام ٢٤٠هـ– ٨٥٤م أخذت الامور تتغير فى البلاد وبدأت تأخذ طابعا مغايرا اذ تولى الامامة بعد ذلك الامام أبى بكر والذى لم تكن له من المميزات الشخصية والصفات العلمية والتوسع الفكرى الذى يستطيع من خلال تلك الصفات سياسة وقيادة دولة لها أهميتها الكبرى فى المغرب العربى والعالم الاسلامى مثل الدولة الرستمية، وكان أهل الحل والرأى والادارة من نفوسة وغيرهم المقيمون بتاهرت العاصمة قد اختاروا للامامة أبا بكر وعقدوا لواءها له عام ٢٤٠هـ [1] لانه كان ابن الامام أفلح ولم يكن غيره من أبناء البيت الرستمى قادرا على تحمل مسئولية الدولة بعد وفاة والده، لاسيما كما سبق الاشارة فان أخاه أبا اليقظان كان مقبوضا عليه فى بغداد كما سبق القول عندما ذهب لاداء فريضة الحج، كذلك فان الابن

(١) البارونى: الازهار الرياضية جـ ٢ ص ٢٢١ .

الثالث للامام أفلح وكان يدعى «يعقوب» كان حدثا ولا يزال صغيرا ولا يصلح لتولى الامامة وقيادة الدولة وبذلك فاننا نرى هنا أن الظروف كانت تسمح بتولى امامة الدولة لغير أبناء البيت الرستمى الا أن الاباضية لم يستطيعوا تطبيق مبدأ الشورى فى الاختيار العام كما انهم لم يستطيعوا التخلص من مبدأ الوراثة عندما كانوا شيعة يطالبون بأن تكون الامامه وراثية فى أهل البيت [2] .

لكن فى تلك الظروف التى كان عليها الامام أبو بكر فان كثيرا من أهل الرأى من الاباضية والذين كانوا يؤمنون بمبدأ الانتخاب العام رفضوا تولية الامام أبى بكر، ذلك لان الامام أبا بكر لم تبايعه الا قبيلة نفوسة احدى قبائل تاهرت القوية ذات النفوذ السياسى ولم يبايعه غيرها [3] ومن ذلك فانه يصح أن هناك قوة سياسية قوية وضخمة هى قوة قبيلة نفوسة فى تاهرت والتى كانت ترى بل توجب المحافظة على أن تكون الامامة دائمة ووراثية فى البيت الرستمى رغم معارضة المعارضين ومهما رفض الرافضون لامامة أبى بكر [4] .

وكان أبو بكر ضعيفا ليس فيه من الشدة والقوة مما كان يتمتع به أبوه أفلح ومواقفه الشجاعة ولكنه كان يميل إلى الخمول والكسل والراحه وكان أديبا فقيها غير مهتم بالناحية السياسية واشتغل بالادب والعلم وترك قصيدة طويلة منها هذا البيت .

العلم أبقى لاهل العلم آثارا.. يريك أشخاصهم زوجا وابكارا [5] ومن هنا فانه كان يهتم بأخبار الادب والاشعار والتاريخ وسير السابقين وانصرف الى حياة اللهو والترف وترك شئون الدولة لصهره «محمد بن عرفة» الذى سبق أن قام بالسفارة بين والده أفلح

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى . ص ٣٨٦ .

(٣) رابح بونار: مرجع سابق ص ٣٧ .

(٤) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٩٤ .

(٥) رابح بونار: مرجع سابق ص ٣٧ .

بن عبد الوهاب وملك السودان وكان ابن عرفة قد تزوج بأخت أبى بكر بن أفلح وفى نفس الوقت فان محمد بن عرفة زوج أخته لابى بكر (٦) وعلى تلك الصورة ازداد وزن محمد بن عرفة السياسى وأصبح له نفوذ كبير فى الدولة الرستمية بل كان هو صاحب الكلمة الاولى فى تقرير مصير العديد من الامور بل انه يذكر انه كان الامام الفعلى للبلاد وكانت الامارة بالاسم لابى بكر وبالحقيقة لمحمد بن عرفة وقد ترتب على ذلك ضعف سلطة الامام على القبائل فكانت الحروب فيها تشتعل ثم تسكن، بل ان الخلافات تطرقت الى داخل بعض القبائل الكبرى فى الدولة وأدت الى انقسامها لا سيما هوارة فانها تحاسدت حتى انقسمت (٧) .

الصراع من أجل تولية الامام أبو اليقظان محمد بن أفلح وعودة أبى اليقظان من بغداد :

فى هذه الظروف التى أخذ فيها نفوذ الامام فى الاضمحلال والتأثير على القبائل وازداد نفوذ صهره «محمد بن عرفة» عاد أبو اليقظان بن أفلح من العراق حيث كان سجينا فى سجن بغداد اذ كان قد سجنه الواثق بالله الخليفة العباسى فى سجن واحد مع أخيه المتوكل ولما توفى الواثق وتولى الخلافة المتوكل أفرج عن أبى اليقظان وأحسن اليه المتوكل وأذن له بالعودة إلى بلاده فألتحق بالعاصمة تاهرت (٨) ووجد أبو اليقظان عند عودته أخاه أبا بكر اماما والعجم على أحوالهم والنفوسة على مراتبهم وسائر الناس على ما هم عليه فلم يتغير شئ وظل بعيدا عن المجال السياسى ولم يدع الامارة لنفسه ولم ينازع فيها أخاه، بل أن أبا بكر انصرف إلى ملذاته وشهواته وترك إلى أبى اليقظان تسيير أمور الدولة فكان أبو اليقظان يجلس فى المسجد إلى الناس ويقضى مصالح الناس ويستمع إلى

(٦) ابن الصغير : مصدر سابق ص ٣١ .
(٧) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٩٤ .
(٨) رابح بونار: مرجع سابق ص ٣٧ .

القضاة وأصحاب الشرطة ويقوم بالحكم بين الناس واجراء الحقوق على كل القوم مهما عظم قدرهم أو صغر (٩) .

وبينما كان أبو اليقظان يحكم ويسير أمور الدولة وشئونها كان نفوذ محمد بن عرفة فى ازياد عما كان عليه مما أوغر صدور رؤساء وأئمة الاباضية عليه حتى واتتهم فرصة الاجتماع بأبى بكر وصرحوا له بأن يعتقل ابن عرفة وأقلقت هذه الأخبار أبا بكر بن أفلح واراد أن يتأكد بنفسه وتم قتل ابن عرفه على يد أبى بكر وقد كانت ردود الفعل لمقتل ابن عرفة قوية وعنيفة فى تاهرت حيث اجتمع أنصار ابن عرفة بقيادة محمد بن الوليد ومعهم جند القيروان خلف الخادم مولى الاغلب بن سالم (١٠) .

وكان هؤلاء الجند قد أعلنوا فى فترات سابقة ومناسبات كثيرة تمردهم على الاغالبة وتركوا القيروان والمناطق التى تخضع لنفوذهم واستقروا فى تاهرت حيث وجدوا ما تهفو اليه نفوسهم فى ظل الدولة الرستمية وأسسوا لهم بالمدينة ريضا كبيرا بها يعرف بالمدينة العامرة وطبيعى أن يؤيد هؤلاء الجند الوافدون من القيروان أنصار محمد بن عرفة فى محنتهم لان محمد بن عرفة عربى وقيروانى مثلهم وافد من القيروان ومن هنا كانت تلك الثورة من علامات اهتزاز مكانة أبى بكر بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (١١) .

بالاضافة الى أن مقتل محمد بن عرفة قد شد إلى جانب هؤلاء الجند الثائرين بعض وجوه التجار الكبار من العرب وغيرهم فى تاهرت للوقوف فى وجه الامامة وضرورة انهاء حكم بنى رستم، وفى تلك الحالة فقد كان موقف أبى بكر بن أفلح ضعيفا بحيث لم يكن تلتف حوله الا بعض البطانة الموالون لبنى رستم وقد خاض بهم معاركه الاولى مع

(٩) ابن الصغير : مصدر سابق ص ٣٢ .
(١٠) محمد عيس صابر : مرجع سابق ص ١٩٥ .
(١١) السيد عبد العزيز سالم: مرجع سابق ص ٥٦ .

العرب والجند القيروانيين أما العجم فقد انتهزوا فرصة انشغال العرب والجند فى مقاتلة الامام وأتباعه وهاجموا أطراف المدينة التى يمتلكها العرب والجند، أما أثناء تلك الحروب فان أبا اليقظان بن أفلح شقيق أبى بكر فقد آثر عدم الخوض فى هذه الحروب هو ونفوسة بل اننا نجد انه انتقل الى عدوه نفوسة وأقام بها وان كان العرب والجند ينظرون إلى موقف أبى اليقظان هذا بكثير من الشك ويرونه يحرض عليهم فى السر (١٢) وقد كان موقف أبى اليقظان المتخاذل تجاه أخيه أبى بكر يدل دلالة قوية على انه يضمر شرا لاخيه ويريد أن تكون الامامة له من بعده والا فلماذا وقف هذا الموقف السلبى هو وقبائل نفوسة التى كانت تشكل صمام الامان للدولة الرستمية، ليس هناك أدنى شك فى انه كان يطمع فى الامامة. وبذلك تحولت الحرب الاهلية فى تاهرت الى حرب بين العجم وبين العرب ومعهم جند القيروان (١٣) وأما أبو بكر فقد تشاءم الناس منه فبقى فى داره لا يأمر ولا ينهى ويلاحظ أن جند القيروان رغم عدائهم للاغالبة فقد اندس بينهم عدد كبير من حواسيس الاغالبة الذين قاموا فى الدولة الرستمية بأعمال الطابور الخامس بهدف تقويض هذه الدولة والقضاء عليها وكان لخلف الخادم مولى الاغلب بن سالم دور خطير فى القيام بمثل هذه الاعمال كما كان خلف المحرض الاول للعرب والجند لاحراق درب النفوسيين ليقحمهم فى الحرب الاهلية وأما العجم عندما شرعوا فى الدخول فى دائرة الحرب مع العرب والجند فكان هدفهم أن تصبح لهم المكانة الاولى والاخيرة فى تاهرت اذ قاموا بدور المنقذ للبلاد والسلطان وما لبثت أن طفت على السطح مرة أخرى حتى أصبحت الحرب حالة طبيعية وحمت فيهم حمية الجاهلية الاولى .

وكان لما نجح الجند فى احراق درب النفوسيين فان الحرب الاهلية دخلت فى تاهرت مرحلة جديدة فقد وحدت نفوسة صفوفها مع العجم والرستمية بقيادة أبى اليقظان

(١٢) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٩٦ .

(١٣) ابن الصغير: مصدر سابق ص ٣٩ .

بن أفلح لانقاذ الامور المتدهورة فى تاهرت وقد أحرز هذا التحالف انتصارات قتالية مع العرب والجند فى وقائع كثيرة، لكن موقف أبى اليقظان وحلفائه قد بدأ فى الضعف والتراجع أمام قوة العرب والجند المتزايدة، أما أبو بكر بن أفلح فقد خرج من تاهرت وقد انتهز أحد رجال قبيلة هوارة الاقوياء (محمد بن مسالمة الهوارى) الاباضى فرصة خروج الرستميين من تاهرت فاستولى عليها وأصبح لقبيلة هوارة اليد العليا فى تاهرت وكانت لواتة اذ ذاك تقيم بالمدينة فسلطت هوارة عليها فلما رأت لواتة ذلك ، حلت عن المدينة ونزلت بحصنها المعروف بحصن لواتة (١٤) وقد كان لخروج لواتة من تاهرت تغيرا فى ميزان القوى مرة ثانية فى صالح الرستميين فقد أرسلت لواتة إلى أبى اليقظان ودعته إلى النزول الى جوارها وهناك تمت مبايعة أبى اليقظان بالامامة بعد أن اعتز لها أخوة أبى بكر بن أفلح عام ١٤١هـ (١٥) .

أبو اليقظان بن أفلح امام الدولة

(٢٤١ – ٢٨١هـ – ٨٥٥ – ٨٩٤م)

بعد أن بايعت لواتة أبا اليقظان بالامامة فقد صارت له بعد ذلك الدعوة والامامة وقدمت اليه جموع كبار الاباضية من كل الاقطار وكذلك خرج اليه من العاصمة تاهرت حيث حصن لواتة الكثير من القوم الذين كانوا يحبون أبا اليقظان فأعلنوا ولاءهم له ومبايعتهم له اماما، كما كانت قد وفدت اليه قبائل من جبل نفوسه حيث لبت نداءه ليرسخ أركان الدولة وأرسلت اليه اعدادا وفيرة من الرجال تحرك بهم أبو اليقظان حتى نزل فى غرب تاهرت واتفق القوم على عقد الصلح مع أبى اليقظان على أن يسير على نهج السلف من أجداده وأبائه وأكدت نفوسة أهمية هذا الصلح للمجتمعين وقال الذين قدموا

(١٤) ابن عذارى المراكشى: البيان المغرب جـ ١ ص ٢٩٧ .

(١٥) ابن الصغير: مصدر سابق ص ٤٩ .

من جبل نفوسة أن قدومهم كان لاجل عقد الصلح بين طوائف الاباضية، وفور توقيع الصلح بين الطوائف المتصارعة دخل أبو اليقظان المدينة وضرب سرادقة الذى قدم به من بغداد والذى كان قد أهداه له الخليفة المتوكل على الله عند الافراج عنه من السجن، وظل أبو اليقظان مقيما فى سرداقة حتى بنى له أهل المدينة داره التى كانت قد تهدمت أثناء الحرب الاهلية فنزل أبو اليقظان وترك القادمون من خارج المدينة أماكنهم وعادوا من حيث أتوا وعلى هذه الصورة انتهت هذه الحرب الداخلية الاهلية التى أوشكت أن تقضى على الدولة الرستمية نهائيا وكانت لجهود أبى اليقظان ونفوسه الاثر الاكبر فى عودة الحياة الطبيعية إلى هذه الدولة مرة ثانية، وكانت مدينة تاهرت قبل دخولها قد انقضت عليه حوالى سبع سنوات ظل خلالها يهاجم المدينة حتى استطاع دخولها [١٦] .

لم تذكر المصادر شيئا عن المراحل الاولى عن حياة الامام أبى اليقظان انما اتفق الكثير منهم بالحديث عن تدينه وورعه وتقواه والصلاح الذى كان عليه وطابع اهتمامه بالشئون الدينية وكان حسن السيرة محمود السمعة عند جميع الناس وكان تقيا ورعا يخاف الله فى كل تصرف من تصرفاته وكان ذلك من الدوافع القوية التى حفزته لطلب أداء فريضة الحج والذى كان دائما يلح على والده فى أداء تلك الفريضة الخامسة حتى استطاع أن يأذن له فى أداء الحج رغم الاخطار التى يمكن أن يتعرض لها أبو اليقظان وخرج أبو اليقظان مع قافلة كبيرة حتى اذا ورد مكة المكرمة قبض عليه رجال بنى العباسى وحملوه من مكة الى بغداد وهناك زجوا به فى السجن (سبق الحديث عن تلك الحادثة فى سيرة والده أفلح بن عبد الوهاب) وكان الخليفة العباسى المتوكل قد عرض على أبى اليقظان أن يوليه امارة أى بلد يختاره فى بلاد المشرق أو المغرب العربى، لكن أبا اليقظان رفض ذلك الطلب بالاغراءوفضل عليه العودة الى بلاده فقد كانت لديه رغبة شديدة فى

(١٦) رابح بونار: مرجع سابق ص ٣٧ .

العودةالى العاصمة تاهرت ومن هنا لم يجد الخليفة بدا من الموافقة على رحيله إلى المغرب حيث الدولة الرستمية ثم أمر الخليفة وزيره بالنظر فى أمر تجهيزه بأحسن جهاز وأمر له بسرداق ثم أمر له بكسوة ونفقة وكتب له كتابا الى جميع عماله بالامصار التى يمر بها بضرورة تسهيل حركة تنقله والسهر على راحته وحفظه من كل مكروه وتوفير كل الرعاية وضرورة اكرامة [١٧] .

ولقد كانت الفترة التى أمضاها أبو اليقظان فى بغداد فى ظل الخلافة العباسية أثرها الكبير فى تكوين شخصيته السياسية سواء تلك الفترة التى قضاها فى السجن مع المتوكل شقيق الخليفة الواثق العباسى حيث توثقت الصلات بينهما حتى صارا شخصين متلازمين، أو تلك الفترة التى قضاها فى بلاط العباسيين بعد الافراج عنه وحتى ميعاد رحليه إلى بلاد المغرب حين قرر أبو اليقظان أن يعود إلى موطنه روفض كل العروض التى عرضت عليه مفضلا وطنه ودولته على أى منصب آخر .

ومن هنا كانت بلاد المشرق رافدا من الروافد التى صاغت شخصية أبى اليقظان ولها الكثير من المؤثرات التى جعلت لهذه الشخصية الكثير من الامكانات التى ساعدته على اعادة الهدوء إلى الدولة الرستمية بعد الثورة العاتية المدمرة التى حدثت فى عهد أخيه أبى بكر ومكنت أبا اليقظان من القيام بحركة واسعة شملت نظم الدولة كلها وقد قال عنه ابن الصغير [١٨] صرف أبو بكر بن أفلح النظر فى المدينة واحوازها إلى أخيه أبى اليقظان مع ما ظهر له من الكفاية مع أدب المشرق والاخذ بالحزم فيما رآه من ولايه بنى العباس وسيرهم. فضلا عن هذه المؤثرات الشرقية كانت لابى اليقظان شخصية قوية استمدت عناصر قوتها من مقوماته الجسمية وسلوكه الشخصى وكان ورعا متقشفا مما جعله موضع

(١٧) ابن الصغير: مصدر سابق ص ٣٠ .

(١٨) ابن الصغير: مصدر سابق ص ٢٨ .

الحب والتقدير من الجميع حيث أحيا رسوم الامارة وباشر التدريس فى مسجد العاصمة بنفسه والفتاوى فى المسائل الشائكة [١٩] .

ولقد أحبت قبيلة نفوسة وسكان الجبل أبا اليقظان حبا وصل إلى حد الاقتداء بشخصيته، لدرجة أن نفوسة فيما قيل كانت لا تعادل أيامه وسيرته الا بامامة جده عبد الرحمن وسيرته وذلك انهم اتخذوا مجلسه حينئذ فى المسجد فطائفة يصلون وطائفة يقرأون القرآن وطائفة يتذكرون فى فنون العلم وكانت تتخذه نفوسة مثلا فى تحليلها وتحريمها[٢٠] .

ولقد استطاع أبو اليقظان بفضل شخصيته القوية ومكانته بين الجميع أن يظل يحكم فى الامامة أربعين عاما متصلة وقد كان له العديد من التلاميذ الذين نالوا العلم على يديه من جمله تلاميذه ابن الصغير المالكى مؤلف كتاب سيرة الائمة الرستميين فى تاهرت والذى قال عن أستاذه أبى اليقظان بن أفلح، انه كان مربوع القامة أبيض الرأس واللحية زاهدا ورعا ناسكا [٢١]. ولقد تحقق للدولة الرستمية خلال فترة حكمه الطويلة الكثير من الاصلاحات الداخلية التى ساهمت فى دعم مركز الدولة السياسى والاقتصادى والاجتماعى، ومما يذكر انه أثر دخوله العاصمة تاهرت فان الناس اختاروا قاضيا بعد أن شاورهم فى ذلك ووقع الاختيار على شخصية تقية ورعة هى «أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى الشيخ» ثم ولى على بيت المال رجلا من نفوسة وقدم على منبره من ارتضاة هو بنفسه لهذه المهمة، والقى الى قوم نفوسة مهمة مراقبة الاسواق والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والمحافظة على المظهر العام للعاصمة تاهرت من حيث نظافتها وسيادة الامن فى ربوعها، كما كانت رعاية المساجد والمصلين بالعاصمة تاهرت من المهام الملقاة على عاتق تلك الجماعة [٢٢] .

(١٩) رابح بونار: مرجع سابق ص ٣٧ .

(٢٠) الدرجينى: مصدر سابق، مخطوط ورقة ٣٧ .

(٢١) رابح بونار: مرجع سابق ص ٣٧ .

(٢٢) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ٢٠٧ .

وتعتبر فترة حكمه فترة استقرار طويلة ولكن الدولة تناقصت قوتها فى أيامه عما كانت عليه فى عهد جده عبد الرحمن بن رستم أو جده عبد الوهاب بن عبد الرحمن، ومعنى هذا أن التجربة الاباضية لم توفق إلى تحقيق المثل الاعلى للحكم الذى كانت تتصوره وان كان ينبغى أن نقول أن حكمهم فى تاهرت والدولة الرستمية كان حكما اسلاميا من طراز فريد فى عصره عادلا نسبيا وان أحوال الناس فى دولتهم وجماعتهم كانت أسعد بكثير من أحوالهم فى ظل غيرهم من حكام المغرب المعاصرين لهم سواء فى حكم الاغالبة فى المغرب الادنى أو الادارسة فى المغرب الاقصى. ولقد كان لرجال الدولة الرستمية الاباضية دور كبير فى انعاش الحركة التجارية والاقتصادية فى المغرب الاوسط وبلاد الصحراء، فقد ضمت جماعة الاباضية كثيرا من التجار الذين وجدوا الامن والامان فى ظل الائمة ولهذا تحولت تاهرت الى مركز تجارى نشيط خلال القرن الثالث الهجرى، التاسع الميلادى، فكانت قوافل التجارة تدخل من تاهرت وتتجه جنوبا حتى تصل إلى «واحة الاجواط» فى جنوب الجزائر الحالية ومن ثم يتجه بعضها شرقا إلى فزان ومن ثم إلى جبل نفوسة وطرابلس ويتجه بعضها الآخر إلى ورجلان أو «ورجلا» أو «ورقلة» وكانت مركزا تجاريا كبيرا على أبواب الصحراء الكبرى [٢٣] .

وعلى هذا فقد عمل أبو اليقظان بكل جهده على اصلاح ما أفسدته الحرب الاهلية حتى عادت الحياة إلى سيرتها القديمة وتحرك الناس فى سبيل تطور بلدهم والقيام بأعمال العمارة والتجارة والبناء واشتغلوا بطلب العلم وبعد أن أتم الامام اصلاح الشئون الداخلية فانه أرسل إلى رؤساء القبائل وسائر أتباع الامامة فى كل الجهات فجاءت اليه جميع الوفود طائعة خاضعة وقدمت البيعة عن رضا واقتناع، فقام بارسال الولاه والعمال والحكام

(٢٣) عبد الفتاح مقلد الغنيمى: السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الاسلامية (رسالة دكتوراه غير منشورة) ص ٩١-٩٤ .

والقضاة وأصحاب الشرطة فى الولايات كلها [٢٤] .

ولقد كان من الوفود التى وفدت إلى تاهرت العاصمة والى أبى اليقظان وفد نفوسة الجبل الذين طلبوا من الامام أن يقدم عليهم عاملا يرتضيه فأنزلهم دار الضيافة فترة من الوقت بعد أن اختار لهم عاملا عليهم هو «أفلح بن العباسى» ولم تقف جهود أبى اليقظان عند القيام بالاصلاحات الداخلية بل نهض بنفسه يباشر القاء الدروس والمواعظ على الطلاب والراغبين فى العلم، بعد أن كانت أتيحت له فرصة الاطلاع على مئات الكتب فى بغداد، وأرسل الرسائل العديد إلى جميع عماله فى الاقاليم والجهات البعيدة يدعوهم فيها إلى تقوى الله والمسارعة إلى العمل الصالح واتباع طريق طلب العلم واتباع السلف الصالح والبعد عن الاهواء والبدع ودحض ما ينشره أعداء الدولة من أباطيل وانه نتيجة لهذه الاصلاحات قويت الدولة الرستمية واستردت هيبتها فى بلاد المغرب وأصبحت قادرة على ردع أية قوة خارجية تحاول النيل من أراضيها أو استقلالها [٢٥] .

الدولة فى عهد أبى اليقظان والتعرض للاخطار الخارجية :

على الرغم من الاعمال التى قام بها أبو اليقظان طوال الاربعين عاما التى قضاها فى الحكم عاملا جهده لنشر العلم والثقافة والحضارة وتعميق المفاهيم الحضارية ونشر العلوم الاسلامية وتأمين الحياة الاقتصادية للمواطنين والعمل على استرداد الدولة الرستمية لهيبتها من بلاد المغرب العربى، الا أن حدود الدولة الرستمية الشرقية قد تعرضت فى عهده للغزو الخارجى من جانب الدولة الطولونية فى مصر والتى أسسها أحمد بن طولون (٢٦٥هـ/ ٨٧٨م) حيث قام بهذا الغزو لبلاد المغرب الادنى العباسى بن أحمد بن طولون [٢٦] وكان العباسى قد خرج قاصدا بلاد المغرب لضمها إلى الدولة الطولونية فى

(٢٤) البارنى: الازهار الرياضية جـ ٢ ص ٣٢٩ .

(٢٥) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١١٠ .

(٢٦) ابن الاثير: الكامل فى التاريخ جـ ٧ ص ٣٢٤ .

مصر مدعيا انه خرج بهذه الغزوة بناء على توجيه وتكليف من الخليفة العباسى فى بغداد (الخليفة المعتمد العباسى) الذى قلده اماره افريقية وأقره واليا عليها دون الاغالبة [٢٧] وما أن وصل العباسى بن أحمد بن طولون إلى اقليم برقة الذى كان يقع فى ذلك الوقت فى دائرة دولة الاغالبة من قبل الخلافة العباسية، حتى بادر بارسال رسالة إلى ابراهيم أحمد بن محمد الاغلب يأمره فيها بالدعاء له فى افريقية واعلان الدخول فى طاعته، بل انه أفاض فى القول بأن أرسل له يذكره بأنه سائر اليه إلى القيروان بقواته [٢٨] وفى نفس الوقت الذى أرسل فيه رسالته إلى ابن الاغلب فقد أرسل بدوره رسالة إلى عامل الرستميين على جبل نفوسة (الياس بن أبى منصور النفوسى) يتوعده وينذره ويدعوه إلى الدخول فى طاعته والدعوة له فى تلك الاقاليم قائلا له اقبل بسمعك وطاعتك والا وطئت بلدك بخيلى ورجلى وقطعت رحمك [٢٩] .

ولم يكتف العباسى بن أحمد بن طولون بذلك، بل انه ما أن وصل الى مدينة لبيدة فى جمادى الاول عام ٢٦٨هـ حتى أمر جنده المصرى باستباحة المدينة ونهبها حيث كان قد أخذ أهلها على غرة وبالقرب من مدينة لبيدة انهزمت قوات الاغالبة بقيادة «أحمد بن فرهت» عاملهم على طرابلس وتبعه العباسى بن أحمد بن طولون حتى مدينة طرابلس فحاصرها حصارا شديدا ونصب عليها المجانيف، ودام الحصار ثلاثة وأربعين يوما، قام فيها جنود العباسى بن أحمد بن طولون بكثير من أعمال العنف ضد رعايا الدولة الرستمية بالقرب من طرابلس فاستغاث أهل طرابلس «بأبى المنصور الياس النفوسى» صاحب نفوسة فقام محتسبا وناصرا اخوانه وجيرانه المسلمين وخرج الياس بن أبى المنصور النفوسى إلى ابن طولون فى اثنى عشر ألفا من القوات وتمكن من الحاق الهزيمة به واخراجه شرقا إلى

(٢٧) ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ٦٤٥ .

(٢٨) الكندى: الولاه والقضاه ص ٢٢٢ .

(٢٩) البارونى: مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٥٧ .

برقة بعد أن انسحبت القوات الطولونية على عجل مما جعل أهل طرابلس يقومون بنهب الاموال التى كان قد نهبها الطولونيين من لبيدة وبرقة وطرابلس بينما تورع الاباضية النفوسيون كعادتهم من أخذ أى شئ من هذه الاسلاب وفقا لمبادئهم الاسلامية [٣٠] .

وهكذا ظلت أحوال الدولة هادئة إلى نهاية حكم أبى اليقظان بن أفلح حتى اذا جاءت سنة ٢٨١هـ / ٨٩٤م توفى أبو اليقظان بعد أن عاش من العمر أكثر من مائة سنة منها أربعون عاما قضاها فى الامامة وكان ما وجد فى تركته بعد وفاته سبعة عشرة دينارا [٣١] .

وبوفاة أبى اليقظان بدأت عوامل الضعف والتفكك تأخذ طريقها إلى الدولة الرستمية حيث اعترتها تلك العوامل التى كانت تنذر بعوامل الانهيار بل الانهيار الكامل ومن ثم بدأ نجمها يأفل فى سماء المغرب وبدأت الدولة القوية التى أقامها عبد الرحمن بن رستم على أسس قوية تنحدر فى طريق الزوال لان هناك قوى جديدة ناشئة كانت قد بدأت تتطلع إلى الزعامة والسيادة فى المغرب العربى وكان دخول دولة الرستميين فى عهد الهرم قد بات واضحا كل الوضوح مع وفاة أبى اليقظان .

الامام أبو حاتم يوسف محمد بن يقظان

(٢٨١ – ٢٩٤هـ – ٢٩٤ – ٩٠٦م)

عندما توفى الامام أبو اليقظان بن أفلح لم يكن فى العاصمة تاهرت عند وفاته أحد من أبنائه فابنه يقظان كان يقوم بأداء فريضة الحج فى الاراضى الحجازية، كما أن ابنه حاتم كان قد خرج على رأس جيش من الرستميين لحماية بعض القوافل التجارية من

(٣٠) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ٢٠٩ .

(٣١) أبو زكريا: السيرة وأخبار الائمة، مخطوط ورقة ٣٤ .

اعتداء القبائل عليها وهى فى طريقها جنوبا إلى سجلماسة ثم منها إلى بلاد السودان لاسيما اعتداء قبائل زناتة عليها ولما كانت المسافة بين العاصمة تاهرت وبين المرحلة التى وصل اليها أبو حاتم فى سيره على مسافة يومين من المدينة، فان عامة الشعب ورجال الفرسان فى القوات اجتمعوا دون القبائل الاخرى وأعلنوا مبايعتهم لابى حاتم وأرسلوا له على الفور من يخبره بوفاة أبيه وعقد الامامة له، ولما وصله الفرسان الذين أرسلوا فى أثره لاعلانه بالبيعة فقد عاد على عجل إلى تاهرت وأناب عنه من يتولى قيادة القافلة وحمايتها وعندما وصل إلى أبواب المدينة استقبلته جماهير المبايعين ودخل المسجد وبايعوه ثم أرسلوا الى القبائل فبايعته ولم يجد مجلس الشورى أمام هذا الاجتماع العام بدا من مبايعة أبى حاتم على هذا النحو ووافقوا على البيعة بالاجماع [٣٢] ولقد كان ذلك الامير قبل مبايعته بالامامة كثير المروءة واسع الاحسان محبوبا لدى العامة قبل ولايته [٣٣] ولكن كان فى الاسرة الرستمية نفر من الامراء لم يرضوا بهذه المبايعة وعلى رأسهم يعقوب بن أفلح والذى كان يعيش عيشة زهد صادقة وعارض مبايعة ابن أخيه أبى حاتم على هذا النحو الذى حدث، لذا آثر أن يرحل عن العاصمة تاهرت وأقام فى مدينة زاغة فى الجنوب الغربى لمدينة جبرة فى غربى طرابلس، ولما كان أبو حاتم كريما فقد منحه ذلك الكثير من حب الناس ورضاهم عنه مما جعلهم يتحمسون الى مبايعته على هذه الصورة ولكن ما كادت البيعة تتم له حتى انفردت به عشيرته واخوانه وأعمامه ومواليه واستهدفوا من ذلك أن يحجبوا الامام عن جماهير الشعب ويحيطوه بأبهة الملك والسلطان ولكن الشعب رفض ذلك الذى يجرى على غير عادة السلف من الائمة السابقين حيث لم يكن هناك حجاب يحجزهم عن عامة الشعب وكان يصل إلى الامام كل صاحب مظلمة، وطالبوا بأن يسمح لهم بالاتصال المباشر بالامام فى كل الاوقات كما كان ذلك مباحا قبل امامته، ولم يكن احتجاب أبى

(٣٢) السيد عبد العزيز سالم: مرجع سابق ص ٥٦٣ .

(٣٣) رابح ونار: مرجع سابق ص ٣٧ .

حاتم عن العامة بتأثير أقاربه ومواليه فحسب وانما شارك فى ذلك عدد من شيوخ تاهرت من غير الاباضية الذين كانوا على المذهب المالكى وربما بعض الصفرية الخوارج وكانت هذه العناصر قد نجحت فى عزل الامام عن العامة لكى تثير سخط الرعية عليه (٣٤) .

بل أكثر من ذلك فان بعض كبار شيوخ تاهرت قد وصل بهم الامر إلى حد تدبير مؤامرة لقتل أبى حاتم وذلك بمعاونة اثنين من كبار معاونيه هما «محمد بن رباح» و «محمد بن حماد» وذلك للتخلص منه، ولم يشك أبو حاتم لحظة فيما سمعه عن هذه المؤامرة وبادر بتحديد اقامة كل من محمد بن رباح ومحمد بن حماد خارج العاصمة تاهرت ومنع دخولهما المدينة ، لكن أعوانهما قاموا باخالهما المدينة سرا وكانت عودتهما إلى تاهرت دون علم أبى حاتم ما أثار دهشته وروعته إلى درجة جعلته يقرر الخروج من تاهرت عام ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م هو ومن يناصره من أهلها إلى الاحتماء بحصن لواتة وذلك بعد سنة واحدة من مبايعته بالامامة وخرجت معه العجم ونفوسة أيضا ونحو مائة رجل من وجوه وكبار العاصمة ولم يبق بتهارت غير العامة ومشايخ المدينة الذين أيقنوا أن أبا حاتم انما خرج بيستجمع قوته خارج العاصمة وان عليهم أن يستعدوا للحرب القادمة .

وهكذا نجح أبو حاتم فى استقطاب قوى كثيرة للوقوف إلى جانبه فانضمت اليه لواتة كلها كما اجتمعت اليه قبائل الصحراء التى كان يعرفها وعلى صلة وثيقة بها فأعطى الاموال وحمل على الخيل وزحف إلى تاهرت من ثلاث مواضع من القبلة والمشرق والمغرب فتولى بنفسه القبلة مع لواتة والرستميين وما شايعها وتولى المشرق العجم وصنهاجة ومن شايعها وتولى المغرب طوائل من الناس مع نفوسة واستطاع أبو حاتم بهذه القوات أن يضغط على أهل تاهرت الامر الذى جعلهم يفكرون فى استدعاء يعقوب بن أفلح عم الامام أبى حاتم ليتولى منصب الامامة فى تاهرت، واعتقد أهل تاهرت انهم بهذا العمل

(٣٤) محمد عيسى صابر : مرجع سابق ص ١٢٠ .

يستطيعون اضعاف معسكر أبى حاتم اذ انضم إلى يعقوب بن أفلح جماعة من لواتة وغيرهم من أصحاب أبى حاتم ورغم هذا فقد استمر حصار أبى حاتم لتاهرت إلى أن أغلق يعقوب بن أفلح أبوابها الا بابا واحدا صار يحارب منه أبا حاتم واستمر الحال على هذه الصورة حتى تدخل «أبو يعقوب المزانى» رئيس قبيلة مزانة بين الطرفين لعقد هدنة بينهما وجرت مراسم الهدنة فقدم يعقوب بن أفلح، عبد الله بن اللمطى لينوب عنه فى توقيع الهدنة وقدم أبو حاتم اثنين عنه هما منكود، وابن أبى عياض اللواتين وعقدت الهدنة على شرط أن يعزل الاثنان من الامامة لمدة أربعة أشهر يختار الناس بعدهما من يحبون أن يكون اماما لهم وتم العقد على هذا الاساس وقد انتهز أبو حاتم فرصة هذه الشهور الاربعة وقام بدعاية واسعة لنفسه فمالت الناس اليه واستعاد أبو حاتم بهذه الدعاية ثقة الناس فيه (٣٥) .

وهكذا خرجت جماعات من أهل تاهرت إلى مقر أبى حاتم الذى يقيم فيه وأركبوه وخرج فلم يصبح الا على باب المدينة وبادر اليه الناس جميعا وما كادت تلك الانباء تصل إلى مسامع يعقوب بن أفلح حتى خرج وشيعته من المدينة (٣٦) تاهرت وركبوا خيولهم وعادوا من حيث أتوا إلى مدينة زواغة مرة ثانية حيث كانت مقر يعقوب بن أفلح وكان يعقوب قد مكث أربع سنوات اماما فى تاهرت بينما ابن أخيه أبو حاتم كان يجهز قواته للاستيلاء مرة ثانية على الحكم، وهكذا فانه مع عودة أبى حاتم إلى الامامة مرة ثانية فانه حاول بكل الطرق والوسائل أن يستعيد سلطة الامامة وهيبتها، بعد أن تدهورت أوضاع الدولة الاقتصادية وظهرت فى المجتمع الكثير من الامراض الاجتماعية، فقد فسدت البلدة تاهرت وفسد أهلها فى تلك الحروب الدائرة فبادر أبو حاتم باحكام قبضته على الامور، فعين عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبى الشيخ قاضيا على البلاد وعين عبد الرحمن بن صواب النفوسى على بيت المال وولى أمر الشرطة إلى جماعة من الناس هم قوم زكار

(٣٥) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ١٧٨ .

(٣٦) ابن الصغير: مصدر سابق ص ٥٦ .

وقوم ابراهيم بن سليين واستكمل بذلك أبو حاتم سلطته التنفيذية وقد نجح هؤلاء جميعا فى ضبط أمور الدولة [٣٧] .

وما إن استطاع أبو حاتم القضاء على الفتنة واستتب الامر له فى البلاد حتى خرج عليه الطيب بن خلف بن السمح بن أبى الخطاب بن عبد الاعلى المعافرى، فى طرابلس وجبل نفوسة، فأصدر الامام أوامره الى عامله فى الاقليم الشرقى «أبى منصور بن الياس» بالقبض عليه قبل استفحال أمره مثلما فعل والده من قبل، لكن الطيب بن خلف استطاع الهروب إلى قبيلة زواغة التى كانت على رأى أبيه خلف بن السمح ورفضت زواغة أن تسلم الطيب إلى الوالى أبى منصور فما كان من أبى منصور بن إلياس الا اعلان الحرب على قبيلة زواغة، فهزمت زواغة ولجأت إلى جزيرة جربة واستطاع أبو منصور بن إلياس أن يقبض على أبى الطيب بن خلف وأن يأسره ويأخذه معه مقيدا إلى جبل نفوسة حيث قضى حتفه هناك [٣٨] .

واذا كان أبو منصور إلياس النفوسى قد نجح فى صد الهجوم الطولونى على شرق الدولة الرستمية فى عهد أبى إليقظان بن أفلح واحتفظ بهذه الجهات هادئة فى عهد أبى حاتم بن أبى إليقظان، فان أفلح بن العباسى الذى خلف أبا منصور على اقليم طرابلس وجبل نفوسة لم تكن له مهارة أبى المنصور فى قيادة الحروب وتوجيه الامور فقد منى بهزيمة فادحة على أيدى الاغالبة حين عزم ابراهيم بن أحمد بن الاغلب على غزو الطولونيين فى مصر فخرج عام ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م . على رأس جيش يقوده «أبو مجر بن أدهم» فاعترضت نفوسة الجيش الاغلبى بين قابس وطرابلس وكانت فى عشرين ألف جندى ولكن الاغالبة تمكنوا من الحاق الهزيمة بالنفوسيين وقتلوا أكثرهم، بل أنه يذكر

(٣٧) محمد عيسى صابر : مرجع سابق ص ١٨٠ .

(٣٨) ابن عذارى المراكشى: مصدر سابق جـ ١ ص ١٣٢ .

أن القتلى من الاباضية فى هذه المعركة كانوا اثنى عشر ألفا كان من بينهم أربعمائة من العلماء [٣٩]، بل أن ابن الاغلب لم يكتف بذلك الانتصار على الاباضية، بل انه زحف إلى مدينة قطرارة فقتل منها من قتل وأسر منها ثمانين عالما من كبار علماء الاباضية ولم تنج منه قبيلة نقراوة هى الاخرى من ضربات ابن الاغلب [٤٠] وفى غمرة هذه الاحداث لم يستطع أبو حاتم أن يحرك ساكنا فقد كان فى ذلك الوقت يقوم بمحاصرة عمه يعقوب بن أفلح فى العاصمة تاهرت، وقد دفع ذلك الاغالبة إلى معاودة الكرة فى الهجوم على قبيلة نفوسة فى العام التالى ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م حيث سير ابراهيم بن أحمد ابن أبى العباسى إلى نفوسة فى جيش كبير فقتل منهم أعدادا كبيرة وأسر منهم ثلاثمائة أسير ذبحوا عن آخرهم وعلقت رؤوسهم فى حبل نصب على باب تونس [٤١] وهكذا أمام ضربات ابن الاغلب فقد انهارت قبيلة نفوسة التى كانت تشكل عصب الدولة الرستمية الحساس ودرعه الواقية ولم تعد لها تلك القدرة القوية على مواصلة امداد تاهرت اقتصاديا وعسكريا ومن ناحية أخرى فقد كانت هذه الهزائم كفيلة باسقاط هيبة الامامة فى تاهرت رغم المحاولات التى قام بها ابن حاتم للسيطرة على الامور، ولكن الوقت كان قد فات فطمع فى الامامة بعض أقاربه وهم بنو أخيه فلم يجدوا مشقة كبيرة فى التآمر عليه حيث اضطربت عليه الامور وثار عليه بعض أقاربه وقتلواه عام ٢٩٤هـ/ ٩٠٦م وكان أبو بكر بن حماد قد شارك الناقمين عليه قبل قتله [٤٣] .

(٣٩) الدرجينى: طبقات الاباضية ورقة ٤٠ (مخطوط .

(٤٠) البارونى: مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٨٢ .

(٤١) ابن عذارى: مصدر سابق جـ ١ ص ١٣٠ .

(٤٢) محمد اسماعيل عبد الرازق: الاغالبة سياستهم الخارجية ص ١٣٤٠ .

(٤٣) رابح بونار: مرجع سابق ص ٣٧ .

سقوط الدولة الرستمية

امامة اليقظان بن أبى اليقظان

(٢٩٤– ٢٩٦هـ– ٩٠٦– ٩٠٨م)

بويع هذا الامير بعد مقتل أخيه أبى حاتم ونجاح المؤامرة عليه وقتله حيث ارتقى اليقظان بن أبى اليقظان عرش الامامة الرستمية ليضع نهاية لفترة حكم هذه الاسرة حيث لم يتمتع بالملك طويلا إذ غمرته الفتن والاحداث السياسية الكثيره ورغم أن فترة امامته امتدت إلى عامين الا أن هذه الفترة سادتها عوامل الانقسام والاضطراب والاحوال المتدهورة [٤٤] ذلك لان الكثيرين من كبار شيوخ الاباضية كانوا ساخطين على اليقظان ومن بين هؤلاء الساخطين شيوخ جبل نفوسة الذين كان لديهم اعتقاد راسخ بأن أبى اليقظان بعد أن كان أثر عودته من أداء فريضة الحج يضمر الشر لاخيه وانه كان مشتركا فى مؤامرة قتله [٤٥] كذلك جرت فى الدولة مناقشات حادة سادت مجتمع العلماء واختلاف فئاتهم من الاباضية فى شأن التشريع والحكم ونظم الدولة مما كان له أثره فى تفتت وحدة الفكر فى الدولة الرستمية، كذلك فلان خطر القوة الشيعية الصاعدةفى بلاد المغرب قد بدأ يلوح فى الافق كقوة دينية وسياسية جديدة وبدأت تحرشاتها تقترب من حدود الدولة الرستمية بالاضافة إلى أن العلماء كانوا دائما يعارضون فى تكوين طبقة أرستقراطية تعتمد على الامام حتى اننا نجد الامام أفلح بن عبد الوهاب قد حبس بعض كبار الاباضية حين اعترضوا على أحكام أحد القضاة الذى لا يراعى للاشراف مكانتهم واستطاعت خاصة الامام أن تؤثر عليه فينقض اتفاقا حدث بينه وبين بعض البدو مبينين له

(٤٤) رابح بونار: مرجع سابق ص ٢٨ .

(٤٥) الباردنى: مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٩٢ .

خطر النزول على رأيهم فكانت النتيجة ثورة عارمة من العرب استطاع الامام التغلب عليها ولكن بعد أن تركت أثرا سيئا فى نفوسهم ويبدو أن هذا التزمت لم يلق من المجتمع استجابة فقد كان شعب تاهرت لا يميل إلى الحرب فكانت معاركهم دائما هينة ولم يتتبعوا الهاربين كما كان المعارضون يميلون إلى الوساطة وتجنب الشر فكانت هذه الامور من دواعى سقوط الدولة الرستمية اذ لم تمكنهم هذه الحالة من تأليف جيش قوى [٤٦].

وقد دامت دولتهم قرنا ونصف على وجه التقريب وكان من الممكن أن تستمر أكثر من ذلك طويلا لولا أن ظروف العصر لم تكن تسمح بقيام دولة لا تعتمد على قوى عسكرية ضخمة ومالية كبيرة إلى أمد طويل وقد انتهت دولتهم على يد رجال الدعوة الفاطمية التى اجتثت كل دول المغرب القائمة فى عصرها عام ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م. وكان الذى قضى على دولة تاهرت أبو عبد الله الشيعى الذى مر فى طريق عودته من سجلماسة بتاهرت وضربها وقضى على آخر حكام بنى رستم وجعل المغرب الاوسط ولاية فاطمية تابعة لافريقية [٤٧] .

وكان أبو عبد الله الشيعى قد تمكن من الاستيلاء على الزاب ووصل إلى مدينة رقادة عام ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م وذلك بعد أن هرب منها زيادة الله بن الاغلب وأمام مظاهر الاضطراب والانقسام لم يستطع يقظان بن أبى اليقظان أن يفعل شيئا لمواجهة الخطر الشيعى فى منتصف رمضان ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م [٤٨] .

وكان أبو عبد الله الشيعى داعى الفاطميين فى بلاد المغرب قد أتم استعداداته العسكرية لبدء جولته الثانية التى كانت هذه المرة مع الرستميين أصحاب المغرب الاوسط،

(٤٦) زاهر رياض: شمال افريقية فى العصور الوسطى ص ٥٩ .

(٤٧) حسين مؤنس: مرجع سابق ص ١٠٥ .

(٤٨) ابن عذارى المراكشى: مصدر سابق جـ ١ ص ١٤٧ .

ذلك لان ظهور حركة الشيعة كان من أهم العوامل التى أودت بالدولة الرستمية حيث زحفت عليها جيوش الشيعة الفاطمية عام ٢٩٦هـ [٤٩] . اذ نمت هذه الحركة نموا مطردا وأصبح له من القوة العسكرية ما استطاع به أن يكيل الضربات لدول المغرب وسقوطها الواحدة تلو الاخرى وكان من بينها الدولة الرستمية كما انه يخشى وجود مؤثرات شيعية بدأت تتسرب إلى الدولة الرستمية، فظهرت خطب الامام على بن أبى طالب على منابر الدولة الرستمية وهى الخطب التى يستخدمها الخطباء يوم الجمعة إلى جانب خطبهم العادية وقد تجلت هذه المؤثرات فى اعتناق أحد الاباضية من النكار وهو شيخ قبيلة كتامة دعوة أبى عبد الله الشيعى وقد استغل داعية الشيعة هذه الميول عند الشيخ أحسن الاستغلال [٥٠] .

ويذكر ابن عذارى المراكشى انه لما أكمل أبو عبد الله الشيعى عدنه لضرب الدولة الرستمية وتم اعداد الجيوش فانه استخلف فى افريقية أخاه «وابازاكى تمام بن معارك الاجابى» ثم خرج من رقاده حتى حل بمدينة تاهرت فدخلها بالامان وقتل منها من الرستمية يقظان بن أبى يقظان وجماعته وأهل بيته وبعث برؤوسهم إلى أخيه العباسى وأبى زاكى خليفته فى رقاده وطوقت بالقيروان ونصبت على باب مدينة رقادة وانفضت دولة بنى رستم بتاهرت وبمقتل أبى اليقظان انقرضت هذه الدولة من تاهرت والتجأ باقى أفرادها إلى الصحراء ولعل أسباب ضعف هذه الامارة تعود إلى اختلاف شيعتها واشتداد روح العصبية فى قبائلها، كما تعود إلى تمكن الخلافات المذهبية فى رعاياها فقد كان فيها أباضية وصفرية وسبئية وغيرها [٥١] .

(٤٩) رابح بونار: مرجع سابق ص ٨ .

(٥٠) محمد عيسى صابر: مرجع سابق ص ٢١٠ .

(٥١) الميلى: تاريخ الجزائر: جـ ٢ ص ٦٤ .

ولما جاء الشيعة إلى تاهرت وجدوا المدينة فاقدة كل قوة على أن قوة الشيعة الجارفة كانت من أكبر عوامل انقراضها وانقراض جميع الامارات الصغيرة والدويلات بافريقية والمغرب وغيرها التى كانت معاصرة لها .

وتذكر المصادر أن عبد الله الشيعى الداعية وهو فى طريقه إلى سجلماسة قد مر بالقرب من تاهرت خرج اليه من فيها من وجوه الشيعة والواصلية والصفرية والمالكية وقدموا اليه الشكاية من اليقظان بن أبى اليقظان ووعدوه بالامامة وبالمال والرجال ورغبوه فى استئصال هذه العائلة كلها وانتزاع الامر من أيديهم لانه لا رجال ولا معسكر ليقظان وهذه الحقيقة توضح أن سبب انهيار الرستميين أمام ضربات الفاطميين هو عدم وجود جيوش رسميه نظامية وكان أبو عبد الله الشيعى قد طلب إلى اليقظان عقد اجتماع فخرج أبو اليقظان اليه ومعه بنوه واخوته وأتباعه وعلى بعد أميال من تاهرت التقى اليقظان ومن معه بأبى عبد الله الداعى ومن اثم أمر بقتلهم فقتلوا عن آخرهم فى شوال ٢٩٦هـ/ ٩٠٨ [٥٢] ودخل أبو عبد الله الشيعى العاصمة تاهرت عام ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م فاستباحها ونهبها وقصد إلى المكتبة المعروفة بالمعصومة لكى يتم القضاء على الفكر الاباضى عن طريق احراقها فقد كانت المعصومة مكتبة عظيمة ضخمة تحوى أكثر من ثلاثمائة ألف مجلد أغلبها فى الشريعة الاسلامية وفلسفتها وفى شرح المذهب الاباضى والاحتجاج اليه وفى تاريخ الدولة الرستمية ولقد كان أبو عبد الله الداعى الشيعى يريد القضاء على مظاهر الفكر الاباضى، بقدر ما كان حريصا على كل ما من شأنه تدعيم الدولة العبيدية فأخذ كل ما استطاع أن يأخذه من المكتبة المعصومة من كتب الرياضة والصنائع وغيرها من الفنون الاخرى وأحرق ما تبقى من الكتب خصوصا تلك التى تتعلق بالمذاهب الاباضى [٥٣] وقام داعية الشيعة بانهاء الدولة الرستمية رسميا وذلك بنصيب « أبى حميد دواس بن صولات اللهيعى»

(٥٢) البارونى: مصدر سابق جـ ١ ص ١٩٧ .

(٥٣) البارونى أبو ربيع سليمان : مختصر تاريخ الاباضية ص ٤٤ .

«وابراهيم بن محمد المعروف بالهوارى» على تاهرت، أما الرستميون فقد انتشرت فلولهم فى البلاد فهرب أغلبهم إلى جبال الاوراس وإلى جبال بنى راشد وبعضهم انطلق إلى جبال نفوسة وجربة [٥٤] ويذكر أن يعقوب بن أفلح بن عبد الوهاب، خرج فارا إلى ورجلان فى الجنوب ومعه عدد كبير من العائلات الرستمية فلما نزل واصحابه ورجلان رغب أهلها فى مبايعته اماما وتوليته عليهم ولكن يعقوب رفض طلبهم وقال لهم قولته المشهورة «لا يستر الجمل بالغنم» وبهذه العبارة طوى يعقوب بن أفلح آخر من بقى من الرستميين آخر صفحة من صفحات الدولة الرستمية المشرقة [٥٥] .

وقد دامت بتاهرت العاصمة فى ازدهارها الحضارى تتمتع بالاستقلال السياسى وتعيش طبقات المجتمع فى حرية ورخاء رغم ما كان ينتابها من قلاقل سياسية أحيانا إلى أن هاجم الشيعة المدينة وقضوا على الدولة الرستمية عام ٢٩٦هـ فأخذت منزلة تاهرت اذ ذاك فى الضعف والاضمحلال والتراجع عن مكانتها بين مدن المغرب العربى، ولما طوقها بنو غانية حكام شرق الاندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى (٦٢٠هـ) وهاجموها عدة مرات اخلاها السكان وأقفرت عنها الحياة ثم لم تلبث أن زالت معالمها وصارت أرضا تحرث وحقولا ترعى وقد كان هذا المصير التعس قد ساد أبناءها [٥٦] .

وبذلك تكون قد طويت صفحة من صفحات التاريخ الاسلامى فى المغرب العربى قد بدأت مع قيام الدولة الرستمية وانتهت بظهور الدولة الفاطمية الشيعية وبذلك تبدأ صفحة جديدة من صفحات التاريخ الاسلامى فى تلك المنطقة من عالمنا العربى الاسلامى .

أما النواحى الثقافية والحضارية لمآثر تلك الدولة فسوف نلقى عليه الضوء فى باب

---

(٥٤) محمد على دبوز : المغرب الكبير جـ ٣ ص ٦١٨ .

(٥٥) الدرجينى: مخطوط سابق ورقة ٤٦ .

(٥٦) رابح بونار: مرجع سابق ص ٤٤ .

العلاقات الخارجية بين بنى رستم ونظائرهم فى تلك الحقبة التاريخية (الاغالبة والادارسة) لان تلك الدراسة تركز على قيام تلك الامارات الثلاث .

الباب السادس

دولة الاغالبة فى افريقية (تونس)

(١٨٤- ٢٩٦هـ- ٨٠٠- ٩٠٩م)

لقد ظل المغرب العربى وحدة سياسية شاملة فى ظل عمال خلفاء بنى أمية. لكن هذه الوحدة السياسية التى أظلت أقطار المغرب جميعها وتبعية هذه البلاد كلها للخلافة الاسلامية فى المشرق لم يكن من المعقول أن تستمر طويلا، ذلك لان المغرب كان ميدانا للحركات والامارات القومية التى ظهرت فى محيط الدولة الاسلامية منذ قيام الخلافة العباسية .

غير أن القومية المغربية كانت أسبق ظهورا عن نظيراتها فى المشرق، بل انها أقرب بنحو قرن من الزمان وعلى هذا فان المغرب العربى الاسلامى قد شهد منذ أواخر القرن الثانى الهجرى قيام دويلات مستقلة فى سائر أجزائه .

ويرجع السبب فى ظهور هذه الدويلات المستقلة إلى أن القومية المغربية ظهرت مبكرة نوعا ما نظرا إلى طبيعة البلاد وعدم استطاعة العرب أن يقهروا أهل البلاد قهرا مطلقا فى مواقع حاسمة، الامر الذى اضطرهم إلى المهادنة والمصانعة، على عكس الحال فى العراق وايران ومصر والشام حيث قهرت القوميات قهرا عسكريا بعد نصر حاسم .

ولقد كانت أسرة الاغالبة ودولتهم من أهم وأشهر هذه الدويلات التابعة للعباسيين فى شرق تونس وبين بلاد الرستميين والادارسة وذلك لان الحركات الخوارجية بنى رستم ثم العلوية (الادارسة) التى قامت فى الشمال الافريقى قد أقنعت الخليفة هارون الرشيد بأن انفصال المغرب عن الدولة العباسية قد أصبح حقيقة واقعة لاسيما بعد أن انفصلت بلاد الاندلس عن الخلافة العباسية فى عهد الرحمن الداخل ومن هنا كان على

الخلافةالعباسية ضرورة المحافظة على المغرب أو الاجزاء التى يمكن الحفاظ عليها بأية صورة من الصور بعد أن أصبح استقلال الاندلس والادارسة وبنى رستم حقيقة تاريخية واقعة ولابد منْ العمل على تأمين الجزء الشرقى من المغرب، بعد أن بدأت الاقاليم الجغرافية تتضح وتظهر بعد أن بسطت تلك الدويلات نفوذها على بقعة معينة محاولة أن تقر السكينة فى ربوعها وأن تؤمن أهلها حتى يعيشوا فى سلام .

وبذلك فان الطريق صار معبدا أمام الاغالبة حيث وجدوا امارة ممهدة وشعبا مستقرا وحضارة زاهرة فاستقلوا بحكم افريقية فى ظل النفوذ العباسى وبذلك كان ظهور دولة الاغالبة مظهرا من مظاهر الحركة الاستقلالية فى تونس .

الاصول العرقية للاغالبة :

لقد أقامت الادارة العباسية فى عهد الخليفة هارون الرشيد على افريقية عاملا عربيا من طراز فريد ذلك هو «هرثمة بن أعين» حيث كان هذا الرجل من أكبر رجال الحزب العربى فى بلاط هارون الرشيد حيث كان شيخا له صبت كبير بل كان رجلا مجربا فى الحروب والادارة والولاية ومن هنا كان اختيار هارون الرشيد له لحكم ولاية افريقية اختيارا موفقا مناسبا وقد حكم «هرثمة بن أعين» افريقية فترة تزيد عن عامين (١٨٠- ١٨١هـ- ٧٩٦- ٧٩٧م) استطاع فى تلك الفترة الصغيرة ألا يضع الامور فى نصابها وأن يجعل الاقليم وقومه يركنون إلى الهدوء وأن ينجح فى اعادة ثقة الناس فى الدولة .

وبعد انقضاء تلك الفترة فان هرثمة بن أعين رأى انه أقام بمهمته فى افريقية وأقر الامن فى البلاد ولكن بعض المصادر التاريخية تذكر أن نفسه قد تاقت للعودة إلى بغداد لكى تعود له مكانته فى بلاط الرشيد بعد أن استطاع أن يصلح ما يمكن اصلاحه .

ويضاف إلى ذلك أن هرثمة بن أعين عندما أراد أن يعود إلى بغداد اقترح على هارون الرشيد أن يعين على افريقية عاملا عليها هو ابراهيم بن الاغلب حيث كان أبوه

الاغلب بن سالم بن عقال التميمى من كبار عرب افريقية ذلك أن بنى تميم ربما قد دخلت مصر مع العباسيين عام ١٣٢هـ وكان بداية ظهور هذه القبيلة العربية فى مصر مع قيام الدولة العباسية بعد أن دخلت مع جيوش العباسيين التى فتحت مصر وقضت على آخر الخلفاء الامويين بها وكان أول من قدم من قواد العباسيين من بنى تميم شعبة بن عثمان، وربما كان تولى اثنين من تميم هما «موسى بن كعب وسالم بن مسودة» حكم مصر وقد وجدا فرصة متاحة لدخول آخرين من بنى تميم، وبذلك نستطيع أن نطمئن إلى أن قبيلة تميم أقامت اقامة فعلية فى مصر حيث تمتعت بمركز قوى استمدته من أبنائها الذين ولوا الحكم فيها بل أن بعضا من أفرادها كانوا من كبار الموظفين ولقد كان الاغلب بن سالم من كبار رجال الجيش، ويستدل على ذلك أن الخلافة العباسية عندما أرسلت الوالى «محمد بن مقاتل العكى» إلى افريقية كلفت الاغلب بن سالم بن عقال بالمسير معه فى نفر من جند مصر فدخل افريقية واستقر بها واليا على اقليم الزاب حيث كان يعيش فى ذلك الاقليم جمع كثير من قبيلة بنى تميم، لكن الاغلب بن سالم بن عقال قتل فى أحد المعارك ضد خوارج بنى رستم لمحاولتهم الاتجاه شرقا إلى افريقية فما كان من هرثمة بن أعين الا أن قام بتعيين ابراهيم بن الاغلب خلفا لوالده على اقليم الزاب .

وأسرة الاغالبة أسرة مستنيرة اهتمت فى آن واحد بالتعمير السلمى والبناء الحربى فقد أدرك ابراهيم بن الاغلب مؤسس هذه الاسرة منذ أن أقره الخليفة العباسى الرشيد فى اماراته على افريقية أن امتداد الامارة من طرابلس شرقا حتى بجاية غربا يستلزم المحافظة على هذه الامارة الواسعة .

وكان محمد بن مقاتل العكى قد أساء الحكم وظلم وجار فثار عليه القوم فى عام ٧٩٩م حيث خرج جند تونس التميمية بقيادة تمام ابن تميم فخرج اليهم العكى ولكنه انهزم أمامهم فعاد الى القيروان وتحصن بداره واستنجد بعامل الزاب ابراهيم بن الاغلب

الذى هب لنجدته ودفع عنه الثوار فجاءه العهد من الرشيد بامارة افريقية وجعلها ارثا فى أعقابه شريطة أن يستغنى عن المعونة المالية التى كانت تونس تتلقاها من مصر سنويا وهى مائة ألف دينار وأن يؤدى خراجا سنويا للخلافة قدره أربعون ألف دينار وكانت امارة ابن الاغلب فاتحة عهد جديد فى تاريخ المغرب العربى الاسلامى .

وهكذا كان تسلم ابراهيم بن الاغلب لولاية افريقية عام ١٨٤هـ سببا فى اعادة الامن إلى الجزائر الشرقية وتونس إلى حين فقد استقلت افريقية والجبهة الشرقية فى المغرب الاوسط على يد ابراهيم بن الاغلب التميمى عام ١٨٤هـ وأسس بذلك دولته التى دعيت باسمه ودامت قوية إلى أن قضى عليها أبو عبد الله الشيعى بدعوة الفاطميين عام ٢٩٦هـ .

وكان يجاور الاغالبة من الجهة الغربية فى القطر الجزائرى بنو رستم بتهريت والامراء الادارسة بالشريط الساحلى من هذه الجهة نفسها .

وكان نظام حكمها نظاما وراثيا وكان قيام دولة الاغالبة فى افريقية التى تتكون فى طرابلس وافريقية وجزء من المغرب الاوسط هو اقليم الزاب تجربة جديدة فى نظم الدولة الاسلامية العباسية حيث انه كانت السابقة الاولى فى تاريخها السياسى تعهد الخلافة فيها إلى رجل من المغرب فى الانفراد بولاية من ولاياتها ليحكمها حكما شبه مستقل فى نظير مبلغ من المال بالاضافة إلى جانب تعهده بالبقاء على الطاعة والولاء للدولة العباسية وقد وافقت هذه الأخيرة على أن تجعل الولاية وقفا على أهل بيت ذلك الرجل يتوارثونها فيما بينهم ما داموا على الولاء الكامل للبيت العباسى والشرط الوحيد الذى اشترطته عليه الخلافة العباسية هى البقاء على الطاعة بكل معناها وشكلياتها وكذلك حماية حدود الدولة العباسية من الناحية الغربية التى وقفت بصورة رسمية عند المجرى الاعلى لنهر شلف الذى يجرى من الجنوب إلى الشمال جنوبى مدينة الجزائر الحالية .

أمراء البيب الاغلبى

لقد حكم أمراء البيت الأغلبى افريقية ما يزيد عن مائة عام توارث فيها الامارة العديد من الامراء الاغالبة الذين لعبوا دورا هاما وبارزا فى الحركة السياسية فى المغرب العربى الاسلامى وكان لهم شأن عظيم فى تسيير دفة الامور والحكم ونذكر منهم .

١ – الامير ابراهيم بن الاغلب

(١٨٤– ١٩٦هـ– ٨٠٠– ٨١٢م)

تولى ابراهيم بن الاغلب امارة تونس وكان جديرا بها وأهلها اذ انه كان يمتاز بمزايا كثيرة وكان موصوفا بالشجاعة والشهامة وحسن الادارة ويزين ذلك كله علم وأدب وفقه وفصاحة وحسن حديث وشعر رقيق وأدب رفيع وقد كان ابراهيم شابا نشيطا ذكيا شغفا كان ينوى أن يتجه لدراسة العلم فى مصر ودرس على «الليث بن سعد» ولكنه عندما دخل افريقية اتجه إلى السياسة وجمع قبيلته من بنى تميم حوله وصار من أكبر الشخصيات العربية فى المغرب وقد أنس فيه هرثمة بن أعين مقدرة وكفاية واخلاصا يعوض غيره من الجند فقربه اليه وأعلى مكانته بالاضافة انه كان شديد الاخلاص والولاء للبيت العباسى ثم انه رأس التميميين وهم أكثر عرب افريقية وهو إلى جانب ذلك رجل مجرب خبير بشئون السياسة والحرب حيث كان واليا على الزاب الجزائرى قبل تأسيسه لدولته وانه حين رأى الامور فى اضطراب سعى بكل وسيلة ليوليه الرشيد امارتها ويعطيه استقلالا داخليا مع تعهده بالولاء الكامل للخلافة .

وكان ابراهيم بن الاغلب كما يصفه ابن عذارى المراكشى فقيها وأديبا، وشاعرا خطيبا ذا رأى ونجده وبأس وحزم وعلم بالحروب ومكايدها جرئ الجنان طويل اللسان، لم تدى أفريقية أحسن منه سيرة ولاسياسة ولا أرق بالرعية ولا أوفى بعهده ولا أرعى لذمة منه فأطاعته قبائل البربر وتمهدت افريقية فى أيامه وأستقامت الاحوال بها .

وكان إبراهيم بن الأغلب قد اقترح على هارون الرشيد أن يرسل كل سنة إلى بغداد أربعين ألف دينار، ويستغنى عن مائة ألف دينار كانت ترسل كل سنة من مصر معونة لوالى أفريقية وكما تعهد بأن يتصرف كعامل عباسى تابع لدولة الخلافة وإن كان يتمتع بحرية التصرف داخل ولايته وتقول هذا ولا نجد نصاً وثائقياً عن ذلك الاتفاق عند الحديث عن تولية إبراهيم بن الأغلب لحكم تونس، ذلك لأن تاريخنا الإسلامى تعوزه الوثائق الرسمية فى بعض الفترات التاريخية، لكن كل ما تذكره المصادر والمراجع هو أن هارون الرشيد استجاب لطلب إبراهيم بن الأغلب فى أن يقيمه عاملاً شبه مستقل على المغرب بعد أن كانت الخلافة العباسية قد أعيتها الحيل فى إدارة شئون أفريقية.

وتمكن بعد جهود مضنية فى المحافظة عليها فى إطار السنة والجماعة وإبعاد الخوارج عنها وهكذا وجدت الدولة العباسية بغيتها فى إبراهيم بن الأغلب الذى كان يرى نفسه أهلاً للولاية وتاقت نفسه إلى يحكم أفريقية وهكذا اتفقت طموحاته مع ما كانت الدولة العباسية تسعى إليه من وضع أمور أفريقية فى أيد أمينة وتستريح من تكاليف نفقاتها عليها وعلى هذا الأساس تم الاتفاق بين إبراهيم بن الأغلب وهارون الرشيد وولاه هارون الرشيد منطقة تونس واعترف به أميراً مستقلاً بإمارته تحت ظل الخلافة العباسية وظلت الحركة الاستقلالية عن الخلافة العباسية واضحة فى عهد الأغالبة.

لقد كان اشتراط ابن الأغلب على أن يوفر لبيت المال الإعانة التى كانت ترسلها مصر إلى أفريقية ومقدارها مائة ألف دينار وأن يرسل إلى الخلافة العباسية فوق ذلك أربعين ألف دينار سنوياً. وكانت موافقة هارون الرشيد على هذا العرض تعنى الاعتراف باستقلال أفريقية تحت حكم ابن الأغلب استقلالاً جزئياً عن الخلافة العباسية، ومما يؤكد هذا الوضع الجديد الذى وافق عليه الرشيد لقب الإمارة الذى أطلقه المؤرخون كثيراً على بنى الأغلب.

وقد حكم إبراهيم بن الأغلب أفريقية فى ظروف عسيرة حيث استطاع بهذه الصفات النادرة أن يهدئ النفوس الثائرة ويكبح جماحها وأن يعيد الأمن إلى نصابه حيث أنقادت إليه البلاد طائعة وخضعت له الرقاب راضية فنشر الأمن.

وهكذا فإن السياسة التى ابتدأها الخليفة هارون الرشيد وسار عليها الخلفاء من بعده فيما يختص ببنى الأغلب وأفريقية فإنها سياسة قد أملتها الظروف فى هذا الطرف البعيد وكانت هى نفس السياسة التى جرت عليها الدولة العباسية فى كل الأقاليم البعيدة التى كانت تنزع للاستقلال أو التى كانت الدولة تعجز عن حكمها حكماً مباشراً وهى إقامة أسر حاكمة تحكم باسم الخلافة وهى سياسة مرنة توفق بين مصلحة الخلافة ومصلحة أهل الإقليم النازعين إلى الاستقلال، كما كانت الظروف الخاصة بأفريقية هى التى جعلت الرشيد يقيم هذه الإمارات المستقلة وكما سبق العرض فإنه يبين لنا كيف كانت ثورات أهل أفريقية على حكم الخلافة وعجز جيوش الدولة فى قهرها ثم كيف استطاع إدريس العلوى إقامة دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى وهى التى أيدتها قبائل البربر وكيف كانت تتطلع إلى توحيد المغرب الإسلامى كله واقتطاعه عن الخلافة العباسية حتى لقد راسل أهل مصر فى ذلك الأمر، فأقام الرشيد هذه الإمارة المستقلة لتكون حاجزاً بين أطماع دولة الأدارسية ودولة بنى رستم وبين البلاد الواقعة شرق دولتهم وقد استطاع إبراهيم بن الأغلبى أن يوجد نوعاً من التعاون بين طبقات السكان على اختلافهم بين الجند العرب الذين كانوا يؤلفون طبقة أرستقراطية عسكرية وبين البربر أهل البلاد الأصليين أو بين الأفارقة.

وعلى هذا فنحن نلاحظ أنه بعد قيام دولة الأدارسة ببضع سنوات قليلة ظهرت دولة الأغالبة بموافقة الخلافة العباسية وإذا كانت الدولة الإدريسية قد ظهرت فى المغرب الأقصى أو ما يسمى مراكش وغرب الجزائر فإن الأغالبة ظهروا فى المغرب الأدنى أى تونس وكانت القيروان مركز حكمهم وكان الأغلب والد إبراهيم هذا قد كسب ثقة الخليفة العباسى حين قاد جيشاً من المتطوعة فى خدمة الدولة لتثبيت

نفوذها هناك عام (١٧٩–١٨١هـ/٧٩٥–٧٩٧م) كما أن إبراهيم نفسه قد عمل مع يزيد بن حاتم حين أرسلته الخلافة العباسية للقضاء على الخوارج فكافأته الدولة بتوليته ولاية الزاب القريبة من بنى رستم الأباضية لكى يقف سداً منيعاً ضد زحفهم شرقاً، وقد امتد حكم إبراهيم شرقاً حتى شمال القيروان وطرابلس وأنعمت عليه الخلافة أيام هارون الرشيد بلقب الإمارة.

وإن كان إبراهيم بن الأغلب لم يكن له عند توليته الإمارة سند عسكرى قوى إلا قوة يسيرة من قومه وعشيرته من بنى تميم وبعض الجند الخرسانين (خراسان) وكان خصومه من العرب سكان أفريقية كثيرين وهم الذين لم يرضهم على الإطلاق الإقرار له بالرئاسة عليهم وتوليه الإمارة وأعلنوا عليه حرباً عنيفة وطويلة ظلت مستمرة طوال العصر الأغلبى الذى دام أكثر من مائة عام.

ولقد كان اختيار إبراهيم بن الأغلب لحكم أفريقية من جانب الخلافة العباسية والخليفة هارون الرشيد إنما ينطوى على بعد نظر سياسى إذ أن قيام هذه الإمارة يرفع عن كاهل الخلافة العباسية متطلبات الدفاع عن هذا الإقليم البعيد بعد ما تم إنفصال الأندلس والمغرب الأقصى والجزائر الغربية، ولقد كان إقليم أفريقية عرضة دائماً لهجمات الروم من ناحية البحر (لاحظ اهتمام الأغالبة فيما بعد ببناء الأسطول وفتح صقلية ومالطة ودورهم فى البحر المتوسط) (راجع كتابنا، الإسلام والمسلمون فى جزر البحر المتوسط)، (كتابنا الإسلام والثقافة العربية فى أوربا طبعة عام ١٩٧٩).

إضافة إلى ذلك الإقليم والمغرب العربى الإسلامى بصفة عامة كان عرضة للحركات الاستقلالية ومكاناً لتطلع الراغبين فى الاستقلال والانفصال عن الخلافة الأم فى بغداد، كما أن إرسال الجيوش العباسية إليه من المشرق العربى كان أمراً بالغ الصعوبة، نظراً لأن إرسال مثل هذه الجيوش يتكلف نفقات هائلة لبعد المسافة بين بغداد العاصمة حيث مركز الخلافة وبين هذه الأقاليم البعيدة، الأمر الذى يجعل الدفاع عنه بواسطة جيوش الخلافة العباسية قليل الفاعلية، ومن ناحية أخرى فإن أسرة الأغالبة

التى تولت الإمارة سوف تعمل بطبيعة الحال على إقرار الأمن ضماناً لاستقرارها ودوام حكمها وإرضاءً للنزعة الاستقلالية التى يحس بها أهل البلاد من المغاربة، بل أن إبراهيم بن الأغلب مؤسس هذه الأسرة الحاكمة سوف يعمل من جانبه على تكييف نظم الحكم وإدارتها بما تقتضيه الظروف التى تواجه الدولة، ويعمل على تنمية موارد المنطقة محلياً للقيام بمتطلبات الحكم فى الأقليم والدفاع عنه ضد خطر الأدارسة وبنى رستم الأباضية والخوارج.

وقد رأينا كيف عرض إبراهيم بن الأغلب تنازله عن الإعانة التى كانت تقدمها مصر من بيت مالها سنوياً لولاة هذا الإقليم ومقدارها مائة ألف دينار.

وقد أثبت إبراهيم بن الأغلب أنه حاكم ناجح فقد استطاع أن يوطد الحكم فى أسرته وأن يقضى على الثورات التى قامت فى إقليمه ومن أكبر هذه الثورات والخصوم تلك التى قام بها «الحسن بن حرب الكندى وعمران بن مجالد الربعى» وقد تمكن إبراهيم بن الأغلب من القضاء على نفر كبير من رؤسائهم بعد جهد شديد ولكنه لم يقض على روح التمرد والعصيان على هذين الخصمين وعلى آل بيتهم ولقد انتشرت الثورة ضده من رؤساء جند أفريقية العرب ومن انضم إليهم من العرب الذين ولدوا فى المغرب ومن أصول عربية وظلوا يتصورون أنهم أحق من غيرهم بحكم أفريقية.

وكما سبق القول فإن الإتفاق الذى تم بين الخليفة هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب يقضى بأن يؤدى إبراهيم بن الأغلب أربعين ألف دينار فى السنة ويستغنى عن مائة ألف دينار كانت ترسل من مصر سنوياً كمعونة لوالى أفريقية فكان كل خراج أفريقية الذى يعود إلى الدولة العباسية مائة وأربعين ألف دينار وهو مبلغ زهيد جداً، ولكن إبراهيم بن الأغلب اجتهد فى استخراج مال كثير من أفريقية حتى بلغ إيرادها فيما يقال نحو مليونين من الدنانير فى السنة. وقد كان هذا المال عماد قوة إبراهيم بن الأغلب .

وقد عمد إبراهيم بن الأغلب إلى تدعيم حكمه وولايته بالبناء والعمران، ولكى يضمن ويأمن ابن الأغلب عدم انقضاض خصومه عليه ومكرهم به فقد استعان عليهم بحامية من الزنوج والأعاجم الوافدين من خراسان وكان هذا الأمير أول من أدخل الزنوج فى الجيش وبهذا التدبير استطاع أن يكبح جماح خصومه وأن يضرب على أيديهم.

كما أن ابن الأغلب استطاع أن يوقف طموح الأدارسة وأن يعقد معهم إتفاقاً (انظر فصل العلاقات الخارجية) وكان هذا الاتفاق ينص على أن يكف كل منهما عن الآخر من ناحية، وقد ذكر عنه ابن عذارى المراكشى ما نصه لم يل (يحكم) أفريقية أحسن سيرة منه ولا سياسة ولا أرق برعيته ولا أوفى بعهده ولا أرعى لحرمة منه قطاعت له قبائل البربر، وتعهدت أفريقية فى أيامه.

وقد اتجه نظر إبراهيم بن الأغلب فى أول الأمر إلى إقامة قوة عسكرية يستطيع الاعتماد عليها إذ أنه لم يكن يستطيع الاعتماد على جند الخرسانى وكان أهله من بنى تميم قليلين رغم أنه وفدت منهم أعداد كبيرة من مصر عندما تولى الإمارة إلى أفريقية أيام حكمه، لكن خصومه كانوا يعتمدون أيضاً على قوة عسكرية قبلية لاتقل عن قواته ومن هنا كان همه الأول هو إنشاء قوة عسكرية خاصة به ولتدعيم حكمه لاسيما وأن المال صار بين يديه كثيراً بعد ما تحصل من إيراد الولاية مليونين من الدنانير.

وقد اتخذ إبراهيم بن الأغلب من مدينة القيروان عاصمة لولايته ولكنه لم يلبث بعد مرور عام على ولايته أن شرع فى عام ١٨٥م فى بناء مدينة القصر القديم التى تقع أطلالها على بعد ثلاثة أميال جنوبى القيروان وسماها العباسية تعبيراً عن ولائه للعباسيين وانتقل إليها بأهله وحاشيته وذلك ليكون فى مدينة يتوافر فيها جو الثقة بين أهله ومن يثق فيهم وهو بذلك يسير على سنة الحكام الكبار فى ذلك العصر؛ حيث كانوا ينشئون لدولهم عواصم ملكية غير الغواصم القديمة التى كانت تضم طبقات قد

لايتوافر فيها الإخلاص لهم.

لكن هناك بعض المصادر التى تذكر أن أباضية تاهرت من بنى رستم قد قاموا يهدم العباسية بعد إتمام بنائها (انظر فصل العلاقات بين الأغالبة وبنى رستم والأدارسة).

ويذكر أنه قبل توقيع الصلح مع الأدارسة أنه وجه همه إلى مناوأتهم بعد أن سادوا الجزء الغربى من المغرب وكيف استطاع أن يصد تيارهم ويوقف زحفهم عن تلمسان ولكنه لم يفلح فما كان من إبراهيم بن الأغلب إلا أن لجأ إلى المؤامرة وقد نجح فى قتل إدريس الأول ثم مولاه راشد إلا أنه لم ينجح فى القضاء على دولة الأدارسة لذا .. ظهرت دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى واقتصر نفوذ الأغالبة على القيروان وإن كان قد امتد شرقًا حتى شمل طرابلس وبرقة وإن كان النفوذ الأغلبى على السواحل فقط حيث كان الداخل يخضع لنفوذ بنى رستم الخوارج الأباضية وكانت سلطته أقوى ما تكون فى الأقليم الساحلى من قابس إلى سوس وأغلب سكان هذا الجزء من أهل السنة والجماعة، وكان هذا الجزء يميل إلى الهدوء لكثرة القبائل العربية التى نزلت فيه بينما كانت القبائل البربرية أشبه بجيوب متفرقة فكانت هذه القبائل العربية هى التى دخلت بين القبائل البربرية وبعضها لاسيما بعد أن تصاهرت معها.

وظل إبراهيم بن الأغلب معترفًا بسلطة الخلافة العباسية عليه وإن كانت إسمية لا تعدو الناحية الدينية وإرسال الخراج سنويًا على الرغم من أنه لم ينقش إسم الخليفة العباسى على السكة مطلقًا بل كان بعض خلفاء إبراهيم بن الأغلب يتعمدون إغفال إسمه فى الخطبة.

وهكذا .. فقد نجح إبراهيم بن الأغلب فى إدارة شئون ولايته الأفريقية الممتدة من طرابلس شرقًا حتى بجاية غربًا وأن يبعد منطقة نفوذه عن نفوذ الأدارسة وبنى رستم

وأن يصد هجمات الروم البحرية، بل أنه أداره إدارة حسنة، إلا أنه رغم هذا .. فإن البلاد لم تهدأ لأن عوامل الشغب قد دبت بين العرب أنفسهم فانقسموا إلى تميمية وهم أهل مدينة تونس ويمانية، وهم أهل القيروان. وكان التميميون لا يرضون تقريب ابن الأغلب إياهم فثاروا فى وجهه بقيادة «عمران بن خالد الربيعى» وبعد صراع طويل بين الفريقين تغلب ابن الأغلب على بنى تميم فى تونس وقضى على ثورتهم ولكن لم تكد نيران هذه الثورة تخمد حتى ثارت طرابلس فأخمد ثورتها أيضًا وكانت ساحة طرابلس قد حدث بها اضطراب كثير من الأمور وزادت بها الحوادث التى اشتدت وانتشرت بها أعمال الشغب والخلافات القبلية التقليدية بين القبائل السبائية (اليمن) والقيسية بنى تميم والتى بذل فيها الأمير الأغلبى إبراهيم بن الأغلب جهودًا جبارة ورائعة لمحاولة احتواء الأزمة ومعالجتها بشتى الطرق حتى أنه رغم استقلاله بولاية أفريقية فإنه اضطر إلى طلب النجدة والاستعانة بمصر وأجيب طلبه فى الاستعانة بجند مصر فى قمع هذه الفتن، لكن القوات التى قدمت من مصر لم تستطع أن تحل مشكلة الصراع العميق بين السبائية والقيسية وفشلت هذه الجهود كما فشل غيرها من قبل وعمت الفوضى فى مدينة طرابلس التى كانت تدخل فى أملاك الدولة العباسية وتحت ولاية بنى الأغلب من قبل الدولة العباسية، بل أن الذى زاد الموقف سوء أن البربر قاموا بالثورة على جند المدينة من العرب وعلى جميع العرب جميعًا بما فيهم نواب بنى الأغلب، ويذكر أن من عوامل قيام تلك الثورة فى طرابلس هو الدور الذى لعبه وعضده عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم أمام دولة الخوارج الأباضية فى تاهرت حيث أن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كان فى تلك الفترة التى حدثت فيها الثورة يقيم فى جبل نفوسة حيث الخوارج الأباضية وهو قريب من طرابلس فالمسافة بين جبل نفوسة وطرابلس كما يذكر الجغرافيون لم تكن أكثر من مسيرة ثلاثة أيام.

وبعد تلك الثورات المتكررة فقد استعان ابن الأغلب بالكثير من البربر الذين تعربوا والذين عملوا بإخلاص معه فى الجيش الأغلبى كما استعان بأعداد كبيرة من

الصقالية، وهم جند من أصل أوربى كانوا يُشترون صغاراً من تجار الرقيق الذين كانوا يجلبونهم من أوربا ويربون تربية عربية إسلامية ويتخذون بعد ذلك جنداً وخدماً للدولة فى القصور والوظائف. وقد استكثر إبراهيم بن الأغلب من هؤلاء جميعاً وأضاف إليهم فيما بعد قوة من السود ولم يطمئن على حكمه إلا بعد أن تم له إنشاء هذه القوة خلال السنوات الأولى من حكمه فى أفريقية ولقد كان الساحل الأفريقى مفتوحاً أمام الأساطيل الرومية التى كانت تتخذ قواعدها فى الجزر القريبة منه فى صقلية ومالطة ولقد كانت المعارك دائمة بين البحرية الإسلامية والبحرية البيزنطية منذ فتح العرب شمال أفريقيا لكن الثورات التى نشبت فى أفريقيا بعد ذلك جعلت الولاه العباسيين ينشغلون عن غزو هذه الجزر فتجرأت سفن الروم على مهاجمة السواحل الأفريقية وتحول المسلمون إلى مركز الدفاع بعد أن كانوا فى العصر الأموى يأخذون موقف المبادأة ونقل العمليات الحربية سواء منها البرية أو البحرية إلى أرض العدو ولما انشغل إبراهيم بن الأغلب بأمور أفريقية أخذ يعمل على تكوين قوة بحرية لاتستطيع أن ترد هجمات الروم أو تبادلهم أعمال القرصنة التى يتبادلها الطرفان فحسب وإنما تستطيع أن تقوم بعمل حقيقى لإبعاد الأسطول الرومى نهائياً عن الساحل الأفريقى بالإستيلاء على قواعده المواجهة لهذا الساحل فى صقلية ومالطة وسواحل إيطاليا الجنوبية والجنوبية الغربية.

وكما اهتم ابن الأغلب ببناء القوة العسكرية البرية .. فإنه عمل على بناء قوة بحرية؛ حيث أدرك بثاقب نظره منذ توليه وإقراره من قبل الخليفة العباسى هارون الرشيد أن امتداد إمارته من طرابلس شرقاً حتى بجاية غرباً يستلزم أسطولاً يستطيع بواسطته حماية هذه السواحل من غزوات الروم المتكررة وفى نفس الوقت يعينه على العودة بالسياسة الإسلامية الأفريقية إلى توجيه الغارات على بلاد الروم بالإضافة إلى أنه كان يهدف ومن وراء إنشاء تلك القوة البحرية إلى استخدام هذا الأسطول فى إخمال الثورات التى كثيراً ما كانت تحتدم فى طرابلس نظراً لقربها من جبل نفوسة مركز

الأباضية حكام تاهرت؛ بالإضافة إلى أن إبراهيم بن الأغلب قد حرص على الإفادة من قدرات سكان أفريقية البحرية وخاصة الأفارقة ممثلة فى ميولهم البحرية الواضحة عند سكان السواحل ومن توافر المواد اللازمة لصناعة الأسطول لتكون قوة بحرية عظيمة.

كما أنه فى نفس الوقت فقد عمل إبراهيم بن الأغلب على إنشاء قاعدة عسكرية له ولأهل بيته من الأغالبة وبنى تميم وذلك على طريقة الكثيرين جداً من حكام المسلمين؛ حيث نعلم أنه كيف ترك العباسيون الكوفة واتخذوا الهاشمية مقراً ثم كيف أنشأوا بغداد فى عصر المنصور ثم سامراً فى عهد المعتصم وكيف تم ترك الفسطاط فى مصر وإنشاء مدينة العسكر وغيرها من المدن والعواصم الأخرى فى العديد من بلاد العالم الإسلامى؛ حيث أنهم كانوا يعيشون فى هذه القواعد فى الغالب منفصلين عن رعاياهم معتمدين على قواتهم العسكرية وجندهم وخدمهم الخاص.

وقد اختار إبراهيم بن الأغلب موقعاً إلى الجنوب الغربى من القيروان أنشأ بها مدينة صغيرة هى فى الواقع حصن لبيت الحكم وسميت المدينة الجديدة أولاً بالعباسية ثم سميت بالقصر القديم وعندما تم بناءها كما سبق القول انتقل إليها بأهله وأمواله وحرسه وجنده وأصبح القصر القديم قاعدة الحكم فى البلاد.

وعندما تم ذلك لإبراهيم بن الأغلب أمن على نفسه ومصيره وسار فى حكمه على طريقة الحكام فى تلك العصور.

وقد اهتم ابن الأغلب بترقية أفريقية مادياً وأدبياً مستعيناً بالمعالم الحضارية والفنية الإسلامية ومتخذاً خبرة العرب والمسلمين وما تم فى دولة بنى العباسى فى بغداد.

ولقد كان القصر القديم أو العباسية مدينة كاملة بها قصور الأمير الوالى وآل بيته ومساكن حاشيته وخدمه ومعسكرات لجنده وخزائن للسلاح والأموال هذا إلى جانب الأسواق وكل ما يلزم للمدينة من وسائل تحتاج إليها وحفرت داخل المدينة الآبار الكثيرة بالإضافة إلى حفر هذه الآبار فى كافة أنحاء القطر والتى كانت تمد الأهال

بحاجتهم من الماء اللازم للشرب وسقى الماشية والزراعة وكذلك أحيطت المدينة بسور حصين على أركانه أبراج عالية يقوم فيها الحراس.

هذا إلى جانب أن الجند المناوئ والمعادى لتولية إبراهيم بن الأغلب حكم أفريقية قد كانت معسكراتهم وتواجدهم فى المدن الكبرى وخاصة فى مدينة تونس التى كانت معقل ومركز المعارضة الأولى المعادى للبيت الأغلبى للحاكم.

إلا أن الأغالبة نجحوا فى بعض الفترات التاريخية من حكمهم فى إيجاد نوع من التعاون بين كل الفئات والعناصر التى تقطن إمارتهم وقد وضح هذا التعاون المستمر فى المدن على وجه الخصوص وفى مدينة القيروان حاضرة البلاد؛ حيث عاشت هذه العناصر جنباً إلى جنب ولعل هذا التعاون قد هيأ للأغالبة أن يستغلوا موارد البلاد خير استغلال فعظمت ثروة البلاد وأقبل هؤلاء الأمراء على إتاحة الفرصة لطلب العلم والمعرفة وبدأ الشعب يعيش فى حالة من الرخاء بالإضافة إلى أن الأمراء كونوا لأنفسهم بلاطاً شبيه بالبلاط العباسى فى بغداد فى حياته واتجاهاته وقد ظهر أثر هذه السياسة التى وضع لبناتها الأولى مؤسس الإمارة إبراهيم بن الأغلب فى ميدان الحضارة والثقافة والفن الإسلامى وعلى هذا تنوعت الآثار المنسوبة إلى عصر الأغالبة بالإضافة إلى أنهم استطاعوا أن يجعلوا الإقليم يعيش فى رخاء اقتصادى وذلك بتنمية موارد الإقليم لسد النفقات الحربية الهائلة التى يتطلبها التصدى لتحركات الروم ضد الساحل الأفريقى بل إنهمً لم يكتفوا باتخاذ موقف الدفاع بل إنهم قاموا بحملات بحرية ناجحة أدت إلى فتح صقلية ومالطة.

* * *

الباب السابع
جـيل الأبنـــاء

وهكذا نرى أنه بعد أن توطدت دعائم الدولة الأغلبية بعد فترة من الحكم دامت إثنى عشر عاماً استطاع فيها الأمير إبراهيم بن الأغلب بما بذله من جهد خارق للعادة أن يثبت دعائم حكم أسرته وأن يقضى على الخلافات والفتن وأن يتغلب على المتاعب التى كانت تواجه مسيرة الحكم .. فإنه قد قضى نحبه فى شهر رجب عام ١٩٦هـ، وعلى ذلك فقد آل الحكم لأكبر أبنائه؛ حيث كانت العهود التى تمت بينه وبين الخليفة هارون الرشيد تنص على أن يكون الحكم فى أسرته من بعده.

٢ – الأمير عبد الله الأول
(١٩٦–٢٠١هـ / ٨١٢–٨١٧م)

هو عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التميمى وهو أكبر أبناء إبراهيم وقد آل إليه الحكم بناءً على توصية أبيه ولم يكن من الأمراء الأقوياء الذين لعبوا دوراً فى تاريخ الأسرة الأغلبية؛ بل أنه كان سيئ السيرة، ولم تطل مدة حكمه عن ست سنوات قضاها فى جنى ثمرات العمل الذى قام به والده من قبله.

ويذكر أنه لما توفى الرشيد وتولى الأمين الخلافة؛ فإنه أقر ابن الأغلب على إمارة تونس وعهد إلى إبنه الأكبر عبد الله بولاية طرابلس فلما مات إبراهيم بن الأغلب عام ٨١٢م أخذ إبنه الثانى زيادة الله البيعة لأخيه الأكبر عبد الله وقام مقامه ريثما يأتى من طرابلس ولم يأت عبد الله إلا بعد سنة من وفاة أبيه.

وكان عبد الله بن إبراهيم أو العباسى عبد الله قد سار فى ثلاثة عشر ألف جندى إلى طرابلس لقتال قبائل هوارة الذين دخلوا طرابلس واستطاع إلحاق الهزيمة بهم وقتل

عدد كبير منهم وتمكن من دخول طرابلس وبناء سورها.

لكن فى ذلك الوقت كان عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم يقيم فى جبل نفوسة القريب من طرابلس حيث مركز الأباضية الخوارج وكان قريبًا من مسرح الأحداث وعلى علم بما يدور من صراع وأدرك أن هزيمة الأغالبية لقبائل هوارة يعتبر اعتداء صارخًا على رعايا دولته الرستمية فأعد جيشًا وتقدم لحصار طرابلس وتمكن عبد الوهاب من فرض الحصار على طرابلس عام ١٨٦هـ/٨١١م. لكن عبد الله ظل يقاتل جند عبد الوهاب الرستمى من باب واحد هو باب هوارة وظل القتال يدور على هذا النحو حتى وفاة إبراهيم بن الأغلب الذى كان قد عهد بالإمارة إلى إبنه الأكبر عبد الله، لكن زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب كان قد أخذ العهد والمواثيق على الجند وأرسل إلى أخيه عبد الله فى طرابلس رسالة يخبره فيها بموت أبيه وبأن الإمارة انتقلت إليه، لكن الرسالة والرسول تصادف وقوعهما فى أيدى جند عبد الوهاب الذين كانوا قد أحكموا الحصار حول طرابلس وقام الهوارة بأخذ الرسول والرسالة ودفعوا بهما إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فأمر بأن ينادى عبد الله بموت أبيه وأمام هذه الظروف لم يجد عبد الله بدًا من عقد الصلح مع الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وجاء فى شروط الصلح اعتراف دولة الأغالبة الممثل الشرعى للخلافة العباسية فى بلاد المغرب بالسيادة الرستمية على المناطق الداخلية من طرابلس إلا أنه كانت من أهم بنود الصلح أن تكون للأغالبة السيادة على مدينة طرابلس وبعض الأجزاء الصغيرة المجاورة والمياه البحرية التى تطل على البحر المتوسط وتلك هى تطورات حوادث تولية عبد الله بن إبراهيم لإمارة الأغالبة، وكيف أن عبد الله كان بطلاً فى الحرب والسلم استطاع أن ينتصر على هوارة وأن يحافظ على طرابلس فى وجه بنى رستم ويمنعهم من دخولها وأن يعقد صلحًا مشرفًا مع عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم يضمن له بقاء تلك الأراضى فى يد الأغالبة وحرية الحركة والوصول إلى القيروان.

غير أن فترة حكمه القصيرة لم تكن كافية للحكم عليه من خلال الأعمال التى قام بها لكن فترة مكوثه فى طرابلس بناءً على تعيين الخليفة العباسى الأمين له تدل على قوة شخصية وليس سوء السيرة كما صور ذلك المعادون للأغالبة، ولكن بعد ذلك فقد ال الحكم إلى أخيه.

٣ – زيادة الله الأول بن إبراهيم بن الأغلب
(٢٠١–٢٢٣هـ / ٨١٧–٨٣٧م)

تولى زيادة الله الحكم فى القيروان بعد وفاة أخيه أبى العباسى عبد الله وكان أميرًا قادرًا ولكن مشكلته الكبرى كانت جنده الذين استكثر منهم أبوه إلى درجة زادت على الحاجة، وتكلف ذلك المال الطائل يضاف إلى ذلك أن جند البربر كانوا قد تكاثروا مع الزمن وزادوا عن الحاجة.

وكان زيادة الله وهو ثالث أمراء الأغالبة الذين حكموا أفريقية وقد بايعه الناس بعد وفاة أخيه أبو العباسى عبد الله بالإمارة وكان هذا الأمير رجلاً عاقلاً أديبًا ذا علم وفضل وإدارة وحزم على النقيض مما كان عليه أخوه من ظلم وجور وسوء تدبير، ولكن شاءت الظروف أن يحتمل هو عواقب أعمال أخيه، إذ نجد أنه ما كاد يتولى الإمارة حتى ثار عليه أهله وعشيرته من بنى تميم بقيادة «منصور الطنبدى» الذى أخذ يستولى على البلاد بلدًا بعد بلد حتى لم يبق فى يد زيادة الله من البلاد الأفريقية التونسية إلا قابس والساحل وتغزاوة وطرابلس وأصبح منصور الطنبدى هو الأمير المسيطر على البلاد فضرب السكة (العملة) بإسمه وخطب له على المنابر وزيادة الله لايقدر على شىء لاسيما أنه لم يكن أمام عدو واحد بل ثار عليه أيضًا شخص إسمه «عامر بن نافع» وكان يطمع فى الإمارة؛ فلما رأى فى منصور منافسًا له انصرف عن زيادة الله إلى منصور فغلبه وقتله واستبد بالأمر من بعده وظل أميرًا على البلاد إلى أن مات عام ٨٢٩م، وذلك فى السنة الثانية عشرة لإمارة زيادة الله.

فلما مات «عامر بن نافع» رأى أولاده أنهم لا يقدرون على منافسة زيادة الله فأتوه خاضعين مستأمنين فأمنهم وطويت صفحة الفتن وهدأت الأحوال وعادت البلاد إلى حياتها العادية. وساد البلاد بصورة عامة الأمن والرخاء وعمرت المدن وظهر الرخاء على العامة وبدأت شخصية أفريقية فى الظهور وكثر أهل العلم وبالفعل تحولت أفريقية إلى قاعدة قوية من قواعد حضارة العلم والإسلام.

كما أن زيادة الله أولى الأسطول عناية تامة وقدر لهذا الأسطول أن ينمو وتزيد قوته زمن زيادة الله وأصبح من الضرورى أن يقوم هذا الأسطول بتحقيق آمال المسلمين القديمة فيساهم فى عهد زيدة الله بفتح جزيرة صقلية وقد حكم زيادة الله إثنين وعشرين سنة هجرية.

ولقد أصبح للدولة فى عهده جيش قوى تكاثر عدده مع الزمن لاسيما جند البربر الذين ثقلت نفقاتهم وبدأوا يسببون المتاعب للإمارة، فوجد زيادة الله نفسه أمام حشد هائل من الجند لاعمل لهم فى الحقيقة ورواتبهم فى زيادة ونوعهم وتدريبهم فى تدهور فكان لابد أن يفكر فى مخرج من تلك الأزمة بإيجاد مجال لنشاط هؤلاء الجنود.

وقد ظل الأمير زيادة الله معترفاً بسلطة الخلافة العباسية الإسمية دون أن يكون لها أى نفوذ ولم يكن هذا الاعتراف فى الواقع إلا ليصدوا عنهم التيار الخارجى ممثلاً فى بنى رستم والعلوى ممثلاً فى الأدارسة، وهنا كان المذهب السنى وسيلة تحفظ استقلال هذا الجزء من أن يقضى عليه العلويون.

كما أن زيادة الله عانى كثيراً من الثورات التى قام بها جنده عليه وفتنهم المتعددة التى كادت تطبح بسلطان بنى الأغلب ونفوذهم مثل ثورة «عمر بن معاوية القيسى» فى العصر بين عام ٢٠٨هـ وثورة منصور الطنبدى فى تونس عام ٢٠٩هـ؛ حيث كانت ثورة منصور أخطر هذه الثورات لأن القواد استولوا على بلاد أفريقية كل

قائد على بلد ويمتنع فيها عن عقوبة زيادة الله التى توعدهم بها واضطرمت أفريقية بالثورة ورمى الجند كلهم إلى منصور الطنبدى أزمة أمورهم وولوه على أنفسهم بعد أن التفوا حوله وتواثبوا على الأمير زيادة الله وكذلك ثورة «عامر بن نافع الأزرق» بمدينة سبته عام ٢١٠هـ ويرجع سبب قيام الجند بالثورة على زيادة الله استخفافه بهم وإمعانه فى سفك دمائهم لسوء ظنه بهم وقد ساء مركز زيادة الله؛ بسبب هذه الثورات إلى حد أن الجند كتبوا له بأن يرحل عن أفريقية وليس أدل على خطورة ثورة عامر بن نافع من تعليق زيادة الله عندما بلغه نبأ وفاة عامر عام ٢١٣هـ من قوله «اليوم وضعت الحرب أوزارها» كذلك حرص زيادة الله على التخلص من جنده البربر بأن يرسلهم فى حملته التى أعدها لغزو صقلية حتى شغلهم بمقاتلة الروم عن التفكير فى القيام عليه ويضع حداً للاضطرابات التى كانت تحدث بين السودان والعرب والبربر من جنده.

وقد ورث زيادة الله عن أبيه ملكاً واسعاً مستقراً وثروة طائلة فتاقت نفسه إلى أن يجدد تقليد الجهاد الإسلامى ومن هنا .. فكان زيادة الله أميراً حسناً لا بأس بمواهبه استطاع أن يسير بالحكم الأغلبى سيرة حسن التصرف خبيراً بشئون الحكم ولكن عداوة زعماء جند العرب له أوقعته فى مشاكل وأزمات وأخطاء كثيرة، وقد تمكن من التغلب على كل هذه المشاكل وإن كانت قد بقيت بعض جماعات قوية خطيرة فى تونس وطبنة والمسيلة وغيرها من الأماكن فى أفريقيا كانت من أسباب ضعف البيت الأغلبى كله فى النهاية؛ بالإضافة إلى أن زيادة الله كان محباً للعلم والعلماء مشجعاً لها ولا يؤخذ عليه إلا العنف فى معاملة خصومه من جند العرب وغيرهم مما شاب حكمه وملأه بالحروب وقد قال ذلك الرجل قبل وفاته أنه لايخشى لقاء الله سبحانه وتعالى فى يوم الميعاد، وفى صحيفته أربعة أشياء، بناء مسجد القيروان، وبناء قصر المنستير، وبناء قنطرة أم ربيع على نهر مجردة، وتعيين ابن محرز للقضاء، والغريب فى الأمر أنه لم يذكر فى حسناته التى يدخل بها الجنة فتح صقلية؛ فكأنه لم يشعر فى قرارة نفسه بأنه عندما قام بهذا الفتح؛ قام بأعظم ما يذكره التاريخ له وللأغالبة جميعا؛

فإنه لما قتل الخليفة العباسى الأمين، وبايع أهل بغداد عمه إبراهيم المهدى لم يعترف زيادة الله بهذا الخليفة، ولم يبايعه بل دعا للمأمون على المنابر، فلما تمكن المأمون من الخلافة شكر زيادة الله صنيعه وأقره على ما كان فى يده وحل من نفسه محلاً رفيعاً. واستطاع زيادة الله بعد أن هدأت الفتن أن ينصرف إلى العمران والاقتصاد؛ فازدهرت البلاد فى زمنه وكثرت خيراتها، وفى زمن زيادة الله كانت البلاد تتأرجح بين المذهب المالكى مذهب أهل المدينة والمذهب الحنفى مذهب أهل العراق، ولكن تمذهب الإمام سحنون بالمذهب المالكى قضى على هذا النزاع ورجح المذهب المالكى فى البلاد وهو مذهب الأكثرية فى بلاد المغرب العربى الإسلامى إلى يومنا هذا.

وطوال فترة حكم زيادة الله فإنها إن دلت حوادثها وأحداثها فإنها تدل على أن هذا الأمير كان من أعظم أمراء بنى الأغلب وإن كانت بعض المصادر ذكرت أنه كان ظلوماً غشوماً .. فإن ذلك ربما لما كان يظهر به من عنف إزاء خصومه نظراً لكثرتهم وتعددهم فقد كان معذوراً فى اتخاذ هذه المواقف العنيفة نظراً لأن الظروف السياسية ووضع أسرة الأغالبة فى المغرب يقتضى اتخاذ تلك المواقف فى مواجهة الداخل ولاسيما أن العلويين فى المغرب الأقصى والأباضية الرستيين فى تاهرت كانوا يتحينون الفرص للقضاء على دولة الأغالبة ونترك هنا الحديث عن فتح صقلية وغيرها، وإن كانت بدأت فى عهد زيادة الله إلا أنها استمرت فى عهد من خلفه، ومن هنا سوف نتناولها عند الحديث عن أعمال الأغالبة.

٤ – الأغلب أبو عقال

(٢٢٣–٢٢٦هـ/٨٣٧–٨٤٠م)

لما توفى زيادة الله الأغلب عام ٢٢٣هـ–٨٣٧م فقد خلفه من بعده أخوه الأغلب أبو عقال (٢٢٣–٢٢٦هـ/٨٣٧–٨٤٠م)، ورغم أن فترة حكمه لم تزد عن ثلاث سنوات .. إلا أنه سار فى الناس سيرة حسنة صالحة؛ فأكرم الجند بالتوسع عليهم

فى أرزاقهم وكف أذى العمال عن الرعية، ولكن مدة إمارته لم تطل وتجمع المصادر على أنه أحسن سيرة من أخويه عبد الله أبى العباسى وزيادة الله ولم يطل عهده وقد كان نفاذ البصيرة مدركاً لعواقب الأمور، ونجح فيما لم يستطع أن ينجح فيه أخواه من قبله إذ استطاع أن يأخذ البيعة من قواد الجيش والرعية؛ نظراً لأعماله الطيبة لابنه أبى العباسى محمد الأول بن الأغلب أبى عقال قبل وفاته، ومن هنا .. رغم اعتراض بقية آل البيت الأغلبى لكن يبدو أنه كان مدركاً لعواقب الأمور، ومن هنا .. ترك إبنه يقوم بأمور الإمارة أثناء توليه الإمارة رغم قصرها فإذا كان أخوه أبو العباسى عبد الله قد حكم ست سنوات هجرية وزيادة الله حكم ثلاثة وعشرين عاماً هجرياً .. فإن سنوات إمارته لم تزد عن ثلاث سنوات استطاع فيها أن يواصل مسيرة والده إبراهيم بن الأغلب مؤسس الأسرة وأخويه عبد الله وزيادة الله بل إنه دعم أعمال أخيه زيادة الله فى القيام بغزو صقلية وفتح فيها بضعة حصون وغنم منها غنائم كثيرة.

* * * *

جيل الأحفاد

٥ – أبو العباسى محمد الأول بن الأغلب أبو عقال بن إبراهيم بن الأغلب
(٢٢٦–٢٤٢هـ/٨٤٠–٨٥٥م)

كانت بداية حكم أبى العباسى محمد الأول هى فترة انتقال مقاليد الإمارة من جيل أبناء إبراهيم بن الأغلب إلى جيل أحفاده؛ حيث كان أولهم ذلك الأمير الذى نجح أبوه الأغلب أبو عقال فى أخذ البيعة له ويذكر أنه كان رجلاً ساذجاً إلا أنه كان رجلاً إدارياً حازماً من الطراز الأول استطاع أن يوطد الحكم ويقف سداً أمام المطالبين بالعرش من بنى الأغلب حيث ثار عليه أخوه وبعض أقاربه وأبناء عمومته ووقفت الأسرة الأغلبية ضده فيما عدا نفر قليل، وقف بجواره يشد أزره ويساعده فى إدارة شئون البلاد، ومن هنا استطاع أن يتغلب عليهم جميعاً ودامت فترة حكمه خمس عشرة سنة بنى خلالها قصراً فى سوسة كما بنى مسجدها الجامع القائم إلى اليوم، ولعل أعظم أعمال هذا الأمير إقرار تولية الإمام سحنون قضاء القيروان؛ فنشر بذلك العدل بين الناس والطمأنينة فى النفوس.

وفى عهده فتح المسلمون جزيرة مالطة عام ٢٥٥هـ/٨٦٨م، واستقروا فيها، وبدأوا تحويلها إلى جزيرة إسلامية، وقد طال عهده بالحكم وأراد أن يلحق قومه فى الجهاد؛ فالتحق بصقلية وترك أفريقية لولده. وقد استطاع أبو العباسى محمد الأول بن الأغلب أن يفعل كما فعل والده من قبل أن أخذ البيعة لأبنه أحمد أبى إبراهيم لكى يكون خلفاً له ضارباً عرض الحائط باعتراض أخوته وأبناء عمومته، وآل البيت الأغلبى الذين رأوا فى ذلك مساساً بحقوقهم واعتراضاً على أحقيتهم فى تولى الإمارة، لكنه كان دائماً يذكرهم بما فعله أبوه من قبل فى أخذ البيعة له وقد كان ذلك تطوراً جديداً فى نظام الحكم فى آل الأغلب.

٦ – أحمد أبو إبراهيم بن العباسى محمد الأول بن الأغلب أبو عقال بن إبراهيم بن الأغلب
(٢٤٢–٢٤٩هـ/٨٥٥–٨٦٢م)

كان أحسن الأغالبة خلقاً وأصلحهم فاضلاً رحيماً بالرعية مولعاً بالعمران كثير الإحسان، ومن مآثره تحسينه وإصلاحه لجامع الزيتونة، وقد ازدان عهده بالقاضى الجليل سحنون الذى توفى عام ٢٠٤هـ، وقد بنى كثيراً من الآثار الباقية إلى اليوم وغزا فى عهده صقلية واستولى فيها على حصن بانة؛ بل وفتح المسلمون سرقوسة وطبرمين وبقية الشاطئ الشرقى للجزيرة، وقد ازداد عمران أفريقية ومدنها فى عهده نتيجة لاهتمامه الشديد بالعمران؛ فقد عمرت المزارع وزاد الخراج وبدأت البذرة التى غرسها الوالى الأول إبراهيم بن الأغلب تؤتى ثمارها اليانعة فى عهد أحمد أبى إبراهيم بن العباسى حتى لقد قدر اليعقوبى الجغرافى خراج أفريقية فى زمنه بستة وعشرين مليون درهم.

وتوفى أحمد أبو إبراهيم عام ٢٤٩هـ/٨٦٢م، وعمره ثمانية وعشرون عاماً ورغم أن سنوات حكمه لم تزد عن سبع سنوات إلا أنها كانت حافلة بالأعمال الجليلة التى تذكر له بالفخار والاعتزاز.

وعلى الرغم من الأمير أحمد أبو إبراهيم قد أخذ البيعة لإبنه محمد الثانى أبى الغرانيق إلا أنه لم يستطع أن ينفذ ذلك نظراً لأن أخاه زيادة الله الثانى بن محمد الأول أبا العباسى قد قفز على العرش وابن أخيه خارج العاصمة.

٧ – زيادة الله الثانى بن العباسى محمد الأول بن الأغلب أبـو عـقـال
(٢٤٩–٢٥٠هـ/٨٦٢–٨٦٣م)

لم يدم حكم هذا الأمير طويلاً إذ لم يزد عن عام واحد ويبدو أنه قتل فى ثورة

قام بها محمد الثانى أبو الغرانيق، وأبو الغرانيق طير كان أبو الغرانيق مولعا بصيدها، ولذا.. أطلقت عليه. وفى أيامه غزا المسلمون مالطة ووطدوا حكمهم وأسروا أميرها بعد أن كان يحاول النزول إليها، وفى أيامه فقد المسلمون بعض الحصون فى جزيرة صقلة، وقد اشتهر بحبه للعمران ومن مآثره أيضًا انشاؤه لمدينة وقادة قرب العاصمة القيروان عام ٢٦٤هـ، وانتقل إليها من العباسية مع أهل بيته ورجال دولته وشاد بها القصور، وكان مولعًا بالعلم شديد الاهتمام بالمخطوطات، ومن ذلك قيامه بإنشاء دار الحكمة التى جلب إليها من بغداد ومصر المخطوطات والكتب والعلماء المبرزين فى الطب والحكمة، وغيرها.

وفى رقادة هذه العاصمة الجديدة كان يستقبل الشعراء وسفراء ملوك الأفرنج وقياصرة القسطنطينية، وغيرها. وقد بلغت الدولة الأغلبية فى عهده أوج عصرها. وقد حكم محمد الثانى أبو الغرانيق بن أبو إبراهيم أحمد أحد عشر عامًا (٢٥٠-٢٦١هـ/٨٦٣-٨٧٤م)، ويقال أن محمد أبا الغرانيق كان قد عهد بالإمارة من بعده إلى إبنه أبى عقال وأخذ على أخيه إبراهيم الثانى عهدًا بأن يرعاه مادام صغيرًا ولاينازعه الإمارة، وأعطاه موثقًا وعهدًا وأراد إبراهيم الصغير أن يبر بوعده وعهده لأخيه أبى الغرانيق .. ولكن الذى حدث هو أن الناس رغبوا فى إمارة إبراهيم عليهم وأجبروه على قبولها فأبى بادئ الأمر .. ثم أنه نزل على رغبة الناس واضطر من جراء ذلك إلى قتالَ ابن أخيه حتى قتله وتولى الأمر بنفسه.

٩ – إبراهيم الثانى الصغير بن أحمد أبو إبراهيم بن محمد الأول أبو العباسى بن الأغلب بن عقال بن إبراهيم بن الأغلب (٢٦١-٢٨٩هـ/٨٧٤-٩٠٢م)

هو تاسع أمراء البيت الأغلبى وأطولهم حكمًا، وكان رجلا غريب الأطوار رغم أنه كان عند حسن ظن الناس به حسن السيرة طيب السريرة عاقلاً أديبًا عادلاً، وبعده

المؤرخون آخر أمراء بنى الأغلب العظام، وفى زمنه فتح المسلمون التونسيون حصن سرقوسة بصقلية بعد أن أعجزهم كثيرًا وبعد حصار دام تسعة شهور.

وقد مر فى حكمه تغيرات ثلاثة اختلفت فيها شخصيته اختلافًا كبيرًا فى الاتزان والعدل إلى الاضطراب العقلى والنفسى ثم إلى التصوف والإنصراف إلى العبادة والجهاد وانتهت حياته مجاهدًا فى سبيل الله وهو محاصر مدينة (كشنتا) فى شبه جزيرة كلابربا، فى جنوبى إيطاليا وهو فى الطريق إلى نابلى، ثم روما وكان هذا قصده.

كانت السنوات الأولى من حكمه التى تقدر جميعها بثمانية وعشرين عامًا، سنوات رزانة وتعقل وحكم صالح فرضى عنه الناس وأحبوه؛ خاصة أنه قد صرف جهدًا كبيرًا فى المنشآت الدينية، وأهمها المساجد وقصور العباد، وقد عرفنا أن هذه القصور كانت تنشأ للمجاهدين المتطوعين الذين يسمون أيضًا بالمرابطين، وقد بنى الأغالبة الأربطة فانتشرت من الأسكندرية شرقًا إلى ساحل تونس وكان الناس إذا دهمهم الغزاة يلجأون إليها يتعاونون على الدفاع عن أنفسهم، وكان كل رباط أشبه بمدينة صغيرة تحوطه الأسوار العالية التى تقوم بمهمة الدفاع ليقوم فى وسط الرباط المسجد بمنارته العالية. وعلى هذا تسمى الأربطة بالقصور، وقد أكثر إبراهيم الصغير بن أحمد من إنشاء القصور أو الأربطة فى كل مدن الساحل فى أفريقية وصقلية حمايةً للمسلمين وأغدق عليها الأموال وهو الذى أكمل تجديد جامع الزيتونة فى تونس الذى بدأه أبوه أحد أبو إبراهيم الأغلبى وهو من أعظم مساجد الإسلام وبنى مدينة تضم القصور والمرافق وصهاريج المياه.

وقد اكتملت فى عهده سلسلة الأربطة والمحارس على الشواطئ، وكانوا ينشئون فى كل محرس برجا للنار؛ لإرسال الإشارات .. فكان الخبر يصل إلى أقصى البلاد من بجاية غربًا على الساحل الشمالى لجمهورية الجزائر الحالية، حتى طرابلس شرقًا فى أقل من ليلة ؛ أما بالنهار .. فكانت الإشارات ترسل بالدخان، وكانوا يوقدون النواطير أخشابًا رطبة تبعث دخانًا كثيفًا يرى من بعد.

ومن الأحداث الجسام ذات الشأن التى حدثت فى زمن هذا الأمير أن العباسى بن أحمد بن طولون أمير مصر خرج عام ٢٦٧هـ-٨٨٠م من مصر مخالفاً لأبيه قاصداً الاستيلاء على البلاد التونسية فاعترضته قبائل نفوسة قبل أن يبلغ الحدود الطرابلسية، وحالت دون تقدمه، وكان قد ترامى إلى سمع الأمير إبراهيم خبر هذه الجيوش المصرية؛ فأسرع إلى لقاء خصمه ووصل فى الوقت الملائم إلى حيث وصل الجيش المصرى، وهناك .. اقتسم مع حلفائه قبائل نفوسة عتاد المصريين وذخائرهم وعاد إلى القيروان ولم يلق سوءا.

وإن كانت بعض المصادر تذكر أن الحملة كانت تقصد أراضى الدولة الرستمية (ابن الأثير الكامل فى التاريخ جـ٧، ص ٣٢٤)؛ فقد تعرضت الحدود الرستمية الشرقية فى عهد أبى اليقظان للغزو الخارجى من جانب الدولة الطولونية فى مصر؛ حيث قام بهذا الغزو لبلاد المغرب الأدنى العباسى ابن أحمد بن طولون، وكان العباسى قد خرج قاصداً بلاد المغرب لضمها إلى الدولة الطولونية فى مصر مدعياً أنه خرج بهذه الغزوة بناءً على توجيه وتكليف من الخليفة العباسى فى بغداد (الخليفة المعتمد العباسى الذى قلده إمارة أفريقية وأقره والياً عليها دون الأغالبة) «ابن خلدون : العبر، جـ٤، ص ٦٤٥»، وما أن وصل العباسى بن أحمد بن طولون إلى إقليم برقة الذى كان يقع فى ذلك الوقت فى دائرة دولة الأغالبة من قبل الخلافة العباسية حتى بادر بإرسال رسالة إلى إبراهيم أحمد بن محمد الأغلب يأمره فيها بالولاء له فى أفريقية وإعلان الدخول فى طاعته، بل إنه أفاض فى القول بأن رساله يذكره بأنه سائر إليه إلى القيروان بقواته، وفى نفس الوقت الذى أرسل فيه رسالته إلى ابن الأغلب .. فإنه أرسل بدوره رسالة إلى عالم الرستميين فى جبل نفوسة إلياس بن أبى منصور النفوسى يتوعده وينذره ويدعوه إلى الدخول فى طاعته والدعوة له فى تلك الأقاليم قائلاً «أقبل بسمعك وطاعتك وإلا وطئت بلدك بخيلى ورجلى وقطعت رحمك»، ولم يكتف أبو العباسى ابن أحمد بن طولون بذلك .. بل أنه ما أن وصل إلى مدينة ليدة فى فى جمادى

الأول عام ٢٦٨هـ حتى أمر جنده المصرى باستباحة المدينة ونهبها؛ حيث كان قد أخذ أهلها على غرة، وبالقرب من مدينة ليدة انهزمت قوات الأغالبة بقيادة «أحمد بن فرهيب» عاملهم على طرابلس وتبعه العباسى بن أحمد بن طولون حتى مدينة طرابلس فحاصرها حصاراً شديداً، ونصب عليهم المجانيف ودام الحصار ثلاثة وأربعين يوماً، قام فيها جنود العباسى بن أحمد بن طولون بكثير من أعمال العنف ضد رعايا الدولة الرستمية والأغالبة بالقرب من طرابلس فاستغاث أهل طرابلس بأبى المنصور إلياس النفوسى صاحب نفوسة فخرج إلى ابن طولون فى إثنى عشر ألف من القوات، وتمكن من إلحاق الهزيمة به وأخرجه شرقاً إلى برقة بعد أن انسحبت القوات الطولونية على عجل مما جعل أهل طرابلس يقومون بنهب الأموال التى كان قد نهبها الطولونيون من ليدة وبرقة وطرابلس بينما تورع الأباضية النفوسيون كعادتهم من أخذ شىء من هذه الأسلاب، وفقاً لمبادئهم الإسلامية، ويذكر أنه فى عام ٢٧٨هـ – ٨٨١م ثارت بعض القبائل الطرابلسية فأرسل إليها إبراهيم الصغير ولده عبد الله فقمع ثورتها.

وقد قام الأمير إبراهيم ببناء قصر سماه قصر الفتح تيمناً بفتح سرقوسة فى صقلية، ولكن بدا له بعد ذلك أن يترك هذا القصر ويقطن مدينة تونس يرقب حركتها عن كثب فجاءها وبنى فيها آثاراً كثيرة منها قصر القصبة الذى ما زال قائماً إلى اليوم.

وفى أواخر أيامه جهز جيشاً قوياً سار به يريد قتال ابن طولون فى مصر فمنعته قبائل نفوسة الأباضية جنوب طرابلس عن متابعة السير إلى مصر، كما منعت المصريين من قبل من السير إليه لقتاله فى القيروان فقاتلها وانتصر عليها ولكنه انصرف عن قتال ابن طولون وعاد إلى القيروان.

وفى الحقبة الأخيرة من حياته انقلب على عقبيه فأفسد دينه، وفتك، وهتك، وظلم، وثلم، وأرهب، وانتقم، وذلك لأنه أصيب بمرض عصبى اختلت معه أعماله ونظرته إلى الأمور، وقد أصيب ذلك الرجل بمرض منعه من النوم وزادت مخاوفه، فأقبل يقتل الناس لأقل ريبة. وظلت هذه الفترة أكثر من ست سنوات حتى خافه الناس

وقرروا خلعه وبعثوا إلى الخليفة العباسى فى بغداد يشتكون من أعماله ويطلبون عزله، ولكنه تنبه لنفسه شيئًا فشيئا؛ قرب نهاية حكمه، وذلك بعد أن ملته الرعية وضاقت به ذرعًا، وكان الوجهاء والأعيان قد أرسلوا إلى الخليفة العباسى المعتضد يسألونه عزله فعزله مما يدل على قوة نفوذ الخلافة العباسية، وأن نفوذها فعلى وليس اسميًا، وولى مكانه إبنه عبد الله الثانى. وقد نزل الأمير إبراهيم عن أمر الخليفة فاعتزل الإمارة، ولكنه عاد بعد ذلك وتاب واعتزم أن يكفر عن ذنوبه بالجهاد فجهز جيشًا كثيفًا معتزمًا أن يقوم بعمل تاريخى خطير يرفع شأنه وإسمه إلى الأبد أو يدنى أجله؛ إذ أنه أراد أن يستولى على إيطاليا، ومنها يتابع السير حتى يفتح استانبول، فركب البحر، وعبر مضيق ماسينا بين صقلية وإيطاليا، ونزل ميناء «كوتسترة» فقاتله أهلها وأصابه سهم قاتل قضى عليه فعاد المسلمون إلى صقلية به ودفنوه فى بالرم العاصمة، وبنوا على قبره قبة، ويقال أنه قد نقلت بعد ذلك إلى القيروان، وكانت مدة إمارته تزيد عن ثمان وعشرين سنة.

١٠ – عبد الله الثانى أبو العباسى بن إبراهيم الثانى بن أحمد أبو إبراهيم بن محمد الأول أبو العباس بن الأغلب أبو عقال ابن إبراهيم بن الأغلب (٢٨٩–٢٩٠هـ/٩٠٢–٩٠٣م)

كان هذا الأمير هو العاشر فى سلسلة أمراء بنى الأغلب بدءًا من جدهم الأكبر إبراهيم بن الأغلب، وكان هذا الأمير عفيفًا منصفًا أديبًا وقد لبس الصوف تنسكًا وجلس للمظالم، وأوصى العمال أن يترفقوا بالرعية، وفى عهده ظهر أبو عبد الله الشيعى ببلاد كتامة من الزاب الجزائرى، وقتل هذا الأمير عام ٢٩٠هـ، وقد ترك قصور أبيه وسكن دارًا متواضعة وأحسن إلى الرعية، وأوصى ولاته بالإحسان. لكنه جاء متأخرًا لأن العيوب كانت كثيرة والناس ملوا الظلم من جانب الأمراء وتعسفهم، وقامت الدعوة العبيدية الشيعية تغرى الناس وتمنيهم الأمانى، وتيسر من تحتهم أنهار اللبن والعسل بعد أن عم الفساد فى البر والبحر.

وكان لعبد الله الثانى هذا ولد اسمه زيادة الله قام أبوه بسجنه لتهتكه وخلاعته فتآمر هذا الولد مع غلامين من غلمانه لقتل أبيه فقتلاه، ولم يمض على توليه الإمارة غير سنة واحدة. ومن ثم .. قاما من توهما فأخرجا زيادة الله من السجن. فتولى الإمارة باسم زيادة الله الثالث.

١١ – زيادة الله الثالث أبو مضرين بن عبد الله الثانى أبو العباس ابن إبراهيم الثانى الصغير بن أحمد أبو إبراهيم بن محمد الأول أبو العباس بن الأغلب أبو عقال بن إبراهيم بن الأغلب (٢٩٠–٢٩٦هـ/٩٠٣–٩٠٩م)

وهو آخر أمراء بنى الأغلب إذ فى فترة حكمه قضى الشيعة على حكم بنى الأغلب وهو الأمير الحادى عشر فى سلسلة أمراء بنى الأغلب وفى عهده ثارت الفتن وخاض جيشه حروبًا كثيرة مع أبى عبد الله الشيعى، وفى موقعة « الأربس » فرت الكاف كانت هزيمته الساحقة عام ٢٩٦ هـ. واضطر زيادة الله أثر ذلك أن يفر إلى تونس بجميع أثقاله وخرج من رقاده ليلة الإثنين ٢٦ من جمادى الثانية وقصد إلى المشرق مستنجدًا ولم يصادف عونًا من الخليفة العباسى ومات بمدينة الرملة فى بلاد فلسطين وبموته انقرضت الإمارة الأغلبية التى دامت إثنى عشر عامًا بعد المائة.

وكان زيادة الله الثالث أبو مضر قد سار فى الناس سيرة تعسف وظلم فقتل أعمامه وأخاه وعددًا كبيرًا من الفقهاء كما كان من قبل السبب فى قتل والده، وأراد أن يبنى دعائم إمارته على القوة فجهز جيشًا كثيفًا أنفق عليه ما قدر من أموال ولكن ذلك لم ينفعه لأن الناس كانوا قد سئموا هذه الأسرة وغلبت عليهم دعوة العبيدين فعلقوا عليهم الآمال، غير أن زيادة لم ييأس ولا فشل عند الصدمة الأولى .. بل حاول أن يستنجد بالخليفة العباسى فأرسل إليه هدايا ثمينة ولكن الخليفة العباسى ذاته كان أضعف من أن ينجد نفسه إذ لم يكن قد بقى له من الخلافة إلا الإسم وكانت

الجحافل العبيدية قد أخذت تسير من المغرب نحو البلاد التونسية؛ فلم ير زيادة الله مناصاً من قتالها فأرسل للقائها جيشاً يضم أربعين ألف مقاتل فالتقى الفريقان بالقرب من قرية الأريس من أعمال مدينة الكاف على الحدود الجزائرية فدارت الدائرة على الأغالبة وأعمل العبيديون فيهم السيوف فقتلوا منهم آلافاً، وكان كما سبق القول أن زيادة الله لما أدرك الفشل فى إحراز نصر على العبيدين وأن كل محاولة كان مصيرها الفشل وأيقن بانقضاء أجل إمارته فجمع ماله وعياله وفر ينوى الإلتجاء إلى بغداد ولكن والى مصر منعه من متابعة السفر وكاتب الخليفة فأمره بإنزاله الرملة من بلاد فلسطين، ثم بدا للخليفة بعد حين وقد رأى استفحال أمر العبيديين، بأن يمد زيادة الله بالمال والرجال ليقاتل العبيدين وأمر واليه على مصر بتجهيز زيادة الله، ولكن والى مصر ماطله ولم ينفذ أمر الخليفة واعترت زيادة الله أمراض أودت بحياته وبفرار زيادة الله من تونس عام ٢٩٦هـ/٩٠٩م كانت خاتمة الإمارة الأغلبية التى رفعت شأن هذه البلاد وأعلت قدرها على ما تخللها من فتن واضطرابات.

وهكذا .. نرى أنه قد حكم إفريقية من بنى الأغلب أحد عشر أميراً حكم معظمهم مدداً قصيرة وصلت فى بعض الأحيان إلى عام أو يزيد قليلا فلم تسنح الفرصة أمام معظمهم للقيام بأعمال تذكر، ثم أن الذين أثروا فى تاريخ تلك الأسرة هم إبراهيم بن الأغلب مؤسس هذه الأسرة ثم إبنه زيادة الله بن إبراهيم ثالث أمراء هذا البيت وقد حكم اثنتين وعشرين سنة هجرية ثم أحمد أبو إبراهيم بن محمد الأول أبو العباسى بن الأغلب أبو عقال تاسع أمراء البيت الأغلبى (إبراهيم الصغير) وهو أطول أمراء هذا البيت حكماً إذ أنه حكم تسعاً وعشرين سنة هجرية ولكن عصره كان مضطرباً اختلت الأحوال أثناءه اختلالاً شديداً نظراً لاضطراب شخصيته.

ونستطيع القول أن الأسرة الأغلبية قد مرت بعدة فترات فى جملتها ثلاث، هى فترة التأمين من عام ١٨٤-٢٢٣هـ/٨٠٠-٨٣٨م، وتشمل إمارة إبراهيم الأغلب نفسه وإبنه أبو العباس عبد الله وزيادة الله الأول ثم عصر الاستقرار والازدهار وهى من

٢٢٦-٢٨٩هـ/٨٤٠-٩٠٢م، وتمتد من نهاية حكم زيادة الله إبراهيم بن الأغلب المعروف بالأول من عام ٢٠١هـ/٨١٦م إلى نهاية حكم أبى عبد الله محمد الثانى ثامن أمراء البيت الأغلبى الملقب بأبى الغرانيق وذلك فى عام ٢٦١هـ/٨٧٥م، وقد تضمنت تلك الفترة حكم عدد من أواسط أمراء البيت الأغلبى من حيث القدرات ولكن الأمور كانت قد استقرت وهدأت أحوال أفريقية بصورة عامة ويرجع معظم السبب فى ذلك إلى فتح صقلية الذى فتح مجالاً واسعاً أمام الجند وزعمائهم للغزو تاركين أمراء بنى الأغلب يعيشون فى سلام.

ثم جاء حكم إبراهيم بن أحمد معلناً بداية التدهور، ثم تلى ذلك فترة من التدهور وتستمر من ٢٨٩-٢٩٦هـ/٩٠٢-٩٠٩م.

ولكن فترة الاستقرار الحقيقة التى يمكن أن تسمى فترة ازدهار للأسرة لم تزد عن ثلاثين سنة على الأكثر من إثنى عشر عاماً بعد المائة، ولكن هذه الأسرة على الرغم من قصر مدة الاستقرار فى أيامها فإنها تعتبر صاحبة الفضل فى إرساء أسس أفريقية الإسلامية، وكذلك صاحبة الفضل فى سبيل الحفاظ على مذهب السنة والجماعة والبقاء فى نطاق الأمة الإسلامية. وهكذا .. أتاح بنو الأغلب فرصة هذا الاستقرار وأقاموا فى بلادهم حكومة عليا ذات طابع أفريقى ثم أن بنى الأغلب كانت فيهم عروبة صادقة وروح إسلامية أصلية واهتمام بشئون العلم والحضارة والمنشآت فكان العصر فى جملته رغم كثرة حروبه واضطراباته خيراً على أفريقية وخطوة واسعة إلى الأمام فى بقاء المغرب العربى الإسلامى وحفظه ذخراً للأمة العربية الإسلامية على الدوام.

وهكذا .. نرى بانتهاء أسرة الأغالبة فى حكم أفريقية كيف أدى هؤلاء القوم واجبهم نحو العالم الإسلامى وكيف قاموا بنصيبهم فى الدفاع عنه على خير ما يكون الدفاع، فقد دافعوا عن الثغر الإسلامى دفاعاً ناجحاً، بل مدوا نفوذ العالم الإسلامى عبر البحر المتوسط واستقروا استقراراً كاملاً وضموا إلى حوزته جزيرة صقلية وجزيرة

مالطة وجنوب إيطاليا وبعض الجزر الأخرى الصغيرة التى ظل يحكمها المسلمون أكثر من قرنين من الزمان كانت فيه جزيرة صقلة مصدراً من مصادر الإشعاع الفكرى والثقافى والحضارى والإنسانى الإسلامى.

وهكذا .. ظلت الدولة الأغلبية تؤدى دورها الذى اضطلعت به فى هذا الطرف العربى حتى نجحت الدولة الفاطمية فى المغرب وامتدت إلى تونس فأسقطت هذه الدولة عام ٢٥٦هـ، وهكذا خلف الفاطميون الأدارسة والأغالبة وبنى رستم فى المغرب العربى الإسلامى الأفريقى ثم امتدوا شرقاً ليبسطوا لولاء حكمهم على مصر.

ماذا تم فى عصر الأغالبة

لقد ضعف الأغالبة طوال فترة حكمهم التى وصلت إلى إثنى عشر عاماً بعد المائة العديد من الإنجازات العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية مما جعلهم ينالون إعجاب العالم الإسلامى بما حققوه فى كل هذه المجالات المتعددة التى منها الجانب الثقافى والفكرى والدينى والمعمارى وغيره من فنون المعرفة والثقافة والحضارة.

الإنجازات العسكرية (فتح صقلية)

ما أن استقام الأمر لبنى الأغلب فى تونس وتوطد لهم الملك والسلطان حتى عقد ثالث أمرائهم زيادة الله العزم على الجهاد فى سبيل الله ونشر راية الإسلام خفاقة عالية ورفع ألوية الإسلام والعروبة عالية خفاقة على «أديم صقلية»، ذلك لأن بنى الأغلب منذ بداية عهد إبراهيم بن الأغلب قد أولوا اهتماماً كبيراً لبناء أسطول بحرى وقد قدر لهذا الأسطول أن ينمو وتزداد قوته فى زمن زيادة الله وأصبح من الضرورى أن يقوم هذا الأسطول بتحقيق آمال المسلمين القديمة فيساهم فى عهود من أعقب زيادة الله من أمراء بنى الأغلب فى افتتاح جزيرة صقلية كلها وجزيرة مالطة وسواحل إيطاليا الجنوبية القريبة وجزيرة سردانية وجاء فتح صقلية متمماً لسيادة العرب فى النصف

الغربى من البحر المتوسط.

وكذلك فقد نمت البحرية الإسلامية فى عهد الأغالبة نمواً كبيراً واستطاعت أن تحقق الغرض الذى كان يرمى إليه ابن الأغلب، ذلك لأن الساحل الأفريقى كان مفتوحاً أمام الأساطيل الرومية التى كانت دائماً تدخل فى معارك متصلة بين البحرية الإسلامية والبحرية البيزنطية منذ فتح العرب بلاد المغرب الإسلامى وقد وجه العرب والمسلمون حملاتهم البحرية إلى صقلية منذ ولاية معاوية بن خديج وفى عام ٨٦هـ أرسل موسى بن نصير حملة بحرية لغزو صقلية فهاجمت مدينة «سرقوسة» وغنمت منها غنائم هائلة وفى عام ١٠٥هـ غزا بشر بن صفوان صقلية وأصاب منها سبياً كثيرة.

ويعتبر فتح الأغالبة لصقلية عام ٢١٢هـ من الأحداث البارزة فى تاريخ البحرية الإسلامية إذ ترتب على فتحها على أيدى المسلمين انتقال السيادة فى البحر المتوسط إلى المغرب العربى، إذ أن صقلية تعد أكبر جزر البحر المتوسط مساحة وأغناها من حيث الموارد الاقتصادية وأقفلها موقعاً بحكم أن موقعها فى البحر بين ساحل إيطاليا الجنوبية وساحل أفريقية وتقسم البحر المتوسط إلى قسمين شرقى وغربى، ثم بحكم قربها الشديد لأقليم ريووقلورية بجنوبى إيطاليا من الجهة الشمالية الشرقية بحيث لايفصلها عنه من هذه الجهة سوى مضيق مسينى (مسينا) وقربها أيضاً من السواحل الأفريقية وجزيرة قوصرة من الجهة الجنوبية الغربية وهو موقع يفسر لنا كثيراً من الأحداث التاريخية التى مرت بها البلاد التونسية.

وقد تنبه العرب منذ حملة عبد الله بن سعد إلى الأهمية الاستراتيجية لصقلية وأدركوا ضرورة فتحها لتأمين فتوحهم فى أفريقية، بل أنه من المواقف التاريخية التى فى حاجة إلى تساؤل كيف تظل جزيرة صقلية وهى قريبة من سواحل بلاد الإسلام دون فتح وأن يفتح المسلمون الأندلس قبل أن يفتحوا صقلية بقرن وربع من الزمان ويرجع ذلك إلى أن الفتوح الإسلامية لم تكن قد بدأت تولى وجهة نظرها للجزر

الصغيرة وربما لأن البحرية الإسلامية لم تكن من الند والقوة للبحرية البيزنطية، لكن هناك بعض المؤرخين يقولون أنه كان يبغى أن يتم فتح صقلية بعد إتمام فتح أفريقية ذلك لأن بينها وبين شواطئ أفريقية جزر تعتبر معابر ومراحل إلى سواحلها مثل جزر قوصرة، وكذلك جزر مالطة ولكنها دخلت الإسلام مع فتح صقلة ومن هنا كان تفكير زيادة الله فى فتح صقلية منذ بداية ولايته لاسيما بعد أن تكاثر جنده حتى أنه إذا كان عام ٢١٢ هـ/٨٢٧م رأى زيادة الله البدء فى غزو جزيرة صقلية، وكانت صقلية فى ذلك الحين من الناحية الرسمية من أملاك الدولة البيزنطية يحكمها بطريق أى قائد عسكرى يسمى «بيلانوس» ويطلق عليه المسلمون إسم «بلاطة»، وكان قد أخذ يحصن بلاد الجزيرة وسواحلها ويعمرها بالمعاقل والحصون وكذلك فعل الحكام البيزنطيون فلم يتركوا جبلاً إلا أقاموا عليه حصناً وكانت وحداتهم البحرية تطوف سواحل الجزيرة للذود عنها وكثيراً ما طاردوا تجاراً من المسلمين فأسروهم وتجرأت سفنهم على مهاجمة السواحل الأفريقية.

ولعل ذلك من الأسباب القوية التى دفعت «هرثمة بن أعين» لبناء القصر الكبير عام ١٨٠ هـ، وبناء سور مدينة طرابلس وظل الروم يواصلون توجيه غاراتهم البحرية على الساحل الأفريقى حتى قامت أسرة الأغالبة واضطر الأمير إبراهيم بن الأغلب إلى أن يعقد مع البطريق قسطنطين صاحب صقلية هدنة لعشر سنوات إلا أن هذه المعاهدة لم تصبح سارية المفعول إلا فترة قصيرة من الوقت بسبب الغزوات المتبادلة بين المسلمين والبيزنطيين فقد أغار المسلمون على بعض مدن صقلية.

وقد أدت الاعتداءات المتبادلة إلى معاودة النظر فى تجديد الهدنة عشر سنوات تبدأ من عام ٢٩٨هـ/٨١٣م فى إمارة عبد الله أبى العباسى بن إبراهيم الأغلبى وقد اتفق الطرفان على ضمان الأمن للتجار المسلمين فى صقلية وللروم فى أفريقية.

ولاشك أن الغارات المتواصلة التى تعرضت لها صقلية من عام ٤٦هـ حتى عام ١٣٥هـ كانت تجارب مفيدة للمسلمين إذ بفضلها تمكنوا من دراسة هذه الجزيرة

ومعرفتها معرفة تامة ثم كان لاستيلاء المسلمين على قوصرة الواقعة فى منتصف المسافة بين صقلية وساحل أفريقية أعظم الأثر فى اتخاذها قاعدة أمامية للدفاع عن ساحل تونس وتوجيه الغارات على صقلية وسردانية وغيرهما.

ولقد كان لإدراك الأغالبة لأهمية صقلية وموقعها الجغرافى ومحاولة فرض سلطانهم على السواحل المجاورة لها والجزر القريبة منها من الأسباب القوية للقيام بالفتح والغزو إضافة إلى إيمانهم بضرورة الجهاد فى سبيل الله وفتح هذه الجزيرة وغيرها من الجزر الأخرى فى حوض البحر المتوسط الغربى.

ولقد كان من أثر الفتن العنيفة التى اتخذت من أرض أفريقية وطرابلس مسرحاً دامياً لها فيما يقرب من منتصف القرن الثانى الهجرى، أن ساد البلاد نزعة شديدة إلى التفقه فى الدين ولم تلبث أفريقية أن تحولت إلى بلد إسلامى عميق الجذور تغلب على أهله الروح الدينية ويسود فيه المذهب المالكى الذى يتلائم مع الروح السائدة عند سكان هذا الإقليم من حيث التمسك بالكتاب والسنة وظهر فى البلاد التونسية طبقة من العلماء المالكية المتفقهين المتقدمين الزاهدين، ولقد كان لهؤلاء العلماء المالكية أعظم الأثر فى غلبة الروح الدينية والاتجاه إلى الزهد والرغبة فى المرابطة بالثغور بقصد الجهاد فى سبيل الله سبب تعرض السواحل الأفريقية لغارات الروم البحرية واعتبر الرباط فى هذه الثغور جهاداً فى سبيل الله وتقرباً إليه.

وكان الخروج لغزو الروم فى صقلية غاية ما يتمناه هؤلاء الصالحون، ولا شك أن الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب قد نجح فى انتشار هذا الشعور الدينى السائد باختيار أسد بن الفرات القاضى قائداً للحملة إلى صقلية ذلك لأن الشعور الدينى طاقة كبيرة لها وزنها وأهميتها فى الفتوحات الإسلامية وهو فى نفس الوقت يخفى الأغراض الحقيقية لزيادة الله من وراء هذه الحملة، ذلك لأن الروم كانوا قد استولوا على بعض سفن المسلمين فى البحر المتوسط وأخذوا من بها أسرى إلى صقلية وبذلك تكاثر عدد المسلمين الأسرى لدى الروم بالإضافة إلى أن الحاكم الرومى للجزيرة لم

يوف بوعده الذى تعهد فيه بإرجاع الأسرى المسلمين إلى أفريقية

وعلى هذا فقد بدأ الغزو الحقيقى لصقلية فى عهد الأمير زيادة الله بن إبراهيم (٢٠١-٢٢٣هـ) وقد اختير لقيادة الحملة القاضى أسد بن الفرات فقيه القيروان، وتذكر المصادر أن قائد الأسطول البيزنطى فى صقلية «فيمى» فى الحقيقة أنه ثار مغتنماً فرصة قيام توماس بالثورة على الإمبراطور وانتصار المسلمين فى أقريطش (كريت) فما علم «فيمى» بذلك وأدرك مدى ما تهدده من أخطار جمع أنصاره وأخذ أسطوله وشق عصا الطاعة على الإمبراطور وزحف إلى مدينة سرقوسة وأعلن نفسه إمبراطوراً وخوطب فيمى Evohemievs بالملك وعين رجاله على كل مدن وقرى الجزيرة ومنهم رجل يقال له بلاطة. ولكن بلاطة لم يلبث أن انقلب على فيمى وانضم إلى الفريق الإمبراطورى وتطلق المصادر على فيمى إسم «يوفيميوس» وهزم بلاطة فيمى فلم يجد فيمى أمامه إلا أن يستنجد بزيادة الله الأغلب لفتح صقلية بجنده الكثيرين الذين توافدوا عليه جماعات، وكان الوعد الذى قطعه فيمى أن يساعد القوات العربية الإسلامية بجيشه فى التغلب على بلاطه ووعده فى مقابل ذلك أن يملك جزيرة صقلية وقبل قيام زيادة الله بغزو صقلية فإنه عقد مجلساً من الفقهاء لاستفتائهم فى أمر غزو الجزيرة ودراسة ما عرضه عليه فيمى بشأن صقلية.

وكان من كبار الفقهاء القاضيان «أبو محرز وأسد بن الفرات» فسألهما عن رأيهما فقال «أبو محرز» «تتأنى فى هذا الأمر حتى تتبين»، أما أسد بن الفرات فقال «نسأل رسلهم عن ذلك» فقال أبو محرز كيف نقبل قول الرسل عليهم أو دفعهم عنهم، فقال أسد بالرسل «هادناهم وبالرسل نجعلهم ناقضين» قال الله تعالى ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ﴾.

ولقد كان قيام الثورة فى جزيرة صقلية والانقسام الذى حدث فى الجزيرة بين الأمراء ولجوء أحد الثائرين وهو فيمى إلى زيادة الله ومنه عرف الأمير الأغلبى بوجود أعداد كبيرة من الأسرى المسلمين بالجزيرة وسأل زيادة الله عن ذلك الرسل، فقالوا نعم

حسبوهم لأنهم فى دينهم لايحل لهم ردهم قال وكان فى الرسل مسلم وقال بعض الفقهاء نغزوها ولانسكنها ولا تتخذها وطناً، وكره بعض علماء أفريقية غزوها متمسكين بالعهد الذى كان قائماً بين المسلمين والروم مادام لم يثبت بعد أن الروم نكثوا هذا العهد على أن النويرى يؤكد أن معظم الفقهاء أفتوا بغزوها ورغبوا فى ذلك وسارعوا إليه وعن ذلك استقر عزم زيادة الله على الغزو بعد أن هون عليه فيمى أمر غزوها وأغراه بها.

بداية الفتح لصقلية

يشبه فتح المسلمين لصقلية فتحهم للأندلس فكما أن استغاثة فيمى بالأمير زيادة الله كانت سبباً مباشراً فى إغراء زيادة الله على فتح صقلية كانت استغاثة ليليان بموسى بن نصير سبباً مباشراً فى غزو طارق بن زياد للأندلس، ويبدو أن زيادة الله كان يسعى إلى ترغيب الناس فى غزو صقلية وإكساب الحملة طابعاً من الجهاد فى سبيل الله فعندما بلغه أن أسد بن الفرات أبدى رغبته فى الخروج فى هذه الغزوة كواحد من المسلمين ولاه أمرة الجيش مع الاحتفاظ بالقضاء فأصبح أسد بن الفرات قاضياً أميرا، وهذا أمر مستغرب، ذلك لأن العادة جرت بأن تكون قيادة الفتوح لأهل الحرب ولكن كما قيل فإن زيادة الله كان يريد أن يطبع فتح صقلية بطابع الجهاد الإسلامى وليس كما ذكر البعض لعدم الثقة فى قواده.

وكان أسد بن الفرات فقيهاً جليلاً ولد عام ١٤٥هـ/٧٥٩م فى العراق ثم قدم به أبوه وكان من رجال الحرب مع القائد محمد بن الأشعث والى مصر إلى القيروان حيث استقر بها وهناك نشأ وشب أسد واتخذ طريق العلم فدرس على يد شيوخ بلده ثم رحل إلى المشرق فى طلب العلم عام ١٧٢هـ/٧٨٨م فدرس فى العراق على أصحاب أبى حنيفة النعمان ثم عرج إلى المدينة المنورة للدرس على أصحاب مالك بن أنس

ودرس الموطأ لمالك، ثم درس على محمد بن القاسم فى مصر وعاد إلى القيروان فقيهاً حسن التكوين فدون ما سمعه فى الموطأ فى كتاب سماه «الأسدية» انتشر بين الناس وعلا مكان أسد حتى أصبح كبير علماء عصره فى أفريقية وتولى قضاء القيروان، والأسدية على مذهب الإمام مالك.

ومن هنا .. فإن زيادة الله أراد أن يصبغ الحملة بصبغة الجهاد الدينى فى سبيل نشر الإسلام وقد كان أهل أفريقية فى ذلك الوقت قد تفقهوا فى الدين الإسلامى وأصبح منهم العلماء والفقهاء وانتشر بينهم مذهب مالك الذى أصبح لديهم ليس مجرد مذهب دينى فحسب وإنما أصبح لهم وطنية وعقيدة ولذا فقد صحب معه أسد بن الفرات الصالحين والمجاهدين الذين يرغبون فى القتال فى سبيل الله وكان أسد بن الفرات قد جاوز السبعين من عمره عندما عهد إليه بقيادة الغزوة الميمونة ولكن إيمانه القوى جعله يبدو فى سن الشباب والرجولة.

وكان القاضى أسد بن الفرات قد طلب من زيادة الله الإذن له بالخروج صحبة الجند الإسلامى حتى ينال شرف الجهاد أو شرف الاستشهاد فى سبيل الله فلبى زيادة الله طلب القاضى وأولاه إمارة الجيش الفاتح وأصدر زيادة الله أمره إلى فيمى وكان قد قصده بالقيروان بالتوجه إلى مرسى سوسة والإقامة هناك فى انتظار تجمع قطع الأسطول الإسلامى.

وخرج أسد بن الفرات من القيروان فى حشود قوامها عشرة آلاف من الرجال وسبعمائة من الفرسان بخيولهم وعلى كل حال خرج أسد بن الفرات بالقوة الكبيرة الإسلامية من تونس وتوجه إلى سوسة ليركب منها إلى صقلية وخرج معه وجوه أهل العلم وعدد كبير من الأهالى لتوديعه واحتفل زيادة الله بذلك اليوم فأمر ألا يبقى أحد من رجاله إلا وشيعة فركب أسد فى جمع عظيم من صهيل الخيول وقرع الطبول ورفرفت الأعلام ولذلك خرج مع حملة أسد بن الفرات أشراف أفريقية من العرب

والجند والبربر والأندلسيين وأهل العلم والبصائر وأقلع الأسطول الإسلامى من مدينة سوسة يوم الخميس ١٥ من شهر ربيع الأول عام ٢١٢هـ ١٤ يونيو ٨٢٧م، وكان يتكون من سبعين مركباً وقيل مائة مركب بالإضافة إلى مراكب «فيمى»، فوصلت الأساطيل إلى بلدة مازر Mazara فى يوم الثلاثاء أى بعد ثلاثة أيام من الإبحار من سوسة وكان لفيمى أنصار عديدون ونزلت القوات الإسلامية مدينة (ميناء) مازر على الساحل الجنوبى لصقلية وفى نفس الوقت خرجت قوة أخرى من ميناء سوسة ونزلت فى ميناء فى أقصى الساحل الجنوبى إلى الشرق يسمى «رجوسة» وذلك لنجدة القائد البيزنطى الذى خرج على سلطة البيزنطيين واستنجد بالمسلمين وهنا نرى كيف أن المسلمين نزلوا فى موضعين فى جنوب شبه الجزيرة هما مازر ورجوسة وكانت مازر هى أقرب مدن صقلية إلى سوسة فأمر أسد بالخيل والجند بالخروج من المراكب وأقام بمازر ثلاثة أيام وذكر المالكى أنه حدث اختلاف بين أسد بن الفرات وبين أحد قواده وهو «ابن قادم» سببه أنه لما نزل المسلمون بصقلية أضربهم الجوع حتى أكلوا لحوم الخيل ففوض الجند «ابن قادم» أن يتحدث عنهم فى إعادتهم إلى أفريقية فرفض أسد وأراد حرق المراكب ثم عاقب ابن قادم فضربه بالسوط.

لم يشتبك جيش أسد أثناء إقامته فى مازر مع الروم فلم تخرج للقائه إلا سرية واحدة تمكن من أسرها فإذا هى من أنصار «فيمى» وكان ينبغى على أسد بن الفرات بعد أن تمكن من موقع مازر فى أن يسير متوجهاً رأساً إلى العاصمة بالرمو Palermo ويستولى عليها وبذلك يقضى على رأس المقاومة للفتح الإسلامى للبلاد، لكن استمرت الحملة الأغلبية على صقلية منذ ذلك التاريخ تقوم بفتح الجزيرة وافتتاح مدنها الواحدة بعد الأخرى، بعد أن أمر أسد بن الفرات بفصل جيش فيمى عن المسلمين وقرر الاستقلال بعملياته إذ لم يكن يثق بصدق معونته، ثم سار جيش المسلمين نحو سهل بلاطة مارا بقلعة بلوط ثم قرى «الرفش»، وقلعة الدب، وقلعة «الطواويس» ثم إلى أرض المعركة التى سميت باسم بلاطة نسبة إلى صاحب صقلية.

وأقبل بلاطة فى جيش عدته مائة وخمسين ألف مقاتل (١٥٠ ألف) فخطب أسد فى الناس وحمل اللواء ثم كبر المسلمون وحملوا مع قائدهم وتمادت عزائم المسلمين حتى هزموا بلاط وأصحابه وقتلوا منهم خلقاً كثيرا وغنموا ما معهم وانسحب بلاطة إلى قصر يانة ثم غلبه الخوف من لقاء المسلمين ففر من صقلية إلى قلورية بجنوب إيطاليا فقتل بها.

ثم بعد ذلك اتجه إلى اجرجنت Agregenta، واستولى عليها ومن هناك قصد إلى وسط شبه الجزيرة واستولى عليها (قصر يانة) ثم اتجه شرقاً قاصداً سرقوسة ليعين حليفه وحليف المسلمين (فيمى) وحاصر سرقوسة.

وبعد هذا الانتصار الحاسم استعمل أسد بن الفرات « أبا زاكى الكنانى» على مازر ثم زحف إلى موقع على البحر يقال له كنيسة «ايفيمية»، ويذكر إمارى أنها فيستياس القديمة، ثم سار إلى كنيسة المسلقين، وهناك خدعه أهل الجزيرة بعد أن انقلب عليه «فيمى»، وانضم إلى بنى جلدته وبعث إلى أهل سرقوسة يحثهم على الثبات والاستبسال وما أن استكمل أسد تنظيم صفوفه وجاءه الأسطول من مازر حتى واصل زحفه نحو سرقوسة وناصب أهلها القتال فتحصنوا داخل أسوار مدينتهم فبعث السرايا فى كل ناحية وغنم غنائم هائلة وافتتح حصوناً كثيرة حول سرقوسة، ثم حاصر سرقوسة نفسها من البر والبحر وجاءته الأساطيل من أفريقية تحمل إليه الإمدادات، لكن عند ذلك زحف والى «بلرمو» فى جيش كثيف نحو المسلمين فخندق المسلمون حول أنفسهم وحفروا خارج الخندق حفراً كثيرة فلما حمل الروم على المسلمين كبت الخيول وسقط كثيراً منها فى الحفر وقتل المسلمون أعداد كبيرة من الروم وضيق القاضى أسد الحصار على سرقوسة وأحرق أسطول البيزنطيين فسألوه الأمان ولكن المسلمين رفضوا ذلك، وفى تلك الأثناء حل بالمسلمين وباء شديد هلك بسببه عدد كبير منهم من جملتهم القاضى أسد بن الفرات الذى توفى فى شعبان عام ٢١٣م، وقيل فى رجب، وقيل فى ربيع الآخر فدفنه المسلمون فى الموقع الذى كان يحاصر منه

سرقوسة، وقيل بين قطامية وقصر يانة.

وهكذا .. توفى القاضى أسد بن الفرات فى الوقت الذى رجحت فيه كفة البيزنطيين فقد كان المسلمون يعانون من وقوع الموت وكثرته فى معسكرهم وسفن القسطنطينية والبندقية تتعاون بينها للقضاء على المسلمين والمؤن والأقوات تكاد تكون معدومة فى المعسكر الإسلامى، وهكذا .. كان وباء الطاعون الذى أصاب الجيش الإسلامى وقضى على ألوف المسلمين من بينهم أسد بن الفرات قائد الحملة الذى هلك فى هذا الوباء، وكانت قد أصابته فى القتال جراحات كثيرة والنتيجة أن وحدة الجيش تفككت نظراً لوفاة القائد واضطراب أمر القوات الفاتحة، وخرج الحاكم البيزنطى «بيلانوس»، وهاجم «قصر يانة» فقطع بذلك مواصلات المسلمين واضطرهم إلى الارتداد مسرعين عن سرقوسة وتحصنوا فى حصن قريب منها يسمى مناو وأصبح مركزهم حرجاً، وبذلك فقد المسلمون قوة الدفع الأولى وتعثر الفتح بسبب قلة الخبرة العسكرية عند أسد بن الفرات الذى لم يتبع الخطة المثلى التى جرى عليها المسلمون حتى ذلك الحين فى فتوحهم وهو الاتجاه رأساً إلى قلب مقاومة العدو واحتلال العاصمة، وبذلك تنتهى المقاومة ويتم الفتح، ومن القواعد المعروفة فى العسكرية أن كل حملة لا تصل فى الدفعة الأولى إلى غايتها تتحول إلى حرب دفاع أو حرب خنادق ويطول أمدها وتفقد قوتها تبعاً لذلك.

لكنه رغم كل هذا فقد عزم المسلمون على مواجهة هذه الأخطار والتغلب عليها فبدأوا باختيار واحد منهم فأتوا عليهم فولوا على أنفسهم «محمد بن أبى الجوارى» الذى وضعوا فيه كل أملهم لتخليصهم ومعالجة الموقف المتحرج الذى وصلوا إليه وذلك أملاً فى العودة إلى بلادهم وكانت أنباء دخول الأسطول البيزنطى والحشود الرومية قد وصلت إلى مسامع المسلمين فعزموا على ركوب مراكبهم والعودة إلى أفريقية فرفعوا الحصار عن سرقوسة وأصلحوا سفنهم وركبوا وشرعوا فى الإقلاع، ولكن مراكب البيزنطيين والبنادقة تصدت لهم على باب المرسى الكبير ومنعتهم من الخروج

ورأى المسلمون أن اقتحامهم لهذا الحصار البحرى يعتبر ضرباً من التهور الذى يصل إلى حد التهلكة فتراجعوا بسفنهم إلى المرسى وأحرقوا هذه السفن حتى لايظفر بها البيزنطيون واستقر عزمهم على القتال وإحراق السفن فى هذه الحالة له مدلول هام إذ يعنى أنهم قد وطنوا أنفسهم على القتال حتى الموت معتمدين فى ذلك على سيوفهم فحسب ثم رحل المسلمون إلى حصن «ميناو» بعد ثلاثة أيام من بدأ محاصرتهم لها وتوجه فريق من المسلمين إلى حصن جرجنت Girgenti الواقع على ساحل البحر جنوب غربى صقلية ونجحوا فى الاستيلاء عليه ورفع هذا الفتح من روح المسلمين المعنوية وبدأوا ينطلقون إلى المزيد من الانتصارات.

وأرسلت الحكومة البيزنطية فى تلك الآونة مدداً جديدة إلى الجزيرة بقيادة البطريق «نودط» الذى زحف فى جموع كثيفة من الأرمن وغيرهم نحو قصر يانة واصطدم مع المسلمين تحت أسوار قصر يانة فى قتال عنيف انتهى بانهزامه على أيدى المسلمين وقتل من عسكره أعداد كبيرة وأسر مع قواده سبعون بطريقاً وفر «تودط» إلى داخل المدينة واستمر حصار المسلمين لها وقد شد النصر من عزيمتهم إلى أن توفى قائدهم «محمد بن أبى الجوارى» فى أواخر عام ٢١٣هـ، فولوا على أنفسهم قائداً من قوادهم هو «زهير بن غوث»، وقيل «زهير بن برغوث»، ونشبت بين هذا الوالى الجديد وبين «تودط» معارك عنيفة انهزم فيها المسلمون وقتل منهم نحو ألف شخص فعاد المسلمون إلى معسكرهم وخندقوا على أنفسهم فحاصرهم البيزنطيون من داخل المدينة ومن خارجها.

واشتد القتال بين الطرفين وأدرك المسلمون بحرج موقفهم فعزموا على التسلل من معسكرهم وكان البيزنطيون يتوقعون منهم ذلك فأخلوا خيامهم وترصدوا للمسلمين بالقرب منها فلما خرج المسلمون أقبل عليهم البيزنطيون من كل ناحية وقتلوا منهم وفر الناجون إلى ميناو فدخلوها ولكن البيزنطيين حاصروهم هناك وقلت قوات المسلمين وانقطعت عنهم المؤن حتى اضطروا إلى أكل الدواب والكلاب، وحاول

مسلموا «جرجنت» أن يساعدوا اخوانهم فى ميناو فخربوا جرجنت قبل أن يتخلوا عنها وساروا إلى مازر وحاولوا من هناك نصرة إخوانهم المحصورين فتعذر عليهم الأمر وأشرف المسلمون على الهلاك.

وبذلك فقد تحرج مركز المسلمين خاصة وأن خبرة رجالهم وهم المتطوعون والمجاهدون من العباد والزهاد الذين ساروا مع الحملة، هلك معظمهم من وباء سرقوسة، ولم يبقى فى الجيش إلا الجند الخراسانى ومتطوعة البربر، ولم يجد المسلمون فى تلك الظروف الحرجة قائداً يستطيع إعادة الوحدة إلى القوة الإسلامية وقيادتها فظلوا متحصنين فى بلدة مناو فى انتظار المدد الذى طلبوه من زيادة الله بن الأغلب وقد تأخر وصول هذا المدد وزادت أحوال المسلمين فى صقلية حرجاً.

وعلى ذلك .. فإنه فى تلك اللحظات الحرجة التى يتوقف عليها مصير هؤلاء المسلمين حدث أمراً لم يكن فى الحسبان إذ وصل إلى مياه صقلية فى عام ٢١٤هـ أسطول أندلسى.

مدد أهل الأندلس لنصرة إخوانهم فى الجزيرة :

فى تلك الظروف الصعبة وفد مدد من أهل الأندلس إلى جزيرة صقلية على أسطول بحرى يتألف من قطع كثيرة العدد تحمل أعداد كبيرة من غزاة البحر الأندلسيين قدموا بقصد الغزو البحرى والجهاد وفى نفس الوقت أقبلت مراكب عديدة من أفريقية لإمداد المسلمين فبلغ عدد السفن الأندلسية والأفريقية ثلاثمائة سفينة. ولا ندرى إن كان نزول هؤلاء الأندلسيين وقع مصادفة أو أنهم سمعوا بالمعركة الدائرة على أرض الجزيرة فأسرعوا إلى نجدة إخوانهم.

ويذكر ابن عذارى المراكشى أن السفن التى قدمت إلى صقلية كانت أندلسية فيقول فى عام ٢١٤هـ وصل من الأندلس إلى صقلية نحو ثلاثمائة مركب فيها «أصبغ بن وكيل الهوارى» المعروف «بفرغلوش» أما النويرى فيشير إلى أن السفن

القادمة كان يصدرها الأندلس، وأن قسماً من هذه السفن الأندلسية كان يقودها «أصبع بن وكيل الهوارى»، والفريق الآخر كان يقوده «سليمان بن عافية الطرطوشى»، ولا يشير الحميرى إلى دخول سفن أفريقية ولكن يذكر أنه وصل من الأندلس مراكب كثيرة.

ونحن نميل إلى الأخذ بالقول أن هناك سفن أفريقية قد وصلت إلى الجزيرة لنجدة إخوانهم الذين سبقوا إلى الفتح لاسيما أنه كان زيادة الله يتولى مقاليد الأمور فى أفريقية ولا شك أنه كان يتابع أخبار الفتح بنفسه وانه كانت ترسل له الأخبار الطيبة والسيئة عن حالة الجند تباعاً على هذا فلابد أن يكون قد وصلهم المدد من تونس بعد وفاة أسد بن الفرات، ومحمد بن أبى الجوارى بل أنه ليس من المستبعد وصول سفن أفريقية وأندلسية فى وقت واحد.

وعلى ذلك .. فإنه ما كادت أنباء الغزو الأندلسى ووصول السفن تبلغ مسامع المحصورين فى ميناو حتى أسرع هؤلاء فأرسلوا إليهم رسلاً يسألونهم النصرة والنجد، ولم يتردد الأندلسيون الذين كرسوا حياتهم للجهاد البحرى فى نجدة إخوانهم فى العقيدة والإيمان والجهاد فمن ذلك تحقيق لأهدافهم ومبادئهم ولكنهم اشترطوا عليهم أن تكون القيادة «لفرغلوش»، ويبدو أن المسلمين المحصورين فى ميناو وافقوا الأندلسيين على شروطهم فأقبل الأندلسيون بفك الحصار عنهم واستولوا فى طريقهم إلى ميناو على ما قابلهم من قلاع وحصون حتى انتهوا إلى ميناء ميناو واشتبكوا مع تودط فى جمادى الآخر عام ٢١٥هـ؛ فانهزم هزيمة نكراء وتراجع إلى قصر يانة وبذلك نجح أصبع بن وكيل الهوارى فى الإسراع ومهاجمة الروم والصقليين المحاصرين المناو وفك حصار المسلمين وتولى بنفسه قيادة القوى الإسلامى واتجه المسلمون رغم معارضة بعض القادة من رجال الأغالبة إلى قصر يانة بعد أن ارتفع حصار البيزنطيين عن المسلمين وتنفس هؤلاء الصعداء ثم أحرقوا المدينة وخربوها وأعادوا الاستيلاء عليها ثم سار أصبع نحو بالرم وحاصرها بعد أن ضرب حولها الحصار فاستسلم صاحبها البيزنطى

على الأمان ودخلها المسلمون بعد أن حاصروها حصاراً طويلاً حتى فتحوها واتخذوها قاعدة حربية لمواصلة الفتح فى أنحاء الجزيرة والاستيلاء على القلاع والحصون الرومية، ومن ذلك الوقت فإن صقلية دانت للإسلام والحكم العربى بعد أن كانت تخضع لسيطرة الروم وبسقوط بالرمو فإن نفوذ العرب والمسلمين قد تمكن من الجزيرة.

ويبدو أن نزاعاً حدث بعد ذلك بين القائد الأندلسى والقائد الأغلبى بسبب القيادة العامة للجيوش الإسلامية وانقسم المسلمون إلى طائفتين، وهدد الأندلسيون بترك صقلية لكن الفريقان تداعو للصلح واتفقا على تولية القيادة إلى «عثمان بن فرهب»، لكن ما أن تم الانتهاء من فتح العاصمة .. فإن ابن عذارى المراكشى يذكر أن الأندلسيين تركوا صقلية وقاموا عائدين إلى الأندلس عام ٢١٥هـ، وربما لايكون كل الأندلسيين قد رحلوا، وربما بعضاً منهم آثر أن يرحل من صقلية والعودة إلى الأندلس بعد فتح بالرم عام ٢١٦هـ، وأن الفريق الآخر رضى بولاية «أبى فهر محمد بن عبد الله ابن الأغلب التميمى»، الذى ولى صقلية عام ٢١٧هـ، ولا شك أن الأندلسيين لعبوا دوراً خطيراً فى فتح صقلية شأنهم شأن إخوانهم الذين فتحوا كريت (أقريطش)، ولقد كان وصول الأندلسيين إلى صقلية بأسطولهم الكبير نجدة لأخوانهم الأفريقيين ولولاهم لما نجح هؤلاء فى تثبيت أقدامهم فى جزيرة صقلية.

فتح صقلية بعد زيادة الله الأغلبى :

اتخذ فهر محمد بن عبد الله بن الأغلب التميمى الذى أرسله زيادة الله كقائد جديد للحملة لمواصلة الفتح بنجاح، مدينة بلرم مقراً له بعد أن دخلها وطرد بقية القوة البيزنطية فى الجزيرة، ولقد كان من أسباب اتخاذه بلرم مقراً له نظراً لسهولة اتصالها البحرى بأفريقية؛ حيث كانت ميناء بحرية على الساحل الشمالى لصقلية وكانت السفن تصل إليها بسهول من موانى أفريقية وكذلك لقربها من مضين «مسينا»، وجنوبى إيطاليا؛ حيث يتهيأ المسلمون لتوجيه الغارات منها على البيزنطيين من جهة

ثانية، ومن بلوم أخذ أبو فهر فى شن الغارات على قصر يانة بين عامى ٢١٩هـ/٢٢٠هـ، ثم سير جيشاً بقيادة محمد بن سالم إلى مدينة «طبرمين» الواقعة فى شرق الجزيرة وأحرز المسلمون انتصارات متوالية على البيزنطيين فى سرقوسة.

ولكن يبدو أن زيادة الله بن إبراهيم الأغلبى قد احتاج لمساعدة «أبى فهر» فى قمع بعض الثورات فى المغرب فطلب عودته إلى المغرب وعين بدلاً منه أخاه الأغلب ابن إبراهيم بن الأغلب والياً عليها فوصلها فى أسطول كبير فى منتصف رمضان عام ٢٢٠هـ، ونجحت حرقاته فى مطاردة حرقات البيزنطيين وأحرز بعد وصوله إلى صقلية انتصارات بحرية عديدة فظفر بعدد من سفن الروم وأمر بضرب رقاب بحارتها من البيزنطيين ثم بعث أبو الأغلب أسطوله إلى قوصرة فظفر فيها بحراقة بيزنطية ووجه فى عام ٢٢١هـ سرية إلى مضيق «مسينا» فغزاها وغنم المسلمون غنائم لاحصر لها، ثم غزا أسطول الأغالبة بقيادة «الفضل بن يعقوب» الجزر المجاورة لصقلية فاستولى على عدد من الحصون، ومن بينها حصن «تنتدارو» الواقع على الساحل الشمالى من صقلية وظل أبو الأغلب يبعث سرايا للإغارة، وفى كل مرة كان المسلمون يعودون مظفرين غانمين، وفى عام ٢٢هـ أغار الفضل بن يعقوب على حصن مدنار واستولى عليه وعلى معاقل أخرى كثيرة.

ولما توفى أبو أغلب إبراهيم بن عبد الله والى صقلية اجتمع المسلمون على ولاية العباسى بن الفضل بن يعقوب فى رجب عام ٢٣٦هـ، وأقرهم الأمير الأغلبى أبو العباسى محمد بن الأغلب بن إبراهيم على ذلك وتعتبر ولاية العباسى بن الفضل فاتحة عهد جديد فى تاريخ الفتح الإسلامى لصقلية، كما تعتبر فترة ولايته من أعظم الفترات التى وضحت فيها السيطرة الإسلامية على البحر المتوسط فكان يرسل أساطيله فى البحر للغزو واقتناص السفن البيزنطية وواصل الجهاد إلى أن توفى عام ٢٤٧هـ.

وهكذا .. كان الأغالبة بعيدى النظر حين بدأوا يولون وجوههم شطر صقلية

فنزلوها كما سبق القول واستولوا عليها؛ حيث سقطت آخر قلاعها عام ٢٤٦هـ، وفشلت محاولات الدولة الرومانية الشرقية فى استردادها كما فتحوا مالطة عام ٢٥٦، واتخذوها قاعدة لأسطولهم كما ملكوا الجزر المتفرقة فى البحر المتوسط الغربى، وبذلك بلغت السيادة الإسلامية الذروة ولم يعد الفرنجة يسيطرون إلا على البرية وأصبح المسلمون مطلقى السراح فى الحياة فى هذا الجزء من البحر، ولم يكتفى الأغالبة بذلك .. بل انهار أسطولهم القوى على سواحل أوربا فدخلوا بارى فى جنوب إيطاليا ووصلت قواتهم إلى روما فدخلوا نهر التبر وأحرقوا المدينة واضطر البابا إلى أن يدفع الجزية حتى يكفوا عن تهديده بل أغاروا أيضاً على جنوه ودخلوا البحر الإدرياتى وأغاروا على ساحل دلماشيا عام ٣٥٩هـ كما غزوا مرسليا وأوقعوا بالسفن الفرنسية الراسية فيها فلم يستطع الأمبراطور ليون الثانى سوى أن يتقرب إليهم.

حكام الجزيرة فى عهد الأغالبة :

ولى على حكم صقلية عدد من الولاة من قبل أمراء بنى الأغلب نخص بالذكر منهم خفاجة بن سفيان ومحمد بن خفاجة، ورباح بن يعقوب، والحسين بن رباح بن يعقوب، ثم جعفر بن محمد والحسين بن رباح، والحسن بن العباسى، ومحمد بن الفضل، والحسين بن أحمد وسوادة بن محمد بن جفاجة، ومحمد بن الفضل أبو العباسى بن إبراهيم بن أحمد بن الفضل.

وفى خلال هذه الفترة استولى المسلمون فى أيام خفاجة بن سفيان على قلعة الأرمنين وقلعة المشارعة، وفى عام ٢٤٧هـ كما استولوا على نوطس وشكلة الواقعة فى جنوبى شرق صقلية وذلك فى عام ٢٥٠هـ ونجح المسلمون فى عام ٢٦٤ هـ فى الاستيلاء على سرقوسة بعد حصار طويل هزم فيه جعفر بن محمد أسطولا بيزنطيا كان قد قدم لنصرة أهلها وحاول البيزنطيون استرجاعها فأرسلوا لهذا الغرض أسطولاً تغلب عليه المسلمون وظفروا بأربع قطع منه. وفى عام ٢٨٨هـ عمر أبو العباسى ابن ابراهيم

بن أحمد أسطوله وأعده للغزو ونزل به على دمنشى ونصب عليها المجانيف وأقام على حصارها أياماً ثم مضى إلى مسبينا وجازف حربياته وهى سفن خاصة للقتال إلى ريو Reggio وقد تجمع بها حشد كبير من البيزنطيين فقاتهلم على بابها وهزمهم، ثم عاد إلى مسينا فوجد بها سفناً بيزنطية قد وصلت من القسطنطينية فاستولى منها على ثلاثين مركباً ثم قدم الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد بأسطوله إلى صقلية فى ١٧ ربيع الأولى عام ٢٨٩هـ فأفتح مدينة طبرمينى وميتعش ورمطة دلياح ثم أمر الناس بالتجمع فى مسينى بغية العبور إلى قلورية فى ٢٦ رمضان، وهاجم كنسته الواقعة بالقرب من خليج طارنت ونصب عليها المجانيف، ولكنه توفى وهو يقوم بحصارها فى ذى القعدة عام ٢٨٩هـ ولم يبق لاستكمال فتح صقلية سوى مدينة طبرمينى، وقد سقطت بدورها فى نهاية عصر الأغالبة فى عام ٢٩٦هـ، وهكذا .. افتتح المسلمون جميع مدن وقلاع صقلية بعد حروب استغرقت نحو ثمانية وثلاثين عاماً بعد المائة.

ويرجع طول فترة الفتح إلى أن الحملة الأولى بقيادة أسد بن الفرات لم تتجه مباشرة بعد نجاحها فى المرحلة الأولى إلى العاصمة بالرم للاستيلاء عليها كما كان يفعل القواد العرب والمسلمين والحقيقة أن أسد لم يكن قائداً حربياً بقدر ما كان فقيهاً وعالماً دينياً ومن هنا .. استغرق فتح الجزيرة طوال هذه الفترة التى استغرقت تاريخ الدولة الأغلبية كله. ويبدو أن اهتمام بيزنطة بأهمية صقلية قد أطال فترة الفتح.

(راجع كتابنا : الإسلام والمسلمون فى جزر البحر المتوسط).

الأغالبة وفتح مالطة

تعتبر جزيرة مالطة من جزائر البحر المتوسط، وهى أكبر جزيرة فى الأرخبيل المالطى المؤلف من جزيرة مالطة، وجوزو، وكومينو، وكومينوتو، وفلفولا، وجزيرة نمودش، ونموشة، وهى تعتبر أكبر هذه الجزر، وهى وإن كانت صغيرة المساحة بالنسبة

لجزيرة كصقلية، أو كريت، أو سردانيا .. إلا أنها تعتبر من المحطات الهامة فى البحر المتوسط وموقعها ذو أهمية عظيمة لمن يستطيع أن يسيطر عليها ويخضعها لنفوذه السياسى. وهى تبعد حوالى تسعين كيلو متر جنوبى صقلية، وعلى بعد مائتى وتسعين كيلوا متر من شاطئ تونس، وقد كانت قبل الفتح الإسلامى محطة هامة للأسطول الرومى فى البحر المتوسط وحلقة وصل بين ممتلكاتهم فى الشرق ومطامعهم فى الغرب وأهلها من أصل سامى كنعانى من قديم الزمن.

وقبل الفتح الإسلامى لها كانت شديدة الضرر على المسلمين فى البحر، وكان يعظمها النصارى تعظيماً بالغاً لأنها مركز هام من مراكزهم الاستراتيجية فى بحر الروم، والذى لاشك فيه أن جزيرة مالطة تعرضت للغزو الإسلامى أكثر من مرة أثناء فتح شمال أفريقيا وأيضاً فهى كغيرها من جزر البحر المتوسط التى وصل إليها المسلمون بسفنهم ولاسيما أن الأسطول الإسلامى كان قد ظهر فى البحر المتوسط كقوة حربية أمام الأسطول الرومى.

وهى جزيرة عامرة كثيرة الخيرات حسنة الموقع حتى أنها اعتبرت هى وصقلية من المعالم الهامة فى التاريخ البحرى الإسلامى ومفتاح حوض البحر المتوسط الأوسط والغربى وقد عرف المسلمون بفضل فتحهم لهاتين الجزيرتين كيف يهددون إيطاليا كلها ويسودون البحر التيرانى ويفتتحون أجزاء هامة من إيطاليا.

وكما سبق القول .. فإن حكام بنى الأغلب قد عملوا على نشر رسالة الإسلام فى قلب القارة الأوربية وتحقيق حلم موسى بن نصير فى إتمام فتح القارة الأوربية، وفى ذلك يذكر ابن الأثير فى كتابه الكامل عن حوادث عام ٢٢١هـ أن إبراهيم بن الأغلب الصغير قد أرسل أسطولاً لغزو الجزائر القريبة من الساحل التونسى وربما يكون المقصود بتلك الجزائر هو أرخبيل الجزر الذى منه مالطة، ولم يكن هذا الغزو للجزيرة إلا مجرد التمهيد للغزو النهائى ثم تتبعه حملة للاستقرار والاستيلاء النهائى على الجزيرة

وإدخالها فى حوزة الإسلام.

وتم افتتاح الأغالبة لمالطة عام ٢٥٥هـ فى إمارة أبى الغرانيق محمد بن أبى إبراهيم أحمد، وبفتحها تأكدت سيطرة المسلمين الكاملة على المضايق الواقعة بين صقلية وأفريقية ويبدو أن البيزنطيين حاولوا استردادها فى العام التالى فحاصروها بأساطيلهم، ويذكر ابن الأثير أن محمد بن خفاجة بن سفيان والى صقلية سير لفتحها جيشاً فى عام ٢٥٦هـ، وكان البيزنطيون يحاصرونها فلما بلغهم إقبال المسلمين رحلوا عنها.

وإنه ربما كانت مالطة قد دخلت فى حوزة المسلمين قبل عام ٨٠٠م/١٨٤هـ فترة تولية إبراهيم بن الأغلب حكم أفريقية، ولا يستبعد أن يكون غزو الجزيرة قد تم قبل عام ٢٢٦هـ. ذلك لأن أبا الأغلب إبراهيم كان قد غزا صقلية عام ٢٢١هـ واستولى عليها واذن كيف يكون قد ترك مالطة وهى أقرب إلى تونس من صقلية.

ولكن هناك أقوال تذكر أن فتح المسلمين لمالطة قد تم بعد استيلائهم على جزيرة صقلية ويستدل على ذلك أن الفتح النهائى لمالطة قد تم بعد فتح صقلية بمدة طويلة، وذلك لأن حكام بنى الأغلب بعد أن تدعم وضعهم فى صقلية رأوا أن مالطة تشكل خطراً على تحرك الأسطول من تونس إلى صقلية وبالعكس فاستقر الرأى على ضرورة إخضاع مالطة للراية الإسلامية بعد أن تبين لهم أن الأسطول البيزنطى يتخذ منها ملجأ لأسطوله ومركزاً من مراكز تموينه فى البحر المتوسط.

وكما سبق القول فقد سنحت الفرصة للمسلمين فى عهد والى صقلية الأمير خفاجة بن سفيان الذى ولى أمر الجزيرة فى جمادى الأولى عام ٢٤٨هـ/٨٦٢م، والذى كان رجلاً متديناً بارعاً فى السياسة والحرب عاملاً على قطع آمال الروم وسائر النصارى فى استرجاع جزيرة صقلية؛ بل أكثر من ذلك عاملاً على مد الفتوحات الإسلامية إلى قلب أوربا والاستيلاء على البر الكبير (إيطاليا)، وتدعيم الأسطول

الإسلامى فى البحر المتوسط، وكان أن عقد العزم على إخضاع مالطة للمد الإسلامى لأنه رأى أنه لايمكن إبعاد الخطر الرومى عن صقلية وقطع آمال النصارى فى استردادها إلا بإخضاع جزيرة مالطة لسلطان المسلمين، وكان أن استشار الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد الذى بارك فكرته وشجعها وأمده بالأسطول والجند وجهز له العدة والعتاد لكى يستطيع أن يدرأ الخطر الرومى عن صقلية وأن يفتح مالطة فى يسر وسهولة، وعقد الأمير خفاجة أبو سفيان لواء الحملة الميمونة لإبنه محمد بن خفاجة الذى كان عضداً قوياً لأبيه يقهر به شوكة الأعداء، ويساعده فى أداء شئون الحكم والسياسة فى صقلية.

سار الأمير محمد على رأس الأسطول الإسلامى الذى خرج من موانى صقلية بعد أن وصله المدد من تونس وكانت الحملة تضم خيرة المقاتلين الذين كانت قوتهم الإيمان بالله والعزم على قهر الأعداء ونشر الدين الإسلامى الحنيف فى كل بقعة يقطنها بشر وتقويض نفوذ الامبراطورية الرومانية واستطاع الأمير أن يرسى سفنه وينزل جنده على شواطئ مالطة الشمالية فى أوائل عام ٢٥٦هـ/٨٦٩م، وتم له الاستيلاء على الجزيرة فى فترة وجيزة بعد أن استطاع أن يدك حصونها ويهدم قلاعها واستطاع أيضاً أن يدخر مقاومة الأسطول الرومى الذى كان يحمى سواحلها وأن يضطره للفرار إلى عرض البحر بعد أن تحطمت أكثر سفنه.

وهناك فى الجزيرة وجد المسلمون أنفسهم بين قوم كادوا يكونون من أهلهم وذويهم، ولقد رحب سكان الجزيرة بالعرب الفاتحين وأحسوا أن الفتح الإسلامى قد خلصهم من نير الحكم الرومانى، ولكن الامبراطور الرومانى، وقد هاله هذا النصر السريع، والفتح الحاسم للمسلمين لمالطة .. فقد أحس بالكارثة التى أصابت الروم بفقدهم أهم مركز من مراكزهم الاستراتيجية فى البحر المتوسط. فرأى أن يعمل على استرداد الجزيرة من أيدى المسلمين، ومن ثم .. حاول البيزنطيون استرجاع مالطة بعد عام ٤٠٠هـ/١٠٤٨م، ولكن المسلمين قاتلوهم وتغلبوا عليهم.

وفى إحدى المرات أرسل البيزنطيون أسطولاً مكوناً من ثلاثين سفينة حربية كبيرة يصحبها عدد من سفن الإمداد والتموين وجاء الأسطول الرومى فى العام التالى ٢٥٧هـ/٨٧٠م يتباهى بقوته وعدته واستطاع أن ينصب الحصار حول مالطة محاولاً بهذا الحصار أن يمنع وصول العون الإسلامى للجزيرة وأخذ يستعد لإنزال الجند، ولكن ما أن علم بذلك الأمير خفاجة وإبنه محمد حتى قاما بجمع سفن الأسطول الصقلى من الموانئ الصقلية، ومن عرض البحر، وسار محمد بن خفاجة برجال أسطوله لنجدة الجزيرة المحاصرة وليساعدا قوات المسلمين فى الجزيرة، وليمنع راية القسطنطينية من أن ترفع مرة أخرى فوق أرض ضمت للدولة الإسلامية، ولما علم الروم أنهم ملاقون أسطولاً اشتهر رجاله بقوة إيمانهم وشدة عزيمتهم وصبرهم على القتال ارتدوا أمام الزحف الإسلامى بعد أن ألقى الله الرعب فى قلوب الروم.

فلم يكد رجال الأسطول الرومى يشاهدون سفن المسلمين قادمة نحوهم حتى فروا بسفنهم نحو الشرق.

ولقد خضعت مالطة لحكم أمراء صقلية وأصبحت ولاية تابعة لحكمهم منذ عام ٢٥٧هـ/٨٧٠م، وعمل هؤلاء الحكام على تشجيع المسلمين للتوطن فى الجزيرة فجاءها المسلمون من تونس وصقلية والأندلس، وذلك عملاً على توطيد دعائم الإسلام بالجزيرة واختلطوا كذلك بالسكان المحليين الذين لم يشعروا بالغربة بينهم؛ بل عمدوا على مصاهرتهم ونشر الإسلام بينهم.

وقد أنشأ الأغالبة فيها دار لصناعة السفن من أشجار الصنوبر التى تكثر بها وأصبحت على هذا النحو قاعدة بحرية هامة للأغالبة فى البحر المتوسط.

وهكذا بسط الاغالبة لواء الاسلام على مالطة كما بسطوه على صقلية طوال فترة حكمهم حتى زوال ملكهم أمام الفتح الفاطمى .

وهكذا أدى الاغالبة دورهم وواجبهم نحو العالم الاسلامى بتوسيع رقعة المد الاسلامى فى جزر البحر المتوسط ومحاولة غزو جنوب ايطاليا .

راجع كتابنا : الاسلام والمسلمون فى جزر البحر المتوسط. مكتبة نهضة الشرق جامعة القاهرة، وكتابنا : الاسلام والثقافة العربية فى أوربا القاهرة ١٩٧٥م .

دور الاغالبة فى النواحى الثقافية والاقتصادية والعمرانية وغيرها من النشاطات المختلفة

لقد كانت دولة بنى الاغلب أول دولة استقلت بافريقية مع اعترافها بالسيادة الاسمية للخلافة العباسية ومن هنا فقد اعتنيت طوال عهدها الذى استمر من ١٨٤هـ–٨٠٠م إلى ٢٩٦هـ– ٩٠٩م بترقية أفريقية حضاريا وثقافيا وعلميا وأدبيا وقد استعملت فى سبيل ذلك كل الوسائل التى من شأنها تطور البلاد ورقيها، وعلى ذلك فقد تركت تلك الحقبة التاريخية التى حكم فيها الاغالبة بلاد افريقية أثرها الواضح والقوى على مجريات الاحداث فى البلاد وشاد بنو الاغلب معالم حضارية فاخرة تدل على تحضرهم ورقيهم وعنايتهم بالثقافة والحضارة والعمران واستخدام الوسائل التى من شأنها أن تطور كافة أنحاء القطر .

وقد شهد عصر بنى الاغلب نهضة ثقافية عالية .

المجال الثقافى :

يبدأ هذا العصر الثقافى المتطور بقيام دولة الاغالبة عام ١٨٤هـ وينتهى بسقوطها تحت ضربات جيش الفاطميين بقيادة عبد الله الشيعى عام ٢٩٦هـ. ولقد شهدت هذه

الفترة كمبدأ للحياة الثقافية العربية الاسلامية لأنه اقترن عصر الاغالبة بشعور جديد هو الشعور بالاستقلال والروح الوطنية أما الاعتبار الثانى والذى ينتهى بسقوط هذه الدولة وقيام الدولة الفاطمية فلانه اقترن بانقلاب جديد فى المفاهيم السياسية والمذهبية فصح لذك أن يكون فارقا جذريا بين عصر ثقافى وآخر .

وقد ظهرت الناحية الثقافية فى عصر الاغالبة بأنها ثقافة مغربية ذات شخصية مستقلة فظهرت مدرسة القيروان وغيرها من المدارس الاقليمية .

ولقد ظهر أثر الاغالبة فى الميدان الثقافى حيث تطورت الثقافة المغربيةضمن دائرة العروبة والاسلام محتفظة على مر العصور بروحها الشرقية الخالصة حيث استمدت روحها من ميراث الشرق الاسلامى الذى نقله الفاتحون والمهاجرون وجاء بنو الاغلب ليضفوا عليه كثيرا من العوامل والتفاعلات المحلية وهنا تظهر حيوية الاسلام فى افريقية فالاسلام وحدة هو الذى استطاع أن يخلق فى هذه البلاد حضارة دائمة حقا مكتملة العناصر والتى استطاعت أن ترتكز على مقتضيات اجتماعية كوجود الامة المغربية واكتمال مقوماتها وتوافر العناصر الروحية والمادية الضرورية لقيام كيانها واستمرار وجودها وصيانة ترابها وتراثها وهذا الشئ قد أوجده الاسلام الذى انطوى المغرب الادنى تحت رايته .

ذلك لان الجهود الذى بذلها ولاة الاغالبة ونشر الطمأنينة بين ربوعها فقد أظل البلاد عهد من السلام الحقيقى والطمأنينة غير المشوب بقلق أو اضطراب ولعل هذا يفسر لنا أن اسلام البربر واقبالهم على الثقافة العربية قد حببهم فى العرب وفى ثقافتهم وهذب من طبيعتهم النزاعة إلى الثورة والخروج على السلطان وهكذا ظهرت الثقافة العربية الاسلامية التى رأيناها فى العهود السابقة على عهد الاغالبة ويشتد ساعدها غير أن عهد الاغالبة بظروفه قد أدى إلى دفعها إلى الامام فى طريق التطور والنمو ذلك لان الاغالبة قد استقبلوا كثيرا من العلماء والفقهاء وأكرموهم فأشاعوا فى المغرب الادنى روح التقوى

والصلاح والزهد وكان معظم هؤلاء القادمين من مصر .

ويذكر مؤرخو هذا العصر كيف أن الاغالبة أنشأوا بمساجد القيروان حلقات للتدريس وأنشأوا مدارس جامعة أطلقوا عليها اسم دور الحكمة واستقدموا لها الاساتذة من الشرق فكانت هذه المدارس وما اقترن به انشاؤها من انصراف القائمين عليها للدرس والبحث عاملا هاما فى رفع شأن لغة العرب وثقافتهم .

وقد سمى عصر الاغالبة بعصر النهضة الثقافية لانه عصر نهضت فيه العلوم والآداب وغيرهما من فروع الثقافة ونشطت فيه الحركة العلمية نشاطا ملحوظا وقد تميزت فيه مباحث العلوم القرآنية وغيرها بعد أن كانت مختلطة فى عصر النشوء واتجه علماء كل فن إلى التخصص .

ولقد كان من أثر جامع القيروان أن التف فى هذا العصر أبناء الاندلس والمغرب وافريقية وطرابلس وبرقة وصقلية ومالطة وغيرها حول جامع القيروان لقراءة الكتب التى أنتجها القيروانيون أنفسهم كتفسير «محمد بن عبد السلام» وكتب الطب لابن الجزار الذى عاش فى عصر الاغالبة وتأليف غيرها فى مختلف الفنون .

وقد شهد عصر الاغالبة ظاهرة الثقافة الفقهية ودراسة الاحكام والقوانين الاسلامية التى كان لها الغلبة والتقدم فبينما نجد عشرات من الفقهاء فى كتب التراجم لا نجد ازاءهم من الادباء والاطباء الا أفرادا قلائل تخصصوا فى فن من الفنون وحتى أولئك الادباء نجدهم فقهاء وأدباء فى آن واحد غالبا وذلك راجع إلى أن افريقية والمغرب كانا فى هذا العهد الاغلبى فى حاجة أكيدة إلى مباحث فقهية دينية تنظم شئون البلاد الاجتماعية تنظيما محكما وتربط بين مختلف طبقاته المفككة منذ العصر الجاهلى إلى ما بعد الاسلام فكان ذلك من أسباب الاقبال على السهل من هذه العلوم الدينية أكثر من غيرها من العلوم الاخرى وان كانت العلوم الدينية هى الغالبة ذلك لان البربر لما اعتنقوا

الاسلام ووجدوا فيه ما يكفى المسلم فى مختلف مجالاته من صغيرة إلى كبيرة ومن هنا عكفوا على دراسة القرآن والسنة أو ما يندرج تحت مفهوم العلوم الدينية وهو الاساس وهو الجدير بالعناية .

ولقد كان لهذا الاتجاه الفقهى النشيط أيام الاغالبة وللحماسة التى يتحلى بها الفقهاء نتائج باهرة فى كثرة الفقهاء وفى وفرة التأليف الفقهية وتأثير الفقهاء على المجتمع ومختلف طبقاته حتى كان الفقيه هو المشرع وهو القاضى وهو الامام الذى يوليه الخاصة والعامة الاحترام ويستفتونه فى أحكامهم ويستغنون به فى حل مشاكلهم .

غير أن أهم تطور ثقافى شهدته افريقية فى عصر الاغالبة هو انتشار مذهب الامام مالك فى مدرسة القيروان وتفشيه فى القسم الغربى من العالم الاسلامى بما فيه بلاد الاندلس حيث لايزال حتى اليوم المذهب الغالب على المسلمين فى هذه البلاد والعامل الموجه لثقافتهم وحضارتهم وحياتهم الاجتماعية. لكن للحقيقة التاريخية فان ظهور مذهب الامام مالك وانتشاره فى المغرب العربى ولاسيما افريقية (المغرب الادنى) لم يكن وليد عصر الاغالبة فقد انتشر فى البلاد قبل الاغالبة، غير أن عهدهم شهد الانتصار النهائى لهذا المذهب وسرعة انتشاره فى بلاد المغرب كلها .

وقد وفد مذهب الامام مالك إلى القيروان قادما من مصر كما وفدت المذاهب الاسلامية الاخرى ورحل كثير من فقهاء المغرب والقيروان إلى مصر أو الحجاز طلبا للمزيد من فقه عالم دار الهجرة وكان طلاب العلم كثيرين والكثيرون منهم كانوا من أبناء الطبقة الموسرة والتجار وأصحاب الصنائع وكانت الصلة وثيقة بين هذه الطبقة من الفقهاء وأهل العبادة والزهد ومع اننا لا نسمع عن اتخاذ الناس لقصور فاخرة كما نجده فى المجتمع المصرى فى ذلك العصر. الا أن الرخاء كان سائدا والخير وافرا .

وهكذا نرى كيف اتسعت القيروان وقامت فيها الاسواق والاحياء ونشأ مجتمع

قيروانى محلى عماده الفقهاء والقضاة وأهل الزهد والورع والتجار ونفر من أهل الثراء والغنى وأهل الصناعة كذلك نرى كيف كانت القيروان سوقا تجاريا كبيرا تصدر منه القوافل إلى بلاد الصحراء حيث بلاد السودان (كانم- برنو، مالى، سنغاى) ومركزا هاما للقوافل المارة من الشرق إلى الغرب وقامت فيها حلقات الدرس فى المساجد يؤمها للدراسة الصبيان ثم الشبان ويلبسون زيا خاصا بأهل العلم والدراسة .

وهكذا كان عصر الاغالبة تجربة جديدة فى المغرب الادنى، ذلك لانه خلال قرن من الزمان أو يزيد قليلا والذى دامته دولة الاغلبة تقدمت البلاد تقدما ملموسا وواضحا لم تعهده من قبل ولا فى ظل الحكومات التى تعاقبت بعد دولة الاغالبة حيث ازدهرت المدن وأخذت القيروان وتونس وسوسة وسفاقس وغيرها من المدن الاسلامية فى افريقية طابع المدن الاسلامية التقليدية فازدانت بالمساجد والمنشآت العامة .

وعلى هذا يحق لنا القول انه اذا كان عصر الاغالبة قد بدأ عام ١٨٤هـ/ ٨٠٠م والبلاد المغربية نعيش فى فوضى تتقاسمها جماعات الخوارج وغيرهم فقد انتهى عهدهم والبلاد موحدة تحت لواء السنية فلا نجد الخوارج الا فى أقصى الطرف الغربى لبلاد الاغالبة بل فى اقليم تاهرت فى المغرب الاوسط (الدولة الرستمية) .

كذلك فانه قبل عصر الاغالبة لم تكن هناك شخصية واضحة لافريقية والمغرب الاوسط بل كانت مدنها قرى كبيرة ومحطات للقوافل بما فى ذلك القيروان .

ولقد شهد عصر الاغالبة تطور الحضارة المغربية فى اطار دائرة العروبة والاسلام محتفظة على مر العصور بروحها الاسلامية الخالصة وتطورت بجانبها حضارة الاندلس التى استمدت مقوماتها وروحها من تراث الشرق الذى جاء به الاسلام وأهله وأضفت التفاعلات المحلية على تلك الروح روح الاسلام وعلى هذا كانت الثقافة الاسلامية الشرقية هى المنوال الذى سار عليه رجال الدين والفقهاء والعلماء والائمة ورجال الفكر المغاربة منذ

صدر الاسلام ومن هنا فالحضارة المغربية اسلامية شرقية بدأ ونهاية ليس فيها أى أثر لحضارة وثقافة سابقة .

ولقد حمل لواء ذلك التراث الثقافى الاسلامى هؤلاء الفقهاء الذين رحلوا إلى الشرق الاسلامى من مصر والحجاز وبغداد والشام ثم عادوا إلى بلادهم متأثرين بما رأوا وسمعوا غير أن هؤلاء لم يكن لهم شأن يذكر حتى جاء أسد بن الفرات العالم المشهور فى تاريخ افريقية ورحل إلى مصر وسمع عن العالم المصرى «على بن القاسم» امام المالكية فى مصر فتأثر به رغم أن أسدا هذا كان على مذهب العراقيين وهو مذهب «أبو حنيفة» .

ويبدو أن ما سمعه أبناء المغرب (تونس) من علمائهم الراحلين إلى مصر وغيرها من بلاد العالم الاسلامى الشرقى أو ما سمعوه من دروس «أسد بن الفرات» حببهم فى هذا المذهب الذى يتمسك بسنة رسول الله ﷺ فى أضيق الحدود وبهذا الفقيه (مالك بن أنس) الذى اتخذ المدينة المنوة ومقام الرسول ﷺ مقرا لتعاليمه وفقهه انتشر مذهبه فى البلاد فاذا المغاربة يقبلون على هذا المذهب اقبالا شديدا عن ذى قبل ويطلبون المزيد من العلم به والمعرفة بخباياه .

وقد شهد عصر الاغالبة ظهور العديد من الفقهاء والعلماء والائمة الذين تركوا بصماتهم واضحة وقوية وجلية فى الحركة الاسلامية والفكرية والثقافية فى البلاد وبما تركوه من تراث فقهى كان له أبعد الاثر فى انتشار المذهب المالكى ورسوخ العقيدة الاسلامية فى قلوب الشعب المغربى الذى حافظ على قيمه الروحية وتقاليده العربية الاسلامية طوال العصور التاريخية ومن هنا كان الاستقرار السياسى والاجتماعى والاقتصادى من الأسباب الرئيسية لتهيئة المناخ الفكرى بظهور مثل هؤلاء الفقهاء ومن هؤلاء :

١– أسد بن الفرات (١٤٢– ٢١٣هـ) :

هو من المعالم البارزة والرئيسية فى الحركة الفقهية والتشريعية فى المغرب الادنى ومن الذين لعبوا الدور الاساسى فى تدعيم الفقه السنى الاسلامى وهو أسد بن الفرات بن ساسان مولى بنى سالم وهو فى الاصل من خراسان ولقد ولد بمدينة بحران عام ١٤٢هـ ثم دخل القيروان مع أبيه بصحبة جيش ابن الاشعث وأقام بها خمس سنوات ثم انتقل بعدها إلى تونس واستقر بها تسع سنوات ولما بلغ الثمانية عشر من عمره أخذ يعلم القرآن ولم يلبث أن ترك التعليم ليتفرغ إلى التوسع العلمى والرحلة فى طلب العلم، وقد تتلمذ على أيدى شيوخ أجلاء استفاد منهم كثيرا فقد أخذ عن «على بن زياد» كتاب الموطأ فى افريقية، ثم ارتحل إلى المشرق فسمع عن مالك وقصد العراق فأخذ فيه عن «أبى يوسف ومحمد بن الحسين» أنصار المذهب الحنفى، ولما عاد إلى مصر أخذ عن «على أبى القاسم» مدونته (الاسدية) وتشتمل على نحو ست وثلاثين ألف مسألة فقهية وقد أعجب به كثيرا على بن القاسم امام المالكيين فى مصر فدفع به إلى القيروان فأقبل عليه خلق كثير لسماع الاسدية وكذلك سماع الموطأ والاستفادة مما بهما من مسائل فقهية وكذلك الاستزادة من فقهه واشتهر وذاع صيته بين الشيوخ والطلاب واستقرت اقامته وأصبح الناس يفدون اليه من كل أنحاء البلاد لاسيما طلاب العلم والمعرفة .

وكان من بين الذين سمعوا عنه وتتلمذوا على يديه فترة طويلة وسمع المدونة (الاسدية) وكذلك الموطأ وكتب كل ما سمعه عنه سحنون بن سعيد والذى دفعته الرغبة فى الاستزادة من علم مالك حيث رحل إلى مصر ليسمع عن «على بن القاسم» وأقام فى الفسطاط زمنا طويلا حتى تشرب مذهب الامام مالك وملك عليه نفسه وعاد إلى بلده وجمع خلاصة دراساته وقراءاته المالكية فى أول كتاب ظهر فى فقه مالك غير الموطأ وأسماه المدونة .

وفى مصر أخبر سحنون بن سعيد أستاذه على بن القاسم بخبر نشاط أسد بن الفرات

فى بث مدونته فسر لذلك سرورا عظيما وعرض عليه سحنون بن سعيد رغبته فى سماع المدونة منه فأذن له وصحح النص الذى اصطحبه معه فى افريقية نقلا عن أسد بن الفرات وكتب اليه على أن يرجع إلى نص المدونة الاخير الذى بيد سحنون بن سعيد، لكن أسدا تمسك بما فى يديه ونشر المذهب الحنفى نسبة إلى «أبى حنيفة النعمان» وهو مذهب أهل العراق، كما تمسك سحنون بن سعيد بمدونته أيضا وكانت الغلبة لمدونة سحنون فأقبل عليها أهل المغرب وعولوا عليها فى أحكامهم وأعرضوا عن مدونة أسد ويرجع إلى سحنون بن سعيد وإلى تحمسه للمذهب المالكى الفضل فى دخول الناس فيه جماعات وطار صيته إلى الاندلس فجاءه علماء قرطبة يسمعون منه ويتتلمذون عليه وبدأ مذهب مالك منذ ذلك الوقت يدخل بلاد الاندلس وينتشر فيه .

وكان مذهب أبى حنيفة وهو المذهب الرسمى للدولة قد وفد إلى افريقية بقيام الدولة العباسية غير انه لم يلق اقبالا من المغاربة المتشبعين بحب الرسول ﷺ والمخلصين للاسلام الصحيح .

غير أن ظهور مذهب مالك خصوصا فى عهد سحنون بدأ يتغلب على مذهب أبى حنيفة مسيطرا على قلوب الناس ومدارس الفقه حتى انتصر نهائيا منذ عهد سحنون وبدأ المذهب المالكى يغلب على الحياة الثقافية فى بلاد المغرب كلها .

ولقد كان أسد بن الفرات يأخذ بمذهب أهل السنة ولا يقبل آراء المعتزلة فى أقواله الفقهية بل يأخذ بالمذهب المالكى والحنفى. وكان له طلاب كثيرون منهم طلاب ملازمون ومنهم من يأتون من الاقاليم لبعض الوقت ثم يرحلون. وقد تولى أسد بن الفرات قضاء افريقية عام ٢٠٣هـ وقام قاضيا حتى تسلم قيادة الحملة الغازية لجزيرة صقلية فترك القضاء وسار بجيشه إلى صقلية حيث استشهد وهو يحصار مدينة سرقوسة فى ربيع الاول عام ٢١٣هـ. ودفن بالموقع الذى توفى فيه .

٢- سحنون بن سعيد (١٦٠هـ- ٢٤٠هـ) :

وكان من الفقهاء المبرزين الذين لعبوا دورهم الهام فى اثراء الحركة الفقهية والفكرية والثقافية فى عصر الاغالبة «سحنون بن سعيد» أو أبو سعد سحنون بن سعيد والذى ينتسب إلى قبيلة تنوخ العربية وكان اسمه «عبد السلام بن سعيد» ولكن اللقب سحنون غلب عليه ومن هنا اشتهر به وذاع صيته بذلك وهو عربى شامى الاصل ولد باحدى قرى بلاد افريقية عام ١٦٠هـ وتوفى فى رجب عام ٢٤٠هـ ودفن فى القيروان وقد كان يمتاز بعدة صفات منها الورع الصادق والتيسير فى الفقه والبراعة والصرامة فى الحق بحيث كان لا تأخذه لومه لائم فى ذلك وكان زاهدا فى الدينا لايقيم لها وزنا وقد توطدت امامته بالمشرق والمغرب واعترف أهل عصره بفضله وقد اشتهر سحنون برغبته الشديدة فى طلب العلم منذ صغره فأخذ فى افريقية عن على بن زياد وأبى مسعود بن أشرس والهبل بن راشد وعبد الله بن عمر بن غانم الرعينى ومعاوية الصمادح وغيرهم .

وفى سن الثامنة والعشرين دعاه طموحه العلمى القوى والرغبة فى التبحر فى أمور الفقة، دعاه كل ذلك إلى أن شد الرحال إلى بلاد المشرق الاسلامى حيث كان ذلك فى عام ١٨٨هـ حيث وصل إلى مصر كعبة العلم وهناك اتصل بشيخ المالكية بها على بن أبى القاسم وأخذ عنه ونهل من منهله الفياض واختلط بالعديد من طلبة العلم فى الفسطاط ونافسهم فى المذهب المالكى حيث كانوا جميعا تلاميذ لمالك ومن هنا قرر سحنون بن سعيد أن يعتمد على ذلك المذهب وحده فى كل المسائل الفقهية وصحح ما وجده وكتبه من أسدية أسد بن الفرات بل انه رغبه فى الاستزادة من طلب العلم رحل مع أستاذه على بن القاسم إلى الاراضى المقدسة لاداء فريضة الحج وكان يرافقهما فى تلك الرحلة «ابن وهب» وغيره من طلاب مالك وكان سحنون لا يغفل عن الاستفادة من أستاذه أبى القاسم، فاذا استراحوا فى مكان ما ذهب اليه ووجه اليه أسئلة ثم يأخذ أجوبتها

منه وهكذا إلى أن يحين وقت الرحيل فيعود إلى زمليه فى راحتله .

وكان أبو القاسم يقول عن تلميذه سحنون بن سعيد انه كان احد الذين يستفيدون بهذه الكتب التى لا يفضل الاستفادة منها طلاب قليلون الا تلميذا سحنون المغربى وقال عنه أيضا، ما قدم الينا أحد من افريقية مثل سحنون وعبد الله بن عمر بن غانم. ورجع سحنون إلى القيروان وقد تزود بزاد كبير من فقه مالك ومعه المدونة فى نصها الاخير، ولما خرج أسد ابن الفرات بجيوشه إلى فتح صقلية عام ٢١٢هـ شاوره أحد الطلبة فيمن يذهب اليه للسماع عنه والاخذ عنه فقال له عليك بهذا الشيخ يعنى سحنون فما أعلم أحدا بشبهه .

ولقد كان سحنون يتحلى بالسلوك الدينى القويم والاخلاق الحميدة بل انه كان يتحرى الدقة فى فتاويه ويسير فى سلوكه الاخلاقى وطرق معيشته وأساليبه اليومية على نهج أهل المدينة وقد قال عنه تلاميذه كان أستاذنا سحنون يلتزم أدب أهل المدينة حتى فى عيشته وكان دائما يقول ما أحب أن يكون عيش الرجل الا على قدر ذات يده .

وقد تولى سحنون بن سعيد القضاء عام ٢٣٤هـ واذ ذاك كانت سنه قد بلغت أربعة وسبعين عاما وبقى فيه حتى مات، بل انه كانت عازفا عن تولى أمر القضاء حتى ألح عليه الامير محمد بن الاغلب كثيرا وقد اختص بأشياء فى قضائه فكان لا يأخذ أجره على قضائه ولا يأخذ رزقا من السلطان ولا يأخذ لاعوانه من كتاب وقضاة تحت ولايته من جزية أهل الكتاب وكان فى قضائه حازما عادلا يضرب الخصوم اذا آذى بعضهم بعضا بكلام، واذا تخاصم اليه العلماء ردهم عن مجلس حكمه .

ويعد سحنون بن سعيد أكبر شخصية قضائية ظهرت فى عصر الاغالبه وتحلت بمزايا تشريعية وفقهية وفكرية وادارية كان لها تأثير على قضاة عصره وبمن أتى بعده من سائر القضاة، وقد وسع دائرة نفوذ القضاء ووضع له نظما جعلته قضاءا مرتبا محكما .

وقد كان ابن سحنون أول من نظر فى القضاء وجعل عليه أمناء وأول من أقام وظيفة الحسبة (الشرطة) وجعل من يتولى تغيير المنكر والامر بالمعروف وانه أول قاض فرق بين أهل البدع من أصحابه المغالات فى الجامع وشرد أهل الاهواء المعتزلة فيه وقد كان فى المسجد بعض الصفرية والازارقة والاباضية والمعتزلة وكانوا يناظرون فيه ويظهرون زينهم وحظر عليهم أن يكونوا أئمة للناس أو معلمين للطلبة .

وهو أول قاض جعل فى الجامع الكبير اماما دائما يصلى بالناس وكان قبل ذلك يصلى الامراء بالناس وأول من جعل الودائع عند الامناء وكانت قبل ذلك فى بيوت القضاة .

ولقد أحس الناس على عهده بالامن والطمأنينة وأحسوا بانتظام القضاء واجراء العدالة اجراء محكما وقد حصل الناس بولايته على شريعة من الحق ولم يل القضاء فى افريقية مثله ولقد كان كل من تولى القضاء قد كسب ود سحنون وكان سحنون سلطانا فى الحق ولما أكثر من رد المظالم وضايق ذلك رجال ابن الاغلب وأبى أن يقبل منهم الوكلاء على الخصومة قلقوا منه وأرادوا اخضاعه لرغبتهم فعجزوا عن ذلك ووقعت له منهم أحداث ابان فيها عن مواقفه الثابتة فى سبيل الحق والعدل .

ولما تولى أحمد بن الاغلب خلفا عن أبى العباسى محمد الاول الامارة فى افريقية، وكانت فتنة الدعوة إلى خلق القرآن منتشرة فى البلاد الاسلامية وقد أخذ بها الخليفة المأمون العباسى وشرع يدعو الناس اليها وأذاع هذا القول ، اذ ذاك أحس سحنون بن سعيد بالخطر ففكر فى وسيلة ينجو بها من القول بخلق القرآن فلم يجد أمامه الا الفرار من القيروان وترك أمر القضاء ثم لجأ إلى بعض الزهاد يختبئ عندهم وطلبه الامراء وعرفوا مكانه فوجهوا اليه شخصا يبغضه ليأتى به وجاء سحنون إلى الامير وجمع له قواده وقاضيه ابن أبى الجود المعتزلى فأجابه أن القرآن كلام غير مخلوق وسار سيرة أحمد بن حنبل فى

ذلك فقال ابن أبى الجود كفر سحنون فأقتله ودمه فى عنقى وقال غيره مثل هذا القول وحبسه الامير ولم يستطع تنفيذ الحكم عليه وتخلص سحنون من محنته كما تخلص ابن حنبل من محنته مع المأمون والمعتصم وتوفى سحنون عام ٢٤٠هـ فتأسف الناس كثيرا لموته ورثاه الفقهاء وغيرهم .

ولقد شهدت الساحة الافريقية (المغرب الادنى) تونس ظهور العديد من الفقهاء والائمة والقضاة والعلماء الذين تولوا مسئولية ترسيخ المفاهيم الاسلامية ووضع اللبنات الاولى لبناء القواعد القوية التى يقوم عليها التشريع الاسلامى والفقه ومسئولية الحكم فى دولة الاغالبة .

ولايتسع المجال هنا للحديث عن هؤلاء العلماء الذين مارسوا تلك الادوار المختلفة وانما نكتفى بالحديث عن أبى سعيد سحنون بن سعيد وأسد بن الفرات على اعتبار انهما الرعيل الأول اللذان شادا صرح البناء الفقهى والشرعى والفكرى والاسلامى فى دولة الاغالبة، وانه يرجع اليهما الفضل الاكبر فى ظهور الجيل الثانى من الرجال الذين مارسوا أدوارهم فى دولة الاغالبة .

ومن هؤلاء القاضى أحمد بن محرز (٢٠١- ٢٢٣هـ) الذى تولى القضاء فى عهد زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب، ثم أبى الوليد عبد الملك ابن قطن اللغوى وكان من أحفظ الناس وأرواهم لانساب العرب وكان شيخا لطلاب اللغة العربية وعلومها وروية فى عصره .

ثم محمد أبو سعيد سحنون بن سعيد (٢٠٢- ٢٥٦هـ) وهو أبو عبد الله محمد أبى الامام المشهور سحنون وكان من أعلام الفقه لانه ارتوى من رواة أبيه من نهل عزب فى الفقه والتشريع وصار اماما ثقه وقد ارتحل إلى المشرق من أجل طلب العلم كما كان يفعل غيره من المعاصرين وقد امتاز محمد بن سحنون بكثرة التأليف حتى لقد قيل انه

ألف مائتى كتاب وقد نبغ محمد بن سحنون فى العلوم الدينية وغيرها نبوغا مبتكرا فكان فى عهد أبيه يستقل بحلقة تدريسه يقوم فيها بالتدريس وكان يشد اليه الطلاب بسحر بيانه وقد كان حجة فى المبادلة والمناظرة. وقد وقعت بينه وبين الامير الاغلبى جفوة استغلها خصومه من المعتزلة وغيره من العراقيين وتحرشوا به لكن عندما عاد الود بينه وبين الامير الاغلبى احفق خصومه فى الحاق الاذى به. وقد توفى محمد بن سحنون عام ٢٥٦هـ ففزع الناس بوفاته وآلمهم مصابه كثيرا واحتشدوا حول قبره ورثاه كثيرون من الفقهاء والعلماء والشعراء .

كذلك يوجد إلى جانب هؤلاء محمد بن ابراهيم بن عبدوس وكان أماما فى الفقه على المذهب المالكى وكان ثقة وجه متواضعا ورعا وألف كتابا فى الفقه أسماه «المجموعة فى فقه مالك وأصحابه» .

ثم غيره من العلماء والفقهاء أبو العباسى عبد الله بن أحمد بن طالب التميمى ويعود فى نسبه إلى أغالبة القيروان وقد تتلمذ ودرس الفقه على يد سحنون بن سعيد وكان من كبار أصحابه والملازمين له ثم ارتحل إلى مصر ودرس بها وأخذ عن «محمد بن عبد الكريم» و «يوسف بن عبد الاعلى» ثم رجع إلى القيروان وتولى القضاء مرتين فى عام ٢٥٦هـ/ ٢٦٧هـ. وكان له تلاميذ كثيرين منهم أبو العرب وابن العباد وهو أبو بكر محمد بن محمد عادلا فى قضائه حازما فى جميع أموره فقيها ثقة عالما بالمسائل الفقهية وكان نشيطا مدافعا عن مذهب الامام مالك وألف فى ذلك كتابا هو كتاب «الرد على من خالف مالك» وألف كثيرا فى الفقه وكان شجاعا لا يخاف الولاه ولا يرهب الامراء، وقد توفى فى عهد الفاطميين عام ٢٩٦هـ .

ثم غيره الكثير من الفقهاء والعلماء فى العصر الاغلبى ومنهم أيضا «أبو جعفر أحمد بن وازن الصواف» المتوفى عام ٢٩١هـ وهو من الذين تتلمذوا على يدى الفقيه

الاول لتونس أبى سعيد سحنون وسمع عنه واستفاد من تجاربه وحكمه فأخذها عنه وقد كان إلى جانب تبحره فى الامور الفقية ذواقا للادب وفى قرض الشعر حتى انه يمكن القول انه كان من الشعراء القلائل فى تلك الحقبة الزمنية فى تاريخ الأغالبة .

وكذلك «أبو يحيى عاد بن يحيى» ويعرف بالسجلماسى نسبة إلى مدينة سجلماسة فى الجنوب الغربى من المغرب وقد سمع هذا عن سحنون وغيره من فقهاء العصر والذين منهم «عبد الله بن أبى بكر السلمى» وعبد الملك بن الماجثون وقد نقل فقه ذلك الرجل إلى مدينة القيروان وكذلك سمع أيضا عن سحنون وكان شيخا صالحا وقد أخذ عنه أصحاب سحنون وتختتم تلك الفترة بالحديث عن آخر فقهاء عصر الاغالبة الذين اشتهروا فى ذلك الزمان وان كان كتاب طبقات علماء افريقية لمؤلفه «أحمد بن محمد الطلمتكى» وكذلك كتاب «معالم الايمان» وأن كنا قد ركزنا على تلاميذ سحنون الذين أخذوا عنه ومنهم أيضا «أبو زكريا يحيى بن عمر الاندليى» وقد أخذ هذا كغيره من التلاميذ السابقين عن سحنون ثم رحل إلى المشرق حيث مصر والمدينة والشام وأخذ عن علماءتلك الاقطار ثم عاد إلى القيروان وأشرقت بها منزلته عند العامة والخاصة ورحل اليه الناس ليروا المدونة والموطأ ثم سافر إلى تونس وكان متقدما فى الحفظ ولا يحيد عن فتوى أفتى بها من قبل وقد نقده البعض بالقول أن هذا يدل على ركود النظر وقلة العمق الفكرى والاقتصار على الحفظ وقد رأس القضاء فى تونس ونال حظا لدى أمرائها الا أن الاحناف العراقين قد تضايقوا منه ولما صار ابن هارون الحنفى قاضيا بها ابتعد عن الجو العام .

هذا عن الحديث عن قلة من فقهاء وعلماء المالكية الذين أثروا فى الحياة الفقهية فى عصر الاغالبة وكان لهم دور هام الا أن ذلك لايعنى أن عصرهم قد اقتصر على علماء المالكية فقط ولكن كان يوجد إلى جانبهم علماء فى المذهب الحنفى وهم أسد بن الفرات

وان كان ذلك لايمنع انه كان يأخذ بالمذهب المالكى إلى جانب الحنفى وقد نبغ منهم جماعة وهم الذين عملوا على نشر المذهب الحنفى وتقربوا إلى الامراء الاغالبة ومنهم ابن أبى الجود وسليمان بن عمران وغيرهما .

الا أن مذهب أبى حنيفة لم يجد قبولا لدى المغاربة حيث ابتعدوا عنه نظرا لقلة اعتماده على الحديث واعتماده على الرأى والاجتهاد متأثرا بالمدارس الفارسية فى التفكير الحر وبدأ المذهب الحنفى ينزوى جانبا نظرا لسيطرة المالكية على مقاليد الامراء على الرغم من أن الدولة العباسية بالمشرق كانت تعرف أصحاب المذهب الحنفى والذين كان الامراء الاغالبة يستمدون النفوذ منهم وذلك بالسير على سيرتهم وتقريب زعماء المذهب الحنفى اليهم لكن هؤلاء الفقهاء ورغم تقرب الامراء لهم لم يكونوا فى كثرة المالكية ولايلقوا نفوذا كنفوذهم الذى اكتسبوه من مؤازرة جمهور الشعب المغربى الذى كان يؤثر المذهب المالكى على غيره وبفضل مذهب مالك وتمسكه بالكتاب والسنة، اشتد كره أهل افريقية لغيره من المذاهب الاخرى واشتد سلطان الفقهاء المالكية المغاربة فى الحياة الثقافية والدينية بحيث اننا نجد خصومات ومنافسات بين الفقهاء المالكين والحنفيين لدرجة أن المالكية أفتوا بتكفير الحنفية وبأنه لا يصلى عليهم ولاتشهد جنائزهم ولا يصلى خلفهم ولا يروى عنهم حديث انما يقاطعون سلبيا وايجابيا وأصبح من تقاليد المالكية الابتعاد عن مصاحبة الامراء وعدم تولى القضاء والبعد عن مناصب الافتاء .

وتمكنت تقاليد المالكية فى نفوس المغاربة وفى مدارس القيروان وافريقية ووقفت للمذاهب الاخرى بالمرصاد حتى لقد وصل إلى التنكيل بهم أحيانا فى العصر الاغلبى .

ولما انتشرت فى مدارس افريقية محنة خلق القرآن وآراء المعتزلة كان المالكيون أشد الناس حربا عليهم وأكثرهم عنفا فى مقاومتهم وتمسكوا بالكتاب والسنة حتى هزموا المعتزلة ولم يبق لهم بالقيروان رأى ولا أتباع ولم يجد الامراء مفرا من النزول على رأى

المالكية .

وهكذا انتصر المذهب المالكى انتصارا عظيما فى عصر الاغالبة وكانت مقاطعة المالكية للامراء وعدم السير فى ركابهم وأخذهم باليأس والشدة أمر محببا إلى المغاربة الذين عرفوا فى طوال تاريخهم بالنزعة الاستقلالية وميلهم إلى الخروج على كل سلطان أجنبى يفرض عليهم فوجدت دعوة المالكية فى نفوسهم صدى محببا يرتاحون اليه وأصبح هؤلاء الفقهاء المالكيون فى نظر المغاربة الزعماء الذين يدافعون عن الضعفاء ويعارضون الحكام ويستشهدون فى سبيل العقيدة، ومن هنا فقد أمعن المغاربة فى تمسكهم والمحافظة على مذهبهم المحبب فمن كان مالكيا قبلوه وأحبوه ومالوا اليه ومن كان غير ذلك حاربوه دون رحمة وبهذا غلبت على المغاربة النزعة المالكية الدينية بوجه خاص فجعلتهم لا يعرفون من الدراسات الاسلامية الا هذه الناحية يقبلون عليها ويتعصبون لها .

أما بعد أن استولى الشيعة الفاطميون على مقاليد الامور فى المغرب منذ عام ٢٩٦هـ فان الوضع قد تغير قليلا فعاد أولئك الفقهاء الذين كان بينهم تنافس مذهبى أخوة متآزرين وحدت بينهم الشدة وأزالت من قلوبهم البغضاء واضطهادات دعاة الشيعة وذلك لان الفاطميين الشيعة عندما أقاموا دولتهم فى افريقية وجدوا فى بيئة افريقية ثقافة اسلامية موطدة وثقافة دينية ثابتة الجذور ورأوا شعب افريقية كله متكتلا خلف فقهائهم المالكين يهتدون يهديهم ويأتمرون يأمرهم فرأوا انه لا نجاح لدولتهم ولابقاء لها الا بمحاولة التغلب على هذه الوطنية المغربية الدينية فلجأوا إلى مثل هذا فى القيروان وتوسلوا بالمناظرة وعقدوا المجالس وجلبوا أئمة المالكية وأخذوا يجادلونهم ويناقشونهم فلم يعتنقوا مذهبهم وأعدقوا المال والجاه فلم ينفع المال أو الجاه فانقلب الفاطميون إلى طغاة مستبدين يستعينون بالعنف والشدة ولم تجد هذه الوسائل وسيلة لوقف انتشار المذهب المالكى وصمود رجاله فى وجه الفاطميين كرجل واحد واعتبروا الفاطميين زنادقة ونادوا بقتلهم

حيث وجدوا وأعلنوا عليهم المقاطعة السلبية لا يصلى فى مساجدهم ولا تدفع لهم الاموال ولا يتعاون معهم .

وكان هذا سببا من أسباب محاولتهم فتح ميدان جديد بالاتجاه صوب مصر اذ تضافرت ضدهم جميع القوى المتحكمة فى مصير المغرب .

وهكذا كان عصر الاغالبة (١٨٤– ٢٩٦هـ) هو العصر الذى وضحت فيه تعاليم المذهب المالكى وتأثرت بتعاليمه الامة المغربية التى وجدت فيه الملاذ الذى يحميها من كل التيارات الدينية الاخرى. وهكذا أدى الاغالبة دورهم فى الحفاظ على مذهب الجماعة والسنة ومحاربة غيره من المذاهب الاخرى .

الاغالبة والدور الاقتصادى

لقد شهد عصر الاغالبة تقدما اقتصاديا ملحوظا اذ ازدهرت الحياة الاقتصادية فى افريقية ازدهارا كبيرا لم تشهده منذ القرن الثالث الميلادى، فقد وفر لها الاغالبة الامن الذى افتقدته وقتا طويلا وفى ظل هذا الامن أقبل السكان على أعمالهم فزادت المحاصيل الزراعية وعمرت الارض بالزراعات المختلفة وكذلك زرعت أرض لم تكن عامرة وكانت تبدو شبه صحراوية فقد عمرت المنطقة الممتدة بين مدينة قمودة والساحل بأشجار الزيتون والنخيل وانتظمت المنطقة الساحلية بالقرى والبساتين وبخاصة الكروم التى كان يصنع منها ومن أعنابها النبيذ، كما كانت المنطقة الواقعة إلى الشمال من قمودة مركز انتاج الحبوب والقمح .

كما تقدمت الصناعة وبخاصة صناعة الآلات الحديدية اللازمة للسفن والسيوف والدروع والسروج واللجم وصناعة التحف المصنوعة من الذهب والفضة وصناعة الزجاج وكذلك صناعة النسيج وإلى سوسة نسبت الثياب السوسية الرفيعة ذات البياض الناصع،

كما ازدهرت التجارة وبخاصة فى القيروان حاضرة الاغالبة ازدهارا عظيما فكثرت فى يد أهلها الاموال بسبب التجارة .

وكان الناس يزرعون كثيرا من الزيتون والقمح والفول والشعير وكانت المزارع متسعة آمنة ونسمع كثيرا عن المحاصيل وأسعارها فى القيروان وتونس وقد اشتهرت افريقية فى ذلك العصر بالزيتون والفواكه ونخرج من ذلك بأن الحالة العامة كانت رخاء ووفرة، كذلك فان مصانع النسيج كانت نشيطة وزاهرة فى مدن افريقية كلها، بل أن افريقية رغم كل شئ كانت تسير فى طريق تقدم فكرى ومادى محسوس .

ومما يدل على تقدم الحالة الاقتصادية وتطورها أن خراج افريقية قبل عصر الاغالبة كان مائة وأربعين ألف دينار وهو مبلغ زهيد جدا ولكن ابراهيم بن الاغلب اجتهد فى استخراج مال كثير من أفريقية حتى بلغ ايراده فيما يقال نحو مليونين من الدنانير فى السنة وهذا الفارق الكبير بين ماكان الولاه يرسلونه من افريقية إلى الخلافة فى بغداد يعطينا فكرة واضحة عن التقدم والازدهار الاقتصادى التى بدأ يدب فى جسم الدولة فى عصر الاغالبة ولقد عمل الاغالبة دفعا للدور الاقتصادى وتطوره وازدهاره على العنايه ببناء صهاريج المياه، وصيانتها لاستخدامها فى الزراعة والسقى وكذلك انشاء المواجل وهى أحواض مياه واسعة وعميقة تشبه الفسقيات ويتجمع بها ماء المطر .

كذلك شهدت كل مدينة من مدن دولة الاغالبة قيام الاسواق واتساع الاحياء وازدياد حركة النشاط التجارى وتطور المراكز التجارية والتى كانت منها أسواق كبيرة تصدر منها القوافل إلى بلاد السودان جنوبا عبر الطرق الصحراوية .

الا أن جل عناية الاغالبة كان بالناحية الزراعية فقد أولوها الاهتمام الزائد لذا أقاموا كثيرا من الخزانات والقناطر وحفروا الترع فنعمت أفريقية بكثير من الرفاهية وكانت جزية الارض (الزكاة والعشور) أهم مصادر ايراداتهم وكانوا يحرصون على جمعها نقدا، كما

وضعوا المكوس على التجارة فى الاسواق .

ولقد كان من الاسباب القوية لهذا التطور الاقتصادى أن الاغالبة نجحوا فى اقامة حكومة مستقرة يسير نظامها الادارى على نحو ما سار نظام بغداد وكان لهم الوزير إلى جانب الامير وأن كانت سلطته اسمية كما كان هناك ديوان الجيش الذى يرأسه القائد العام وديوان البريد واليه أوكلت مهمة جمع الاخبار من الاقاليم لرفعها إلى الامير فى سرعة واحكام. وذخرت تلك الدولتان بالكثير من الموظفين من ذوى العلم الواسع وسار الاغالبة على النظام غير المركزى فسمحوا لولاتهم بنصيب كبير من حرية التصرف وأن حرصوا دائما على تفضيل العرب لشغل المناصب الرئيسية فى البلاد وليس ذلك نوعا من التمييز لكن ذلك لضمان نوع الولاء والثقة والقدرة على ادراك عواقب الامور .

الاغالبة والعمارة

لقد أبدى الاغالبة بدءا من مؤسس الاسرة ابراهيم بن الاغلب عام ١٨٤هـ إلى زيادة الله الثالث ٢٩٦هـ اهتماما زائدا بالابنية والمنشآت المعمارية فقد كان لهم دور كبير فى تطوير جامع القيروان وانشاء الاسواق فى القيروان وتونس وتنظيمها وكذلك تجديد مسجدى القيروان وتونس الجامعين وهما مسجد «عقبة بن نافع» ومسجد الزيتونة واعطائهما صورتهما الباقية إلى اليوم عملا من أعمال الاغالبة المعمارية الخالدة. وقد تعاقبت على مسجد القيروان أعمال التجديد منذ بناه «عقبة بن نافع الفهرى» بناءا متواضعا ثم قام بتجديده «حسان بن النعمان» وأكمله «حنظلة بن صفوان» ولكن الذى أعاد بناءه كله ورفع قبابه وجدد مئذنته وأعطاه صورته الحالية هو «زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب» ثالث أمراء بنى الاغلب فقد أنفق عليه مالا كثيرا طوال سنوات حكمه وإلى زيادة الله تنسب أعمال ضخمة فى جامع تونس الذى كان «عبد الله بن الحبحاب» أول من بناه عام ١٤٤هـ/ ٧٣٢م. ولكن ذلك المسجد لم يكتمل الا على يد «أبى ابراهيم

بن أحمد» سادس أمراء بنى الاغلب فهو الذى أعطاه صورته البديعة وأمر ببناء قبابه المغلفة ووضع فيه أعمدة الرخام وزينه بالزخارف والنقوش والكتابات الكوفية الجميلة وهو الذى أمر ببناء القبة الكبيرة فى جامع القيروان وهى من أجمل القباب فى تاريخ المساجد .

وبنى الاغالبة الاربطة وكان كل رباط أشبه بمدينة صغيرة تحوطه الاسوار العالية التى تقوم بمهمة الدفاع ليقوم فى وسط الرباط المسجد بمنارته العالية التى تقوم بمهمة الدفاع ليقوم فى وسط الرباط المسجد بمنارته العالية وهذا يدل على اهتمام الاغالبة بالعمارة فى تونس اهتماما كبيرا وأهم آثارهم الباقية مسجد القيروان العظيم الذى اختطه عقبة ابن نافع عام ٥٠هـ وزاد فيه الاغالبة زيادة عظيمة وكذلك جامع الزيتونة بتونس وهو الجامع الذى يقوم بالمهمة العلمية التى يؤديها الازهر فى مصر فهو جامعة علمية قديمة حفظت التراث الاسلامى ومازال حتى الآن يؤدى مهمته السامية وقد رجعت عظمة هذا المسجد لعصر الاغالبة. كذلك أنشأ الاغالبة مسجد سوسة وسورها ورباطها المشهور وكذلك هم الذين أنشأوا مدينة العباسية وقام أبو العباسى محمد بن الاغلب ببناء مدينة قرب تاهرت عاصمة بنى رستم سماها العباسية عام ٢٣٩هـ لتقف فى وجه الرستميين وتجذب الانظار عنهم وتحتل مكانة عاصمتهم تاهرت لذا لم يدخر أبو العباسى محمد بن الاغلب وسعا فى تزيين أسواقها وتنسيقها أجمل تنسيق وهذا ما يفسر أهمية السبب الذى أقيمت بادئ ذى بدء حربا على سياسة ابن عبد الوهاب الذى سالم جيرانه الاغالبة بادئ ذى بدء حربا على سياسة والده عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، الا أنه رأى أن اقامة العباسية تهديد مباشر لسلامة الدولة الرستمية وأمنها فما كان منه الا أن سكت حتى أتم أبو العباسى محمد بن الاغلب بناءها ونظم أسواقها، فهجم عليها أفلح وأجلى عنها سكانها ثم أضرم بها النيران وأحرقها عن آخرها ولم يكن فى استطاعة ابن الاغلب أن يفعل شيئا للرد على أفلح بن عبد الوهاب ومن ثم آثر السلامة ولاذ بالصمت

وقد كان هدمها فى عام ٢٣٩هـ وقيل ٢٣٧هـ .

وكذلك أنشأ مدينة رقادة واهتموا ببناء المراجل وهى خزانات المياه يتجمع فيها المطر للشرب عند الحاجة وقد أبدوا اهتماما كبيرا بالخزانات والقناطر وبالجملة فقد كان عهد الاغالبة عهد عمران ورخاء فى تونس .

ولقد تطورت الرباطات فلم تلبث أن خرجت عن وظيفتها لتصبح مدارس يقصدها الطلاب من أجل دراسة الفقه والحديث. وقد عمل الاغالبة على التودد إلى مصر فعملوا على حفر سلسلة من الآبار حتى أصبح الطريق الساحلى الشمالى مأمونا للتجار .

وكان الذى بنى جامع سوسة هو أبو العباس محمد بن الاغلب خامس أمراء الاغلبة ويعتبر هذا المسجد من أجمل الآثار المعمارية الاسلامية فى افريقية أما رباط سوسة المسمى بقصر الرباط فهو من أجمل قصور العبادة والرباط فى افريقية وكان من انشاء زيادة الله بن الاغلب ويسمى قصر الرباط .

وكانت عناية بنى الاغلب بالمنشآت العسكرية والمدينة لا تقل عن عنايتهم بالمنشآت الدينية فقد أنشأوا الكثير من الاسوار والابراج للمدن وخاصة ما وقع على الساحل منها. ويذكر أن عصر الاغالبة قد شهد بناء دارين عظيمين للصناعة أحدهما فى تونس والآخر فى سوسة وكان لهم دور هام فى النشاط البحرى الاسلامى فى البحر المتوسط .

ولقد كان من نماذج المنشآت العسكرية فى عصر الاغالبة الرباطات وهى شبيهة بالقصور ولكنها كانت مخصصة للمجاهدين والمرابطين ما بين أفراد يدفعهم التقى والورع إلى التطوع للجهاد وحاميات رسمية ولكن الغالب أن الرباط كان للافراد أما الجند فكانت تبنى لهم المعسكرات .

وكان رباط سوسة من أهم الرباطات فى عصر الاغالبة فهو شبيه برباط المتستر وهو

أقدم منه وأجمل من ناحية الهندسة وقد تضخم هذا الرباط حتى أصبح أشبه بمدينة فيها المساكن الكثيرة وفى الرباط طابقان يخصص الدور الثانى للحراسة والاول للعبادة وفى العادة يكون للرباط شيخ من أهل الصلاح هو الذى يتولى تنظيم وتيسير أمور العبادة والحراسة .

ولقد كان يحيط بالرباط عادة سور مرتفع تقوم على أركانه وعلى مسافة منه أبراج يقف فيها الحراس وتوقد بها النيران وقت الخطر وقد بقى لنا من رباطات الاغالبة رباط سوسة السابق الاشارة اليه وهو من بناء زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب ثالث أمراء الاغلبة وهو داخل سور المدينة من ناحية البحر .

وقد بنى ابراهيم بن الاغلب قصره القديم على نحو ستة كليو مترات جنوبى القيروان لتكون معسكرا لجنده ومقاما له ومعقلا لاسرته وكانت المدينة تتكون من قصور وحدائق ومعسكرات وأماكن للعبادة .

وهكذا نرى أن الاغالبة قد تركوا بصماتهم فى كل مجال من مجالات الحياة وضربوا بسهم وافر فى المجال الفكرى والثقافى والفقهى وكان لهم الدور الاكبر فى رسوخ مذهب الامام مالك بل انهم شجعوا الحركة الفقهية وبذلوا أقصى ما وسعهم البذل فى سبيل القضاء على المذاهب الاخرى التى كانت تسود الساحة المغربية كالاباضية والازارقة والصفرية والمعتزله وغيرها من الافكار والمذاهب الاخرى .

وهكذا كانت دولة الاغالبة ومضة مضيئة فى تاريخ المغرب ساهمت كما ساهمت الدول الاخرى المعاصرة لها كالادارسة والرستميين فى اضفاء الصبغة العربية الاسلامية على تلك الاقطار .

ونكتفى بهذا القدر عن الحديث عن الاغالبة ونترك فصل العلاقات الخارجية مع الدول المعاصرة إلى الباب الاخير فى تلك الدراسة عند الحديث عن علاقات الاغلبة مع

الادارسة وبنى رستم ومع غيرها من الدول الاسلامية الاخرى (راجع محمود اسماعيل عبد الرازق: الاغالبة، سياستهم الخارجية) القاهرة، ١٩٧٢ .

وهذه لمحة مختصرة عن دولة الاغالبة أردنا بها القاء بعض الجوانب على هذه الدولة عملا على تقديم كل ما يهم القارئ عن تاريخ المغرب العربى من خلال هذه الموسوعة السداسية الاجزاء التى تشكل مسيرة عشرة قرون متكاملة فى تاريخ المغرب ثم ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن دولة الادارسة لتكون خاتمة المطاف فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة انطلاقا بعدها إلى الاجزاء الاخرى .

الباب الثامن

دولة الادارسة

(١٧٢ – ٣٠٥هـ – ٧٨٨ – ٩١٧م)

لقد حاول المؤرخون الغربيون دراسة تاريخ المغرب الاسلامى العربى دراسة طابعها التعصب ومحاولةمحو عروبة المغرب الاسلامى وفصله عن بقية جسم الامة العربية الاسلامية ومن هنا فان دولة الادارسة التى كانت احدى الولايات العربية الاسلامية التى ظهرت فى تاريخ المغرب العربى لتنم عن الاصالة المغربية العربية الاسلامية ودور المغرب الحضارى المؤثر فى التاريخ الاسلامى .

ولقد كانت دولة الادارسة التى نشأت على أرض المغرب الاقصى عام ١٧٢هـ/ ٧٨٨م والتى لعبت دورا كبيرا فى حياة المنطقة وجعلت له شخصية مميزة وأدمجت سكانه فى ظل مجتمع متجانس ذلك المجتمع المغربى الذى شارك بقية المجتمعات العربية الاسلامية فى وضع أسس الخضارة الاسلامية فى ذلك الجزء الغربى من الامة العربية .

والمغرب الاقصى من المناطق ذات الوحدة الجغرافية التى يمكن أن تقوم فيها وحدات سياسية متماسكة ذلك لانه ينقسم إلى ثلاثة أقاليم هى اقليم الساحل الشمالى المعروف تاريخيا باقليم طنجة ويشمل الشريط الساحلى الشمالى ثم منطقة الريف الجبلية وهى ليست فرعا من جبال الاطلس وانما هى فرع من الجبال الايبيرية ويتبعها السهل الواقع جنوبى جبال الريف ويعرف باقليم المحيط أو اقليم ازعان. والمنطقة الثانية حوض نهر سبو ويشمل الجزء الشمالى من ساحل المغرب الاقصى المطل على المحيط الاطلسى وهو سهل فسيح يمتد جنوبا حتى يصل إلى حوض وادى بوزجزخ أو أبو الرقراق. ويشمل جزءا كبيرا من السفوح الغربية لجبال الاطلس. وهنا نجد المهد الحقيقى لتاريخ المغرب العربى

الاسلامى وتلك هى المنطقة الثانية .

وعلى هذا فقد كان المغرب الاقصى الذى هو جزء من المغرب العربى من حيث موقعه وطبيعته الجغرافية وسكانه مشجعا للتفكير فى قيام ولايه أو ولايات اسلامية بعيدا عن مقر الخلافة الاسلامية، ولقد قامت الحياة السياسية فى المغرب الاقصى أولا فى الشمال حتى منطقة طنجة حيث نجد مركز الوالى العربى الذى كان يحكم هذه الناحية ويحاول أن ينشر سلطانه فيها ولكن قبائل برغواطة وغمارة التى كانت تسكن هذه المنطقة الجبلية ظلت متمسكة بمذاهب دينية منحرفة عن الاسلام عرفت بزندقة برغواطة وكانت هذه الاخيرة ومن يتبعها تهدد كل القبائل المغربيه الأخرى مما حدا بهذه القبائل كلها البحث عن زعيم يجمع شملها ويوجد كلمتها ويدفع بها للعمل سويا لتكوين دولة تقوم بمحاربة برغواطة ومذاهبها وتساعد هذه القبائل على انشاء كيان سياسى ليؤمن مصالحها ويمكن لها من الوصول إلى الرياسة .

ومن هنا فقد كانت الظروف ملائمة ومهيأة لتولى زعامة سياسية دينية فى شمال المغرب الاقصى، زعامة تمكن القبائل البرنسية هناك من الخلاص من سلطان برغواطة أولا ثم تمكن لها الاخرى من انشاء دولة وكيان سياسى أى دخول ميدان التاريخ .

وعلى هذا فقد كانت كل هذه العوامل السابق الاشارة اليها مشجعا للامام ادريس الاول على أن يلجأ إلى المغرب الاقصى ويؤسس فيه دولته حيث كان موقعه متطرفا بعيدا عن السلطة المركزية فى بغداد وقد شجع هذا الموقع الامام ادريس بن عبد الله على الالتجاء إلى هذا المكان، ذلك لان جبال الاطلس تقوم حاجزا بين المغربين الاوسط والاقصى ولكن هناك ممرا واسعا بين الجزء الشمالى من جبال الاطلس وجزئها الجنوبى وهذا الممر يعرف بممر تازا وهو من المواقع الحاسمة بالنسبة لتاريخ المغربين الاوسط والاقصى ومن يسيطر على ممر تازا يسيطر على الطريق الرئيسى المؤدى من الجزائر إلى المغرب الاقصى .

وقد سبق الامام ادريس مؤسس دولة الادارسة الافادة من هذا الموقع المتطرف دعاة الخوارج الفارين من بطش الخلافة الاموية والعباسية على أن يلجأوا إلى تلك الاماكن القاصية ليبثوا دعوتهم فيها ويحققوا نجاحا لم يتيسر لهم بالقرب من مقر الخلافة .

ولقد ارتبط الوضع السياسى فى المغرب الاقصى وما دار فيه من أحداث منذ الفتح الاسلامى حتى قيام دولة الادارسة ثم ارتباطه بمنطقة المغرب عامة فهو جزء من المنطقة التى أطلق عليها العرب لفظ مغرب عند بدء الفتح. وقد قام المغرب الاقصى بدور فعال فى مجريات هذه الاحداث وظهرت شخصيته واضحة المعالم وكانت الظروف السياسية التى مر بها عملا قويا فى قيام دولة الادارسة فى هذه البقعة من أرض المغرب .

ولقد كان المغرب الاقصى اقليما عربيا اسلاميا يتفاعل مع بقية الاقاليم الاسلامية ويتأثر بما يحدث فى عاصمة الخلافة العباسية بل أن الفتن المتكررة التى حدثت من الخارجين على الخلافة فى المشرق كانت من الاسباب المشجعة على ايقاظ روح الثورة والتمرد عند البربر، بل انه من التوافق أن تحدث ثورة علوية هامشية فى الكوفة بقيادة «يزيد بن على بن الحسين» وابنه «يحيى» فى الوقت الذى تقوم فيه ثورة عارمة بالمغرب الاقصى بقيادة «مسيرة» .

وبالرغم من أن دوافع قيام الثورتين مختلف عن بعضها الآخر الا انه يجمعها العداء المشترك لحكم بنى أمية وتعسفهم ومما يؤكد ذلك أن الذين قاموا بالثورة فى المغرب الاقصى حاولوا اصلاح الاوضاع بالطرق السلمية قبل أن يعلنوا ثورتهم المسلحة وقد انفصل المغرب الاقصى عن الخلافة الاموية بقيام هذه الثورة التى أشعلها «مسيرة» وبذلك وضحت شخصية المغرب الاقصى الاسلامية حيث قام البربر المسلمون بثورتهم على الولاه، كما أن ظهور شخصية المغرب واستقلاله سبق استقلال اقليمى المغربين الآخرين وهما المغرب الادنى والاوسط وذلك لبعده عن مقر الخلافة .

على أن الاستقلال السياسى للمغرب الاقصى وما صحبه من قيام امارات مستقلة فى أحد أجزائة قد دخل مرحلة جديدة بعد عام ١٢٣هـ/ ٧٤١م فبعد أن كان المغرب الاقصى موطنا للثورة أصبح المغرب الاقصى مستقلا ومصدر عون لغيره من الثوار البربر مشاركا لبقية سكان المغرب فى الثورة على الخلافة .

وبذلك أصبحت الخلافة تحرص أتم الحرص على المغرب الادنى بعد أن فقدت سيطرتها تماما على المغرب الاقصى ثم بعد ذلك فقدت سيطرتها على المغرب الاوسط أثر قيام دولة مستقلة فيه هى الدولة الرستمية فى عام ١٤٤هـ/٧٦١م (سبق الاشارة إلى تلك الدولة تفصيلا فى الجزء الثانى من هذا البحث) .

غير أن هذه الانتصارات التى نالتها الخلافة العباسية فى المغرب الادنى لم تنل من الاستقلال السياسى الذى تمتع به المغرب الاقصى منذ أواخر الدولة الاموية وفضلا عن ذلك لم يكتف المغرب الاقصى منذ أواخر الدولة الاموية باستقلاله بل انه تابع سياسة مساندة الحركات الانفصالية الاخرى التى انتشرت فى المغرب عامة وذلك بعد أن اعتفق كثير من سكان المغرب الاقصى مذهب الصفرية .

وهكذا يبدو أن الخلافه العباسية قد صرفت النظر نهائيا عن المغرب الاوسط والاقصى وأن حرصها كان منصرفا إلى محاولة الاحتفاظ بالمغرب الادنى (افريقيه– دولة الاغالبة) لمحاولة احتوائه تحت سيادة الخلافة العباسية، وهو ذلك الحرص الذى استغرق سنوات طويلة تخللتها حروب متوالية وبذلك لم يتطلع الولاه إلى المغرب الاقصى وزاد فى عدم تطلع الولاه العباسيين إلى المغرب الاقصى ظهور دويلات مستقلة جنوبية وشرقية ففى الجنوب نجح الصفرية فى دولة سجلماسة بعد أن أسسوا مدينتهم التى عرفت بهذا الاسم «سجلماسة»، أما فى شرق المغرب الاقصى فقد قامت الدولة الرستمية وذلك بعد أن أسس عبد الرحمن بن رستم مدينة تاهرت عام ١٤٤هـ/ ٧٦٢م. وبذلك يكون أباضية المغرب

الاوسط دولتهم الرستمية مما شكل عائقا صعبا فى وجه ولاة المغرب الادنى فى أن يتطلعوا إلى استرداد المغرب الاقصى، بل انه إلى جانب قيام دولة سجلماسة الصفرية ودولة الرستميين الاباضية (كلتاهما من الخوارج) فقد نشأت تجمعات للصفرية فى المنطقة المحيطة بتلمسان، ومن هنا فانه يمكن القول بناء على هذا الوضع السياسى الذى غير خريطة المغرب السياسية أن تلك المراكز التى كانت تضم دولة بنى رستم وامارة تلمسان ومنطقة الجنوب فى سجلماسة كانت مراكز مقاومة قوية بل عنيفة ضد أيه محاولة تقوم بها الخلافة العباسية لاسترداد المغرب الاقصى ومن هنا فان المغرب الاقصى أو أى نظام سياسى يظهر فيه بصورة قوية ومؤثرة قد ضمن استقلاله عن الخلافة العباسية وانه يستطيع أن يعيش بعيدا عن الجيوش العباسية. ومن تم فان هذه الظروف السياسية مجتمعة أكسبت المغرب الاقصى مهد دولة الادارسة حرية سياسية هذه الحرية السياسية اتخذت شكل الحكم القبلى حتى مجئ الامام ادريس الاكبر إلى هذه المنطقة وقد ظهر الحكم القبلى فى صورة سيطرة القبائل القوية على البقعة التى تعيش فيها وعلى من جاورها من القبائل التى كانت سندا وقوة وبذلك أصبح المغرب الاقصى يتمتع بشخصيته المميزة اذ انه كان يخضع لحكم أبنائه الذين مارسوا نفوذهم على مدينة «وليلى» وما جاورها من القبائل بجانب سيطرة قبيلة «أوربة» على هذه المنطقة كانت هناك سيطرة أخرى فى منطقة قبيلة المصامدة فى تأسيس اماره برغواطة التى استقلت بهذه المناطق وبهذا عاش المغرب الاقصى منذ ثورة «مسيرة الفقير» بيئة صحية وصالحة لقيام الدولة العلوية الجديدة ومشجعا للامام ادريس بن عبد الله على الالتجاء إلى تلك الديار وتأسيس دولة الادارسة .

ولعل من أهم رواسب ثورات الخوارج قيام امارة المولى ادريس العلوى الذى احترمه حتى خصومه من الاغالبة التونسيين وبنى رستم والأمويين فى الاندلس والخلافة العباسية فى بغداد لقرابته من الرسول ﷺ ودوره فى استقرار المغرب الاقصى ولقد كان من عادة

أمراء البربر الاستناد إلى قبيلة قوية كما نجد فى كسيلة مع قبيلة أوربة والكاهنة مع جراوة والفاطميين مع كتامة والمرابطين مع صنهاجة والموحدين مع مصمودة وكومية، فان المولى ادريس لم تحتضنه قبيلة واحدة بمفردها بل احتضنته مجموعة من القبائل وقد ذكرها ابن خلدون وهى قبيلة «زراغة، وزناتة»، وسدراتة، وقيامة، ونفذه، ومكناسة وعمارة وجميع القبائل الاخرى التى كانت تستوطن المغرب مثل أوربة ومطفرة التى ساندت مسيرة من قبل. ومغيلة الجزائريه هذا علاوة على بنى يقرن ومغراوة أى مجموع الكتلة الزناتية من فاس إلى نهر الشليف الجزائرى ولم يكن مع المولى ادريس سوى بضع مئات من العرب اخترق بهم تامسنة إلى تادلة إلى الاطلس الكبير بينما اتجه الاغالبة التى تنشر الاسلام وحضارته فى صقلية وهذه هى المرة الاولى التى تطأ فيها أقدام ادريس تراب هذه الناحية من جنوب المغرب ومن هنا فان تاريخ المغرب الاقصى يبدأ بفترة قيام دولة الادارسة والتى انفتح المجال بعدها واسعا لقيام دولة اسلامية أخرى. وقد قامت دولة الادارسة تحت شعار العروبة والاسلام ولم يكن فى قيامها أى مظهر مقصود من وجود روح انفصالية عن الدولة الاسلامية انما هو أحقية العلويين بالخلافة من أبناء عمومتهم بنى العباسى وكان ذلك دافع الامام ادريس بل أن ادريس لم يكن يقصد العمل على ظهور مبدأ الروح الانفصالية بين العرب الذين هو من أشرافهم وأهاليهم وبين البربر الذين قامت على أكتافهم دولته وقبل الدخول فى تفاصيل دراسة أسرة الادارسة ودولتهم فاننا نريد أن نوضح أن الدولة الادريسية دولة علوية هاشمية طالبية وانه من الخطأ القول بأنها كانت دولة شيعية لان مؤسسها من آل البيت النبوى والحقيقة أن الادارسة رغم علويتهم وطالبيتهم بل وهاشميتهم لم يكونوا أبدا شعيين، بل لم يكن أحد من رجال دولة الادارسة أو أتباعهم شيعيا فقد كانوا على مذهب السنة والجماعة لا يعرفون شيئا عن الآراء الشيعية التى شاعت على أيام الفاطميين ولم يعرفوا فى بلادهم المغربية غير الفقه السنى المالكى ومن المعروف تاريخيا واسلاميا بل فقهيا أن آل البيت جميعا بطوائفهم لم يكونوا شيعة لاحد،

بل أن الشيعة كانوا من أنصارهم وعلى ذلك فان الوضع العلمى الصحيح والتاريخى الذى لا جدال فيه أن دولة الادارسة التى قامت على يد مؤسسها الاول «ادريس بن عبد الله الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم» كانت الدولة علوية طالبية هاشمية .

وهى فى تلك الدراسة كانت تجربة جديدة دامت أكثر من قرنين فى تاريخ المغرب العربى الاسلامى بل هى سلسلة من سلسلة الامارات الاسلامية المستقلة فى المغرب .

وكما سبق القول فانه كما لجأت المعارضة التى قام بها الخواج إلى المغرب كذلك فقد لجأت إلى تلك الديار المعارضة العلوية الهاشمية التى عارضت الدولة الاموية والعباسية بعد أن فرت من وجه الخلافة العباسية .

ولقد كان الخوارج أسبق من العلويين فى المغرب وقد استطاعوا أن يقنعوا البربر النزاعين إلى الاستقلال بعدم شرعية الحكومات والخلافتين الاموية والعباسية اذ انهما ورثنا سلطانا لا يقوم على أساس من الحق ولا على أساس من المبادئ الاسلامية وانهما مغتصبان للحكم ومن هنا تجب مقاومتهما .

ولما وصل دعاة الشيعة إلى المغرب دعوا إلى نفس الفكرة وهى عدم شرعية سلطان الخلافة العباسية والاموية من قبلها وزادوا فى ذلك بأن قالوا بأن الحق الشرعى للحكم هو من نصيب آل البيت فى أبناء النبى من أبنته فاطمة الزهراء وهم الذين ثاروا فى وجه الظلم وقتلوا وقاتلوا فى سبيل احقاق الحق ورفع الظلم والمظالم عن رعية الاسلام، ومن هنا اكتسبت الدعوة إلى آل البيت عطف البربر الذين كانوا بطبيعتهم يوقرون ويحترمون ويبجلون رجال الدين معظمين لاولياء الله الصالحين والذين يدعون لهم الشيعة هم أئمة الدين والعلم والتقوى والاصلاح وورثوا علم النبوة علاوة على أنها من نبع الشجرة الطاهرة المباركة .

فكان أرض المغرب قد حرثها الخوارج للشيعة ثم للعلويين، وحين قدم دعاة العلويين والشيعة كان سلطان الخوارج فى المغرب قد بدأ يضعف فأقتنعوا بغرسهم ولم يتعرضوا لمعارضتهم .

والمعارضة العلوية للعباسيين نشأت مبكرة منذ قيام الدولة العباسية ولقد كان التحالف بين العلويين والعباسيين يقويه الشعور المشترك بالكره لعدو متحكم هو الامويين فلما قضى على هذا العدو الذى سلب الحكم والسلطة من آل البيت والهاشميين، لم تكن هناك ضرورة لاستمرار هذا التحالف وبخاصة أن العلويين كانوا يعتقدون أن العباسيين يعاونونهم لتحقيق أهدافهم وتولى الخلافة .

وظنوا أن الدعوة للرضا من آل البيت انما تعنيهم هم باعتبارهم المطالبين بالخلافة ولانهم هم الذين ثاروا فى وجه بنى أمية منذ خلافة «يزيد بن معاوية بن أبى سفيان»، وتحملوا عبء الجهاد وأصابتهم الكوارث والنكبات بل كل الكوارث من جراء انتقام بنى أمية منهم، كما انهم كانوا يرون أيضا أن الشيعة انما تلتف حولهم هم لكن العباسيين حيث انتصرت الثورة واستولوا على الخلافة تنكروا للعلويين، بل انهم ادعوا انهم أصحاب الحق الشرعى فيها وانها حقهم فى ميراث النبى ﷺ بل انهم أقوى فى طلب هذا الحق من العلويين واعتقد العلويون أن العباسيين خدعوهم واغتصبوا الخلافة منهم .

ودولة الادارسة من الدول طويلة العمر فى المغرب والعالم الاسلامى فقد قامت فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ولكنها لم تنته نهائيا الا فى أواخر القرن الرابع الهجرى وقد عمرت أكثر من قرنين أى ضعف ما عمرته دولة الاغالبة وبنى رستم وانها قاومت وثبتت أمام زحف الفاطميين بل تصدت لجيوشها وخاضت طوال تاريخها حرب بقاء أو موت مع الدولة الاموية الاندلسية حينا ووقفت إلى جانبها حينا آخر، ولكنها مع ذلك العمر الطويل والحيوية المتجددة كانت دائما من صغار الدول سواء فى سعة رقعتها

أو قوة ولاتها وأئمتها ولكنها كانت من أهم الدول المغربية من الناحية الثقافية والفكرية والحضارية فقد كان لها فى تاريخ الحضارة والثقافة الاسلامية أثر بارز وفعال بل مؤثر فى المغرب الاقصى والاندلس وغرب افريقية، بل لعبت دورا مؤثرا فى صياغة وحفظ وانتشار مذهب الامام مالك وفى دفع حركة التعريب فى البلاد من ناحية أخرى .

ولقد كان هناك عاملان حاسمان فى قيام دولة الادارسة منها أن طموح العلويين إلى انشاء دولة مستقلة لهم بعيدا عن نفوذ ومتناول الخلافة العباسية كان الدافع القوى لذلك كذلك فان الرغبة الخفية لدى قبائل المغرب الاقصى ونزوعها إلى الاستقلال ورغبتها فى انشاء كيان سياسى لهم، هذا أن العاملان هما اللذين شكلا قيام دولة الادارسة فكما كان طموح أباضية تاهرت من الخوارج فى انشاء كيان سياسى مستقل لهم فى المغرب الاوسط ورغبة قبائل المغرب الاوسط فى ذلك. هكذا كانت دولة الادارسة.

موقعة فخ :

وفى الحجاز الموطن المختار للعلويين قامت ثورة أخرى عام ١٦٩هـ تشبه ثورة محمد النفس الذكية وان كانت أقل منها خطرا ذلك أن العلويين كانوا قد ركنوا إلى الهدوء بعد مقتل النفس الذكية وأخيه ولكن عامل الهادى على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله اتهم بعض العلويين ومنهم «الحسن بن محمد النفس الذكية» بشرب الخمر فأخذهم وأقام عليهم الحد ثم زاد على ذلك أن جعل الحبال فى أعناقهم وطاف رجاله بهم فى المدينة فذهب اليه الحسين بن على بن الحسن محتجا على سوء معاملته لاهل بيته فردهم عامل المدينة من مطافهم وحبسهم يوما وليلة ثم أطلقهم على أن يظلوا تحت المراقبة فاختفى الحسن بن محمد النفس الذكية أياما وعاد والى المدينة إلى تتبع العلويين طلبا للهارب وانتهت هذه الفتنة إلى خروج الحسين بن على على الخليفة الهادى والذى بايعه جمع من أهل المدينة بالخلافة وقد انضم إلى هذه المعركة بعض الكوفيين الذين كانوا

عندئذ بالمدينة ثم خرج الجميع فى اتجاه مكة المكرمة فقطع عليهم جيش العباسيين الطريق ودارت معركة بين الفريقين عند «وادى فخ» الذى يبعد عن مكة بنحو ستة أميال. تقرر فيها مصير العلويين وكثر فيها ضحاياهم ومنهم الحسين بن على زعيمهم وقد بلغ من أثر التنكيل بالعلويين فى هذه المعركة أن قرنها المؤرخون لهولها ونتائجها بمعركة كربلاء فقال بعضهم «لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ» .

وطابع هذه المعركة شبيه بطابع معركة كربلاء إلى حد كبير فأنصار الحسين بن على بن أبى طالب فى معركة «كربلاء» قلة معدودة ولم يكن الثائرون مع الحسين بن على بن الحسن عند فخ كثرة ملحوظة وشهداء معركة كربلاء من العلويين كثيرون ويشبه هذا شهدا «معركة فخ» وقد أعقب استشهاد الحسين بن على بن أبى طالب فى كربلاء حركة ثورية أخرى بالكوفة وأعقب معركة فخ ثورتان علويتان ببلاد الديلم وفى المغرب العربى وانتهت الاخيرة بقيام دولة الادارسة .

وقد نجا من معركة فخ علويان أخوان هما يحيى وادريس أبناء عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على فذهب أولهما إلى بلاد الديلم وجمع حوله الانصارثم أعلن الثورة أيام هارون الرشيد وكان قد خفف الرقابة على العلويين ففاجأته ثورة يحيى بن عبد الله وأرسل اليه جيشا فى خمسين ألفا بقيادة «الفضل بن يحيى البرمكى» وقد استطاع الفضل بحسن تصرفه أن يصالح يحيى وأن يحصل على أمان له من الرشيد وبهذا انتهت الثورة لكن الرشيد لم يلبث بعد هذا أن استفتى الفقهاء محاولا أبطال الامان فأقر بعضهم وجهة نظر الرشيد فأمر بحبس يحيى فى داره .

أما ادريس فقد فر إلى مصر ثم خرج منها إلى المغرب وفى المغرب الاقصى التف حوله أهلها من البربر وأعلن خروجه على الرشيد عام ١٧٢هـ وعجز الخليفة عن القضاء على ثورته لبعد المسافة فلجأ إلى الحيلة ودس له السم فمات عام ١٧٧هـ. وظهرت بذلك

دولة الادارسة .

وهكذا نجد العباسيين الاوائل يوالون أبناء عمومتهم العلويين فى الحرب والتنكيل كما نجد هؤلاء ثائرين ساخطين على أبناء عمومتهم العباسيين ما وجدوا إلى ذلك من سبيل .

وقد كانت موقعة فخ التى وقعت فى عهد الخليفة العباسى الهادى ١٦٩هـ بعيدة الاثر فى تاريخ العلويين فقد هرب بعد نتائج تلك المعركة لصالح العباسيين منها رجلان كانا كالشوك فى حلق العباسيين أولهما يسمى يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الذى ثار فى بلاد الديلم فى عهد هارون الرشيد وثانيهما أخوه ادريس بن عبد الله الذى نجح فى اثارة أهالى المغرب الاقصى على العباسيين وفى عام ١٧٢هـ قامت دولة الادارسة على يد الامام ادريس بن عبد الله العلوى الذى سار إلى بلاد المغرب الاقصى مع مولاه راشد بعد أن بطش العباسيون بأهل البيت العلوى فى موقعة فخ وقد استقبلته أوربة البربرية التى لقى منها كل عون وتأييد فى تأسيس دولة الادارسة التى كانت أول دولة مستقلة عملت جهدها على نشر الاسلام فى ربوع هذه البلاد .

أسرة الادارسة

الامام ادريس الاول

ينتسب آل ادريس الذين شادوا وأقاموا دولة الادارسة كدولة علوية فى المغرب الاقصى إلى مؤسسها الاول الامام العلوى الهاشمى الطالبى «ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم» وهو أحد أفراد الاسرة العلوية التى ينتهى نسبها إلى الامام والخليفة الراشد الرابع على بن أبى طالب والذى انقسمت أسرته بعد مقتله إلى فرعين رئيسيين هما الفرع الحسنى نسبة إلى الامام

الحسن والفرع الحسينى نسبة إلى الامام الحسين، وادريس هذا مؤسس الدولة الادريسية من الفرع الاول الحسن فوالده عبد الله بن الحسن كان عالما جليلا يمثل مرتبة مرموقة فى مجتمعه وهو شيخ بنى هاشم وزعيم العلويين ورئيسهم المطاع والمهاب والمسموع الكلمة بل هو عالمهم فى ذلك الوقت وكان يسمى بالمحض وذلك لان أباه الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وأمه فاطمة بنت الحسين بن على بن أبى طالب وقد كان علويا خالصا من ناحية الاب والام وكذلك من القابه الاخرى التى لقب بها فى زمانه فهو الكامل لانه كان أكمل أهل زمانه علما وعملا وصلاحا وكرما وزهدا وتقوى وطاعة وتلك المنزلة الرفيعة جعلته محط الانظار لكل العارفين فى زمانه بفضل آل البيت ودورهم فى الاسلام، بل ان كل هذه الصفات جعلت بعض الذين أسهموا وساعدوا فى اقامة الدولة العباسية يعرضون عليه أن يتولى أمر الخلافة ويكون أول وال علوى وذلك لاهليته وصفاته واستحقاقه لهذا المنصب وتلك هى شخصية عبد الله والد الامام ادريس مؤسس دولة الادارسة أما ماذا عن أمه فهى «عاتكة بنت عبد الملك بن الحرث الشاعر بن خالد بن العاص ابن المغيرة المخزومى» وكانت سيدة فاضلة لها قدرها بين نساء آل البيت فهى من ربات الفصاحة والبلاغة والتقوى والاحسان حافظة للقرآن الكريم عامله بكل ما جاء فيه ولم تذكر المصادر عنها الا انها كانت تقية عابدة ساجدة جليلة صوامة وينتهى نسبها إلى بنى مخزوم وهم بطن من بطون قريش ويتصل بأحد أجداد النبى ﷺ .

وكان لادريس هذا ستة أخوة وهو سابعهم من أمهات ثلاث هم ادريس وسليمان وعيسى وأمهم هؤلاء جميعا عاتكة المخزومية، ومحمد النفس الذكية وابراهيم الجواد وموسى الجون وهؤلاء أشقاء وأمهم هند الاسدية بنت أبى عبيد الصحابى الجليل، أما الاخ السابع فهو يحيى ويكنى أبا الحن وأمه قريبة بنت عبد الله بن أبى عبيدة بن عبد الله زومعة بن الاسود بن المطلب بن أسد وهى بنت أخ هند بنت أبى عبيدة .

ولم تذكر المصادر العربية مولد الامام ادريس وتاريخه وكذلك الحديث عن حياته

الاولى فى المدينة المنورة ولم تذكر عنه الا انه كان أحد الذين اشتركوا فى ثورة فخ (الحسين بن على) للمطالبة بالخلافة من العباسيين لانهم أحق منهم بهذا المنصب .

لكنه لا خلاف فى القول بأنه فى تلك البيئة العلوية النبوية وفى بيئة المدينة المنورة وعلى مقربة من قبر جده ﷺ فلابد أن يكون الاتجاه للعلم والدين والفقه والتقوى والورع والزهد والمحبة والاخوة الاسلامية الصادقة والاحساس بالتعاون فى سبيل رفعة الاسلام واعلاء شأنه هو الطابع الذى نشأ فيه ادريس وكانت حياته الاولى علما وتعلما ومعرفة ودراسة تاركا أمور السياسة والاشتغال بها فى عهد الامويين وذلك حين نصح عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب والد الامام ادريس بن زيد بن على طالبا منه عدم الخروج إلى الكوفة والذى يتعمق فى دراسة معنى التضحية التى أسداها عبد الله لابن عمه يدرك تمام الادراك مدى البعد السياسى والحس العميق الذى يتحرك من خلفه الامام عبد الله بن الحسن لانه كان يدرك ما عليه أهل الكوفة، بل أنه كان يعرض عن استقبال الرسل والكتب التى كانت ترد اليه شخصيا من أهل الكوفة التى كان يرسلها أهل الكوفة وعدم استجابته لدعوتهم وبهذا انقطع القول أن ادريس تشب وتربى فى بيئة علمية دينية فقهية شرعية بحتة فحفظ القرآن الكريم فى صغره ودرس الفقه وعلوم الحديث والتفسير منذ صغره أيضا وانه نشأ فى أسرة على جانب كبير من اليسر ووفرة العيش وذلك بسبب قيام أفرادها بممارسة بعض الاعمال التجارية ومزاولة مهنة التدريس، بالاضافة إلى أن آل البيت كانت لهم منزلة اجتماعية مرموقة وممتازة فى المدينة المنورة وذلك بسبب نسبهم الطاهر العتيق الذى ينتهى إلى رسول الله ﷺ .

فكان أهل المدينة المنورة يجلونهم كل الاحترام والتبجيل ويحترمونهم أشد الاحترام ويعرفون قدرهم ومكانتهم السامية وينظرون اليهم نظرة عطف واكبار وذلك لما تعرضوا له من نكبات ومشقات على يدى بنى أمية وبنى العباسى، بل انهم كانوا يكنون لهم أخلص

الحب وأصدق مشاعر الوفاء والاخلاص .

وقد اشترك الامام ادريس فى ثورة مسلحة هى ثورة الفخ وهى السبب المباشر لفراره من وجه الخلافة العباسية وتوجهه إلى بلاد المغرب الاقصى، ذلك لان العلويون منذ مقتل الامام على بن أبى طالب وهم يحاولون استرداد الخلافة من بنى أمية وغيرهم لانهم يرون أنهم فى هذا الطلب يقومون بواجب مقدس .

ومنذ الايام الاولى لقيام الخلافة العباسية قام أبو جعفر المنصور عام ١٣٦هـ/٧٥٢م بالقبض على عبد الله والد ادريس وعلى أهله وأكثر أفراد أسرته حتى بلغ عددهم خمسة وأربعين رجلا من أكابرهم ولم يكتف الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور بحبسهم بل أساء معاملتهم وأفرط فى تعذيبهم والتنكيل بهم، بل انه اشتد فى تضييق الخناق على العلويين فى السجن .

وقد اشترك ادريس أيضا مع أخيه ابراهيم الجواد الاخ غير الشقيق له شقيق محمد النفس الذكية فى حربه ضد القوات العباسية فى مدينة البصرة، وهناك أقوال تذكر انه أثناء تلك الثورة لم يكن ادريس فى سن تسمح له بالمشاركة الفعالة فى هذه الثورة، لكن نجد أنفسا نؤيد القول باشراكه فى هذه الثورة بجانب أخيه غير الشقيق لانهما من جيل واحد لاسيما أن ابراهيم الجواد هو أصغر من محمد النفس الذكية بينما ادريس هو أكبر الاخوة الثلاثه الاشقاء ادريس وسليمان ويحيى وان الفارق الزمنى بين أخيه ابراهيم وبينه ليس كبيرا ومن هنا يصح اشراكه فى تلك الثورة ضد العباسيين لاسيما أن أطفال آل البيت منذ نعومة أظافرهم كانوا يحسبون انهم أحق بالخلافة من غيرهم وان عليهم واجبا مقدسا تجاه أمة الاسلام فى الحكم والقيام بالخلافة .

ولقد تركت وفاة أخيه محمد النفس الذكية ومقتله مع بعض من أقاربه وأهله أبعد الأثر السيئ فى تكوينه النفسى واحساسه بالظلم والاضطهاد فقد شب ونشأ وهو لا يرى ولا

يسمع ولا يعلم أمرا من الامور الا والخليفة العباسى وقبله الأمويون يتعقبون أفراد أسرته الحسيبة النسيبة الطاهرة بالقتل والتعذيب والسجن والنفى والتشريد .

علما أن الامام ادريس بعد أن فقد الكثير من أفراد أسرته وعائلته فانه عاش فى جو من الارهاب النفسى البعيد المدى والذى فرضه أبو جعفر المنصور «السفاح» وذلك حتى لا يدع بادرة أمل فى تفكير العلويين فى أمر الخلافة وحتى يقتل فى أنفسهم كل بادرة أمل فى الوثوب على الخلافة أو القصاص من الخلفاء العباسيين .

وفى سبيل ذلك فقد عمل أبو جعفر المنصور على أن يكون هدفه الدائم هو ارهاب العلويين حيث يجمعهم فى مدينة الرسول ﷺ وذلك بعد القضاء على ثورة محمد النفس الذكية فى المدينة ونقلهم إلى الكوفة ونتيجة لجو الارهاب البشع الذى فرضه المنصور على آل البيت فان آل عبد الله بن الحسن بن الحسين ومن بقى معهم من العلويين أطفالا ونساء وشيوخا لزموا السكينة ولم يتحرك أحد منهم للقيام بأدنى عمل يسيئ إلى الخلافة العباسية .

كيف ظهرت دولة الادارسة :

ظهر بالمدينة المنورة «الحسن بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب» أيام الخليفة العباسى الهادى ودعا لنفسه فى المدينة فقاتله محمد بن العباسى عامل العباسيين على المدينة. وكان البيت العلوى بعد فشل ثورة محمد النفس الذكية أخ ادريس قد لزموا السكينة وكذلك أثر مقتل كثير من أفراد آل عبد الله بن الحسن وهم أل ادريس فى معركتهم ضد الخلافة وظلوا يعيشون جوا يشبه جو الحزن الدفين وحياة يسودها الارهاب فرضها عليهم المنصور حتى سمحت لهم الفرصة المواتية فى عهد الخليفة العباسى الهادى بن المهدى اذا اغتنم العلويون فى ٢٢ محرم ٢٦٩هـ/ ٧٨٥م أول فرصة لهم تساعدهم على اعلان الثورة فكان اشتعال الثورة فاندفعوا فى الالتفاف حول أحد العلويين وهو

الحسن بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب ويكنى أبا عبد الله وأمه زينب بنت عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وهى أخت شقيقه لمحمد النفس الذكية وابراهيم الجواد وموسى الجون .

وكانت المعاملة السيئة غير االانسانية التى عامل بها والى العباسيين على المدينة المنورة أحد العلويين المشهورين فى المدينة قد حزت فى نفوسهم وهم نبت الشجرة الطاهرة التى اختارها الله لتكون شجرة النبوة دون خلق الله قاطبة فدفعهم ذلك إلى الثورة العارمة كذلك فان العلويين لم ينسوا أبدا ما أصابهم فى المدينة المنورة من سجن وتعذيب وارهاب وسوء معاملة على يد أبى جعفر المنصور الذى لم يدخر جهدا ولا سلاحا الا واستخدمه حتى قضى على الثورة العلوية فى المدينة .

ثم كانت معركة فخ بالقرب من مكة المكرمة والتى حدثت ربما فى منى حيث مشاعر الحج وذلك يوم التروية الثامن من ذى الحجة عام ٢٦٩/ الموافق ١١ يونيو ٧٨٦م. والتى كانت احدى الثورات التى ثبت نشاطهم ومتابعتهم للثورات السابقة التى قام بها الشقيقان محمد النفس الذكية وأخوه ابراهيم وهما أخوة ادريس ووالدهما عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبى طالب ولكن المنصور قضى على هذه الثورة كما سبق القول فى عنف شديد وقتل محمد النفس الذكية فى المدينة المنورة عام ١٤٤هـ وقتله أخاه ابراهيم فى مدينة باقمرى بين الكوفة وواسط عام ١٤٥هـ والتى لقى العلويون من العباسيين أكثر شرا وظلما وجورا وتعنتا مما لقوا من بنى أمية فظل العلويون يثورون وظل العباسيون يتتبعونهم فى كل مكان بالسجن والقتل حتى فروا إلى أطراف العالم الاسلامى.

وحتى كانت معركة فخ هذه عام ١٦٩هـ والتى ثار فيها الحسن بن الحسن على عامل العباسيين بالمدينة وحدثت بين الطرفين تلك الموقعة بين المدينة المنورة ومكة المكرمة وعلى بعد ستة أميال منها وتعرف باسم موقعة فخ قتل فيها الحسن وعدد كثير من أفراد البيت العلوى وقد شابهت هذه الموقعة حادث كربلاء فى العهد الاموى فقد أوشك البيت العلوى فيها على الفناء الا أن الله يحفظ عباده الصالحين من الفناء .

ولقد أرادت المقادير الالهية أن يكون ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وهو أحد القلائل الدين نجوا من القتل فى مأساة فخ والتى كان العباسيون قد أوقعوا فيها بجماعة العلويين من أحفاد الحسن بن على بن أبى طالب كانوا يدعون لانفسهم ويطمحون فى أن يقيموا لانفسهم دولة .

وقد فر الناجون من هذه الواقعة إلى أطراف البلاد الاسلامية وكان من الذين فروا أثر تلك المعركة غير ادريس أخوه يحيى بن عبد الله وهو الأخ غير الشقيق وقد هرب إلى بلاد الديلم جنوب بحر قزوين وسبب للعباسيين متاعب كثيرة ولكنهم قضوا عليه فى النهاية ولكن أسعد العلويين جميعا حظا هو ادريس بن عبد الله الذى أبعد فى الهرب حتى وصل إلى المغرب الاقصى .

وكان يحيى بن عبد الله قد استقر فى الديلم والتف حوله القوم واشتدت شوكته وكثرت جموعه وأتاه الناس من كل الامصار مما يدل على عطف الناس على آل البيت العلوى وحبهم لهم وقد سبب يحيى بن عبد الله متاعب عديدة لا حصر لها للدولة العباسية حتى استطاع الفضل بن يحيى البرمكى قائد الرشيد أن يصالحه باسم الرشيد وينزله على الامان ولكن الرشيد غدر به وسجنه .

وكان ادريس قد انسحب من بين المحاربين حتى اذا انتهى موسم الحج توجه مع حجاج مصر قاصدا أهلها أولا والنزول بها، تاركا أهله وعشيرته ولم يصحب معه فى تلك

الرحلة الشاقة التى ربما لم تكن مصر نهايتها بل بدأ منها الا مولاه راشد رفيقه وسار فى زمرة الحجاج متوجهين بعون الله ورعايته إلى مصر المحروسة فى طريقهما بعد ذلك إلى بلاد المغرب، بعد أن تأكد ادريس من فشل الثورات العلوية التى تقوم بالحجاز أو بالعراق وذلك لقرب هذه الاماكن من بطش الخلافة العباسية، فضلا عن الشك الذى ملأ قلب ادريس بعدم جدية وقدرة أهل المدينة المنورة وغيرهم من نصرة العلويين والمساندة فى اقامة خلافتهم .

ولا ندرى متى قصد ادريس إلى بلاد المغرب الاقصى الا انها على مقدار علمه عن طريق مولاه راشد انها بعيدة كل البعد عن متناول القوات العباسية، بالاضافة إلى انه ربما كان يعلم أمورا عن بلاد المغرب ربما عرفها عن طريق راشد مولاه الذى فر معه إلى المغرب حيث يقال انه كان من أصل بربرى ولا نستطيع أن نعلق أهمية كبيرة على هذا القول فانه حتى ولو صدق لا يمكن أن يكون عاملا رئيسيا فى قيام الدولة العلوية الادريسية ولكن على أية حال فان وجود راشد مع ادريس كان موجها لبلاد المغرب بالذهاب لاسيما أن ادريس لا شك أنه كان على علم باللسان البربرى الذى يتكلم به القوم فى هذه النواحى من بلاد المغرب الاقصى اذ على أكتافه قامت دولة الادارسة ولا نكذب القول اذ قلنا أن راشدا هو المؤسس الحقيقى لدولة الادارسة دون أدنى شك .

وعندما توجه ادريس بن عبد الله ومعه مولاه راشد إلى الاراضى المصرية لعبورها فان واليها فى ذلك الوقت كان «على بن سليمان بن على بن عبد الله العباسى» الذى تولى أمر مصر من قبل الخليفة الهادى فى شوال ١٦٩هـ/ ٧٨٦م. وكان على بريد مصر فى ذلك الوقت (الشرطة) صالح بن منصور وكان متشبعا محبا لآل البيت فحمله مع البريد. وكان طبيعيا أن يحاولا التخفى عن أعين الوالى العباسى. وفى مصر تم ترتيب الامر على أن يسافر كل من راشد وادريس كل فى طريق وأن تكون نقطة اللقاء المتفق عليها هى

مدينة برقة وتابع ادريس وراشد سيرهما وهما متخفيان بحيث لايتعرف على شخصيتهما أدنى أحد. وان كانت الروايات تذكر كيف أن هروب راشد وادريس إلى المغرب الاقصى كانا فى زى التجار حيث صحب كل منهما قافلة تختلف عن الأخرى .

بل أن الرواية تمضى فى سردها لقصة وصول ادريس ومولاه راشد إلى المغرب فنذكر انه بعد لقائهما فى برقة فى زى التجار فان المتفق عليه أن راشد يكون هو السيد وادريس خادمه يقوم على خدمته أثناء الرحلة وذلك للتمويه على رجال الدولة العباسية خوفا من اكتشاف أمر ادريس وراشد فقد كان راشد يأمره أمام الناس بأداء الأعمال فيطيع أمره فورا وذلك ليخفى شخصيته التى تعقد عليها الآمال فى اقامة دولة العلويين فى المغرب وبذلك لم يتعرف على شخصيتهما أحد وبعد أن أقاما فى القيروان فترة من الزمن فانهما سارا إلى تلمسان واستراحا بها أياما معدودة ثم ارتحلا عنها قاصدين طنجة فعبرا فى طريقهما وادى ملوية وهو الوادى الذى يحد المغرب الاقصى والذى يصب عنده نهر ملوية فى البحر المتوسط وإلى الشرق قليلا منه نجد الحد بين المملكة المغربية والمغرب الاوسط، ثم دخلا بلاد السوس الادنى والسوس الاقصى ونجوه فى جبل درن إلى أن وصلا إلى مدينة طنجة ولكن ادريس لم يمكث كثيرا بمدينة طنجة وذلك لانه أحس أن أهدافه لم يستطيع تحقيقها فى تلك البقعة من المغرب الاقصى وذلك لانه كان يريد أن يجد أعوانا ذوى عصبة وشدة وقوة يتلقون دعوته ويلتفون حوله ويبلغون دعوته وينشرونها بين الناس لكن الامر انتهى به بالتوجه إلى مدينة «وليلى» وهى مدينة قرب طنجة وهذه المدينة هى قاعدة البلاد وحاضرتها وكانت ضمن المناطق التى أعلنت استقلالها عن الخلافة، يضاف إلى ذلك توسط موقعها وخصوبة تربتها وكثرة مواردها وهى تقع على شاطئ المحيط الاطلسى شمال مصب السنغال بالاضافة إلى أن وليلى مركز تجارى ممتاز وسوق عظيمة للقبائل وكانت معروفة ومشهورة منذ العصر الرومانى .

وهكذا كانت دعوة راشد لرجل من آل البيت النبوى كافية لأن يكسب حوله الانصار ولكن يبدو أن التوفيق لم يحالفهما فى طنجة وكانت عاصمة المغرب فى ذلك الحين وأحس راشد أن مكان القوة الحقيقة يكمن وسط قبائل أوربة وكانت مركز الجناح الغربى لهذه القبائل فى مدينة وليلى عند قاعدة زرهون وتقع فى منتصف المسافة بين فاس ومكناس وهى من هذه الناحية أصلح مكان لأن تكون مركزا لدعوة سياسية دينية .

وكانت قبيلة أوربة تتزعم مجموعة قبائل ضخمة تمتد من الاطلس إلى وادى سبو وقد عرفت هذه القبيلة منذ مساندتها لكسيلة وكيف صارعت طويلا مع عقبة بن نافع الفهرى ثم من بعده زهير بن قيس وتدخل معها فى ذلك النطاق القبلى مجموعة قبائل غمارة وهى أيضا قبائل برنسية تمتد من حوض سبو واقليم الهبط الذى يسمى لهذا أحيانا هبط غمارة وريف تامسنا على ساحل المحيط الاطلسى .

ولقد وافق وصول ادريس إلى المغرب نشاط الحركة الاستقلاليه فى هذه البلاد كما أن ذلك الوقت قد شهد نجاح القوات العباسية فى قهر شوكة الخوارج، فلما وصل ادريس إلى تلك البقاع استطاع أن يضم حوله البربر الذين وجدوا فيه ثائرا على الدولة العباسية التى يكرهونها كما كان يمثل عندهم روح الاسلام التى لا تقر الظلم ويرضى بنسبه الشريف إلى النبى ﷺ عاطفتهم الدينية فانضوت الحركة الاستقلالية تحت لوائه واستطاع أن يكون له امارة مستقلة ظلت ترث الحكم العلوى حتى ظهور الدولة الفاطمية ولقد كانت دولة الادارسة من أطول الامارات المستقلة فى المغرب العربى عمرا اذ كانت معاصرة للنفوذ الفاطمى فى المغرب والرستمى والاغلبى ولنفوذ الخلافة الاموية فى الاندلس .

وهكذا انتهى المطاف بادريس فى تلك البقعة التى هى قاعدة البلاد وحاضرتها وكانت من المناطق التى أعلنت استقلالها عن الخلافة يضاف إلى ذلك توسط موقعها

وخصوبة تربتها وكثرة مواردها .

وهكذا نرى كيف كان لانتساب ادريس إلى رسول الله ﷺ أثر كبير فى توحيد القبائل المتنافرة فظفر بتأييد السكان على اختلاف طبقاتهم ووحدوا بين اقليم الساحل واقليم المراعى فاطمأن أهل السهول والبدو وازدهرت الحياة الاقتصادية ونجحوا فى اقامة حكومة مركزية قوية اشترك فيها العرب والبربر جنبا إلى جنب واستطاعوا بفضل هذه الوحدة الشاملة احياء حركة الجهاد الاسلامى وعملوا على نشر الاسلام فى البلاد .

ومن هنا فاننا نرى كيف أن هذه الظروف مجتمعة شجعت ادريس على التوجه إلى «وليلى والنزول بها فى غرة ربيع الاول عام ١٧٢هـ / ٩ أغسطس ٧٨٨م، وذلك بعد رحلة طويلة شاقة رأى فيها ألوان العذاب وتعرض للموت أكثر من مرة واستغرقت الرحلة ما يقرب من عامين وما أن وصل اليها حتى توجه إلى أمير البلدة وزعيمها وذلك لان «اسحق بن محمد» كان هو أمير البلاد وزعيم قبائل البربر بها وكان لاسحق بن محمد الاوربى فضل كبير فى استقرار ادريس فى وليلى، اذ أجاره وأكرمه واستجاب له .

وبدأ ادريس يدعو لنفسه ولم يكن من العسير عليه أن يكسب أنصارا له ذلك لان شيوخ قبيلة أوربة كانوا على أتم استعداد لتأييد زعيم يقودهم فى ثورة أو يقيم دولة للخروج عن سلطان قبيلة برغواطة وينشئ لهم دولة تضاهى دولة بنى رستم فى تاهرت والتى ظهرت منذ عام ١٤٤هـ .

ولقد كانت قرابته لرسول الله ﷺ كافية لاجتذاب القلوب اليه خاصة اذا أضفنا إلى ذلك ما سمعه الناس من خبر مأساة فخ وعودة إلى تذكير القوم بموقعة كربلاء وكذلك ما يروى عن وقوع العلويين للقتل والسجن والتشريد على أيدى الامويين والعباسيين وهم من سلالة النبى الاكرم ﷺ .

اضافة إلى ذلك أن زعيم القبيلة اسحق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى قد تولى

خدمته والقيام بشئونه وبالغ فى بره واكرامه حتى اذا اطمأن ادريس له كانت الدعوة وشرح ما حدث له ولاسرته وللعلويين والاسباب التى من أجلها التجأ إلى المغرب الاقصى ولذلك كان اسحق أول من قبل دعوته وشد من أزره وقدم له كل أسباب النجاح، بل أنه أرسل إلى كل القبائل المجاورة يدعوهم للدخول فى دعوته والاقبال على مبايعته والخضوع له وخلع طاعة الخلافة العباسية. وقد أخذ اسحاق على عاتقه مهمة دعوة القبائل المختلفة ودعوة زعمائها لحضور البيعة الكبرى التى تمت فى شهر رمضان ١٧٢هـ/ فبراير ٧٨٩م لكى يكون أميرا وحاكما لهم وزعيما لدولتهم .

وقد ابتدأ اسحق الاوربى بدعوة اخوانه وقبيلة أوربة وليعرفهم بنسب ادريس وصلته بالرسول ﷺ وكيف قدم عليهم وما هى الكوارث التى تعرض لها آل البيت النبوى، بل أكثر من ذلك ركز على فضله وكرامته وقرابته من رسول الله ﷺ فبايعوه ومن هنا أبرز اسحاق نسب ادريس وانتماءه إلى النبى ﷺ وكذلك صفاته الخلقية والاخلاقية التى اطلع عليها بنفسه من خلال اقامته معه فترة من الزمن ثم أعلنت وفود القبائل مبايعتها ونصرتها لادريس حيث وجدت فيه املها المنشود فى توحيد المنطقة وذلك بعد أن عرفت أهدافه ومبادئه عن طريق داعى الدولة الناشئة «اسحاق بن عبد الحميد الاوربى» حيث وفدت اليه قبائل زناتة، زاغة، زواوة، لماية، لواتة، سدراته، غياشة، مكناسة، مقبلة، لمطة، وغمارة وغيرها من القبائل الاخرى التى رغبت فى الانطواء تحت راية حفيد رسول الله ﷺ .

وهكذا التف الناس حول ادريس فى حماس شديد وقام إلى جانبه راشد يدير له الامر ويجمع له القلوب وبعد قليل أصبح ادريس أمير وليلى وزعيم الجناح الغربى من قبيلة أوربة وتبعه كذلك عدد من الفروع الصغيرة من القبائل القاطنة فى هذه النواحى وكانت ناقمة وفى عداء دائم مع قبيلة براغوطة وأهم هذه الفروع قبيلة غمارة وكانت إلى ذلك الحين جمعا قبليا ضخما مفككا يحمل عبء براغوطة واستبدادها ومع كل هذا فان نجم ادريس

وخصوبة تربتها وكثرة مواردها .

وهكذا نرى كيف كان لانتساب ادريس إلى رسول الله ﷺ أثر كبير فى توحيد القبائل المتنافرة فظفر بتأييد السكان على اختلاف طبقاتهم ووحدوا بين اقليم الساحل واقليم المراعى فاطمأن أهل السهول والبدو وازدهرت الحياة الاقتصادية ونجحوا فى اقامة حكومة مركزية قوية اشترك فيها العرب والبربر جنبا إلى جنب واستطاعوا بفضل هذه الوحدة الشاملة احياء حركة الجهاد الاسلامى وعملوا على نشر الاسلام فى البلاد .

ومن هنا فاننا نرى كيف أن هذه الظروف مجتمعة شجعت ادريس على التوجه إلى «وليلى والنزول بها فى غرة ربيع الاول عام ١٧٢هـ / ٩ أغسطس ٧٨٨م، وذلك بعد رحلة طويلة شاقة رأى فيها ألوان العذاب وتعرض للموت أكثر من مرة واستغرقت الرحلة ما يقرب من عامين وما أن وصل اليها حتى توجه إلى أمير البلدة وزعيمها وذلك لان «اسحق بن محمد» كان هو أمير البلاد وزعيم قبائل البربر بها وكان لاسحق بن محمد الاوربى فضل كبير فى استقرار ادريس فى وليلى، اذ أجاره وأكرمه واستجاب له .

وبدأ ادريس يدعو لنفسه ولم يكن من العسير عليه أن يكسب أنصارا له ذلك لان شيوخ قبيلة أوربة كانوا على أتم استعداد لتأييد زعيم يقودهم فى ثورة أو يقيم دولة للخروج عن سلطان قبيلة برغواطة وينشئ لهم دولة تضاهى دولة بنى رستم فى تاهرت والتى ظهرت منذ عام ١٤٤هـ .

ولقد كانت قرابته لرسول الله ﷺ كافية لاجتذاب القلوب اليه خاصة اذا أضفنا إلى ذلك ما سمعه الناس من خبر مأساة فخ وعودة إلى تذكير القوم بموقعة كربلاء وكذلك ما يروى عن وقوع العلويين للقتل والسجن والتشريد على أيدى الامويين والعباسيين وهم من سلالة النبى الاكرم ﷺ .

اضافة إلى ذلك أن زعيم القبيلة اسحق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى قد تولى

خدمته والقيام بشئونه وبالغ فى بره واكرامه حتى اذا اطمأن ادريس له كانت الدعوة وشرح ما حدث له ولاسرته وللعلويين والاسباب التى من أجلها التجأ إلى المغرب الاقصى ولذلك كان اسحق أول من قبل دعوته وشد من أزره وقدم له كل أسباب النجاح، بل أنه أرسل إلى كل القبائل المجاورة يدعوهم للدخول فى دعوته والاقبال على مبايعته والخضوع له وخلع طاعة الخلافة العباسية. وقد أخذ اسحاق على عاتقه مهمة دعوة القبائل المختلفة ودعوة زعمائها لحضور البيعة الكبرى التى تمت فى شهر رمضان ١٧٢هـ/ فبراير ٧٨٩م لكى يكون أميرا وحاكما لهم وزعيما لدولتهم .

وقد ابتدأ اسحق الاوربى بدعوة اخوانه وقبيلة أوربة وليعرفهم بنسب ادريس وصلته بالرسول ﷺ وكيف قدم عليهم وما هى الكوارث التى تعرض لها آل البيت النبوى، بل أكثر من ذلك ركز على فضله وكرامته وقرابته من رسول الله ﷺ فبايعوه ومن هنا أبرز اسحاق نسب ادريس وانتماءه إلى النبى ﷺ وكذلك صفاته الخلقية والاخلاقية التى اطلع عليها بنفسه من خلال اقامته معه فترة من الزمن ثم أعلنت وفود القبائل مبايعتها ونصرتها لادريس حيث وجدت فيه املها المنشود فى توحيد المنطقة وذلك بعد أن عرفت أهدافه ومبادئه عن طريق داعى الدولة الناشئة «اسحاق بن عبد الحميد الاوربى» حيث وفدت اليه قبائل زناتة، زاغة، زواوة، لماية، لواتة، سدراته، غياشة، مكناسة، مقبلة، لمطة، وغمارة وغيرها من القبائل الاخرى التى رغبت فى الانطواء تحت راية حفيد رسول الله ﷺ .

وهكذا التف الناس حول ادريس فى حماس شديد وقام إلى جانبه راشد يدير له الامر ويجمع له القلوب وبعد قليل أصبح ادريس أمير وليلى وزعيم الجناح الغربى من قبيلة أوربة وتبعه كذلك عدد من الفروع الصغيرة من القبائل القاطنة فى هذه النواحى وكانت ناقمة وفى عداء دائم مع قبيلة براغوطة وأهم هذه الفروع قبيلة غمارة وكانت إلى ذلك الحين جمعا قبليا ضخما مفككا يحمل عبء براغوطة واستبدادها ومع كل هذا فان نجم ادريس

بدأ يرتفع فى سماء المغرب الاقصى ويلتف القوم حول الزعيم الجديد القادم من المدينة المنورة أرض الحجاز وبجوار قبر رسول الله ﷺ بل من السبط الكرم والشجرة النبوية الطاهرة.

ولقد كانت أكبر هذه الوفود تمثل قبائل البربر البتر ولاشك أن الذى قام بالعبء الاكبر فى المبايعة والتأييد قبيلة أوربة والتى تنتمى إلى البربر البرانس ولكن هذا لا ينفى أن هناك قبائل كثيرة من البربر البتر أقبلت على مبايعته والدخول فى طاعته وكان اقبال هذه القبائل واسراعها فى البيعة نتيجة لما قام قام به من مجهود خارق أمير أوربة «اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى» حين عرفهم بحسب ادريس ونسبه ولهذا أسرع البربر وأعطوه العهد وبايعوه بالامارة والقيام بأمرهم .

وعلى هذا فقد كان ادريس يعبر تعبيرا حميما عن شعور البربر أهل البلاد الاصليين ورغبتهم الحقيقية فى الاستقلال فقد كان ادريس لا يعتمد الا على نسبه العلوى أما جنوده أو جلهم فقد كانوا من أهل البلاد الاصليين .

ونعود للمبايعة قائلين أن سرعة المبايعة أن دلت على شئ فانما تدل على أن المغرب كانت على صلة بأحداث المشرق حيث كانت تنعكس أصداؤها على المغرب ومما لا شك فيه أن الصراع الذى قام فى المشرق بين العلويين والخلفاء من بنى أمية وبنى العباس والاضطهاد والقتل والتشريد والنفى والسجن الذى أصاب أفراد الاسرة العلوية جميعا قد بلغت أنباؤه إلى مسامع البربر عن طريق التجار الذين كانوا يذهبون بتجارتهم إلى بلاد المشرق والحجاز عن طلاب العلم الذين كانوا يقصدون مكة المكرمة والمدنية المنورة وكذلك قوافل الحجاج الذين كانوا يؤدون فريضة الحج من البربر ويعودون إلى بلادهم قافلين ناقلين معهم أخبار وأنباء هذه الاضطهادات .

بل أن بعض هؤلاء البربر الذين قدموا للبيعة كانوا قد أدوا فريضة الحج وشاهدوا

ادريس بن عبد الله بن الحسن وهو يقاتل فى صفوف العلويين ضد جنود العباسيين فى فخ وقد تلطخ قميصه بالدم يضاف إلى ذلك الفارين من وجه الخلافة العباسية من الخوارج وغيرهم من المسلمين. وهكذا فقد وجدت هذه الدعاية وتناقل أخبارها آذانا صاغية ونفوسا متطلعة لنصرة الفارين من وجه الظلم والاضطهاد والعسف الذى هو طابع بنى أمية وبنى العباسى .

ولذا كان من المنطق الطبيعى بل من العدل والاسلام والحق ونصر الدين أن يبايع بالامارة ادريس المطلوم الفار أثر معركة فخ فى وجه الخلافة العباسية، كذلك كان تطلع قبائل البربر إلى زعامة دينية وسياسية كما سبق القول من الاسباب القوية للبيعة حيث أن هذه الزعامة تجمع قبائلهم فى ظل دولة واسعة الارجاء وطيدة البناء، وفى ذلك يقول ابن خلدون أن الوحدة (العصبة) الدينية تقضى على المنافسات التعصبية بين القبائل المختلفة وتقيم دولة وتقف على التحاسد الذى هو أصل العصبية وتفرد الوصية إلى الحق، بجانب رغبة البربر فى تأكيد استقلالهم الفعلى عن الخلافة يتولى أحد مستحقى الخلافة قيادتهم وبذلك يتحقق لهم الاستقلال الحقيقى .

كذلك فان ادريس بن عبد الله كان يتمتع بصفات شخصية نادرة منها حدة الذكاء والصبر والقدرة على الاقناع وقوة الشخصية والاقدام والجرأة والشدة فى الحق والتواضع والتقوى اضافة إلى انه كان منتميا إلى آل البيت النبوى وانتهى نسبه إلى رسول الله ﷺ وهو أول أفراد هذا البيت قدوما إلى المغرب الاقصى وقد تمتع بهذه الصفات التى تؤهله للزعامة والتى اكتسبها منذ نعومة أظافره وتربيته الاولى فى الحجاز فقد كان على جانب من العلم الذى تلقاه على والده عبد الله الكامل الذى كان أهل علم زمانه وتلقاه أيضا على يد أشهر المعلمين فى عصره كما عرف عنه شجاعته الفائقة والتى ظهرت بصورة واضحة فى ثورة الفخ حيث شوهد وقميصه ملطخا بالدماء وهو يقاتل كالاسد وقد توج

هذه الصفات بشمائل خلقية من صبر وحلم وعفو وذكاء وزهد وورع وقد بهرت كل هذه الصفات والشمائل الاخلاقية أمير أوربة وزعيمها اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى ومن ثم أذاع أسرار هذه الصفات ونشرها بين قبيلته وأذاعها بين الناس .

يضاف إلى ذلك ما تحلى به ادريس من صفات خلقية وعقلية وما توافر له من شروط الخلافة استنادا إلى المذهب الزيدى حيث قالوا عن الشهرستانى أن الزيدية من أشهر شيعة من أولاد الحسن والحسين رضى الله عنهما ومن كان عالما زاهدا شجاعا فهو الامام واشترط بعضهم وجاهة الوجه وحسن الخلقة .

ومن هنا كان ادريس بن عبد الله ممن توافرت فيه شروط الخلافة من وجهة نظر الزيدية فهو من أبناء الحسن وقد شهر سيفه فى وجه الخلافة العباسية بالاضافة إلى صفاته الخلقية من علم وزهد وشجاعة بل أن بعض فرق الزيدية الشيعية صرحت وأعلنت بأن الامام بعد محمد النفس الذكية بن عبد الله هو أخوه ادريس، ومن هنا فقد كان التأثير المعنوى لادريس فى قبيلة أوربة وأميرها، تلك القبيلة التى قامت بدور فعال فى ايوائه ونشر دعوته بين القبائل المختلفة وتنازل زعيم أوليلى فى ذلك الوقت (اسحق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى) عن الزعامة رغبة منه فى أن يعلو قدره بين القبائل باعتباره أول من لجأ اليه أحد العلويين فى المغرب الاقصى وكذلك لكونه أول من ناصر الدعوة الجديدة وأيدها بكل ما يملك من قوة ونفوذ .

وقد اتخذ ادريس لقب الامام استنادا إلى أن الشيعة أصبغوا على زعمائهم وقادتهم هذا اللقب وبذلك أصبح ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب اماما للدولة الناشئة التى ظهرت فى المغرب الاقصى والتى تسعى إلى تأكيد سلطانها وبسط نفوذها فى المنطقة والتى تقع على عاتقها توحيد قوى البربر والانطلاق بهذه القوى قدما لنشر رسالة الاسلام ودعم الحضارة العربية الاسلامية .

وهكذا أضحى المغرب الاقصى منذ أن تولى الامام ادريس الاول تقاليد الامارة وقيادة دفة الحكم فى تلك البقعة من العالم العربى الاسلامى، مغربا مزدهرا تحف به الطمأنينة والسلام غنيا بموارده الطبيعية ورجاله الشجعان وبحضارة الاسلام وعمق الشعور بالعروبة وهكذا كان قيام دولة الادارسة دافعا قويا لتغلغل الروح العربية فى نفوس البربر إلى حد أن الرحل العرب والبربر بدون استثناء أصبحوا يرفضون باستنكار فكرة الانتساب إلى أرومة البربر فهم يرون فى ذلك سبابا لهم فانهم لم يكتفوا باتخاذ العربية لغة لهم فحسب بل يؤكدون انهم عرب وانه لا تجرى فى عروقهم نقطة من الدم ليست عربية .

توطيد دعائم دولة الادارسة

لقد كانت استجابة قبائل البربر لدعوة الامام ادريس وقدومهم عليه حيث وجدوا فيه الزعيم الذى يقودهم للنصر ويكسب لهم السيادة على أرضهم وغيرهم من القبائل التى تتوطن جنوبا ومن هنا فانه لم يلبث أن فتح لهم باب الجهاد على نطاق واسع فى مناطق لم يذهب اليها الرومان أو غيرهم من قبل حيث كانت تعيش قبائل بربرية لازالت تعيش على الفطرة والبدائية فقادهم إلى اعتناق الاسلام بعد أن استطاع ادريس بهذه القوات أن يسود حوض سبو وبعض المنطقة الشمالية من المغرب الاقصى وسار بقواته متنقلا فى هذه النواحى يخضع القبائل أو يتلقى طاعتها حتى اذا امتد سلطانه فى أقل من عام من تلمسان إلى ريف تامسنا ومن طنجة إلى وادى ريف أم الربيع وهى رقعة واسعة فسيحة غنية ومهد لدولة يحسب لها حساب .

وهكذا ظهرت دولة الادارسة فى المغرب الاقصى وأصبحت وليلى عاصمة الدولة الجديدة، تلك المدينة التى شهدت وفود قبائل البربر التى اتجهت اليها لتبايع الامام ادريس وتلتف حوله ومن ثم بدأت دولة الادارسة تدخل مرحلة جديدة من مراحل حياتها وهى مرحلة الانطلاق والازدهار والتوسع والنمو حيث قدر للامام ادريس أن يتمكن من فرض

سلطانه السياسى على تلك المساحات الشاسعة من أراضى المغرب الاقصى ونشر أهدافه ومبادئه وتعميق مفهوم الحكم الاسلامى والذى أسس دولته على أساس من المبادئ القرآنية وأحاديث جده رسول الله ﷺ والتزام العدالة فى الحكم والشورى ولهذا أخذ على عاتقه تنظيم الدولة وترتيب أمورها .

ذلك الترتيب الذى دار حول تجهيز معدات القتال واعداد الجند للقتال وتوحيد صفوف البربر وجمعهم على كلمة واحدة وهدف واحد بعد نبذ التناقض والتشاحن والعمل على طاعة المبايعين له وخاصة من قبائل زناتة وأوربة وصنهاجة وهوارة .

ولقد كان الامام ادريس تواقا إلى توسيع نطاق دولته ومد نفوذه السياسى واطواء القبائل تحت رايته فانه ما أن أحس انه استطاع أن يجهز جيشا يعول عليه حتى انطلق به من عاصمته «وليلى» لتحقيق الهدف الاول من دعوته وهو تأسيس قواعد الدولة على أساس اسلامى سليم ومن هنا كان أول عمل قام به هو تنقية جوهر الاسلام مما علق به من خرافات وبدع وشعوذة وخزعبلات لازال البربر يسيرون عليها ومن هنا كان القضاء عليها هو همه الاول، لذا كانت وجهة حملته الاولى إلى الجنوب والشرق جهة بلاد تامسنا وتضم قبائل شتى منها براغوطة ومطماطة وبنو سلب وبنو يعمران وغيرها من القبائل ثم اتجه بعد ذلك إلى بلاد تادلا وهى مدينة بين جبال صنهاجة ففتح ادريس حصونها ومعاقلها ورجع بجيوشه إلى العاصمة وليلى فى أواخر شهر ذى الحجة عام ١٧٢هـ/ ٣٠ مايو ٧٨٩م. وفى سبيل نفس الهدف وهو القضاء على البدع والخرافات والضلالات المنتشرة بين قبائل البربر خرج الامام ادريس فى حملته الثانية وذلك بعد أن أقان فى وليلى شهر محرم ١٧٣هـ/ يونيو ٧٨٩م. طلبا للراحة. وبهاتين الحملتين فرض الامام ادريس سلطته على الساحل الغربى للمغرب الاقصى وامتد سلطانه جنوبا حتى وصل إلى بلاد السوس الاقصى ودخلت بلاد شنقيط فى طاعته (شنقيط هو الاسم العربى القديم

لموريتانيا) وكانت فى العصور الاولى شنقط وكذلك وردت فى السكوك والمسكوكات ولاتزال ترد فى كلام أهل المغرب وكتاباتهم على هذا النحو وشنقيط تعنى عيون الخيل، وبذلك فقد استطاع الامام ادريس نشر الاسلام ومبادئه الصحيحة وتأمين حدود بلاده وخاصة من ناحية الشرق حيث آخر حدود ولاة العباسيين فى افريقية (تونس) .

ولقد اتجه بجيوشه فى رجب ١٧٣هـ/ ديسمبر ٧٨٩م قاصدا مدينة تلمسان ومن بها من قبائل مغراوة وبنى بقرن وهى قاعدة المغرب الاوسط. وما أن وصل إلى أسوارها حتى جاءه أميرها «محمد بن خزر بن صولات المغراوى الخزرى» طالبا الامان ومبايعا له ومعترفا له بالامامة .

وكان الامام ادريس لما توطد له السلطان فى المغرب الاقصى قد اتجه إلى تلمسان لمضايقة ولاة العباسيين بالقيروان والمغرب الاوسط فزحف إلى الجهة الغربية من المغرب الاوسط وكانت تلك الاراضى تقع تحت سيطرة ونفوذ قبيلتين من قبائل زناتة وهما مغراوة وبنى يفون وتندرج تحت نفوذهما تلمسان ووهران والنواحى المحيطة بهما وما حوالى شلف شمالا. ووصل ادريس إلى تلمسان وخرج اليه صاحبها «محمد بن خزر» طائعا مستسلما وسلم المدينة فدخلها ادريس وقواته دون قتال ومن غير حرب أو أدنى اشتباك وأقام بها شهرا بنى بها مسجده العظيم وسجل على منبره بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أمر به الامام ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن رضى الله عنهم وذلك فى صفر عام ١٧٤هـ وبقى هذا التسجيل على المنبر إلى القرن الثامن الهجرى وهو عصر عبد الرحمن بن خلدون .

وقد حاربه ولاة القيروان قبل ظهور الاغالبة «كروح بن حاتم» ولكن لم يستطع أن يفعل شيئا وكانت حملاته دون جدوى لتمرد الجند عليه ورفضهم قتال أبناء النبى ﷺ.

ولحق بادريس أخوه الشقيق «سليمان» الذى أنشأ لنفسه بمعاونة أخيه ادريس كيانا

سياسيا فى نواحى تلمسان وكان قد نجا هو أيضا من وقعة فخ بنواحى مكة المكرمة عام ١٦٩هـ ونزل على تلمسان وابن خلدون يقول انه نزل جهات مدينة تاهرت بعد مهلك أخيه ادريس فاستكبره البربر وطارده الاغالبة ثم تمكن من الاستقرار بمدينة تلمسان واعترف له البربر بالشرف والسيادة واذ عنت له قبائلهم الزناتية .

وقد تطايرت شهرة الامام ادريس فاستقبلته كل القبائل التى حل عليها بالبشر والترحاب ودخلت فى طاعته وتحت لواء الاسلام الصحيح، الذى عمل على نشره فى كل مكان حل به ومن ذلك ما فعله بمدينة تلمسان حيث نجد انه ما أن شرع فى دخولها حتى كان بناء المسجد أول عمل يقوم به وذلك لكى يكون مركز اشعاع للمبادئ الاسلامية الصحيحة الخالية من البدع وليكون المدرسة الاولى التى يتلقى فيها المسلمون أصول دينهم وتعاليم شريعتهم وليكون مركز الدعوة ومحط للانظار طلبا للعلم والدراسة وتحفيظ القرآن الكريم .

وباتمام بناء المسجد واستقرار الاحوال فى تلمسان وبعد أن أصبحت قبيلة مغراوة احدى الاعمدة الرئيسية فى بناء دولة الادارسة رجع الامام عائدا مطمئنا على ما قام به من أعمال فى الاقاليم الشرقية إلى عاصمته «وليلى» وكانت حملته الثالثة هذه التى خرج فيها إلى تلمسان هى نهاية المطاف فى حملاته الحربية .

ولقد كان الهدف من هذه الحملات الحربية الثلاث التى قام بها الامام ادريس بن عبد الله هو العمل على نشر الاسلام بين القبائل البربرية وتخليص ما علق به من خرافات وشعوذة وأمور لا تمت للاسلام بأدنى صلة بل تسئ اليه وكذلك القضاء على الوثنية القديمة التى كانت تسود مناطق الجنوب حيث لم تكن تلك الاماكن قد وصلت اليها أى ديانة سواء النصرانية أو اليهودية كما حاول أن يقول ذلك كتاب الغرب ومن سار على نهجهم من تلاميذهم فى العالم العربى، حيث أن قوة الامبراطورية الرومانية لم تستطع

الوصول إلى هذه الاماكن وكان طابع الوثنية هو الطابع الغالب والسائد بين سكان تلك الجهات الصحراوية .

كذلك عمل الامام ادريس على أن ينشر مذهب الجماعة والسنة للقضاء على المذاهب الخارجية (الخوارج الاباضية والصفرية والازارقة) والتى كانت تتنافى مبادئها وتعاليمها مع مبادئ الدين الاسلامى الحنيف .

وكذلك العمل على فرض سلطانه السياسى على بقاع المغرب الاقصى وفتح الطريق نحو المشرق وفى الواقع كان الهدفان السابقان يخدمان الهدف السياسى وهو فرض سلطانه السياسى وفتح طريق نحو الشرق حيث لابد له من جمع قبائل البربر حول مبدأ يحاربون من أجله وشخصية دينية ذات فاعلية يأتمرون بأمرها وذلك لكى يسهل عليه فيما بعد قيادتهم والانصياع لتعاليمه المستمدة من كتاب الله القويم وسنة محمد ﷺ خاتم المرسلين، وكذلك لكى يأمن ظهره من جهة الشرق خشية انقضاض بعض القبائل العربية عليه من الخلف فى أثناء اتجاه حكمه نحو الشرق .

بداية الاصلاح :

ولقد وجد الامام ادريس أمامه طوائف وشيعا لا تجمعها عقيدة واحدة ولا ترتبط برباط واحد ولذا لم يكن أمامه من سبيل ولا وسيلة سوى تجريد حملاته الحربية المتكررة والتى كان يحرص كل الحرص على أن يقودها بنفسه لكى يقضى على العصبيات المنتشرة فى هذه المنطقة وكذلك لكى يعمل على أن يتجنب الضلالات والعقائد الفاسدة ومحوها من المغرب الاقصى وكل بقعة تخضع لسيادته ولكى يرسى قواعد الدين الاسلامى الصحيحة، ولقد كان يستخدم أسلوب الدعوة واللين والتسامح فى الدعوة للاسلام وكان رحيما ذا حجة قوية فيما يجادلهم من الذين يعتنقون مذاهب غير السنة ومن هنا فانه لم ينشر الاسلام بحد السيف كما قال عنه ذلك بعض المعادين للاسلام من الكتاب أو الذين

لم يتحروا الامانة العلمية والتقنية العلمية، لكن حملات الرجل الامام الاول ادريس استهدفت اقرار الدين الاسلامى واقرار الاوضاع فى تلك الديار وهو الامر الذى افتقدته المنطقة سنين طويلة نتيجة للثورات والاضطرابات التى مرت بها من قبل .

وقد استقر الامام ادريس فى عاصمته « وليلى» وذلك بعد الانتهاء من حملته على تلمسان وأخذ ينظم شئون دولته ويرتب أمورها ويجدد قوة جيشه الكبير استعدادا لمعارك مقبلة يخوضها فى سبيل تحقيق أهدافه ومبادئه ورغبة فى أن يمكن دولته من الاستقلال السياسى والاقتصادى فانه أصدر عملة نقدية بأسمه كمظهر من مظاهر الاستقلال السياسى حيث نقش اسمه على العملة التى أصدرها تأكيدا لسلطانه السياسى على المنطقة. وقد نقش على هذه العملة وفى وسط وجه منها (لا اله الا الله وحده لا شريك له وبدائرة باسم الله) ضرب هذا الدرهم يتذغه سنة ١٧٤هـ. ونقش فى وجه صورة هلال ثم محمد رسول الله ﷺ وتحت ذلك على من أمر به ادريس بن عبد الله، جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا .

وهكذا أخذت الدولة الادريسية الناشئة تسير بخطى واسعة نحو التقدم لكن سياسة التوسع ومحاولة مد حدود الدولة إلى أقصى مكان يصل اليه ادريس وذلك لنشر مبادئه قد توقفت فجأة نتيجة لمؤامرة دبرها الخليفة العباسى الذى بلغه عن طريق الانباء المتداولة مدى قوة الامام ادريس فى تلك المنطقة ومبايعة البربر له واقبالهم عليه وحملاته المتكررة التى أخضعت المغرب الاقصى لسلطته .

بل أن الامام ادريس أصبح فى نظر الخلافة العباسية خطرا يهدد كيان الخلافة وذلك حين عزم على غزو افريقية (تونس) المغرب الادنى والذى كان تابعا للعباسيين، فقد بلغ هارون الرشيد أن الامر استقام فى المغرب الاقصى لادريس وانه وصل إلى المغرب الاوسط (ضم تلمسان) وان كثيرا من القبائل بايعته على الامامة والالتفاف حوله وانه فتح

مدينة تلمسان وبنى مسجدها وجهز جنده لغزو افريقية (المغرب الادنى) ومما زاد من مخاوف الخليفة هارون الرشيد أن الامام ادريس كان يمثل مركزا اجتماعيا مرموقا وممتازا نتيجة لانتمائه لآل البيت النبوى .

وكذلك لكفائته الحربية والقتالية الكبيرة التى أظهرها الامام ادريس بن عبد الله حين قاد حملاته الحربية فى المغرب الاقصى وهذه الحملات حققت أهدافها فى فترة وجيزة وكان الرشيد قد عمل على استمالة العلويين الموجودين بالمدينة المنورة فعزل والى المدينة ولكن أنباء النجاح الذى كان يحققه الامام ادريس كل يوم كانت تصل إلى هارون الرشيد فقضى على كل آماله فى الاستقرار والهدوء ومن هنا أسرع الخليفة فى طلب وزيره «يحيى بن خالد البرمكى» وتدارس معه فى كيفية القضاء على دولة الادارسة .

دور الدولة العباسية فى القضاء على ادريس :

لقد تنبه الخليفة هارون الرشيد إلى ما يمكن أن ينجم عنه خطر الادارسة من قيام تلك الدولة حيث أن أكثر ما أخافه هو علوية الامام ادريس وحب الناس وتعاطفهم مع أهل البيت وما لاهل البيت من مكانة عظيمة فى قلوب المسلمين وخاصة بعد ما جرى لهم على أيدى الامويين أولا ثم العباسيين بعد ذلك وقد تكون هناك مبالغة فى تصوير مخاوف هارون الرشيد لكن الخلافة العباسية كانت ترى من وجهة نظرها أن قيام أية امارة علوية فى أى مكان فى العالم الاسلامى سواء فى الديلم جنوب بحر قزوين أو فى المغرب الاقصى أو فى أى بقعة من بقاع العالم الاسلامى أمر لابد من القضاء عليه .

لكن هارون الرشيد كان قد أدرك أن الاحتفاظ بافريقية بالقوة لم يعد فى الامكان فلجأ إلى السياسة فأقام دولة موالية للخلافة العباسية تكون حاجزا بين أملاك الدولة العباسية فى المغرب العربى الاسلامى وبين هذه الامارة العلوية الناشئة التى أخذت تخطو خطوتها وتهدد بتوحيد المغرب العربى كله تحت قيادتها وعزله عن الخلافة العباسية نهائيا.

ومن هنا كانت وسيلة هارون الرشيد ووزيره البرمكى هو ضرورة التخلص من مؤسس الدولة الناشئة وهو الامام ادريس عن طريق الاغتيال وذلك بعد طول دراسة لانه تبين لهما استحالة ارسال حملات عسكرية للقضاء على امارة ادريس لاسيما أن الجنود العرب قد سبق لهم أن رفضوا قتال أبناء النبى ﷺ ومن هنا كانت وسيلة الاحتيال فى اغتيال ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب بالسم .

وكان قد عهد بتلك المهمة إلى أحد رجال الشيعة الزيدية وهو «سليمان بن جرير» ويدعى الشماخ وكان رجلا جريئا فحمل السم ومضى إلى المغرب وفى مقابل ذلك منح مكافأة مالية قدرها مائة ألف درهم ومركزا يمثله فى الدولة وذلك فى حالة نجاحه فى تنفيذ المهمة الموكلة له. كما انه كتب كتابا إلى ابراهيم بن الاغلب ليقوم بتقديم التسهيلات الممكنة لسليمان بن جرير فى مهمته وكان ابراهيم بن الاغلب فى ذلك الوقت يتولى حكم ولاية «الزاب» ولم يكن قد تم تعيينه أميرا على افريقية حيث أن الامام ادريس تم قتله عام ١٧٥هـ / ٧٩٥م فى حين أن ابن الاغلب تولى امارة افريقية عام ١٨٤/ ٨٠٠م ويذكر أن ابراهيم بن الاغلب لم يجد خيرا من أن يدس له من يقتله بالسم. وذلك بعد أن فشلت الخلافة وحاكم افريقية فى أن يصد تيار الادارسة فى زحفهم نحو تلمسان ثم الاتجاه شرقا بل توقف زحفهم وتصدهم عن تلمسان التى ضمها الامام ادريس إلى دولته ولكنه لم يفلح فلجأت الدولة إلى المؤامرات والسم عن طريق الاستعانة أيضا بابراهيم بن الاغلب وان كان ابراهيم بن الاغلب قد نجح فى قتل ادريس الاول ثم مولاه راشد فيما بعد الا انه لم ينجح فى القضاء على دولة الادارسة ولذا أقام الادارسة دولتهم فى المغرب فيما اقتصر نفوذ ابراهيم بن الاغلب على القيروان وامتد شرقا حتى شمل طرابلس وبرقة .

وكان سليمان بن جرير المشهور بالشماخ قد نجح فى كسب ثقة الامام ادريس حتى

انه كان لا يأكل ولا يشرب الا مع سليمان لفصاحته وحلو حديثه وبلاغته .

بل ان ادريس كان يثق فى سليمان ثقة بالغة حيث أدخله فى خدمته الخصوصية. وقد اغتنم سليمان هذا الوضع الفريد والمميز والراحة النفسية التى يبديها الامام له فى كل مرة كان لا يزال يتحين الفرص المناسبة والملائمة لتحقيق هدفه الذى أرسل من بغداد لاجل تحقيقه وبعد أن يذل له ابن الاغلب كل ما يستطيع حتى وجد تلك الفرصة حين ترك راشد مولى الامام ادريس سيده ليقضى بعض شئونه وكان راشد لا يفارق الامام أبدا خوفا عليه وتجمع المصادر على أن الاغتيال كان عن طريق دس السم وقيل أن موت الامام ادريس كان عام ١٧٥ أو ١٧٧هـ وتروى الروايات أن الشماخ دس له السم فى هيئة طيب دخل فى خيشومة أنفه كما تقول بذلك الروايات التى نقلها المؤرخون على انها جزء من تاريخ الدولة وينتهى السم إلى دماغه فيغشى عليه ويسقط على وجهه لا يحس ولا يعقل ولا يعلم أحد ما به ولا ما أصابه وقد تكون تلك الرواية صحيحة لاسيما وأن الناس قد استنكروا أن يموت الرجل فجأة بعد ثلاثة أعوام من قيام دولته بل انه مات فى عنفوان شبابه ذلك لان موت الرجال فى عنفوان شبابهم وقوتهم يروع النفوس خاصة اذا كانت الوفاة فجأة وبسبب مجهول .

وكان سليمان بن جرير ويعرف بالشماخ قد دس السم فى قارورة ملأى بالطيب وقيل انه دسه فى مسواك قدمه اليه وكان ادريس يشكو ألما فى أسنانه ولثته وقيل انه قدم له عنبا مسموما ولما تحقق الشماخ انه نجح فى الغرض الذى قدم من أجله هرب وقدم على ابراهيم بن الاغلب فأخبره بما فعل وجاءته بعد ذلك الاخبار بموت ادريس فكتب ابن الاغلب إلى الرشيد بذلك فولى الشماخ بريد مصر وأخبارها .

وفر سليمان بن جرير من المغرب الاقصى حتى وصل إلى العراق ولقد نجح الخليفة هارون الرشيد فى القضاء على مؤسس الدولة وهو فى عنفوان شبابه وبعد مضى ثلاث أعوام

فقط من قيام الدولة وربما يكون موت ادريس وقتله من الاسباب القوية التى جعلت الخليفة هارون الرشيد يعهد إلى ابراهيم بن الاغلب بولاية افريقية (تونس) والذى نجح فى أن يحافظ عليها ويقف فى وجه الادارسة اذا سولت لهم أنفسهم الاغارة على أملاك الدولة العباسية الواقعة فى شرق دولتهم، ومن هنا لم يبدأ ابن الاغلب فى مقتل الامام ادريس بل انه قام بدور فى ذلك حيث سهل لسليمان بن جرير طريق الذهاب إلى وليلى والعودة إلى بغداد .

علما أن مقتل الامام ادريس الاول لم يوقف جهود العلويين فى بلاد المغرب ولم يؤثر فى الحركة الاستقلالية التى قادها الامام الراحل، لكن بمقتل الامام ادريس الاول طويت صفحة مجيدة من حياة الامام ادريس بن عبد الله حيث استطاع فى سنوات قلائل تقدر بين ثلاث سنوات أو خمس سنوات ما بين البيعة إلى تاريخ مقتله ان يؤسس دولته على أساس من التعاليم الاسلامية الحقيقية وأن يكون مبدأ الحكم العدالة والايمان والتقوى .

واذ كنا قد تحدثنا عن الامام ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب مؤسس دولة الادارسة وعن اسحق بن محمد ابن عبد الحميد الاوربى زعيم قبيلة أوربة وزعيم وليلى فلابد أن نلقى نظرة على حياة الرجل الاول فى قيام وظهور دولة الادارسة وصاحب فكرة الرحيل إلى المغرب الاقصى وبطل تهريب الامام من مكة المكرمة حتى وصلا إلى طنجة وليلى .

ولقد كان راشد مولى ادريس وهو «راشد بن منصة الاوربى البربرى» الذى يرجع نسبه إلى قبيلة أوربة احدى قبائل المغرب الاقصى ملازما لادريس منذ فراره من معركة فخ حتى وصوله إلى المغرب الاقصى مهد الادارسة. ولقد كان للدور الذى لعبه راشد فى الحفاظ على وحدة البربر والسير على نفس المبادئ التى رسمها الامام ادريس بن عبد الله

عظيم الاثر فى بقاء دولة الادارسة .

كذلك كان لزعيم قبيلة أوربة لدعوة ادريس بن عبد الله مع تنازل زعيمها اسحاق ابن محمد عبد الحميد الاوربى عن الزعامة لادريس الاثر الكبير فى تدعيم دولة الادارسة واستقرارها ونتيجة لذلك حافظت دولة الادارسة على وجودها وبقائها بل ان دولة الادارسة تابعت حياتها بالرغم من مقتل مؤسسها الاول ادريس ودخلت فى مرحلة جديدة من مراحل حياتها وهى مرحلة الانتقال ما بين عهد ادريس الراحل إلى دور ابنه ادريس بن ادريس .

الباب التاسع

دولة الأدارسة فى طورها الثانى

(ادريس الثانى بن ادريس)

لم يؤثر مقتل الامام ادريس الاول فى سير الدولة الناشئة ولا فى الانقضاض على الحركة الاستقلالية فقد كانت لادريس آمه حامل فانتظر اشياعه حتى ولدت ذكرا أسموه ادريس الثانى فكان ادريس الثانى هو المؤسس الحقيقى لدولة الادارسة .

وقد ظهرت هنا مهارة راشد ودوره فى ترسيخ دعائم دولة الادارسة فهو المدير الحقيقى والمنفذ لظهور تلك الدولة فهو المحور الاساسى الذى ارتكزت عليه دعائم الدولة بجانب الدور الذى قام به زعيم قبيلة أوربة «اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى» وكان من حسن حظ راشد العاشق بحب البيت النبوى العلوى أن الامام ادريس لما مات متأثرا بالسم ترك زوجته وتسمى كنزة حاملا فاتفق راشد مع رؤساء القبائل التى بايعته قبل مقتله على أن ينتظروا المولود الذى لازال فى بطن أمه فاذا ولدت غلاما كان أميرهم وتسير القصة فيكون المولود ولدا فسموه ادريس على اسم أبيه وبايعوه بالامارة والامامة وهو لايزال طفلا فى المهد ولا شك أن الذين فعلوا ذلك ووقع عليهم ذلك العبء هم شيوخ القبائل وكبارها وكان عزيزا عليهم أن يضيع السلطان الذى وصلوا اليه باسم أمير من أمراء البيت النبوى ولهذا انتظروا حتى بلغ ادريس الثانى عشر سنوات فبايعوه مرة أخرى عام ١٨٦هـ/٨٠٢م واهتم راشد بتربيته وتكوينه واعداده للامارة، بل أن راشدا لازال مسئولا عنه مسئولية تامة حتى شب عن الطوق .

وكانت الدولة الناشئة قد أصيبت بكارثة فادحة حين قتل مؤسسها ادريس بن عبد الله وهو فى ريعان شبابه وقوته ولم يمض عليه سوى ثلاث أو خمس سنوات على تولية

الامامة، وذلك لان البربر لم يكونوا يركنون إلى زعيم قوى يجمعهم على كلمة سواء ويوحد صفوفهم تحت راية واحدة ويقودهم بقوة إلى طريق النجاح حتى انهم لم يجدوا بعد مقتله من يخلفه فى قيادة البربر لانه مات فجأة ولم يعين من يخلفه ويقوم بالاضطلاع بمهام الحكم فى الدولة الجديدة .

ويذكر انه ما أن فرغ راشد الذى أصيب بصدمة مباشرة من دفن مولاه حتى جمع رؤساء القبائل وزعماء البربر ليبحث معهم الموقف من جديد ويتدارس معهم الابعاد السياسية التى ترتبت على مقتل الامام ادريس بن عبد الله وما هى المخاطر التى يمكن أن تتعرض لها الدولة اذ لم تتوحد كلمتهم وعرض عليهم راشد الموقف بأبعاده المختلفة وبين لهم ما هى القوى التى تحركت لقتل امامهم وما تريد من المغرب الاقصى وما هى المخاطر المحدقة بحدود دولتهم وأن المقصد الوحيد من مقتل امامهم هو القضاء على دولتهم الناشئة وان الذى دبر تلك المؤامرة هو الخليفة العباسى هارون الرشيد وساعده فى ذلك وزيره يحيى بن خالد البرمكى بالاتفاق مع ابراهيم ابن الاغلب حاكم اقليم الزاب المجاور لحدود دولتهم وكان راشد قد أبدى لهم رأيا عرضه لهم وهو انتظار مولود الامام ادريس فان كان المولود ذكرا بايعوه بالامامة خلفا لوالده الشهيد وان كانت أنثى نظروا فى أمرهم من جديد .

وهكذا حرص راشد فى جعل الامامة فى ذرية ادريس بن عبد الله وذرية النبى ﷺ .

وقد أستجيب إلى طلبه فى الانتظار حتى تضع كنزة زوجة الامام مولودها. وبذلك قضى على الفتنة فى مهدها ومنع حدوث كوارث ونزاعات بين رؤساء القبائل وزعماء البربر طلبا للسلطة والزعامة وكذلك أجمعوا على أن تكون الامامة لراشد فيما لو كان المولود أنثى وذلك لما يتمتع به راشد من أخلاق كريمة وعلم غزير ومهارة سياسية. اضافة إلى أن البربر قد أحسوا بطعم الوحدة خلال تلك السنوات القلائل من حكم الامام ادريس الاول فعملوا على المحافظة على هذه الوحدة التى حققها الامام الراحل بالعمل والكفاح

والدعوة .

وهكذا تولى راشد الاوربى مقاليد الامور فى دولة الادارسة حيث حافظ على الدولة من التفكك والانقسام والانهيار والدخول فى صراعات قبلية جديدة والعودة إلى التمزق ولذلك حفظ كيان الدولة وسلامتها من الزوال كما كانت له اليد الطولى فى انشائها من قبل مع مولاه ادريس بن عبد الله فقام بدور كبير وحرص شديد فى الحفاظ على ادريس طوال الرحلة الشاقة حيث فر مع الامام ادريس من موقعة فخ وصاحبه فى رحلته من الحجاز حتى وصلا إلى بلاد المغرب الاقصى ولقد كان راشد فى أثناء الرحلة الطويلة بالغ الحرص على حياة ادريس .

ولقد كانت زوجة ادريس الاول وأم ادريس الثانى «هى كنزة بنت اسحاق بن محمد ابن عبد الحميد الاوربى» زعيم قبيلة أوربة الذى بايع ادريس الاول بالدعوة له حين نزل عليه هو ومولاه راشد وتم زواجها فى عام ١٧٤هـ/ ٧٩٠م وانه من حسن حظ الاسلام فى تلك البقعة وكذلك من حظ الادارسة أيضا أن جاء المولود ذكرا وهو ادريس الثانى .

وما أن عرف البربر حقيقة المولود الجديد حتى أطلقوا عليه اسم ادريس بن ادريس ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وبايعوه بالامامة رضيعا وكان مولده فى ربيع آخر عام ١٧٠هـ / ٧٩١م وأشرف راشد على تربيته وتنشئته النشأة الصالحة حتى يكون أهلا وحقا لتولى مقاليد الامور وقيادة الدولة التى قامت على أكتاف أبيه وأكتافه وأكتاف جده اسحاق الاوربى فاتم حفظ القرآن الكريم وعمره لم يصل ثمانية أعوام وعلمه السنة والفقه والنحو والحديث والشعر وأمثال العرب وحكمها وسير الملوك الصالحين وسياسة البلاد العربية والاسلامية ردربه على ركوب الخيل والرمى بالسهام ومكايد الحرب وكيفية تحقيق النصر .

وما أن بلغ ادريس الثانى العام الحادى عشر حتى شرع راشد فى دعوة البربر لمبايعته

وهنا ينتشر الخبر ويصل إلى أسماع ابراهيم بن الاغلب الذى تولى الامارة فى المغرب الادنى عام ١٨٤هـ/ ٨٠٠م أنباء اقبال البربر على مبايعة ادريس بن ادريس بالامامة والامارة ويضطر ابن الاغلب ويتدبر الأمر فيجد أن القائم على أمر الدعوة وتربية ادريس هو راشد مولى والده ادريس الاول فهو الذى دعا قبائل البربر إلى الالتفاف حول ادريس بن ادريس ومبايعته فلم يجد وسيلة للقضاء على هذا الخطر سوى استمالة بعض البربر المحيطين براشد وذلك بارسال الاموال والهدايا اليهم وذلك ليقاتلوا راشدا .

وهكذا بطريق المؤامرة والدس أيضا قتل راشد كما قتل سيده من قبل ادريس الاكبر وتم اغتياله فى عام ١٨٦هـ / ٨٠٢م. لان ابن الاغلب علم أن راشد هو سر قوة الادارسة فدس له من قتله ولكن البربر بايعوا الصغير ادريس الثانى فى مسجد أوليلة وقد بلغ الحادية عشرة من عمره .

وهكذا مات راشد عقب ذلك وقيل أن ابراهيم بن الاغلب تحيل فى سمه. وهكذا بقى ادريس الثانى وهو غلام دون راع حقيقى، وعجز ابراهيم بن الاغلب للمرة الثانية فى القضاء على الدولة الادريسية بالقوة فى عهد ادريس الثانى ولجأ إلى الدس لتفريق البربر عنه ولكنه فشل فى ذلك .

وقد تولى كفالة ورعاية الامام الثانى ادريس «أبو خالد يزيد بن الياس المهدى» حتى اذا كان عام ١٨٨هـ / ٨٠٤م أخذ له أبو خالد البيعة على قبائل البربر وكان عمر ادريس بن ادريس قد جاوز الثالثة عشر عاما فى ذلك الوقت الذى صار فيه اماما .

وكان قد وجه همه لمحاربة الصفرية الخوارج وأحل بهم الهزيمة ويذكر ابن الاثير أن ابراهيم بن الاغلب أراد قتال ادريس الثانى فنهاه أصحابه وقالوا له أتركه ما تركك، فكتب اليه ادريس يذكر له قرابته من رسول الله ﷺ فكف عنه وتوفى ادريس فى شهر جمادى الآخرة عام ٢١٣هـ وهو فى السادسة والثلاثين من عمره .

ولقد قامت دولة الادارسة بدور كبير فى نشر الاسلام فى ربوع المغرب وكان لانتسابهم إلى الرسول الكريم ﷺ أثر كبير فى توحيد القبائل المعادية وتأييد الاهليين لهم بعد أن كادت فتنة الخوارج تفرق شملهم واستطاع الامام ادريس لاول مرة أن يحول نظر هذه القبائل إلى حركة الجهاد المقدس بقصد اتمام نشر الاسلام فى البلاد .

وما أن بايعته القبائل البربرية حتى صعد المنبر ودعا كل القبائل التى لم تبايعه إلى القدوم لمبايعته، وما أن انتهى ادريس بن ادريس من القاء خطبته حتى أقبلت عليه الوفود لمبايعته وتأييد الامام الجديد ومن هذه الوفود زناتة وزواغة وأوربة وغمارة وسائر قبائل البربر .

وبالتفاف البربر حول الامام ادريس بن ادريس بدأت صفحة جديدة فى تاريخ دولة الادارسة حين أخذ الامام يوطد أركان دولته ويثبت دعائم حكمه باستمالة رؤساء قبائل البربر وتوزيع الاموال عليهم واستمر ولاء القبائل له وفى عام ١٩٢هـ/ ٨٠٨م كان ادريس بن ادريس قد بلغ السابعة عشرة من عمره ويختفى «أبو خالد» من الميدان يتهمه التواطؤ مع ابراهيم بن الاغلب وباختفاء أبى خالد بدأ ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن أو ادريس الثانى يحكم بلاد المغرب الاقصى مستقلا بنفسه ابتداء من عام ١٩٢هـ / ٨٠٨م ومن ذلك فقد بدأ يوطد الصلات معهم .

وفى ذلك يذكر ابن أبى زرع أنه قام فى ثمانية وثمانين وهو العام الذى ولى فيها بتوزيع الاموال ويصل الوفود ويستميل رؤساء القبائل ولاسيما المشايخ «الاشياخ» وقد انتهج سياسة طيبة فى حكمه فنشر العدل بين أفراد رعيته ولقد كانت تلك السياسة العادلة قد أغرت كثيرا من العرب فى افريقية (المغرب الادنى والاندلس) باللجوء اليه والانطواء تحت لوائه ثم أعقب ذلك مباشرة وفود كثيرة من مهاجرى العرب والذين بدأوا يفدون على ادريس من القيروان خاصة ويدخلون فى خدمته ومن ثم يتجه نظره إلى الاستعانة بهم. وقد كان وفد الاندلس قد فروا بأنفسهم من ظلم الامير الاندلسى الاموى الحكم بن هشام

الذى تولى حكم الاندلس عام ١٨٠هـ /٧٩٦م. وقد دفعت هذه السياسة الجائرة كثرا من العرب إلى الالتجاء إلى دولة الادارسة .

قد تحدث ابن أبى زرع فى كتابه الانيس المطرب بقوله «فى سنة تسع وثمانين ومائة وفدت على ادريس رضى الله عنه وفود العرب من بلاد افريقية (المغرب الادنى) وبلاد الاندلس فى نحو الخمسمائة من «القيسية والازد ومدحج وبنى يحصب والسدف» وغيرهم وقد استقرت هذه الوفود بالعاصمة وليلى وقد رحب بهم الامام ادريس الثانى وذلك رغبة منه فى نشر الثقافة العربية الاسلامية فى دولة الادارسة وقربهم اليه واتخذ منهم أعدادا كبيرة فى مناصب الدولة وكذلك لتطعيم عناصر دولته بالعناصر العربية الوافدة وبذلك ترسخ قواعد الحضارة الاسلامية العريقة فى دولة الادارسة .

وهكذا أصبحت الادارة التى تتولى مقاليد الامور وتشرف على حكم الدولة ادارة عربية وفى الواقع كان لمجئ الوفود العربية إلى دولة الادارسة آثار كبيرة فى استقرار الدولة وفى تمكين حكم ادريس وسيطرته على مختلف القبائل حيث قوى العنصر العربى فى دولته كذلك توطدت اركان حكمه بهذه القوة العربية وثبت من أقدامه فى الحكم ولا سيما انه كان صغير السن واستطاع الامام ادريس استنادا إلى هذه القوة القضاء على كل من تحدثه نفسه بالخروج على نظام الدولة أو التآمر على انهاء سلطانها وسلامتها .

وهكذا كانت هذه الوفود العربية كسبا كبيرا لادريس ولدولته واستقامت له الامور بمعاونة الادارة العربية الجديدة، وقد دفع هذا الوضع المستقر جماعة من أهل العراق للمجئ إلى دولة الادارسة فى أقصى الغرب للاقامة فيها وبدأت الدولة الادريسية تكتسب أنصارا جدا من جميع أنحاء الدولة الاسلامية وما كان يبديه الامام ادريس من اكرام للوفود العربية التى تفد إلى دولته، ولقد كان ادريس، حازما فى ادارة شئون الحكم حريصا على توفير الامن والطمأنينة لرعاياه .

ولقد كانت الوفود العربية وغيرها التى كانت تفد إلى العاصمة وليلى مدعاة لازدحام العاصمة بالسكان مما دفع ادريس بن ادريس إلى البحث عن مكان يصبح عاصمة جديدة تتسع للوفود العربية فضلا عن الجنود والحاشية والادارة العربية الجديدة .

اضافة إلى أنه عمل على توطيد حدود الدولة من الناحية الشرقية حيث كانت ولاية تلمسان تخضع لنفوذ الادارسة ويتولى ادارة شئونها ابن عمه «محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وكانت تربطه بابن عمه ادريس الثانى روابط قوية وتعرض للعديد من المشاكل مما اضطر ادريس الثانى إلى تجريد حملة حربية يقودها بنفسه عام ١٩٩هـ ليجدد نفوذ دولته ويثبت أركان حكم بنى ادريس فحارب الخارجين على الدولة من الخوارج الصفرية وكذلك قبائل نفرة وغيرها من القبائل حتى بلغ إلى ما وراء نهر شلف. وكان المسجد الذى أقامه والده ادريس فى تلمسان قد تصدع فرممه وأصلحه وأقام بتلمسان ثلاث سنوات ثم عقد صلحا مع ابن الاغلب وتم تعيين الحدود بينهما على أن يكون الحد الفاصل هو وادى شلف وقبل أن يعود إلى المغرب عقد حكم ولاية تلمسان لابن عمه محمد بن سليمان ثم كر راجعا إلى المغرب .

وهكذا نجد ادريس بعد أربع سنوات من حكمه قد بدأ يبحث عن مكان يقيم فيه عاصمة جديدة له ولم تلبث غريزة الدفاع عن النفس أن قادته إلى مكان يسهل الدفاع عنه .

اختيار العاصمة وظهور مدينة فاس :

اشترى الامام ادريس الثانى أرض البناء من القبيلة التى كانت تقطن فوقها بسبعة آلاف درهم وما أن تمت مراسم الشراء والبيع حتى شرع ادريس بن ادريس فى البناء وذلك فى يوم الثلاثاء الاول من ربيع الاول عام ١٩٢هـ / ٤ يناير ٨٠٨م وقد صلى ادريس بها ودعا ربه أن يجعل هذه المدينة حصنا للاسلام والمسلمين وأن يجعلها دار علم

وفقه ويتلى فيها كتاب الله القويم وتقام بها حدوده وأن يجعل أهلها متمسكين بالكتاب والسنة والجماعة .

ولقد كان الدافع الدينى هو المحرك الاساسى لبناء تلك المدينة الدينية حيث تكون مدينة اسلامية يتدارس فيها علوم الدين والثقافة الاسلامية وتكون كعبة يقصدها العلماء والطلاب طلبا للعلم كغيرها من أمهات المدن الاسلامية مثل بغداد وقرطبة .

وان كانت هناك بعض الآراء تذكر انه كان يريد أن يتحلل من سيطرة قبيلة أوربة وسلطانها فأرشده بعض معاونيه على واد يصلح لمدينة على أحد فروع نهر سيو بين جبلين يسمى وادى فاس ومدينة فاس مدينتان جليلتان كبيرتان كل واحدة منها محصنة بينهما واد جرار وهو نهر بطئ وقناطر وعدوة القرويين فى غرب عدوه الاندلسيين وأسست عدوه الاندلسيين عام ١٩٢هـ وغدوه القرويين عام ١٩٣هـ وبها جامع حسن .

وكان الامام ادريس بن ادريس قد قام ببناء عدوة الاندلسيين أولا وذلك لان أغلب سكانه من الوافدين من الاندلس ثم قام ببناء عدوة القرويين وقد أحاطها بالاسوار العالية ذات الابراج العالية على أمثال المدن العربية الكبيرة وتقاطر عليه البربر ومهاجرو الاندلس .

وان كانت أقوال تذكر انه أنشأ بلدة صغيرة سميت عدوة القرويين ثم وفدت جماعات من مهاجرى قرطبة وأنشأوا قرية صغيرة مجاورة عرفت باسم عدوة الاندلسيين ومن العدوتين تكونت مدينة فاس وابتنى ادريس الثانى لنفسه دارا فى عدوة القرويين وشرع فى انشاء المسجد الجامع لفاس وانتقل إلى فاس وأصبحت عاصمة دولة الادارسة منذ عام ١٩٦هـ / ٨١١م وهكذا انتقل ادريس هو وجيشه وحشمه ومواكبه وسائر رعيته من التجار والصناع إلى ذلك الحى أما عدوة الاندلسيين فأنزل بها جميع جنوده وقاد جنده وجعل بها مخازن تلك القوات وما يلزمه من الخيل والابل والبقر والغنم ووضع كل ذلك فى أيدى ثقاته ومن يحس بالامن والامان منهم. ولقد أطلق على عدوة القرويين هذا الاسم

لان كثيرا من الأسر العربية التى وفدت إلى ذلك الحى كانوا من أهل القيروان فقد نزلت معه فى هذا الحى. وكان المسجد الذى أنشأه فى عدوة القرويين قد أطلق عليه مسجد الشرفاء وهكذا أطلق على المدينة اسم فاس وهناك آراء مختلفة فى سبب هذه التسمية وهناك رأى بأن ادريس الثانى حين شرع فى البناء كان يعمل مع الصناع والبنائين فصنع له بعض العمال فأسا فكان الامام يمسكه يبدأ به العمل والحفر ويختط به الأساس للبنائين فكثر لذلك ذكر الفاس على ألسنتهم ولذلك سميت مدينة فاس، وهناك رأى بأن العمال حين بدأوا الحفر وجدوا بها فأسا فى باطن الارض وهناك عدة آراء مختلفة فى شأن التسمية .

وبانتهاء عملية البناء واختيار اسم العاصمة الجديدة أعلن الامام ادريس الثانى أن الهدف من أنشاء المدينة الجديدة بحيث يكون طابعها العلم والمعرفة وتدارس أحكام الدين الاسلامى وهذه المدينة التى أصبحت فيما بعد كعبة يقصدها العلماء من كل فج .

وقد صارت فاس عاصمة جديدة للامام ادريس بن ادريس ومدينة تسير بخطى سريعة نحو التقدم والازدهار وتزدحم بالسكان نتيجة للتسهيلات التى منحها الامام ادريس الثانى للوافدين عليها .

وكذلك جريا على ما اتبعه والده من قبل فى اصدار عملة نقدية لتأكيد استقلاله واستقلال دولته أصدر ادريس عملة نقدية منقوشا عليها اسمه كمظهر من مظاهر الاستقلال السياسى والاقتصادى لدولته وتأكيدا لسيادته وسلطته .

وهكذا كانت أوضاع المغرب الاقصى مهيأة فى ذلك الوقت بالذات للزعامة السياسية والزعامة الثقافية ففى هذه البقعة من افريقية تلتقى المؤثرات الاسلامية العربية القادمة من تونس (المغرب الادنى، والجزائر، والمغرب الاوسط) والاندلس بالمؤثرات القادمة عن طريق ساحل المحيط الاطلسى، ولقد كان تأسيس مدينة فاس فاتحة عهد جديد فى تارخ

البلاد فقد أصبحت حاضرة المغرب الاقصى يقصدها العلماء والتجار من كل صوب .

وبدأت مدرسة فاس تتلقى المؤثرات الثقافية من القيروان وأخذت تكون شخصيتها المستقلة فى نشر العلوم الاسلامية فى ربوع البلاد وكان أئمة الادارسة أنفسهم يؤيدون هذه الحركة العملية ولهم الفضل فى نشر الثقافة العربية فى البلاد .

وقد ساعدت كل هذه الآمور على استقرار الاحوال فى العاصمة الجديدة واستتباب الامور الداخلية .

الاعمال الخارجية :

ما أن أقبل عام ١٩٧هـ/ ٨١٢م حتى تابع الامام ادريس الثانى أعمال والده الحربية وذلك عن طريق توسيع رقعة البلاد وتأكيد سلطة الدولة على الاراضى والقبائل التى تخضع لها وكذلك عملا على تأكيد سلطانه السياسى وتثبيت دعائم الاسلام وتعميق المفهوم الصحيح للمبادئ الاسلامية السمحة ولذلك جرد حملتين احداهما ناحية الجنوب والغرب والاخرى فى الاتجاه الشرقى وذلك لغزو قبيلة نفوسة وبلاد المصامدة وبعد أن تم فتح مدينة تفيس اتجه إلى مدينة اغمات التى تضم قبائل المصامدة وبعد أن تم فتح هذه المدينة اتجه إلى بلاد المصامدة من أهل الجبل بالمغرب الاقصى ثم قبائل براغوطة وذلك استكمالا للحملات التى كان قد قام بها والده الامام ادريس الاول قبل أن تفاجئه المنية وقبل أن يبسط سلطانه على مناطق الجنوب والقضاء على المذاهب الخارجية ونشر الاسلام فى المناطق التى لم يدخلها الاسلام بعد أن كان قد احتل مدن مصمودة فى منطقة الاطلس العليا جنوب مراكش وكان قد أرسل ابن عمه محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن إلى تلمسان ليتولى أمورها وكانت تتبع العباسيين وعليها ابراهيم بن الاغلب قبل أن يفرض سيطرته عليها الامام ادريس الاول .

وهكذا كان عام ١٩٧هـ/ ٨١٢– ٨١٣م هو العام الذى بدأ فيه ادريس سلسلة

حملاته الحربية لتثبيت سلطان الدولة من تلمسان إلى المحيط الاطلسى ونشط لحرب الخواج فى جبال الاطلس ودارت حرب طويلة بينه وبين قبيلة البراغواطيين. وفى هذا الدور من تاريخ الادارسة حمل عبء الجهاد الاسلامى قبيلتا أوربة وغمارة بشكل خاص .

وكانت الاسباب القوية التى دفعته إلى تصفية الخوارج هو رغبته فى أن يعيش وجماعته فى فاس فى ظل الامن والسلام. ومن هنا كان خروجه لمحو آثار دعوة الخوارج من الصفرية ومذهب الواصلية الذين يعتبرون فرعا من المعتزلة والذى كان سائدا ومنتشرا فى تلك الاماكن التى يقصدها .

وكذلك شهد عام ١٩٩هـ / ٨١٤م خروج الامام ادريس الثانى إلى قبائل نفرة وتلمسان ومكث فترة طويلة فى تلمسان تقدرها المصادر بثلاث سنوات لم تكن من أجل الحرب ولكن لانها أبعد حدوده الشرقية المجاورة للاغالبة فقد قام بعدة اصلاحات خلال تلك الفترة ومنها أنشاءات معمارية وهندسية وعسكرية وذلك حتى تتحسن أحوال أهل تلك المدينة المعيشية وحتى يشعر سكانها بالاطمئنان فى ظل حكم الادارسة فقام باصلاح أسوارها وترميم أبراجها وجامعها الكبير ومساجدها الصغيرة وبناء الاستحكامات الضرورية للدفاع عنها وهكذا نرى اهتمام الامام ادريس بالناحية الدينية المتمثلة فى اصلاح مسجد المدينة وبناء منبر جديد له بأعتبار أن المسجد مركز اشعاع لتعاليم الاسلام وتربية المسلمين تربية دينية وكذلك الاهتمام بالنواحى العسكرية والمدنية والعمل على اسعاد مواطنيه واراحتم ماديا ومعيشيا وتوفير كل أسباب الاستقرار والطمأنينة لهم .

وبانتهاء تلك الحملة الثانية فى اتجاه الشرق صوب تلمسان حيث حدود الدولة الاغلبية فانه انتهت أعمال ادريس الثانى التى أثبتت من خلال انجازاته فيها وما قام به من أعمال عسكرية وتأديبية واسلامية ومدنية ومعمارية أنه كان على دراية كبيرة بفنون الحرب والقتال والادارة والتقوى والاصلاح والعمران .

كذلك فانه كان سياسيا بارعا من طراز فريد اذ انه رغم استعانته بالعرب وجعله الادارة العليا فى البلاد فى أيديهم الا انه لم يغفل جانب البربر الذين نشأ وتربى بينهم لذا فانه عمل على توطيد صلاته الوثيقة بهم وعمل على اجتذابهم اليه وخاصة اخوانه من قبيلة أوربة التى تمسكت به وتمسك بها وكانت علاقته بها أقوى وأمتن من أية علاقة أخرى .

كذلك فان للجانب العربى دورا بارزا فى انجاح سياسة ادريس الثانى اذ ان اتجاهه إلى اتخاذ أعوان ومستشاريين له من بينهم وخاصة عرب القيروان والاندلس وغيرهم من بقاع العالم الاسلامى إلى جانب مجموعات الاسر العربية التى أقبلت على دولة الادارسة ولقد كانت الاستعانة بهؤلاء توطيدا وتعزيزا لمكانة ادريس الثانى بين رعيته وشعبه الذى التف حوله خاصة أن الدماء البربرية من أوربة تجرى فى عروقه حيث ان أمه كنزة بنت اسحق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى .

ومن هنا فانه لايوجد أدنى شك أن نجاح سياسته الداخليه والخارجية كان يعتمد بالدرجة الاولى على تشجيع العنصر العربى الوافد بجانب تأييد البربر له ولاسيما قبيلة أخواله أوربة القوية وكان هذا التأييد القوى والجارف من الاسباب القوية التى شجعته للقيام بحملاته الحربية لتأكيد سلطانه وبسط نفوذه على المناطق التى لم تخضع لسلطان الادارسة من قبل. كذلك فان حملاته الحربية كانت استكمالا للحملات الحربية التى قام بها والده الامام ادريس الاول .

وذلك لكى يدعم النفوذ الادريسى فى تلك الاصقاع ولكى يفتتح البلدان التى لم يتمكن والده من فتحها من قبل ويبدو انه سار فى هذه الحملات على خطة كان والده قد رسمها لكنه لم يستكمل تنفيذها نظرا لتدخل الدولة العباسية والاغالبة فى دس السم له، كما أنه نجح فى اخضاع المناطق التى خلعت طاعته بعد مقتل والده وهكذا رجع الامام

ادريس بتبعية تلمسان للعاصمة فاس. بعد أن قضى بها ثلاث سنوات ١٩٩– ٢٠٢هـ/ ٨١٤– ٨١٧م، وهكذا كللت جهوده بالنجاح وجاءت أعماله وثمرة جهوده بالازدهار لدولته بعد أن بذل جهده فى نشر الاسلام وتطبيقا لاحكام الدين الاسلامى الحنيف واضعا نصب عينيه الشجرة المباركة الطاهرة التى ينتمى اليها وسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين فى ارساء دعائم حكم الشريعة .

حتى اذا كان عام ٢١٣هـ/ ٨٢٩م توفى الامام ادريس الثانى وكان ابن ثلاث وثلاثين عاما وتذكر بعض الآراء أن الامير زيادة الله بن ابراهيم الاغلبثالث أمراء بنى الاغلب هو الذى احتال عليه فى اغتياله بل قيل انه مات بدس السم ولم يتعد سنه السادسة والثلاثين من عمره . وهكذا مات ادريس الثانى بعد أن نجح فى تثبيت دعائم الدولة وبعد حروب طويلة ومؤامرات خطيرة من جانب منافسه من بنى الاغلب خاصة .

وهكذا فانه يمكن القول بأنه اذا كان الوالد الامام ادريس الاول بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب قد تحمل العبء الاكبر والمشاق الجسام فى انشاء دولة الادارسة فى تلك الاماكن القاصية من المغرب الاقصى واستطاع أن يجتاز بلاد ومناطق من مكة المكرمة بالحجاز وصولا إلى تلك الاماكن واستطاع أن يقيم صرح دولة الادارسة بوضعه اللمسات الاولى واللبنات القوية لكى يرسى دعائم دولته التى قامت على الكتاب والسنة وحكم الشريعة والجماعة الا ان ذلك لم يرضى الذين ملأ الحقد الاسود قلوبهم لاسيما انه من الشجرة العلوية المباركة فلم يمض على توليه ارساء دعائم الدولة ثلاث أو خمس سنوات حتى دس له الخليفة هارون الرشيد وخالد بن يحيى البرمكى بالتعاون مع ابراهيم بن الاغلب حاكم اقليم الزاب السم ليقصى نحبه .

الا ان ادريس الثانى ابنه جاء ليكمل المسيرة التى بدأها والده الامام لكى يقيم دولة الادارسة العلوية الشريفة التى تسقى دماؤها من نبع النبوة الطاهر لكى يدعم نفوذ دولته

ويكمل الصرح الذى شاده أبوه ولكى تظهر دولة الادارسة العلوية شامخة راسخة وطيدة البناء فى سماء المغرب الاقصى ولكى تقاوم الرياح العاتية التى كانت تهب عليها من الشرق حيث الاغالبة حكام الخلافة العباسية ومن الاندلس حيث حكام بنى أمية ومن الرستميين الخوارج الاباضية وكذلك من غيرهم من فرق الخوارج والمعتزلة والواصلية .

وهكذا أرسى ادريس الثانى صرح الدولة والذى لم يمهله القدر اذ توفى وهو فى ريعان شبابه ولم يكن عمره قد تجاوز الثلاثة والثلاثين عاما وقيل السادسة والثلاثين عاما بعد أن دس له زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب السم .

وهكذا انتهى جيل الاباء والابناء وجاء الدور على جيل الاحفاد لكى يتولوا حكم دولة الادارسة وبعملوا على تدعيم الاسلام والعروبة وترسيخ شرع الاسلام والوقوف فى وجه الفتن والدسائس التى تحاك ضدهم من الخارج .

ولكى يسيروا على النهج الاسلامى الذى وضع أسسه ادريس الاول ومن بعده ابنه ادريس الثانى الذان عملا ما وسعهما العمل على الخروج بالمغرب الاقصى من نطاق التخلف والقهر إلى تبوئ مكانة سياسية وعلمية سامية والوقوف فى مصاف الدول الكبرى والعمل على عدم الخضوع للخلافة العباسية فى بغداد أو الخلافة الاموية فى الاندلس والوقوف بحزم ضد أطماع الخوارج الاباضية فى تاهرت وغيرهم ونشر لواء السنة والجماعة والعمل بالشرع الاسلامى باعتبارهم سلالة الشجرة الزكية الطاهرة النبوية ومن هنا وجب على الاحفاد السير على هذا النهج الاسلامى القويم .

الباب العاشر

جيل الأحفاد

أبناء ادريس الثانى

لقد اجتازت دولة الادارسة مرحلتين من مراحل وجودها فلقد بدأ تأسيسها على يد ادريس الكبير وذلك بمعاونة ومساندة قبائل البربر ثم استقرارها وتدعيم سلطانها فى تلك المنطقة وما صاحب ذلك من انشاء عاصمة جديدة ثم استقبلت الدولة عهدا جديدا فى حياتها وهو عهد أبناء ادريس الثانى ومن جاء بعدهم وذلك بتولى محمد بن ادريس بن عبد الله الحكم فى ربيع أول عام ٢١٣هـ/ ٢٠مايو ٨٢٨م .

وقد تولى محمد بن ادريس الحكم بحكم كونه أكبر اخوانه يضاف إلى ذلك أن والده عهد اليه بالحكم قبل وفاته وعلى ذلك فانه ما انتهت مراسم دفن الامام ادريس الثانى حتى اجتمع بالبربر على مبايعته .

وفى عهد الامام محمد تم تقسيم الدولة إلى ولايات كل ولاية يحكمها أحد اخوته وذلك بمشورة جدته كنزة بنت اسحق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى، وذلك لان الجدة كنزة كان لها نفوذ سياسى ورأى فى تسيير دفة الحكم اذ انها أشبه ما نكون بالوصية على الحكم .

ولقد كان هذا التصرف غريبا وغير معقول وهو الذى قام به بناء على نصيحة جدته كنزة بتقسيم الدولة بين اخواته الكثيرين وكان المعقول أن يقيم عمالا أو ممثلين للدولة ولكنه وقع فى خطأ ادارى وتاريخى جسيم عجل بانتهاء قوة دولة الادارسة وجعلها مطمعا لجيرانها، وذلك لان تقسيم البلاد إلى اقطاعات ينفرد كل منهم بناحية منها فكان هذا سببا فى ضعف الدولة وهى بعد لم يكتمل فجرها ومع أن محمد بن ادريس احتفظ لنفسه

بالرياسة واعتبر اخوته أتباعا له .

ولقد أشارت الجدة كنزة على حفيدها بالطريقة التى يسير عليها فى حكم البلاد وذلك لان كنزة كانت على معرفة بطبيعة البلاد فهى من البربر وهكذا مكنت لحفيدها بالطريقة التى تسيطر بها أسرته على أنحاء البلاد حيث أن تولية أخوته على أقاليم البلاد تمنع أية حركة تمرد أو انفصال عن جسم الدولة بالاضافة إلى أن عدم اقامة اخوته بالعاصمة يضمن عدم تطلعهم إلى الامامة وقد يكون هذا التجمع خطرا على كيان الدولة واستقرارها .

الا ان قوة الدولة الادريسية يكمن فى ترابط رؤسائها من أفراد البيت الادريسى العلوى الذى كان يتمتع فى قلوب الناس بمكانة جليلة .

وقد قسم البلاد بين اخوته إلى الاقسام الآتية فولى أخاه القاسم بن ادريس بن عبد الله، سبتة وطنجة وقلعة حجر النسر والبصرة وكلتاهما جنوبى تطوان وكانت تطوان فى أقطاعه كذلك وتطل هذه الولاية على البحر المتوسط .

وأخوه عمر بن ادريس بن ادريس. تولى بلاد الهيط وبلاد غمارة وما والاها وتمثل هذه الولاية منطقة الريف وبعضها يطل على المحيط الاطلسى ومنها مدينة سبته .

ثم ولى أخاه داود بن ادريس: منطقة شمال العاصمة وقد تولى مدينة تامليت وبلاد هوارة وتشول وتازا وما بينهما بما فى ذلك مواطن قبائل مكناسة وغياثة .

وولى أخاه يحيى بن ادريس ولاية غرب العاصمة فاس وهى داى وما والاها وأصيلا والعرائش وبلاد زواغة.

ثم ولى أخاه حمدون بن ادريس بن ادريس مدينة وليلى العاصمة القديمة والاودة المحيطة بها وان كانت هناك أقوال تذكر انه تولى تلمسان فى حين أن ولاية تلمسان

كانت من نصيب أبناء جده سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب واذا اتجهنا نحو الغرب والجنوب الغربى وجدناه يولى عيسى بن ادريس ولاية بها مدينتان هما دازفور وسلى وشالة وأزمور وتامسنا وبرغواطة. ثم أخاه أحمد بن ادريس ولاية مدينة مكناسة وتادلا وما بينها من بلاد فازاز ، ثم أخاه عبد الله بن ادريس بن ادريس بن عبد الله فقد تولى مدينة اغمات وبلد نفسيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الاقصى فى أقصى جنوب المغرب الاقصى .

ولقد كان أخوة الامام محمد بن ادريس الثانى ثمانية أخوة تولوا جميعا أقاليم تابعة للعاصمة فاس وهم عبد الله، أحمد، عيسى، حمدون (حمزة) يحيى، داود، القاسم، عمر.

واكتفى الامام محمد بن ادريس بتولية فاس العاصمة وأدار منها الدولة وكان هؤلاء ولاة أقاليم ويلاحظ أن التقسيم كان يعطى كلا من أولئك الاخوة الكثيرين بلدا أو أكثر واقليما تسكنه قبيلة أو قبائل وكان له الحق فى الاستيلاء على معظم المال الذى يجمع من الناحية وكان من الطبيعى أن ينقلب بعض الاخوة عليه أو على بعضهم البعض وأن يتحاربوا فيما بينهم وقد استعان محمد بأخيه عمر على الثائرين من اخوته وأعطاه أعمالهم فاتسعت ولاية عمر حتى بلغت عند موته نصف الدولة الشمالى والغربى كله ثم خلفه عليها ابنه على بن عمر بن ادريس .

ولقد تطورت الاحداث فى الامامة وبرز الخلاف فى خروج عيسى على طاعة أخيه الامام محمد الحاكم الاعلى للبلاد معلنا العصيان مستقلا بنفسه ولقد كان عيسى هو الوالى على المنطقة الغربية الجنوبية للعاصمة فاس وهذه الولاية تضم مدينة شالة وتامسنا وما إلى ذلك من القبائل ولقد وجدت رغبة عند عيسى فى الاستقلال عن الامارة تأييدا من القبائل البربرية التى يحكمها وتخضع لنفوذه وقد مكنه هذا التأييد من اعلانه العصيان وشق عصا الطاعة على الحكومة المركزية فى العاصمة فاس .

وهنا ظهرت حنكة الامام محمد بن ادريس اكبر اخوته اذ لم يخرج بنفسه لمقاتلته بل أرسل أخاه القاسم بن ادريس الذى اعتذر عن مقاتلة ومحاربة أخيه عيسى وذلك حرصا على صلات الرحم والمودة بينه وبين أخيه ومن ثم لجأ الامام محمد بن ادريس إلى الكتابة إلى أخيه عمر بن ادريس الوالى على مدينة مكناسة وبلاد غمارة بالتوجه إلى عيسى بن ادريس لمحاربته لما أعلنه من عصيان وخروجه على طاعة أخيه فى العاصمة فاس وعدم الاستجابة والمثول للاوامر واستجاب عمر لامر أخيه وخرج فى جيش عظيم قاصدا أخاه عيسى بن ادريس فكتب عمر إلى أخيه محمد بطلب المدد وأن يمده بألف فارس من قبائل زناتة ورؤسائهم وفرسانهم والحق عمر بأخيه عيسى الهزيمة وكان أن أمر الامام محمد بن ادريس بأن تضم امارة عيسى إلى امارة عمر فى ولاية واحدة .

وعملا على بسط سلطان العاصمة فاس على بقية الولايات ومحاربة كل من يخالف أمر الحاكم الاعلى والامام الاول للبلاد فانه استخدم أسلوب الشدة والصرامة فى معاملة حكام الولايات من اخوته، ثم انه أمر الامير عمر بن ادريس بأن يسير إلى طنجة لقتال أخيه القاسم بن ادريس وكانت بينهما معارك طويلة انتهت بهزيمة القاسم وبعد أن تمكن عمر من هزيمة القاسم فانه ضم أملاكه كما ضم أملاك عيسى من قبل إلى ولايته .

وهكذا استطاع الامام محمد بن ادريس أن يقضى على الفتنة فى مهدها بمعاونة أخيه عمر بن ادريس غير انه كانت هناك محاولات للانفصال من جانب بعض الاخوة .

وقد استطاع الامير محمد بن ادريس أن يقر الامن والطمأنينة فى وبوع المغرب الاقصى بعد أن كادت الفتن بين الاخوة تمزقه ولقد ساعد على عدم تدخل القبائل فى الصراع الدائر بين الاخوة انتسابهم إلى رسول الله ﷺ فان ذلك كان له أبعد الاثر فى توحيد القبائل المتنافرة الضاربة فى المغرب واستطاعوا لاول مرة الجمع بين اقليمى السهول

والمراعى وبين أصحاب الحضارات القديمة والاقاليم البدوية فى الجنوب .

وعلى الرغم مما كانت عليه الدولة من ازدهار فى جميع المجالات الا انها جرت على مبدأ تقسيم البلاد بين أبناء الامير ادريس بن ادريس ،وكذلك بين اخوته على أن يختص كل واحد بقسم يخضع له وأن يكون الخضوع فى نفس الوقت اسميا للامير وعلى هذا جرت الامور منذ وفاة الامام ادريس بن ادريس. وهكذا كان ذلك التقسيم السابق الاشارة اليه ذلك لان الدولة كانت قد بلغت أقصى اتساع لها أيام رابع أئمتهم الامام محمد ابن ادريس بن ادريس حيث قسمت الدولة إلى ثمانية أقسام أعطيت لاخوه السلطان على أن يكون لكل واحد منهم حرية التصرف فى قسمه، على أن هذا كما سبق القول لم يمنع من حدوث الانقسامات والحروب والتى خرج منها الامير عمر بن ادريس بأن يكون له حكم نصف الدولة .

وهكذا حمل تقسيم البلاد بين الاخوة بذور الخلاف والتصدع فى جسم الدولة الفتية وكان هذا التقسيم بداية النهاية لدولة كانت تخضع لحكومة مركزية وهكذا فان دولة الادارسة أصابها الانحلال بعد أن وزع أبناء ادريس الثانى ارث أبيهم فاستقل كل بجزء من البلاد، الا أن فترة المنازعات التى حدثت بين الأخوة لم تحل دون ازدهار البلاد وتحسن أحوال رعاياها نتيجة للسياسة العادلة التى سار عليها الامام محمد ابن ادريس مقتديا فى ذلك بمن سبقه من الائمة كجده الاكبر ادريس ووالده ادريس الثانى وكذلك واضعا نصب عينه المحافظة على ذلك البناء الشامخ الذى وضع أساسه الامام ادريس بن عبد الله وثبت دعائمه بعده ابنه ادريس الثانى والذى عمل على مقاومة كل محاولات الانفصال، تلك المحالات التى هددت الوحدة الاقليمية التى تحققت للبلاد من قبل .

وقد توفى الامام محمد بن ادريس بن ادريس فى ربيع الآخر عام احدى وعشرين ومائتين ٢٢١هـ/٨٣٥م ودفن فى مدينة فاس فى الجهة الشرقية من جامعها الكبير مع

أبيه ادريس الثانى وأخيه عمر بن ادريس الذى توفى قبل وفاته بسبعة شهور وذلك بعد أن حكم فترة تزيد عن ثمانى سنوات هجرية وبوفاته أصبح مقعد الحكم فى البلاد شاغرا .

الامام الرابع

الامام على بن محمد بن ادريس

لم يكن الامام محمد بن ادريس قد أخذ البيعة لاحد من أبنائه أو اخوته ومن هنا حدثت بعض المشاكل بعد وفاته لكن الامور كانت قد استقرت من حيث ولاء القبائل لهذه الاسرة التى ينتمى نسبها إلى آل البيت العلوى ومن ثم كان على أبناء الادارسة أن يوحدوا موقفهم فى مواجهة المخاطر التى تهدد دولتهم خارجيا لاسيما من قبل الاغالبة وبنى رستم والامويين حكام الاندلس .

فكان الاتفاق على أن يتولى الامامة بعد وفاة الامام محمد ابنه على الذى لم يكن عمره يزيد عن تسعة أعوام وأربعة شهور عندما تمت مبايعته بالامامة لكى يكون الامام الرابع فى قائمة أسرة الادارسة .

وقد تكون هناك آراء تذكر أن والده دعا لكى يستخلفه على بعد وفاته فى قيادة الامة نظرا لانه كان يعرف عنه حدة الذكاء وسمات العبقرية والحزم على الرغم من صغر سنه، لكنه على الرغم من صغر سنه فقد تم تعيينه اماما بعد الانتهاء من حل الامور التى كانت تعترض توليته ونظرا لصغر سنه فان وزراء أبيه من العرب وغيرهم من رجال البربر قاموا بأمره ومؤازرته فى حكمه وقام بأمره الاولياء والحاشية من العرب وقبيلة أوربة البربرية وسائر البربر وصنائع الدولة وبايعوه غلاما وأحسنوا كفالته وطاعته وقد سار فى نهجه فى حكم البلاد سيرة أبيه وجده من حيث الشريعة وأدار البلاد بالحزم والقوة واحقاق الحق وازهاق الظلم والباطل وتأسيس البلاد والمدن وقمع الاعداء وضبط أمور البلاد والثغور على

الرغم من أن والده كان قد ترك الدولة مفرقة ومقسمة وضعيفة وقد أطلق ابن خلدون على الامام على الاول بن محمد بن ادريس الثانى اسم «حيدرة» وحيرة لقب كان يطلق على الامام الاكبر للاسرة العلوية (الامام على بن أبى طالب) ومعناه الاسد. وكان أقاربه ورجال الدولة قد أطلقوا عليه هذا اللقب نظرا لانه استطاع أن يكون على تلك الصورة من القوة أثناء الحكم تحت وصايتهم .

وقد سار على نفس النمط والنهج الذى سار عليه والده وحافظ على كل الاعمال التى قام بها والده من قبل وأبقى عليها وكذلك أبقى على كل وآل فى ولايته .

ولقد كان لنهج السياسة العادلة التى سار عليها الامام على الاول ابن محمد أن بدأت الدولة تخطو خطوات واسعة فى جميع الميادين وبدأت روح الانتعاش تدب فى أنحاء البلاد وسادها الامن والرخاء .

وقد توفى الامام على بن محمد بن ادريس فى شهر رجب عام أربع وثلاثين ٢٣٤هـ/ ٨٤٨م. وكانت مدة حكمه ثلاثة عشر عاما .

الامام الخامس

يحيى بن محمد بن ادريس بن ادريس الاول

هو الامام الخامس فى أئمة حكام الدولة الادريسية وهو ابن الامام محمد بن ادريس وشقيق الامام على الاول بن محمد وليس هو الامام الرابع فى قائمة أئمة الادارسة ولا هو ابن الامام ادريس الثانى كما أشار إلى ذلك الدكتور حسن أحمد محمود، والدكتور ابراهيم الشريف فى كتابهما العالم الاسلامى فى العصر العباسى اذ ذكرا ص ٤١٢ أن الامام يحيى الرابع بن ادريس بن ادريس بن عمر (٢٩٢- ٣١٠هـ) فى حين انه الامام يحيى بن محمد بن ادريس وهو رابع الائمة فى حين أنه هو الخامس ولا يوجد اسم عمر

فى قائمة أسماء الائمة .

وقد تولى بعد وفاة أخيه الامام على الاول وذلك بعد دفنه وقد تميز عهد الامام يحيى بن محمد بالاستقرار والرخاء مما دفع كثيرا من الناس من افريقية والاندلس إلى الهجرة نحو العاصمة فاس وقصده الناس من الاندلس وافريقية (المغرب الادنى) وجميع بلاد المغرب ونتيجة لهذه الهجرات المتتالية ضاقت العاصمة بسكانها فنشأت الارياض بخارجها لسكنى الوافدين اليها .

وتسهيلا من الامام يحيى بن محمد على التجار الوافدين على عاصمته ورغبة منه فى تنشيط الحركة التجارية فى البلاد فانه أمر ببناء الحمامات والفنادق للتجار وغيرهم ولقد كانت هذه الوفود المتتالية تضم وفودا من القيروان .

ويعتبر الامام يحيى بن ادريس أعظمهم قوة وأعلاهم قدرا فى الاسرة الادريسية وقد امتد حكمه على جميع بلاد المغرب الاقصى وقد وصفه أبو خالد ناصر السلاوى فى كتابه الاستقصا لاخبار المغرب الاقصى قائلا عنه هو واسطة عقد البيت الادريسى، وأعلاهم قدرا وأبعدهم ذكرا وأكثرهم عدلا وأغزرهم فضلا وأوسعهم ملكا، وكان فقيها حافظا للحديث، ذا فصاحة وبيان، بطلا شجاعا حازما، وصلاح دين وورع .

وقد بلغت الدولة أقصى اتساع لها فى أيام حكم ذلك الامام يحيى ابن محمد، اذ انه عمل من جانبه على تجديد العاصمة فاس فأقام العديد من المنشآت بها واستحدث بها الابنية شيئا فشيئا فقصدها كثير من التجار الاجانب وأصبحت مركزا لتجارة أوربا مع بربر الصحراء الذين قدموا اليها حاملين من ساحل غانا العاج والرقيق وغيره من منتجات بلادهم لكى يبادلوه بمصنوعات البربر وأوربا .

ولقد أجمع المؤرخون على أن عهد يحيى محمد هذا كان عهد ازدهارا لم تبلغه البلاد من قبل وكانت الاعمال التى قام بها سلفه قد بدأت تؤتى ثمارها فى عهده

وشهدت فاس العاصمة علامة ذلك الازدهار فقد قامت بها المنشآت الكثيرة وامتدت حتى وصلت إلى سفوح الجبال .

انشاء جامع القرويين :

لقد كان من بين كبار التجار الذين عملوا بالاشتغال بالتجارة فى العاصمة فاس والذين كانوا ممن هاجروا اليها من القيروان فى المغرب الادنى التاجر العربى « محمد بن عبد الله الفهرى» الذى توفى عن ثروة كبيرة ولم يترك ذرية ذكورا عقبا له ولكن ترك بنتين هما «مريم وفاطمة» فأراتا أن تصرفا هذه الاموال الطائلة فى وجوه البر وأعمال التقوى التى تقربهما إلى الله فكان أن تم بناء جامع القرويين ورغبة من فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهرى فى المشاركة فى حركة العمران بالمدينة لاسيما انها كانت من ربات البر والاحسان فكان أن ساهمت بمالها فى بناء جامع كبير هو جامع القرويين وذلك عام ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م ودور جامع القرويين لا يقل عن دور جامع الزيتونة ذلك المسجد الذى قام بدوره منذ انشائه فهو يمارس مكانته العالية فى نشر الثقافة العربية الاسلامية ولقد كان هذا المسجد الجامع يضم خزانة كتب كبيرة وذلك تشجيعا للعلم ورغبة فى الاعتناء بأهله والتوسعة على طلبة العلم وذلك بعد أن ضمت تلك الخزانة من الكتب المحتوية على أنواع فى علوم الابدان والأديان (الدين الاسلامى فقط) واللسان والاذهان وغير ذلك على اختلافها وتنوع فروعها وأجناسها .

وكانت فاطمة قد علمت باحتياج الناس إلى مثل هذا الجامع وكذلك شاركت فاطمة فى حركة البناء أختها مريم حيث قامت ببناء مسجد فى عدوة الاندلسيين .

وهكذا أحدثت الوفود المقبلة على العاصمة لتعيش فيها انتعاشا فى الحركة التجارية بالاضافة إلى زيادة العمران واتساع العاصمة لاستيعاب هذه الاعداد. كما أن بعض من هاجروا إلى العاصمة شاركوا بأموالهم أيضا فى حركة العمران والبناء .

وقد تميز عهد الامام يحيى بن محمد بالهدوء والاستقرار الا أن حركة متطرفة قامت فى نواحى تلمسان ولم يتحقق لها النجاح حيث قضى عليها أمير تلمسان وهكذا قدر لهذه الحركة الخارجة على الدعوة الاسلامية أن تموت فى مهدها. وذلك بفرار صاحبها إلى الاندلس حيث لقى فيها حتفه على يد حاكمها .

وقد سار الامام يحيى بن محمد فى نفس الطريق الذى سار فيه اخوته من حيث الموافقة على تولية أعمامه وأقاربه الولايات المختلفة للبلاد. ولم تشر المصادر إلى السنة التى توفى فيها الامام يحيى بن محمد بن ادريس سوى ما ذكره الكتانى فى كتابه الازهار العاطرة ص ١٩٥ أن وفاة الامام يحيى بن محمد كانت فى عام ٢٤٩هـ/ ٨٦٣م أى أن فترة حكمه استمرت خمسة عشر عاما وبوفاته بدأت عوامل الضعف والانهيار تدب فى أوصال الدولة .

وكان انشاء جامع القرويين أو مسجد فاس من المفاخر الاسلامية التى تمت فى عهد الامام يحيى بن محمد اذ أن جامع فاس من مساجد الاسلام المشهورة فى تاريخ المغرب والعالم الاسلامى فقد أصبح مركزا للعلم والدراسة من أول انشائه وقد تحول بعد ذلك إلى جامعة ولازال إلى اليوم يمارس دوره كجامعة كبرى مثله مثل الجامع الازهر ولكن جامعة القرويين أقدم عمرا من جامع الازهر وهى عمدة الجامعات الاسلامية وربما عميدة جامعات الدنيا .

ويذكر ابن خلدون عن الامام يحيى انه قام بالامر منذ سلطانه وعظمت دولته وحسنت آثاره وازداد عمران فاس فى عهده وبنيت فيها الحمامات والفنادق وبنيت خارجها الارياض ورحل اليها الناس من البلاد المغربية .

ولقد كان للتوحيد أثره فى اقامة حكومة غير مركزية اشترك فيها العرب والبربر واستطاعوا بفضل هذه الوحدة نشر الاسلام بين القبائل التى لم تكن قد اعتنقته بعد ما

بدأت مدينة فاس تحتل مكانتها العالية فى أن تكون مركزا تجاريا يلتقى فيه تجار الجنوب بتجار الشمال وبدأت مدارس فاس تتلقى المؤثرات الثقافية من مدارس القيروان وقرطبة فى الاندلس حتى استطاعت بعد قليل أن تقف على قدميها وتكون لها شخصيتها المستقلة واليها يعزى فضل نشر اللغة العربية بين البربر وبين الملثمين القاطنين فى اقليم السهوب والصحراء الجنوبية .

ولم يلبث جامع القرويين بفاس أن أضحى أكبر مدارس المغرب الاقصى تفوقا وعلما وتجويدا حتى قصده الناس من كل حدب فأصبح دار فقه وعلم وحديث وتفسير يتغذى باعطائه كل فقهاء المغرب ويشبهه المؤرخون بمدرسة الفسطاط فى المحافظة على علوم الدين وتغير المنكر والقيام على الشريعة وزادت شهرة فاس بعد أن اضطرب الامر فى قرطبة والقيروان حتى لقد قصدها أحد بابوات الكنسية فى روما طلبا للعلم الاسلامى وتطلعا لدراسة كل تقدم علمى فى الميادين العلمية المختلفة والتى كانت تدرس فى جامعة القرويين .

الامام يحيى بن يحيى بن محمد بن ادريس بن ادريس

الامام السادس فى أسرة الامام ادريس بن عبد الله

بعد أن توفى الامام يحيى بن محمد عام ٢٤٩هـ/ ٨٦٣م فان الامامة آلت من بعده إلى ابنه يحيى لانه كان قد أخذ البيعة له قبل وفاته ولكن هذا الامام كان على عكس كل الائمة الذين سبقوه فى تولى امامة دولة الادارسة بدءا من ادريس الاول حتى والده الامام يحيى حيث أساء أسلوب الحكم ولم يسلك مسلك الشرع وعبث بالمحرمات مما أدى إلى غضب سكان العاصمة وقيامهم بثورة عليه .

وفى ذلك يقول ابن أبى زرع قامت عليه ثورة مسلحة بقيادة عبد الرحمن بن سهل

الجذامى، وذلك لان يحيى كان شابا طائشا غير أهل للحكم والمسؤلية ومن هنا كانت ثورة الناس عليه والذين أشعلوا الثورة فى كل مكان بالمغرب الاقصى وهكذا استطاع الثوار طرده من الامامة بعد أن ترك وراءه ثورة مضطربة فى العاصمة إلى جانب استقلال الولايات عن العاصمة استقلالا كليا استنادا إلى ضعف حاكم العاصمة فضلا عن سوء سلوكه .

ويبدو أن تعمق الشعور الدينى لدى السكان واحساسهم بالفرق العظيم بين حكم الذين سبقوه وحكم الامام يحيى هذا وانصرافه عن تطبيق الشريعة الاسلامية كان من الاسباب القوية للثورة عليه وتولى الثوار وزعيمهم «عبد الله بن أبى سهل الجذامى» شقيق عبد الرحمن قائد الثورة حكم العاصمة فاس بعد خلع الامام يحيى بن يحيى وهنا لم تجد زوجة الامام يحيى بن يحيى بن محمد وهى عاتكة ابنة عمه على بن عمر بن ادريس الثانى، الا أن تكتب إلى أبيها وهو حاكم منطقة الريف تخبره بما حدث لزوجها والعاصمة الثائرة مما اضطره إلى الهروب وترك قصر الحكم، بل أن الامر لم يقتصر على كتابة ابنته اليه، بل كتب اليه أيضا وشاركها الرأى رجال الدولة وكبار رجال الجيش والحاشية عما يسود العاصمة من فوضى وعدم القدرة على ضبط الثوار والنظام بعد أن استفحل أمر الثوار .

وقد كان الامام يحيى بن يحيى سيئ السمعة والسيرة ومن هنا ثار عليه الناس فاختفى بعدوة الاندلس ريثما تخمد الفتنة ولكنه مات فى ليلته واستولى عبد الرحمن بن أبى شهيل الذى تزعم الثورة على يحيى بن على على مدينة فاس لكن أصحاب الريف من أبناء عمر بن ادريس قد حكموا البلاد ولم يلبث أن دخل أهل فاس فى طوع عمر بن ادريس وخطب له على منابر المغرب واستقرت قدمه فى هذه البلاد فترة من الزمن .

ويذكر السلاوى انه بعد وفاة يحيى الاول عام ٢٣٤هـ إلى وفاة يحيى الثالث بن القاسم بن عمر بن ادريس الثانى عام ٢٩٢هـ وقعت ببلاد المغرب حوادث جسام بسبب

انتشار الفوضى فى هذه الفترة التى دارت فيها رحى الحرب الاهلية بين أبناء ادريس والخوارج الصفرية مما أثر تأثيرا سيئا فى حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية فقد انتشر القحط وعدمت الاقوات وغلت الاسعار وفشا الموت لدرجة لم يعهد لها أهالى البلاد مثيلا من قبل ففى عام ٢٥٣هـ انتشر القحط ببلاد العدوة وقاسى الاهلون الشدائد والاحوال سبع سنين عجافا، وفى عام ٢٦٧هـ حدث زلزال عظيم لم يسمع بمثله من قبل فهدمت الثغور وانحطت فيها الصخور من الجبال فدمرت الناس فى سهلها وجبلها وجميع بلاد العدوة من تلمسان إلى طنجة ومن البحر الرومى إلى أقصى المغرب وفى عام ٢٧٦هـ انتشرت الفتن ببلاد المغرب الاقصى وافريقية وعم القحط بلاد العدوة حتى أكل الناس بعضهم بعضا وهلك خلق كثير فى الوباء .

وصفوة القول أن هذه الفترة قد سادها الاضطراب والفوضى وانقسم الادارسة على انفسهم حتى ان ابن خلدون الذى يعتبر شيخ مؤرخى المغرب لم يستطع أن يحدد مبدأ ونهاية حكم أمراء الادارسة فى هذه الفترة الغامضة .

وبانتهاء حكم الامام يحيى بن يحيى بن محمد بن ادريس فقد انتهى عقب الامام محمد بن ادريس الثانى بعد أن حكم محمد خلفا لابيه ادريس الثانى ثم من بعده الامام على الاول ثم أخيه يحيى الاول وجاء بعده يحيى ومن ثم انتقل الحكم إلى فرع آخر من أسرة الادارسة هو فرع عمر بن ادريس شقيق الامام محمد وساعده الايمن والذى استطاع أن يقضى على ثورة الاخوة عيسى بن ادريس وقاسم بن ادريس والذى توفى قبل أخيه محمد بتسعة شهور .

وهكذا قدر لسوء سلوك الامام يحيى بن يحيى كما أشارت إلى ذلك المصادر أن يقتل بأيدى الثوار وأن يكون سببا فى انتهاء حكم أسرة محمد ابن ادريس وانتقال مقاليد الحكم والامور فى البلاد إلى الفرع الآخر الذى سنرى فى الفصول القادمة كيف سيحكم

آل عمر بن ادريس البلاد ويقودها إلى بر الامان عملا على نهج الكتاب والسنة الذى كان يحرص عليه الائمة من ابناء ادريس العلويين الطالبيين الهاشميين القرشيين .

انتقال الحكم إلى فرع آخر من أسرة الادارسة

آل عمر بن ادريس

الامام السابع على الثانى بن عمر بن ادريس

بفرار الامام يحيى بن محمد بن ادريس من العاصمة فاس انتقل الحكم إلى فرع جديد من آل ادريس هو فرع عمر بن ادريس شقيق الامام محمد فقد كان لوصول الانباء إلى على بن عمر الذى كان يتولى حكم منطقة الريف خلفا لوالده عمر عن أحداث العاصمة والثورة أثرها فى تحركه فما كان من على الثانى الا أن جمع جيوشه وحشد قواته وترك اقليم الريف قاصدا العاصمة فاس لكى يعمل على اقرار الامن والنظام بها والمحافظة على بيت آل ادريس، فما أن وصل وقواته إلى العاصمة حتى بايعه كبار رجال الدولة وكبار شيوخها وما أن ألقى خطبته على منبر مسجدها الكبير حتى توافدت اليه الناس والقبائل تبايع بالامارة خلفا للامام يحيى الثانى .

ولقد كان الامام الجديد على الثانى بن عمر يحكم منطقة الريف وراثة عن أبيه عمر الذى كان أخوه محمد بن ادريس قد أعطاه ومنحه حكم هذه الولاية كما أسلفنا سابقا .

وعلى هذا فانه يمكن القول أنه بانتهاء حكم يحيى بن يحيى لا يمكن اعتبارها مرحلة انتقال السلطة من أبناء محمد بن ادريس إلى بنى عمومتهم عمر بن ادريس فقط بل انها تمثل انتهاء دولة الادارسة كدولة متماسكة واضحة المعالم لها شخصيتها المميزة والتى وضع أساس قوتها الاولى ادريس بن عبد الله عام ١٧٢هـ / ٧٨٨م وثبت دعائمها

من بعده ابنه ادريس بن ادريس عام ١٩٧هـ / ٨١٢م. وخضعت جميع أقاليمها لحكم ابنه محمد بن ادريس بن ادريس عام ٢١٣هـ / ٨٢٨م. ولقد حافظ على وحدة البلاد وتماسكها كل من جاء بعدهم من الحكم الائمة الذين كانوا يتخذون من العاصمة فاس مركز الحكم والسيادة وذلك حتى وفاة يحيى بن يحيى بن محمد عام ٢٥٢هـ.

هذه الفترة الزمنية من عام ١٧٢هـ حتى عام ٢٥٢هـ. والتى تمثل ثمانين عاما فى تاريخ الدولة حتى وفاة الامام يحيى بن يحيى انما هى الفترة الزاهرة بل هى العمر الحقيقى للدولة الادريسية كدولة فوية متماسكة لها نفوذ سياسى وقوة وكيان فى المغرب العربى .

لكن المقام لم يطل على حكم الامام على الثانى بن عمر بن ادريس الذى أقبل على العاصمة فاس من اقليم الريف الذى كان يحكمه اذ لم يستطع أن ينعم بالهدوء من القضاء على ثورة (عبد الرحمن بن أبى سهيل البربرى)، اذ انه لم يقدر له أن يلعب دورا مؤثرا فى حكم البلاد وان كان قضاؤه على هذه الثورة التى قام بها عبد الرحمن بن أبى سهيل قد مكن له من العاصمة فاس والاقاليم التابعة للدولة .

لكن ثورة أخرى قد بدأت تأخذ بعدها الجديد للوقوف فى وجه الامام الجديد على الثانى بن عمر. تلك الثورة التى قام بها «عبد الرازق الفهرى الخارجى» الذى نجح فى أن يؤلب القوم ضد الادارسة وشجع بعمله فى أن يجعل الكثير من البربر يلتفون حوله وحول ثورته التى تطالب بانتهاج أسلوب حكم يتمشى مع الشريعة الاسلامية وهكذا استطاع عبد الرازق الخارجى أن ينجح فى الاستيلاء على بعض القرى المحيطة بفاس بعد أن تجمعت حوله القبائل لكى تشد من أزره وتسانده ضد بنى ادريس، لكن الامام على الثانى كان قد جهز جيوشه والتقى معه فى معركة بالقرب من أبواب العاصمة فاس، لكن الدائرة دارت على الامام على الثانى حيث كان النصر النهائى فى تلك المعركة لعبد الرازق الفهرى

الخارجى ومن هنا كانت أيام حكمه مليئة بالفتن والثورات .

ولقد كانت ثورة الخوارج الصفرية بقيادة عبد الرازق الخارجى دافعا لكى يهرب الامام عمر إلى قبيلة أوربة بعد هزيمته وهى القبيلة التى آوت ونصرت جده الاكبر ادريس الاول وناصرته حتى أقام دولته ولكن جدته كنزة بنت اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى ابنة زعيم قبيلة أوربة كانت قد ماتت وهكذا كان الادارسة يجدون الامن والامان والمساندة من قبيلة أوربة كلما ألمت بهم الملمات .

وهكذا أصبحت دولة الادارسة تتلقى الضربات تلو بعضها البعض على أيدى الثائرين وتخضع للخارجين على الدولة وتفقد سلطانها ونفوذها شيئا فشيئا بل انها لم يعد لها الحب والنفوذ الذى كانت تتمتع به بين شعبها .

الامام يحيى بن القاسم بن ادريس بن ادريس

هو الامام يحيى بن الامير القاسم شقيق الامام محمد بن ادريس بن ادريس والذى كان والده يتولى ادارة اقليم طنجة وسبتة جنوبى تطوان من قبل أخيه الامام محمد يوم أن كانت الدولة قوية. ولقد كان القاسم والد الامام يحيى الثالث هذا قد خرج على السلطة المركزية فى فاس مما اضطر الامام محمد بأن يرسل اليه أخاه عمر للقضاء على ثورته وتم له ما أراد .

لكن الظروف التاريخية تتغير فها هو ابنه الامام يحيى بن القاسم يعود إلى السلطة فى فاس لكى يحافظ على عرش آل ادريس من الانهيار .

ولقد كان أهل عدوة القرويين وهم الجزء الاكبر من العاصمة فاس قد اتفقوا على مبايعة عبد الرازق الفهرى زعيم الخوارج الصفرية والذى دخل العاصمة فاس بعد أن فر منها الامام على الثانى بن عمر بن ادريس وبعثوا رسولا منهم يستنجد بالامام يحيى بن القاسم بن ادريس الذى ربما كان أقوى الشخصيات من آل ادريس الذى كانت بأيديهم

ولقد كانت لهم إمارات أخرى غير التى قسمها محمد بن ادريس بين إخوانه منها إمارة متيجة ولعل مقرها هو «قزرونة» البليدة حالياً، وسهل متيجة زرع وعمارة واسعة وفيه عدة مدن وحصون تغلب فيه رجال من ولد الحسن بن على بن أبى طالب يقال لهم بنو محمد بن جعفر، ولما ظهرت جنود الشيعة داهموها ومحوها.

ثم إمارات «محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب»، وهو ابن شقيق الإمام إدريس الأكبر؛ حيث أن سليمان هو شقيق إدريس، وكذلك عيسى بن عبد الله.

ولقد كانت لبنى سليمان إمارات كثيرة بالشريط الساحلى فى الجهة الغربية على البحر الأبيض المتوسط ويندرج فيه مدينة «مسغتانم»، و «تنس والشلف»، و«تلمسان»، و«متيجة»، وأشهر أمرائهم هو «أبو العيش عيسى»، الذى تولى إمارة «جراوة»، وامتد نفوذه إلى تلمسان وجراوة التى كانت مركزاً لهذا الأمير العلوى تبعد عن البحر عدة أميال، وعلى مرحلة من وادى ملوية إلى ناحية تلمسان.

وهذه الإمارة العلوية لم تكن ذات نفوذ سياسى قوى على اعتبار أنها جزء من دولة الأدارسة لكن الإمارة الرستمية التى كانت تأخذ بالمذهب الخارجى الأباضى كانت أقوى منها وأقرب إلى السياسة الحكومية وتأثيرها فى الناحية الاجتماعية واللغوية والدينية واضح فى تلك النواحى، وقد تأخر سقوط بعض إماراتهم عن سقوط دولتهم بالمغرب بنحو خمسين سنة؛ فالحسن بن أبى العيش العلوى هزمه ابن أبى العافية عام ٣٣٨هـ بعد أن كان قد تحصن بحصنه الذى التجأ إليه بجراوة، وكذلك صاحب تنس الأمير على بن يحيى الأدريسى سقطت إمارتهم الواحدة تلو الأخرى على أيدى العبيديين الذين شاركوهم فى البيت الشريف، وإن صح انتسابهم إلى الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وخالفوهم فى المعتقد.

وكان حكم الأدارسة يمتد فى بلاد المغرب الأقصى من السوس الأقصى إلى وهران، وكانت حاضرتهم مدينة فاس التى بلغت حداً كبيراً من العمران، وأصبحت مركزاً من مراكز الثقافة الإسلامية. وقد أسهم الأدارسة فى خدمة العالم الإسلامى فى البقعة التى حكموها فهم الذين ثبتوا البربر على الإسلام ويعتبرون بحق الممهدين لظهور البربر فى المجال الإسلامى ظهوراً واضحاً؛ فإن البربر لم يرسخ قدم الإسلام بينهم إلا بعد أن اتخذ نظام الحكم بينهم شكل حكومة قوية، وأصبح مرتبطاً بتولى دولة البربر الحكم. تلك الدولة الأدريسية التى دخل فى عهدها كثير من البربر فى حظيرة الإسلام، وكانوا من قبل يعدون قبول هذا الدين رمزاً على ضياع الاستقلال السياسى.

ولقد كان ظهور الأدارسة وحكمهم للمغرب حكماً قومياً مقدمة لظهور المرابطين الذين كان ظهورهم يمثل حركة قومية عظيمة جذبت عددا كبيرا من قبائل البربر نحو الاندماج فى الأمة الإسلامية الكبيرة.

وقد قام الأدارسة بدور كبير فى انتشار الإسلام فى غرب أفريقية وينسب إليهم الفضل فى الدعوة للإسلام فى حوض الشمال.

كما أن مدينة فاس عاصمة الأدارسة ظهرت ظهوراً ثقافياً واضحاً، وأصبحت هى ومدينة القيروان تمثلان نموذجاً للمدارس الإسلامية فى المغرب. ولقد انتشرت المدارس فى أصيلا وسبتة وطنجة واشتهر من علمائها كثيرون من العلماء أمثال أبو العباسى أحمد بن عبد الرحمن الهوارى، كما غدت مدرسة تلمسان داراً للعلماء والمحدثين وأخذ علماء المغرب بعد أن ذاع صيتهم، وبعد أن انتهلوا من موارد العلم الأندلسى يصبحون كعبة طلاب العلم، كذلك ساهمت فى نشر الثقافة العربية الإسلامية مدناً أخرى منها أغمات وسبتة ومليلة ومراكش وغيرها من مدن المغرب المختلفة، والتى جادت بعطائها العلمى الفياض نحو غيرها من الأقاليم الجنوبية؛ فانتشرت الثقافة الإسلامية فى جو هادئ وسادت

اللغة العربية فى أمن وسلام، وكلما ازداد نشاطها وهبت مزيداً من العلم والفكر والثقافة، وهكذا ازدهرت تلك القلاع والمنارات العلمية، ونجحت فى أداء دورها فى عهد الأدارسة.

ولقد توطدت البلاغات الثقافية والفكرية بين هذه المراكز الفكرية فى المغرب وغيرها من الجماعات الإسلامية الأخرى؛ حيث رحل الطلاب والعلماء من الزيتونة والقرويين إلى تلك المراكز الإسلامية المنتشرة فى بلاد المغرب لنشر الطابع العربى الإسلامى.

ذلك لأنه لم يكد المولى إدريس الثانى دفين مدينة فاس يشارف العقد الثانى من عمره حتى جمع حوله من العرب الأقماح وأناط بهم مهمة نشر اللغة العربية بين البربر وتعليم القبائل المنطوية تحت راية الأدارسة شعار الدين الإسلامى الحنيف، وكان الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز قد أوفد قبل ذلك فى المائة الهجرية الأولى أساتذة وفقهاء إلى أفريقية لتلقين البربر لغة القرآن الكريم وتعاليم الإسلام.

ويحدثنا التاريخ أن اللغة العربية سارت فى أعقاب جيوش الإمام ادريس فتركزت حيث تركزوا وترعرعت حيث ترعرع الإسلام، وإذ كان سكان جباله يتكلمون كلهم اليوم بالعربية؛ فإن ذلك يعود للدور الذى لعبه الأدارسة فى نشر اللغة العربية، وكذلك نشطت العربية فى غمارة وبلاد الريف .. فإن الفضل كل الفضل فى ذلك يعود للأدارسة ودولتهم العربية العلوية فهم الذين وضعوا الأساس القوى لنشر العروبة والإسلام.

ولقد ظلت تلك الدولة العلوية طوال فترة حكمها وبعد تقسيمها إلى ولايات أو حتى بعد ظهور خطر العبيديين الفاطميين حاملة لواء نشر اللغة العربية لا فى الريف وحده بل فى كل ربوع المغرب الأقصى؛ حيث رفعت لواء الإسلام والعروبة والمذهب المالكى وقاومت تيار الخوارج الذى وقف منه الأدارسة موقف القوة.

وهكذا .. كان للأدارسة دور فعال ومؤثر فى نشر العروبة والإسلام إذ لم يكن ينتهى

القرن الثالث حتى صار البربر يزاحمون العرب فى دراسة لغة الضاد بتونس والقيروان وتلمسان وفاس وتاهرت عاصمة بنى رستم، وأصبح علماء البربر يناظرون فقهاء العرب فى قواعد الأصول وتفاريع الفقه (فروع الفقه)، ومبادئ علم الإسلام باحثين معهم أصول العربية. وهكذا .. أدت دولة الأدراسة دورها؛ بحيث أصبح البربر جميعهم اليوم يتقنون اللغة العربية فى الجبال الأطلسية لاسيما فى الناحية الشرقية.

وهكذا .. تعتبر دولة الأدارسة الخطوة الأولى منذ الفتح الإسلامى نقوم بنشاط كبير فى بناء الكيان السياسى والاجتماعى للمغرب الأقصى العربى المسلم دولة إسلامية ظاهرها وباطنها العروبة والإسلام. والإسلام الصحيح والتطبيق الأمثل لمبادئ الشريعة الإسلامية؛ فقد كان أمراء هذه الدولة والكثير من رجال دولتهم عربًا، ولكن الدولة نفسها قامت على أكتافه البرب المتعربين وخاصة قبيلة أوربة وغمارة ومكناسة وهوارة ولواتة فكانت الغلبة فى هذه الدولة لأولئك البربر مما أسرع فى تعريبهم وعجل بقيام المغرب العربى.

وهكذا .. نرى فى تلك العجالة من دراسة دولة الأدارسة فى هذا البحث أن الدولة قد نجحت فى القضاء على الجانب الأكبر من انحرافات براغوطة، ومن سار على نهج الانحراف عن مبادئ الدين الإسلامى من القبائل الأخرى. وكان لابد من ذلك لأن العروبة الصحيحة لاتستقيم إلا مع الإسلام الصحيح.

وهكذا كان مذهب السنة والجماعة هو المذهب البسيط والواضح والذى قامت على أكتاف لغة الضاد.

ولقد سبق القول بأن خير دليل على قيام المغرب الأقصى العربى المسلم هو قيام العاصمة فاس وجامعها العظيم الشهير بالقرويين، الذى لعب دوراً بارزاً ومؤثراً بل فعالاً فى صبغ العروبة والإسلام ليس على أرض المغرب الأقصى فقط .. بل فى كل أرجاء المغرب الأدنى والأوسط وغرب القارة الأفريقية والأندلس.

فقد كان قيام فاس هو الخطوة الحاسمة فى قيام المغرب الأقصى العربى المسلم؛ فقد أصبحت فاس مركزاً رئيسياً للثقافة العربية الإسلامية، وأخذت جامعتها تثبت مكانتها إلى جانب مراكز العلوم الإسلامية الأخرى.

وفى فاس ومدن المغرب الأقصى مثل سلا وطنجة بدأت تقوم مراكز الدراسة الإسلامية وبدأ يتكون المجتمع العربى المغربى المسلم، وهكذا .. كانت دولة الأدارسة هى الأساس الأول الذى ارتكزت عليه عروبة المغرب الأقصى وثقافته العربية الإسلامية فى القرنين الثانى والثالث الهجريين.

وهكذا .. كانت تجربة الأئمة الأدارسة فى المغرب الأقصى وولاة تاهرت من بنى رستم والأغالبة أقاليم تجزأت فعلاً عن الخلافة العباسية وأصبح كل أقليم مستقلاً ذاتياً عن الخلافة إن كان إقليماً تابعاً أو مستقلاً كل الاستقلال عنها إن كان يدين بمذهب غير سنى كدول الخوارج والعلويين والشيعة، التى كانت لا تعترف بسلطان العباسيين، ذلك لأن كل أقليم أو جنس كان ينزع بطبيعته إلى الاستقلال بأموره عن الخلافة وإلى اختيار حكومة قوية تنهض به وتدافع عن مصالحه باسم الخلافة البعيدة كما هو حالنا فى دولة الأدارسة.

بل إنه لم يكن من الممكن أن توقف الخلافة هذه الحركات الاستقلالية لأن المعارضة العلوية والشيعة والخوارجية كانت تشجع هذه النزعات وكانت الخلافة العباسية إذا قاومت لا تجنى من ولاء المقاومة إلا ظهور دولة جديدة تستقل بحكم نفسها عن طريق القوة والانفصال لا عن طريق التقليد.

وهكذا .. شهد المغرب قيام الدولة الرستمية فى تاهرت والأدارسة بالمغرب الأقصى والأغالبة بتونس.

ولقد كان أئمة الأدارسة يدينون بالولاء العميق للإسلام والرغبة الأكيدة فى الجهاد لنصرة هذا الدين والوقوف فى وجه الأخطار التى تهدد العالم الإسلامى، ومن هنا كانت تلك الحركات فى الحقيقة تعبر عن القومية، وعن الإقليمية ذلك لأن الإسلام حينما انتشر ذلك الانتشار العظيم، نجد أن هذه القوميات بدأت تأخذ طابع الحركات الاستقلالية، ولقد كانت محاولات البربر تعبيراً قومياً عن قوميتهم ليس لباساً إسلامياً عربياً فى اللسان وفى العقيدة والتمست لنفسها تعبيراً إسلامياً.

ولقد نهضت تلك الحركات الاستقلالية بالعبء الذى ألقى على عاتقها فى خدمة الإسلام والعروبة والدفاع عن الكيان الإسلامى، ومد نفوذه ونالت احترام المسلمين وعطفهم إذ وسعت دائرة المد الإسلامى، وان انزلقت فى صراعات داخلية .. فإنها كانت تفقد أهميتها ثم لا تلبث أن تسقط ليحل محلها من هو أقدر منها.

وقد ساهم العرب فى إعطاء الصورة العربية للمغرب الأقصى؛ حيث كانوا هم الذين أقبلوا إلى المغرب ضمن الحملات الحربية التى جاءت تفتح طريقاً لنشر الإسلام بين سكانه، ومن هنا .. فإنه لم تبدأ حملات العرب الحقيقية بشعب المغرب الأقصى إلا فى حملة عقبة بن نافع الفهرى الثانية عام ٦٢هـ/٦٨١م، وذلك فى جيش مكون من خمسة عشر ألف رجل، ولم تندعم أقدام العرب فى المغرب الأقصى إلا فى عهد موسى بن نصير الذى أقبل فاتحاً للمغرب الأقصى أواخر عام ٨٦هـ، وفى سبيل نشر الإسلام فإن موسى بن نصير ترك مجموعة من العرب تعرف وتعلم سكانه قواعد الدين الإسلامى الحنيف وتنشر تعاليمه بينهم وترتب على ذلك انتشار وإنشاء بعض المساجد ليجتمع بها المسلمون، ومن هنا .. بدأ مجتمع المغرب الأقصى يطعم بعناصر عربية جديدة، والتى أقامت فى ربوع البلاد تؤدى وظيفتها التى أقبلت من أجلها. وبدأ المغرب الأقصى صفحة جديدة فى تاريخه وفى علاقاته بالخلافة الإسلامية منذ تاريخ موسى بن نصير.

وقد تابع خلفاء موسى بن نصير هذه السياسة الرشيدة .. فإن إسماعيل بن أبى المهاجر فى عهد الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز عمل على نشر الإسلام وأمده الخليفة بطائفة من التابعين وانتشروا فى البلاد يحضون الناس على الإسلام، وينشرون الثقافة الإسلامية. وكما كان تعريب أفريقية واستقرار أمورها ودخول أهلها فى الإسلام تمهيداً لانتشار الإسلام وثقافته العربية فى المغرب الأقصى؛ كذلك كان انتشار الإسلام فى المغرب الأقصى وانضمام البربر إلى العرب عاملاً حاسماً فى اندفاع الإسلام وثقافته إلى بلاد الأندلس.

فقد كان بربر المغرب الأقصى الذين دخلوا الإسلام حديثاً هم عدة هذا الفتح، وهم جنده وهذا يعتبر دليلاً على نجاح سياسة موسى بن نصير وعلى مدى انتشار العقيدة الإسلامية بين صفوف أهل البلاد الأصليين.

وهكذا .. كانت فترة مجىء الإمام «إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب» عام ١٧٢هـ فاتحة الباب لأن يكون المغرب الأقصى موطناً لمن يفضلون الإقامة فى ربوعه من العرب وملجأ وملاذاً لأصحاب الدعوات الخارجية والفارين من وجه الخلافة أولئك الذين وجدوا فى أرضه تربة صالحة لنشر أفكارهم ومبادئهم؛ بعيداً عن بطش الخلافة وسلطان ولاتها.

وهكذا .. كان الذى يترقبه أهل المغرب الأقصى فإنه سرعان ما أقبل الأدارسة وأولهم أدريس بن عبد الله إلى المغرب الأقصى حتى أقبلت عليه وفود القبائل المختلفة لتبايعه وتعاهده حاكماً وواليًا عليها، وهذه القبائل البربرية التى وفدت وقدمت طوعاً على إدريس ابن عبد الله قد وقفت بالأمس القريب فى وجه الخلافة الأموية والعباسية وخلعت عن نفسها التبعية لحكمهم فى دمشق وبغداد ثم انطوت طواعية لمبايعة رجل عربى هو ادريس ابن عبد الله؛ وذلك لأن ادريس لم يقدم المغرب غازياً بل جاء إليها هارباً ولاجئاً إليه من

وجه الخلافة العباسية ليحقق حلم العلويين فى إقامة حكومة دينية أو خلافة إسلامية تسعى لتوحيد العالم الإسلامى ومنازعة العباسيين فى بغداد.

وقد قامت دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى بتوحيد البلاد تحت لواء أمرائها العلويين وإقرار السلام فى ربوعه بعد أن كادت فتن الخوارج تفرق شمله وكان لانتساب الأدارسة إلى سبط الرسول ﷺ أثر كبير فى توحيد القبائل المتنافرة فظفروا بتأييد الأهالى على اختلاف ميولهم واستطاع ادريس الأول لأول مرة أن يوحد بين إقليم السهول الساحلية (المغرب الأقصى) وإقليم المراعى فاطمأن أهل السهول واطمأن أهل البدو وازدهرت الحياة الاقتصادية ازدهاراً لم تعرفه البلاد من قبل كما استطاع الأدارسة بفضل هذه الوحدة أن يوجهوا أنظارهم إلى حركة الجهاد المقدس بقصد إتمام نشر الإسلام فى البلاد ومحاربة العقائد والقضاء على البدع بين قبائل المغرب الأقصى وقد جاوز نفوذ الأدارسة منطقة المغرب الأقصى إلى الصحراء التى تفصل بلاد المغرب عن أقليم السودان.

وكما سبق القول عدة مرات فإن دولة الأدارسة قامت فى عام ١٧٢هـ على يد المولى أدريس بن عبد الله العلوى الذى سار إلى بلاد المغرب الأقصى مع مولاه راشد بعد أن بطش العباسيون بأهل البيت العلوى فى موقعة فخ المشهورة عام ١٦٩هـ، وقد استقبلته قبيلة أوربة البرنسية ونشرت دعوته ولقى المولى إدريس من هذه القبيلة المغربية كل العون والتأييد فى تأسيس دولة الأدارسة التى كانت أول دولة مستقلة عملت جهدها على نشر الإسلام فى ربوع هذه البلاد.

ولقد كان النسب الشريف العلوى الهاشمى من العوامل التى ساعدته على تحقيق أهدافه وجعلت البربر يقبلون عليه ويلتفون حوله وقد اتخذ الأدارسة عدة خطوات فى سبيل بناء المغرب الأقصى حتى يصبح المجتمع مع دولة الأدارسة مجتمعاً متجانساً والتى كان منها إقامة حكومة مركزية فى «وليلى» برئاسة ادريس بن عبد الله يعاونه زعماء البربر من

أمثال «إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربى زعيم قبيلة أوربة»، وقد انطوى هؤلاء البربر تحت لواء الدولة التى أسسها ادريس سواء كانوا من البربر البتر أو البربر البرانس أم المقيمين فى السهول أو هؤلاء المقيمين فى المراعى وبذلك نجح أدريس بن عبد الله؛ حيث اتفق غيره من العرب فى توحيد المنطقة سياسياً واتبع ذلك وحدة اجتماعية بن السكان.

وقد اتبع ذلك قيام ادريس بنشر الإسلام والقضاء على البدع والضلالات المنتشرة فى البلاد وكذلك ترحيب الأدارسة بالعناصر العربية الوافدة التى أقبلت فى عهد الإمام أدريس، ومن جاء بعده فهذه العناصر وما تحمله من ثقافات عربية اندمجت فى مجتمع الأدارسة وزادت من العنصر العربى الذى اختلط بسكان البلاد، وقد اختار الأدارسة من هذه الوفود العربية المقبلة إليهم إدارة عربية تتعاون جنباً إلى جنب مع العناصر الأخرى من سكان البلاد من البربر فكان منهم الوزراء والقضاة والكتاب.

وكذلك كان بناء عاصمة جديدة هى فاس من دلائل توحيد البلاد؛ حيث أن تأسيس مدينة فاس كان فاتحة عهد جديد فى تاريخ الثقافة العربية الإسلامية فى المغرب الأقصى وفى غربى أفريقية فقد أصبحت هذه المدينة مثابة للعلم والعلماء يقصدها العلماء والتجار من كل حدب وصوب وأخذت معاهدها تتأثر بالمؤثرات الثقافية من معاهد القيروان والأندلس وتشيعها فى البلاد وقد بلغت هذه الثقافة العربية التى كانت تشع من مدينة فاس ديار الملثمين فى الصحراء لأن الأدارسة بسطوا نفوذهم على البلاد كلها وتخطى نفوذهم جبال درن أو الأطلس الكبير وانتشر فى أقليم الواحات ولاسيما فى عهد عبد الله بن أدريس.

وهكذا .. ظهر جهد الأدارسة فى توحيد المنطقة سياسياً واجتماعياً مما جعل سكان البلاد يعيشون فى مجتمع يتفاعل أعضاؤه كالخلية الحية ويقوم بدوره الحضارى كغيره من المجتماعات الإسلامية وينهل من ينابيع الثقافة الإسلامية، ولم تكن الثقافة التى غمرت

المنطقة فى عهد الأدارسة غير الثقافة التابعة من الدين الإسلامى، والتى تدور وتنبع من نبع العقيدة الإسلامية. فلقد كانت الثقافة هى الدين والدين هو الثقافة فهما صنوان متطابقان.

ولقد اضطربت العقائد التى سادت بين سكان المنطقة قبل قدوم الأدارسة، ومن أجل ذلك اتخذ الأدارسة عدة خطوات لتهيئة التربة الصالحة للعقيدة الإسلامية وتعميقها وترسيخها من الكتاب والسنة فى نفوس أهل البلاد، ونشرها فى الأماكن التى لم تكن قد وصلت إليها.

ومن أجل ذلك كان الواجب القيام بحركة جهاد مقدسة الهدف منها أساساً ليس بث الجيوش وفتح البلاد، ولكن القضاء على الوثنية المنتشرة فى المنطقة، وكذلك القضاء على غير مذهب السنة والجماعة، والتى انتشر خطرها فى البلاد، وقد تمثلت حركة الجهاد فى شكل حملات متتابعة قام بها أدريس الأكبر وابنه أدريس بن أدريس وذلك لتوحيد المنطقة سياسياً وتحقيق الهدف العلمى من قيام دولة الأدارسة، وهو القضاء على العقائد الزائفة ونشر تعاليم الإسلام الحنيف فما أن انضمت كل قبائل البربر حتى بدأت المرحلة الإيجابية فى تأسيس دولة الأدارسة بعد أن استجابت تلك القبائل إلى الدعوة العلوية، وذلك حسب الأهداف التى أخذ الإمام على عاتقه القيام بها وتنفق مع رسالة آل البيت وهى العمل على نشر الإسلام والجهاد فى سبيل الله وكذلك تثبيت أركان الإسلام وإرساء قواعده فى البلاد بعد أن تعرض لكثير من الهزات والارتداد من جانب البربر.

ومن هنا .. لما كانت ديار الملثمين قريبة من جبال درن فقد انضمت تحت لواء الأدارسة وأصبحت جزءا من نفوذهم وسلطانهم السياسى يولون عليها الولاة ويخضعونها للحكومة المركزية فى فاس، لذلك تحول صنهاجة اللثام إلى الإسلام الذى بدأ فى عهد عقبة وزاد فى عهد الأدارسة وكان إسلامهم ذا أثر بالغ فى تاريخ المغرب والسودان فقد تمحض عن قيام تحالف قوى ضم قبائل الملثمين جميعاً بزعامة لمتونة. فلما تم هذا

التحالف أخذت القبائل المتحالفة على عاتقها تعد العدة لتوسع جديد أما صوب الشمال باختراق نطاق الجبل والإغارة على سهول المغرب الأقصى أو بالتقدم صوب الجنوب.

أما الناحية الأولى .. فلم يكن من السهل أن تقدم القبائل على المغامرة فيها بسبب قوة الأدارسة وحلفائهم من الزناتيين والمصامدة.

وهكذا انتشر الإسلام وتوطدت أركانه عن طريق بسط الأدارسة لنفوذهم السياسى على مناطق الجنوب، وهكذا .. كان التوحيد فى ظل الإسلام عامل قوة ودفع لدولة الأدارسة ولعب العامل السياسى أثره فى نشر الإسلام فى تلك المناطق الواسعة من المغرب الأقصى.

وإلى جانب العامل السياسى فقد كان هناك العامل الاقتصادى، والذى كان له أثره الفعال فى نشر الإسلام، وذلك لأن الأدارسة بذلوا جهودهم فى استتباب أحوال الأمن فى البلاد وساعدوا على رخاء المنطقة وساعد هذا بدوره على كثرة القوافل التجارية التى تنتقل داخل البلاد وخارجها، ولقد ساعدت هذه العوامل أيضاً على نشر الإسلام فى قبائل الجنوب وغرب السودان؛ حيث اندفع التجار المسلمون إلى مراكز الأسواق التجارية التى تقع جنوب الصحراء الكبرى، وفى ركابهم كان يدخل الإسلام.

(راجع: السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الإسلامية رسالة دكتوراه، المؤلف، سلطنة برنو الإسلامية، رسالة ماجستير، المؤلف، سلطنة كانم الإسلامية، ماجستير زين العابدين عبد الحميد السراج، دولة مالى الإسلامية، حسن جلال، ماجستير، معهد الدراسة الأفريقية).

ولقد كان البربر بعد أن دخلوا الإسلام أنشط من العرب فى نشر الدعوة الإسلامية بين تلك القبائل الزنجية.

وهكذا .. برز دور الأدارسة وتأثيرهم فى إسلام المنطقة وانتقاله إلى مناطق أخرى خارج حدود إقليمهم إذ نجح الأدارسة فى رفع راية الإسلام إلى مساحات كبيرة فى شمال المغرب وجنوبه وبذلك كانت جهودهم فى هداية المغرب الأقصى إلى الإسلام أعظم من قبائل العرب الفاتحين فى العهود الأولى للفتح الإسلامى.

وبالرغم من العمل العظيم الذى قامت به دولة الأدارسة فى نشر الإسلام فإنها لم تكن دولة شيعية بالمعنى المفهوم والسائد والمعروف لدى المؤرخين إلا من حيث انتماء مؤسسها إلى العلويين فهى دولة علوية هاشمية ظهرت فى المغرب الأقصى فجأة دون تمهيد أو دعوة سابقة أو أنصار يعملون فى السر كتلك الدعوة التى مهدت لقيام الدولة العباسية أو الدولة الفاطمية لكن كل ما يقال عنها أنها دولة علوية سنية تسير على نهج السنة والجماعة فهى ليست كالأمامة الرستمية التى ظهرت فى تاهرت وكانت أباضية على مذهب الخوارج.

وعلى هذا فهى لم تقم وفق نظريات سياسية أو دينية بل قامت على أكتاف رجل واحد يمثل الأسرة العلوية، بل أن الأدارسة لم يعملوا على التمكين للعقائد الشيعية بمذاهبها المختلفة وهى التى كان يقول بها مؤيدوهم.

ولقد سارت دولة الأدارسة فى أحكامها وشرائعها ونظمها الثقافية والاقتصادية وكل أحوال الدولة وفقاً لمذهب الإمام مالك بن أنس أحد مذاهب أهل السنة والجماعة الأربعة ذلك المذهب الذى كان له الأثر الأكبر فى توجيه النواحى الثقافية والاجتماعية ليس فى المغرب الأقصى فحسب بل فى المغرب كله؛ حيث انتشر من مدرسة القيروان وساد فى القسم الغربى من العالم الإسلامى، وقد تضافرت عدة عوامل على تثبيت أركان مذهب الإمام مالك فى دولة الأدارسة وجعلته مناط الثقافة فى المنطقة ومنها تشجيع الأدارسة لهذا المذهب وذلك نتيجة للتقارب الذى حدث بين الإمام مالك بن أنس وبين محمد النفس

الذكية بن عبد الله أخى الإمام إدريس بن عبد الله حيث آزر الإمام مالك النفس الذكية بقوله أنه أحق من أبى جعفر المنصور، ولقد كان من أسباب انتشار مذهب مالك بالمغرب واقتصار أهله عليه هو ما أمر به الإمام ادريس لذويه ورعيته باتباع رواية مالك فى الموطأ لاسيما أنه روى عن أبيه عبد الله الكامل أو المحض وإصداره فتوى بعدم مبايعته لأبى جعفر المنصور وبيعته لمحمد النفس الذكية، وعهده لأخيه ادريس الأكبر بالخلافة من بعده، ولهذا.. كان الأدارسة يرون أن تلك الفتوى من أسباب توليهم الإمامة والسلطان فى المغرب الأقصى، وقد قال الإمام إدريس نحن أحق باتباع مذهبه وقراءة كتابه الموطأ وأمر بذلك فى جميع عمالته (بلاده).

كذلك فإن الإدارة العربية التى بدأت تمارس شئون الحكم منذ عهد ادريس بن أدريس قد ضمت أناساً من رواة مذهب الإمام مالك وسفيان الثورى، وممن تتلمذوا على يديهم فى المدينة المنورة، وبذلك كانت الأحكام والفتاوى وغيرها من شئون القضاء تصدر عن رجال مالكى المذهب أخذوا عن الإمام مالك بن أنس وسمعوا منه أحكام الدين.

كذلك التيار الذى ساد المغرب منذ دخول مذهب الإمام مالك بن أنس عن طريق الحجاج وطالبى العلم من المغاربة الذين توجهوا إلى مراكز العلم فى مصر والحجاز ووجدوا بغيتهم فى الحجاز؛ حيث تتلمذوا على يد الإمام مالك نفسه والتمسك بالكتاب والسنة، ومن هنا رجع هؤلاء العلماء إلى بلادهم وخاصة القيروان؛ حيث نقلوا مذهب الإمام مالك ومنها انتشر إلى بقية المغرب ففى الوقت الذى كان فيه فقه المالكية يثبت أقدامه فى القيروان ويحاول الاتجاه إلى كل مكان، كان حكام الأدارسة يستقبلون الوافدين إليهم وخاصة فى عهد ادريس بن ادريس من أفريقية وغيرها من البلدان؛ حيث اتخذ ادريس الوزراء والحاشية الذين قاموا بدورهم فى نشر مذهب الإمام مالك.

وكذلك ما اتصف به مذهب الإمام مالك من ميل إلى الشدة والصلابة والبعد عن أسباب الترف.

ومن كل هذه العوامل مجتمعة .. رسخت آراء مالك وانتشر فقهه فى دولة الأدارسة كما انتشر فى غيره من بلدان المغرب عامة. ولقد كان لهذا المذهب أثره فى ثقافة أهل المغرب؛ حيث سيطر المالكية على الحياة الثقافية فى بلاد المغرب كلها بل، ولم يمتد أثر المذهب المالكى إلى النواحى الثقافية فقط؛ بل كانت له اثاره الاجتماعية من عادات وتقاليد سار عليها المغاربة تقليداً للإمام مالك وتلاميذه، بل اتخذوه قدوة فى كل أمورهم، وبذلك أصبح من المغاربة المثل الذى ينبغى أن يهتدى به المسلم الصحيح.

وعلى هذا فإن انتشار مذهب الإمام مالك بهذه الصورة فى دولة الأدارسة، وبقية بلاد المغرب والأندلس يمثل صورة هامة من صور وحدة الفكر التى عمت المنطقة، وقد تجاوبت أرجاء مدارس فاس والقيروان وقرطبة دراسات وآراء تدل على الوحدة الثقافية التى سادت المنطقة.

على أن جهود الأدارسة لم تكن مقصورة على تأييدهم لمذهب الإمام مالك ونشرهم له، بل إنهم شجعوا مختلف الثقافات الوافدة إليهم من القيروان وقرطبة، وتلك الثقافات التى حملتها إليهم الهجرات العربية المتتالية إلى فاس عاصمة البلاد وأخذت بعد ذلك مدينة فاس تكون شخصيتها المستقلة، وتبث تيار العلم فى الربوع النائية، وكان الأدارسة أنفسهم يزكون هذه الحركة المباركة بتأييدهم.

وقد لعبت فاس دوراً كبيراً فى تقدم المنطقة وازدهارها إذ أنها أسهمت فى تبديل الصورة القبلية، التى كانت تعيش فيها المنطقة إلى نظام حضارى، وبعبارة أخرى كانت فاس هى البوتقة التى انصهرت فيها الثقافات المختلفة، وتغلب سكان المنطقة على البداوه التى كانوا يعيشون فيها وانتقلوا إلى دور حضارى يسهم فى نشر الإسلام والثقافة العربية،

وقد وجدت هذه الثقافة العربية طريقها إلى الجنوب لأن الأدارسة بسطوا نفوذهم على البلاد كلها تقريباً وتخطى نفوذهم جبال درن كما سبق القول.

ولقد أدى كل ذلك التغيير إلى أن تكون فاس عاصمة الأدارسة ملتقى الثقافات الإسلامية؛ حيث كانت العاصمة ملتقى تيارين أحدهما من الشمال عبر المضيق؛ حيث المؤثرات الأندلسية والحضارة العربية التى بدأت تشع بنورها على المنطقة، وتأخذ طريقها إلى دولة الأدارسة عن طريق إقليم الريف الذى كاد يتصل إتصالاً مباشراً بالأندلس نتيجة الصلات القوية التى قامت بين مدن إقليم الريف ومدن الأندلس، ومن ثم .. انتشرت المؤثرات الحضارية الأندلسية فى بلاد أقليم الساحل وغلبت عليها. أما التيار الثانى؛ فقد كان قادماً من القيروان؛ حيث لعبت تلك المدينة دوراً كبيراً فى نشر الثقافة العربية والدراسات الإسلامية.

ولقد كانت فاس فى فترة حكم الأدارسة تعيش مرحلة التلقى والاستيعاب لهذه الثقافات الوافدة، ولم تبدأ فى دور التأليف والإنتاج العلمى إلا بعد ذلك؛ حيث أصبحت فاس فيما بعد كعبة الطلاب والعلماء والدارسين الذين أقبلوا عليها من كل حدب، وخاصة بعد اضطراب الأحوال فى قرطبة والقيروان.

كذلك كان تشجيع الأدارسة وتأييدهم للثقافات العربية الأثر الواضح فى انتشار اللغة العربية التى دونت بها الدراسات التى كانت لغة تخاطب المهاجرين العرب من أفريقية والأندلس. ولقد كان مؤسس الدولة، ومن خلفه من الأدارسة كانوا عربا، كما اتخذ ادريس ابن ادريس إدارة عربية تمثل الحضارة العربية، وكذلك بناء العاصمة فاس، والتى تمثل مركزاً حضارياً عربياً إسلامياً.

وفى ذلك يقول چورچ ماسيه فى كتابه شمال أفريقيا، أن فترة الأدارسة تمثل فى المغرب الأقصى مرحلة هامة من مراحل البربر وتاريخهم وخاصة فى الميدان الحضارى فعن

طريق فاس وغيرها من المراكز الحضارية بدأ الإسلام واللغة العربية ينتشران فى تلك الأقطار فكانت فاس تمثل مركزاً هاماً من مراكز الحضارة فى تلك الجهات، وذلك بجانب القيروان وقرطبة، ولقد كان نشر الإسلام كما سبق القول من أهم أهداف الثقافة الإسلامية، وقد نجح الأدارسة فى تحقيق هذا الهدف الدينى وذلك بعد أن وحدوا البلاد تحت حكمهم وشجعوا الثقافة العربية، وذلك مما أدى بدوره إلى انتشار اللغة العربية، وكذلك المجتمع المغربى فى دولة الأدارسة والتى شاركت فى تكوينه الهجرات العربية، وقد ساعد ذلك بدوره عن طريق الاحتكاك والاختلاط بسكان البلاد الأصليين على نشر اللغة العربية والتزود بالثقافة الإسلامية من الحواضر العربية ورجوعهم إلى قومهم ونشرهم لهذه الثقافات وذلك بعد أن ثبتت أركان العروبة من جراء توجه الكثير من البربر إلى المشرق للاغتراف من الينابيع العربية؛ ثم تشرهم للغة العربية لغة الإسلام والقرآن، ومن هنا بدأ البربر يقبلون عليها ويتعلمونها فلم تلبث العربية أن انتشرت بينهم، ولم يلبث أن ظهرت فى القرن الثانى منهم فئات تكتب العربية وتؤلف بها، ومن هذه العوامل مجتمعة أصبحت اللغة العربية هى اللسان الوحيد للدولة كما ساهمت اللغة فى عملية التوحيد بين عناصر السكان الذين شملهم مجتمع الأدارسة والتأليف بينهم وتلك هى صورة مجتمع المغرب الأقصى فى عهد الأدارسة من النواحى الثقافية والفكرية والعلمية.

* * * *

الباب الثاني عشر

العلاقات الخارجية بين

الإمارات الثلاث (بنى رستم ، الأدارسة ، الاغالبة)

لقد كانت دولة بنى رستم من أسبق الدول والامارات المستقلة عن الخلافة العباسية قياما فى بلاد المغرب وأصبح لها منذ اعلان قيامها فى عام ١٦٠هـ/٧٧٦م شخصيتها كدولة مستقلة ذات سيادة على أراضيها ومواطنيها ومن هنا فقد أصبح من حقها أن تساهم بدوها فى العلاقات الدولية .

كذلك فقد تلت دولة الأدارسة العلوية الهاشمية دولة بنى رستم فى اعلان استقلالها فى المغرب الاقصى وعن الخلافه العباسية بقيام أول أمرائها الامام ادريس بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب بتأسيس دولة الأدارسة واتخاذه مدينة وليلى عاصمة لهم منذ عام ١٧٢هـ .

واذا كانت دولة بنى رستم قد قامت عل أكتاف عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين بن على بن أبى طالب ومن هنا فان الامارة الاغلبية وان كانت امارة ذات حكم ذاتي واستقلال بالحكم الا انها تختلف عن الامارتين السابقتين اذ أن بنى الاغلب كانوا خاضعين لحكم بنى العباس فى بغداد ويتبعونهم اسميا ويدفعون بالخوارج الى بيت المال فى بغداد .

الا انه رغم كل هذه الظروف فقد ظهرت هذه الامارات الثلاث فى المغرب الادنى (الاغالبة) والمغرب الأوسط (بنى رستم) والادارسة فى المغرب الاقصى فان هذه الامارات كانت بينهم جميعا علاقات تتناولها بالشرح والتفصيل فى هذا الباب .

ولقد كانت هذه العلاقات بين القوى الثلاث تعود بفوائد كثيرة عليهم حيث كانت

لها آثار بعيدة المدى فى دعم أركان دولهم حيث أتاحت لهم هذه العلاقات مزيدا من الاحتكاك سياسيا رتجاريا وعسكريا رحضاريا وثقافيا وقد تنوعت هذه العلاقات قوة وضعفا وصداقة وعداء بحسب موقف الدول والامارات بعضها من بعض.

فاذا نظرنا الى علاقات بنى رستم والاداسة بالخلافة العباسية فى بغداد نجد أن علاقات الرستميين الخارجية بالعباسيين قد ارتبطت بعاملين كانا ذا أثر فى طابع العداء الذى اتسمت به تلك العلاقات وهى أن العباسيين منذ ان الت اليهم الخلافه يعتبرون بلاد المغرب كلها ميراثا شرعيا تركة الامويين لهم وعلى هذا نظروا الى الرستميين نظرة عداء وأصبحت هذه النظرة تحكم سير العلاقات بينهما فقد قامت على اسس عدائية بين الطرفين باعتبار أن الرستميين اقتطعوا جزءا من ممتلكات العباسيين وثانيهما ما كان بين العباسيين من ذلك العداء التقليدى الذى كان بين الخلافة السنية وبين دولة بنى رستم الاباضية باعتبار انهم فرقة من الخوارج وقد وضعت هذه الأسس العدائية موضع التنفيذ أيام مطاردة ولاة العباسيين بافريقية (المغرب الادنى) لعبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة ورغم أن أهداف عبد الرحمن بن رستم فى تأسيس دولة مستقلة تماما عن الخلافة العباسية لم تكن واضحة للعباسيين .

فقد قاوم العباسيون شخصية عبد الرحمن بن رستم من اللحظات الاولى التى ظهر فيها على مسرح الاحداث فى بلاد المغرب لانه كان فى نظرهم خليفة « لابى الاعلى خطاب المعافى » وهو عدوهم اللدود الذى حرص محمد بن الاشعث الوالى العباسى فى القيروان ١٤٤هـ/٧٦١م على القضاء على عبد الرحمن بن رستم بعد قتلة لابى الخطاب المعافرى ولكن ابن الاشعث فشل فى محاولتة وانسحب الى افريقية تاركا عبد الرحمن ابن ستم فى مأمنه فى جبل سوفيج .

ولما لم ينجح العباسيون فى القضاء على عبد الرحمن بن رستم ورأوا أن خطر هذه

الشخصية بات قريبا من ممتلكاتهم بأفريقية أمر أبو جعفر المنصور (عمر بن حفص) عامله على افريقية أن يحصن قاعدة طبنه وفى مواجهة هذه الخطوة من العباسيين حرص عبد الرحمن بن رستم على ان تكوين تحالف أباضى سفرى يضم سائر القوى المعارضة للخلافه العباسية ولكن عمر بن حفص الذى تولى أمر المغرب عام ١٥٢هـ/٧٦٨م نجح فى تخريب هذا التحالف وانفرد بعبد الرحمن بن رستم وقواتة وألحق به هزيمة فادحة عند تهودة ولكن لم يتمكن من القضاء علية لذا قنعت الخلافة العباسية بأنة من الاسلم لها أن تحتفظ بنفوذها فى افريقية وأن تترك المغرب الاوسط وشأنه لان محاولة استرجاع هذا الاقليم محفوف بكثير من المخاطر ولعل ذلك يفسر مسلك الوالى العباسى «روح بن حاتم» الذى تولى أمر افريقية عام ١٧١هـ/ ٧٨٧ – ٧٨٨م . اذ حرص على تحسين العلاقات بينه وبين تاهرت التى كانت فى يد عبد الرحمن بين رستم امام الرستميين وذلك لانه كان يمثل الخلافة العباسية وبعد وفاة عبد الرحمن بن رستم الذى انتخب اماما بعد وفاة والدة وطلب ابن حاتم استمرار الموادعة وحسن الجوار اعترافا رسميا من العباسيين وممثلهم فى بلاد المغرب بسيادة الرستميين على المغرب الاوسط .

وقد تحدثت كتب الاباضية الخارجية عن قيام نوع من العلاقات التجارية بين العباسيين فى بغداد وبين تاهرت، وذلك فى عصر الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وربما كانت تتم بصورة سرية فقد بعث عبد الوهاب الرستمى الى الربيع بن حبيب مائتى عشرة ألف درهم أو دينار فاشترى بها الربيع بن حبيب حوائجه فى ثمانية أيام فانصرف راجعا الى المشرق .

على ان الهدوء الذى ساد العلاقات بين الرستميين والعباسيين فى عهد عبد الرحمن بن رستم وخليفتة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم عاد وتحرك ثانية نحو التوتر فعندما أخفق « فرج النفوسى » المعروف «نفاث ابن نصير » فى حركتة ضد الامام

أفلح بن عبد الوهاب لم يجد مخرجا من هزيمتة سوى الهروب الى الشرق قاصدا بغداد وهناك رحب الخليفة العباسى المأمون بمقدمة وفى ذلك اشار واضحة الى احتواء الخلافة العباسية للخارجين على الدولة الرستمية .

ولم تلبث العلاقات الرستمية العباسية أن بلغت قمة العداء وكان ذلك عندما قبض العباسيون فى عهد الخليفة الواثق العباسى على الامير « محمد بن أفلح » الملقب بأبى اليقظان الذى كان يقوم بأداء فريضة الحج فى مكة المكرمة ونقل أبو اليقظان الى بغداد حيث سجن هناك ولكن هذه العلاقات ما لبثت أن وجدت شيئا من التحسن بسبب العلاقة القوية التى تمت بين أبى اليقظان بن أفلح والخليفة العباسى المتوكل على الله الذى كان مسجونا مع أبى اليقظان .

ذلك انه ما أن اعتلى المتوكل دست الخلافة بعد مقتل أخية الواثق حتى أفرج عن صديقة أبى اليقظان وأكرمة وسمح له بالعودة الى بلاده وبينما كانت العلاقات بين الرستميين والعباسيين تمضى فى طريق العداء تارة والتحسن تارة أخرى كانت العلاقات الثقافية قائمة بينهم وظهر معالم هذه العلاقات والثقافة فى الصلة القوية بين الرستميين والاباضية وأباضية المشرق الذين كانوا من الناحية الشكلية من رعايا الدولة العباسية وكثيرا ما جرت تفاصيل هذه العلاقات الثقافية بين تاهرت والبصرة القريبة من بغداد .

فعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم أرسل ألف دينار الى المشرق الى اخواته الاباضية بالبصرة لكى يشتروا له بها كتبا فلما وصل هذا المبلغ اشتروا به ورقا ونسخوا له فيها حمل أربعين جملا كتبا فلما بلغتة الكتب سر بها وجد لقرائتها ، بل كثيرا ما لجأ الائمة من لرستميين وغيرهم من علماء دولتهم الى علماء الاباضية المشارقة لكى يسألوهم فى حل كثير من المشالكل الى تعرض لها الرستميون .

ومن معالم العلاقات الثقافية أيضا أن « نفاث بن نصير » الثائر على الامام أفلح بن

عبد الوهاب عندما فر الى بغداد أمضى وقته هناك فى اتباع ديوان « جابر بن زيد» عالم الاباضية المشهور وكان ذلك الديوان موجودا فى خزانة الخليفة العباسى فى بغداد وللصلة القوية بين نفاث بن نصير والخليفة سمح له بأن ينسخ هذا الديوان فلما سمح له استطاع أن ينسخ هذا الديوان فى يوم وليلة بمساندة الوارقين فى بغداد وقد حمل نفاث بن نصير هذا الديوان معه عندما عاد الى المغرب مرة ثانية .

ومن العلماء والادباء الذين انتقلوا من تاهرت الى البصرة فى العراق العالم « بكر بن حماد بن سهيل بن اسماعيل الزناتى التاهرتى » وهو من شعراء الطبقة الاولى فى عصرة وكان فقيها عالما بالحديث ورجالة بل أن بكر بن حماد المعتصم استطاع أن يثبت وجودة فى بلاط العباسيين فاتصل بالخليفة المعتصم بالله العباسى ومدحة ثم عاد الى القيروان ومنها الى تاهرت حاملا معه المؤثرات الثقافية الشرقية .

علاقة الأدارسة بالخلافة العباسية

ولقد كان من أثر قيام دولة الأدارسة على أرض المغرب الاقصى أن أصبح لها علاقة خارجية مع الدول المحيطة بها شأنها فى ذلك شأن الدول المستقلة التى تمارس حريتها فى علاقاتها وارتباطها كغيرها من الدول وقد تعددت علاقات هذة الدولة وتنوعت تبعا لمواقف الدول الاخرى فالخلافة العباسية وعلاقاتها بدولة الأدارسة كانت تنظر فيها بغدادنظرة العداء الى دولة الأدارسة حيث ان قيامها فى المغرب الاقصى يشكل خطرا على ممتلكاتها فى المغرب الادنى (افريقية) ذلك الخطر الذى لم تظهر بوادره الحقيقية الا فى أوائل عام ٢٧٤هـ/٧٩٠م حين أتم الامام ادريس عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب مؤسس دولة الأدارسة اخضاع تلمسان لسلطانه السياسى وبنى مسجدا فى المدينة ولو اكتفى ادريس بن عبد الله بتجميع البربر حوله ودعاهم الى مبايعته ورضى بحكم منطقة المغرب الاقصى فحسب لما كان فى ذلك خطر يهدده من الخلافة العباسية . الا ان

اتجاه الامام ادريس بن عبد الله كان الى اخضاع اقليم تلمسان بل مدنه وقراه وأراضيه وتطلعه الى فصل المغرب عن بقية العالم الاسلامى وتوحيد المغرب والمشرق تحت قيادته لاقامة دولة علوية هاشمية تتولى أمر الخلافة لاسيما أنة من آل البيت النبوى ومن أحفاد رسول الله ﷺ .

كل ذلك جعل الخلافة العباسية تفكر جيدا فى التخلص من ادريس بن عبد الله المؤسس الاول لدولة الأدارسة ولقد فكر الخليفة هارون الرشيد فى ارسال جيش عباسى للقضاء على دولة الأدارسة ، غير ان طول المسافة مع وجود الدولة الرستمية فى المغرب الاوسط وهى دولة مستقلة ومعادية للخلافة العباسية فى المغرب جعل هارون الرشيد يعدل عن فكرة ارسال قوات العسكرية ويستخدم سلاحا أخر فى محاولته للقضاء على دولة الأدارسة وهو سلاح الاغتيال وذلك حين ارسل الشماخ الذى نجح فى اغتيال ادريس الاول بن عبد الله الا أن دولة الأدارسة بالرغم من مقتل مؤسسها فان ذلك لم يقف حجر عثرة فى سبيل مواصلة حياتها واستقرارها ووجودها فى فترة الانتقال بفضل زعامة راشد مولى ادريس والذى سار على نفس المبادىء والاسس التى أدخلها من قبل مؤسس الدولة ادريس بن عبد الله ومن هنا التف البربر حوله متمسكين بنظام الدولة .

ولم تحاول الدولة العباسية الاستعانة بولاتها فى افريقة للوقوف ضد الخطر المرتقب من دولة الادرسة نظرا لضعف الولاة وهكذا كان مبلغ اهتمام الخلافة العباسية أن تؤمن على سلطانها فى المغرب الادنى وتولية الولاة الاقوياء لكى يكونوا سدا قويا أمام طموح المغاربة فى احتواء جميع اراضى المغرب وكذلك مشاركتهم ولاة المغرب الاوسط من الرستميين بالاضافة الى الخطر الناشىء فى المغرب الاقصى .

وهكذا نرى بعد تولى العديد من الولاة حكم المغرب (افريقية)يظهر على مسرح الاحداث مؤسس دولة الاغالبة وهو ابراهيم بن الاغلب التميمى الذى كتب الى الخليفة

هارون الرشيد فى بغداد يعرض عليه أن يتولى امارة افريقية وفى مقابل ذلك يتنازل عن المال الضخم الذى كانت ترسلة مصر سنويا الى افريقة كاعانة سنوية فضلا عن تعهدة بارسال مبلغ كبير من المال الى عاصمة الخلافة العباسية ببغداد سنويا . ولقد كان الذى يهم الخليفة العباسى فى المقام الاول أن يتولى حكم افريقية رجل قوى يتمع بصفاة تؤهله للحفاظ على سلطان الخلافة العباسية فى افريقية والوقوف ضد الاخطار القادمة من دولة الأدارسة فى المغرب الاقصى ولهذا كان الاجماع على اختيار ابراهيم بن الاغلب ليتولى حكم وامارة اقليم افريقية (تونس) المغرب الادنى .

ويجدر بنا ان نشير هنا الى أن الفترة التى أعقبت مقتل ادريس بن عبد الله (١٧٧هـ/٧٩٢م) الى تولية ابراهيم بن الاغلب (١٨٤هـ/٨٠٠م) والتى كانت تقدر بسبع سنوات فقد كانت هذه الفترة فى صالح الأدارسة اذ أنها تعتبر بمثابة هدنة فى العلاقات بين الدول العباسية والدولة الادريسية .

وقد تمت هذه الهدنة عن اعتقاد الخلافة العباسية أنها قضت على دولة الأدارسة حيث قتلوا مؤسسها عام ١٧٧هـ فانشغلت الخلافة عن دولة الأدارسة بشئون افريقية وذلك بتولية والى وعزل آخر مع ما صاحب ذلك من فتن وثورات ، نقول أصبحت هذه الهدنة تسبب راحة للخلافة العباسية وغفلت الخلافة العباسية عن ذلك وقد كان ذلك فى صالح دولة الأدارسة حيث مكنت راشدا بمعاونة ومساندة زعماء البربر من تسيير الامور فى فترة الاستقلال تبعا للسياسة التى رسمها الامام ادريس بن عبد الله من قبل ، كما انها أتاحت له فى الوقت نفسة كفالة الامام ادريس بن ادريس واعداده لتولى مقاليد الحكم خلفا لوالدة .

ومن ثم يتولى ابراهيم بن الاغلب شئون افريقية انتقلت العلاقات بين الأدارسة والخلافة العباسية الى علاقات بين الأدارسة والاغالبة حكام تونس اذ أنه منذ عام ١٨٤هـ/٨٠٠م دخلت العلاة بين الخلافة العباسية ودولة الأدارسة مرحلة جديدة اذ

اعتمدت دولة الخلافة العباسية على دولة الاغالبة التابعة لها فى المغرب الادنى فى أن تتبع فى سياستها خطا معاديا لدولة الأدارسة والعمل على القضاء عليها بكل السبل والوسائل ، ومن ذلك نجد انه ما أن فرغ ابراهيم بن الاغلب من اقرار الامور فى ولايته حتى شرع فى تنفيذ السياسة المرسومة له من قبل الخلافة العباسية ، تلك السياسة التى تتلخص فى القضاء على نفوذ الأدارسة فى المغرب الاقصى ففى تنفيذ هذه السياسة تأمين لولاية افريقية (تونس) نفسها وضمان لبقائه فيها ومن جهة أخرى فهى تقربة الخليفة العباسى فى بغداد .

وقد اتخذت سياسة العداء من جانب الاغالبة ومحاولة القضاء على دولة الأدارسة عدة آشكال والتى منها استخدام سلاح الاغتيال فقد ادرك ابن الاغلب أن الخطر الذى يتهدده من دولة الأدارسة فى تلك الفترة ١٨٦هـ/٨٠٢م انما يتمثل فى رئيس الدولة فى فترة الانتقال والمشرف على شئونها راشد مولى ادريس .

ثم صرف همه الى تهديد المغرب الاقصى وقد ظهرت فيه دعوة العلويين على يد ادريس بن عبد الله الاول واستفحل أمر راشد بعد ذلك ولم يكن استفحال أمر راشد نشئا من حكمه لدولة الأدارسة فقط وانما يكمن فى تطلعة الى غزو افريقية (المغرب الادنى) بقول ابن خلدون استفحل راشد وهم بغزو افريقية لما كان له من النفوذ ولكثرة الجنود فراشد يشكل خطرا بالنسبة لولاية ابراهيم الاغلب لذا كان مصير راشد الاغتيال على يد مجموعة من البربر استمالهم ابن الاغلب بأموالة وهداياه وما أن تم لابن الاغلب تنفيذ مؤامراته حتى أسرع بالكتابة الى الرشيد الخليفة العباسى فى بغداد يزف اليه بشرى قتله لاحد أعداء الدولة العباسية .

ومن هنا فان قتل راشد قد تم بطريق الغدر والاغتيال وأن ابن الاغلب قد افتخر بذلك .

بل ان ابن الاغلب قد ظل يتحين الفرصة للقضاء على ادريس بن ادريس كما قضى على راشد من قبل كما ابن الاغلب لا تعجزه بعد المسافة بينه وبين اعدائة فمكائده تصل الى اعدائه فى عقر دارهم ذكر بن الاغلب انه ساق لاغتيال راشد ثلاثين الف دينار استخدمها فى قتل راشد باستمالة القائمين على مؤامرة القائمين على الاغتيال .

لكن سياسة الاغتيال لم تنجح فى القضاء على دولة الأدارسة ومن ثم اتخذ ابن الاغلب طريقا آخر لعله يحقق آماله فاستخدم سلاح الاغراء والاستماله ووقع اختياره على أحد زعماء البربر المشرفين على شئون الدولة وهو « بهلول بن عبد الواحد المقفرى » زعيم قبيلة مقفرة ، وأخذ ابن الاغلب يستميله بالهدايا والاموال وجرت بينهما مكاتبات وقع فيها بهلول بن عبد الواحد تحت تأثير دعاية ابن الاغلب وتزين ابن الاغلب له بمبايعة الرشيد لان الرشيد هر خليفة المسلمين وامامهم وليس ابن ادريس وكانت نتيجة ذلك العمل الذى سعى اليه ابن الاغلب أن أنفصل بهلول بن عبد الواحد وقومة عن طاعة ادريس بن ادريس وبايع الرشيد ووفد على بن الاغلب فى القيروان ولم يكن ادريس بن ادريس فى ذلك الوقت فى مركز يسمح ل بمحاربة بهلول واخضاع قبيلته لطاعتة بالقوة فادريس بن ادريس قد فقد شخصا مثل بهلول الذى كان زعيما لقبيلته ومطاعا فى قومه وقد عالج الامام ادريس بن ادريس هذا باسلوب يدل على المهارة السياسية اذ سلك طريقين فقد كتب الى « بهلول بن عبد الواحد » يحذره من مغبة الخروج عن طاعتة ناصحا له بالرجوع الى طاعتة وكاشفا له مؤامرات ابن الاغلب التى عمت البلاد كلها ودسائسها ومكائدها وأهدافها من ذلك ، كما أن ادريس أرسل الى ابن الاغلب كتابا يسأله المسالمة والموادعة ومستغلا عاطفة ابن الاغلب الدينية حين ذكره بقرابته من رسول الله ﷺ ومصير ابن الاغلب فى الاخوة اذا واصل عداءه لآل البيت ومن حسن حظ دولة الأدارسة أن انشغل ابن الاغلب فى ثورة داخلية فى ولايته اذ بادر أهل طرابلس عام ١٨٩هـ/٨٠٥م

بالثورة عليه ومن هنا وجه ابن الاغلب اهتمامه لقمع الفتن فى داخل ولايته وتأمين سلطانه السياسى داخل افريقية وبذلك انصرف عن تدبير المؤامرات لدولة الأدارسة متظاهرا بأنه كف عن عداوته لهم لحرمة ادريس بن ادريس وقرابته من رسول الله ﷺ وموقف المسالمة من جانب ادريس ناتج عن انه لم يكن فى موقف القوة حيث أن جبهته الداخلية لم تكن تدعو للاطمئنان فقد رضى بعض البربر بقتل راشد فى مقابل قدر من المال يدفعه لهم ابن الاغلب ووقع بعضهم فريسة الاغراء حتى اعطى البيعة للجبهة المعادية وهم الاغالبة ومن هنا شعر الامام ادريس بن ادريس بمعجزه عن محاربة العدو الخارجى والقضاء على مؤامراته .

لكن ما أن فرغ ابن الاغلب من القضاء على الفتن الداخلية فى ولايته حتى نقض سياسة المهادنه التى اتبعها من قبل ورجع الى تدبير المؤامرات ضد دولة الأدارسة وذلك باستمالة احد زعماء البربر الناصرين لادريس ووقع اختيارة فى هذه المره على اسحق بن محمد عبد الحميد الاوربى » زعيم قبيلة أوربة وجد ادريس الثانى محاولا استمالته وضمه الى صفه لكن ادريس أحس من جده اسحق بن محمد الاوربى باعراضه عنه وموالاته لابن الاغلب ومن ثم اتخذ موقف الحزم والشدة فأمر بقتله وموقف الحزم هذا فيه اشارة الى تبدل مراكز ادريس بن ادريس فى الحكم بعد ان كبر سنه وخلع الوصاية عنه وأقبلت اليه الوفود العربية من كل مكان واستخدم منهم الوزراء والقضاء على كل من يحاول الخروج عن طاعته وموالاة العدو .

قام أمراء الاغالبة بالطعن الكاذب فى نسب ادريس تخفيضا لشأنه وقد قرعت هذه الكلمات الشنعاء أسماع الغوغاء فادريس الثانى ولد على فراش أبيه فآل البيت هؤلاء قد اذهب عنهم الرحمن الرجس وطهرهم تطهيرا ففراش ادريس طاهر من الدنس ومنزه من الرجس بحكم القرآن الكريم ومن اعتقد خلاف ذلك فقد باء باثم كبير وقد قام الاغالبة

بذلك الطعن الكاذب وهذا يعود الى الحسد لاعقاب ادريس هذا حيث أن ادعاء النسب الكريم دعوى شرف عريضه على الامم والاجيال .

ولما كان نسب آل ادريس قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغا لايكاديلحق ولا يطمع أحد فى ادراكه اد أن نسب جدهم ادريس الثانى مختط فارس ومؤسسها ومسجده لصيق محلتهم وسيفه منتضى برأس المئذنة فليس فى المغرب من أهل هذا البيت الكريم من يبلغ فى طرحة نسبه ووضوحه بالغ . عقاب ادريس هذا من آل الحسن وكبراؤهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى بن محمد بن يحيى القوام بنى القاسم بن ادريس بن ادريس ولهخم السيادة على أهل المغرب كافة .

وكان الأدارسة بالمغرب يلقبون ادريس بالإمام وإبنه ادريس الأصغر كذلك وهكذا شأنهم وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمير المؤمنين وجعلوه سمة لهم.

وقد استخدم ابن الأغلب سلاح التشكيك فى نسب بنى ادريس من حيث صلتهم بالرسول ﷺ وذلك لمنع الناس من الإلتفاف حول ادريس بن ادريس وهو ما يعرف بالمصطلح الحديث الحرب الباردة وهو ذلك السلاح الذى استخدمه العباسيون فى القدح فى النسب العلوى. وقد اتخذ أعداء دولة الأدارسة هذه الدعوة الكاذبة ذريعة للنيل من أمارائها والقضاء على سلطانهم السياسى وقد ذاعت هذه الدعوى، ولقد كان من عوامل إقبال البربر والتفافهم حول الأدارسة انتماء ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب إلى رسول الله ﷺ واعتقاد البربر أن الأدارسة هم أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة باعتبارهم من نسل على بن أبى طالب وأن العباسيين مغتصبون للخلافة منهم، فإذ ما شكك البربر فى صحة نسب ادريس وأنه ليس ابن ادريس الأول انهدمت دعامة كبيرة من ادعاء ادريس بن ادريس الإمامة وتولية الحكم خلفاً لوالده، إلا أن سلاح التشكيك لم يجد آذاناً صاغية فى دولة الادارسة، ذلك لأن المجتمع الذى ولد

فيه ادريس ونشأ فيه وأقام دولته هو مجتمع قبلى تتعارف فيه الأسر والأنساب وذلك لتلاصق مجتمع القبيلة مع ارتباطه بصلات القربى والنسب.

كذلك فإن راشد الأوربى مولى أدريس الأكبر حين تولى الإشراف على الدولة وتحمل تربية ادريس لم يكن بمفرده؛ إنما كان يعاونه البربر وتحت إشرافهم ثم أن قبائل البربر أقبلت على مبايعة ادريس بن ادريس وكان فيهم جنوده الذين تعرضوا للموت وأخطاره فى الحملات الحربية التى قادها أبوه من قبل، وإن كانوا قد فطنوا إلى أن مصدر هذه الإشاعة الكاذبة هم أعداء دولة الادارسة من العباسيين ومن سار فى فلكهم من أتباعهم الأغالبة.

وهكذا اتسمت العلاقة بين الادارسة والأغالبة بطابع الاعتيالات والمساومات والتشكيك فى الانساب من جانب الأغالبة وطابع التودد والنصح ثم الحزم مع المتآمرين من جانب الأدارسة.

كما أنه على الجانب الآخر فقد استغل الأغالبة وجود وقوة دولة الأدارسة فى تهديد الدولة العباسية فى بغداد فلقد كان لوجود دولة الأدارسة وذيوع صيتها وقوتها سلاح يلوح به الأغالبة فى وجه العباسيين حين تحاول الخلافة العباسية أن تغلو فى نفوذها على القيروان وأن توفر مالا يرضاه الحكام من الأغالبة فها هو زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب ثالث أمرائهم والذى تولى الحكم فى القيروان خلفاً لأخيه عبد الله بن الأغلب عام ٢١١هـ/٨١٦م يهدد الخليفة العباسى المأمون ويلوح له بالإنضمام إلى حكم دولة الأدارسة والدخول فى طاعتهم عندما حاول المأمون أن يفرض عليه ما يأباه.

ولقد أبلغ زيادة الله العباسيين كيف انتشر نفوذ الأدارسة حتى وصل إلى عقر داره فى القيروان وأنه يمكنه خلع طاعة بنى العباسى والدعوة للأدارسة ومن ذلك فإنه كان قد أرسل كيساً به ألف دينار مسكوكة باسم إدريس الحسنى وكما أنه أظهر فى الوقت نفسه

كيف يقاوم ويناضل نفوذ العلويين المقيمين فى المغرب الأقصى.

وهكذا .. كان وجود دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى ورقة رابحة يستخدمها الأغالبة فى تدعيم مركزهم وبيان أهميتهم أمام الدولة العباسية إذا اضطر إلى ذلك. وبذلك لم تستطع الدولة العباسية أن تحقق أهدافها لأن دولة الأغالبة وإن كانت قد نفذت سياستها فى عدائها للدولة الأدريسية وفقاً لمخطط بنى العباسى فى بغداد. ونجاحها فى بعض الأحيان فى ذلك، إلا أنه رغم ذلك فإن دولة الأغالبة لم تحاول أن تتمادى فى عدوانها للأدارسة لأن فى وجودها عنصر يؤمن حياة دولة الأغالبة ويجعل الخلافة العباسية تتمسك بوجود الأغالبة فى أفريقية كحاجز ضد تطلع الأدارسة لإقامة خلافة علوية وضم المغرب الأدنى.

علاقة الرستميين بمصر :

سارت العلاقات بين الرستميين فى تاهرت ومصر والولاية العباسية عن طريق ودى، إذ كانت مصر تمثل المجاز الشرقى للدولة الرستمية والمنفذ الوحيد لهم إلى شرق العالم الإسلامى. ومن ثم .. حرص الرستميون على أن تكون هذه العلاقات علاقة حسن جوار؛ إلا أنه يلاحظ أن العلاقات السياسية كانت ضعيفة على حين نشطت العلاقات الأخرى الاقتصادية والتجارية والثقافية، ويرجع ذلك إلى أن مصر كانت ولاية عباسية خاضعة للعباسيين وتسير على نفس النهج الذى تسير عليه بغداد.

وترجع العلاقات الثقافية القوية بين مصر والرستميين إلى أن عددا كبيرا من المصريين كانوا على المذهب الأباضى الخارجى، بل لقد كان بين هؤلاء العلماء الأباضيين المصريين علماء لهم وزنهم الدينى فى رأى الرستميين فكانوا مرجعاً لهم فى شئونهم وفتاواهم، ومن بين هؤلاء الأباضية المصريين العلماء العالم «شعيب المصرى» الذى قدم إلى تاهرت أيام الفتنة التى حدثت بين الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبين يزيد بن قندين»، وقد كان شعيب المصرى هذا يطمع فى الوصول إلى منصب

الإمامة، ولكنه لم ينجح فى مساعيه فعاد إلى مصر بعد أن تمكن الإمام عبد الوهاب من القضاء على فتنة يزيد بن قندين.

أما عن العلاقات التجارية .. فقد كانت مصر المعاصرة للدولة الرستمية تلعب دور الوسيط فى التجارة بين الشرق والغرب وأصبحت تمثل مخزناً لمختلف البضائع الشرقية والغربية، وقد ضمنت طبيعة الامتداد الجغرافى لحدود الدولة الرستمية إلى طرابلس أن تكون مصر منفذاً للقوافل الرستمية المتجهة إلى الشرق الإسلامى وخاصة القوافل التى تحمل الحجيج والرحالة والعلماء والتجار وقد سارت هذه القوافل فى الطرق التجارية التى امتدت بين مصر والواحات الغربية وبلاد المغرب، وقد تولت هوارة فى شرق طرابلس وكذلك نفوسة والقبائل الطرابلسية الأخرى هذه المهمة فكانت تجوب الصحراء ذاهبة آيبة بين المدن الرستمية فى المغرب الأدنى والأوسط من مصر وكانت قوافلها الجرارة مثقلة بالسلع الرستمية والمصرية، ومما لاشك فيه أن هؤلاء التجار والرحالة والعلماء من الرستميين قد نقلوا كثيراً من الأفكار الأباضية الرستمية إلى مصر كما تأثروا كثيراً بما وجدوه فى مصر من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية فنقلوها إلى بلادهم.

وقد شهدت العلاقات بين مصر والرستميين شيئاً من التوتر فى عهد الطولونيين (٢٦٥هـ–٨٧٨م)، ولكن الذى يفهم من أسباب هذا التوتر الذى عرضنا له سابقاً أن أهدافه لم تكن بسبب سياسة عدائية رسمها الطولونيون تجاه دولة بنى رستم إنما تمت كل دوافع هذا التوتر إلى ظروف شخصية بحتة تتصل بفتنة العباس بن أحمد بن طولون ومن يؤيد وجهة النظر هذه أن أحمد بن طولون لم يكن فى مصر حين خرجت حملة العباس نحو بلاد المغرب وأنه خرج دون علم والده الذى كان فى حملة إلى بلاد الشام كما أن الخليفة العباسى الموفق بالله أراد أن يحدث انقساماً فى صفوف الطولونيين فكان أن أوعز إلى بعض أعوانه لكى يسهلوا ما قام به العباس وقد أشار المؤرخ ابن سعيد المغربى

فى كتابه حلى المغرب إلى الحالة النفسية السيئة التى كان يشعر بها أحمد بن طولون نتيجة لتردى العلاقات بينه وبين الرستميين من جهة وبينه وبين ولاة الأغالبة من جهة ثانية.

وكان الناس يرون غمة أحمد بن طولون مما جنى عليه ابنه العباس وأنه لم يكتف بما حمله من مصر حتى وقع أمر غليظ بينه وبين إبراهيم ابن الأغلب والياس بن منصور النفوسى عامل الرستميين على جبل نفوسة، وأنه اذا حاول الانتصار فيها أجحف بنفسه وإن أمسك عنهما نقض موقفه وبدت عورة من عوراته.

* * * *

علاقة الرستميين بالأغالبة

(١٨٤/٢٩٦هـ – ٨٠٠/٩٠٨م)

يقول الدكتور محمود إسماعيل عبد الرازق فى كتابه الأغالبة سياستهم الخارجية، لقد أحست الخلافة العباسية أن قيام الدولة الرستمية فى المغربين الأدنى والأوسط أصبح يشكل خطراً كبيراً على وجودها فى بلاد المغرب إذ أصبحت هذه الدولة تمثل حاجزاً كبيراً فى سبيل إرسال أى جيش عباسى لإعادة المغرب الأقصى أو بلاد الأندلس إلى حظيرة الدولة العباسية؛ حيث قامت فى هاتين المنطقتين البعيدتين دولة الأمويين ودولة الأدارسة، لذا .. رأت الخلافة ضرورة تدعيم نفوذها فى أفريقية وفى تلك الأثناء لاحت فى الأفق السياسى لأفريقية شخصية إبراهيم بن الأغلب الذى أسدى خدمات جليلة للخلافة العباسية، تمثلت فى قضائه على ثورات الجند ومساهمته الفعالة فى الكيد للأدارسة وتدبير مؤامرات الاغتيال ضدهم وإزاء هذه الخدمات قدم إبراهيم بن الأغلب إلى الخليفة هارون الرشيد عرضاً مغرياً تضمن تنازل إبراهيم بن الأغلب فى حالة توليه إمارة أفرقية عن الإعانة المالية السنوية التى كانت ترد إلى أفريقية من مصر وقدرها مائة ألف دينار، ويتعهد هو بتقديم أربعين ألف دينار سنوياً للخلافة على أن تكون إمارة أفريقية له ولأولاده من بعده فوافق هارون الرشيد على هذا وسارع فى تسليم الأمور فى تلك البلاد إلى إبراهيم بن الأغلب عام ١٨٤هـ/٨٠٠م وأعلن قيام دولة الأغالبة، وبالنسبة لدولة الأغالبة هذه قرر الرستميون اتباع سياسة التعايش السلمى معها، وهى الجارة القوية على حدودهم الشرقية والشمالية، وقد دفع هذا بعض المؤرخين إلى القول بأن علاقة الرستميين بالأغالبة لم تتخذ طابعاً عدائياً وفى الحقيقة بإن اتباع الرستميين لسياسة التعايش السلمى مع الأغالبة لاترجع إلى ما اشتهر به الرستميون من التقوى والمسالمة وعدم الاهتمام بما يدور خارج حدودهم وانصرافهم إلى شئونهم الداخلية؛ وإنما يرجع فى حقيقة الأمر إلى طبيعة الحدود

المشتركة بين الدولتين إذ تطوق حدود الدولة الرستمية الممتدة من تاهرت غرباً إلى طرابلس شرقاً دولة الأغالبة من الشرق والغرب والجنوب، ولم تكن هذه الحدود واضحة المعالم فقد كانت دولة الرستميين إمارة بدوية صحراوية تبسط سلطانها على القبائل البدوية الصحراوية مع أن هذه القبائل اتخذت بعض المراكز فى القرى الجبلية والواحات الصحراوية إلا أنها ظلت فى حالة غير مستقرة ولا يستقر لها قرار فكانت تتصل من مكان إلى مكان حسب الظروف الطبيعية أو السياسية وقد عقد أول اتفاق لتقرير مبدأ التعايش السلمى بين الرستميين والأغالبة؛ حيث اضطر الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم إلى الاصطدام مع الأغالبة دفاعاً عن مواطنى دولته من قبيلة هوارة وجاءت نصوص هذا الاتفاق مراعية لصالح الطرفين؛ حيث أكد الأغالبة احترامهم للامتداد الجغرافى للدولة الرستمية ونطاقها الرعوى الداخلى فى منطقة طرابلس، وبالتالى احترام الرستميين حاجة الأغالبة إلى الشريط الساحلى لطرابلس لاتخاذهم البحر المتوسط ميداناً للجهاد ضد الروم ونشر رايات الإسلام خفاقة على مياه البحر المتوسط والسيطرة على جزر غرب البحر المتوسط، ولكن سياسة التعايش السلمى هذه التى اتبعتها الدولة الرستمية أملت عليها فى كثير من الأحيان الدفاع عن نفسها ضد الأغالبة وأطماعهم التوسعية فرأى الرستميون أن قيام أبى العباس محمد بن الأغلب (٢٢٩هـ/٨٥٣م)، ببناء مدينة العباسية بالقرب من تاهرت فيه ما يسىء بمبدأ التعايش السلمى، ويتعارض تماماً مع المصالح الحيوية للرستميين، إذ استهدف الأغالبة من بناء هذه المدينة، وإطلاق هذا الاسم عليها القضاء على المركز التجارى الهام الذى احتلته مدينة تاهرت فى هذه المنطقة، لذا . قام الإمام أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بإخلائها ممن يسكن فيها وقام بحرقها والقضاء عليها قبل أن تتبوأ مكانتها لتنافس تاهرت.

وحقاً .. فإن الأغالبة كان لهم مسلكهم فى معاداة أعداء الخلافة العباسية، ولكن

بالنسبة للرستميين لم يستطيعوا الإفصاح عن هذا العداء السافر، لذا .. عمدوا إلى تشجيع القلاقل والخلافات، وذلك لوجود جالية كبيرة من المتمردين على الأغالبة ومنح الرستميون أفرادها ما يشبه حق اللجوء السياسى فى بلادهم.

فكانت تاهرت زاهرة بعدد كبير من هؤلاء القيرويين الذين عاشوا فى المجتمع الرستمى وهم يتمتعون بكامل الحقوق التى تمنح لمواطنى الدولة الرستمية بل أن بعضهم صاهر أئمة الدولة الرستمية واصبح لهم نفوز واسع لم يصل الية غيرهم « كمحمد بن عرفة » (انظر سابقا) وقد اندس بين هؤلاء السياسيين ممن شجعهم وسخرهم الاغالبة لاثارة الشغب فى البلاد كلما واتتهم الفرصة لذلك . وقد قام « خلف الخادم » مولى الاغلب بن سالم فى عهد « أبى بكر بن أفلح » باثارة الفتنة والشقاق بين سكان العاصمة بتاهرت متخذا من مقتل محمد بن عرفه ذريعة الى ذلك وقد بذل فى سبيل ذلك أموالا كثيرة وقد تمكن أبو اليقظان بن أفلح « خليفة » أبى بكر بن أفلح من القضاء على هذه الفتنة بعد أعوام سبعة من امامته .

وفى اطار مبدأ التعايش السلمى نهض كل من الرستميين والأغالبة للوقوف فى وجه العباس بن أحنمد بن طولون عندما هدد حدود الدولة الرستمية الاغلبية ٢٦٥/٨٧٨م ولم يكن اشتراكهما معا فى مواجهة أطماع العباس نتيجة تحالف أو تعاون مشترك تم بينهم بل حدث نتيجة لما أحاط بالجانبين من خطر فى وقت واحد . لان هزيمة أى واحد منهما أمام العباس بن أحمد طولون قد يعرض الآخر لهزيمة مماثلة تغير من طبيعة الوضع السياسى لمنطقة طرابلس ، الى جانب أن كلا من الرستميين والاغالبة قد نال قسطا من تهديدات العباس بن أحمد بن طولون واعتداءاته اذ كان الرستميون قد الزموا الاغالبة بمبدأ التعايش السلمى بالقوة قد تأثر بالاشتراك معهم فى الدفاع عن حدود الدولتين عندما خرج العباس بن أحمد بن طولون للاستيلاء على افريقية تارة اخرى ، كذلك فان

الاغالبة عندما شعروا بضعف الرستميين استهانوا بمبدأ التعايش السلمى معهم واعتدوا عليهم بغية القضاء عليهم وقد انتهزوا الفرصة فى امامة أبى حاتم يوسف بن محمد ففى عام ٢٨٣ هـ/٨٩٦م اصطدم ابراهيم بن أحمد بن الاغلب بقبيلة نفوسة التى كانت من رعايا الدولة الرستمية عند موقع « قصر مانو» بين قابس وطرابلس وكانت نفوسة قد خرجت الى ابراهيم ابن أحمد بن الاغلب فى عشرين الف مقاتل واندلعت الحرب بينها وبين ابراهيم بن أحمد أبن الاغلب ودارت الدائرة على نفوسة وقتل منها عدد ضخم جدا من الرجال والعلماء وبعد هذه المعركة انهارت نفوسة التى كانت تشكل عصب الدولة الرستمية ودرعها الواقية وسرت فى الجبل حالة من الفوضى لان أهل الرأى فى الجبل اجتمعوا وقرروا عزل « أفلح بن العباس » عامل الرستميين على الجبل وقد دفعت حالة الفوضى هذه الاغالبة الى ارسال جيش اخر عام ٢٨٤ هـ/٨٩٧م هجم على قبيلة نفوسة واستباحها وعاد مثقلا بالاسرى منهم ، بل أن هناك من يرى انه لو لا ما جرى فى هذه الاثناء من عزل ابراهيم بن أحمد بن الاغلب وتوجهه الى جزيرة صقلية لوجه ضربتة التالية نحو العاصمة الرستمية تاهرت قلب الدولة الرستمية .

ورغم ان الاغالبة حرصوا كل الحرص على مقاطعة الرستميين تجاريا وثقافيا وسياسيا الا أن هناك ما يشير الى وجود شيء قليل من هذه العلاقات التى كانت تتم بصورة غير رسمية وعلى المستوى الشعبى ، فالعلاقات التجارية اليومية التى تسير بصورة طبيعية بين الجهات الداخلية وطرابلس التابعة للنفوز الرستمى وبين طرابلس المدينة نفسها الخاضعة للاغالبة .

وقد ذكر ابن سعيد المغربى ومن جبل نفوسة تمتاز طرابلس بأنواع الخيرات ، كما كانت هناك علاقات ثقافية قائمة بين تاهرت والقيروان تمثلت فى العلماء والادباء الذين انتقلوا من تاهرت الى القيروان بغية تحصيل العلم على يد من بها من العلماء ومن هؤلاء

العلماء الادباء « بكر بن حماد بن ساهيل بن اسماعيل الزناتى التاهرتى » وكان قد وصل الى البصرة ثم عاد الى القيروان سنة ٢٧٩ هـ/٨٥٣م فأخذ فيها العلم عن « عون ابن يوسف الخزاعى » « وسحنون بن سعيد » حتى اذ كانت سنة ٢٧٤هـ/٨٧٧م تصدر للدرس والتدريس والقاء محاضراته فى الادب والعلم بجامعها الكبير وتوفى عام ٢٩٦هـ/٩٠٨م بعد عودتة بسنة واحدة فى قلعة ابن حمة شمال فارتحل اليه كثير من أهل افريقية والاندلس للاخذ عنه وتلقى العلوم على يديه وكان منهم محدث الاندلس فى عصره « قاسم بن أصبغ بن محمد البياتى القرطبى » وقد عاد بكر بن حماد الى تاهرت عام ٢٩٥هـ/٩٠٧م حيث العاصمة تاهرت .

علاقة الاداسة ببنى رستم

اذ انتقلنا الى العلاقات بين الادارسة وبنى رستم طوينا صفحة العلاقات بين الادارسة وبنى رستم ولاغالبة والدولة العباسية وانتقلنا الى المغرب الاوسط وجدنا الدولة الرستمية التى اسسها عبد الرحمن بن رستم الأباضى حيث كان طابع العلاقات بين الادارسة والدولة الرستمية هو حسن الجوار خاصة وانه كان يجمع بينهما هدف موحد ازاء الخلافه العباسية وهو العداء المشترك نحوها حيث استقلت كلتاهما بجزء من العالم الاسلامى وأصبح لكل منها شخصيته الخاصة وكيانه السياسى المستقل بعيدا عن سلطة الخلافة العباسية وولاتها ولقد كان لقيام الدولة الرستمية فى المغرب الاوسط الاثر الواضح فى حماية دولة الادارسة واستقرار الأمور بها فالدولة الرستمية المعادية للدول العباسية كانت بمثابة حاجز يفصل بين دولة الادارسة والمغرب الاقص وبين أعدائها فى المغرب الادنى وهم الولاة العباسيون ثم بعد ذلك الاغالبة .

ومن هنا فان أى جيش يرى ارساله ولاة افريقية للقضاء على دولة الادارسة لابد ان يخترق أراضى الدولة الرستمية ولم تكن العلاقات طيبة بين الدولة الرستمية وبين ولاة

أفريقية حيث ان عبد الرحمن بن رستم أسس دولته نتيجة هروبة من ولاة افريقيا كذلك لم تكن العلاقة طيبة بين الرستميين والاغالبة فقد ذكر ابن الاثير فى حوادث ٢٢٦هـ/٨٧٩م أن العباسى محمد ابن الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب والى بلاد افريقية بعد وفاة ابية دانت له افريقية وابتنى مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية وفى عام ٢٣٩هـ أحرقها أفلح بن عبد الوهاب الاباضى .

غير ان العلاقة الطيبة بين دولة الادارسة والدولة الرستمية قد حدث بينهما شىء من القطيعة نتيجة محاولات بعض أتباع دولة الادارسة من أمراء تلمسان من يغراوه وبنى يفرن ضم اجزاء من الدولة الرستمية الى دولة الادارسة لكن لم يزل الملك فى بنى ستم هؤلاء بتاهرت وجاورهم جيرانهم من مغراوة وبنى يفرن على الدخول فى طاعة الادارسة لما ملكوا تلمسان وأخذت بها زناتة من لدن عام ١٧٣هـ فأمضوا عليهم سائر أيامهم .

وكانت هذه القبائل قد تكاتفت جهودها فى ضم أجزاء من الدولة الرستمية الى دولة الادارسة بالتعاون مع زعيم الواصلية فى المغرب الاقصى وهو اسحق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى فى إثارة واصلية المغرب الاوسط على الحكام الرستميين ومحاولات الاستقلال بالاماكن التى يستقرون بها بضواحى تاهرت عاصمة الرستميين وقد حدثت مكاتبات بين اسحق وهؤلاء الواصلة بالمغرب الاوسط والذين ضموا صفوفهم وأجمعوا أمرهم على القيام بثورة ضد حاكم الدولة الرستمية عبد الرحمن بن رستم معلنين انفصالهم عن طاعته لكن الاصح أن هذه الثورة لم تكن بايعاز من اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربى لمناصرة دولة الادارسة ولكن خروج « ابن قنديل » هو السبب فى تلك الثورة ، غير ان هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح اذ انتصرت الدولة الستمية وهكذا كانت العلاقات التى سادت بين الادارسة وبنى رستم هى علاقة حسن جوار .

حيث ان دولة الادارسة تمثل الجار الغربى لدولة بنى رستم وهذه الدولة تضم اقليم

المغرب الاقصى كله وهذا الاقليم يحده من الشرق وادى ملوية وجبال تازة وهما يمثلان خط الحدود مع الدولة الرستمية أما حدودها من جهة الغرب فالبحر المتوسط ومن الشمال بحر الروم ومن الجنوب جبال درن والمعروف كما سبق القول أن مؤسس هذه الدولة هو ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن أبى طالب.

ودولة الادارسة دولة من النوع المعتدل التى تقترب آراء أئمتها مع آراء أهل السنة من ناحية ولذا اطلق عليها ابن عذارى المراكشى اسم الدولة الهاشمية وقربها من أهل السنة جعلها من ناحية أخرى قريبة فى ميولها السياسية من الرستميين أصحاب المذهب الاباضى المتاخمين بهم فى المغرب الأوسط من ناحية أخرى، والذى يمثل مذهبهم الاباضى آخر تطورات الفكر الخارجى فى تلك الفترة اذ أصبح هذا المذهب أقرب المذاهب الخارجيه الى مذهب أهل السنة ومن ثم لم يكن هناك خلافات مذهبية حادة بين الدولتين الجارتين لذا وضع الرستميون وكذا الادارسة سياستهم على أساس حسن الجوار المتبادل بينهما . ومما دعم علاقات حسن الجوار بينهما انه كان يجمع بينهما أيضا موقف موحد ازاء الخلافه العباسية وهو العداء المشترك نحوها .

بالاضافه الى ان الادارسة كانوا يشعرون أن دولة الرستميين بالمغرب الاوسط تمثل الحارس الأمين لحدودهم الشرقية فهى بمثابة فاصل بين دولة الادارسة فى المعرب الاقصى وبين الولاة العباسيين أعدائها فى المغرب الادنى وقد كانت سيادة الرستميين على أراضيهم تمنع وصول أى قوات من الخلافة العباسية عبر أراضيها ومن ناحية أخرى لم تكن العلاقة طيبة بين الرستميين والعباسيين أو ولاتهم فى افريقية .

ولقد كان لموقع دولة الرستميين على هذا النحو أثره فى الاساليب التى اتبعتها الخلافة العباسية لمقاومة الادارسة والقضاء عليهم حيث لجأت الدولة العباسية الى أسلوب الاغتيال لمؤسس دولة الادارسة كذلك فان الدولة الرستمية قد افسحت صدرها لكثير من

العلويين الفارين من العباسيين وقد عاش هؤلاء فى المدن المنتشرة حول تلمسان وبعضم آثر البقاء فى بقاع الدولة الرستمية فعاشوا فى بعض مدنها فى شمال تاهرت على ضفاف نهر شلف كالمدينة الخضراء وسوق ابراهيم ومدينة غطلانى .

وقد كان اكثر هؤلاء العلويين من ابناء محمد بن سليمان العلوى وسليمان هذا كما سبق القول شقيق ادريس بن عبد الله مؤسس دولة الادارسة .

وقد استقر هؤلاء العلويون بهذه المدن بعد انقراض الدولة الرستمية وذلك فى القرن الرابع الهجرى وظلت العلاقات الرستميه الادريسية تسير فى مجالها فى اطار علاقة حسن الجوار التى رسمها الرستميون الا أن شيئا من القطيعة أصاب هذه العلاقات فى عهد الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم وكان ذلك نتيجة لموقف مغراوة وبنى يقرن أمراء تلمسان الخاضعين لنفوز الادارسة فقد سعى هؤلاء فى تأليب واصلية المغرب بالاماكن التى يعيشون فيها فى اراضى الدولة الرستمية والعمل على ضمها للادارسة واستعانوا فى ذلك بواصلية المغرب الاقصى وكما سبق القول تمت مكاتبات بين واصلية المغرب الاوسط فى هذا الشأن .

ويبدوا أن الذى دفع مغراوة وبنى يفرن الى ذلك أن بنى يفرن هالها مقتل يزيد بن قندين زعيم النكار فى الدولة الرستمية والمعروف أن يزيد بن قندين من بنى يقرن وهم فرع من زناتة التى تنتمى اليها معظم واصلية المغرب الأوسط، ولكن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح وتمكن الامام عبد الوهاب من القضاء على ثورة الواصلية بعد حوار فكرى دار بين مفكرى الاباضية وعلماء الواصلية تلته معركة عسكرية انتهت بهزيمة الواصلية وقمع ثورتهم .

علاقة الادارسة والاغالبة وبنى رستم بدولة بنى مدرار فى سلحماسة
(١٤٠-٢٩٦هـ / ٧٥٧-٩٠٨م)

انه اذا سرنا جنوب دولة الادارسة وجدنا دولة سجلماسة تلك الدولة التى قامت فى عام ١٤٠هـ/٧٥٧م جنوب المغرب الاقصى نتيجة ابتعاد هذه المنطقة عن القيروان ، كذلك قامت الى الجنوب الغربى لحدود الدولة الرستمية وكانت بعيدة عن حدود دولة الاغالبة ولم تكن بينهما حدود مباشرة كما كان بين الادارسة وبنى ستم وقد قامت هذه الدولة على أساس التفاف مجموعة من الخوارج الصفرية حول زعيم لهم هو « عيسى بن يزيد الاسود » وهو من موالى العرب ورئيس الخوارج الذين خلعوا طاعة الحكام العرب واستقلوا بمنطقة جنوب المغرب الاقصى وأسسوا مدينة سلجمان فى عام ١٤٠هـ/٧٥٧م وكانت حدودها تشتمل على مناطق سلجماسة ودرعة فحدودها الشمالية تبتدئ جنوب الاطلس الكبير جنوب المغرب الاقصى وتمتد جنوبا الى قلب الصحراء وهى فى جنوب المغرب الاقصى وعاصمتها سجلماسة المدينة التى تسمى حاليا « تافيلالت » ولم يستقر عيسى بن يزيد فى حكم الدولة نتيجة أعمال لم يقرها عليه أتباعه وهلك عام ١٥٠هـ وتولى خلفا له كبيرهم « أبو القاسم سمك ين واسول المكناسى » وكان صاحب ماشية كبيرة ينتجع فيها فى موضع سلجماسة ويتردد عليها فأجتمع قوم من الخوارج الصفرية على أبى القاسم وسكنوا مرابعة هناك فى الخيام وفى عام ١٤٠هـ قدم علية عيسى بن يزيد الاسود وشرعوا فى نباء سلجماسة ولكن هؤلاء الصفرية ما لبثوا أن نقموا على عيسى ابن يزيد أشياء فأخذوه وشدوا وثاقه الى شجرة فى رأس الجبل وتركوه حتى مات وولوا أمراهم بعد ذلك أبا القاسم سمكو بن واسول الذى ظل أمر دولة سلجماسة فى أولادة من بعدة فى حكم الدولة ولم تشر المراجع الى قيام علاقة بين الاغالبة وكذلك بين دولة الادارسة ١٧٢هـ ودولة الاغالبة ١٨٤هـ حتى منتصف القرن الثالث الهجرى ويمكننا

تصور موقف دولة الادارسة من دولة سجلماسة اذا نظرنا الى سياسة كل من الدولتين فدولة سلجماسة مؤسسها عيسى بن يزيد الاسود ومن التف حوله من البربر الصفرية كما أن كثيرا من رؤسائها علماء من الخوارج الصفرية وبعض الاباضية فى حين أن السياسة العامة لدولة الادارسة هى القضاء على الخوارج ومحاربتهم كما فعل ادريس الكبير وابنة ادريس بن ادريس حين قضوا على بدعة الخوارج فى ربوع بلادهم ولم يحاول الادارسة محاربة صفرية دولة سلجماسة بسبب وجود الحواجز الطبيعية التى تمنعهم من اخضاع دولة سلجماسة لنفوذهم .

هذه الظروف الطبيعية متمثلة فى الحاجز الجبلى وهو جبال الاطلس الكبير فى جنوب المغرب الاقصى والتى تفصل بين الدولتين وكذلك قيام حلف ثنائى بين الدولة الرستمية فى شرق دولة الادارسة وبين سلجماسة فى الجنوب ذلك الحلف الذى نشأ نتيجة تقارب بين زعماء كل من الدولتين والتقائها فى الاهداف حيث أن بنى مدرار تولوا الحكم على اساس المذهب الصفرى ومن هنا فان اصحابها ينتمون الى المذهب الخارجى ومثلهم فى ذلك مثل الرستميين، ولذلك التقت أهداف الدولتين معا وتوطدتبينهما أواصر المودة والصداقة وسعت كل من الدولتين الى كسب اخترام الاخرى لها اذ نظر الرستميون الى سلجماسة على انها منفذ هام لهم الى بلاد السودان تنتقل من خلالها الى تجارة الرستميين وقوافلهم التجارية ومن ثم فهى شريان الحياة بالنسبة لبنى رستم كما أن بنى مدرار يشعرون بأهمية الرستميين لهم اذ أن توثيق الصلات بهم وتعميق الروابط معهم يعطى المدراريين الامان الذى يشعرون بالحاجة الية كدولة صغيرة خاصة وان لها جارا قوية هم الادارسة الذين يحاربون أصحاب النحل المتطرفة من أمثال الخوارج فقد قام الادارسة بالقضاء على الخوارج وأهل دولتهم فى المغرب الاقصى .

ولذى حرص بنو مدرار على اقامة ما يشبة الحلف الثنائى بينهم وبين الرستميين وقد

صور هذه العلاقة الحسنة بين الدولتين الدولة الرستمية ودولة سلجماسة الاستاذ محمد على دبوز فى كتابه المغرب الكبير جـ٣ ص٤٤٥ حين قال كانت المعاملات التجارية والعلاقات الثقافية والصلات السياسية على اتمها وأوضحها بين الدولتين دولة بنى مدرار فى السلجماسة والدولة الرستمية فى تاهرت ورغبة فى تقوية الحلف والصلات التى تربط بين الدولتين بنى مدرار وبنى رستم ، قام بينهما علاقة مصاهرة تمكينا لروابط المودة بين الدولتين ومما دعم هذا الحلف وقوى من شأنة التقارب بين زعماء الدولتين والتقاؤهم بين الاهداف وظهرت نتائج هذا التقارب عندما تزوج مدرار بن المنتصر بن السبع الذى تولى حكم دولة سلجماسة عام ٢٠٨هـ/٨٢٣م من أروى بنت عبد الرحمن بن رستم أول ائمة الدولة الرستمية (١).

وقد تحدث الباردنى فى كتابة الازهار الرياضية جـ٢ ص٩٥. عن الاهداف الحقيقية لهذا الزواج فقال وعلى عهده (السبع بن قاسم)الذى تولى الحكم ١٧٤هـ استفحل أمرهم واشتد ملكهم وكان يرى فى نفسه العظمة لكثرة الجند والاتباع وله ابن يعرف بمدرار فلم ير كفوا له للمصاهرة غير الامام عبد الرحمن بن رستم وكانت له أبنة تعرف « يروى »فخطبها السبع وبعد أن أظهر الامام القرة والامتناع مع الحاح الخطيب أجابة الى طلبه وزوجها الى مدرار ابنه ولم يصغ للمنكرين أو المعترضين عليه مؤملا أن يأتى يوم ما على اولادها أن قدر الله يجمعهما وهم فى مذهبهم فيصبح هؤلاء حلفا اليه أو تتوثق علاقة الود بين المملكتين فلا يطرقة منهم طارق بسوء ولا يأتيه من قلبهم ما يكدر راحته أو يجوب له قلقا أو خللا داخليته ويقفان صفا واحدا ضد أى أخطار خارجية وبذلك كان هذا الحلف بين قوتين كبيرتين مانعا لحكام الادارسة من محاولة الغزو والضم لهذه الاجزاء الى دولتهم ومن ثم يمكننا أن نقول أن حسن الجوار كان العلامة السائدة بين دولة الادارسة ودولة سلجماسة لفترة طويلة ولقد كان الحلف الذى يربط بين بنى مدرار

وبنى رستم هو الذى حال دون تفكير الادارسة مهما تكن الصعاب الجغرافية فى اختراق جبال الاطلس الكبير والاتجاه الى غزو دولة سلجماسة ، ولكن وجود الجار الشرقى (بنى رستم) قد حال دون التفكير فى الاستلاء عليها ، وعلى الرغم من أن بنى مدرار كانت تحت حكم الخوارج الصفرية مسلحة بعشرات الالوف من المقاتيلن الذين يتصفون بالشجاعة والاقدام والبسالة كما أن فى سلجماسة من الاباضية أمثال ذلك من الفرسان الاشداء .

بل أن « السبع » يسعى الى هذا الزواج رغبة منه فى كسب حليف قوى يحمية من شر هجوم الادارسة كما أن عبد الرحمن بن رستم سعى الى هذا الزواج رغبة فى كسب تأييد هذا العدد الضخم من الصفرية من مواطنى دولتة ولقد انجبت أروى لمدرار ولدا أسماه « ميمون » وهو الذى لعب دورا هاما فى حياة بنى مدرار فى سلجماسة حتى اختلف الأمر بين ولدية « ميمون بن أروى » بنت عبد الرحمن بن رستم وأبنه الاخر ميمون بن ثقيه من سلجماسة وولى ابن الرستميين ولكن أهل سلجماسة رفضوا ذلك المسلك وأرادوا تقديم ميمون بن تقية فرفض وساعده ابنه فأعادوا مدرار الى الحكم ولكن أهل سلجماسة ما لبثوا أن أحسوا أن مدرار يسعى الى استدعاء ابن الرستمية فلحق طاعة من أهل درعة ليوليه أمر سلجماسة فحاصروا مدرارا وخلعوه وقدموا ابن ثقية وظل عليهم حتى مات عام ٢٦٣هـ (١) .

ولقد كانت العلاقات السياسية قوية ومتينة بين الدولتين الرستمية والمدرارية فى سلجماسة وقد فتح ذلك باب العلاقات الثقافية والتجارية على مصراعيه فنجد المذهب الاباضى يغزو اراضى دولة سلجماسة حتى انه بدأت تظهر كثير من المؤثرات لهذا المذهب بين مواطنى دولة سلجماسة وفى هذا الصدد أشار بعض المؤرخين أن المذهب غزا فكر أئمة وقادة دولة سلجماسة وعلمائها ، بل أن مما وثق هذه العلاقات ودعمها أن كثيرا من رعايا

الدولة الرستمية كانت تعيش فى دولة سلجاسة وتعيش فيها بحرية كاملة ، كما قام بذلك كثير من أهل سلجماسة فأقاموا فى أنحاء الدولة الستمية .

أما العلاقات التجارية فكانت نشطة الى درجة كبيرة بين الدولتين وأن طريق التجارة الرستمية الى بلاد غانا والسنغال يمر شهرين فى صحراء غير عامرة ، وكانت القوافل التجارية الرستمية تغدو ذاهبة لمدينة سلجماسة أو تستقر فيها وتحمل من سلجماسة أنواعاً من التجارات والمنتجات الى الدولة الرستمية ومن هذه المنتجات الزراعية التى تكثر فى سلجماسة مثل الكمون ، الكراويا ، الحنا . كما كانت القوافل تنقل الآرز (الملابس) المصنوعة فى سلجماسة والتى تفوق فى جودتها القصب الذى يصنع فى مصر ويحمل أيضا من سلجماسة ثمار شجر التاكوت الذى يستخدم فى دبغ الجلود فى غدامس ، على أن أهم السلع التى كانت تسعى اليها هذه القوافل هو الذهب الذى كانت تحمله من غانا وتجبى من ورائه ثروه كبيرة مما يدل على أثرة فى ازدهار دولة سلجماسة ودولة الرستميين وقد أشار محمد على دبوز فى كتابه المغرب الكبير جـ٣ص٤٤٥ الى هذه العلاقات القوية بين الرستميين وبنى مدرار فى سلجماسة فقال وكانت المعاملات التجارية بين الدولتين دولة بنى واسول (مدرار) فى سلجماسة والدولة الرستمية فى تاهرت قوية جدا وبينهما من الروابط ما لا ينقصم .

العلاقات مع بلاد السودان
بين الاغالبة وبنى رستم والادارسة

ليس هناك أدنى شك فى أنه كانت هناك علاقات تربط الولايات الاسلامية الثلاث التى قامت فى المغرب الادنى والاوسط وبلاد السودان الواقعة جنوب الصحراء الكبرى وفى ذلك العصر المبكر من الدعوة الاسلامية .

فاذا نظرنا الى العلاقات الرستمية ببلاد السودان نجد انها فى جملتها علاقات تجارية حيث كانت الدولة الرستمية تسيطر على معظم منافذ الطرق المؤيدة الى السودان وقد امتلك الرستميون عددا كبيرا من القواعد الصحراوية التى تقع على طرق التجارة مع السودان وأول هذه القواعد الصحراوية فى الدولة الرستمية كانت قاعدة (ورحلان) والتى ترتبط ببلاد السودان ارتباطا وثيقا والسفر منها الى بلاد السودان كان كثيرا ويقول عنها ابن سعيد المغربى والسفر منها (رجلان) فى الصحراء الى بلاد السودان كثيرا أما القاعدة الثانية فهى غدامس حيث يهبط منه الى الجنوب طريق للتجارة الى بلاد الكانم فى أرض السودان (راجع رسالة الماجستير) عبد الفتاح مقلد الغنيمى . سلطنة البرنو الاسلامية ، زين العابدين السراج ، سلطنة الكانم الاسلامية ، ماجستير .

وكانت أهم المنتجات التى تحملها القوافل الرستمية الى بلاد السودان الاكسية القطنية والكتانية وثياب الصوف والعمائم ، المآزر وأصناف من الزجاج كخرز الزجاج الازرق والاصواف والاحجار الكريمة وأنواع الاقاوية والعطر المأخوذ من عقد خشب الصنبور ، كما تحمل هذه القوافل النحاس الاصفر والملون ومنتجاته من الاساور والخواتم والحلقان وايضا الات الحديد المصنوع والفخار والخزف ذا البريق المعدنى والملح ويعتبر الملح أهم هذه السلع اذ يتعامل به اهل السودان كقطع العملة .

وكن ما يعادل وزن الملح يساوى وزنه ذهبا لشدة حاجة أهل السودان الى هذه المادة.

ويقول ابن بطوطة وبالملح يتعارف السود كما يتعارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعا ويبايعون به ، وكانت هذه القوافل تعود محملة من السودان بالذهب الخام (تراب الذهب التبر ، والذهب أيضا والعاج وريش النعام وجلود الحيوانات وقد تخصص اهل ورجلان فى هذه القوافل التجارية فكان منهم الادلاء ذوو الخبرة بالطرق الصحراوية فى بلاد السودان .

فاشتهر ممالك السودان التى كانت لها علاقة بدولة الرستميين مملكة كوكو التى تقع فى شرق نيل غانا الذى ينبع من بحيرة كوى (تشاد) كما يقول ابن سعيد المغربى .

(راجع رسالة دكتوراه : عبد الفتاح مقلد الغنيمى : السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الاسلامية ١٩٨٣ ، (كتاب المد الإسلامى فى غرب افريقيا ، القاهرة ، ١٩٨٥) نفس المؤلف).

وقد ظهرت معالم هذه العلاقات فى عهد الامام أفلح بن عبد الوهاب الذى أرسل سفاره الى ملك كوكو الذى كانت مملكته تبعد عن تاهرت بمسافة ثلاثة أشهر سيرا تقريبا وقام بهذه السفارة « محمد بن عرفة » (أنظر سابقا) قد اعجب ملك كوكو بهذا السفلير الرستمى الذى جاء الى بلاده يحمل هدايا أفلح بن عبد الوهاب ، ويقول ابن الصغير تعجب ملك السودان مما رآه من هيئته وجماله وفروسيته اذا ركب الخيل فهر يديه (محمد بن عرفة) وقال له ملك السودان كملة بالسودانية وليست تعبيرا بالعربية الا أن معناها أنت حسن الوجة ، حسن الهيئه حسن الافعال . وقد ظهرت أثار الاتصال بين النجار الرستميين وأهالى هذه البلاد واضحة فى سلوكهم وملبسهم وطرق معيشتهم وتجارتهم.

وكان أهل كوكو يلبسون « القدادير » الجبب والاكية وعلى رؤوسهم الكرازى ويجالسونهم ويتبادلون معهم البضائع بطريق المقابضة والتى حمل منه التجار الرستميون هذه الالوان الحضارية الى تلك الانحاء فانهم حملوا معهم رسالة الاسلام الخالدة الى هذه الجهات وكثيرا ما كان يرافق هذه القوافل التجارية عدد من الفقهاء المسلمين الذين خالطوا أهل البلاد وتركوا فيهم آثارا بعيدة المدى وبطبيعة الحال كان الاثر الذى تركه التجار المسلمون فى نفوس الاهالى أكثر بكثير من الذهب الذى يحصلون عليه ، ويعتبر

دور وجهد هؤلاء الفقهاء من الاسس التى قامت عليها دولة مالى الاسلامية التى كانت غالبية سكانها مسلمين لهم مساجدهم وفقهاؤهم . وقد ظهرت بهذه الاماكن بعض المؤثرات الاباضية التى تركها تجار الاباضية تمثلت فى بعض من شاهدهم ابن بطوطة من الاباضية الخوارج فى بلاد السودان فى رحلته المشهورة .

ولقد صاحب انتشار الاسلام ، انتشار اللغة العربية فكان هناك الكثيرون ممن يجيدون الحديث باللغة العربية الى جانب لغتهم المحلية .

وهكذا كما ارتبطت دولة بنى ستم بعلاقات مع بلاد السودان فقد كانت هناك علاقات لبنى الاغب مع تلك الانحاء وكذلك الادارسة فقد تركت العلاقات بين كل من الاغالبة والادارسة وبنى رستم أثرها الواضح فى جميع الميادين فى بلاد السودان الغربى والاوسط اذ أن قيام الممالك الاسلامية التى ظهرت فى تلك الانحاء (كانم ، برنو ، امارات الهوسا ، غانا ، مالى ، سنغاى يعود الفضل فى ظهور هذه البلاد بالمظهر الاسلامى الذى وصلته الى الدور الذى لعبته الولايات الثلاث الاغالبة والادارسة وبنو رستم فى ذلك التاريخ المبكر من الدعوة الاسلامية والتى كان الفضل فيها لانتقال التجارة ولفقهاء ورجال الدين فى هذه العصور المبكرة فى القرنين الثانى والثالث الهجرى دورا كبيرا فى جميع المجالات .

فلا يوجد هناك أدنى شك فى أن الادارسة والاغالبة وبنى ستم وبنى مدرار قد قاموا بدور حضارى لايقل عن دور المرابطين والموحدين وغيرهم من ممالك بلاد المغرب فى بلاد السودان .

علاقات الأدارسة
وبنى رستم والأغالبة بالأمويين فى الندلس

إنه إذا طوينا جانبا صفحات العلاقات السابقة بين هذه الامارات أو الدولة مع البلاد السابق الاشارة اليها فإنه يكون أمامنا دولة بنى أمية فى الاندلس فبالنسبة للادارسة فانه اذا نظرنا من الناحية الجغرافية نجد على الضفة المقابلة من البحر المتوسط لدولة الادارسة تقع دولة بنى أمية فى الاندلس ، تلك الدولة التى لا يفصلها عن دولة الادارسة سوى البحر المتوسط ومضيق هذا البحر الضيق (مضيق جبل طارق) .

وقد أسس هذه الدول الاموية عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان واتخذ قرطبة عاصمة له عام ١٣٨هـ ـ ٧٥٦م . فاذا نظرنا الى الدولتين نجد أن كلا من ادريس بن عبد الله العلوى وعبد الرحمن بن معاوية أقام كل منهما دولة مستقلة تقع فى الطرف الغربى من الدولة المركزية فى بغداد .

ولقد كان العامل المباشر فى قيام هاتين الدولتين هو فرار مؤسسها ناجيا بنفسة من سيف الخلافة العباسية ملتجئا الى هذه الاطراف القاصية باحثا عن وطن جديد يحقق فيه مبادئه وأهدافه وقد استطاع كل منهما أن ينجح فى تحقيق هدفه فى أقامة دولة تتمتع بالاستقلال بعيدا عن سلطة الخلافة العباسية .

الا انه من ناحية أخرى كان هناك العداء التقليدى بين مؤسسين دولة الادارسة العلوى ادريس بن عبد الله الذى ينتمى نسبه الى على بن أبى طالب ومؤسس دولة بنى أمية فى الاندلس الذى ينتمى نسبه إلى بنى أمية . فلا شك أن أدريس بن عبد الله حين فر من وطنه الاصلى فى الحجاز قد ترسبت فى أعماق نفسة تلك الذكريات المؤلمة التى مر بها البيت العلوى سواء أكان فى عهد بنى أمية أم فى عهد بنى العباس وليس من شك

كذلك أن ذريته من بعده من نسل ادريس والذين تولوا الحكم فى دولة الادارسة قد تدارسوا تاريخ كفاح أسرتهم وماواجهوه من تنكيل وتشريد من حكام بنى أمية وبنى العباسى .

وكان لابد أن تترك هذه الذكريات المؤلمة اثرها فى العلاقة بين الدولتين فاتسمت بطابع الحذر والتربص ومساندة كل حركة تنتقص من سيادة الاخرى واستقلالها .

ولقد كانت دولة الادارسة قاعدة لتدبير المؤامرات ضد بنى أمية فى الاندلس فدولة الادارسة هى الملجأ لكل مناوئ للحكم الاموى فى الاندلس يجد فى ظلها الحماية والامن ويتمكن من تنظيم صفوفة والعودة ثانية الى الاندلس لتحقيق أهدافة ويبدو ذلك واضحا حين اعتلى هشام بن عبد الرحمن حكم الاندلس ١٧٢هـ/٧٨٨م وثار عليه اخوه عبد الله سليمان متطلعين للحكم فقضى هشام على هذه الثورة وصالح أخوية على أن يتوجه عبد الله وسليمان الذى قبض مقدارا من المال يقدر بستين ألف دينار من دولة الادارسة .

وقد حل هو وأهله بلاد الادارسة وكذلك أخوه عبد الله ونزلوا مدينة طنجة عام ١٧٤هـ/٧٩٠م حتى اذا سلم ابن هشام زمام الحكم فى الاندلس فى صفر ١٨٠هـ/٧٩٠م تحرك الاخوان سليمان وعبد الله بالثورة مرة ثانية بعد أن أعدوا العدة لذلك فى أرض الادارسة وعبرو الى بلاد الاندلس وهناك دارت معارك بين الحكم وبين عمية سليمان وعبد الله انتهت بمقتل سليمان عام ١٨٤هظ/٨٠٠ وأصدر الحكم عفوا عن عمه عبد الله والواضح انهم لقيا مساندة فى الاقامة وعند العودة من دولة الادارسة وأن الادارسة قدموا معونة وتأييدا وحرية فى الحركة والعمل ضد حكام الاندلس وقد تمثل ذلك فى أن الاخوين (عبد الله وسليمان) قد أعدا نفسيهما للثورة ضد الحكم بن هشام وما يتبع ذلك من بذل للاموال وجمع للاعوان على أرض دولة الادارسة ، هذه الحرية والمساندة لم يجدها الثائرون فى الدولة الرستمية التى تجاور الادارسة حيث كانت العلاقات

طيبة بين بنى أمية والدولة الرستمية .

ولقد كانت دولة الادارسة ملاذا وملجأ للفارين من وجه بنى أمية فى الاندلس ، ونقول انه لما كانت دولة الادارسة ملاذا للاجئين من عسف الحكم الاموى فى الاندلس ، فقد اتصف الحكم بن هشام الذى تولى الحكم فى الاندلس ١٨٠هـ/٧٩٦م بأنه كان طاغية مسرفا وله أعمال قبيحة وسيئة مما جعل كثيرا من العرب يفضلون الحياة فى دولة الادارسة حيث الاستقرار والاطمئنان .

وقد حدث ذلك فى عام ١٨٩هـ/٨٠٤م حيث وفدت على ادريس بن ادريس وفود كثيرة من افريقية والاندلس لتقيم معه وقد عززت هذه الوفود حكم ادريس بن ادريس واتخذ منهم الوزراء والقضاة .

كم ان عهد الحكم بن هشام وقعت فيه معركة الربض عام ٢٠٢هـ/٨١٧م وقد استطاع الحكم بن هشام أن يقضى على هذه الثورة وأن ينكل بالقائمين بها بعد أن هدم الربض وأخحلى أهلها عنها فى خلال ثلاثة أيام فتفرق أهلها فى البلاد الاسلامية وتوجة عدد كبير منهم الى دولة الادارسة حيث نزلوا مدينة فارس وكان يحكمها فى ذلك الوقت ادريس بن ادريس وقد قدر عدد من توجة الى دولة الادارسة بحوالى ثمانية آلاف شريد وهكذا وجد الناقمون على حكم أمراء الاندلس مأوى وملاذا يلجئون اليه اذا ما أصابهم سوء على يد حكامها الادارسة وحكامها الذين رحبوا بهم واغتبطوا بمجىء هؤلاء الاعراب اليهم .

واذا كانت هذه الوفود العربية قد عززت مكانة ادريس بن ادريس فى حكمه واشتركت معه فى ادارة شئون البلاد حيث لم يكن للعرب دور فعال فى عهد ادريس الاول فانها ولاشك قد شجعت على التفكير فى غزو الاندلس والقضاء على حكم بنى أمية فيها .

وقول الكتانى فى كتاب الازهار العطرة استأنف أدريس بن أدريس رضى الله عنهما استفتاح البلاد فضايق ابن الاغلب فى افريقية وسعت همته إلى مضايقة بنى أمية الكائنتين بالاندلس وعول على الاقتحام عليهم فى جزيرتهم فأدركه اجله قبل الشروع فى ذلك وهكذا كان انتهاء اجل أدريس بن أدريس هو ما حال بينه وبين تحقيق امنيته فى غزو بلاد الاندلس .

وقد عقد الأدارسة صلات مع الثائرين على بنى امية فى غزو الاندلس ولقد حاولوا تحقيق هذا الامل وهو القضاء على حكم بنى اميه فى الاندلس ، وفى عهد الإمام العلوى الامير الأدريسى ابراهيم بن القاسم بن أدريس بن أدريس احد حكام دولة الأدارسة والذى تولى حكم مدينة أصيلا تلك المدينة الواقعة على ساحل المحيط الاطلسى خلفا لوالده القاسم أدريس بن دريس وذلك بالاتصال بأحد الثوار وهو « عمر بن حفصون » وقد ثار هذا على الامير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام وخالف على السلطان حتى رضى عنه بالمشاركة فى الحكم واتصلت ايامه حتى بلغت مداها فى عهد من تولى حكم الاندلس عام ٣٢٨هـ / ٨٥٢هـ .

وقد ظهرت فتنة عمر بن حفصون عام ٢٦٧هـ / ٨٨٠م وكان الاعداد للثورة يتضمن طلب المعونة الخارجية من دولة الأدارسة وقد جرت بينه وبين ابراهيم بن القاسم بن أدريس بن أدريس مراسلات ومكاتبات فى شأن هذا الشقاق على الخليفة الاموى بقرطبة .

وهكذا كان ولاة الأدارسة على اتصال بثورة الاندلس عن طريق المكاتبات ينسقون معهم الخطط للقضاء على حكم بنى امية فى الاندلس ويقول ابن الاثير ان الأدارسة نازعوا بنى امية فى امارة الاندلس .

وكما عقد حكام الأدارسة صلات مع الثوار بالاندلس فان بنى امية بدورهم عقدوا

صلات وثيقة مع بعض رعايا الأدارسة وكانت هذه الصلات بينهم وبين قبائل صنهاجة المقيمة فى طنجة احدى مدن دولة الأدارسة وقد اتخذت هذه الصلات الولاء والموده من قبيلة صنهاجة لحكام الاندلس

وقد ظهر ذلك حين ارسل عبد الرحمن بن الحكم الذى تولى حكم الاندلس عام ٢٠٦هـ / ٨٢١م خبر انتصاره على المجوس إلى قبيلة صنهاجة فى مدينة طنجة ، وهكذا اتسمت العلاقات بين دولة الأدارسة وبنى امية فى الاندلس بالحرص والترقب ومحاولة الأدارسة مساندة كل حركة ثائرة ضد الامويين بالاندلس محاولة منهم الانقضاض عليهم والنيل منهم نظرا للعداء القديم بين العلويين ومقتل الإمام على بن ابى طالب وخدعة عمرو بن العاص لابى موسى الاشعرى وتولية معاوية بن ابى سفيان وما حدث من الامويين من قتل الإمام الحسين بن على واسرته فى معركة كربلاء وغيرها من مواقف الامويين ضد العلويين . ولمكن يلاحظ تسامح السلالة النبوية المشرفة فى عدم ايذاء من نكل بهم وشردهم لانهم كانوا يريدون الحكم بما انزل الله فى قرأنه الكريم .

علاقة الرستميين بالأمويين فى الأندلس
(١٣٨ – ٢٩٦ هـ – ٧٥٥ – ٩٠٨ م)

قامت العلاقة بين بنى رستم والدولة الاموية فى الاندلس على اساس التحالف القوى المتين والصداقة المتبادلة على عكس ما كان قائما بين الادارسة والامويين . حيث كان قد اسس دولة الامويين بالاندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان وقد عرف بالداخل لدخوله الاندلس وكان قد فر من بطش العباسيين الذين لم يدخروا وسعا فى تتبع أبناء البيت الاموى وقتل افراده والتنكيل بهم بعد سقوط دولتهم عام ١٣٢هـ واستيلاء العباسيين على مقاليد الخلافة منهم فهرب عبد الرحمن بن معاوية إلى مصر ومعه اثنان من مواليه وهما « بدر وسالم » ومن مصر انتقل الثلاثة إلى افريقية ومن

هناك تقلب فى قبائل البربر حتى استقر على ساحل البحر ومن هناك اخذ فى دراسة الاحوال فى بلاد الاندلس وانسب الاماكن للنزول فيها وكاتب من فى الاندلس من موالى الامويين فاستجابوا إلى دعوته فعبر اليهم فى ربيع الاول عام ١٣٨هـ واستجاب كثير من الناس لدعوته وانضم اليه الكثيرون من بنى أمية الذين قدموا اليه من المشرق ولما اكتملت له الجيوش تحرك بها نحو قرطبة العاصمة وهزم « يوسف الفهرى » الذى انتهى امره بهزيمته وقتله فى غرناطة واستطاع عبد الرحمن الداخل بعد ذلك ان يؤسس دولته ودعم اركانها فظلت قوية مرهوبة الجانب من سائر جيرانها .

وقد بدأت العلاقة بين الامويين متمثلة فى شخص عبد الرحمن بن معاوية الداخل مؤسس الدولة الاموية وبين الرستميين فى مرحلة مبكرة فحين وصل عبد الرحمن بن معاوية إلى افريقية فارا من العباسيين لجأ إلى المغرب الاوسط حيث اقام بين الخوارج الذين حافظوا عليه وأجاروه من الاخطار التى تعرض لها يقول بن سعيد المغربى وآل امره فى سفره (عبد الرحمن بن معاوية) إلى ان استجار ببنى رستم ملوك تاهرت فى « المغرب الاوسط » ولقد كان من الطبيعى ان يتم التآلف بين امراء بنى امية فى قرطبة وبين الائمة الرستميين فى تاهرت وتقوم العلاقة بين الدولتين على اساس من الصداقة والتحالف والمودة، اذ كان الامويون فى الاندلس محط عداء العباسيين ومكائدهم ، كما كان العباسيون ايضا أعداء الاباضية فى تاهرت ، ومما دفع امراء بنى بنى امية إلى توطيد علاقاتهم بالرستميين انه لم ينقذ بلادهم من المخاطر فى بلاد المغرب سوى المغرب الاوسط، لان المغرب الاقصى كانت به دولة الأدارسة العلوية التى كانت علاقاتها بالدولة الاموية فى الاندلس تتسم بالعداء والحذر والتربص .

كذلك قيام دولة الاغالبة فى المغرب الادنى وهى موالية للعباسيين فانها اوصدت جميع المنافذ والسبل فى وجه الامارة الاموية الفتية وأصبحت الدولة الرستمية هى الشريان

الوحيد الذى يستطيع ان يغذى تلك الامارة بالحياة ويتعاون معها سياسيا واقتصاديا وثقافيا وحضاريا ، ففى اطار التعاون السياسى بين الدولتين ارتبطت كل منها بالاخرى ارتباطاً وثيقا وكان زعماء كل من الدولتين يتابع نشاط الاخر باعجاب بالغ واستقبل الرستميين كلا من كبار رجال الاندلس الذين وفدوا إلى تاهرت واستوطنوها وأصبح منهم من عاون الائمه فى شئون الادارة والحكم وقد اشتهر من بينهم اثنان هما «عمران بن مروان الاندلسى» «ومسعود الاندلسى» اللذان كانا ضمن الجماعة التى رشحها عبد الرحمن بن رستم لاختيار واحد منهما لتولى الحكم فى الدولة الرستمية بعد وفاته . وظلت الدولتان كل منهما يسعى إلى كسب صداقة الاخرى وفى عام ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م بعث عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ابناءه الثلاثه فى سفارة رسمية إلى قرطبة عاصمة الامارة الاموية وقد كان يوم وصول هذه السفارة الرستمية إلى قرطبة يوما عظيما مشهودا حيث استقبلهم عبد الرحمن الثانى استقبالا ملكيا رائعا وأنفق عليه مليونا من الدنانير حتى اصبح حديث الناس ومصدر اعجابهم .

وفى عهد افلح عبد الوهاب نمت العلاقات الرستميه الاندلسيه نموا مضطردا وكانت كلتا الدولتين تبلغ الاخرى بأخبار انتصاراتها اولا بأول ويتم تبادل الهدايا فيما بينهما وبهذه المناسبه ، فحين ابتنى الاغلبيه مدينه العباسيه عام ٢٢٧هـ /٨٤١م قرب تاهرت لتهدية عاصمة الرستميين ولكى تؤثر على مركزها الاقتصادى والسياسى قام أفلح بن عبد الوهاب يهدمها واحراقها . وقد بادر باخبار خليفة الامويين عبد الرحمن الاوسط بما تم ، فأرسل اليه عبد الرحمن الثانى (الاوسط) هديه كبيره قدرها المؤرخون بمائه الف دينار وأصبح تبليغ الانتصارات بين الدولتين تقليدا سياسيا يتبادلانه بينهما فحينما انتصر عبد الرحمن الاوسط على المجوس (النورمانديين) فى عام ٢٣٠هـ /٨٤٤م بادر بابلاغ هذا النصر إلى خليفه الرستميين أفلح بن عبد الوهاب .

وقد استعانت الدولة الاموية فى الاندلس بعدد من خبرة القادة الرستميين فى اعمالهم الحربيه فاستعان الامير عبد الرحمن الثانى الاوسط بالقادة الرستميين محمد بن رستم فى القضاء على الثورة التى قام بها « هاشم الغراب » بطليطله عام ٢١٤هـ / ٨٢٩م .

كما استعان الامير عبد الرحمن نفسه بمحمد بن رستم ايضا فى صد الغارات التى دأب المجوس (النورمانديون) على شنها على شواطىء الاندلس وتمكن القائد الرستمى من القضاء على هذا الخطر الذى كان يتهدد المسلمين فى بلاد الاندلس .

كما شهدت بلاد الامويين فى الاندلس عددا من رجالات السياسة الرستمين الذين احتلوا منصب الوزارة والحجابة فى دولتهم فكان منهم الوزراء والحجاب الذين اثبتوا كفاءة لا مثيل لها وفى ذلك يقول ابن القوطية وكان له (عبد الرحمن بن الحكم ٢٠٦هـ –٢٣٣هـ) وزراء لم يكن للخلفاء قبله ولا بعده مثلهم وهم « عبد الكريم بن مغيت الكاتب » ومنهم عيسى بن الشهيد »، « ويوسف بن بخيت » ، « وعبد الله بن اميه بن زيد » ، « وعبد الرحمن ين رستم » وقد تولى عبد الرحمن بن رستم هذا ايضا منصب الحجابه فى عهد عبد الرحمن بن الحكم بهد وفاة ابن غانم الحاجب .

وفى ذلك يقول ابن القوطية ايضا ، ثم مات عبد الرحمن بن غانم فصارت الحجابه لعيسى بن شهيد وعبد الرحمن بن رستم .

ويوجد عند ابن الابار نص يثبت أن «عبد الرحمن بن رستم » الوزير الحاجب فى عهد عبد الرحمن بن الحكم الثانى هو ابن القائد « محمد بن رستم » وانه هو ووالده قد دخلا الاندلس أيام كان عبد الرحمن بن الحكم أميرا من قبل والده الحكم على « شذونه » المدينة ويقول ابن الابار ان محمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم قد دخل ابوه إلى الاندلس وكان محمد هذا بناحيه الجزيره واصطحبه عبد الرحمن بن الحكم

فى امارته على مدينه « شذونه » من قبل ابيه الحكم فكان يأنس فيه فى بعض الاحيان ، ثم آلت اليه الخلافه فاستقدمه وصرفه فى الحجابة والوزارة وهو احد القواد الذين حالوا بين المجوس وبين فتح اشبيلية .

وكان اديبا حكيما ، ويذكر محمد بن تاويت نقلا عن ليفى برفنسال أ عبد الرحمن ابن رستم الوزير والحاجب فى عهد عبد الرحمن الثانى هو الابن البكر لمحمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم .

واذا كانت الدوله الرستميه قد منحت بعض مواطنى الدوله التى تختلف معها سياسيا ومذهبيا حق اللجوء السياسى واعطتهم كل الوان الحمايه فانها لم تكفل مثل هذا الحق للخارجين على الدوله الامويه فى الاندلس ولم تسمح بالقيام بأى نشاط سياسى ضد حلفائهم الامويين فى الاندلس . وفى نفس الوقت منحت الدوله الرستميه حق الاستيطان والاقامه لكل اندلسى وفد اليها للتجارة أو العمل دون الاضرار بالعلاقات الطيبه المتوطدة بين الدولتين .

ويروى بن القوطيه ان عمر بن حفصون الذى قام بثورته ضد محمد ابن عبد الرحمن أمير قرطبة قد فر إلى تاهرت عاصمه الرستميين واختفى بها استعدادا ضد الامويين واشتغل مساعدا لاحد الخياطين الذين وفدوا على تاهرت من مدينه « ربه » بالاندلس ضمن الوافدين من أهل الاندلس رغبة فى متابعة نشاطهم الاقتصادى وازدياد الثراء وذلك بتوافر الحماية لهم من سلطان تاهرت .

ولم تكن العلاقات السياسيه هى كل ما يربط الرستميين بالاماره الامويه فى بلاد الاندلس . بل قامت كذلك علاقات اقتصاديه وتجاريه على نحو فريد بين الدولتين وتتمثل هذه العلاقه التجاريه فى تلك التسهيلات التى منحها الرستميون للتجاره الاندلسيه فقد فتحت امام هؤلاء التجار الطريق إلى سائر بلاد العالم الاسلامى وانقذتهم بذلك من

الحصار الاقتصادى الذى فرضه عليهم الاغلبة الأدارسة وقد قويت هذه العلاقات التجارية فى ظل حاجة الامويين بالاندلس إلى الاسواق الخارجيه لتصرف منتجاتهم التى زادت بسبب التقدم الذى احرزه الامويون بالاندلس فى ميادين الزراعه والصناعه ، كما انهم كانوا فى حاجه إلى الحصول على بعض المواد الخام من البلاد الاسلاميه وقد يسر لهم بنو رستم جميع السبل ففتحوا لهم موانيهم فى تنس ، ومستغانم ، ووهران لاستقبال المنتجات والبضائع الاندلسيه ولا سيما المصنوعات الحريريه وقام الرستميون بدور الوسطاء فى نقل هذه المنتجات وتصريفها فى بلاد السودان ومصر والمشرق الاسلامى (العربى) وحتى اصبحت نواة قوة الاقتصاد الرستمى سندا للامارة الاموية فى عمليات التصدير والاستيراد وتزويدها بكل ما تحتاج اليه من المصادر العالميه وترددت اصداء هذا الازدهار الاقتصادى بين الدولتين فى نشاط الاساطيل التجاريه الاندلسية وازدهار المدن والموانى الرستميه والامويه وبخاصه تاهرت وقرطبة .

وصاحب هذه العلاقات السياسية والاقتصادية علاقات ثقافية وحضارية ضخمة بين بنى رستم والامويين فى الاندلس ، اذ اصبحت الدوله الرستميه الجسر الذى ضمن استقرار التدفق الحضارى من المشرق إلى بلاد الاندلس لذا حرص الامراء الامويون على استغلال هذا الجسر رغبه منهم فى ربط اماراتهم بتيار الحضاره الاسلاميه فى المشرق عن طريق الرستميين وقد نجح امراء بنى امية فى الاندلس فى الحصول على كل ما يحتاجون اليه من كنوز المشرق العربى العلمى ومؤلفاته ومخطوطاته وكذلك علمائه وكانت لدى الرستميين مكتبتهم الضخمه التى عرفت بالمعصومه والتى حوت عددا ضخما من الكتب والمؤلفات فى مختلف العلوم والفنون بالاضافه إلى جهود علماء الدولة المحليين

وبهذا يكون الرستمييون قد قاموا بدور الوسيط الثقافى كما قاموا من قبل بدور الوسيط التجارى فأخذوا من الشرق واعطوا الاندلس فكانت بلادهم ماء الحياه الذى جدد

انطلاق الاسلام إلى غرب اوربا عن طريق الاندلس ونتيجه لهذا الدور الثقافى الذى اضطلع به الرستمييون ظهرت مؤثرات أباضيه فى الاندلس اذ انه من الطبيعى ان تترك هذه العلاقات القويه آثارها فى الشعب الاندلسى ، وان لم يكن لها من القوة ما يظهرها بشكل واضح نتيجه لسيطرة المذاهب السنيه المطلقة على الاندلسيين .

وقد ظهربت هذه الاثار فى مناطق الاحتكاك التجارى بين الرستميين والامويين فى قريه بلقين فى منطقه « المرية » التى كان اهلها على مذهب الخوارج لايترددون ، وكذلك كان احد العلماء المعلمين بقرطبة هو العالم « جابر بن غيث الليلى » يعلم ابناء الوزير هشام بن عبد العزيز وكان هذا العالم المعلم كثير التشدد حتى انه كان فى صرامته يقارب الاباضيه .

كذلك رحل إلى الاندلس كثير من علماء الدولة الرستمية يسمعون من علمائها ويروون عنهم ومن هؤلاء «قاسم بن عبد الرحمن التاهرتى» ، «وبكر بن عبد الرحمن التاهرتى» ، «واحمد بن عبد الرحمن التاهرتى »والذى حظى بمكانه عظيمه عند « منذر بن سعيد» القاضى فسمع منذ تواليفه كلها كما سمع من «أبى وكيم وقاسم بن اصبع» «ووهب بن مسرة» «ومحمد بن معاويه القرشى »وأبى بكر الدنيورى كل هؤلاء العلماء رحلوا إلى الاندلس طلبا للعلم وعادوا إلى بلادهم يساهمون فى نهضتها العلميه والثقافية والحضارية .

وقد اتخذ امراء الاغالبه موقفا معاديا للدوله الامويه فى الاندلس منذ قيام دولتهم ١٨٤هـ / ٨٠٠م فى حين ان دوله بنى اميه تأسست عام ١٣٨ هـ /٧٧٥م بل انهم فرضوا حولها حصارا اقتصاديا وثقافيا وعلميا وكذلك لم تكن هناك علاقات سياسية لان الاغالبه كانوا يسيرون فى فلك الخلافة العباسية المعادية لبنى أميه وبهذا لم تكن هناك علاقات بالمعنى المفهوم كالتى كانت عليه بين بنى رستم والامويين وكذلك بين الأدارسة

نظرا لقرب المسافه ، لكن قد تكون هناك علاقات تجاريه وثقافيه غير مباشره بين الاغالبة والامويين وان كانت ليست بالصورة التى كانت عليها مع بنى ستم .

نظرا لان الاغالبة كان خط سياستهم الواضح هو موقف العداء الثابت من بنى أميه والعمل على تقويض خلافتهم فى الاندلس.

وبهذا ننهى فصل العلاقات الخارجية بين الامارات الثلاثة بنى رستم والأدارسة والاغالبة مع بعضها البعض ومع غيرهما من الدول المعاصرة والتى كانت الظروف السياسية والاقتصاديه والثقافية تلعب دورا هاما فى قيام هذه العلاقات أو عدم قيامها مع العلم بأن العلاقات الثقافيه بصفة خاصة كانت قائمه رغم صراع الحكام والخلافات نظرا لحريه الحركه والنقله ولم تكن هناك حدود سياسيه ثابته بالمعنى المفهوم والواضح والمتعارف عليه فى العصر الحديث ومن هنا كانت العلاقات متصلة ومستديمة .

الخــــــاتمــة

انه من خلال تلك الدراسة التى هى الجزء الثانى من موسوعة المغرب العربى الاسلامى والتى تمثل حكم ثلاث ولايات احداهما فى المغرب الأدنى (الاغالبة) والمغرب الاوسط (بنى رستم) ولمغرب الاقصى (الادارسة) وذلك فى خلال القرنى الثانى والثالث الهجرى ، حيث كانت تلك الامارات هى الامارات المستقلة لتى ظهرت على سطح الاحداث السياسية فى سماء المغرب العربى فى تلك الحقبة التاريخية من التاريخ الاسلامى.

ولقد كانت دولة بنى رستم أولى تلك الدول حيث ظهرت فى المغرب الأوسط ثم تلتها دولة الادارسة العلوية فى المغرب الأقصى فكان على الخلافة العباسية أن تحافظ على

وجودها ونفوذها فى المغرب الادنى حفاظا عليه من خطر الادارسة ، أو بنى ستم لضم هذه الاقاليم إلى دولهم فكان الخليفة هارون الرشيد قد منح هذه الاقاليم لإبراهيم بن الاغلب لكى يتولى ادارته من قبل الخلافه العباسية على ان يكون حكم الاقليم فى عقبة من بعده.

وهكذا كانت تلك الدراسة لهذه الامارات الثلاث انما تستهدف القاء الضوء على تاريخها وعلاقاتها والاعمال التى تمت فى عصر كل منها .

ففى المغرب الاوسط انشأ الرستميون الخوارج الاباضيه دولة مستقلة عن الخلافة العباسية (١٤٤-٢٩٦ هـ/ ٧٧٦-٩٠٩م) واتخذت مدينه تاهرت عاصمة لها ولقد كان سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية من الأسباب القوية لتقوية الشعور بالثورة والخروج على طاعة الخلافة الجديدة التى اتخذت لها عاصمة بعيدة فى العراق هى بغداد . ولقد كان للخوارج دور هام فى تأليب النفوس واثارتهم على الدولة وولاتها وهكذا سادت حالة من عدم الولاء للخلافة .

ولقد رأيت الاراء والافكار الخارجية قبولا لدى المغاربة ومنها المذهب الاباضى وهو الوحيد من بين مذاهب الخوارج الذى قدر له ان يعيش حيث أن الاباضية قريبون فى فهم الشريعه من السنه وعلى اساس المذهب الاباضى قامت دوله كبرى من المغرب هى الدوله الرستمية . وعلى هذا كانت تلك الثورات من الاسباب القوية التى يجب أن نلاحظها فى بلاد المغرب العربى وهى قيام الممالك المحلية المغربيه المستقلة بنى رستم والادارسة والاغالبه ولم تكن هذه الثورات ضد الوجود العربى بالمعنى المفهوم انما لرفع المظالم عن العباد ، بدليل ان الثورة كانت عامة ولم تقتصر على البربر وحدهم انما شارك فيها العرب لاسيما عرب القيروان كذلك فان انتشار مبادىء الخوارج فى المغرب كان تعبيرا عن الميول المغربيه التى الفت الحرية كالقبائل العربيه وقد ادى ذلك إلى ظهور عدة ولايات محلية

يتزعمها زعماء محليين انتشروا فى بلاد المغرب الاوسط والاقصى على الرغم من الحملات العربيه لتى أرسلتها الخلافة .

وكان المغرب الادنى قد تولى امارته فى القيروان عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن نافع الفهرى بعد أن بايعه عليه القوم ورجال الدينوالعلمء الا ان تلك الاماره العربيه لم يكتب لها طول العمر حيث خلعت طاعه الخلافه العباسية ودخل أميرها فى حروب مع اسرته أدت إلى زوال هذه الامارة .

وكان ان شهد المغرب العربى عدة ولاة سوف نشير اليهم فى نهاية هذا البحث وهم الذين تولوا الامارة فترة قيام دولة بنى رستم ودولة الادارسة وقبل ظهور دولة الاغالبه ، حيث ان الدوله العباسية لم نستطع ان تمد نفوزها غربا اكثر من اقليم الزاب حيث هو البعد السياسى للعباسيين غربا واما بقيه المنطقه حتى المحيط الاطلسى فقد كانت تعيش فى فراغ سياسى حيث كانت تنازعها الامارات والقيادات المختلفة .

وهكذا استمرت قبائل البربر تناوئ سلطان الخلافة العباسية حتى عام ١٨١هـ حين ادرك العباسييون ان فوزهم على البربر لا أمل إلى تحقيقة فتراجعوا عن المغرب الاقصى مكتفين باقليم افريقية (تونس) الذى أقاموا فيه دوله سنيه تولى الاغالبه حكمها من قبل الخلافة العباسية .

وانجلى الصراع الطويل بين الخلافة العباسية صاحبة السلطة المركزية وبين البلاد التى نزعت إلى الحكم المستقل إلى قيام ولايات من البربر على يد زعماء من سلالة العرب استقلت استقلالا تاما ومن هذه الولايات ولاية تاهرت التى اسسها عبد الرحمن بن رستم بمساعدة الاباضية وولاية سحلماسة التى اسسها بنو مدرار وتلمسان التى اسسها ابو فروة الصنهاجى وبرغوانة الواقعة على المحيط الاطلسى .

ثم شعد عصر الخليفه العباسى هارون الرشيد ظهور دوله الاغالبه حيث تولى ابراهيم ابن الاغلب عاملا على افريقية وبذلك بدأت تجربه سياسية جديدة فى تاريخ افريقية عن طويق حكم اسرة عربية محلية تابعة للخلافة العباسية.

ومن هنا بدأ المغرب العربى عامة يدخل طورا جديدا فى الدول المستقلة وهكذا انقسم المغرب العربى إلى ثلاث دول هى دولة بنى رستم التى اسسها عبد الرحمن فى تاهرت (١٣٧–٢٩٦هـ) وكذلك دولة الادارسة التى اسسها ادريس بن عبد الله العلوى فى بلاد المغرب الاقصى (١٧٢ – ٢٧٥هـ) وكذلك دولة الاغالبه التى أسسها ابراهيم بن الاغلب فى تونس (١٨٤ – ٢٩٦هـ) وهكذا نجد المغرب العربى خضع لعاملين هما العامل القومى والعامل المذهبى وقد تساند العاملان معا فى استقلال هذا المغرب الاسلامى وبناء شخصيته العربية الاسلامية المغربية المستقلة .

وكانت دولة بنى ستم قد نشأت نظرا لنفوذ الخوارج فى تلك المناطق والتى يعود إلى نهاية القرن الاول الهجرى وساعدت العوامل التى أوضحناها فى صلب هذا البحث إلى ان تقوم دولة كبرى من دول المغرب العربى الاوسط وهكذا نجح الخوارج الذين انهزموا فى قلب الدوله الاسلاميه فى اقامة دولةاباضيه سوف تلعب دورا بالغا فى شئون المغرب الاوسط بل المغرب العربى والعالم الاسلامى .

وكان الإمام عبد الرحمن بن رستم قد اجتمع اليه أنصاره فى تاهرت العاصمة ونادوا به اماما عاما ١٤٤هـ وكان عبد الرحمن هذا من اقرب رجال الاباضية إلى الزعيم أبى الخطاب بن عبد الاعلى والمعافرى والذى كان قد بسط نفوذه على القيروان .

ولقد كانت امارة بنى ستم تحد من الشرق بولاية الاغالبة حكام افريقية كما كان يحدها اماره الادارسة غربا وشمالا تمتد إلى الاكثر بعدا فى الجنوب حيث بلاد السودان والصحراء وكانت مساحة لدوله تتسع ويمتد نفوذها فيصل حكمها شرقا إلى طرابلس

حيث البقيه الاخرى من الخواج الاباضية حول طرابلس وجبل نفوسة وكذالك امتدت إلى تلمسان غربا .

ولقد كان نهج الحكم فى تلك الامارة هو السير على نهج الشريعة الاسلامية الحقه المتمثله فى القرآن الكريم والسنه النبويه المطهرة والسلطة العليا بيد الرئيس الذى هو الإمام الاباضى الاكبر . وكان ائمه هذه الامارة يعيشون عيشه زهد حتى انه لم يكن لدى الامير الاول عبد الرحمن بن رستم سوى وسادة ينام عليها وكان مسلما صالحا كل الصلاح وكان للامام الحق فى أن يختار من بين العلماء والائمه الصالحين من يعينهم فى جميع المناصب العليا وخاصة القضاء وأمناء المال ورؤساء الشرطة وكان القضاة أهم رجال الدولة وكان الائمة يهتمون باختيارهم من بين الذين شهدوا لهم بالنزاهه وحسن السيرة .

وقد اقامت الاماره الرستميه حضارة عربيه اسلامية تمثلت فى العديد من المظاهر الثقافيه والفكرية والعمران والاقتصاد والتجارة .

وقد جاءت فى اقوال ابن الصغير ان الحضارة الاسلامية الرستمية تأثرت بالحضاره الفارسية العربيه التونسيه وانه قامت ادارات تنظيم الشئون المالية والادارية وكان يتولى هذه الادارات رجال الدين من الخوارج الاباضية والفقهاء والصالحون ورجال تعليم المذهب الاباضى .

ولقد ارتفع شأن العلماء الذين احتضنتهم الدولة الرستميه لقيامهم بتفقيه الناس أمور الدين وفق المذهب والفقه والشريعة الاسلاميه الاباضية ولقد قرب امراء الدولة اليهم العلماء واجزلوا لهم فى العطاء وأفسحوا المجالس لهم وأجروا عليهم الارزاق تعميقا للروح الاسلامية .

بل اكثر من ذلك فان ظهور امارة تاهرت بهذه الصورة الحضاريه العمرانيه

والاقتصادية والدور الذى لعبة ال رستم من الولاه الذين تولوا اداره شئون هذه الامارة دافعا قويا للتطور فى جميع المجالات المختلفة ولقد كان القيام ببناء العاصمه تاهرت باعثا للقبائل العربية والبربرية من السكان للقيام بانشاء المبانى والمدن الجديدة وتخطيطها على أسس اسلامية وقد تم تأسيس عدة مدن منها وهران التنس ومستغانم ومدينه غرة وسوق ابراهيم وغيرها من المدن الاخرى .

وقد كانت فتره حكم عبد الرحمن بن رستم من عام ١٤٤ – ١٦٨هـ – ٧٦٠ – ٧٨٤م فتره تدعيم كيان الدولة وقد اوصى قبل موته باختيار ستة من شيوخ المذهب والجماعة وخصهم بأسمائهم وأضاف اليهم ابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ويعتبر عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الوالى الثانى فى الدولة الرستمية وتولى ١٦٨ – ١٨٨هـ – ٧٨٤ – ٨٠٠م وقد حكم عشرين سنة متواصلة خلفا لوالده وكان ملكا فخما وسلطان تاهرت واستطاع القضاء على كل الثورات والفتن التى حدثت فى عهده واجتمع له من أمراء الاباضيه وغيرهم ما لم يجتمع لاباضى قبله ودان له ما لم يدن لغيره من الامراء والائمه .

وبعد وفاة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فان الإمامه قد الت إلى ابنه الاكبر أفلح الذى كان قد استطاع ان يقتل زعيم النكاريه فى عهد ابيه وقد حكم افلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن بهرام بن رستم خمسين عاما بدأت من عام ١٨٨ – ٢٣٨هـ – ٨٠٠ – ٨٤٨هـ . وقد بويع بالإمامة والولايه واخذت البيعه والوصية له فى عهدابيه عبد الوهاب وقد كان صاحب نفوذ قوى لدى رجال الاماره بل كان قائدا للجيش وقد عاشت مدينه تاهرت ايامه اياما هادئه مزدهره وسارت الامور فى دوله الاباضيه فى تاهرت ومن كانوا يؤيدونهم من اباضية فى جبل نفوسة سيرة حسنة والاحوال جميعا كانت على خير ما يرام .

كان مؤسس الاسرة عبد الرحمن بن ستم يتخذ مبدأ المساواه الكاملة والعدل والتسامح الديني وغيرها من التعاليم الاسلاميه التى كانت تطبق فى عهد الرسول ﷺ والخلفاء الرشيدين أسلوب حياة له ومن هنا نجحت تلك الدعوه التى قام بها عبد الرحمن ابن رستم على نحو جاوز كل تقدير حيث كانت تلك المبادىء والاسس هى الركائز الهامة التى اعتمد عليها فى دعوته ومن هنا كانت استجابه سكان المغرب الاوسط لتلك الدعوة وصاروا يلتفون حوله ويرحبون بتعاليمه وافكاره وقد تم اختيار عبد الرحمن بن رستم لفضله وكرمه وكونه من الرعيل الاول الذى نهل العلم وتعاليم المذهب الاباضى من أصوله الاصيله فى بلاد المشرق حيث البصره بالعراق مركز الدعوه الاباضية والفكر الاباضى .

ولقد رحل الكثير من علماء الاباضيه إلى الدوله الجديده فرحل من جنوب الجزيره العربيه (عمان واليمن والعراق ومصر وفارس) للانضمام إلى اخواتهم فى تاهرت ، كذلك فإن أباضيه البصرة بالعراق جمعوا أموالا قدموا من أموال كثيرة خرجت من البصرة إلى تاهرت؛ بل أن أباضية البصرة لم يكتفوا بما قدموا من أموال كثيرة فى هذه المرة بل انهم تابعوا ارسال الاموال مرة اخرى . وقاموا بنسخ العديد من كتب الفقه الاباضى وأرسلوها إلى تاهرت لتحفظ فى مكتبه الائمه التى كانت تسمى مكتبة المعصومه.

ولقد استطاع الامير عبد الرحمن بن رستم ان يحقق حاله من الاستقرار السياسى بين دولته الناشئة وبين سائر القوى الاسلاميه الاخرى فى بلاد المغرب وكان لذلك اثره فى تدعيم أوتاد دوله بنى رستم فاصبحت دولة قويه هابها جيرانها وهاجر اليها كثير من أهل المشرق والمغرب والاندلس كما قصدها العلماء والتجار وفقهاء المذهب الاباضى ورجال الصناعه والحرف وأرباب المهن المختلفه .

ولقد كان ابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم دبلوماسيا وسياسيا من الطراز

الاول اذ انه ما ان أمسك بزمام الامر حتى رأى ان يجدد اتفاقيه الموادعه التى تمت بين والده وبين روح بن حاتم بن قبيصه المهلبى أمير القيروان والتي رغب روح بن حاتم نفسه فى استمرارها .

وقام عبد الوهاب بتأمين الجبهه الداخليه عندما حدثت ثورة النكاريه ثم استطاع القضاء على ثورة الواصلية .

وقد كان القضاء على حركة االواصليه وقبلها ثورة النكاريه يمثلان خطوة هامه من خطوات المحافظه على كيان الدوله الرستميه وحمايه حدودها الغربيه من خطر الأدارسة بعد ان استطاع الإمام عبد الوهاب وقف خطر الادارسة عند تلمسان، وهكذا نجح عبد الوهاب فى القضاء على اهم المشاكل الداخليه وكذلك القضاء على ثورة أباضيه جبل نفوسة جنوب طرابلس وكذلك ايقاف الاغالبه عند حدودهم وعدم الاستسلام لهم وتوقيع صلح مع عبد الله بن الاغلب .

وهكذا نرى كيف نجحت سياسه الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن فى المسالمه وعدم اللجوء للقوة الا عند الضرورة القصوى من الاسباب القويه التى ساعدته على تكوين دوله مترامية الاطراف زادت مساحتها اضعاف ما كانت عليه ايام ابيه عبد الرحمن وهكذا نجح عبد الوهاب فى الوصول بها إلى اوج اتساعها وترك لخلفائه دولة قوية.

وبعد عبد الوهاب تولى عرش الإمامه أفلح بن عبد الوهاب وقد اقسم على ان يسير على نهج الكتاب والسنه وآثار السلف الصالح من انصار المذهب وكان عبد الوهاب قد حرص على ان يعد افلح لكى يتحمل مسئوليه الحكم اذا ما اختير بعده اماما . وقد بالغ أفلح بن عبد الوهاب فى إظهار التواضع اذ رأى ان شخصيته كامام محط أنظار الجميع وقد بذل أفلح قصارى جهده فى القضاء على المتاعب الداخليه .

وقد شهدت تاهرت فى عهده حركه فكريه وثقافيه وحضاريه واسعه كما حفلت البلاد بانواع التجارات التى عادت على البلاد بأرباح وفيرة .

وقد قام بهدم مدينه العباسية التى بناها ابو العباس بن الاغلب وفى عهده تم القبض على ابنه ابى اليقظان وهو يقوم بفريضه الحج فى مكه المكرمه .

وآلت الامور بعده إلى ابنه أبى بكر بن أفلح وقد كان هذا اديبا فقيها غير مهتم بالسياسه واشتغل بالعلم والادب وفى فتره حكمه عاد ابوه اليقظان من بغداد بعد ان تم الافراج عنه . ومن ثم تولى الإمامة بعده ابو اليقظان بن أفلح (٢٤١ – ٢٨١هـ) وانه كان متدينا ورعا ذا تقوى يخاف الله فى كل تصرف وكان حسن السيره والسمعه عند جميع الناس .

وقد استطاع ابو اليقظان بفضل شخصيته القويه ومكانته بين الجميع ان يظل فى حكم الإمامه اربعين عاما متصله وقد كان له العديد من التلاميذ الذين نالوا العلم على يديه ، وتعتبر فترة حكمه فترة استقرار طويلة ولكن الدولة تناقصت قوتها عما كانت عليه فى عهد جده عبد الرحمن بن رستم أو جده عبد الوهاب بن عبد الرحمن ومعنى هذا ان التجربه الاباضيه لم توفق فى تحقيق المثل الاعلى للحكم الذى كانت تتصوره وان كان حكمهم من طراز فريد فى عصره وقد بذل ابو اليقظان جهده لنشر العلم والثقافه والحضاره وتعميق المفاهيم الحضاريه ونشر العلوم الاسلاميه لهيبتها بين بلاد المغرب العربى وفى عهده حدثت غزوه العباس بن أحمد بن طولون لحدود الدوله لشرقيه .

وقد توفى ابو اليقظان عام ٢٨١هـ/٨٩٤م بعد ان عاش اكثر من مائة عام وبوفاته بدأت عوامل الضعف والتفكك تأخذ طريقها إلى الدوله الرستميه حيث اعترتها تلك العوامل التى كانت تنذر بعوامل الانهيار الكامل ومن ثم بدأ نجمها فى الأفول فى سماء المغرب وبدأت الدولة القوية التى أقامها ابن رستم تنحدر إلى طريق الزوال .

وكان ابو حاتم يوسف محمد بن يقظان هو احد ائمه تاهرت الذين قطعوا صلتهم مع الشعب حيث انفردت به عشيرته واخوانه واعمامه وتلك لم تكن عادة السلف من الائمه السابقين وفى عهده حدثت فتنه كبرى لكنه استطاع التغلب عليها وكذلك قضى الاغالبة على قوة نفوذه جنوب طرابلس وهكذا انهارت قبيلة نفوسه التى كانت تشكل عصب الدولة الرستمية وهكذا بعد ان اضطربت الامور فى العاصمه تاهرت ثار عليه بعض اقاربه وقتلوه عام (٢٩٤هـ/٩٠٦م) .

ولقد بويع الامير يقظان بن أبى اليقظان (٢٩٤ – ٢٩٦هـ/٩٠٦ – ٩٠٨م) بعد مقتل اخيه أبى حاتم ونجاح المؤامرة عليه وفى عهدة كانت القوة الشيعيه الصاعده فى بلاد المغرب كقوه دينيه وسياسيه جديدة وقد بدأت تحرشاتها تقترب من حدود الدوله الرستميه الذى كان من الممكن ان تستمر اكثر من ذلك طويلا لولا ان ظروف العصر لم تكن تسمح لقيام دوله لا تعتمد على قوة عسكريه وقد انتهت دولتهم على يد رجال الدعوة الفاطميه التى اجتثت كل دول المغرب القائمه فى عصرها ٢٩٦هـ/٩٠٩م .

وكان الذى قضى على دولة تاهرت أبو عبد الله الشيعى الذى مر فى طريق عودتة من سجلماسة بتاهرت فخر بها وقضى على اخر ائمه بنى رستم وجعل المغرب الاوسط ولايه فاطميه تابعة لافريقية . وكان قد خرج اليه اليقظان ومعه بنوه واخوانه وأتباعه وعلى بعد اميال من تاهرت التقى اليقظان ومن معه بأبى عبد الله الداعى ومن ثم امر بقتلهم فقتلوا عن اخرهم فى شوال ٢٩٦هـ/٩٠٨م ودخل ابو عبد الله الشيعى العاصمه تاهرت فأستباحها ونهبها وقصد إلى المكتبه المعروفه بالمعصومه لكى يتم القضاء على الفكر الاباضى عن طريق احراقها وقام داعيه الشيعه بانهاء الدوله الرستميه رسميا وذلك بتعيين أبى حميد دواس بن صولات اللهيعى وابراهيم ابن محمد الهوارى على تاهرت.

وقد طوى يعقوب بن افلح بقولة لا يستتر الجمل بالغنم ، وهكذا كانت اخر صفحه

من صفحات الدوله الرستميه .

ومن ثم ننتقل إلى الحديث عن ولاية الاغالبه التى قامت فى المغرب الادنى (افريقية – تونس) ١٨٤ – ٨٠٠/٢٩٦ – ٩٠٩م.

وقد كانت اسرة الاغالبه ودولتهم من اهم واشهر هده الدويلات التى قامت فى افريقية وكانت تتمتع باستقلال جزئى عن الخلافه العباسيه لتكون حاجزا بين البلاد التابعه للعباسيين فى شرق تونس وبين بلاد الرستميين والأدارسة ولقد كان على الخلافه العباسيه ضرورة المحافظه على الاجزاء التى يمكن ان تحافظ عليها بأيه صوره من الصور بعد ان اصبح استقلال الاندلس وبنى ستم والأدارسة حقيقه تاريخيه واقعه .

وقد عرض ابراهيم بن الاغلب ان تكون الاماره له على الرشيد فجاءة العهد من الرشيد باماره افريقية وجعلها ارثا فى اعقابه وهكذا تسلم ابراهيم بن الاغلب الولايه عام ١٨٤هـ/٨٠٠م وهكذا استقلت الجهة الشرقيه من المغرب الاوسط واسس دولته التى دعيت باسمه ودامت قويه إلى ان قضى عليها أبو عبد الله الشيعى .

وقد حكم ابراهيم بن الاغلب افريقية فى ظروف عسيرة حيث استطاع بهذه الصفات التى امتاز بها أن يعيد الامن إلى نصابه حيث انقادت اليه البلاد طائعة .

ولقد كان لسياسه الرشيد التى سار عليها الخلفاء العباسيون من بعده فيما يختص ببنى الاغلب وافريقية فان السياسه التى املتها الظروف حيث كان لها اثرها فى بقاء هذه الانحاء تابعه لها من جراء ثورات أهل أفريقية وعجز الجيوش عن قهرها ، كما كانت دولة الأدارسة التى اقامها أدريس العلوى فى المغرب الاقصى والتى وحدت البربر وتطلعت إلى توحيد المغرب الاسلامى كله واقتطاعه عن الخلافه العباسية واقامه خلافه علويه على حساب العباسيين حتى لقد ارسل اهل مصر فى ذلك الامر ، وكان اختيار ابراهيم بن

الاغلب ينطوى على بعد نظر سياسى،ذلك لان ابن الاغلب استطاع ان يوقف طموح الأدارسة وان يعقد معهم اتفاقا . وقد اتخذ ابراهيم مدينه القيروان عاصم لولاية وقد نجح ابراهيم بن الاغلب فى ادارة شئون دولته الافريقيه الممتدة من طرابلس شرقا حتى بجايه غربا وان يبعد منطقة نفوذه عن منطقه الادارسة وبنى رستم وأن يصد هجمات الروم البحريه

وقد اهتم ابراهيم بن الأغلب ببناء قوة عسكرية برية وبحرية وذلك لتوجيه الغارات على بلاد الروم وقد نجح الأغالبة فى بعض الفترات التاريخيه من حكمهم فى ايجاد نوع من التعارن بين الفئات والعناصر التى تقطن امارتهم وقد وضح ذلك فى مدينة القيروان .

وبعد وفاة ابراهيم بن الاغلب عام ١٩٦هـ آل الحكم إلى بنه عبد الله بن ابراهيم وقد حكم خمس سنوات غير ان فترة حكمه القليلة لم تكن كافية للحكم على ما قام به أعمال الا انه عندما تمت البيعه له كان يقوم بحمله فى طرابلس لقتال الهوارة والذى نجح فى كبح جماحهم .

ثم تولى الاماره من بعده زيادة الله الاول بن ابراهيم بن الاغلب وقد حكم (٢٠١ – ٢٢٣هـ) وكان اميرا قادرا وان كان قد ظل معترفا بسلطه الخلافه العباسيه الاسميه دون ان يكون لها ادنى نفوذ ولم يكن هذا الاعتراف فى الواقع سوى لصد تيار الخوارج من بنى رستم والعلويين والادارسه ومن هنا كان الاغالبه وسيله لحفظ استقلال هذا الجزء من ان يقضى عليه العلويون .

وقد تاقت نفس زيادة الله إلى ان يجدد حركه الجهاد الاسلامى ولقد تمكن من اتمام اعمال ابيه ابراهيم وقد كان محبا للعلم والعلماء مشجعا لهم وتجمع المصادر على أنه كان رجلا بعيد النظر فى السياسة وفى عهده قامت الحمله الاغالبيه بقياده أسد بن الفرات بغزوه جزيره صقليه ٢١٢هـ ونشر الاسلام بها وادخالها فى دائرة حكم الاغالبة .

ولقد كان ذلك الامير من أعظم امراء بنى الاغلب . وقد توفى زياده الله عام ٢٢٣هـ وخلفه فى اداره البلاد وحكمها أخوه الاغلب ابو عقال بن ابراهيم وقد حكم هذا ثلاث سنوات فقط وكان حسن السيرة أكثر من اخويه عبد الله وزياده الله وقد كان نافذ البصيره مدركا لعواقب الامور ونجح فيما لم ينجح فيه اخواه من قبل .

وقد استطاع ان يأخذ البيعه لابنه أبى العباس محمد بن الاغلب أبى عقال بن ابراهيم بن الاغلب وقد حكم هذا سته عشر عاما هجريا (٢٢٦ – ٢٤٢هـ) ووقف سدا أمام المطالبين بالعرش من بنى الاغلب وكان رجلا حازما من الطراز الاول وفى عهده فتح المسلمون جزيره مالطه ٢٥٥هـ/٨٦٨م واستقروا فيها .

وقد ولى العالم الفقيه سعيد ين سحنون قضاء القيروان ونشر العدل بين الرعيه . وقد طال حكمه لذا فانه عمل كما عمل أبوه ابو عقال الاغلب اذ استطاع ابو العباس محمد ان يأخذ البيعه لابنه أحمد أبى ابراهيم وكان مولعا بالعمران كثير الاحسان ومن مآثره تحسينه واصلاحه لجامع الزينونه ورغم ان سنوات حكمه لم تزد عن سبع سنوات الا انها كانت حافلة بالاعمال الجليله التى تذكر له .

وعلى الرغم من ان احمد أبا ابراهيم بن الاغلب قد اخذ البيعه لابنه محمد الثانى الا أن ابن اخيه زيادة الله الثانى بن العباسى محمد الاول بن الأغلب ابو عقال (٢٤٩ – ٢٥٠هـ) استطاع ان يستولى على الحكم ولم يزيد حكمه عن عام واحد .

ثم تولى بعده محمد الثانى أبو الغرانيق بن ابراهيم بن أحمد (٢٥٠ – ٢٦١هـ) وقد حكم أحد عشر عاما هجريا وآلت الامور بعده إلى ابراهيم الثانى الصغير بن احمد ابو ابراهيم بن محمد الاول ابو العباس وقد حكم هذا ثمانيه وعشرين عاما (٢٦١ – ٢٨٩هـ) وهو سابع امراء البيت الاغلبى وأطولهم حكما وفى عهده زادت حركة الفتوحات فى صقليه وجنوب ايطاليا وقد انتهت حياته وهو يقاتل مجاهدا ومحاصرا احدى

مدن جنوب ايطاليا وكان يعد نفسه للاستيلاء على مدينه نابولى ثم روما لبناء دولة اسلاميه فى البر الكبير (ايطاليا) ثم الوصول بعد ذلك شرقا للاستيلاء على القسطنطينيه.

وقد اكتملت فى عهده سلسله الاربطه والمحارس على الشواطىء وكانت من الاحداث الجسام التى حدثت فى زمن هذا الامير الاغلبى ان العباس بن احمد بن طولون أمير مصر خرج عام ٢٦٧هـ/٨٨٠م قاصدا بلاد الاغالبه لغزوها .

وفى اخر ايامه جهز جيشا قويا سار به يريد قتال أبن طولون فى مصر فمنعته قبائل نفوسة الاباضيه جنوب طرابلس عن متابعة السير إلى مصر .

ثم آلت امو الدولة من بعده إلى عبد الله الثانى ابو العباس بن احمد ابو ابراهيم محمد الاول ابو العباس ابو عقال بن ابراهيم بن الأغلب وكان هذا الأمير هو العاشر فى سلسلة امراء بنى الأغلب وقد حكم عاما واحدا جلس فيه للمظالم واوصى العمال بأن يرفقوا بالرعايه وفى عهده ظهر ابو عبد الله الشيعى ببلاد كتامه من الزاب الجزائرى وقد قتل هذا الأمير عام ٢٩٠هـ وقد جاء بهذه القيم والمثل العليا متأخرا لان العيوب فى المجتمع كثيره والناس كانوا قد ملوا الظلم .

وقد كان لعبد الله الثانى هذا ولد يدعى زياده الله أمر أبوه بسجنه فتآمر مع غلامين من غلمانه لقتل ابيه فقتلاه ولم تمض على توليته للاماره اكثر من عام واحد . ثم خرج زياده الله الثالث من السجن وتولى حكم البلاد خلفا لابيه .

وهو زياده الله الثالث أبو مضر بن عبد الله الثانى (٢٩٠ – ٢٩٦هـ) وهو اخر امراء بنى الاغلب اذ لفى فتره حكمه قضى الشيعه على حكم الاغالبه حيث خاض جيشه حروبا كثيرة مع ابى عبد الله الشيعى وفى موقعة الارميس قرب الكاف كانت هزيمته الساحقه واضطر زياده الله الثالث ان يفر إلى تونس ثم قصد المشرق ولم يصادف

عونا من الخليفه العباسى ليقاتل العبيديين وأمر الخليفه واليه على مصر بتجهيز زيادة الله ولكن والى مصر ما طل فى ذلك وأنزله الرمله من بلاد فلسطين حيث مات هناك .

وهكذا انتهت دوله الاغالبه بعد ان ادت دورها الذى اضطلعت به فى هذا الطرف العربى من المغرب الادنى حتى نجحت دوله الفاطميين فى تولى مسؤليه القياده فى المغرب

وقد تمت عدة انجازات فى عصر الأغالبة منها الانجاز العسكرى وقد تمثل هذا فى فتح صقليه ومالطه بعد ان قاموا بغارات وحملات مكثفه على صقليه حتى دام فتحها واكماله طول عصر حكم الاغالبه وقد ولوا لاغالبة على جزيرة صقليه حكاما من قبلهم كان جلهم من آل الاغلب بل ان بعض الامراء تنازل عن العرش وخرج مجاهدا فى ارض صقليه وجنوب ايطاليا .

كان فتح مالطة قد تم فى عام ٢٥٥هـ فى امارة ابو الغرانيق محمد بن ابراهيم وبذلك تأكدت سيطره المسلمين الكامله على المضايق الواقعه بين صقليه وافريقية . وهكذا اذى الاغالبه دورهم فى حركه الجهاد الاسلامى بل قاموا بواجبهم نحو العالم الاسلامى ونحو عقيدتهم الاسلاميه بتوسيع رقعه المد الاسلامى فى جزر البحر المتوسط وكان غزو صقليه ومالطه وجنوب ايطاليا عملا من أعمال الاغالبه الخالده فى التاريخ الاسلامى والمغربى .

وقد تطورت الحياة الثقافيه فى عصر الاغالبه حتى انها ظهرت بأنها ثقافه عربيه اسلاميه مغربية ذات شخصيه مستقلة وظهرت مدرسه القيروان وغيرها من المدن الاقليميه ، ذلك لان الاغالبه قد استقبلوا كثيرا من العلماء والفقهاء واكرموهم وأجزلوا لهم العطاء فاشاعوا فى المغرب الادنى روح التقوى والصلاح والزهد وكان معظم القادمين من هؤلاء من مصر .

وقد اطلق على عصر الاغالبه عصر النهضه الثقافيه لانه عصر نهضت فيه العلوم والأدب والفقه وعلوم الشرع وغيرها من فروع الثقافه . ولقد كان من اثر جامع القيروان ان التف فى هذا العصر حول ابناء الاندلس والمغرب وافريقية وطرابلس وبرقه صقلية وغيرها لينهلوا مما يدرس فى هذا المسجد الجامع ويقوموا بقراءة الكتب التى انتجها القرويون انفسهم كتفسير ابن عبد السلام وكتب الطب لابن الجزار وغيرها من التأليف الاخرى .

وقد شهد عصر الاغالبه ظاهرة الثقافه الفقهية ودراسة احكام التشريع الاسلامى والذى كانت له الغلبة على سائر العلوم . ولقد كان لهذا الاتجاه الفقهى النشيط ايام الاغالبة نتائج باهره فى كثرة الفقهاء وفى وفرة التآليف الفقهية وتأثير الفقهاء على المجتمع
غير ان اهم تطور ثقافى شهدته افريقية فى عصر الاغالبه هو انتشار مذهب الإمام مالك من مدرسة القيروان وانتشاره فى القسم الغربى من العالم السلامى .

كذلك كيف اتسعت القيروان وقامت فيها الاسواق والاحياء ونشأ مجتمع قيروانى محلى عماده الفقهاء والقضاه وأهل الزهد والورع ونقر من اهل الثراء . وهكذا كان عصر الاغالبه تجربه جديده فى تاريخ المغرب الادنى ذلك لانه خلال حكمهم تقدمت البلاد تقدما ملموسا وواضحا لم تعهده من قبل . ومن هنا فان ذلك يجعلنا نقول انه اذا كان عصر الاغالبه قد بدأ عام ١٨٤هـ/٨٠٠م والبلاد المغربية تعيش فى فوضى تتقاسمها جماعات الخوارج وغيرهم فقد انتهى عهدهم والبلاد موحدة تحت لواء السنه . وقد شهد عصر الاغالبه تطور الحضاره المغربيه فى اطار دائره العروبه والاسلام . كما ان عهدهم شهد ظهور العديد من الفقهاء والعلماء والائمه الذين تركوا بصمات واضحه وقويه فى الحركه الاسلاميه والفكريه والثقافيه وذلك لما تركوا من تراث فقهى كان له ابعد الاثر فى انتشار المذهب المالكى ورسخوا العقيده الاسلاميه فى قلوب الشعب المغربى الذى حافظ على قيمه الروحيه وتقاليده العربيه الاسلاميه .

ومن هؤلاء الفقهاء والعلماء والائمه اسد بن الفرات ، سحنون بن سعيد ، ومحمد ابن ابو سعيد سحنون وغيرهم من العلماء والفقهاء ورجال الدين والائمه والذين قانت الحركه الفكريه والثقافية والعلميه والتشريعية والقضاء على اكتافهم .

كما ان عصر الاغالبه شهد تقدما ملموسا فى المجال الاقتصادى اذ ازدهرت الحياة الاقتصادية وتقدمت الصناعة وبدأ التطور القتصادى يدب فى جسم الدوله فى عصر الاغالبه ولقد عمل الاغالبه دفعا للدور الاقتصادى وتطورة وازدهاره كما ان كل مدينه من مدن الاغالبه شهدت قيام الاسواق واتساع الاحياء وتطور الحركه التجاريه مع الدول المجاورة وكانت القوافل تصدر منها إلى بلاد السودان ومنها جنوبا عبر الطرق الصحراويه .

وقد اولى الاغالبه جل عنايتهم للناحيه الزراعيه فقد أقاموا كثيرا من الخزانات والقناطر وحفروا الترع فنعمت افريقية بكثير من الرفاهية .

ولقد كان من اسباب هذا التطور الاقتصادى ان الاغالبه نجحوا فى اقامه حكومه مستقرة يسير نظامها الادارى على نحو ما سار نظام بغداد حيث سمحوا لولاتهم بنصيب كبير من حريه التصرف .

كما ان الاغالبه أبدوا اهتماما زائدا بالابنيه والمنشأت المعماريه فقد كان لهم دور كبير فى تطور جامع القيروان وانشاء الاسواق فى القيروان وتونس وغيرها من المدن الكبرى وكذلك تجديد مسجد القيروان وتونس الجامعين وهم مسجد عقبه ومسجد الزيتونة .

وكذلك بنى الاغالبه الاربطه حيث عنوا كل العنايه ببناء الاربطه والمحارس على شواطىء البحر المتوسط لحمايه البلاد ورد عاديه اسطول البيزنطيين عنها وقد ذكر لنا ابن خلدون ان ابا ابراهيم احمد بن ابى العباس بن محمد الاغلبى بنى اكثر من عشرة الاف محرس . حيث يقول عنه وكان مولعا بالعمارة فبنى فى افريقية نحو عشرة الاف حصن

بالحجارة والكلس وأبواب الحديد ، كما ذكر ان محمد بن أحمد المعروف بمحمد الثانى احد امراء الغالبه قد اشتهر ببناء حصون ومحارس كثيرة على الشواطىء التونسية كانت معروفه ايام ابن خلدون حيث يقول وبنى محمد حصونا ومحارس على البحر بالمغرب على مسيرة خمسة عشر يوما من برقة إلى جهة المغرب وهى الان معروفة .

ويقول البكرى عند حديثه عن صفاقس ان رباطات لها رباطات على البحر كما يقول عند حديثه عن مدينه سوسه وخارج مدينة سوسه توجد محارس وروابط ومجامع للصالحين وداخلها محرس عظيم كالمدينه مسور بسور متقن يعرف بمحرس الرابط وهو مأوى للاخيار الصالحين .

ولقد تطورت الرباطات فلم تلبث ان خرجت عن وظيفتها لتصبح مدارس يقصدها الطلاب من اجل الدراسه فى الفقه والحديث وقد عمل الاغالبه على التودد إلى مصر فعملوا على حفر سلسلة من الابار حتى اصبح الطريق الساحلى مأمونا للتجارة .

وكانت عنايه بنى الالب بالمنشأت العسكريه والمدنيه لا تقل عن عايتهم بالمنشأت الدينيه فقد أنشأوا الكثير من الاسوار والابراج للمدن وخاصه ما يقع منها على الساحل ويذكر ان عصر الاغالبه قد شهد بناء دارين عظيمين للصناعه احداهما فى تونس والاخرى فى سوسة وكان لهما دور هام فى النشاط البحرى السلامى فى البحر المتوسط .

وهكذا نرى كيف ان الاغالبه قد تركوا بصماتهم فى كل مجال من مجالات الحياة وضربوا بسهم وافر فى المجال الفكرى والثقافى وكان لهم الدور الاكبر فى رسوخ مذهب الإمام مالك بل انهم شجعوا الحركه الفقهيه وبذلوا اقصى ما وسعهم فى سبيل القضاء على المذاهب الاخرى التى كانت تسود الساحة المغربيه كالاباضيه والصفرية والمعتزلة والواصليه وغيرها من النحل والافكار والمذاهب الاخرى .

وهكذا كانت دوله لاغالبة ومضة مضيئة فى تاريخ المغرب ساهمت كما ساهمت غيرها من الدول المعاصرة لها كالأدارسة وبنى رستم فى اضفاء الصبغه العربيه الاسلاميه فى تلك الاقطار .

وكما تحدثنا عن بنى رستم والاغالبة فان الدور الاخير فى هذه الدراسه عن دوله الأدارسة وهى الدوله التى نشأت على أرض المغرب الاقصى عام ١٧٢ هـ/٧٨٨م والتى لعبت دورا هاما فى حياة المنطقة وجعلت لها شخصية متميزة وأدمجت سكانها فى ظل مجتمع متجانس ذلك المجتمع المغربى الذى شارك بقية المجتمعات العربيه الاسلامية فى وضع اسس الحضارة الاسلامية فى هذا الجزء الغربى من الامه العربية الاسلامية .

ولقد كان المغرب الاقصى حيث موقعه وطبيعته الجغرافيه وسكانه مشجعا للتفكير فى قيام ولايه اسلاميه بعيدة عن مقر الخلافه الاسلاميه ومن هنا فقد كانت الظروف ملائمه ومهيأة لتولى زعامه سياسية ودينيه فى شمال المغرب الاقصى . وقد سبق الافاده من هذا الموقع المتطرف قبل الإمام أدريس مؤسس دولة الادارسة دعاة الخوارج الفارين من بطش الخلافه الامويه والعباسيه

لقد كان المغرب الأقصى اقليم عربيا اسلاميا يتفاعل مع بقية الاقاليم الاسلاميه . وقد صرفت الخلافه العباسية النظر نهائيا عن المغرب الاوسط والاقصى أذ كان حرصها منصرفا إلى محاوله الاحتفاظ بالمغرب الادنى لمحاوله احتوائة تحت سياسة الخلافة العباسية.

ولعل اهم رواسب ثورات الخوارج قيام امارة الإمام أدريس العلوى الذى احترمه حتى خصومه من الاغالبه وبنى رستم والامويين فى الاندلس والخلافه العباسية فى بغداد لقرابتة من رسول الله ﷺ . وقد قامت دولة الادارسة تحت شعار الاسلام والعروبة ولم يكن فى قيامها اى مظهر مقصود أو روح انفصاليه عن الدوله الاسلاميه انما هو أحقية العلويين

بالخلافة عن ابناء عمومتهم بنى العباس وكان ذلك دافع الإمام أدريس وحين وصل العلويون إلى المغرب كان سلطان الخوارج قد بدأ يضعف كما ان المعارضة العلوية للعباسيين نشأت منذ قيام الدولة العباسية ولقد كان التحالف بين العلويين والعباسيين يقويه الشعور المشترك بالكره لعدو متحكم هو الامويين فلما قضى على هذا العدو الذى سلب الحكم والسلطة من آل البيت والهاشميين لم يكن هناك ضروره لاستمرار هذا التحالف وبخاصه ان العلويين لم يكونوا يعتقدون ان العباسيين يعاونونهم لتحقيق اهدافهم وتولى الخلافه .

وكانت معركة فخ التى وقعت فى الحجاز فى مكان بين المدينه المنورة ومكه المكرمه عام ٢٦٩هـ هى المحرك الاساسى لقيام دولة الادارسة اذ فر من المعركة أدريس بن عبد الله ابن الحسن بن على بن أبى طالب إلى المغرب الأقصى والتف حولة الناس وأعلن خروجه على الرشيد عام ١٧٢هـ وعجز الخليفة عن القضاء على ثورتة لبعد المسافه حيث استقبل البربر ليلقى كل عون وتأييد فى تأسيس دولة الادارسة التى كانت أول دولة مستقلة عملت جهدها على نشر الاسلام فى ربوع هذه البلاد .

وكان الإمام أدريس بن عبد الله العلوى هو سابع ابناء عبد الله من امهات ثلاث وكان احد الذين اشتركوا فى معركة فخ ولقد شاءت العناية الالهيه ان يكون أدريس بن عبد الله العلوى هو احد القلائل الذين نجوا من القتل فى مأساة فخ هو مؤسس دولة الأدارسة حيث توجة ومعه مولاه راشد إلى المغرب الاقصى حيث قبائل البربر ولجأ إلى زعيم قبيلة اوربة اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى حيث كانت قبيله اوربة تتزعم مجموعة قبائل ضخمة تمتد من الاطلس الاوسط إلى اقليم سبو وكانت الظروف مشجعة لأدريس حيث بدأ يدعو لنفسة وبدأ يكسب انصارا له وذلك لان شيوخ قبيلة اوربة كانوا على اتم استعداد لتأييد زعيم مقيم له دولة وكانت قرابته لرسول الله ﷺ كافيه لاجتذاب

القلوب اليه خاصة اذ أضفنا إلى تلك ما سمعه الناس عن خبر مأساة فخ التى لا تقل عن مأساة الكربلاء .

وقدمت اليه لعديد من القبائل للبيعة ، بل ان بعض البربر الذين قدموا للبيعة كانوا قد ادوا فريضة الحج وشاهدوا أدريس بن عبد الله بن الحسن العلوى وهو يقاتل جنود العباسيين . وقد اتخذ أدريس لقب الإمام ليكون أول امام للدولة الناشئه التى ظهرت فى المغرب الاقصى والتى تسعى إلى تأكيد سلطانها وبسط نفوذها فى المنطقه والتى يقع على عاتقها توحيد قوى البربر .

وهكذا اصبحت المغرب الأقصى منذ ان تولى الإمام أدريس الاول مقاليد الامارة فيه مغربا مزدهرا تحف به الطمأنينه والسلام وينعم بحضارة الاسلام وعمق الشعور بالعروبه ولقد كان قيام دوله الأدارسة دافعا قويا لتغلغل الروح العربيه فى نفوس البربر . ولقد كانت وليلى العاصمه الاولى للامام أدريس .

وكان إدريس تواقا إلى توسيع نطاق دولته ومد نفوذه السياسى وأطواء القبائل تحت الراية العلوية الهاشمية واستطاع أن يمد نفوذه جنوبًا حتى وصل إلى بلاد السوس الأقصى

ودخلت بلاد شنقيط فى طاعته ثم اتجه بعد ذلك شرقًا حتى دخل مدينة تلمسان لمضايقة ولاة العباسيين بالقيروان والمغرب الأوسط. وقد تطايرت شهرة الإمام إدريس فاستقبلته كل القبائل التى حل عليها بالبشر والترحاب ودخلت فى طاعته وتحت لواء الإسلام الصحيح ولقد كان الهدف من هذه الحملات الثلاث هو نشر الإسلام بين القبائل البربرية والقضاء على الخرافات والشعوذة التى سادت بين هذه القبائل.

وبعد العودة من تلمسان استقر فى عاصمته وليلى وأخذ فى تنظيم شئون دولته وتحديد قوة جيشه استعدادا لمعارك مقبلة لأن الإمام إدريس أصبح فى نظر الخلافة العباسية خطرا يهدد كيانها وذلك حين عزم على غزو أفريقية وكاتب أهل مصر للانضمام إليه. وهكذا كان التفكير فى القضاء عليه واستبعدت كل الأفكار العسكرية واتفق على وسيلة الاغتيال وأختير أحد رجال الشيعة (سليمان بن جرير) الشهير بالشماخ واستطاع قتل الإمام إدريس عن طريق دس السم له وكوفئ على عمله بتعيينه صاحب البريد فى مصر.

ولم يؤثر مقتل إدريس الأول فى سير الأمور فى الدولة الناشئة إذ أن راشد مولى الإمام الراحل قام بدوره فى إدارة الدولة بمساعدة زعماء البربر، وما أن بلغ إدريس الثانى سن الحادية عشرة حتى شرع فى دعوة البربر لمبايعته وفى عام ١٨٦هـ/٨٠٢م يقوم إبراهيم بن الأغلب عن طريق أعوانه من البربر بقتل راشد سر قوة دولة الأدارسة، وفى عام ١٨٨هـ/٨٠٤م أخذ أبو خالد بزيد بن إلياس المهدى البيعة للإمام إدريس الثانى وكانت سنه لم يتجاوز الثالثة عشرة عامًا.

وفى عام ١٨٩هـ وفدت على إدريس وفود العرب من بلاد أفريقية والأندلس وقد استقرت هذه الوفود بالعاصمة وليلى وقد رحب بهم الإمام إدريس الثانى وذلك رغبة منه فى نشر الثقافة العربية الإسلامية فى دولة الأدارسة وقربهم إليه واتخذ منهم أعدادًا كبيرة فى مناصب الدولة وذلك لتطعيم عناصر دولته بالعناصر العربية.

وهكذا .. كانت هذه الوفود كسباً كبيراً للإمام إدريس؛ حيث استقامت له الأمور بمعاونة الإدارة العربية الجديدة وقد أدى ازدحام الوفود فى العاصمة وليلى إلى دفع الإمام إدريس للبحث عن مكان جديد ليكون عاصمة جديدة فكان اختيار مدينة فاس حيث شملت عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين وأنشأ بها المسجد الجامع وانتقل إلى العاصمة الجديدة عام ١٩٦هـ/٨١١م، وقد صارت فاس عاصمة جديدة للإمام إدريس بن إدريس وبدأت تسير بخطى واسعة نحو التقدم والازدهار، وهكذا كانت أوضاع المغرب الأقصى فى ذلك العهد مهيأة للزعامة السياسية والزعامة الثقافية وبدأت مدرسة فاس تتلقى المؤثرات من القيروان والأندلس وكان أئمة الأدارسة أنفسهم يؤيدون هذه الحركة العلمية ولهم الفضل فى نشر الثقافة العربية الإسلامية.

كذلك قام الإمام إدريس الثانى بتوسيع رقعة البلاد وتأكيد سلطة الدولة على الأراضى والقبائل التى تخضع لها وقد بسط نفوذ الدولة على أماكن كثيرة فى الجنوب والغرب وتم له القضاء على المذاهب الخارجية ونشر الإسلام فى المناطق التى لم يدخلها من قبل حتى منطقة الأطلس العليا جنوب مراكش، ومن هنا .. فإنه لا يوجد أدنى شك فى أن نجاح سياسته الداخلية والخارجية كان يعتمد بالدرجة الأولى على تشجيع العنصر العربى الوافد بجانب تأييد البربر له ولاسيما قبيلة اخواله قبيلة أوربة حيث كان هذا التأييد من الأسباب القوية التى شجعته للقيام بحملاته الحربية لتأكيد سلطانه وبسط نفوذه على المناطق التى لم تخضع لسلطان الأدارسة من قبل. كذلك فإن حملاته الحربية كانت استكمالاً للحملات الحربية التى قام بها والده أدريس الأول حتى إذا كان عام ٢١٣هـ/٨٢٩م توفى الإمام إدريس الثانى وكان ابن ثلاثة وثلاثين عاماً وقيل ستة وثلاثين عاماً وهكذا أقام إدريس الثانى صرح الدولة والذى لم يمهله القدر إذ قيل أن زيادة الله بن الأغلب قد دس له السم وهكذا انتهى جيل الأبناء.

ثم آلت الأمور إلى إبنه محمد بن إدريس الذى بايعه البربر وتولى الحكم لكونه أكبر إخواته وقد قام الإمام محمد بتقسيم الدولة إلى ولايات كل ولاية يحكمها أحد إخواته وقد قسم كل البلاد على إخواته التسعه وعمل على بسط سلطان العاصمة فاس على بقية الولايات ومحاربة كل من يخالف أمر الحاكم الأعلى لذا .. فإنه استخدم أسلوب الشدة والصرامة فى معاملة حكام الولايات من إخوته وقد تمكن الإمام محمد بن إدريس من أن يقضى على الفتنه فى مهدها.

لكن تقسيم البلاد بين الأخوة كان بداية بذر بذور الخلاف والتصدع فى جسم الدولة الفتية وكان هذا التقسيم بداية النهاية لدولة كانت تخضع لحكومة مركزية وهكذا فإن الدولة الإدريسية أصابها الإنحلال بعد أن توزع أبناء إدريس الثانى أرث أبيهم، إلا أن ذلك لم يحل دون ازدهار البلاد وتحسن أحوال رعاياها نتيجة للسياسة العادلة التى سار عليها الإمام محمد بن أدريس.

وقد توفى الإمام محمد بن أدريس فى ربيع الآخر عام ٢٢١هـ/٨٣٥م ودفن فى مدينة فاس، وآلت الأمور فى الحكم لإبنه الإمام على بن محمد بن أدريس حيث هو الإمام الرابع وكان أبوه قد أخذ له البيعة حيث كانت قد استقرت الأمور نتيجة ولاء القبائل لهذه الأسرة التى ينتمى نسبها إلى آل البيت العلوى وقد بايعوه غلاماً وقام وزراء أبيه من العرب وغيرهم من رجال البربر بأمره ومؤازرته فى حكمه وقد سار على نفس النهج الذى سار عليه والده وحافظ على كل الأعمال التى قام بها والده من قبل وقد توفى الإمام على الأول بن محمد بن أدريس فى شهر رجب عام أربع وثلاثين ومائتين ٢٣٤هـ/٨٤٨م، وكانت مدة حكمه ثلاثة عشرة عاماً.

ثم كان الإمام الخامس فى أسرة الأدارسة هو الإمام يحيى بن محمد بن ادريس شقيق الامام على الأول . وقد تميز عهد الامام يحيى بن محمد بالاستقرار والرخاء مما

دفع الكثير من الناس الى الهجرة من أفريقية والاندلس الى فاس ويعتبر الامام يحيى بن ادريس اعظمهم قوة واعلاهم قدرا فى أسرة الأدارسة ، وقد امتد حكمه على جميع بلاد المغرب الأقصى . وقد قام بتحديد العاصمة فاس فقصدها الطلاب والتجار والعلماء وأصبحت مركزا لتجارة أوروبا مع بربر الصحراء . وفى عهده تم بناء جامع القرويين حيث امتاز عهده بالرخاء والثراء والهدوء والاستقرار وقد سار الامام يحى بن محمد فى نفس الطريق الذى سار فيه اخوته من حيث الموافقة على تولية أعمامه وأبناء أعمامه وأقاربه الولايات المتعددة للبلاد . وكان انشاء مسجد القرويين من المفاخر الاسلامية التى تمت فى عهد الامام يحيى بن محمد . وقد دامت فترة حكه خمسة عشر عاما حيث توفى عام ٨٦٣/٢٤٩م وقد آلت الامامة لابنه يحيى بن يحيى بن محمد بن ادريس بن ادريس وهو الامام السادس فى قائمه الأئمة الادارسة الذين حكموا البلاد وكانت فترة حكمه قصيرة لم تزد عن ثلاث سنوات ٢٥١هـ حيث فامت ضده ثورة بزعامة عبد الرحمن بن سهيل الخدامى مما جعله يختفى عن الأنظار ويتوفى فى مخبئه .

وبانتهاء حكم الامام يحيى بن يحيى بن محمد انتهى عقب الامام محمد بن ادريس الثانى بعد ان حكم الامام محمد خلفا لابيه ادريس الثانى، وآلت الامامة الى فرع عم بن ادريس شقيق الامام محمد .

وهكذا تولى الامامة على الثانى بن عمر بن ادريس ابن شقيق الامام محمد وجد يحيى لامه الذى تركت العاصمة فرارا من الثورة ولقد كان الإمام الجديد على الثانى بن عمر يحكم منطقة الريف وراثة عن أبيه لكن المقام لم يطل على حكم الامام على الثانى بن عمر بن ادريس الذى أقبل على العاصمة فاس من اقليم الريف اذ لم تنعم البلاد بالهدوء بعد القضاء على ثورة الامام عبد الرحمن بن أبى سهيل البربرى إذ أنه لم يقدر له أن يلعب دورا مؤثرا فى حكم البلاد ذلك لان عبد الرازق الفهرى الخارجى نجح فى أن

يؤلب القوم ضد الادارسة واستطاع أن يهزم جيوش الامام على الثانى بن عمر فى معركة قرب أبواب العاصمة فارس .

وهكذا كانت ثورة الخوارج الصفرية بقيادة عبد الرازق الخارجى دافعا لكى يهرب الامام عمر الى قبيلة أوربة وهكذا أصبحت دولة الادارسة تلقى الضربات تلو الضربات على أيدى الثائرين .

ثم آلت الامور الى لامام يحيى بن القاسم بن ادريس حيث دخل العاصمة بعد أن فر منها على الثانى بن عمر لان عدوة القرويين امتنعت عن مبايعة عبد الرازق الفهرى واستطاع ان يهزمه وان يجبره على الخروج من عدوة الاندلسيين ، ولكن حياة الامام يحيى لم تطل اذ أغتيل على أيدى أعداء الدولة من الخوارج عام اثنين وتسعين ومائتين للهجرة .

وهكذا صار أمر حكام الادارسة الى الضعف والانهيار وصارت دماء الائمة تستباح على أيدى أعداء لدولة . ثم آلت لأمور فى البلاد الى الامام يحيى بن ادريس بن على بن عمر بن ادريس وقد قال عنه ابن خلدون انه تولى عام ٢٩٢ – ٣١٠هـ وحكم ثمانية عشر عاما وكان وأوسع أماء لادارسة سلطانا وأثبتهم ملك وقد حاول اعادة المجد القديم الذى كانت تتمتع به السرة بين القبائل بحيث تكون له القوة والسيادة لان الزمام قد أفلت منه .

وهكذا كانت ايام الامام يحيى بن القاسم هى نهاية عصر القوة والسيادة والسلطان فى دولة الادارسة حيث أن بلاده قد شهدت فى تلك الاونة خضوعها لعبد الله الشيعى داعية الفاطميين وتعتبر فترة حكمه هى نهاية حكم أسرة الادارسة فى فاس أما المحاولات الاخرى التى قام بها بعض أبناء الادارسة أمثال الحسن بن محمد بن القاسم بن ادريس وغيره من آل كنون فى ريف المغرب الاقصى فكلها كانت محاولات لم تستطع أن تعيد

للدولة الادريسية قوتها وعزتها بعد ان تحولت الى بلاد الريف ولم تتمتع هناك بالاستقلال الذى تمتعت به فاس اذ أصبحت دولة الادارسة تحت نظر ونفوذ المتغلب على المغرب من الفاطميين الشيعة أصحاب افريقية أو بنى أميه المروانيين أصحاب الاندلس .

ولد اهتم أئمة الادارسة بتحضر المغرب ورقيه واقامة حضارة عربية اسلامية آخذة بمبدأ العقيدة الاسلاميه السمحة ولقد كان رقى فكر أمرائها وحبهم للحضارة الاسلاميه ومبادئها الساميه ورقى أسلوبها جعلهم يقبلون على التشييد والتأسيس والعمران فأسسوا مدينة فاس وغيرها من المدن الكبرى وأسسوا جامع القرويين وجامع تلمسان وشجعوا الحركة العلمية والفكرية وأعانوا القوم على الازدهار الاقتصادى بفضل حكمهم طبقا للشريعة الاسلامية واقامة العدل .

وكان حكمهم يمتد فى بلاد المغرب من السوس الاقصى الى وهران وكانت حاضرتهم فاس التى بلغت حدا كبيرا من العمران وأصبحت مركزا من مراكز الثقافة الاسلامية وقد اسهم الادارسة فى خدمة العالم الاسلامى فى البقعة التى حكموها ويعتبرون بحق الممهدين لظهور البربر فى المجال الاسلامى بحيث كان ظهور الادارسة وحكمهم للمغرب حكما قوميا مقدمة لظهور المرابطين والذين كان ظهورهم يمثل حركة قومية عظيمة جذبت عددا كبيرا من قبائل البربر نحو الاندماج فى الامة الإسلامية الكبيرة.

وهكذا كان للادارسة العلويين دور فعال فى نشر العروبة والاسلام لذا لم يكد ينتهى القن الثالث الهجرى حتى صار البربر يزاحمون العرب فى دراسة لغة الضاد بتونس والقيروان والتلمسان وأصبح علماء البربر يناظرون فقهاء العرب وعلى هذا فان دولة الادارسة تعتبر الخطوة الاولى منذ الفتح الاسلامى التى تقوم فى بناء الكيان السياسى والاجتماعى للمغرب الاقصى العربى المسلم كأول دولة اسلامية ولقد سبق القول أن خير

دليل على قيام المغرب الاقصى المسلم هو قيام العاصمة فاس وجامعها العظيم الشهير القرويين الذى لعب دورا فعالا فى صبغ العروبة والاسلام على أرض المغرب الاقصى وكما تركت أثرها فى المجال الاجتماعى اذ قامت الدولة الادريسية بتوحيد البلاد تحت لواء أمرائها العلويين واقرار السلام فى ربوعه بعد أن كادت فتن الخوارج تفرق شمله ومن هنا ظهر جهد الادارسة فى توحيد المنطقة سياسيا واجتماعيا مما جعل السكان يعيشون فى مجتمع يتفاعل أعضاؤه كالخلية الحية يقوم بدوره الحضارى كغيره من المجتمعات الاسلاميه وهكذا انتشر الاسلام وتوطدت أركانه عن طريق بسط الادارسة لنفوذهم السياسى على مناطق الجنوب .

ولقد سارت دولة الادارسة فى أحكامها وشرائعها وتشريعاتها ونظمها القضائيه والاقتصادية وكل أحوال الدولة وفقا لمذهب الامام مالك بن أنس أحد مذاهب أهل السنة والجماعة الاربعة وعلى هذا فان انتشار مذهب الامام مالك بهذة الصورة الواسعة والسريعة فى دولة الادارسة وبقية بلاد المغرب والاندلس انما يمثل صورة هامة من صور وحدة الفكر التى عمت المنطقة وقد تجاذبت أرجاء مدارس فارس والقيروان وقرطبة دراسات وآراء تدل على الوحدة الثقافية التى سادت المنطقة كما كان تشجيع الادارسة وتأييدهم للثقافة العربية الاثر الواضح فى انتشار اللغة العربية التى دونت بها الدراسات والتى كانت لغه تخاطب المهاجرين من افريقية والاندلس وقد صاحب ذلك انتشار اللغة العربية التى هى لغة القرأن الكريم والسنة النبوية ووعاء الثقافة الاسلامية وقد نجح الادارسة فى ذلك الهدف الدينى وذلك بعد ان وحدوا البلاد تحت حكمهم وشجعوا الثقافة العربية والاسلامية وتلك كانت صورة المجتمع فى المغرب الاقصى فى عهد الادارسة من النواحى الفكرية والثقافية والعلمية .

ولقد كانت محصلة تلك الدراسات هى دور العلاقات الثقافية والاقتصادية والسياسية

بين هذة الامارات الثلاث باعتبار انها مستقلة أو شبه مستقلة عن الخلافة العباسية وانها ظهرت على مسرح الاحداث السياسية فى المغرب العربى (الأدنى والأوسط والأقصى) فى فترات زمنية متقاربة ودورها فى العلاقات مع بقية بلدان العالم الاسلامى فالادارسة وبنو رستم فى حكمهم كانوا مستقلين استقلالا تماما عن الخلافة العباسية بينما الاغالبة كانوا يخضعون اسميا للدولة العباسية .

وقد تحدثت كتب الاباضية عن قيام نوع من العلاقات التجارية بين العباسيين فى بغداد وبين تاهرت عاصمة بنى رستم وذلك فى عصر الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وربما كانت تتم بصورة سرية ،على ان الهدوء الذى ساد العلاقات بين الرستميين والعباسيين فى عهد عبد الرحمن بن رستم وخليفتة عبد الوهاب عاد وتحرك ثانية نحو التوتر عندما أخفق فرج النفوسى المعروف نفاث بن نصير فى حركته ضد الامام عبد الوهاب وهرب قاصدا بغداد حيث رحب به الخليفة العباسى المأمون ولم تلبث العلاقات الرستمية العباسية أن بلغت قمة العداء وذك عندما قبض العباسيون فى عهد الخليفة الواثق العباسى على الامير محمد بن أفلح (أبو اليقظان) الذى كان يقوم بأداء فريضة الحج ونقلوه الى بغداد حيث سجن هناك ، لكن حسنت العلاقات بين أبى اليقظان بن أفلح والخليفة العباسى المتوكل على الله حيث أثرت الصداقة بينهما فى تحسن العلاقات بين بغداد وتاهرت .

كذلك وجد علاقات ثقافية بين العباسيين وبنى رستم فلقد انتقل بعض العلماء من تاهرت الى البصرة فى العراق بل أن بعضا منهم استطاع أن يثبت وجوده فى بلاط العباسيين فاتصل ببلاط الخليفه المعتصم بالله ورجالها هذا من ناحية بنى رستم أما من ناحية الادارسة فقد كان طابع العلاقة بين الادارسة والعباسيين هو طابع العداء الصرف فقد نجح العباسيون بمساعدة ابراهيم بن الاغلب فى القضاء على ادريس الاول عن طريق

دس السم له ، ثم ادريس الثانى الذى دس له السم زيادة بن الاغلب .

وكذلك اغتيال راشد مولاى الامام ادريس الأول والعامل المحرك فى تأسيس دولة الادارسة .

لكن سياسة الاغتيالات لم تنجح فى القضاء على دولة الادارسة ومن ثم اتخذ ابن الاغلب طريقا آخر لعله يحقق آماله فاستخدم سلاح الاغراء والاستمالة واستطاع اغتيال راشد عن طريق بعض البربر .

وكانت قد تمت هدنة بين الاغالبة والادارسة لكن ابن الاغلب ما أن فرغ من القضاء على الفتن الداخلية حتى نقض سياسة المهادنة ورجع الى تدبير المؤامرات ضد دولة الادارسة ، بالأضافة الى انه استخدم أسلوب التشكيك فى نسب الامام ادريس الثانى وصلته بالعلويين وعلى بن أبى طالب .

وهكذا اتسمت العلاقات بين الادارسة والغالبة بطابع الاغتيالات والمساومات والتشكيك فى الأنساب كما استخدم الاغالبة قوة دولة الادارسة فى تهديدات الدولة العباسية فى بغداد لخلع الولاء لهم والانضمام الى لواء دولة الادارسة فى المغرب الاقصى ورقة رابحة يستخدمها الاغالبة فى تدعيم مركزهم وبيان أهميتهم أمام الدولة العباسية .

كذلك كانت هناك علاقات بين بنى رستم ومصر رغم تبعيتها للخلافة العباسية لان مصر كانت المنفذ لهم الى شرق العالم الاسلامى ومن هنا حرص الرستميون الى أن تكون علاقات حسن جوار طيبه مع مصر ، لقد وجدت علاقات ثقافية قوية بين مصر والرستميين لان عددا كبيرا من الرستميين كانوا على المذهب الاباضى بل أن هناك بعض العلماء المصريين قدموا الى تاهرت .

لكن العلاقات بين مصر وبنى ستم شهدت بعض التوتر فى عهد الطولونيين بسبب

الحمله التى قام بها العباس بن احمد بن طولون ضد بنى رستم والاغالبة .

ومن ناحية الاغالبة وبنى رستم فقد قرر الرستميون اتباع سياسة التعايش السلمى معهم وهى الجارة القوية على حدودهم الشرقية والشمالية قد دفع ذلك بعض المؤرخين الى القول بأن علاقات الرستميين بالاغالبة لم تتخذ طابعا عدائيا وكانت الحدود المشتركة بين الدولتين من الاسباب القوية لاتخاذ بنى رستم لهذه السياسة اذ أن حدود بنى رستم تطوق حدود دولة الاغالبة الممتدة من تاهرت غربا الى طرابلس شرقا وكذلك من الشرق والغرب والجنوب تطوق دولة الاغالبة .

لقد اضطر الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الى الاصطدام مع الاغالبة دفاعا عن حدود دولتة ومواطنيه .

كذلك فانه فى اطار مبدأ التعايش السلمى نهض كل من الرستميين والاغالبة للوقوف فى وجه العباس بن أحمد بن طولون عندما هدد حدود الدولة الرستمية الاغلبية عام ٢٦٥ هـ/٨٧٨م ولم يكن اشتراكهما معا فى مواجهة اطماع العباس تحالف أو تعاون مشترك تم بينهما بل نتيجة لما أحاط بالجانبين من خطر فى وقت واحد .

ورغم ان الاغالبة حرصوا كل الحرص على مقاطعة الرستميين تجاريا وثقافيا وسياسيا الا أن هناك ما يشير الى وجود شىء قليل من هذه العلاقات التى كانت تتم بصورة غير رسمية .

وكذلك كانت العلاقات بين بنى رستم والادارسة تتسم بالطابع الودى الطيب فى معظم الاحوال الا انه حدثت بينهما بعض القطيعة نتيجة محاولات بعض اتباع دولة الادارسة من أمراء تلمسان ضم أجزاء من دولة بنى رستم الى دولة الادارسة . ولقد كان وضع الدولة الرستمية يشكل حاجزا ومانعا أمام الخلافة العباسية لمقاومة الادارسة والقضاء

عليهم حيث أن أية قوات لابد أن تمر عبر أراضى الدولة الرستمية المعادية لهم وكان هذا مستحيلا .

كذلك ارتبطت دولة بنى رستم بعلاقات صداقة ومودة ومصاهرة وفكر وعقائد مع دولة بنى مدرار فى سلجماسة حيث كان بها بعض علماء الاباضية وكذلك وجد بعض الصفريه بدولة بنى رستم لقد كانت هناك علاقات تجارية واقتصادية وثقافية ولم تكن هناك علاقات بالمرة بين الاغالبة وبنى مدرار فى حين اننا نجد بعضا من هذه العلاقات التجارية والاقتصادية بين الادارسة وبنى مدرار .

كذلك ارتبطت الادارسة ولاغالبة وبنى رستم بعلاقات قوية مع بلاد السودان حيث كان وصول ادريس الاول وابنه ادريس الى جبال درن فى اقصى اقليم السوس دافعا لوجود علاقات ثقافية ودينية وفكرية وتجارية وثقافية حيث بدأ الاسلام ينتشر فى بلاد السودان . وكذلك كان للرستميين والاغالبة علاقاتهم التجارية والاقتصادية وطرق التجارة المتصلة الدائمة مع بلاد السودان وكانت القوافل تتجه من دولة الاغالبة والادارسة الى بلاد السودان حاملة منتجات تلك الاقطار وعائدة بما انتجه اقليم السودان وقد تم الاشارة الى ذلك فى صلب هذا البحث .

وبالنسبة للعلاقات فقد ارسل الامام أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم سفارة يرأسها محمد بن عرفه الى ملك كوكو ولقد كان وصول العلماء والفقهاء الى تلك الاقطار صحبة قوافل التجارة من الاسباب القوية التى دعمت نفوذ الاسلام ووطدت أركانه .

ولقد تركت علاقة الاغالبة والادارسة وبنى رستم أثرها الواضح فى جميع الميادين فى بلاد السودان الغربى والأوسط .

ونهاية تلك الخاتمة من هذا البحث يكون دور العلاقات بين الادارسة وبنى ستم والاغالبة الدولة الاموية فى الاندلس ونقول أن العلاقات بين الادارسة والامويين كان طابعها العداء القديم وكذلك الاغالبة وبنى أمية حيث كان الاغالبة يسيرون فى فلك السياسية العباسية التى تناصب هذه الدولة العداء السافر .

ولقد كانت دولة الادارسة قاعدة لتدبير المؤامرات ضد بنى أمية فى الاندلس بل كانت دولة الادارسة هى الملاذ لكل من يثور فى وجه الدولة الاموية فى الاندلس وقد عقد الادارسة صلات وثيقة مع بعض رعايا الادارسة .

وقامت العلاقات بين بنى رستم والأمويين فى الاندلس على اساس التحالف القوى المتين والصداقة المتبادلة على عكس ما كان قائما بين الدارسة والاغالبة . ولقد كانت كلتا الدولتين تبلغ الاخرى بأخبار انتصاراتها وتم تبادل الهدايا والقواد والسفارات الرسمية فقد استعانتالدولة الاموية فى الأندلس بعدد من خيرة القادة الرستميين فى أعمالها الحربية واستعان بنو رستم بالعديد من رجال بنى أمية فى الاندلس فى أدارة شئون البلاد وقد قام الرستميون بدور الوسيط الثقافى والتجارى بين الامويين فى الاندلس وبلاد الشرق الاسلامى .

وعلى هذا فان تلك الامارات الثلاث بنى رستم والادارسة والاغالبة قد أدوا دورهم على أحسن وجه فى المغرب العربى الاسلامى (الادنى – الاوسط – الاقصى) وعملوا ما فى وسعهم العمل من أجل بث روح العروبة ونشر لواء الاسلام فى تلك البقاع فكانت اعمالهم هى الاسس القوية التى قامت عليها الدول التى احتلت المكانة السياسية فى المغرب العربى بعد ذلك وسوف نتحدث عن تلك الدولة فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة وهى عن الخلافة الفاطمية فى المغرب قبل الانتقال الى مصر ودولة المرابطين والموحدين فى المغرب . ثم يكون الجزء الرابع بأذن الله عن دولة بنى حفص وبنى زيان

وبنى مرين وهذه الدول الثلاث كانت فى المغرب الادنى والاوسط والاقصى كما كانت امارات الاغالبة وبنى رستم والادارسة . ويكون الجزء السادس بنى وطاس والسعيين وظهور الاشراف العلويين.

* * * *

ولاة أفريقية (تونس) الذين عاصروا دولة

الأدارســـــة

١ – أبو حاتم روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلبى	١٧١هـ – ٧٨٧م
٢ – مضر بن حبيب المهلبى	١٧٤هـ – ٧٩١م
٣ – الفضل بن روح بن حاتم	١٧٧هـ – ٧٩٣م
٤ – هرثمة بن أعين	١٧٩هـ – ٧٩٥م
٥ – محمد بن مقاتل بن حكيم العكى	١٨٠هـ – ٧٩٦م
٦ – تمام بن تميم التميمى	١٨٣هـ – ٧٩٩م
٧ – محمد بن مقاتل «للمرة الثانية»	١٨٤هـ – ٨٠٠م

حكام الأغالبة

١ – إبراهيم بن الأغلب	١٨٤هـ – ٨٠٠م
٢ – عبد الله الأول بن إبراهيم	١٩٦هـ – ٨١١م
٣ – زيادة الله الأول بن إبراهيم	٢٠١هـ – ٨١٦م
٤ – أبو عقال الأغلب	٢٢٣هـ – ٨٣٧م
٥ – أبو العباس محمد الأول	٢٦٠هـ – ٨٤٠م
٦ – أبو إبراهيم محمد	٢٤٢هـ – ٨٥٦م
٧ – زيادة الله الثانى	٢٤٩هـ – ٨٦٣م
٨ – أبو عبد الله (أبو الغرانيق محمد الثانى)	٢٥٠هـ – ٨٦٤م
٩ – إبراهيم الثانى	٢٦١هـ – ٨٧٥م
١٠ – عبد الله الثانى	٢٨٩هـ – ٩٠٢م
١١ – زيادة الله الثالث	٢٩٠هـ – ٩٠٣م

أئمـــة أدارســـة

١ – ادريس الأول بن عبد الله بن الحسن	١٧٢هـ – ٧٨٨م
٢ – ادريس الثانى بن ادريس الأول	١٧٧هـ – ٨٩٢م
٣ – محمد بن ادريس الثانى المنتصر	٢١٣هـ – ٨٢٨م
٤ – على الأول بن محمد	٢٢١هـ – ٨٣٦م
٥ – يحيى الأول بن محمد	٢٣٤هـ – ٨٤٨م
٦ – يحيى الثانى بن يحيى الأول	
٧ – على الثانى بن عمر بن ادريس الثانى	
٨ – يحيى الثالث بن القاسم بن ادريس الثانى	
٩ – يحيى الرابع بن ادريس بن عمر بن ادريس الثانى	٢٩٢هـ – ٩٠٤م

أئمـــة بنى رستم (تاهـرت)

١ – عبد الرحمن بن رستم	١٦٠–١٧١هـ / ٧٧٦–٧٨٧م
٢ – عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم	١٧١–٢١١هـ / ٧٨٧–٨٢٦م
٣ – أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم	٢١١–٢٤٠هـ / ٨٥٤–٨٥٥م
٤ – أبو بكر بن أفلح بن عبد الوهاب	٢٤٠–٢٤١هـ / ٨٥٤–٨٥٥م

٥ – أبو اليقظان بن أفلح بن عبد الوهاب	٢٤١-٢٨١هـ / ٨٥٥-٨٩٤م
٦ – أبو حاتم يوسف بن محمد	٢٨١-٢٩٤هـ / ٨٩٤-٩٠٦م
٧ – اليقظان بن أبى اليقظان بن أفلح بن عبد الوهاب	٢٩٤-٢٩٦هـ / ٩٠٦-٩٠٨م

الخلفاء العباسيون

١ – المنصور أبو جعفر	١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٣-٧٧٤م
٢ – المهدى	١٥٨-١٦٩هـ / ٧٧٤-٧٨٥م
٣ – الهادى	١٦٩-١٧٠هـ / ٧٨٥-٧٨٦م
٤ – هارون الرشيد	١٧٠-١٩٣هـ / ٧٨٦-٨٠٩م
٥ – الأمين	١٩٣-١٩٨هـ / ٨٠٩-٨١٣م
٦ – المأمون	١٩٨-٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٣م
٧ – المعتصم	٢١٨-٢٢٧هـ / ٨٣٢-٨٤٢م
٨ – الواثق	٢٢٧-٢٣٢هـ / ٨٤٢-٨٤٧م
٩ – المتوكل	٢٣٢-٢٤٧هـ / ٨٤٧-٨٦١م
١٠ – المنتصر	٢٤٧-٢٤٨هـ / ٨٦١-٨٦١م
١١ – المستعين	٢٤٨-٢٥١هـ / ٨٦١-٨٦٥م
١٢ – المعتز	٢٥١-٢٥٥هـ / ٨٦٥-٨٦٨م
١٣ – المهدى	٢٥٥-٢٥٦هـ / ٨٦٨-٨٦٨م

١٤ – المعتمد	٢٥٦-٢٧٩هـ / ٨٦٩-٨٩٢م
١٥ – المعتضد	٢٧٩-٢٨٩هـ / ٨٩٢-٩٠١م
١٦ – المكتفى	٢٨٩-٢٩٥هـ / ٩٠١-٩٠٧م
١٧ – المقتدر	٢٩٥هـ / ٩٠٧م

ولاة بنى أمية بالأندلس

١ – عبد الرحمن بن معاوية الداخل	١٣٨هـ – ٧٥٥م
٢ – هشام بن عبد الرحمن بن معاوية	١٧٢هـ – ٧٨٨م
٣ – الحكم بن هشام بن عبد الرحمن	١٨٠هـ – ٧٩٦م
٤ – عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية	٢٠٦هـ – ٨٢١م
٥ – محمد بن عبد الرحمن بن الحكم	٢٧٣هـ – ٨٨٦م
٦ – المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم	٢٧٣هـ – ٨٨٦م
٧ – عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم	٢٧٥-٣٠٠هـ / ٨٨٨-٩١٢م

أئمة بنى مدرار (سجلماسة)

١ – أبو القاسم سمغون	١٥٥هـ – ٧٧١م
٢ – أبو الوزير الياس بن أبى القاسم	١٦٧هـ – ٧٨٣م
٣ – أبو منصور اليسع الأول	١٧٤هـ – ٧٩٠م
٤ – مدرار المنتصر	٢٠٨هـ – ٨٢٣م
٥ – عبد الرحمن ميمون (الملقب بابن أروى الرستمية)	٢٥٣هـ – ٨٦٧م
٦ – ميمون الأمير الملقب بابن ثقية	٢٥٣هـ – ٨٦٧م
٧ – محمد بن ميمون	٢٦٤هـ – ٨٧٦م
٨ – اليسع الثانى المنتصر	٢٧٠هـ – ٨٨٣م

المصادر والمراجع

١ – المخطوطات :

١ – السيوطى، أبو بكر بن محمد : مخطوط فى نسب بعض الصحابة والإشراف الأدريسيين وغيرهم من ملوك لمتونة والموحدين، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٠٢٤.

٢ – الإدريسى : حسن بن حسن بن معتوق البيلاوى : الدر النفيس فى نسب أهل بيلا وطرق من أخبار إدريس بن عبد الله، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢١٤٢.

٣ – الورجلانى : أبو زكريا يحيى بن أبى بكر : السيرة وأخبار الأئمة فى انتشار مذهب الأباضية فى المغرب مخطوط مصور بالميكروفيلم، معهد المخطوطات جامعة الدول العربية رقم ١٧٣٦ تاريخ.

٢ – المصادر :

١ – ابن الآبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، الحلة السيراء، نشرة حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣م.

٢ – ابن الأثير : أبو الحسن على بن محمد الجزرى، ٦٣٠هـ/١٢٣٣م، الكامل فى التاريخ، القاهرة، ١٣٠٣هـ.

٣ – الأدريسى : أبو عبد الله محمد الشريف الحسن : ٥٤٨هـ/١١٥٤م، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، عن نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ليدن، ١٨٦٦م.

٤ – ابن بطوطة : محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى : ٧٧٩هـ/١٣٣٧م، تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، باريس، ١٩٢٢م.

٥ – البكرى : عبد الله بن عبد العزيز المرسى : ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب، الجزائر، ١٩٢١م.

٦ – البلاذرى : فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٥٩م.

٧ – ابن تغرى بردى أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى تاريخ مصر والقاهرة، القاهرة، ١٩٥٦م.

٨ – ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن على البغدادى النصيبى، ٣٨٠هـ/٩٩٠م، صورة الأرض، بيروت، د.ت.

٩ – ابن خرداذبة : المسالك والممالك، ليدن، ١٨٩٩.

١٠ – ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط، الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية نشرة أحمد مختار العبادى وإبراهيم الكتانى، الدار البيضاء، ١٩٦٤م.

١١ – ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، ٨٠٨هـ/١٤٠٥م، العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، القاهرة، ١٢٨٤ هجرية.

١٢ – الجزنائى : أبو الحسن على : زهرة الأسى فى بناء مدينة فاس، الجزائر، ١٩٢٣م.

١٣ – الدباغ : عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى، معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان، تونس، ١٣٢٠هـ.

١٤ – ابن أبى دينار : محمد بن أبى القاسم العينى القيروانى : المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس، تونس، ١٢٨٦م.

١٥ – ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، ١٩٣٦م.

١٦ – ابن الصغير المالكى : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت، تحقيق مونتسكى، باريس، ١٩٠٧م.

١٧ – ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب، فى أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، ١٩٦٧م.

١٨ – السلاوى أحمد ناصر : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، الدار البيضاء، ١٩٥٤م.

١٩ – الشهرستانى : أبو الفتح محمد بن أبى القاسم، ٥٤٨هـ/١١٥٣م، الملل والنحل، القاهرة، ١٩٤٨م.

٢٠ – الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، ١٣٥٧هـ.

٢١ – الطرابلسى : أحمد الأنصارى الطرابلسى : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب، طرابلس، د.ت.

٢٢ – ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الله : فتوح مصر وأخبارها، القاهرة، ١٩٦١م.

٢٣ – ابن القوطية القرطبى : تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، ١٩٥٧م.

٢٤ – القيروانى، الزفيق : تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق المنجى العكبى، تونس، د.ت.

٢٥ – ابن القاضى : أحمد بن محمد بن أحمد : جدوة الاقتباس فيمن حل من الإعلام مدينة فاس، معهد فاس، د.ت.

٢٦ – المالكى : أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله المالكى : رياض النفوس ، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦١م.

٢٧ – ابن العربى، أبو بكر ٥٤٣هـ/١١٤٨م : العواصم من القواصم، نشر محيى الدين الخطيب، القاهرة، ١٣٨٧هـ.

٢٨ – مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الأسكندرية، ١٩٥٨م.

٢٩ – المقرى : أحمد بن محمد المقرى التلمسانى : نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨م.

٣٠ – البارونى : أبى الربيع سليمان : مختصر تاريخ الأباضية، تونس، د.ت.

٣١ – المسعودى، محمد الباجى : الخلاصة النقية فى أمراء أفريقية، تونس، ١٣٢٣هـ.

٣٢ – الكتانى : محمد بن جعفر : سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس.

٣٣ – النويرى : شهاب الدين أحمد : نهاية الأرب فى فنون الأدب، القاهرة، ١٩٣٥م.

٣٤ – ياقوت الحموى : معجم البلدان فى معرفة المدن والقرى، القاهرة، ١٢٣٣هـ.

٣٥ – أبو الفرج : مقاتل الطالبيين تحقيق أحمد صقر، القاهرة، ١٩٥٨م.

٣ – المراجع :

٣٦ – إبراهيم أحمد العدوى : الأمويون والبيزنطيون، القاهرة، ١٩٥٦م.

٣٧ – إبراهيم أحمد العدوى : بلاد الجزائر، القاهرة، ١٩٧٥م.

٣٨ – أحد توفيق المدنى : المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، الجزائر، ١٣٦٥م.

٣٩ – إحسان عباس : العرب فى صقلية، القاهرة، ١٩٥٩م.

٤٠ – إحسان عباس : تاريخ ليبيا منذ الفتح العربى حتى مطلع القرن التاسع الهجرى، بيروت، ١٩٦٧م.

٤١ – إحسان حقى : الجزائر العربية، بيروت، ١٩٦١م.

٤٢ – أحمد توفيق المدنى : الجزائر، الجزائر، ١٣٥٠هـ.

٤٣ – أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩م.

٤٤ – إحسان حقى : تونس العربية، بيروت، د.ت.

٤٥ – حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية، القاهرة، ١٩٥٧م.

٤٦ – حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين، القاهرة، ١٩٦١م.

٤٧ – حسن أحمد محمود : الحضارة الإسلامية فى المغرب والأندلس، القاهرة، ١٩٦٦م.

٤٨ – حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف : العالم الإسلامى فى العصر العباسى، القاهرة، ١٩٥٩م.

٤٩ – إبراهيم جلال : المعز لدين الله الفاطمى، القاهرة ١٩٦٣م.

٥٠ – حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى، القاهرة، ١٩٦٤م.

٥١ – حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية، القاهرة، ١٩٨٤م.

٥٢ – حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، ١٩٨٠م.

٥٣ – حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، القاهرة، ١٩٤٧م.

٥٤ – حسين مؤنس : فجر الأندلس، القاهرة، ١٩٥٩.

٥٥ – حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية، تونس، ١٩٧٢م.

٥٦ – رفعت فوزى عبد المطلب : الخلافة والخوارج فى المغرب العربى، القاهرة، ١٩٧٣م.

٥٧ – سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى، القاهرة، ١٩٦٥م.

٥٨ – سيدة إسماعيل كاشف : أحمد بن طولون، القاهرة، ١٩٦٤م.

٥٩ – السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير، العصر الإسلامى، القاهرة، ١٩٦٦م.

٦٠ – صلاح العقاد : المغرب فى بداية العصور الحديثة، القاهرة، ١٩٦٢م.

٦١ – صلاح العقاد : المغرب العربى، القاهرة، ١٩٥٦م.

٦٢ – عبد الرحمن بن محمد الجيلالى : تاريخ الجزائر العام، بيروت، ١٩٦٥م.

٦٣ – على محمد حمود : تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى، القاهرة، ١٩٥٧م.

٦٤ – على يحيى معمر : الأباضية فى موكب التاريخ، القاهرة، ١٩٦٤م.

٦٥ – محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٠م.

٦٦ – عبد العزيز عبد الله : معطيات الحضارة العربية، الرباط، د.ت.

٦٧ – عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادى فى المغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٨٣م.

٦٨ – رابح بونار : المغرب العربى تاريخه وثقافته، الجزائر، ١٩٦٨م.

٦٩ – عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب، الرباط، ١٩٧٠م.

٧٠ – عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية، طرابلس الغرب، ١٩٨٠م.

٧١ – السيد عبد العزيز سالم : أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس، بيروت، ١٩٦٩م.

٧٢ – زاهر رياض : شمال أفريقية فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٨١م.

٧٣ – إبراهيم بيضون : الدولة العربية فى أسبانيا حتى سقوط الخلافة، بيروت، ١٩٨٠م.

٧٤ – عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر : القاهرة، ١٩٦٧م.

٧٥ – على حسنى الخربوطلى : الإسلام فى حوض البحر المتوسط، بيروت، ١٩٧٠م.

٧٦ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والمسلمون فى جزر البحر المتوسط، مكتبة نهضة الشرق.

٧٧ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والثقافة العربية فى أوربا، القاهرة، ١٩٧٩م.

٧٨ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والعروبة فى السودان، القاهرة، ١٩٨٥.

٧٩ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : حركة المد الإسلامى فى غرب أفريقية، القاهرة، ١٩٨٥م.

٨٠ – عبد الرحمن على حجى : التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة، القاهرة، ١٩٨٣م.

٨١ – محمد حلمى محمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى، القاهرة، ١٩٧٢م.

٨٢ – محمد حلمى أحمد : الخلافة والدولة فى العصر الأموى، القاهرة، ١٩٦٦م.

٨٣ – محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح إلى نهاية مملكة غرناطة، القاهرة، ١٩٣٣م.

٨٤ – شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، القاهرة، ١٩٤٣م.

٨٥ – محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغالبة وسياستهم الخارجية، القاهرة، ١٩٧٢م.

٨٦ – محمود إسماعيل عبد الرازق : الحركات السرية فى الإسلام، بيروت، ١٩٧٣م.

٨٧ – عبد القادر الصحراوى : جولات فى تاريخ المغرب، الدار البيضاء، ١٩٦١م.

٨٨ – عبد الله خبون : مدخل إلى تاريخ المغرب، الدار البيضاء، ١٩٧٣م.

٨٩ – مبارك بن محمد الهلالى الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث، الجزائر، ١٩٥٨م.

٩٠ – محمد ياسين الحموى : تاريخ الأسطول العربى، دمشق، ١٩٤٥م.

٩١ – يحيى بو عزيز : الموجز فى تاريخ الجزائر ، الجزائر ١٩٦٥م.

٩٢ – محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، القاهرة، ١٩٦٣.

٩٣ – القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الأنشا، القاهرة، ١٩١٨م.

٩٤ – المقريزى : البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب، القاهرة، ١٩٦١م.

٩٥ – أحمد بن على : عمدة الطالب فى أنساب على بن أبى طالب.

٩٦ – الجهيشانى : كتاب الوزراء والكتاب، القاهرة، ١٩٣٨م.

٩٧ – محمد يوسف مقلد : موريتانيا الحديثة، بيروت، ١٩٦٠م.

٩٨ – الحميدى : جذوة المقبس فى ذكر ولاية الأندلس.

٩٩ – عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب، الرباط، ١٩٧٠م.

١٠٠ – الحبيب الجنحانى : القيروان عبر عصور ازدهار الحضار الإسلامية فى المغرب العربى، تونس، ١٩٦٨م.

١٠١ – ابن سعيد المغربى فى حلى المغرب : تحقيق شوقى ضيف، القاهرة، ١٩٥٥م.

١٠٢ – المراكشى : عبد الواحد : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، القاهرة، ١٩٤٩م.

٤ – الكتب المعـربة – المترجمة :

١٠٣ – أرشياليد ، لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠م.

١٠٤ – امارى، ميخائيل : المكتبة العربية الصقلية، ليبل، ١٨٨٧م.

١٠٥ – ربنهرت، دوزى : تاريخ مسلمى أسبانيا، ترجمة حسن حبشى، القاهرة، ١٩٦٣م.

١٠٦ – فلهوزان ، يوليوس : تاريخ الدولة العربية، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريوه، القاهرة، د.ت.

١٠٧ – ليفى بروفسال : الشرق الإسلامى والحضارة العربية : تطوان ١٩٥٩م.

١٠٨ – فلهوزن، يوليوس : الخوارج والشيعة، ترجمة عبد الرحمن بدوى، القاهرة، ١٩٥٨م.

١٠٩ – بروفسال، ليفى : الإسلام فى المغرب والأندلس، ترجمة عبد العزيز السيد سالم، القاهرة، ١٩٥٦.

١١٠ – برنارد لويس : العرب والمسلمون فى أفريقية، ترجمة عبد الواحد، القاهرة، ١٩٦٠م.

١١١ – ستودارد لوثروب : حاضر العالم الإسلامى، ترجمة شكيب أرسلان، القاهرة، د.ت.

١١٢ – مورنيو، مارنيوماريو : المسلمون فى صقلية، بيروت، ١٩٥٧م.

٥ – الدوريـــات :

١١٣ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والثقافة العربية فى جزيرة صقلية، رابطة العالم الإسلامى، أكتوبر ١٩٧٥م.

١١٤ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والثقافة العربية فى جزيرة مالطة، مجلة رابطة العالم الإسلامى، أكتوبر، ١٩٧٦م.

١١٥ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والمسلمون فى موريتانيا، مجلة التضامن الإسلامى، ١٩٨٤م.

١١٦ – محمد سلامة يوسف رحمه : حياة المرابطين فى المعاقل والحصون مجلة التضامن الإسلامى، ١٩٨٥م.

١١٧ – أمين الخولى : المدينة العربية فى صقلية، مقال، مجلة المقتطف، ١٩٢٣م.

١١٨ – مارينو أومبرتو : أخبار عن بعض مسلمى صقلية، مقال مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٥٥م.

١١٩ – محمد بن تاويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٥٧م.

١٢٠ – حسين مؤنس : ثورات البربر فى أفريقية والأندلس، مجلة كلية لآداب، جامعة فؤاد الأول، مايو ١٩٤٨م.

١٢١ – محمود مكى : الخوارج فى الأندلس : تطوان مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية، ١٩٥٦م.

١٢٢ – أبو العرب، محمد بن أحمد بن تميم التميمى : طبقات علماء أفريقية، الجزائر، ١٩٢٠م.

١٢٣ – المقدسى : أبو عبد الله محمد بن أحمد : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦م.

١٢٤ – ياقوت الحموى : أبو عبد الله : معجم البلدان، القاهرة، دون تاريخ.

١٢٥ – الحميرى : عبد المنعم : الروض المعطار فى خبر الإفطار، تحقيق ليفى بروفسال ، القاهرة، ١٩٣٣م.

٦ – الرسائل الجامعية :

١٢٦ – عبد الحميد محمود الشرقاوى : الملاحة البحرية الأندلسية فى القرنين الثالث والرابع الهجرى، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٣٥م.

١٢٧ – حسن على حسن : دولة الأدارسة بالمغرب، قيامها وتطورها فى منتصف القرن الثالث الهجرى، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٦٧م.

١٢٨ – محمد عيسى صابر سليم : الدولة الرستمية بالمغرب، قيامها وتطورها، رسالة

ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٧٥م.

١٣٠ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الإسلامية، رسالة دكتوراه، ١٩٨٣م.

١٣١ – إحسان محمد السعيد عبد الله : الدولة الرستمية فى تاهرت، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٨٦م.

١٣٢ – حسين سيد عبد الله مراد : دولة بنى مدرار فى سجلماسة بالمغرب الأقصى، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٨٦م.

١٣٣ – الدرديرى حسن إسماعيل البيلى : الربط فى بلاد المغرب، رسالة ماجستير، آداب القاهرة، القاهرة، ١٩٧٨م.

١٣٤ – البارونى، (سليمان النفوسى)، الأزهار الرياضية فى أئمة ملوك الأباضية.

المراجع الأجنبية :

1 - Diehl, Ch. : L'Afrique Byzantine, Paris, 1896.

2 - Fournel, H. La Conque par les Arabes, Paris, 1929.

3 - Gautier, E.F. : La Passe de l'Afrique du Nord, Paris, 1964.

4 - Julavien, A. : Histoire de l'Afrique de Nord, Paris, 1968.

5 - Mercier, F. : Histoire d'Afrique Septentrionale, Paris, 1880.

6 - Marcais, M. : L'Afrique du Nord, Paris, 1958.

7 - Hopkins, J. : Medieval Muslum Government in Barerbery, Paris, 1962.

8 - Caille, J. : La Ville de Rabat, Paris, 1979.

9 - Goivin, L. : Le Magreb Central à l'époque des Zirides, Paris, 1957.

10 - Julien, André : Histoire de l'Afrique du Nord de la Conquête Arabe, Paris, 1952.

11 - Terrasse, H. : Histoire du Maroc, des origines, 1946.

12 - Warmington, B.H. : The North African Province.s From Diocktian to the Vanadal conquest, Cambridge, 1954.

13 - Massignon, L. : Le Maroc dans les Premières Années du XVI Siècles, Alger, 1906.

14 - Lozy, R. : Histoire des Musulmanes d'Espagne, Leyde, 1861.

15 - Gautier, E.F. : Islamisation de l'Afrique du Nord, Paris, 1927.

16 - Goitien, S.D. : Studies in Islamic History and Institutions, Lieden, 1958.

17 - Marcais, G. : Les Arabes en Berberie du XI au XIV Siècle, Paris, 1913.

18 - Marcais, G. : La Beberle Musulmane et l'Orient au Moyen Age, Paris, 1947.

19 - Newman, B. : Moroco to day, London, 1923.

20 - Gaudel, A.: Les Premières Invasions des Arabes dans l'Afrique du Nord, Paris, 1900.

21 - Fournel, B.: Etude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes, Paris, 1881.

22 - Maslatire, P. : Relations et commerce de l'Afrique septentrionale, au Maghreb avec les nations chrétiens au Moyen Age, Paris, 1886.

23 - Walt, W. : The influence of Islam on Medieval Europe, Edinburgh, 1972.

24 - Hare, A.: Cities of Southern Italy and Sicily, London, 1893.

25 - Holt, P.M. and others, : The Cambridge History of Islam, Cambridge, 1970.

26 - Encyclopaedia of Islam.





هذه الدراسة عن المغرب العربي نقدمها للقارىء العربي والمسلم ولكل الذين يهتمون بالتاريخ الإسلامي تتناول حقبة تاريخية على امتداد ١٤٠٠ سنة وصل فيها المد الإسلامي أبعاداً واسعة حتى يمكن القول أن الإسلام استطاع أن يكون قارة إسلامية شملت أجزاء متجاورة من آسيا وأفريقيا وأوروبا·
وعلى هذا تكون هذه الدراسة عن جزء عزيز من عالمنا العربي والإسلامي والذي لعب دوراً في إثراء الحركة العربية الإسلامية حتى وقع على تلك الكتلة من القارة الإسلامية دور كبير في نشر الإسلام والعروبة في أرجاء واسعة من القارة الإفريقية لا سيما تلك الأقاليم التي تقع إلى الجنوب من المغرب العربي وكذلك في أوروبا حيث الأندلس وما جاورها من أقاليم·

مكتبة مدبولي
MADBOULI BOOKSHOP
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت: ٧٥٦٤٢١
6 Talat Harb SQ. Tel.: 756421